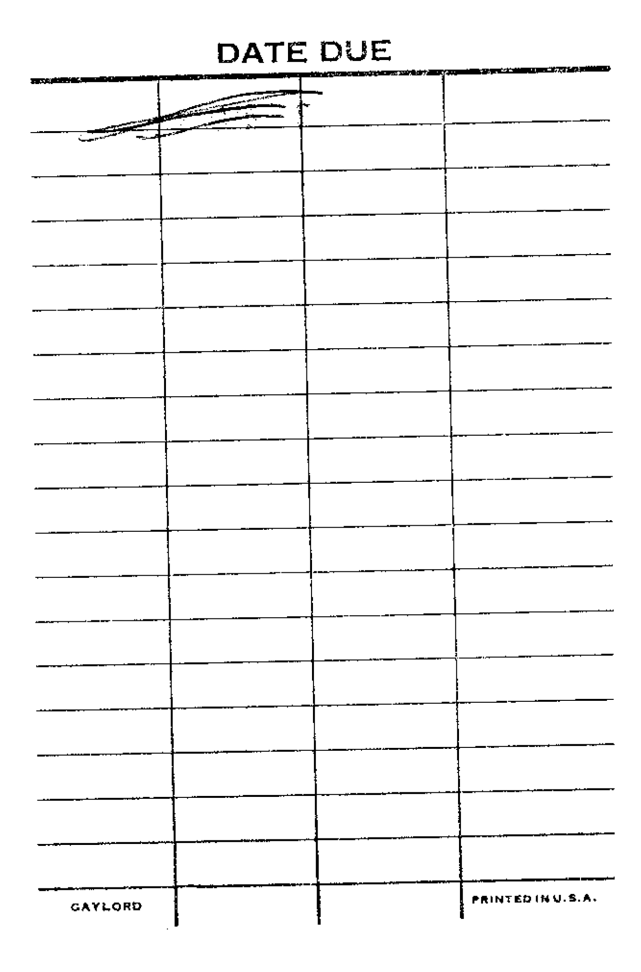
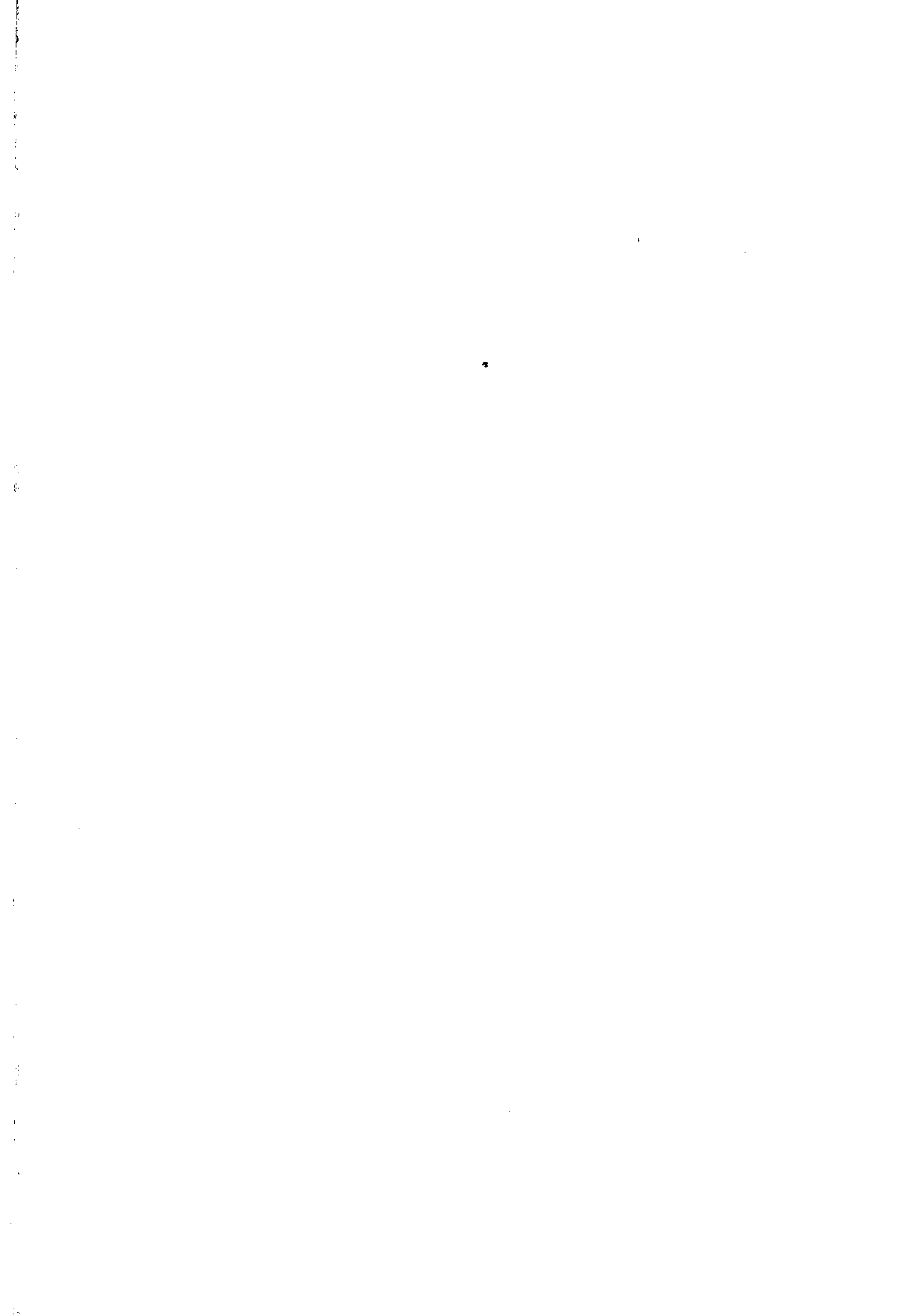
تفسير
الكشاف
عن حقائق غوامض التنزيل
وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم: للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان


CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 092 311 079


DATE DUE
GAYLORD
PRINTED IN U.S.A.





الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم : للإمام جادالله محمود بن عمر الزمخشري
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ

وبذيله أربعة كتب :

الاول : الانتصاف : للإمام احمد بن المنير الاسكندري.
الثاني: الكافي الشاف في تخريج احاديث الكشاف: للحافظ ابن حجر العسقلاني.
الثالث : حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف.
الرابع : مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور.

الجزء الثاني

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

مكية [إلا الآيات ٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ فمدنية]

وعن ابن عباس : غير ست آيات ، وآياتها ١٦٥ [نزلت بعد الحجر]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)

(جعل) يتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كقوله ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير ، كقوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) والفرق بين الخلق والجعل : أن الخلق فيه معنى التقدير [1] وفي الجعل معنى التضمين ، كانشاء شيء من شيء ، أو تصيير شيء شيئا ، أو نقله من مكان إلى مكان . ومن ذلك (وجعل منها زوجها) ، (وجعل الظلمات والنور) : لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، والنور من النار (وجعلناكم أزواجا) (أجعل الآلهة إلها واحداً) . فإن قلت : لم أفرد النور [2] ؟ قلت : للقصد إلى الجنس ،

---

(١) قال محمود : « الفرق بين الجعل والخلق أن الخلق فيه معنى التقدير ... الخ » ، قال أحمد : وقد وردت «جعل» و «خلق» موردا واحدا فورد (وخلق منها زوجها) وورد (وجعل منها زوجها) وذلك ظاهر في الترادف ، إلا أن للخاطر ميلا إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري . ويؤيده أن « جعل » لم يصحب السموات والأرض ، وإنما لزمتها «خلق» وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السموات والأرض ، والجعل إلى الظلمات والنور مصداق للمميز بينهما ، والله أعلم .

(٢) عاد كلامه . قال : فإن قلت : لم أفرد النور ؟ قلت : للقصد ... الخ ، قال أحمد : وقد سبق للزمخشري الاستدلال بجمع الجنس على التكثير ، واعتقاد أنه أدل على الكثرة من الافراد . وقد قدمنا ما في ذلك من النظر ، وأسلفنا الاستدلال بقول حبر الأمة : كتابه أكثر من كتبه ، على خلاف ذلك ، وهو رأي الامام أبي المعالي .

كقوله تعالى (والملك على أرجائها) أو لأن الظلمات كثيرة ، لأن ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل ، وظله هو الظلمة ، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ [1] ؟ قلت : إما على قوله (الحمد لله) على معنى أن الله حقيق بالحمد على ماخلق ؛ لأنه ماخلقه إلا نعمة ، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته وإما على قوله (خلق السموات) على معنى أنه خلق ماخلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه . فإن قلت : فما معنى ثم ؟ قلت : استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته ، وكذلك (ثم أنتم تمترون) استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ماثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)

﴿ثم قضى أجلا﴾ أجل الموت ﴿وأجل مسمى عنده﴾ أجل القيامة . وقيل: الأجل الأول: مابين أن يخلق إلى أن يموت . والثاني : مابين الموت والبعث وهو البرزخ . وقيل: الأول النوم. والثاني : الموت . فإن قلت : المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب تأخيره [2] فلم جاز تقديمه

= ولو قال الزمخشري . إن جمع الظلمات لاختلافها بحسب اختلاف ماينشأ عنه من أجناس الأجرام ، وإفراد النور لاتحاد الجنس الذي ينشأ عنه وهو النار لكان أولى ، والله أعلم .

(١) عاد كلامه . قال : «فإن قلت علام عطف ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ...الخ» ؟ قال أحمد : وفي هذا الوجه الثاني نظر من حيث أن عطفه على الصلة يوجب دخوله في حكمها . ولو قال (الحمد لله الذي) ، (الذين كفروا بربهم يعدلون) لم يستد ، لخلو الجملة من العائد . ويمكن أن يقال : وضع الظاهر الذي هو (ربهم) موضع المضمر تفخيما وتعظيما . وأصل الكلام : الذي يعدل به الذين كفروا ، أو الذي الذين كفروا يعدلون به ، باتساع وقوعها صلة ، رعاية لهذا الأصل ، فهذا نظر من حيث الاعراب . ونظيره قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) فيمن جعل «ما» موصولة لاشرطية ، فإن دخول جاءكم وما بعده في حكم الصلة يستدعي ضميراً عائداً إلى الموصول ، وهو مفقود لفظاً ؛ لأن الظاهر وضع فيه موضع المضمر . والأصل : ثم جاءكم رسول مصدق له ، فاستقام عطفه ودخوله في حكم الصلة بهذه الطريقة ؛ لكن بقي في آية الأنعام هذه نظر في المعنى على الاعراب المذكور ، وهو أنه يصير التقدير : الحمد لله الذي ، الذين كفروا يعدلون ، ووقوع هذا عقيب الحمد غير مناسب كما ترى . فالوجه ـ والله أعلم ـ عطفه على أول الكلام ، لا على الصلة ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : «إن قلت المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب ... الخ» قال أحمد : وليس في إرادة هذا المعنى موجب للتقديم . وقد ورد (وعنده علم الساعة) في سياق التعظيم لها ، وهو مع ذلك مؤخر عن الخبر في قوله (وتبارك الذي له ملك السموات والأرض ومابينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون) فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن التقديم إنما كان لأن الكلام منقول من كلام آخر ، وكان الأصل ـ والله أعلم ـ ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ؛ إذ كلاهما مقضى . فلما عدل بالكلام عن العطف الافرادي تمييزا بين الأجلين رفع الثاني بالابتداء وأقر بمكانه من التقديم والله أعلم .

فى قوله (وأجل مسمى عنده) ؟ قلت : لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة ، كقوله (ولعبد مؤمن خير من مشرك) . فإن قلت : الكلام السائر أن يقال : عندى ثوب جيد ، ولى عبد كيس ، وما أشبه ذلك ؛ فما أوجب التقديم ؟ قلت : أوجبه أن المعنى : وأى أجل مسمى عنده تعظيما لشأن الساعة ، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم .

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

﴿فى السموات﴾ متعلق بمعنى اسم الله ، [1] ، كأنه قيل وهو المعبود فيها . ومنه قوله (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) أو هو المعروف بالإلهية أو المتوحد بالالهية فيها ، أو هو الذى [2] يقال له ـ الله ـ فيها لا يشرك به فى هذا الاسم . ويجوز أن يكون (الله فى السموات) خبراً بعد خبر ، على معنى : أنه الله ـ وأنه فى السموات والأرض ، بمعنى : أنه عالم بما فيهما لا يخفى عليه منه شىء ، كأن ذاته فيهما . فإن قلت : كيف موقع قوله ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ ؟ قلت : إن أردت المتوحد بالإلهية كان تقريراً له ؛ لأن الذى استوى فى علمه السر والعلانية هو ـ الله ـ وحده ، وكذلك إذا جعلت فى السموات خبراً بعد خبر ، وإلا فهو كلام مبتدأ بمعنى : هو يعلم سركم وجهركم . أو خبر ثالث ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ من الخير والشر ، ويثيب عليه ، ويعاقب .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)
فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥)

(من) فى ﴿من آية﴾ للاستغراق . وفى ﴿من آيات ربهم﴾ للتبعيض . يعنى : وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التى يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار ، إلا كانوا عنه معرضين : تاركين للنظر لا يلتفتون إليه ولا يرفعون به رأساً ، لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب ﴿فقد كذبوا﴾ مردود على كلام محذوف ، كأنه قيل : إن كانوا معرضين عن الآيات ، فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها

(١) قال محمود : فى السموات متعلق بمعنى اسم الله ... الخ ، قال أحمد : وما الآيتان الكريمتان إلا توأمتان ، فان التمدح فى آية الزخرف وقع بما وقع التمدح به ههنا ، من القدرة على الاعادة والاستئثار بعلم الساعة والتوحد فى الألوهية ، وفى كونه تعالى المعبود فى السموات والأرض .

(٢) عاد كلامه . قال : أو هو المعروف بالألوهية أو هو الذى يقاله ـ الله ـ فيهما ... الخ ، قال أحمد : وهذه الوجوه كلها كأن التعبير وقع فيها بالملزوم عن لوازمه المشهورة به ، كما وقع ذلك فى قوله :

« أنا أبو النجم وشعرى شعرى »

أى المعروف المشهور ، لأنه بنى على أنه متى ذكر شعره فهم السامع عند ذكره خواصه من الجودة والبلاغة وسلامة النسج ، لاشتهاره بذلك ، فاقتصر على قوله « شعرى » اتكالا على فهم السامع .

وهو الحق ﴿لما جاءهم﴾ يعنى القرآن الذى تحدّوا به على تبالغهم فى الفصاحة فعجزوا عنه ﴿فسوف يأتيهم أنباء﴾ الشىء الذى ﴿كانوا به يستهزءون﴾ وهو القرآن . أى أخباره وأحواله ، بمعنى : سيعلمون بأى شىء استهزءوا . وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء ، وذلك عند إرسال العذاب عليهم فى الدنيا أو يوم القيامة ، أو عند ظهور الاسلام وعلوّ كلمته .

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

مكن له فى الأرض : جعل له مكانا فيها . ونحوه : أرّض له . ومنه قوله (إنا مكنا له فى الأرض) (أو لم نمكن لهم) وأمّا مكنته فى الأرض فأثبته فيها . ومنه قوله (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) ولتقارب المعنيين جمع بينهما فى قوله ﴿مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم﴾ والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم ، من البسطة فى الأجسام ، والسعة فى الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا . والسماء المظلة ؛ لأن الماء ينزل منها إلى السحاب ، أو السحاب أو المطر . والمدرار : المغزار . فإن قلت : أى فائدة فى ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم ؟ قلت: الدلالة على أنه لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده منهم ؟ فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده ، كقوله تعالى : (ولا يخاف عقباها)

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

﴿كتابا﴾ مكتوبا ﴿فى قرطاس﴾ فى ورق ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ ولم يقتصر بهم على الرؤية ، لئلا يقولوا [1] سكرت أبصارنا ، ولا تبقى لهم علة . لقالوا ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ تعنتا وعنادا

(١) قال محمود : «ولم يقتصر بهم على الرؤية لئلا ... الخ » قال أحمد : والظاهر أن فائدة زيادة لمسهم له بأيديهم تحقيق القراءة على قرب ، أى فقرءوه وهو فى أيديهم لا بعيدا عنهم لما آمنوا ، وإلا فالخط لا يدرك باللمس حتى يجعل فائدة زيادته إدراكه بوجهين ، كما يفهم من كلام الزمخشرى .

للحق بعد ظهوره ﴿لقضى الأمر﴾ لقضى أمر إهلاكهم ﴿ثم لا ينظرون﴾ بعد نزوله طرفة عين [١]. إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورته [٢] وهى آية لاشىء أبين منها وأيقن، ثم لا يؤمنون كما قال: (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) لم يكن بد من إهلاكهم، كما أهلك أصحاب المائدة. وإما لأنه يزول الاختيار الذى هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة [٣] فيجب إهلاكهم. وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكا فى صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون. ومعنى (ثم) بعد ما بين الأمرين: [٤] قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة ﴿ولو جعلناه ملكا﴾ ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك. وتارة يقولون: (ماهذا إلا بشر مثلكم)، (ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة). ﴿لجعلناه رجلا﴾ لأرسلناه فى صورة رجل، كما كان ينزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعم الأحوال فى صورة دحية [٥] لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة فى صورهم ﴿وللبسنا

(١) قال محمود: «يعنى لا ينظرون بعد نزوله طرفة عين ... الخ» قال أحمد: لا يحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية فى نزول الملك، فانه ربما يفهم هذا الكلام أن الآيات التى لزمهم الايمان بها دون نزول الملك فى الوضوح، وليس الأمر كذلك. فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك، وعدم إيمانهم أنهم اقترحوا مالا يتوقف وجوب الايمان عليه، إذ الذى يتوقف الوجوب عليه، المعجز من حيث كونه معجزاً، لا المعجز الخاص. فاذا أجيبوا على وفق مقترحهم فلم ينجع فيهم، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ فى العناد المناسب لعدم النظرة، والله أعلم.

(٢) متفق عليه من رواية مسروق عن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته مرتين. وفى رواية لها: رأى جبريل له ستمائة جناح.

(٣) عاد كلامه. قال: «وإما لأنه يزول الاختيار الذى قاعدة التكليف مبنية عليه عند نزول الملك فيجب إهلاكهم وإما لأنهم إذا شاهدوا الملك فى صورته زهقت أرواحهم من هول مايشاهدون» قال أحمد: ويقوى هذا الوجه قوله: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا. قال ابن عباس: ليتمكنوا من رؤيته ولا يهلكوا من مشاهدة صورته.

(٤) عاد كلامه. قال: «ومعنى ـ ثم ـ بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر ... الخ» قال أحمد: وهذه النكتة من محاسن تنبيهاته.

(٥) متفق عليه من رواية أبى عثمان النهدى عن أسامة بن زيد قال «نبئت أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبى الله لأم سلمة: من هذا؟ فقالت: دحية الكلبي ... الحديث» وللحاكم من رواية مسروق عن عائشة قالت: «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجى فى حجرى رجلا شبهته بدحية الكلبى. فقال لى: هذا جبريل، وهو يقرئك السلام» وللطبرانى من رواية قتادة عن أنس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: يأتينى جبريل على صورة دحية الكلبي» قال أنس «وكان دحية رجلا جسيما جميلا أبيض» وفى إسناده عفير بن سعدان وهو ضعيف ولأبى نعيم فى الدلائل من رواية صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «رأيت جبريل فى خلقه الذى خلق عليه، وكنت أراه قبل ذلك فى صور مختلفة وأكثر ما كنت أراه فى صورة دحية الكلبي» رجاله ثقات، إلا أنه مرسل وروى ابن سعد من طريق يحيى بن يعمر عن ابن عمر «كان جبريل يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية الكلبي».

عليهم ﴾ ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ . فإنهم يقولون . إذا رأوا الملك فى صورة إنسان : هذا إنسان وليس بملك ، فإن قال لهم : الدليل على أنى ملك أنى جئت بالقرآن المعجز، وهو ناطق بأنى ملك لا بشر ـ كذبوه كما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن ، فهو لبس الله عليهم . ويجوز أن يراد : (وللبسنا عليهم) حينئذ مثل مايلبسون على أنفسهم الساعة فى كفرهم بآيات الله البينة : وقرأ ابن محيصن : ولبسنا عليهم ، بلام واحدة . وقرأ الزهرى : وللبسنا عليهم مايلبسون ، بالتشديد .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

﴿ ولقد استهزئ ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من قومه ﴿ فحاق ﴾ بهم فأحاط بهم الشيء الذى كانوا يستهزئون به وهو الحق ، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به

قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

فإن قلت : أى فرق بين قوله (فانظروا) وبين قوله (ثم انظروا)[1] قلت : جعل النظر[2] مسبباً عن السير فى قوله (فانظروا) فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين . وأما قوله ﴿ سيروا فى الأرض ثم انظروا ﴾ فمعناه إباحة السير فى الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر فى آثار الهالكين . ونبه على ذلك بثم ، لتباعد ما بين الواجب والمباح .

قُلْ لِمَنْ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

﴿ لمن ما فى السموات والأرض ﴾ سؤال تبكيت ، و ﴿ قل لله ﴾ تقرير لهم ، أى هو ـ الله ـ لا خلاف بينى وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئا منه إلى غيره ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ أى أوجبها على ذاته فى هدايتكم إلى معرفته ، ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرون

---

(١) قال محمود : «إن قلت أى فرق بين قوله فانظروا وبين قوله ثم انظروا ... الخ» قال أحمد : وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين واحداً ، ليكون ذلك سبباً فى النظر ، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية ، وحيث دخلت «ثم» فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لاغير . وشتان بين المقصود والوسيلة والله أعلم .

(٢) قوله «النظر» لعله «بالنظر» . (ع)

به من خلق السموات والأرض، ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ فيجازيكم على إشراككم. وقوله ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ نصب على الذم، أو رفع: أى أريد الذين خسروا أنفسهم، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم. فإن قلت: كيف، جعل عدم إيمانهم مسبباً عن خسرانهم، والأمر على العكس؟ قلت: معناه: الذين خسروا أنفسهم فى علم الله: لاختيارهم الكفر. فهم لا يؤمنون.

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

﴿وله﴾ عطف على الله ﴿ماسكن فى الليل والنهار﴾ من السكنى وتعديه بفى كما فى قوله (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم). ﴿وهو السميع العليم﴾ يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان.

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

أولى ﴿غير الله﴾ همزة الاستفهام دون الفعل الذى هو ﴿أتخذ﴾ لأنّ الإنكار فى اتخاذ غير الله ولياً، لا فى اتخاذ الولى، فكان أولى بالتقديم. ونحوه (أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) (آلله أذن لكم). وقرئ ﴿فاطر السموات﴾ بالجرّ صفة لله، وبالرفع على المدح. وقرأ الزهرى: فطر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: ماعرفت مافاطر السموات والأرض، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها [1] أى ابتدعتها ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ وهو يرزق ولا يرزق، كقوله (ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) والمعنى: أن المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع. وقرئ: ولا يطعم، بفتح الياء. وروى ابن المأمون عن يعقوب: وهو يطعم ولا يطعم، على بناء الأول للمفعول والثانى للفاعل، والضمير لغير الله. وقرأ الأشهب. وهو يطعم ولا يطعم، على بنائهما للفاعل. وفسر بأن معناه: وهو يطعم، ولا يستطعم. وحكى الأزهرى: أطعمت، بمعنى استطعمت. ونحوه: أفدت. ويجوز أن يكون

(١) أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث، وفى فضائل القرآن باسناد حسن، ليس فيه إلا إبراهيم بن مهاجر وسيأتى فى تفسير فاطر.

المعنى : وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح ، كقولك : وهو يعطى ويمنع ، ويبسط ويقدر ، ويغنى ويفقر ﴿أول من أسلم﴾ لأنّ النبي سابق أمته فى الإسلام ، كقوله (وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين) وكقول موسى (سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين) ﴿ولا تكوننّ﴾ وقيل لى لا تكونن ﴿من المشركين﴾ ومعناه : أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك . و ﴿من يصرف عنه﴾ العذاب ﴿يومئذ فقد رحمه﴾ الله الرحمة العظمى وهى النجاة ، [1] كقولك : إن أطعمت زيداً من جوعه فقد أحسنت إليه ؟ تريد : فقد أتممت الإحسان إليه أو ، فقد أدخله الجنة ، لأن من لم يعذب لم يكن له بدّ من الثواب . وقرئ : من يصرف عنه ، على البناء للفاعل ، والمعنى : من يصرف الله عنه فى ذلك اليوم فقد رحمه ، بمعنى : من يدفع الله عنه . ويحفظه ، وقد علم من المدفوع عنه . وترك ذكر المصروف ؛ لكونه معلوما أو مذكوراً قبله وهو العذاب . ويجوز أن ينتصب يومئذ بيصرف انتصاب المفعول به ، أى من يصرف الله عنه ذلك اليوم : أى هوله ، فقد رحمه . وينصر هذه القراءة قراءة أبىّ رضى الله عنه : من يصرف الله عنه ،

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

﴿وإن يمسسك الله بضرّ﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه ، فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وإن يمسسك بخير﴾ من غنى أو صحة ﴿فهو على كل شىء قدير﴾ فكان قادراً على إدامته أو إزالته .

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

﴿فوق عباده﴾ تصوير للقهر والعلوّ بالغلبة والقدرة ، كقوله (وإنا فوقهم قاهرون) الشىء

---

(١) قال محمود : « المراد الرحمة العظمى وهي النجاة من النار ... الخ » قال أحمد : وإنما يلجئ إلى تخصيص الرحمة ، إما بكونها العظمى ، وإما برحمة الثواب أنه لو بقيت على إطلاقها ، لما زاد الجزاء على الشرط إذ من المعلوم ضرورة أن صرف العذاب رحمة ما . والعجب أن الزمخشري يصحح تخصيصها برحمة الثواب بأن صرف العذاب يستلزم الثواب ولا بد ، وغيره يصحح هذا التخصيص بأنه لا يلزم من صرف العذاب حصول الثواب ، لجواز أن يصرف عنه العذاب ولا يثاب ، فأفاد الجزاء إذاً فائدة لم تفهم من الشرط . هكذا صححه القونوى . ولعمرى إن قاعدة المعتزلة تلجئ إلى ماذهب إليه الزمخشري ، لانقسام المكلفين عندهم إلى مستوجب للجنة فالثواب قطعا ، وإلى مستوجب للنار فالعذاب قطعا ، ويسندون ذلك إلى العقل لا إلى السمع .

أعم العام [١] لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم . ولذلك صحّ أن يقال فى الله عزّ وجلّ : شىء لا كالأشياء ، كأنك قلت : معلوم لا كسائر المعلومات ، ولا يصح : جسم لا كالأجسام

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

وأراد : أى شهيد ﴿ أكبر شهادة ﴾ فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ فى التعميم ﴿ قل الله شهيد بينى وبينكم ﴾ يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله (قل الله) بمعنى الله أكبر شهادة ، ثم ابتدئ (شهيد بينى وبينكم) أى هو شهيد بينى وبينكم ، وأن يكون (الله شهيد بينى وبينكم) هو الجواب ، لدلالته على أنّ الله عزّ وجلّ إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم ، فأكبر شىء شهادة شهيد له ﴿ ومن بلغ ﴾ عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة . أى : لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم . وقيل: من الثقلين . وقيل : من بلغه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبير : من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ أئنكم لتشهدون ﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد ﴿ قل لا أشهد ﴾ شهادتكم

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ يعنى اليهود والنصارى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت فى الكتابين معرفة خالصة ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ بحلاهم ونعوتهم لا يخفون

---

(١) قال محمود : «الشىء أعم العام ، لوقوعه على كل ما يصح ... الخ» قال أحمد وتفسيره الشىء يخالف الفريقين الأشعرية ، فانهم فسروه بالموجود ليس إلا ، والمعتزلة فانهم قالوا : والمعلوم الذى يصح وجوده ، فاتفقوا على خروج المستحيل . وعلى الجملة فهذه المسئلة معدودة من علم الكلام باعتبار ما . وأما هذا البحث فلغوى والتحاكم فيه لأهل اللغة ، وظاهر قولهم غضبت من لاشىء ، وإذا رأى غير شىء ظنه رجلا - أن الشىء لا ينطلق إلا على الموجود إذ لو كان الشىء كل ما يصح أن يعلم عدما كان أو وجوداً أو ممكنا أو مستحيلا ، لما صدق على أمر ما أنه ليس بشىء والأمر فى ذلك قريب .

عليهم ولا يلتبسون بغيرهم. وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته. ثم قال ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ به، جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا). وقالوا: (والله أمرنا بها) وقالوا: (الملائكة بنات الله) و (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات، وسموها سحراً، ولم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

﴿ ويوم نحشرهم ﴾ ناصبه محذوف تقديره: ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف ﴿ أين شركاؤكم ﴾ أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله. وقوله: ﴿ الذين كنتم تزعمون ﴾ معناه تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان. وقرئ: يحشرهم ثم يقول، بالياء فيهما. وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ، ويجوز أن يشاهدوهم، إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم مارجوا من الشفاعة. فكأنهم غيب عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم فى وقت التوبيخ ليفقدوهم فى الساعة التى علقوا بهم الرجاء فيها، فيروا مكان خزيهم وحسرتهم ﴿ فتنتهم ﴾ كفرهم. والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم[1] - الذى لزموه أعمارهم، وقاتلوا عليه وافتخروا به، وقالوا دين آبائنا - إلا جحوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من التدين به. ويجوز أن يراد: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا فسمى فتنة؛ لأنه كذب. وقرئ: تكن، بالتاء وفتنتهم، بالنصب. وإنما أنث (أن قالوا) لوقوع الخبر مؤنثاً، كقولك: من كانت أمك؟ وقرئ بالياء ونصب الفتنة. وبالياء والتاء مع رفع الفتنة. وقرئ: ربنا، بالنصب على النداء

(١) قال محمود: «فتنتهم كفرهم، والمعنى ثم لم تكن عاقبة كفرهم ... الخ» قال أحمد: وفى الآية دليل بين على أن الاخبار بالشىء على خلاف ما هو به كذب، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره لخبره. ألا تراه جعل إخبارهم وتبريهم كذبا مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون، أى سلبوا علمه حينئذ دهشا وحيرة، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم.

﴿ وضلّ عنهم ﴾ وغاب عنهم ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أى يفترون إلهيته وشفاعته . فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً : ألا تراهم يقولون (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه ، (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) وقد علموا أنه لا يقضى عليهم . وأما قول من يقول : معناه : ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا أنا على خطأ فى معتقدنا ، وحملُ قوله (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) يعنى فى الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عىٌّ وإقحام ، لأن المعنى الذى ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمترجم عنه ولا منطبق عليه ، وهو ناب عنه أشدّ النبو . وما أدرى ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفونَ له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون) بعد قوله (ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) فشبه كذبهم فى الآخرة بكذبهم فى الدنيا .

وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ حين تتلوا القرآن . روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ، ما يقول محمد؟ فقال : والذى جعلها بيته ـ يعنى الكعبة ـ ما أدرى ما يقول ، إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين ، مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية . فقال أبو سفيان: إنى لأراه حقا . فقال أبو جهل : كلا ، فنزلت . والأكنة على القلوب ، والوقر فى الآذان : مثلٌ فى نبوّ قلوبهم ومسامعهم عن قبوله [1] واعتقاد صحته . ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله

---

(١) قال محمود : «الأكنة على القلوب والوقر فى الآذان ، مثل فى نبو قلوبهم ومسامعهم عن قبوله ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وهذه الآية حسبنا فى رد معتقد القدرية الذين يزعمون أن الله تعالى أراد من هؤلاء المستمعين أن يعوا القرآن ويفقهوه ، وأنه لم يمنعهم من ذلك ، ومحال على زعمهم أن يمنعهم من ذلك ويريد أن لا يفقهوه ، لأن ذلك عندهم قبيح . فانظر كيف تكافحهم هذه الآية بالرد وتنادى عليهم بالخطأ ، إذ قوله (أن يفقهوه) معناه كراهة أن يفقهوه ، وبين الارادة على زعمهم ، والكراهة على ما أنبأت عنه الآية . بون بعيد ، والله الموفق .

(وجعلنا) للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم، كأنهم مجبولون عليه. أو هى حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم (وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب) وقرأ طلحة: وقرا بكسر الواو ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك﴾ هى حتى التى تقع بعدها الجمل. والجملة قوله (إذا جاءوك) ﴿يقول الذين كفروا﴾ و(ويجادلونك) موضع الحال. ويجوز أن تكون الجارة ويكون إذا جاؤك فى محل الجر بمعنى حتى وقت مجيئهم، ويجادلونك حال، وقوله: يقول الذين كفروا. تفسير له. والمعنى: أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث، خرافات وأكاذيب، وهى الغاية فى التكذيب ﴿وهم ينهون﴾ الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه، ويثبطونهم عن الإيمان به ﴿وينأون عنه﴾ بأنفسهم فيضلون ويضلون ﴿وإن يهلكون﴾ بذلك ﴿إلا أنفسهم﴾ ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: هو أبو طالب لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه ولا يؤمن به. وروى أنهم اجتمعوا إلى أبى طالب وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءاً. فقال:[1]

وَٱللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِى التُّرَابِ دَفِينَا

فَٱصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَاعَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَٱبْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْهُ عُيُونَا

وَدَعَوْتَنِى وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ ... وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا

وَعَرَضْتَ دِينًا لَامَحَالَةَ أَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِى سُبَّةً ... لَوَجَدْتَنِى سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا[2] فنزلت.

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل من طريق ابن إسحاق حدثنى يعقوب بن عتيبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن قريشا قالت لأبى طالب هذه المقالة فذكر القصة، قال ابن إسحاق: ثم قال: فذكر هذا الشعر.

(٢) لأبى طالب، لما اجتمع عنده قريش وأرادوا قتل النبى صلى الله عليه وسلم. «فاصدع» أى اجهر بأمرك حتى تؤثر فى القلوب، كصدع الزجاج، أى شقه وكسره. وغض منه يغض ـ بالضم ـ غضاضة: وضع ونقص من قدره. وغضغضت الماء وتغضغض هو: نقصته وانتقص. أى ماعليك مذلة ومنقصة من أمرك. وبشر يبشر ـ بالضم ـ سر وفرح. وأبشر إبشارا: سر واستبشر. وبشرته وأبشرته أفرحته. أى: افرح وانسر بذلك. وقرت عينه. بردت سرورا، أى افرح بذلك وانسر. فهو توكيد لأبشر؛ إلا أنه بطريق الكناية المفيدة للمبالغة. وعيونا تمييز محول عن الفاعل، أى لتقر عيونك. والمراد بالجمع مافوق الواحد، أو المبالغة، أو عيونه هو أو عيونه هو والمؤمنين. ويروى «منه» أى من ذلك الأمر. و «لن» حرف لتوكيد النفى كما تشهد به مواضع الاستعمال. ونفى الوصول: كناية عن نفى المضرة على وجه أبلغ. والباء للملابسة. و «حتى أوسد» غاية مفيدة للتوكيد والتأييد =

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)

﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف تقديره. ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً ﴿وقفوا على النار﴾ أروها حتى يعاينوها. أو اطلعوا عليها اطلاعا هي تحتهم، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها من قولك: وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته، وقرئ: وقفوا، على البناء للفاعل، من وقف عليه وقوفا ﴿ياليتنا نرد﴾ تم تمنيهم. ثم ابتدؤا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ واعدين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات. وشبهه سيبويه بقولهم: دعني ولا أعود، بمعنى دعني وأنا لا أعود، تركتني أو لم تتركني. ويجوز أن يكون معطوفا على نرد، أو حالا على معنى: ياليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين، فيدخل تحت حكم التمني. فإن قلت: يدفع ذلك قوله (وإنهم لكاذبون) لأن المتمني لا يكون كاذبا. قلت: هذا تمنّ قد تضمن معنى العدة، فجاز أن يتعلق به التكذيب، كما يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالا فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك، فهذا متمنّ في معنى الواعد، فلو رزق مالا ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب، كأنه قال: إن رزقني الله مالا كافأتك على الإحسان. وقرئ: ولا نكذب ونكون، بالنصب بإضمار أن على جواب التمني [(١)] ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم؛ فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً! لا أنهم عازمون على أنهم لو ردّوا لآمنوا. وقيل: هو

والتوسيد: كناية عن الموت، فيجعل له وسادة تحت رأسه في رمسه. و«دفينا» أي مدفونا حال. ومجيء المضارع المنفي بلن جوابا للقسم لايجوز إلا في الضرورة كما هنا. وزعمت: أي قلت عند من لا يصدقك، ولقد صدقت في دعواك أنك ناصح للناس، و«كنت ثم» أي عند قولك «أمينا» فيما ادعيت وعرضت علينا دينا صادقا أنه من خير أديان البرية دينا، أي من جهة الديانة، أو من جهة الجزاء. وقيل: قد يراد من التمييز مجرد التوكيد وهذا منه لا محالة في ذلك. فقوله «لا محالة» جملة اعتراضية للتوكيد. والحذار: مصدر بمعنى الحذر من مسبتهم لي. ويروى أو حذارى سبة. والسب أبلغ من اللوم «لوجدتني» يا محمد راضياً بذاك الدين، مظهراً له. وسمح سماحة فهو سمح، كضخم ضخامة فهو ضخم: إذا جاد ولم يبخل.

(١) قال محمود: «وقرئ ولا نكذب ونكون بالنصب بإضمار أن على جواب التمني ... الخ» قال أحمد: وكثيراً ما تتناوب صيغة التمني والخبر. ألا ترى: إلى قوله تعالى (وبما كانوا يكذبون) في قوله: (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين) إلى قوله (وبما كانوا يكذبون) وهذه المعاهدة إنما كانت تمنيا بصيغة الخبر، والله أعلم. وأبين من ذلك قوله تعالى في آية أخرى (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل) فهذا هو التمني بعينه، ولكن بصيغة الوعد والخبر الصريحة، والله الموفق.

فى المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذى كانوا يسرونه. وقيل: هو فى أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ولو ردّوا﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من الكفر والمعاصى ﴿وإنهم لكاذبون﴾ فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به.

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وقالوا﴾ عطف على لعادوا. أى ولو ردّوا لكفروا ولقالوا ﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا﴾ كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة. ويجوز أن يعطف على قوله: وإنهم لكاذبون، على معنى: وإنهم لقوم كاذبون فى كل شىء، وهم الذين قالوا: إن هى إلا حياتنا الدنيا. وكفى به دليلا على كذبهم

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

﴿وقفوا على ربهم﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده ليعاتبه. وقيل: وقفوا على جزاء ربهم. وقيل عرفوه حق التعريف ﴿قال﴾ مردود على قول قائل قال: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه فقيل: قال ﴿أليس هذا بالحق﴾ وهذا تعيير من الله تعالى لهم على التكذيب. وقولهم — لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء —: ما هو بحق وما هو إلا باطل ﴿بما كنتم تكفرون﴾ بكفركم بلقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها. وقد حقق الكلام فيه فى مواضع أخر. و﴿حتى﴾ غاية لكذبوا لا لخسر، لأن خسرانهم لا غاية له. أى ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجىء الساعة. فإن قلت: أما يتحسرون عند موتهم؟ قلت: لما كان الموت وقوعا فى أحوال الآخرة ومقدماتها، جعل من جنس الساعة وسمى باسمها، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات فقد قامت قيامته»[1]. أو جعل مجىء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة ﴿بغتة﴾ فجأة وانتصابها على الحال بمعنى باغتة، أو على المصدر

---

(١) أخرجه أبو شجاع الديلمى فى الفردوس عن أنس بلفظ «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته» للطبرى من حديث زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال «يقولون القيامة القيامة، وإنما قيامة الرجل موته» ومن رواية سفيان عن أبى قيس قال «شهدت جنازة فيها علقمة. فلما دفن قال: أما هذا فقد قامت قيامته.

كأنه قيل : بغتتهم الساعة بغتة ﴿فرّطنا فيها﴾ الضمير للحياة الدنيا ، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة ، أو للساعة على معنى : قصرنا فى شأنها وفى الإيمان بها ، كما تقول : فرّطت فى فلان . ومنه فرّطت فى جنب الله ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ كقوله (فبما كسبت أيديكم) لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور ، كما ألف الكسب بالأيدى ﴿ساء ما يزرون﴾ بئس شيئا يزرون وزرهم ، كقوله (ساء مثلا القوم) .

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

جعل أعمال الدنيا لعباً ولهواً واشتغالا بما لا يعنى ولا يعقب منفعة ، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة . وقوله ﴿للذين يتقون﴾ دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو . وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : ولدار الآخرة . وقرئ : تعقلون بالتاء والياء .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾

(قد) فى ﴿قد نعلم﴾ بمعنى «ربما» الذى يجيء لزيادة الفعل وكثرته (١) ، كقوله :

أَخُو ثِقَةٍ لَا تُهْلِكُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ وَلَٰكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ (٢)

---

(١) قال محمود : «قد فى قد نعلم بمعنى ربما الذى يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله : ولكنه قد يهلك المال نائله» قال أحمد : ومثلها فى قوله (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) فانه يكثر علمهم برسالته ويؤكده بظهور آياته ، حتى يقيم عليهم الحجة فى جمعهم بين متناقضين : أذيته ، ورسوخ علمهم برسالته ، والله أعلم . ومنه أيضا قوله :

* قد أترك القرن مصفراً أنامله *

وتغرض التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه ، تنبيها على أنه بلغ الآية التى مابعدها إلا الرجوع إلى الضد . وذلك من لطائف لغة العرب وغرائبها .

(٢)
أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله
ولو لم يكن فى كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله
فمن مثل حصن فى الحروب ومثله ... لانكار ضيم أو لخصم يحاوله

لزهير بن أبى سلمى يمدح حصن بن أبى حذيفة . والثقة من وثق ، كالعدة من وعد . وإن كان الفعل الأول مكسورا والثانى مفتوحا ، فأصلها «وثق» حذفت الواو وخلفتها التاء ، والمراد بها ما يتوثق به ، أو المصدر هو التوثق ، أى هو ملازم لما يتوثق به من مكارم الأخلاق ، لا ينفك عنه كأنه أخوه أو ملازم للتوثق به . وإسناد الاهلاك إلى الخمر مجاز عقلى ، لأنه سببه ، وكذلك إسناده إلى النائل ، أى العطاء . و«قد» هنا للتكثير ، وإلا لم يكن مدحا ، =

والهاء فى ﴿إنه﴾ ضمير الشأن ﴿ليحزنك﴾ قرئ بفتح الياء وضمها . و ﴿الذى يقولون﴾ هو قولهم ساحر كذاب ﴿لا يكذبونك﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف، من كذبه إذا جعله كاذبا فى زعمه[1] وأكذبه إذا وجده كاذبا . والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى الله ، لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك فى الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته ، فاله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق ، وليشغلك عن ذلك ما هو أهمّ وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه . ونحوه قول السيد لغلامه ـ إذا أهانه بعض الناس ـ : إنهم لم يهينوك وإنما أهانونى . وفى هذه الطريقة قوله تعالى (إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وقيل : فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ، ولكنهم يجحدون بألسنتهم . وقيل : فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ، ولكنهم يجحدون بآيات الله . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين[2] فعرفوا أنه لا يكذب فى شىء ، ولكنهم كانوا يجحدون . وكان أبو جهل يقول : ما نكذبك لأنك عندنا صادق ، وإنما نكذب ما جئتنا به . وروى أنّ الأخنس بن شريق قال لأبى جهل : يا أبا الحكم ، أخبرنى عن محمد ، أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : والله إن محمداً لصادق

ـــــ تراه متهللا مستبشر الوجه إذا جئته سائلا ، فكأنك تعطيه المال الذى أنت طالبه منه . وبالغ فى وصفه بالكرم حتى أنه يجود بروحه إن لم يملك غيرها ، وبنى على ذلك أمر سائله بالتقوى من الله ، لئلا يأخذ روحه فيميته . فسائله الأول مضاف لمفعوله الثانى . والثانى مضاف للأول . وقوله «فمن» استفهام إنكارى ، أى ما مثله أحد فى الحروب ، وما مثله أحد معد لانكار الظلم وإبائه . والمحاولة المعالجة والطلب . وضمير يحاوله للضيم ، أو لحصن ، أو لمن . ويروى الشعر برواية أخرى ، على أنه وصف لمعن بن زائدة وهى :

يقولون معن لا زكاة لماله	وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم تجد فى دياره	من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ماجئته متهـللا	كأنك تعطيه الذى أنت نائله
تعود بسط الكف حتى لو انه	أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن	... ... البيت

ورفع جمائله ، ذهابا إلى المعنى ، لأن المعنى لم يبق إلا جمائله ونائله : آخذه منه . وبسط الكف : كناية عن كثرة الكرم . وأنامله : أجزاء أصابعه .

(١) عاد كلامه . قال : «وقرئ يكذبونك بالتشديد والتخفيف من كذبه إلى قوله (ولكن الظالمين) ... الخ، قال أحمد : وفى هذا النوع من إقامة الظاهر مقام المضمر فنان من نكت البيان ، إحداهما : الاسهاب فى ذمهم وهذه النكتة يستقل بها الظاهر من حيث كونه ظاهراً ، حتى لو كان لقباً جامدا ، والأخرى زيادة منه تؤكد ذمهم ، تفهم من اشتقاق الظاهر .

(٢) لم أجده عنه وفى الطبقات من حديث يعلى بن أمية قال « بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين » ورواه أيضا من حديث على ابن أبى طالب نحوه .

وماكذب قط ، ولكن إذا ذهب بنوقصيّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ، فنزلت ، وقوله ﴿ولكنّ الظالمين﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر ، للدلالة على أنهم ظلموا فى جحودهم .

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

﴿ولقد كذبت﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم [1] وهذا دليل على أن قوله (فإنهم لا يكذبونك) ليس بنفى لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لغلامك : ماأهانوك ولكنهم أهانونى ﴿على ما كذبوا وأوذوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ لمواعيده من قوله (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون) ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين .

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

كان يكبر على النبى صلى الله عليه وسلم كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل (لعلك باخع نفسك) ، (إنك لاتهدى من أحببت) . ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ماتحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿أو سلماً فى السماء فتأتيهم﴾ منها ﴿بآية﴾ فافعل . يعنى أنك لا تستطيع ذلك . والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه ، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم . وقيل : كانوا يقترحون الآيات فكان يود أن يجابوا

(١) عاد كلامه . قال : « وقوله ولقد كذبت رسل من قبلك تسلية ... الخ » قال أحمد : ولا دلالة فيه لأنه مؤتلف مع نفى التكذيب أيضاً ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين ، أى هؤلاء لم يكذبوك فحقك أن تصبر عليهم ولا يحزنك أمرهم ، وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم فصبروا عليهم ، فأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر . فقد ائتلف كما ترى بالتفسيرين جميعاً ، ولكنه من غير الوجه الذى استدل به فيه تقريب لما اختاره : وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحا بها فى نحو قوله (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك فسلاه عن تكذيبهم له بتكذيب غيرهم من الامم لأنبيائهم وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع مؤيد بالنظائر ، والله أعلم .

إليها لتمادى حرصه على إيمانهم . فقيل له : إن استطعت ذلك فافعل ، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون . ويجوز أن يكون ابتغاء النفق فى الأرض أو السلم فى السماء هو الإتيان بالآيات ، كأنه قيل : لو استطعت النفوذ إلى ماتحت الأرض أو الرقى إلى السماء لفعلت ، لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها . وحذف جواب «أن» كما تقول : إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان نزوره ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ بأن يأتيهم بآية ملجئة ، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ من الذين يجهلون ذلك ويرومون ماهو خلافه [1] ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ يعنى أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ، وإنما يستجيب من يسمع ، كقوله (إنك لا تسمع الموتى) ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذى يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ﴿ثم إليه يرجعون﴾ للجزاء فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان . وأنت لا تقدر على ذلك . وقيل معناه : وهؤلاء الموتى ـ يعنى الكفرة ـ يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون ، فحينئذ يسمعون . وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم [2] وقرئ : يرجعون ، بفتح الياء .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿لولا نزل عليه آية﴾ نزل بمعنى أنزل . وقرئ أن ينزل بالتشديد والتخفيف . وذكر الفعل والفاعل مؤنث . لأن تأنيث آية غير حقيقى ، وحسن للفصل . وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ماأنزل من الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه ، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ تضطرهم إلى الإيمان . كنتق الجبل على بنى إسرائيل ونحوه ، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب ﴿ولكن أكثرهم

(١) قال محمود : «بأن يأتيهم بآية ملجئة ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة (فلا تكونن من الجاهلين) من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه» قال أحمد : وهذه الآية أيضا كافلة بالرد على القدرية فى زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن . ألا ترى أن الجملة مصدرة بلو ، ومقتضاها امتناع جوابها لامتناع الواقع بعدها ، فامتناع اجتماعهم على الهدى إذاً إنما كان لامتناع المشيئة ، فمن ثم ترى الزمخشرى يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة لا يكون الإيمان معها اختيارا ، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وأن مشيئة اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ثابتة غير ممتنعة ولكن لم يقع متعلقها ، وهذه من خباياه ومكامنه فاحذرها ، والله الموفق .

(٢) قوله «إلى استماعهم» لعله : إسماعهم . (ع)

لا يعلمون﴾ أنّ الله قادر على أن ينزل تلك الآية ، وأن صارفا من الحكمة يصرفه عن إنزالها .

وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿أمم أمثالكم﴾ مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم ﴿مافرطنا﴾ ماتركنا وما أغفلنا ﴿فى الكتاب﴾ فى اللوح المحفوظ ﴿من شىء﴾ من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ يعنى الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض ، كما روى أنه يأخذ للجماء من القرناء . فإن قلت : كيف قيل : (إلا أمم) مع إفراد الدابة والطائر ؟ فإن قلت : لما كان قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر) دالا على معنى الاستغراق ومغنيا عن أن يقال : وما من دواب ولا طير ، حمل قوله (إلا أمم) على المعنى . فإن قلت ؛ هلا قيل : وما من دابة ولا طائر [1] إلا أمم أمثالكم ؟ وما معنى زيادة قوله (فى الأرض) و (يطير بجناحيه) قلت : معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة قط فى جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط فى جو السماء من جميع مايطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها . فإن قلت : فما الغرض فى ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها وماعليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان . وقرأ ابن أبى عبلة : ولا طائر ، بالرفع على المحل ، كأنه قيل : وما دابة ولا طائر . وقرأ علقمة : ما فرطنا ، بالتخفيف .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

فإن قلت : كيف أتبعه قوله ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ ؟ قلت : لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادى على عظمته قال : والمكذبون (صمّ) لا يسمعون كلام المنبه

(١) قال محمود : «إن قلت هلا قيل : وما من دابة ولا طائر ... الخ» قال أحمد : ولم يبين وجه زيادتها للتعميم . ولقائل أن يقول : يلزم من العموم فى أجناس الطير دخول كل طائر فى الجو فى العموم وإن لم يذكر فى الجو ، وكذلك يلزم من عموم الدواب فى سائر أصنافها أن يندرج فى ذلك كل دابة فى الأرضين وإن لم يذكر فى الأرض ، فلا بد من بيان وجه الزيادة فنقول : موقع قوله (فى الأرض) و (يطير بجناحيه) موقع الوصف العام ، وصفة العام عامة ضرورة المطابقة ، فكأنه مع زيادة الصفة تظافرت صفتان عامتان ، والله أعلم .

﴿ بكم ﴾ لا ينطقون بالحق ، خابطون فى ظلمات الكفر ، فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه ، ثم قال إيذاناً بأنهم من أهل الطبع [١] ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ أى يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به ، [٢] لأنه ليس من أهل اللطف ﴿ ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ أى يلطف به لأنّ اللطف يجدى عليه.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَاتَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَاتُشْرِكُونَ (٤١)

﴿ أرأيتكم ﴾ أخبرونى . والضمير الثانى لامحل له من الإعراب : لأنك تقول : أرأيتك زيداً ما شأنه ، فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول : أرأيت نفسك زيدا ما شأنه ؟ وهو خلف من القول ومتعلق الاستخبار محذوف . تقديره : إن أتاكم عذاب الله [٣] ﴿ أو أتتكم الساعة ﴾ من تدعون . ثم بكتهم بقوله ﴿ أغير الله تدعون ﴾ بمعنى أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرّ ، أم تدعون الله دونها ﴿ بل إياه تدعون ﴾ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿ فيكشف ما تدعون إليه ﴾ أى ما تدعونه إلى كشفه ﴿ إن شاء ﴾ إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة ﴿ وتنسون ماتشركون ﴾ وتتركون آلهتكم ، [٤] أو لا تذكرونها فى ذلك الوقت : لأنّ أذهانكم فى ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده ، إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره . ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله (أغير الله تدعون) [٥] كأنه قيل :

---

(١) قوله « إيذانا بأنهم من أهل الطبع » أى الختم على القلوب . وقوله « أى يخذله ... الخ » فسر الاضلال بذلك ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة فيخلق الشر كالخير ، فالاضلال على ظاهره عندهم بمعنى خلق الضلال فى القلب . (ع)

(٢) قال محمود : « معنى يضلله يخذله ولم يلطف به ... الخ » قال أحمد : وهذا من تحريفاته للهداية والضلالة اتباعا لمعتقده الفاسد فى أن الله تعالى لا يخلق الهدى ولا الضلال ، وأنهما من جملة مخلوقات العباد . وكم تخرق عليه هذه العقيدة فيروم أن يرقعها ، وقد اتسع الخرق على الراقع ، والله الموفق .

(٣) قال محمود : « متعلق الاستخبار محذوف تقديره ... الخ » قال أحمد : هو لا يدع أن يحجر واسعا فيوجب على الله رعاية المصالح بناء على القاعدة الفاسدة من مراعاة الصلاح والأصلح .

(٤) عاد كلامه . قال : « وتنسون ماتشركون : أى وتتركون آلهتكم ... الخ » قال أحمد : وإنما يلق الاختصاص حيث يقول : معناه أتخصون آلهتكم ، ثم قال : بل تخصون الله بالدعاء من حيث تقدم المفعول على الفعل فى قوله (أغير الله تدعون) وقوله (بل إياه تدعون) وتقديم المفعول عنده يفيد الاختصاص والحصر . وقوله تعالى (إياك نعبد) فى قوة قولك : لا نعبد إلا إياك . وقد مضى الكلام عليه .

(٥) عاد كلامه . قال : « ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أغير الله تدعون ... الخ » قال أحمد : ولقد سدد ـــ

أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله . فإن قلت : إن علقت الشرط به فما تصنع بقوله : (فيكشف ما تدعون إليه) مع قوله (أو أتتكم الساعة) وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين ؟ قلت : قد اشترط فى الكشف المشيئة ، وهو قوله : (إن شاء) إيذاناً بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة ، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)

البأساء ، والضراء : البؤس ، والضر . وقيل البأساء : القحط والجوع . والضراء : المرض ونقصان الأموال والأنفس . والمعنى : ولقد أرسلنا إليهم الرسل فكذبوهم فأخذناهم ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ معناه : نفى التضرع ، كأنه قيل : فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا . ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ من البأساء والضراء : أى تركوا الاتعاظ به ولم ينفع فيهم ولم يزجرهم ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ من الصحة والسعة وصنوف النعمة ، ليزاوج عليهم بين نوبتى الضراء والسراء ، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى ، طلباً لصلاحه ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ من الخير والنعم ، لم يزيدوا على الفرح والبطر ، من غير انتداب لشكر ولا تصدّ لتوبة واعتذار ﴿ أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ واجمون[1] متحسرون آيسون ﴿ فقطع دابر القوم ﴾ آخرهم لم يترك منهم أحد ، قد استؤصلت شأفتهم[2] ﴿ والحمد لله رب

النظر لولا أنه نغص ذلك بإيجابهم وجوب مراعاة المصالح . وأن مشيئة الله تعالى تابعة للمصلحة ، وقد تقدم آنفا فاحذره . وعليك بما سواه فإنه من بديع النظر ، والله الموفق .

(١) قوله « واجمون » فى الصحاح « الواجم » الذى اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام . (ع)

(٢) قوله « شأفتهم » قرحة تخرج من أسفل القدم فتكوى فتذهب ، ثم ضربت مثلا فى الاستئصال . أوده الصحاح . (ع)

العالمين ﴾ إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة [١] وأنه من أجل النعم وأجزل القسم. وقرئ (فتحنا) بالتشديد.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

﴿ إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ بأن يصمكم ويعميكم ﴿ وختم على قلوبكم ﴾ بأن يغطى عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم ﴿ يأتيكم به ﴾ أى يأتيكم بذاك، إجراء للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه ﴿ يصدفون ﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾

لما كانت البغتة أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته، قيل ﴿ بغتة أو جهرة ﴾ وعن الحسن: ليلا أو نهاراً. وقرئ بغتة أو جهرة [٢] ﴿ هل يهلك ﴾ أى ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون. وقرئ. هل يهلك بفتح الياء.

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ مبشرين ومنذرين ﴾ من آمن بهم وبما جاؤا به وأطاعهم، ومن كذبهم وعصاهم ولم يرسلهم ليتلهى بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة ﴿ وأصلح ﴾ ما يجب عليه إصلاحه مما كلف.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

---

(١) قال محمود: «الحمد ههنا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك ... الخ» قال أحمد: ونظيرها قوله تعالى (وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين) ؛ (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) فيمن وقف ههنا وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين. ومنهم من وقف على المنذرين وجعل الحمد متصلا بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى، وأنه جل جلاله خير مما يشركون، فعلى الأول يكون الحمد ختما، وعلى الثانى فاتحة، وهو مستعمل فيهما شرعا، ولكنه فى آية النمل أظهر فى كونه مفتتحا لما بعده، وفى آية الأنعام ختم لما تقدمه ختما، إذ لا يقتضى السياق غير ذلك، والله أعلم.

(٢) قوله « بغتة أو جهرة » كذا فى أبى السعود والبيضاوى. وفى بعض نسخ هذا الكتاب بغتة أو جهرة، وكتب عليه: أى بتحريك الغين والهاء. اهـ (ع)

جعل العذاب ماسا ، كأنه حيّ يفعل بهم مايريد من الآلام . ومنه قولهم : لقيت منه الأمرّين والأقورين [١] حيث جمعوا جمع العقلاء : وقوله (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) .

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾)

أى لا أدعى مايستبعد فى العقول [٢] أن يكون لبشر من ملك خزائن الله ـ وهى قسمه بين الخلق وإرزاقه ، وعلم الغيب ، وأنى من الملائكة الذين هم أشرف جنس [٣] خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه . أى لم أدّع إلهية ولا ملكية ؛ لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، حتى تستبعدوا دعواى وتستنكروها . وإنما أدّعى ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوة (هل يستوى الأعمى والبصير) مثل للضالّ والمهتدى [٤] ويجوز أن يكون

(١) قوله «الأمرين والأقورين» الأمرين ـ بنون الجمع ـ : الدواهى . والأقورين ـ بكسر الراء ـ : الدواهى العظام ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : «أى لا أدعى مايستبعد فى العقول ... الخ» قال أحمد رحمه الله : هو ينبنى على القاعدة المتقدمة له فى تفضيل الملائكة على الأنبياء . ولعمرى إن ظاهر هذه الآية يؤيده ، فلذلك انتهز الفرصة فى الاستدلال بها ولمخالفه أن يقول : إنما وردت الآية رداً على الكفار فى قولهم (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز ... الآية) فرد قولهم : مالهذا الرسول يأكل الطعام ، بأنه بشر وذلك شأن البشر ، ولم يدع أنه ملك حتى يتعجب من أكله للطعام ، وحينئذ لايلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء لأنه لاخلاف أن الأنبياء يأكلون الطعام وأن الملائكة ليسوا كذلك ، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب ذلك اتفاقا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء . وكذلك رد قولهم . أو يلقى إليه كنز ، بأنه لايملك خزائن الله تعالى حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به . وهذه الآية جاء الترتيب فيها مخالفاً لترتيب قوله (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) قال الزمخشرى : لأنهم أعلى من الأنبياء ، وقد أخر ههنا دعوى الملكية عن دعوى الالهية ، إذ الالهية أجل وأعلى ، والملكية أدنى ، ولا محل لذلك إلا التمهيد الذى أسلفته وقد جملت الأمر فى التقديم والتأخير تبعا للسياق ، فقد تقتضى البلاغة فى بعضه عكس ماتقتضيه فى الآخر . ولم يحسن الزمخشرى فى قوله : ليس بعد الالهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، فانه جعل الالهية من جملة المنازل كالملكية . ومثل هذا الاطلاق لايسوغ . والمنزلة عبارة عن المحل الذى ينزل الله فيه العبد من علو وغيره ، فاطلاقها على الالهية تحريف ، والله الموفق للصواب .

(٣) قوله «من الملائكة الذين هم أشرف جنس» أى عند المعتزلة . أما عند أهل السنة ، فالبشر أشرف ، على ماتقرر فى التوحيد . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال : «والأعمى والبصير مثل للضال والمهتدى ... الخ» قال أحمد : قوله أو ادعى المحال يعنى المستحيل ، ولذلك قابله بالمستقيم يريد الممكن ، وذلك مسبب عن دعوى الالهية ، إذ ادعاؤها لايجوز عقلا . وأما =

مثلا لمن اتبع مايوحى إليه . ومن لم يتبع . أو لمن ادّعى المستقيم وهو النبوة . والمحال وهو الإلهية أو الملكية ﴿أفلا تتفكرون﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان . أو فتعلموا أنى ماادعيت مالا يليق بالبشر . أو فتعلموا أن اتباع مايوحى إلىّ مما لا بدّ لى منه . فإن قلت : (أعلم الغيب) ماعمله من الإعراب ؟ قلت : النصب عطفاً على قوله (عندى خزائن الله) ، لأنه من جملة المقول كأنه قال : لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول .

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)

﴿وأنذر به﴾ الضمير راجع إلى قوله (مايوحى إلىّ) و ﴿الذين يخافون أن يحشروا﴾ إمّا قوم داخلون فى الإسلام مقرّون بالبعث إلا أنهم مفرطون فى العمل [1] فينذرهم بما يوحى إليه ﴿لعلهم يتقون﴾ أى يدخلون فى زمرة المتقين من المسلمين . وإمّا أهل الكتاب لأنهم مقرّون بالبعث . وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا ، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار ، دون المتمرّدين منهم ، فأمر أن ينذر هؤلاء . وقوله ﴿ليس لهم من دونه ولىّ ولا شفيع﴾ فى موضع الحال من يحشروا ، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم ، ولا بدّ من هذه الحال ، لأن كلاً

ـــ مدعى الملكية فلا يقاس بمدعي الالهية فى الاستحالة العقلية . ويجوز فى القدرة أن يجعل البشر ملكا والملك بشراً ، كما يجوز أن يجعل البشر أنبياء . ويدل على هذا الجواز قوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) هذا مع أن العقل يجيزه فى قدرة الله تعالى ؛ لأن الجواهر متماثلة ، والمعانى القائمة ببعضها يجوز أن تقوم بكلها فالمعانى التى بها كان الملك ملكا يجوز أن يخلقها الله تعالى للبشر وبالعكس . وعدم وقوعه لا يأبى استقامته وإمكانه ، والله الموفق .

(١) قال محمود : « لذين يخافون إماقوم آمنوا إلا أنهم مفرطون ... الخ » قال أحمد : وإنما كانت هذه الحال لازمة لو قيل : وأنذر به الذين يحشرون ؛ لأنه لولا الحال لعم الأمر بالانذار كل أحد والمقصود تخصيصه بالبعض . وأما وقد قيل (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) فهذا الكلام مستقل برأسه . ومضمونه تخصيص الانذار المأمور به بالقوم الخائفين من البعث ، إما لأنهم مقرون به . وإما لأنهم يحتاطون لأنفسهم فيحملهم الخوف على النظر المفضى إلى اليقين ، دون العتاة المصممين على الجحد وليس كل خائف من البعث لا شفيع له ، فان الموحدين أجمعين خائفون وهم مشفوع لهم ، وإذ عنى باللازمة التى لا ينفك ذو الحال عنها ، كالتى فى قوله (وهو الحق مصدقا) فانما هو حينئذ يبنى على قاعدته فى إنكار الشفاعة ، فكل خائف عنده لا شفيع له إذ لا يخاف إلا أصحاب الكبائر غير التائبين أو الكفار . والكل عنده سواء لا شفيع لهم . وحيث أثبت الشفاعة ، جعلها خاصة بزيادة الثواب ، فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح ، وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على مايرضيه . فهذا عنده لا يخاف من البعث ، لأنه يستوجب الجنة . فمن ثم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان : غير خائف ، فلا تتناوله الآية . وخائف ، فذاك إنما خاف لأنه استوجب العقاب فلا شفاعة تناله . وهذه من دفائنه الخفية ، ومكامنه المزوية ، فتفطن لها ، والله الموفق برحمته .

محشور ، فالخوف إنما هو الحشر على هذه الحال .

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا ، ثم أردفهم ذكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم ، وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك ، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أى عبادته ويواظبون عليها . والمراد بذكر الغداة والعشى : الدوام . وقيل معناه : يصلون صلاة الصبح والعصر ، ووسمهم بالإخلاص فى عبادتهم بقوله ﴿يريدون وجهه﴾ والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته . روى أن رؤسا من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردت عنا هؤلاء الأعبد يعنون فقراء المسلمين ، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم ، وأرواح جبابهم ـ وكانت عليهم جباب من صوف ـ جلسنا إليك وحادثناك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين . فقالوا : فأقمهم عنا إذا جئنا ، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت . فقال : نعم ، طمعاً فى إيمانهم [1] . وروى أن عمر رضى الله عنه قال : لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون . قال فاكتب بذلك كتابا ، فدعا بصحيفة وبعلىّ رضى الله عنه ليكتب ، فنزلت . فرمى بالصحيفة ، واعتذر عمر من مقالته [2] . قال سلمان وخباب : فينا نزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته . وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت [3] : واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ، فترك القيام عنا إلى أن نقوم

(١) رواه البيهقى فى الشعب فى أواخره والواحدى فى الأسباب من رواية أبى مشجعة بن ربعى عن سلمان قال «جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عيينة بن بدر والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا يارسول الله ، إنك لو جلست فى صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك . فأنزل الله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ـ إلى قوله ـ للظالمين ناراً) فقام النبى صلى الله عليه وسلم يلتمسهم . الحديث» ولابن ماجه وابن أبى شيبة والطبرانى وأبو نعيم فى ترجمة خباب . وإسحاق وأبو يعلى والبزار والبيهق أيضا والواحدى من طريق أبى الكنود عن خباب فى قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء ـ الآية ـ إلى الظالمين) قال : جاء الأقرع وعيينة فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب ، قاعداً فى ناس من ضعفاء المؤمنين . فذكره مطولا .

(٢) قلت هو فى حديث خباب المذكور آنفا دون مشورة عمر . واعتذاره .

(٣) قلت أما حديث خباب فمن أوله إلى قوله «أن نقوم» فى حديثه المذكور آنفا . وأما حديث سلمان فقد ذكرته أولا . وأما قوله «وقال الحمد لله . . . إلى آخره» فهو فى حديث سلمان وحده .

عنه وقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى . معكم المحيا ومعكم الممات ﴿ وما عليك من حسابهم من شىء ﴾ كقوله (إن حسابهم إلا على ربى) وذلك أنهم طعنوا فى دينهم وإخلاصهم ، فقال (ما عليك من حسابهم من شىء) بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله فى أعمالهم على معنى : وإن كان الأمر على ما يقولون عند الله ، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة [١] المتقين ، وإن كان لهم باطن غير مرضى فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك ، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم ، كقوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . فإن قلت : أما كفى قوله (ما عليك من حسابهم من شىء) حتى ضم إليه ﴿ وما من حسابك عليهم من شىء ﴾؟ قلت : قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة ، وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى فى قوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً ، كأنه قيل : لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه . وقيل : الضمير للشركين . والمعنى : لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم ، حتى يهمك إيمانهم ويحرك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين ﴿ فتطردهم ﴾ جواب النفى ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ جواب النهى . ويجوز أن يكون عطفا على (فتطردهم) على وجه التسبيب ، لأن كونه ظالما مسبب عن طردهم . وقرئ : بالغدوة والعشى .

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ وكذلك فتنا ﴾ ومثل ذلك الفتن العظيم ، فتنا بعض الناس ببعض ، أى ابتليناهم بهم . وذلك أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين ﴿ أهؤلاء ﴾ الذين ﴿ من الله عليهم من بيننا ﴾ أى أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا ، ونحن المقدمون والرؤساء ، وهم العبيد والفقراء ، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق وممنوناً عليهم من بينهم بالخير . ونحوه (أألقى الذكر عليه من بيننا) ، (لو كان خيراً ما سبقونا إليه) . ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك : خذلناهم [٢] فافتتنوا ، حتى كان افتتانهم سببا لهذا القول ، لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول مفتون ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أى الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان . وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق .

وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ

(١) قوله « بسيمة » لعله « بسمة » . (ع)

(٢) قوله « خذلناهم فافتتنوا » فسر بهذا على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يخلق الشر . وعند أهل السنة يخلق الشر كالخير . (ع)

نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

﴿فقل سلام عليكم﴾ إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم . وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييبا لقلوبهم . وكذلك قوله ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ من جملة ما يقول لهم ليسرهم ويبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم . وقرئ : إنه ، فإنه بالكسر على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل ﴿إنه من عمل منكم﴾ وبالفتح على الإبدال من الرحمة ﴿بجهالة﴾ فى موضع الحال ، أى عمله وهو جاهل . وفيه معنيان ، أحدهما : أنه فاعل فعل الجهلة لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر فى العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير . ومنه قول الشاعر :

عَلَى أَنَّهَا قَالَتْ عَشِيَّةَ زُرْتُهَا جَهِلْتَ عَلَى عَمْدٍ وَلَمْ تَكُ جَاهِلَا [١]

والثانى : أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة . ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شىء حتى يعلم حاله وكيفيته . وقيل : إنها نزلت فى عمر رضى الله عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة .

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

وقرئ ﴿ولتستبين﴾ بالتاء والياء مع رفع السبيل لأنها تذكر وتؤنث . وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل . يقال : استبان الأمر وتبين واستبنته وتبينته . والمعنى : ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها فى صفة أحوال المجرمين ، من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه ، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذى يخاف إذا سمع ذكر القيامة ، ومن دخل فى الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده ، ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به ، فصلنا ذلك التفصيل .

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ

(١) « على » بمعنى « مع » أى قالت عشية زيارتى إياها « جهلت » أى فعلت فعل الجاهل ، أو تجاهلت وادعيت الجهل ، مع تعمدك ولم تك جاهلا حين الفعل . أو لم تك فيما مضى جاهلا بشىء . (ع)

خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

﴿نهيت﴾ صرفت وزجرت ، بما ركب فيّ من أدلة العقل ، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ماتعبدون ﴿من دون الله﴾ وفيه استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة ﴿قل لا أتبع أهواءكم﴾ أى لا أجرى فى طريقتكم التى سلكتموها فى دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل ، وهو بيان للسبب الذى منه وقعوا فى الضلال ، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل ﴿قد ضللت إذا﴾ أى إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من الهدى فى شيء يعنى أنكم كذلك . ولما نفى أن يكون الهوى متبعا نبه على ما يجب اتباعه بقوله ﴿قل إنى على بينة من ربى﴾ ومعنى قوله (إنى على بينة من ربى وكذبتم به) : إنى من معرفة ربى وأنه لا معبود سواه ، على حجة واضحة وشاهد صدق ﴿وكذبتم به﴾ أنتم حيث أشركتم به غيره . يقال : أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه ، إذا كان ثابتا عندك بدليل . ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يغافصوا [1] بالعذاب المستأصل فقال ﴿ماعندى ماتستعجلون به﴾ يعنى العذاب الذى استعجلوه فى قولهم (فأمطر علينا حجارة من السماء) ﴿إن الحكم إلا لله﴾ فى تأخير عذابكم ﴿يقض الحق﴾ أى القضاء الحق فى كل ما يقضى من التأخير والتعجيل فى أقسامه ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أى القاضين . وقرئ : يقص الحق [2] أى يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره ، من قص أثره ﴿لو أن عندى﴾ أى فى قدرتى وإمكانى ﴿ماتستعجلون به﴾ من العذاب ﴿لقضى الأمر بينى وبينكم﴾ لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى وامتعاضا [3] من تكذيبكم به . ولتخلصت منكم سريعا ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ وبما يجب فى الحكمة من كنه عقابهم . وقيل (على بينة من ربى) على حجة من جهة ربى وهى القرآن (وكذبتم به) أى بالبينة . وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن . فإن قلت : بم انتصب الحق ؟ قلت : بأنه صفة لمصدر يقضى ، أى يقضى القضاء الحق . ويجوز أن يكون مفعولا به من قولهم : قضى الدرع إذا صنعها ، أى يصنع الحق ويدبره . وفى قراءة عبد الله : يقضى بالحق . فإن قلت : لم أسقطت الياء فى الخط ؟ قلت : إتباعا للخط اللفظ ، وسقوطها فى اللفظ لالتقاء الساكنين .

---

(١) قوله « يغافصوا » أى يؤاخذوا على غفلة . يقال : غافصت الرجل أخذته على غرة له (ع)

(٢) قوله « وقرئ يقص الحق » ظاهره أن قراءة (يقض) من القضاء ، هى المشهورة . فليحرر . (ع)

(٣) قوله « وامتعاضا » الامتعاض : اشتداد الغضب . أفاده الصحاح . (ع)

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة ، لأنّ المفاتح يتوصل بها إلى ما فى المخازن [1] المتوثق منها بالأغلاق والأقفال . ومن علم مفاتحها وكيف تفتح، توصل إليها ، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها ، فهو المتوصل إلى مافى المخازن . والمفاتح : جمع مفتح وهو المفتاح . وقرئ مفاتيح ، وقيل : هى جمع مفتح ـ بفتح الميم ـ وهو المخزن . ﴿ولا حبة . . . ولا رطب ولا يابس﴾ عطف على ورقة [2] وداخل فى حكمها ، كأنه قيل : وما يسقط من شىء من هذه الأشياء إلا يعلمه . وقوله ﴿إلا فى كتاب مبين﴾ كالتكرير لقوله (إلا يعلمها) لأنّ معنى (إلا يعلمها) ومعنى (إلا فى كتاب مبين) واحد . والكتاب المبين : علم الله تعالى ، أو اللوح : وقرئ : ولا حبة ، ولا رطب ، ولا يابس ، بالرفع . وفيه وجهان : أن يكون عطفاً على محل (من ورقة) وأن يكون رفعاً على الابتداء وخبره (إلا فى كتاب مبين) : كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا فى الدار .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ الخطاب للكفرة ، أى أنتم منسدحون [3] الليل كله

---

(١) قال محمود . « المفاتح استعارة ، لأن المفاتح يتوصل بها الى ما فى المخازن ... الخ » قال أحمد : إطلاق التوصل على الله تعالى ليس سديدا فانه يوهم تجدد وصول بعد تباعد إذ قول القائل توصل زيد إلى كذا يفهم أنه وصل بعد تكلف وبعد والله تعالى مقدس عن ذلك والغائب كالحاضر فى علمه والعلم بالكائن هو العلم بما سيكون لا يتغاير ولا يختلف وليس لنا أن نطلق مثل هذا الاطلاق إلا عن ثبت ، والله الموفق .

(٢) عاد كلامه . قال : « ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس ، عطف على ورقة وداخل فى حكمها ... الخ » قال أحمد : وفائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده ، لأنه لما عطف على ورقة بعد أن سلب الايجاب لمقصود للعلم فى قوله (إلا يعلمها) وكانت هذه المعطوفات داخلة فى إيجاب العلم وهو المقصود وطالت ، وبعد ارتباط آخرها بالايجاب السالف كان ذلك جديراً بتجديد العهد بالمقصود ، ثم كان اللائق بالبلاغة المألوفة فى القرآن التجديد بعبارة أخرى . ليتلقاها السامع غضة جديدة غير مملولة بالتكرير . وهذا السر إنما يقب عنه المسيطر فى علم البيان ونكت القلب ، والله الموفق .

(٣) قوله « منسدحون » أى منسطحون على القفا . أو منقلبون على الوجه أفاده الصحاح . (ع)

كالجيف ﴿ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾ ما كسبتم من الآثام فيه ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ ثم يبعثكم من القبور فى شأن ذلك الذى قطعتم به أعماركم ، من النوم بالليل ، وكسب الآثام بالنهار ، ومن أجله ، كقولك : فيم دعوتنى ؟ فتقول :[1] فى أمر كذا ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ وهو الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم . ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ وهو المرجع إلى موقف الحساب ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ فى ليلكم ونهاركم .

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)

﴿حفظة﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون . وعن أبى حاتم السجستانى كان يكتب عن الأصمعى كل شىء يلفظ به من فوائد العلم ، حتى قال فيه . أنت شبيه الحفظة ، تكتب لغط اللفظة : فقال أبو حاتم : وهذا أيضاً مما يكتب . فإن قلت : الله تعالى غنىّ بعلمه عن كتبة الملائكة ، فما فائدتها ؟ قلت : فيها لطف للعباد ، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها فى صحائف تعرض على رؤس الأشهاد فى مواقف القيامة ، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء ﴿توفته رسلنا﴾ أى استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه . وعن مجاهد : جعلت الأرض له مثل الطست يتناول من يتناوله . وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم فى كل يوم مرّتين . وقرئ : توفاه . ويجوز أن يكون ماضياً ومضارعاً بمعنى تتوفاه . و ﴿يفرطون﴾ بالتشديد والتخفيف ، فالتفريط التوانى والتأخير عن الحدّ ، والإفراط مجاوزة الحدّ أى لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه ﴿ثم ردوا إلى الله﴾ أى إلى حكمه وجزائه ﴿مولاهم﴾ مالكهم الذى يلى عليهم أمورهم ﴿الحق﴾ العدل الذى لا يحكم إلا بالحق ﴿ألا له الحكم﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ لا يشغله حساب عن حساب . وقرئ (الحق) بالنصب على المدح كقولك : الحمد لله الحق .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)

---

(١) قوله « فتقول فى أمر كذا » لعله : فيقول . (ع)

﴿ظلمات البر والبحر﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما. يقال لليوم الشديد: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب. أي اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل؛ ويجوز أن يراد. مايشفون[1] عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم، فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتهما ﴿لئن أنجيتنا﴾ على إرادة القول ﴿من هذه﴾ من هذه الظلمة الشديدة. وقرئ (ينجيكم) بالتشديد والتخفيف. وأنجانا. وخفية، بالضم والكسر.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)

﴿هو القادر﴾ هو الذى عرفتموه قادراً وهو الكامل القدرة ﴿عذاباً من فوقكم﴾ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل من فوقكم: من قبل أكابركم وسلاطينكم. ومن تحت أرجلكم: من قبل سفلتكم وعبيدكم. وقيل: هو حبس المطر والنبات ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ أو يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام. ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا فى ملاحم القتال، من قوله:

وَكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ ... حَتَّى إِذَا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدِى[2]

(١) قوله «ما يشفون عليه» أى يشرفون ويقربون. أفاده الصحاح. (ع)

(٢)
وكتيبة لبستها بكتيبة ... حتى إذا التبست نفضت لها يدى
فتركتهم تقص الرماح ظهورهم ... من بين منعفر وآخر مسند
ما كان ينفعنى مقال نسائهم ... وقتلت دون رجالها لا تبعد

للفرار السلمي، يمدح نفسه بأنه مهياج للشر يعرف مداخله ومخارجه. يقول: رب جماعة خلطتها بأخرى، حتى إذا تم اختلاطهما تخلصت منهما وتركتهما فى حيص بيص، لكن فيه إثبات طرف من اللؤم. ونفض اليد: كناية عن التخلص. والوقص: الدق والكسر. والمنعفر: المجروح بالسهم، فتنقطع قوته من العقر وهو القطع. ويروى: منعفر، بالفاء أى متعفر بالتراب. والمسند: اسم مفعول، أى دابرين بين ساقط ومتكىء على غيره، ولا تبعد: مقول المقال، وهو بفتح العين أى لا تهلك، وهي كلمة تقولها النساء عند المصيبة. وقوله «وقتلت» حال، أى والحال أنى قد قتلت دون رجال تلك النساء، أى أمامهم، أو من بينهم لكفايتى عنهم. أى لو صبرت لقتلت، ولم يحينى كلام نسائهم وتفجعهم على مع سلامة رجالهن.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سألت الله أن لا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل أنّ فناء أمتي بالسيف»[1] وعن جابر بن عبد الله لما نزل (من فوقكم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بوجهك» فلما نزل (أو من تحت أرجلكم. أو يلبسكم شيعا) قال «هاتان أهون»[2] ومعنى الآية: الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة. والضمير في قوله ﴿وكذب به﴾ راجع إلى العذاب ﴿وهو الحق﴾ أي لابدّ أن ينزل بهم ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ بحفيظ وُكل إليّ أمركم أمنعكم من التكذيب إجباراً، إنما أنا منذر ﴿لكل نبأ﴾ لكل شيء ينبأ به، يعني إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به ﴿مستقر﴾ وقت استقرار وحصول لا بدّ منه. وقيل: الضمير في (به) للقرآن.

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

﴿يخوضون في آياتنا﴾ في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فأعرض عنهم﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ فلا بأس أن تجالسهم حينئذ ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم[3]

---

(١) كذا ذكره الثعلبي بغير سند. وهو في عدة أحاديث دون خبر جبريل. فروى ابن مردويه من حديث عمرو بن قيس عن رجل عن ابن عباس قال «لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم . . . الآية) قال: فقام النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ ثم قال: اللهم لا ترسل على أمتي عذابا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم، ولا تلبسهم شيعا. فأتاه جبريل. فقال: يا محمد إن الله قد أجار أمتك أن يبعث عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم»، وله شواهد: منها في مسلم عن سعد مرفوعا «سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها»، وعند مسلم من حديث ثوبان مطولا. وعند عبد الرزاق من حديث شداد بن أوس مطولا أيضا وفي الموطأ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «دعا لأمته أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم ولا يهلكهم بالسنين فأعطيها ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها»، ولابن ماجه من حديث معاذ نحو حديث سعد وللنسائي من حديث أنس نحوه وللترمذي من حديث خباب بن الأرت نحوه، وعند أحمد من حديث أبي بصرة الغفاري نحوه وفي الطبراني من حديث ابن عباس، وقوله «وأن فناء أمتي بالسيف» رواه من حديث

(٢) أخرجه البخاري من حديث جابر

(٣) قال محمود: «معناه وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي ... الخ» قال أحمد: وهذا التأويل الثاني يروم ═

﴿فلا تقعد﴾ معهم ﴿بعد الذكرى﴾ بعد أن تذكر النهى . وقرئ : ينسينك . بالتشديد . ويجوز أن يراد : وإن كان الشيطان ينسينك قبل النهى[1] قبح مجالسة المستهزئين لأنها مما تنكره العقول ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ بعد أن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم ﴿ولكن﴾ عليهم أن يذكروهم ﴿ذكرى﴾ إذا سمعوهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم ، وموعظتهم ﴿لعلهم يتقون﴾ لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم . ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون ، أى يذكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوها . وروى أن المسلمين قالوا : لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس فى المسجد الحرام وأن نطوف ، فرخص لهم . فإن قلت : ما محل (ذكرى) ؟ قلت : يجوز أن يكون نصباً على : ولكن يذكرونهم ذكرى ، أى تذكيراً . ورفعا على : ولكن عليهم ذكرى . ولا يجوز أن يكون عطفاً على محل (من شيء) ، كقولك : ما فى الدار من أحد ولكن زيد ، لأن قوله ﴿من حسابهم﴾ يأبى ذلك .

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ أى دينهم الذى كان يجب أن يأخذوا به لعباً ولهواً . وذلك أن عبدة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب وغير ذلك ، من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة ، ومن جنس الهزل دون الجد . واتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم . أو اتخذوا دينهم الذى كلفوه ودعوا إليه وهو دين

= تنزيله على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل ، وأنه كاف وإن لم يرد شرع فى التحريم وغيره من الأحكام إذا كانت واضحة للعقل ، كمجالسته المستهزئين فان قبحها بين العقل فهو مستقل بتحريمها ، وحيث ورد الشرع بذلك فهو كاشف لحكمها ومبنية عليه ، لا منشىء فيها حكما . وقد علمت فساد هذه القاعدة ومخالفتها للعقائد السنية ، على أن الآية تنبو عنه فانه لو كان النسيان المراد ههنا نسيان الحكم الذى يدل عليه العقل قبل ورود هذا النهى ، لما عبر بالمستقبل فى قوله (وإما ينسينك) فأما وقد ورد بصيغة الاستقبال فلا وجه لحمله على الماضى ، والله الموفق .

(١) قوله «كان الشيطان ينسينك قبل النهى» بناء على أن هناك حكما قبل الشرع وهو مذهب المعتزلة ، ولا حكم قبل الشرع عند أهل السنة . (ع)

الإسلام لعباً ولهواً، حيث سخروا به واستهزؤا. وقيل: جعل الله لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً، غير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله. ومعنى «ذرهم» اعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم ﴿وذكر به﴾ أى بالقرآن ﴿أن تبسل نفس﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها. وأصل الإبسال المنع، لأن المسلم إليه يمنع المسلم، قال:

وَإِبْسَالِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ ... بَعَوْنَاهُ وَلاَ بِدَمٍ مُرَاقِ [1]

ومنه: هذا عليك بسل، أى حرام محظور. والباسل: الشجاع لامتناعه من قرنه، أو لأنه شديد البسور. يقال: بسر الرجل إذا اشتد عبوسه، فإذا زاد قالوا: بسل. والعابس: منقبض الوجه ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ وإن تفد كل فداء، والعدل الفدية [2] لأن الفادى يعدل المفدى بمثله. وكل عدل: نصب على المصدر. وفاعل (يؤخذ) قوله (منها) لا ضمير العدل لأن العدل ههنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ. وأما فى قوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) فبمعنى المفدى به، فصح إسناده إليه ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً. قيل: نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان [3].

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ

---

(١) لعوف بن الأحوص الباهلى. والابسال: التسليم للباسل أى الشجاع المانع العابس. والبعو: بالعين المهملة ـ الجناية. يتحسر على تسليم أبنائه لبنى قشير رهنا فى دم رجل منهم اسمه أبو الصحيفة. بغير جرم: أى ذنب جنيناه أنا وأولادى، ولا بدم مراق أى مسال منا، كناية عن القتل.

(٢) قال محمود: «معناه وإن تفد كل فداء والعدل الفدية ... الخ» قال أحمد: وهذا أيضا من عيون إعرابه ونكت إعرابه التى طالما ذهل عنها غيره، وهو من جنس تدقيقه فى منع عود الضمير من قوله (فتنفخ فيها) إلى الهيئة من قوله (كهيئة الطير) مع أنه السابق إلى الذهن، وإنما حمله على القول بأن العدل ههنا مصدر أن الفعل تعدى إليه بغير واسطة. ولو كان المراد المفدى به لكان مفعولا به، فلم يتعد إليه الفعل إلا بالباء، وكان وجه الكلام: وإن تعدل بكل عدل، فلما عدل عنه علم أنه مصدر، والله أعلم.

(٣) قال محمود: «نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان ... الخ» قال أحمد: ومن أنكر الجن واستيلاءها على بعض الآدمى بقدرة الله تعالى حتى يحدث من ذلك الخبطة والصرع ونحوهما، فهو ممن استهوته الشياطين فى مهامه الضلال الفلسفى، حيران له أصحاب من الموحدين يدعونه إلى الهدى الشرعى اتقاء، وهو راكب فى ضلالة التعاسيف لا يلوى عليهم ولا يلتفت إليهم، فمرة يقول: إن الوارد فى الشرع من ذلك تخييل، كما تقدم فى سورة البقرة. ومرة يعده من زعمات العرب وزخارفها. وقد أسلفنا ذلك فى البقرة وآل عمران قولا شافياً بليغا، نجدد به عهداً، والله الموفق.

إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

﴿قل أندعو﴾ أنعبد ﴿من دون الله﴾ الضارّ النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا ﴿ونرد على أعقابنا﴾ راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام ﴿كالذى استهوته الشياطين﴾ كالذى ذهبت به مردة الجن والغيلان ﴿فى الأرض﴾ المهمه (١) ﴿حيران﴾ تائهاً ضالا عن الجادة لايدرى كيف يصنع ﴿له﴾ أى لهذا المستهوى ﴿أصحاب﴾ رفقة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ إلى أن يهدوه الطريق المستوى. أو سمى الطريق المستقيم بالهدى، يقولون له ﴿ائتنا﴾ وقد اعتسف المهمه تابعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم. وهذا مبنى على ما تزعمه العرب وتعتقده: أن الجنّ تستهوى الإنسان. والغيلان تستولى عليه، كقوله (كالذى يتخبطه الشيطان من المس) فشبه الضالّ عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم ﴿قل إنّ هدى الله﴾ وهو الإسلام ﴿هو الهدى﴾ وحده وما وراءه ضلال وغىّ (ومن يبتغ غير الإسلام دينا). (فماذا بعد الحق إلا الضلال). فإن قلت: فما محل الكاف فى قوله (كالذى استهوته)؟ قلت النصب على الحال من الضمير فى (نرد على أعقابنا) أى: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين؟ فإن قلت: مامعنى (استهوته)؟ قلت: هو استفعال، من هوى فى الأرض إذا ذهب فيها، كأن معناه: طلبت هويه وحرصت عليه. فإن قلت: مامحل ﴿أمرنا﴾ قلت: النصب عطفاً على محل قوله (إنّ هدى الله هو الهدى) على أنهما مقولان، كأنه قيل: قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم. فإن قلت: مامعنى اللام فى ﴿لنسلم﴾؟ قلت: هى تعليل للأمر، بمعنى: أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم. فإن قلت: فإذا كان هذا وارداً فى شأن أبى بكر الصديق رضى الله عنه (٢) فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام قل أندعو؟

(١) قوله «والأرض المهمه» أى المفازة المتسعة. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) عاد كلامه. قال: «فإن قلت إذا كان هذا وارداً فى أبى بكر، فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام (قل أندعوا من دون الله ... الخ)؟ قال أحمد: هو مبنى على أن الأمر هو الارادة، أو من لوازمه إرادة المأمور به، وهذا الاعراب منزل على معتقده هذا. وأما أهل السنة فكما علمت أن الأمر عندهم غير الارادة ولايستلزمها. وقولهم فى هذه اللام كقولهم (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) من نفى كونها تعليلا. والوجه فى ذلك أنهم لما أوضحت لهم الآيات البينات وأزيحت عنهم العلل وتمكنوا من الاسلام والعبادة امتثالا للأمر جعلوا بمثابة من أريد منهم ذلك تمكيناً لحضهم على الامتثال واقطع أعذارهم إذا فعل بهم فعل المراد منهم ذلك، وما شأن المريد للشىء إذا كان قادراً على حصوله أن يزيح العلل ويرفع الموانع، وكذلك فعل مع المكلفين وإن لم تكن الطاعة =

قلت : للاتحاد الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، خصوصاً بينه وبين الصديق أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وأن أقيموا﴾ [1] ؟ قلت : على موضع (لنسلم) كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم ، وأن أقيموا . ويجوز أن يكون التقدير : وأمرنا لأن نسلم ، ولأن أقيموا : أى للإسلام ولإقامة الصلاة ﴿قوله الحق﴾ مبتدأ . ويوم يقول : خبره مقدما عليه ، وانتصابه بمعنى الاستقرار ، كقولك : يوم الجمعة القتال . واليوم بمعنى الحين . والمعنى : أنه خلق السموات والأرض قائما بالحق والحكمة ، وحين يقول لشيء من الأشياء (كن) فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة . أى لا يكون شيأ من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب . و﴿يوم ينفخ﴾ ظرف لقوله ﴿وله الملك﴾ كقوله (لمن الملك اليوم) ؟ ويجوز أن يكون (قوله الحق) فاعل يكون ، على معنى : وحين يقول لقوله الحق ، أى لقضائه الحق (كن) فيكون قوله الحق . وانتصاب اليوم لمحذوف [2] دلّ عليه قوله (بالحق) كأنه قيل : وحين يكوّن ويقدّر يقوم بالحق ﴿عالم الغيب﴾ هو عالم الغيب ، وارتفاعه على المدح .

= مرادة من جميعهم ، وأما إذا كانت اللام هى التى تصحب المصدر كما يقول الزجاج : تقديره الأمر للاسلام وكذلك يقول فى قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم) الارادة للبيان وهى اللام التى تصحب المفعول عند تقدمه فى قولك : لزيد ضربت ، فهى على هذا الوجه غير محتاجة للتأويل . وقد قيل إنها بمعنى أن كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم قال هذا القائل . وكى ولام كى فى أمرت وأردت خاصة ، بمعنى «أن» لا على بابها من التعليل . والغرض من دخولها إفادة الاستقبال على وجه أوثق وأبلغ ، إذ لا يتعلق هذان المعنيان - أعنى الأمر والارادة - إلا بمستقبل ، وقد جمع بين الثلاثة اللام وكى وأن ، فى قوله * أردت لكيما أن يطير ... «البيت» * وهذا الوجه أيضا سالم المعنى من الخلل الذى يعتقده الزمخشرى ، والمحافظة على العقيدة . وقد وجدنا السبيل الى ذلك بحمد الله متعينة ، والله الموفق .

(١) عاد كلامه . قال : «فان قلت علام عطف قوله : وأن أقيموا ... الخ» ؟ قال أحمد : وهذا مصداق للقول بأن لنسلم معناه أن نسلم ، وأن اللام فيه رديفة «أن» لايراد عطفها عليها ، فذلك هو الوجه الصحيح إن شاء الله . وفى ورود (أقيموا الصلاة) محكيا بصيغته ، وورود (نسلم) محكيا بمعناه ، إذ الأصل المطابق لأقيموا : أسلموا ، مصداق لما قدمته عند قوله تعالى (ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم) وبينت ثم أن ذلك جائز على أن يكون عيسى عليه السلام حكى قول الله تعالى : اعبدوا الله ربكم ورب عيسى بمعناه فقال : اعبدوا الله ربى وربكم ، فهذا مثله حكاية المعنى دون اللفظ ، والله أعلم .

(٢) قوله «لمحذوف» لعله «بمحذوف» . (ع)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

﴿آزر﴾ اسم أبى إبراهيم عليه السلام. وفى كتب التواريخ أنّ اسمه بالسريانية تارح. والأقرب أن يكون وزن (آزر) فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان لأبيه. وقرئ (آزر) بالضم على النداء. وقيل «آزر» اسم صنم، فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته، كما نبز ابن قيس بالرقيات اللاتى كان يشبب بهنّ، فقيل ابن قيس الرقيات. وفى شعر بعض المحدثين:

أُدْعَى بِأَسْمَاءَ نَبْزاً فِي قَبَائِلِهَا ... كَأَنَّ أَسْمَاءَ أَضْحَتْ بَعْضَ أَسْمَائِي [١]

أو أريد عابد آزر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقرئ «أزر تتخذ أصناما آلهة» بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاى ساكنة وراء منصوبة منونة، وهو اسم صنم. ومعناه: أتعبد آزراً على الإنكار؟ ثم قال: تتخذ أصناما آلهة تثبيتا لذلك وتقريرا، وهو داخل فى حكم الإنكار، لأنه كالبيان له ﴿فلما جنّ عليه الليل﴾ عطف على قال إبراهيم لأبيه [٢]

(١) يقول: ينادونى بلفظ «أسماء» شتما لى بين قبائلها: أى قبائل المحبوبة. ففيه استخدام. «كأن أسماء» أى هذا اللفظ، أضحت: أى صارت بعض أسمائى. وأصل أسماء عند سيبويه: وسماء، من الوسامة وهى الحسن والجمال. قلبت واوه همزة على غير قياس. كما فى أحد. وعند المبرد جمع اسم. وبين أسماء وأسمائى الجناس التام. وعلى اعتبار ياء المتكلم فهو من الناقص.

(٢) قال محمود: «وقوله (فلما جن عليه الليل) عطف على (قال إبراهيم لأبيه) ...الخ» قال أحمد: وفى الاعتراض بهذه الجملة تنويه بما سيأتى من استدلال إبراهيم عليه السلام وأنه تبصير له من الله تعالى وتسديد.

وقوله (وكذلك نرى إبراهيم) جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى : ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره. ملكوت السموات والأرض: يعنى الربوبية والإلهية ونوفقه لمعرفتها ونرشده بما شرحنا صدره وسددنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال. وليكون من الموقنين: فعلنا ذلك. ونرى : حكاية حال ماضية ، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب [1] ، فأراد أن ينبههم على الخطإ فى دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أن شيأ منها لا يصح أن يكون إلها ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثا أحدثها ، وصانعا صنعها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها ﴿هذا ربى﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأنّ ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿لا أحب الآفلين﴾ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال ، المتنقلين من مكان إلى مكان ، المحتجبين بستر ، فإنّ ذلك من صفات الأجرام ﴿بازغا﴾ مبتدئا فى الطلوع ﴿لئن لم يهدنى ربى﴾ تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكوكب فى الأفول ، فهو ضال ، وأنّ الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه ﴿هذا أكبر﴾ من باب استعمال النصفة [2] أيضاً مع خصومه ﴿إنى برىء مما تشركون﴾ من الأجرام التى تجعلونها شركاء لخالقها ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض﴾ أى للذى دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها. وقيل : هذا كان نظره واستدلاله فى نفسه ، فحكاه الله.

---

(١) عاد كلامه قال : «وكان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ... الخ ، قال أحمد : والتعريض بضلالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولا (لا أحب الآفلين) إنما ترقى إلى ذلك لأن الخصوم قد أقامت عليه الاستدلال الأول حجة ، فأنسوا بالقدح فى معتقدهم. ولو قيل هذا فى الأول ، فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال ، فما عرض صلوات الله عليهم بأنهم فى ضلالة ، إلا بعد أن وثق باصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى فى النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتقريع بأنهم على شرك ، حين قيام الحجة عليهم وتبلج الحق وبلغ من الظهور غاية المقصود ، والله أعلم .

(٢) عاد كلامه . قال : و«قوله (هذا أكبر) من باب استعمال النصفة أيضاً مع الخصوم ... الخ» قال أحمد : وصدق الزمخشرى ، بل ذلك متعين. وقد ورد الحديث الوارد فى الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسى نفسى لا أسأل أحداً غيرى ، ويذكر كذباته الثلاث ويقول : لست لها ، يريد قوله لسارة «هى أختى» وإنما عنى فى الاسلام . وقوله «إنه سقيم» وإنما عنى همه بقومه وبشركهم ، والمؤمن يسقمه ذلك . وقوله «بل فعله كبيرهم» وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض ، فاذا عد صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دل ذلك على أنها أعظم ما صدر منه ، فلو كان الأمر على ما يقال من أن هذا الكلام حكى عنه على أنه نظر لنفسه ، لكان أولى أن يعده أعظم مما ذكرناه لأنه حينئذ يكون شكا بل جزما ، على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك .

والأول أظهر ، لقوله (لئن لم يهدنى ربى) وقوله (وياقوم إنى برىء مما تشركون) . فإن قلت : لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ [1] ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال ؟ قلت : الاحتجاج بالأفول أظهر ، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب . فإن قلت : ما وجه التذكير فى قوله (هذا ربى) والإشارة للشمس ؟ قلت : جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شىء واحد ، كقولهم : ماجاءت حاجتك ، ومن كانت أمك ، (ولم تكن فتنتهم إلا أن قالوا) وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث . ألا تراهم قالوا فى صفة الله «علام» ولم يقولوا «علامة» وإن كان العلامة أبلغ ، احترازا من علامة التأنيث . وقرئ : ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، بالتاء ورفع الملكوت . ومعناه : تبصره دلائل الربوبية .

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ

---

(١) عاد كلامه . قال : فان قلت : لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال ... الخ . قال أحمد : وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسناته .

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله﴾ وكانوا حاجوه فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه منكرين لذلك ﴿وقد هدان﴾ يعنى إلى التوحيد ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ وقد خوفوه أن معبوداتهم تصيبه بسوء ﴿إلا أن يشاء ربى شيئا﴾ إلا وقت مشيئة ربى [1] شيئاً يخاف، فحذف الوقت، يعنى لا أخاف معبوداتكم فى وقت قط؛ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة، إلا إذا شاء ربى أن يصيبنى بمخوف من جهتها إن أصبت ذنبا أستوجب به إنزال المكروه، مثل أن يرجمنى بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر، أو يجعلها قادرة على مضرتى ﴿وسع ربى كل شىء علما﴾ أى ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون فى علمه إنزال المخوف بى من جهتها ﴿أفلا تتذكرون﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز ﴿وكيف أخاف﴾ لتخويفكم شيئا مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه ﴿و﴾ أنتم ﴿لا تخافون﴾ ما يتعلق به كل مخوف وهو إشراككم بالله ما لم ينزل باشراكه ﴿سلطانا﴾ أى حجة، لأن الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة، كأنه قال: وما لكم تنكرون علىّ الأمن [2] فى موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن فى موضع الخوف. ولم يقل: فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم، احترازاً من تزكيته نفسه، فعدل عنه إلى قوله ﴿فأى الفريقين﴾ يعنى فريقى المشركين والموحدين. ثم استأنف الجواب عن السؤال

(١) قال محمود: «(إلا أن يشاء) معناه إلا وقت مشيئة ربى شيئاً فحذف الوقت ... الخ» قال أحمد: هو بمعنى يجعلها قادرة، على أن المضرة خلق قدرة يخلق بها المضرة لمن يريد، بناء على قاعدته. وقد علمت أن عقيدة أهل السنة أن ذلك لا يجوز عقلا أن يخلق غير الله ولا يقدر قدرة مؤثرة فى المقدور إلا هو، وإن كان الزمخشرى لم يصرح ههنا من عقيدته، فانما يعنى حيث يصرح أو يكنى ما يلائمها ويتنزل عليها، وغاية خوف إبراهيم منها المعلق على مشيئة الله لذلك، خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى لا بها. وكأنه فى الحقيقة لم يخف إلا من الله، لأن الخوف الذى أثبته منها معلق بمشيئة الله وقدرته، وهو كلا خوف منها، والله أعلم.

(٢) عاد كلامه. قال: «ومعنى وكيف أخاف ما أشركتم .. الخ: مالكم تنكرون على الأمن ... الخ» قال أحمد: ويحتمل أن يكون العدول إلى ذلك ليعم بالأمن كل موحد، وبالخوف كل مشرك، ويندرج هو فى حكم الموحدين وقومه فى حكم المشركين. وأحسن الجواب ما أفاد وزاد.

بقوله ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم [١] . وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس ﴿وتلك﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله (فلما جنّ عليه الليل) إلى قوله (وهم مهتدون) . ومعنى ﴿آتيناها﴾ أرشدناه إليها ووفقناه لها ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعنى فى العلم والحكمة . وقرئ بالتنوين ﴿ومن ذرّيته﴾ الضمير لنوح أو لإبراهيم . و﴿داود﴾ عطف على نوحا ، أى وهدينا داود ﴿ومن آبائهم﴾ فى موضع النصب عطفاً على كلاًّ ، بمعنى : وفضلنا بعض آبائهم ﴿ولو أشركوا﴾ مع فضلهم وتقدّمهم وما رفع لهم من الدرجات . لكانوا كغيرهم فى حبوط أعمالهم ، كما قال تعالى وتقدّس (لئن أشركت ليحبطنّ عملك) . ﴿آتيناهم الكتاب﴾ يريد الجنس ﴿فإن يكفر بها﴾ بالكتاب والحكمة والنبوّة . أو بالنبوّة ﴿هؤلاء﴾ يعنى أهل مكة ﴿قوما﴾ هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم ، بدليل قوله ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وبدليل وصل قوله (فإن يكفر بها هؤلاء) بما قبله . وقيل : هم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكل من آمن به . وقيل : كل مؤمن من بنى آدم . وقيل : الملائكة وادّعى الأنصار أنها لهم . وعن مجاهد : هم الفرس . ومعنى توكيلهم بها : أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشىء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه . والباء فى (بها) صلة كافرين . وفى ﴿بكافرين﴾ تأكيد النفى . ﴿فبهداهم اقتده﴾ فاختص هداهم بالاقتداء ، ولا تقتد إلا بهم . وهذا معنى تقديم المفعول ، والمراد بهداهم طريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع ، فإنها مختلفة وهى هدى ، مالم تنسخ . فإذا نسخت لم تبق هدى ، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً . والهاء فى (اقتده) للوقف تسقط فى الدرج . واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء فى المصحف

وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

(١) قال محمود : «والمراد بقوله (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم . وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس» قال أحمد : وقد ورد أن الآية لما نزلت عظمت على الصحابة ، وقالوا أينا لم يظلم نفسه . فقال عليه الصلاة والسلام «إنما هو الظلم فى قول لقمان : (إن الشرك لظلم عظيم) » وإنما هو يروم بذلك تنزيله على معتقده فى وجوب وعيد العصاة ، وأنهم لاحظ لهم فى الأمن كالكفار ، ويجعل هذه الآية تقتضى تخصيص الأمن بالجامعين الأمرين : الايمان والبراءة من المعاصى . ونحن نسلم ذلك ، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة هو الخوف اللاحق للكفار ؛ لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت وهم آمنون من الخلود . وأما الكفار ؛ فغير آمنين بوجه ما ، والله الموفق .

﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾ وما عرفوه حق معرفته فى الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحى إليهم ، وذلك من أعظم رحمته وأجلّ نعمته (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أو ماعرفوه حق معرفته فى سخطه على الكافرين وشدّة بطشه بهم ، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوة . والقائلون هم اليهود ، بدليل قراءة من قرأ : (تجعلونه) بالتاء . وكذلك (تبدونها وتخفون) وإنما قالوا ذلك مبالغة فى إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فألزموا ما لابدّ لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام ، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعى عليهم [1] سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم ، وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل : ﴿جاء به موسى﴾ وهو نور وهدى للناس ، حتى غيروه ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة ، ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء . وروى أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أنّ الله يبغض الحبر السمين ؟ فأنت الحبر السمين ، قد سمنت من مالك الذى يطعمك اليهود [2]. فضحك القوم ، فغضب ، ثم التفت إلى عمر فقال : ماأنزل الله على بشر من شىء ، فقال له قومه : ويلك ماهذا الذى بلغنا عنك ؟ قال : إنه أغضبنى ، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف . وقيل القائلون قريش [3] وقد ألزموا إنزال التوراة ، لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة ، وكانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب ، لكنا أهدى منهم ﴿وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ الخطاب لليهود ، أى علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مما أوحى إليه مالم تعلموا أنتم ، وأنتم حملة التوراة ، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ، كقوله تعالى : لتنذر قوماً ماأنذر آباؤهم . ﴿قل الله﴾ أى أنزله الله ، فإنهم لا يقدرون أن يناكروك ﴿ثم ذرهم فى خوضهم﴾ فى باطلهم الذى يخوضون فيه ، ولا عليك بعد إلزام الحجة . ويقال لمن كان فى عمل لا يجدى عليه : إنما أنت لاعب . و ﴿يلعبون﴾ حال من ذرهم ، أو من خوضهم ، ويجوز أن يكون (فى خوضهم) حالا من يلعبون ، وأن يكون صلة لهم أو لذرهم

---

(١) قال محمود : «وأدرج تحت الالزام توبيخهم وأن نعى عليهم ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من دقة نظره فى الكتاب العزيز والتعمق فى آثار معادنه ، وإبراز محاسنه .

(٢) أخرجه الواحدى فى الأسباب من طريق سعيد بن جبير «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمالك بن الصيف فذكره إلى قوله ـ فغضب ثم قال: ما أنزل الله على بشر من شىء» وكذلك أخرجه الطبرى من رواية جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير .

(٣) قوله «وقيل القائلون قريش» أخرجه الطبرى عن مجاهد .

وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)

﴿مبارك﴾ كثير المنافع والفوائد ﴿ولتنذر﴾ معطوف على مادلّ عليه صفة الكتاب ، كأنه قيل : أو أنزلناه للبركات ، وتصديق ماتقدمه من الكتب والإنذار . وقرئ ولينذر بالياء والتاء . وسميت مكة ﴿أم القرى﴾ لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأناً لبعض المجاورين :

فَمَنْ يَلْقَ فِي بَعْضِ الْقُرَيَّاتِ رَحْلَهُ فَأُمُّ الْقُرَى مُلْقَى رِحَالِي وَمُنْتَابِي [1]

﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ يصدّقون بالعاقبة ويخافونها ﴿يؤمنون﴾ بهذا الكتاب . وذلك أنّ أصل الدين خوف العاقبة ، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن . وخصّ الصلاة لأنها عماد الدين . ومن حافظ عليها كانت لطفاً فى المحافظة على أخواتها .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَـٰئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)

﴿افترى على الله كذبا﴾ فزعم أن الله بعثه نبياً ﴿أو قال أوحىَ إلىّ ولم يوح إليه شىء﴾ وهو مسيلمة الحنفى الكذاب . أوكذاب صنعاء الأسود العنسى . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : رأيت فيما يرى النائم كأنّ فى يدىّ سوارين من ذهب فكبرا علىّ وأهمانى فأوحى الله إلىّ أن انفخهما ، فنفختهما فطارا عنى ، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما : كذاب اليمامة مسيلمة ، وكذاب صنعاء الأسود العنسى [2] ﴿ومن قال سأنزل مثل ماأنزل الله﴾ هو عبدالله بن سعد بن أبى سرح القرشى ، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سميعاً عليما ، كتب

(١) للزمخشرى يفتخر بمكة وسكانها . والقريات ـ بالتشديد ـ : للتصغير . ورحل الشخص مسكنه ولو من شعر ، أى : فمن يلق رحله فى بعض القرى الصغيرة . فلا فخر له على ، فان مكة محط رحالى ومنتابى ، أى محل انتيابى أى دخولى فيها نوبة بعد أخرى . وإلقاء الرحل : كناية عن الاقامة ، لأنها تلزمه عرفا . وملق على زنة اسم المفعول اسم لمكان الالقاء ، كمتاب لمكان الانتياب .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس .

هو : عليما حكيما . وإذا قال عليما حكيما، كتب : غفورا رحيما . فلما نزلت (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى آخر الآية ، عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان : فقال تبارك الله أحسن الخالقين . فقال عليه الصلاة والسلام اكتبها : فكذلك نزلت ، فشك عبد الله وقال : لئن كان محمداً صادقاً لقد أوحى إلىّ مثل ماأوحى إليه . ولئن كان كاذباً فلقد قلت كما قال ، فارتدّ عن الإسلام ولحق بمكة ، ثم رجع مسلماً قبل فتح مكة [1] . وقيل : هو النضر بن الحرث والمستهزؤن ﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف . أى رأيت أمراً عظيما ﴿إذ الظالمون﴾ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة ، فتكون اللام للعهد . ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله . و ﴿غمرات الموت﴾ شدائده وسكراته . وأصل الغمرة : مايغمر من الماء [2] فاستعيرت للشدّة الغالبة ﴿باسطو أيديهم﴾ يبسطون إليهم أيديهم يقولون : هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم . وهذه عبارة عن العنف فى السياق ، والإلحاح ، والتشديد فى الإرهاق ، من غير تنفيس وإمهال ، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق ، ويعنف عليه فى المطالبة ولا يمهله ، ويقول له : أخرج إلىّ مالى عليك الساعة ، ولا أريم [3] مكانى ، حتى أنزعه من أحداقك . وقيل . معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب [4] ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ خلصوها من أيدينا ، أى لا تقدرون على الخلاص ﴿اليوم تجزون﴾ يجوز أن يريدوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدة النزع ، وأن يريدوا الوقت

---

(١) أخرجه الواحدى عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس إلى قوله « فارتد عن الاسلام » وقد رواه الطبرى مختصرا من رواية أسباط عن السدى من قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ـ الآية) قال : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح . أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سميعا عليما كتب هو عليما حكيما وإذا قال عليما حكيما كتب سميعا عليما . فشك وكفر ، وقال : إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إلى ، وإن كان الله ينزله فلقد أنزلت مثل ما أنزل الله . فلحق بالمشركين ﴿تنبيه﴾ قوله القرظى غلط بين فان ابن أبى سرح قرشى عامرى . قوله «ثم رجع مسلما قبل فتح مكة . قوله وقيل : هو النضر بن الحارث ﴿فائدة﴾ روى أن هذه القصة كانت لابن خطل . أخرج ابن عدى فى ترجمة أصرم بن حوشب أحد المتروكين من حديث على ، قال « كان ابن خطل يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل غفور رحيم كتب رحيم غفور ـ فذكر الحديث . وفيه : ثم كفر ولحق بمكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من قتل ابن خطل فله الجنة » وأخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات من هذا الوجه . ونقل عن ابن معين تكذيب أصرم .

(٢) قال محمود : « أصل الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدة الغالبة . . . الخ » قال أحمد : هو يجعله من مجاز التمثيل ، ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية ، وإذا أمكن البقاء على الحقيقة فلا معدل عنها .

(٣) قوله « ولا أريم مكانى » أى أبرح . وفى الصحاح : رامه يريمه أى برحه . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال : «وقيل معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب ... الخ » قال أحمد : ومثله (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) .

الممتدّ المتطاول الذى يلحقهم فيه العذاب فى البرزخ والقيامة . والهون : الهوان الشديد، وإضافة العذاب إليه كقولك : رجل سوء يريد العراقة فى الهوان والتمكن فيه ﴿عن آياته تستكبرون﴾ فلا تؤمنون بها .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

﴿فرادى﴾ منفردين عن أموالكم وأولادكم وما حرصتم عليه ، وآثرتموه من دنياكم ، وعن أوثانكم التى زعمتم أنها شفعاؤكم وشركاء لله ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد ﴿وتركتم ماخولناكم﴾ ماتفضلنا به عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ﴿وراء ظهوركم﴾ لم ينفعكم ولم تحتملوا منه نقيراً ولا قدمتموه لأنفسكم ﴿فيكم شركاء﴾ فى استعبادكم ، لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها ، فقد جعلوها لله شركاء فيهم وفى استعبادهم . وقرئ : فرادى ، بالتنوين . وفراد ، مثل ثلاث . وفردى ، نحو سكرى : فإن قلت : كما خلقناكم ، فى أى محل هو ؟ قلت : فى محل النصب صفة لمصدر جئتمونا ، أى مجيئا مثل خلقنا لكم ﴿تقطع بينكم﴾ وقع التقطع بينكم ، كما تقول : جمع بين الشيئين ، تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل : ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الظرف ، كما تقول : قوتل خلفكم وأمامكم . وفى قراءة عبد الله : لقد تقطع ما بينكم .

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

﴿فالق الحب والنوى﴾ بالنبات والشجر . وعن مجاهد : أراد الشقين الذين فى النواة والحنطة ﴿يخرج الحىّ من الميت﴾ أى الحيوان ، والنامى من النطف . والبيض والحب والنوى ﴿ومخرج﴾ هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامى . فإن قلت : كيف قال (مخرج الميت من الحى) بلفظ اسم الفاعل ، بعد قوله (يخرج الحىّ من الميت) قلت : عطفه على فالق الحب والنوى ، لا على الفعل . ويخرج الحىّ من الميت : موقعه موقع الجملة المبينة لقوله (فالق الحب والنوى) لأنّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامين[1] من جنس إخراج الحىّ من الميت ، لأنّ النامى

(١) قال محمود : « معناه فالق الحب والنوى بالنبات والشجر ... الخ » قال أحمد رحمه الله : وقد ورد جميعاً بصيغة الفعل كثيراً فى قوله : (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد =

فى حكم الحيوان . ألا ترى إلى قوله (يحيي الأرض بعد موتها) ، ﴿ذلكم الله﴾ أى ذلكم المحيي والمميت هو الله الذى تحق له الربوبية ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره .

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿الإصباح﴾ مصدر سمى به الصبح . وقرأ الحسن بفتح الهمزة جمع صبح ، وأنشد قوله :

أَفْنَى رَبَاحًا وَبَنِي رَبَاحِ تَنَاسُخُ الْإِمْسَاءِ وَالْإِصْبَاحِ[1]

بالكسر والفتح مصدرين ، وجمع مساء وصبح . فإن قلت : فما معنى فلق الصبح ، والظلمة[2] هى التى تنفلق عن الصبح ، كما قال :

= موتها وكذلك تخرجون) وقوله (أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحي) نعطف أحد القسمين على الآخر كثيراً دليل على أنهما توأمان مقترنان ، وذلك يبعد قطعه عنه فى آية الأنعام هذه ورده إلى فالق الحب والنوى ، فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة فى هذه الآية من قوله (فالق الحب) و (فالق الاصباح) و (جاعل الليل) و (مخرج الحى من الميت) إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فى هذا الوصف وحده ، وهو قوله (يخرج الحى من الميت) إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره فى ذهن السامع ، وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن فى أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضى . وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) فعدل عن الماضى المطابق لقوله (أنزل) لهذا المعنى . ومنه ماقى قوله :

إنى قد لقيت الغول تسعى ببيب كالصحيفة صحصحان
فآخذه فأضربه فخرت صريعا لليدين وللجران

فعدل إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذهن السامع . ومنه (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة) فعدل عن مسبحات وإن كان مطابقا لمحشورة بهذا السبب والله أعلم ، ثم هذا المقصد إنما يجىء فيما تكون العناية به أقوى ، ولا شك أن إخراج الحى من الميت أشهر فى القدرة من عكسه ، وهو أيضا أول الخاطر والنظر أول ما يبدأ فيه ، ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحى ناشئ عنه . فكان الأول جديراً بالتصدير والتأكيد فى النفس ، ولذلك هو مقدم أبدا على القسم الآخر فى الذكر على حسب ترتيبهما فى الواقع ، وسهل عطف الاسم على الفعل ، وحسنه أن اسم الفاعل فى معنى الفعل المضارع ، فكل واحد منهما يقدر بالآخر ، فلا جناح فى عطفه عليه . والله أعلم .

(١) «رباح» أبو حى من يربوع ، ثم صار اسما للحى . وروى بالتحتية بدل الموحدة . والامساء والاصباح : يرويان بكسر الهمزة على أنهما مصدران ، وبفتحهما جمع مساء وصباح . وظلام الليل ينسخ نور النهار ويزيله وبالعكس . وإسناد الافناء إلى التناسخ مجاز عقلى ، من باب الاسناد للزمان ، أو هو على اعتقاد الجاهلية فيكون حقيقة عندهم .

(٢) عاد كلامه . قال : « فان قلت ما معنى فلق الصبح والظلمة وهى التى تنفلق ... الخ » ؟ قال أحمد : وقيل الخالق والفالق بمعنى ، فيكون المراد خالق الاصباح . والأظهر ما فسره عليه المصنف ، والله أعلم .

تَرَدَّتْ بِهِ ثُمَّ انْفَرَى عَنْ أَدِيمِهَا تَفَرِّىَ لَيْلٍ عَنْ بَيَاضِ نَهَارِ [(١)]

قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد فالق ظلمة الإصباح ، وهى الغبش فى آخر الليل ، ومنقضاه الذى يلى الصبح . والثانى : أن يراد فالق الإصباح الذى هو عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره . وقالوا : انشق عمود الفجر . وانصدع الفجر . وسموا الفجر فلقاً بمعنى مفلوق . وقال الطائى :

وَأَزْرَقُ الْفَجْرِ يَبْدُو قَبْلَ أَبْيَضِهِ وَأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ [(٢)]

وقرئ : فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكناً ، بالنصب على المدح . وقرأ النخعى : فلق الإصباح وجعل الليل . السكن : ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناسا به واسترواحاً إليه ، من زوج أو حبيب . ومنه قيل للنار : سكن ؛ لأنه يستأنس بها . ألا تراهم سموها المؤنسة ، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجمامه . [(٣)] ويجوز أن يراد : وجعل الليل مسكوناً فيه من قوله لتسكنوا فيه ﴿ والشمس والقمر ﴾ قرئا بالحركات الثلاث ، فالنصب على إضمار فعل دل عليه

(١) كأن بقايا ماعفا من حبابها تفاريق شيب فى سواد عذار
ترد ت به ثم انفرى عن أديمها تفرى ليل عن بياض نهار

لأبى نواس يصف الخمرة . يقول : كأن بقايا الذى هلك وذهب من فقاقيعها شيب أبيض متفرق فى عذار أسود ؛ لأن كلا منهما أبيض منتشر فيما يخالف لونه ، ولايلزم من ذلك أنها سوداء كما يدل عليه مابعده ، ثم قال : تردت ، أى استترت بالحباب ، فالتردى : استعارة للتستر ، ثم انفرى : انشق وزال عن أديمها أى وجهها كتفرى الليل وانشقاق ظلامه عن بياض النهار ، والجامع استتار كل بغيرها ، ثم ظهوره بتفرق ذلك الغير فهو مركب . ولايلزم من ذلك أن الحباب أسود كالليل ، والخمرة بيضاء كالنهار ، وانظر كيف خيل أنه فى الأول أبيض وفى الثانى أسود وهي بالعكس . وهذا من العجب الداعى للطرب . وفيه أنه يرى فى الأول أبيض معجبا ، ثم تعرض عنه النفس وتريد الخمرة ، فيتخيل أنه مظلم ، ثم ينكشف وتظهر هى بيضاء ترهقها صفرة ، كالسماء وقت الاسفار .

(٢) هذى مخايل برق خلفه مطر جود وورى زناد خلفه لهب
وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

لأبى تمام . وقيل للبحترى . ومخايل، أضواء تتخيلها ، أوتخيل إلينا المطر بعدها . والجود ـ فى الأصل ـ جمع جائد ، كصحب وصاحب ، وهو الكثير النافع . والورى : قدح الزند ، والزناد جمعه ، ككلب وكلاب ، وقد يكون مفرداً ككتاب . يقول : إن أوائل الأمور تبدو قليلة ثم تكثر ، فينبغى الحرص من أول الأمر قبل بلوغه غايته فيكثر الضرر ويعسر درؤه ، أوالمعنى أنه ينبغى التأنى إلى بلوغ المراد ، فالكلام كله من باب التمثيل . وروى

* وكاذب الفجر يبدو قبل صادقه

وروى بعد هذا البيت :

ومثل ذلك وجد العاشقين هوى بالمزح يبدو وبالادمان يلتهب

ونسبا لابن الرومى . أى الوجد فى أوله هوى وفى آخره نار ، والادمان : الادامة .

(٣) قوله « وجمامه » أي راحته من التعب . وفى الصحاح « الجمام » بالفتح ـ : الراحة . (ع)

جاعل الليل ، أى وجعل الشمس والقمر حسباناً . أو يعطفان على محل الليل . فإن قلت كيف يكون لليل محل والإضافة حقيقية ، لأنّ اسم الفاعل المضاف إليه فى معنى المضىّ ، ولا تقول : زيد ضارب عمرا أمس ؟ قلت : ما هو فى معنى المضىّ ، وإنما هو دال على جعل مستمرّ فى الأزمنة المختلفة ، وكذلك فالق الحب ، وفالق الإصباح ، كما تقول : الله قادر عالم ، فلا تقصد زماناً دون زمان ، والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : والشمس والقمر مجعولان حسباناً ، أو محسوبان حسباناً . ومعنى جعل الشمس والقمر حسباناً : جعلهما على حسبان ، لأنّ حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما . والحسبان ـ بالضم ـ : مصدر حسب ، كما أنّ الحسبان ـ بالكسر ـ مصدر حسب . ونظيره الكفران والشكران ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جعلهما حسبانا ، أى ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿ تقدير العزيز ﴾ الذى قهرهما وسخرهما ﴿ العليم ﴾ بتدبيرهما وتدويرهما .

وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

﴿ فى ظلمات البر والبحر ﴾ فى ظلمات الليل بالبر والبحر ، وأضافها إليهما لملابستها لهما ، أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات .

وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

من فتح قاف المستقر، كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدراً . ومن كسرها ، كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول . والمعنى : فلكم مستقرّ فى الرحم . ومستودع فى الصلب ، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها . أو فمنكم مستقرّ ومنكم مستودع . فإن قلت : لم قيل ﴿ يعلمون ﴾ مع ذكر النجوم [1] و ﴿ يفقهون ﴾ مع ذكر إنشاء بنى آدم ؟ قلت كان إنشاء الإنس من نفس

(١) قال محمود : « إن قلت لم قيل مع ذكر النجوم يعلمون ... الخ » قال أحمد : لا يتحقق هذا التفاوت ولا سبيل إلى الحقيقة ، وما هذا الجواب إلا صناعى . والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين فى اللفظ ، لما فى ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسينا للنظم واتساقا فى البلاغة . ويحتمل وجها آخر فى تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه ، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله ولا يعتبر بمخلوقاته ، وكانت الآية المذكورة أولا خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الالهية فى تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر ، ولا كذلك النظر فى إنشائهم من نفس واحدة وتقلباتهم فى أطوار مختلفة وأحوال متغايرة ، فانه نظر لا يعدو نفس

واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً ، فكان ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له .

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

﴿فأخرجنا به﴾ بالماء ﴿نبات كل شيء﴾ نبت كل صنف من أصناف النامى ، يعنى أن السبب واحد وهو الماء . والمسببات صنوف مفتنة ، كما قال (تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) . ﴿فأخرجنا منه﴾ من النبات ﴿خضرا﴾ شيئاً غضا أخضر . يقال أخضر وخضر ، كأعور وعور ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿نخرج منه﴾ من الخضر ﴿حبامتراكبا﴾ وهو السنبل . و﴿قنوان﴾ رفع بالابتداء . و﴿من النخل﴾ خبره . و﴿من طلعها﴾ بدل منه ، كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان . ويجوز أن يكون الخبر محذوفا لدلالة أخرجنا عليه ، تقديره : ومخرجة من طلع النخل قنوان . ومن قرأ : يخرج منه حب متراكب ، كان (قنوان) عنده معطوفا على حب . والقنوان : جمع قنو ، ونظيره : صنو وصنوان . وقرئ بضم القاف وبفتحها ، على أنه اسم جمع كركب ؛ لأن فعلان ليس من زيادة التكسير ﴿دانية﴾ سهلة المجتنى

ـــ الناظر ولا يتجاوزها ؛ فاذا تمهد ذلك . فجهل الانسان بنفسه وبأحواله وعدم النظر فيها والتفكر أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم نفى من أبشع القبيلين جهلا ، وهم الذين لا يتبصرون فى أنفسهم ، ونفى الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة فخص به أسوأ الفريقين حالا ، ويفقهون ههنا مضارع فقه الشيء بكسر القاف اذا فهمه ولو أدنى فهم ، وليس من فقه بضم القاف ؛ لأن تلك درجة عالية . ومعناه : صار فقيها . قاله الهروى فى معرض الاستدلال على أن فقه أنزل من علم . وفى حديث سلمان أنه قال ـ وقد سألته امرأة جاءته ـ : فقهت ، أى فهمت ، كالمتعجب من فهم المرأة عنه . واذا قيل فلان لا يفقه شيئا ، كان أذم فى العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئا ، وكان معنى قولك : لا يفقه شيئا ليست له أهلية الفهم وإن فهم . وأما قولك : لا يعلم ، فغايته نفى حصول العلم له . وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم . والذى يدل على أن التارك للفكرة فى نفسه أجهل وأسوأ حالا من التارك للفكرة فى غيره قوله تعالى (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فخص التبصر فى النفس بعد اندراجها فيما فى الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر فى نفسه إنكاراً مستأنفا . وقولنا فى أدراج الكلام أنه نفى العلم عن أحد الفريقين ونفى الفقه عن الآخر ، يعنى بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة والتفقه فيها بقوم ، فأشعر أن قوما غيرهم لا علم عندهم ولا فقه ، والله الموفق . فتأمل هذا الفصل وإن طال بعض الطول ، فالنظر فى الحسن غير مملول .

معرضة للقاطف، كالشيء الداني القريب المتناول؛ ولأنّ النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالثمر لاتنتظر الطول. وقال الحسن: دانية قريب بعضها من بعض. وقيل: ذكر القريبة وترك ذكر البعيدة: لأنّ النعمة فيها أظهر وأدلّ بذكر القريبة على ذكر البعيدة، كقوله (سرابيل تقيكم الحرّ). وقوله ﴿وجنات من أعناب﴾ فيه وجهان، أحدهما: أن يراد: وثم جنات من أعناب، أي مع النخل. والثاني: أن يعطف على (قنوان) على معنى: وحاصلة، أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب، أي من نبات أعناب. وقرئ (وجنات) بالنصب عطفاً على (نبات كل شيء) أي: وأخرجنا به جنات من أعناب، وكذلك قوله ﴿والزيتون والرمّان﴾ والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص، كقوله (والمقيمين الصلاة) لفضل هذين الصنفين ﴿مشتبها وغير متشابه﴾ يقال اشتبه الشيئان وتشابها، كقولك استويا وتساويا. والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً. وقرئ: متشابها وغير متشابه. وتقديره: والزيتون متشابها وغير متشابه، والرمّان كذلك كقوله:

* كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيًّا *

والمعنى: بعضه متشابها وبعضه غير متشابه، في القدر واللون والطعم. وذلك دليل على التعمد دون الإهمال ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا ضعيفاً لايكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ. نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدّره ومدبره وناقله من حال إلى حال. وقرئ ﴿وينعه﴾ بالضم. يقال: ينعت الثمرة ينعاً وينعاً. وقرأ ابن محيصن: ويانعه. وقرئ: وثمره، بالضم.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

إن جعلت ﴿لله شركاء﴾ مفعولي جعلوا، نصبت الجن بدلا من شركاء، وإن جعلت (لله) لغوا كان (شركاء الجن) مفعولين قدم ثانيهما على الأول. فإن قلت: فما فائدة التقديم؟ قلت: فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكا أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك. ولذلك قدم اسم الله على الشركاء. وقرئ الجن بالرفع، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الجن. وبالجرّ على الإضافة التي للتبيين. والمعنى أشركوهم في عبادته، لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله. وقيل: هم الذين زعموا أنّ الله خالق الخير وكل نافع، وإبليس خالق الشر وكل ضارّ ﴿وخلقهم﴾ وخلق الجاعلين لله شركاء. ومعناه: وعلموا أنّ الله خالقهم دون الجن، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق

شريكا للخالق . وقيل : الضمير للجن . وقرئ : وخلقهم ، أى اختلاقهم الإفك ، يعنى : وجعلوا لله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله فى قولهم (والله أمرنا بها) ، ﴿وخرقوا له﴾ وخلقوا له ، أى افتعلوا له ﴿بنين وبنات﴾ وهو قول أهل الكتابين فى المسيح وعزير ، وقول قريش فى الملائكة يقال : خلق الإفك وخرقه واختلقه واخترقه ، بمعنى . وسئل الحسن عنه فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها : كان الرجل إذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم : قد خرقها والله ، ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه ، أى اشتقوا له بنين وبنات ، وقرئ : وخرّقوا بالتشديد للتكثير ، لقوله (بنين وبنات) وقرأ ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما : وحرّفوا له ، بمعنى : وزوّروا له أولاداً لأنّ المزوّر محرّف مغير للحق إلى الباطل ﴿بغير علم﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رمياً بقول عن عمى وجهالة . من غير فكر وروية .

بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

﴿بديع السموات﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، كقولك : فلان بديع الشعر ، أى بديع شعره . أو هو بديع فى السموات والأرض ، كقولك : فلان ثبت الغدر ، أى ثابت فيه ، والمعنى أنه عديم النظير والمثل فيها . وقيل : البديع بمعنى المبدع ، وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو هو مبتدأ وخبره ﴿أنى يكون له ولد﴾ أو فاعل تعالى : وقرئ بالجر رداً على قوله (وجعلوا لله) أو على (سبحانه) . وبالنصب على المدح ، وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه ، أحدها : أن مبتدع السموات والأرض وهى أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة ، لأنّ الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسما حتى يكون والداً . والثانى : أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس ، فلم يصح أن تكون له صاحبة ، فلم تصح الولادة . والثالث : أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به ، ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شيء ، والولد إنما يطلبه المحتاج . وقرئ : ولم يكن له صاحبة ، بالياء . وإنما جاز للفصل كقوله :

* لَقَدْ وَلَدَ الْأُخَيْطِلَ أُمُّ سُوءٍ * [1]

---

(1) لقد ولد الأخيطل أم سوء ... على باب استه صلب وشام

لجرير يهجو الأخطل . والأخيطل : تصغير الأخطل . وأم سوء ـ بالاضافة ـ : فاعل ، فكان حق الفصل التأنيث ، لكن سوغ تركه الفصل بالمفعول . والاست ـ بوصل الهمزة ـ الدبر . والصلب : جمع صليب . والشام اسم جمع شامة ، وهى العلامات والنقوش . وكان الأخطل ـ وهو غياث بن غوث ـ من نصارى العرب . ويروى «على باب استها» أى الأم . وهو أقعد فى المعنى ، وأشنع فى هتك الحرمة .

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهى ﴿الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾ أى ذلكم الجامع لهذه الصفات ﴿فاعبدوه﴾ مسبب عن مضمون الجملة على معنى: أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه. ثم قال ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ يعنى وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال، رقيب على الأعمال.

لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

البصر: هو الجوهر اللطيف [1] الذى ركبه الله فى حاسة النظر، به تدرك المبصرات. فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه؛ لأنه متعال أن يكون مبصراً [2] فى ذاته، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان فى جهة أصلا أو تابعا، كالأجسام والهيآت ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التى لا يدركها مدرك ﴿وهو اللطيف﴾ يلطف عن أن تدركه الأبصار ﴿الخبير﴾ بكل لطيف فهو يدرك الأبصار، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف.

قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤)

---

(١) قال محمود: «والبصر هو الجوهر اللطيف الذى ركبه الله تعالى فى حاسة النظر به تدرك ... الخ» قال أحمد: وقد سلف الكلام على هذه الآية فى غير موضعها، لأن المصنف تعجل الكلام عليها قبل، والذى يريده الآن أن الادراك عبارة عن الاحاطة، ومنه: (فلما أدركه الغرق) أى أحاط به، و (إنا لمدركون) أى محاط بنا، فالمنفى إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز وعلا لا مجرد الرؤية، ثم إما أن نقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا، أو نزيد فنقول. بدل لنا أن تخصيص الاحاطة بالنفى يشعر بطريق المفهوم بثبوت ماهو أدنى من ذلك، وأقله مجرد الرؤية، كما أنا نقول: لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة بمجردها حاصلة لكل مؤمن، فالاحاطة للعقل منفية كنفى الاحاطة للحس، وما دون الاحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفى. ولم يذكر الزمخشرى على إحالة الرؤية عقلا دليلا ولا شبهة فيحتاج إلى القدح فيه ثم معارضته بأدلة الجواز، ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئى لا فى جهة، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا فى جهة إذ اتباع الوهم يبعدهما جميعاً، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم ويجيزهما معاً. وهذا القدر كاف بحسب ما أورده فى هذا الوضع، والله الموفق.

(٢) قوله «لأنه متعال عن أن يكون مبصراً» استحالة الرؤية مذهب المعتزلة، لظاهر هذه الآية. وجوازها مذهب أهل السنة لقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وكل يؤول مستند الآخر. وتحقيقه فى التوحيد. (ع)

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ هو وارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر أي جاءكم من الوحي ، والتنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر ﴿فمن أبصر﴾ الحق وآمن ﴿فلنفسه﴾ أبصر وإياها نفع ﴿ومن عمى﴾ عنه فعلى نفسه عمى وإياها ضرّ بالعمى ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها ، إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم .

وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)

﴿وليقولوا﴾ جوابه محذوف تقديره . وليقولوا درست تصرّفها . ومعنى ﴿درست﴾ قرأت وتعلمت . وقرئ : دارست ، أى دارست العلماء . ودرست بمعنى قدمت هذه الآيات وعفت كما قالوا : أساطير الأولين ، ودرست بضم الراء ، مبالغة في درست ، أى اشتدّ دروسها . ودرست ـ على البناء للمفعول ـ بمعنى قرئت أو عفيت . ودارست . وفسروها بدارست اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجاز الإضمار ؛ لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم . ويجوز أن يكون الفعل للآيات ، وهو لأهلها ، أى دارس أهل الآيات وحملتها محمداً ، وهم أهل الكتاب . ودرس أى درس محمد . ودارسات ، على : هى دارسات ، أى قديمات . أو ذات دروس ، كعيشة راضية . فإن قلت : أى فرق بين اللامين فى (ليقولوا) ، (ولنبينه) ؟ قلت : الفرق بينهما أنّ الأول مجاز والثانية حقيقة ، وذلك أن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست ، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين ، شبه به فسيق مساقه . وقيل : ليقولوا كما قيل لنبينه : فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى قوله (ولنبينه) ؟ قلت : إلى الآيات لأنها فى معنى القرآن ، كأنه قيل : وكذلك نصرف القرآن . أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوما إلى التبيين الذى هو مصدر الفعل ، كقولهم : ضربته زيداً . ويجوز أن يراد فيمن قرأ درست ودارست: درست الكتاب ودارسته ، فيرجع إلى الكتاب المقدّر .

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧)

﴿لا إله إلا هو﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحى لا محلّ له من الإعراب . ويجوز أن يكون حالا من ربك ، وهى حال مؤكدة كقوله (وهو الحق مصدّقا) .

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)

﴿ ولا تسبوا ﴾ الآلهة ﴿ الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله ﴾ وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) لتنتهين عن سب آهتنا أو لنهجون إلهك . وقيل : كان المسلمون يسبون آلهتهم ، فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب الله تعالى. فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة ، فكيف صحّ النهى عنه ، وإنما يصح النهى عن المعاصى ؟ قلت : ربّ طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة كالنهى عن المنكر هو من أجلّ الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدّى إلى زيادة الشر انقلب معصية ، ووجب النهى عن ذلك النهى . كما يجب النهى عن المنكر . فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة فرأى محمد نساء فرجع ، فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك فى ديننا . قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأنّ حضور الرجال الجنازة طاعة وليس بسبب لحضور النساء فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا ، بخلاف سب الآلهة . وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبه عليه الحسن . ﴿عدواً﴾ ظلماً وعدواناً . وقرئ عدوّاً بضم العين وتشديد الواو بمعناه . يقال : هذا فلان عدواً وعدواً وعدواناً وعداء . وعن ابن كثير : عدوّاً ، بفتح العين بمعنى أعداء ﴿ بغير علم﴾ على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به ﴿ كذلك زينا لكل أمة﴾ مثل ذلك التزيين زينا لكل أمة من أمم الكفار سوء عملهم ، أو خليناهم وشأنهم [1] ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم : أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه فى زعمهم . وقولهم إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا ﴿ فينبئهم﴾ فيوبخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)

﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ من مقترحاتهم ﴿ ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله﴾ وهو قادر

---

(١) قوله « أو خليناهم وشأنهم » فسر التزيين بذلك ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ، ويخلق الشر والخير عند أهل السنة . (ع)

عليها، ولكنه لا ينزلها الا على موجب الحكمة [١]. أو إنما الآيات عند الله لا عندي. فكيف أجيبكم إليها وآتيكم بها ﴿وما يشعركم﴾ وما يدريكم ﴿أنها﴾ أن الآية التي تقترحونها ﴿إذا جاءت لا يؤمنون بها﴾ يعني أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها. فقال عزّ وجلّ وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى أنكم لا تدرون ماسبق علمي به من أنهم لا يؤمنون به. ألا ترى إلى قوله (كما لم يؤمنوا به أوّل مرة) وقيل: «أنها» بمعنى «لعلها» من قول العرب: ائت السوق أنك تشتري لحماً. وقال امرؤ القيس:

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لأَنَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خُذَامِ [٢]

وتقويها قراءة أبيّ: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. وقرئ بالكسر على أن الكلام قد تمّ قبله بمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال: أنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة. ومنهم

(١) قال محمود: «يعني أن الله تعالى قادر على أن ينزل الآيات ولكنه لا ينزلها إلا على موجب الحكمة .. الخ» قال أحمد: ومحز النظر في الآية يتضح بمثال، فنقول: إذا قال لك القائل «أكرم فلانا فانه يكافئك» وكنت أنت تعلم منه عدم المكافأة، فاذا أنكرت على المشير باكرامه قلت: ومايدريك أني إذا أكرمته يكافئني؟ فأنكرت عليه إثباته المكافأة وأنت تعلم نفيها، فان انعكس الأمر فقال لك: «لاتكرمه فانه لايكافئك» وكنت تعلم منه المكافأة فأنكرت على المشير بحرمانه قلت: ومايدريك أنه لايكافئني؟ تريد: وأنا أعلم منه المكافأة، فكان مقتضى الانكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمعاندين فاعتقدوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية المقترحة أن يقال: ومايدريكم أنها إذاجاءت لايؤمنون، كما تقول في المثال منكراً على ن أثبت المكافأة وأنت تعلم خلافها، ومايدريكم أنه يكافئني؟ باسقاط «لا» وإن أثبتها انعكس المعنى، إلى أن المعلوم لك الثبوت وأنت تنكر على من نفى، فلما جاءت الآية تفهم بادئ الرأي أن الله تعالى علم الايمان منهم وأنكر على المؤمنين نفيهم له والواقع على خلاف ذلك، اختلف العلماء، فحمل بعضهم «لا» على الزيادة، وبعضهم أول «أن» بلعل، وبعضهم جعل الكلام جواب قسم محذوف. وقد تفتح «أن» بعد القسم فقال التقدير: والله أنها إذا جاءت لايؤمنون. وأما الزمخشري فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصابها من غير حذف ولا تأويل فقال قوله السالف، ونحن نوضح اطراده في المثال المذكور ليتضح بوجهيه في الآية، فنقول: إذا حرمت زيداً لعلمك بعدم مكافأته فأشير عليك بالاكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة. فلك معه حالتان: حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه، وحالة تعذره في عدم العلم بما أحطت به علماً، فان أنكرت عليه قلت: وما يدريك أنه يكافئ؟ وإن عذرته في عدم علمه بأنه لايكافئ قلت: ومايدريك أنه لايكافئ؟ يعني ومن أين تعلم أنت ماعلمته أنا من عدم مكافأته وانت لم تخبر أمره خبري، فكذلك الآية، إنما ورد فيها الكلام باقامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم الله تعالى وهو عدم إيمان هؤلاء، فاستقام دخول «لا» وتعين وتبين أن سبب الاضطراب التباس الانكار باقامة الأعذار. والله الموفق للصواب.

(٢) لامرئ القيس. والعوج: عطف رأس البعير بالزمام. والمحيل: الذي حال وتغير عن صفة الجدة إلى صفة البلى، أو الذي أصابه المحل والاقفار. هذا وفي الصحاح: أحال الشيء إذا أتى عليه الحول. ومنه الطلل المحيل، فهو اسم فاعل وهو الوجيه، ولأننا: بفتح اللام والهمزة، بمعنى لعلنا. قال في التسهيل: في لعل عشر لغات، وعد منها أن المفتوحة، ولأن. وابن خذام بمعجمتين أول من بكى الديار من شعراء العرب، وكان طبيبا حاذقا يضرب به المثل في الطب.

من جعل «لا» مزيدة فى قراءة الفتح وقرئ: وما يشعرهم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. أى يحلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها. وما يشعرهم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعا عليها فلا يؤمنوا بها.

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

﴿ونقلب أفئدتهم .... ونذرهم﴾ عطف على يؤمنون، داخل فى حكم وما يشعركم، بمعنى: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم: أى نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا. أولا يؤمنون بها لكونهم مطبوعا على قلوبهم. وما يشعركم أنا نذرهم فى طغيانهم أى نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا [1] فيه. وقرئ: ويقلب. ويذرهم بالياء أى الله عزّ وجلّ. وقرأ الأعمش: وتقلب أفئدتهم وأبصارهم، على البناء للمفعول.

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ كما قالوا (لولا أنزل علينا الملائكة)، ﴿وكلمهم الموتى﴾ كما قالوا: (فأتوا بآبائنا)، ﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلا﴾ كما قالوا (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) قبلا كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا، أو جماعات. وقيل (قبلا) مقابلة. وقرئ (قبلا) أى عيانا [2] ﴿إلا أن يشاء الله﴾ مشيئة إكراه واضطرار [3] ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ فيقسمون

---

(١) قوله «حتى يعمهوا فيه» أى يتحيروا. (ع)

(٢) قوله «وقرئ قبلا أى عيانا» فى الصحاح: رأيته قبلا وقبلا ـ بالضم ـ أى مقابلة وعيانا. ورأيته قبلا ـ بكسر القاف ـ قال الله تعالى (أو يأتيهم العذاب قبلا) أى عيانا. (ع)

(٣) قال محمود: «معناه إلا أن يشاء الله مشيئة إكراه واضطرار ... الخ» قال أحمد: بل المراد إلا أن يشاء الله منهم اختيار الايمان، فانه تعالى لو شاء منهم اختيارهم الايمان لاختاروه وآمنوا حتما. ما شاء الله كان. والزمخشرى بنى على القاعدة الفاسدة فى اعتقاده أن الله تعالى شاء منهم الايمان اختياراً فلم يؤمنوا، إذ لا يجب على زعم طائفته نفوذ المشيئة، ولا يطلقون القول كما أطلقه سلف هذه الأمة وحملة شريعتها. من قولهم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، بل يقولون إن أكثر ما شاءه لم يقع، إذ شاء الايمان والصلاح من جميع الخلق، فلم يؤمن ويعمل الصالح إلا القليل، وقليل ما هم. وهذا كله مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً. فاذا صدمتهم مثل هذه الآية بالرد تحيلوا فى المدافعة بحمل المشيئة المنفية على مشيئة القسر والاضطرار، وإنما لم يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء، وأما وهو القدوة والمتبوع، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه فالى النار، وما بعد الحق إلا الضلال، والله الموفق للصواب.

بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات . أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرهم فيطمعون فى إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً ﴾ وكما خلينا بينك وبين أعدائك ، كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم ، لم نمنعهم من العداوة ، لما فيه من الامتحان الذى هو سبب ظهور الثبات والصبر . وكثرة الثواب والأجر . وانتصب ﴿ شياطين ﴾ على البدل من عدوّا . أو على أنهما مفعولان كقوله (وجعلوا لله شركاء الجنّ) ﴿ يوحى بعضهم إلى بعض ﴾ يوسوس شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس . وكذلك بعض الجنّ إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض . وعن مالك ابن دينار : إنّ شيطان الإنس أشد علىّ من شيطان الجنّ ، لأنى إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجنّ عنى ، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرّنى إلى المعاصى عيانا ﴿ زخرف القول ﴾ ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصى ويموّهه ﴿ غروراً ﴾ خدعا وأخذاً على غرّة ﴿ ولو شاء ربك مافعلوه ﴾ مافعلوا ذلك ، أى ماعادوك ، أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأنهم .

وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)

﴿ ولتصغى ﴾ جوابه محذوف تقديره : وليكون ذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّاً ، على أن اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما ذكر . والضمير فى ﴿ إليه ﴾ [1] يرجع إلى مارجع إليه الضمير فى فعلوه ، أى ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين ﴿ أفئدة ﴾ الكفار ﴿ وليرضوه ﴾ لأنفسهم ﴿ وليقترفوا ماهم مقترفون ﴾ من الآثام .

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤)

---

(١) قوله «والضمير فى إليه» أى فى قوله تعالى (وليقولوا درست) . (ع)

﴿ أفغير الله أبتغى حكما ﴾ على إرادة القول ، أى قل يا محمد : أفغير الله أطلب حا كما يحكم بيني وبينكم ، ويفصل المحق منا من المبطل ﴿ هو الذى أنزل إليكم الكتاب ﴾ المعجز ﴿ مفصلا ﴾ مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل ، والشهادة لى بالصدق وعليكم بالافتراء . ثم عضد الدلالة على أنّ القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ماعندهم وموافقته له ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ من باب التهييج والإلهاب ، كقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) أو (فلا تكونن من الممترين) فى أنّ أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ، ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به . ويجوز أن يكون (فلا تكونن) خطاباً لكل أحد ، على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه ، فما ينبغى أن يمترى فيه أحد . وقيل : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطاباً لأمته [1]

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدلاً لاَمُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

﴿ وتمت كلمات ربك ﴾ أى تم كل ما أخبر به ، وأمر ونهى ، ووعد وأوعد ﴿ صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته ﴾ لا أحد يبدل شيئاً من ذلك مما هو أصدق وأعدل . وصدقا وعدلا . نصب على الحال . وقرئ : كلمة ربك ، أى ما تكلم به . وقيل : هى القرآن .

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾

﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض ﴾ أى من الناس أضلوك ، لأنّ الأكثر فى غالب الأمر يتبعون هواهم ، ثم قال ﴿ إن يتبعون إلا الظنّ ﴾ وهو ظنهم أنّ آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ يقدّرون أنهم على شىء . أو يكذبون فى أنّ الله حرّم كذا وأحلّ كذا .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

---

(١) قوله «خطابا لأمته» لعله «خطاب» . (ع)

وقرئ (من يضل) بضم الياء أي يضله الله ﴿فكلوا﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين، الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال. وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم، فقيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا ﴿مما ذكر اسم الله عليه﴾ خاصة دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه، وما ذكر اسم الله عليه هو المذكى ببسم الله ﴿ومالكم ألا تأكلوا﴾ وأي غرض لكم في أن لا تأكلوا ﴿وقد فصل لكم﴾ وقد بين لكم ﴿ماحرم عليكم﴾ مما لم يحرم وهو قوله (حرمت عليكم الميتة) وقرئ: فصل لكم ماحرم عليكم على تسمية الفاعل، وهو الله عز وجل ﴿إلا مااضطررتم إليه﴾ مما حرم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة ﴿وإن كثيراً ليضلون﴾ قرئ بفتح الياء وضمها، أي يضلون فيحرمون ويحللون ﴿بأهوائهم﴾ وشهواتهم من غير تعلق بشريعة.

وَذَرُوا ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

﴿ظاهر الإثم وباطنه﴾ ما أعلنتم منه وما أسررتم. وقيل: ما عملتم وما نويتم. وقيل: ظاهره الزنا في الحوانيت، وباطنه الصديقة في السر.

وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

﴿وإنه لفسق﴾ الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذي دخل عليه حرف النهي، يعني وإن الأكل منه لفسق. أو إلى الموصول على: وإن أكله لفسق، أو جعل ما لم يذكر اسم الله عليه في نفسه فسقاً. فإن قلت: قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل[1] مالم يذكر اسم الله

---

(١) قال محمود: «إن قلت قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد ... الخ» قال أحمد: مذهب مالك وأبي حنيفة واء في أن متروك التسمية عمدا لا يؤكل. سواء كان تهاونا أو غير تهاون. ولأشهب قول شاذ بجواز غير المتهاون في ترك تسميته، والآية تساعد مذهب الامامين مساعدة بينة، فانه ذكر عقيب غير المسمى عليه قوله (وإنه لفسق) وذلك إن كان عبارة عن فعل المكلف وهو إهمال التسمية، أو تسمية غير الله فلا يدخل النسيان؛ لأن الناسي غير مكلف فلا يكون فعله فسقا ولا هو فاسق، وإن كان نفس الفسق الذبيحة التي لم يسم عليها ولم يكن مصدرا، فانما تسمى الذبيحة فسقا نقلا لهذا الاسم من المصدر إلى الذات فالذبيحة التي تركت التسمية عليها نسيانا لا يلزم أن تسمي فسقا، إذ الفعل الذي ينقل منه هذا الاسم ليس بفسق، فاذا تمهد ذلك فاما أن يقول: لا دليل في الآية على تحريم منسى التسمية، فبقي على أصل الاباحة. أو يقول: فيها دليل على إباحته من حيث مفهوم تخصيص النهي بما هو فسق، فما ليس بفسق ليس بحرام. وهذا النظر يسند إذا

عليه بنسيان أو عمد . قلت : قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه [(١)] : كقوله (أو فسقاً أهل لغير الله به) ﴿ليوحون﴾ ليوسوسون ﴿إلى أوليائهم﴾ من المشركين ﴿ليجادلوكم﴾ بقولهم : ولا تأكلوا مما قتله الله . وبهذا يرجع تأويل من تأوله بالميتة ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنّ من اتبع غير الله تعالى فى دينه فقد أشرك به . ومن حق ذى البصيرة فى دينه أن لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان ؛ لما يرى فى الآية من التشديد العظيم ، وإن كان أبو حنيفة رحمه الله مرخصا فى النسيان دون العمد ، ومالك والشافعى رحمهما الله فيهما

أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

مثل الذى هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذى يميز به بين المحق والمبطل والمهتدى والضال ، بمن كان ميتا فأحياه الله وجعل له نوراً يمشى به فى الناس مستضيئا به ، فيميز بعضهم من بعض ، ويفصل بين حلاهم ومن بقى على الضلالة بالخابط فى الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله ﴿كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾ كمن صفته هذه وهى قوله (فى الظلمات ليس بخارج منها) بمعنى : هو فى الظلمات ليس بخارج منها ، كقوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون

ـــــ لم تكن الميتة متناولة فى هذه الآية . وأما إذا أثبت أنها مرادة ، تعين صرف الفسق إلى الآكل والمأكول ، وكان الضمير من قوله (وإنه) عائداً إلى المصدر المنهي عنه ، أو إلى الموصول . وحينئذ يندرج المنسى فى النهى ولا يستقيم ، على أن الميتة مندرجة كاندراج المنسى ، لأن الوجه الذى به تندرج الميتة هو الوجه الذى به يندرج المنسى ، إذ يكون الفسق إما للأكل ، وإما للمأكول نقلا من الأكل ، ولا ينصرف إلى غير ذلك ، لأن الميتة لم يفعل المكلف فيها فعلا يسمى فسقا سوى الأكل ، والمنسى تسميتها لا يستقيم أن يسمى الذبح فيها فسقا لأجل النسيان ، فيتعين صرفه إلى الأكل . ومن ثم قوى عند الزمخشرى تعميم التحريم حتى فى المنسى ، لأنه يرى أن الميتة مرادة من الآية ولا بد ، إذ هى سبب نزول الآية . والتحقيق أن العام الظاهر متى ورد على سبب خاص كان نصا فى السبب ظاهرا باقيا على ظهوره فيما عداه . وإذا ثبت اندراج الميتة لزم اندراج المنسى كما تقدم . وحينئذ يضطر مبيح المنسى إلى مخصص ، فيتمسك بقوله عليه الصلاة والسلام «ذكر الله على قلب كل مؤمن من سمى أو لم يسم» وكان الناسى ذاكراً حكما وإن لم يكن ذاكرا وجودا ، وهذا عند التحقيق ليس بتخصيص ، ولكن منع لاندراج الناسى فى العموم وسنده الحديث المذكور . ويؤيد بأن العام الوارد على سبب خاص وإن قوى تناوله للسبب حتى ينهض الظاهر فيه نصا ، إلا أنه ضعيف التناول لما عداه حتى ينحط عن أمالى الظواهر فيه ، ويكتفى من معارضته بما لا يكتفى به منه لولا السبب ، وهذا البحث متطلع بفنون شتى على نكت بديعة ، والله الموفق للصواب .

(١) قوله «وبما ذكر غير اسم الله عليه» لعله «اسم غير الله» . (ع)

فيها أنهار) أي صفتها هذه ، وهي قوله (فيها أنهار) . ﴿زين للكافرين﴾ أي زينه الشيطان ، أو الله عزّ وعلا على قوله (زينا لهم أعمالهم) ويدل عليه قوله ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ يعني : وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها ، كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك . ومعناه : خليناهم ليمكروا [١] وما كففناهم عن المكر ، وخص الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس ، كقوله (أمرنا مترفيها) وقرئ : أكبر مجرميها ، على قولك : هم أكبر قومهم ، وأكابر قومهم ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم﴾ لأنّ مكرهم يحيق بهم . وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم موعد بالنصرة عليهم . روى أن الوليدبن المغيرة قال : لو كانت النبوّة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالا . وروى أن أباجهل قال : زاحمنا بني عبدمناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا : منا نبيّ يوحي إليه ، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه ، فنزلت . ونحوها قوله تعالى (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة) .

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿الله أعلم﴾ كلام مستأنف للإنكار عليهم ، وأن لا يصطفى للنبوّة إلا من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه منهم ﴿سيصيب الذين أجرموا﴾ من أكابرها ﴿صغار﴾ وقماءة [٢] بعد كبرهم وعظمتهم ﴿وعذاب شديد﴾ في الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار .

فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

---

(١) قوله «ومعناه خليناهم ليمكروا» أوله بذلك لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ويخلقه كالخير عند أهل السنة ، وكذا قوله تعالى (ومن يرد أن يضله ...الخ) (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) . (ع)

(٢) قوله «وقماءة» أي ذل . (ع)

﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ يلطف به حتى يرغب فى الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه ﴿ومن يرد أن يضله﴾ أن يخذله ويخليه وشأنه [1]، وهو الذى لا لطف له ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجا﴾ يمنعه ألطافه، حتى يقسو قلبه، وينبو عن قبول الحق وينسدّ فلا يدخله الإيمان. وقرئ (ضيقاً) بالتخفيف والتشديد (حرجا) بالكسر، وحرجا ـ بالفتح ـ وصفاً بالمصدر ﴿كأنما يصعد فى السماء﴾ كأنما يزاول أمراً غير ممكن، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة، وتضيق عنه المقدرة. وقرئ: يصعد. وأصله يتصعد. وقرأ عبدالله: يتصعد. ويصاعد. وأصله: يتصاعد ويصعد، من صعد. ويصعد من أصعد ﴿يجعل الله الرجس﴾ يعنى الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب. أو أراد الفعل المؤدى إلى الرجس وهو العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿وهذا صراط ربك﴾ وهذا طريقه الذى اقتضته الحكمة وعادته فى التوفيق والخذلان ﴿مستقيما﴾ عادلا مطرداً. وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله (وهو الحق مصدقا) ﴿لهم﴾ لقوم يذكرون ﴿دار السلام﴾ دار الله، يعنى الجنة أضافها إلى نفسه تعظيما لها. أو دار السلامة من كل آفة وكدر ﴿عند ربهم﴾ فى ضمانه. كما تقول: لفلان عندى حق لا ينسى، أو ذخيرة لهم لا يعلمون كنهها، كقوله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)، ﴿وهو وليهم﴾ مواليهم ومحبهم، أو ناصرهم على أعدائهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)

﴿ويوم نحشرهم﴾ منصوب بمحذوف، أى واذكر يوم نحشرهم، أو ويوم نحشرهم قلنا ﴿يامعشر الجن﴾ أو ويوم نحشرهم وقلنا يامعشر الجن كان مالا يوصف لفظاعته. والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم. والجن هم الشياطين ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أضللتم منهم كثيراً أو جعلتموهم أتباعكم فحشر معكم منهم الجم الغفير، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود، واستكثر فلان من الأشياع ﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أى انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات

(١) قوله «أن يخذله ويخليه وشأنه» فسر الاضلال بذلك، لأنه تعالى لا يفعل الشر عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فيفعله كالخير، وكذا يقال فى قوله «يمنعه ألطافه». (ع)

وعلى أسباب التوصل إليها ، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوتهم فى إغوائهم ، وقيل استمتاع الإنس بالجن ما فى قوله (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) وأن الرجل كان إذا نزل وادياً وخاف قال : أعوذ بربّ هذا الوادى، يعنى به كبير الجن . واستمتاع الجن بالإنس : اعتراف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم ﴿وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا﴾ يعنون يوم البعث . وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى والتكذيب بالبعث واستسلام لربهم وتحسر على حالهم ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ أى يخلدون فى عذاب النار الأبد كله [1] ، إلا ما شاء الله ، إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير ، فقد روى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ويطلبون الردّ إلى الجحيم . أو يكون من قول الموتور [2] الذى ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه . أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت ، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر

---

(١) قال محمود : «معنى هذا الاستثناء أنهم يخلدون فى عذاب النار الأبد كله ... الخ» قال أحمد : قد ثبت خلود الكفار فى العذاب ثبوتا قطعياً ، فمن ثم اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء فى هذه الآية وفى أختها فى سورة هود ، فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين وللكفار ، والمستثنى العصاة لأنهم لا يخلدون ، وهذا تأويل أهل السنة . وقد غلط الزمخشرى فى إنكاره فى آية هود وتناهى إلى ما نعوذ بالله منه ، فقدح فى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه راوى الحديث الشاهد لهذا التأويل ، ونحن نبرأ إلى الله تعالى من القدح فى مثل عبد الله وهو من جلة الصحابة رضوان الله عليهم وفقهائهم وزهادهم . وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب ، أى يخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء . وفائدته إظهار القدرة والاعلان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى قد شاءه ، وكان من الجائز العقلى فى مشيئته أن لا يعذبهم ، ولو عذبهم لا يخلدهم ، وأن ذلك ليس بأمر واجب عليه وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل . وفيها على هذا الوجه دفع فى صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة ، وأنه لا يجوز فى العقل أن يشاء خلاف ذلك . وذهب الزجاج إلى وجه لطيف إنما يظهر بالبسط فقال : المراد ـ والله أعلم ـ إلا ما شاء من زيادة العذاب ، ولم يبين وجه استقامة الاستثناء ، والمستثنى على هذا التأويل لم يغاير المستثنى منه فى الحكم ، ونحن نبينه فنقول : العذاب ـ والعياذ بالله ـ على درجات متفاوتة ، فكأن المراد أنهم يخلدون فى جنس العذاب ، إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية وتنتهى إلى أقصى النهاية ، حتى تكاد لبلوغها الغاية ومباينتها لأنواع العذاب فى الشدة تعد ليس من جنس العذاب وخارجة عنه ، والشىء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد كما تقدم فى التعبير عن كثرة الفعل بربّ وقد ، وهما موضوعان لضرر الكثرة من القلة ، وذلك أمر يعتاد فى لغة العرب . وقد حام أبو الطيب حوله فقال :

لقد جدت حتى كاد يبخل حاتم إلى المنتهى ومن السرور بكاد

فكان هؤلاء إذا بلغوا إلى غاية العذاب ونهاية الشدة فقد وصلوا إلى الحد الذى يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق ، حتى يسوغ معاملته فى التعبير بمعاملة المغاير ، وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج إلا بعد هذا البسط . وفى تفسير ابن عباس رضى الله عنه ما يؤيده . والله الموفق .

(٢) قوله «قول الموتور» الموتور : المظلوم . (ع)

عليه من التعنيف والتشديد، فيكون قوله : إلا إذا شئت ، من أشد الوعيد ، مع تهكم بالموعد لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه إطماع ﴿إن ربك حكيم﴾ لا يفعل شيئاً إلا بموجب الحكمة ﴿عليم﴾ بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد .

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿نولى بعض الظالمين بعضاً﴾ نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضاً كما فعل الشياطين وغواة الإنس، أو يجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا فى الدنيا ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصى .

يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ واختلف فى أن الجن هل بعث إليهم رسل منهم ، فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم ، لأنهم به آنس وله آلف . وقال آخرون : الرسل من الإنس خاصة ، وإنما قيل رسل منكم لأنه لما جمع الثقلان فى الخطاب صحّ ذلك وإن كان من أحدهما ، كقوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وقيل : أراد رسل الرسل من الجن إليهم ، كقوله تعالى (ولوا إلى قومهم منذرين) وعن الكلبي: كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يبعثون إلى الإنس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجن ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله (ألم يأتكم) لأن الهمزة الداخلة على نفى إتيان الرسل للإنكار ، فكان تقريراً لهم . وقولهم (شهدنا على أنفسنا) إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم ، وأنهم محجوجون بها . فإن قلت : مالهم مقرين فى هذه الآية جاحدين فى قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) ؟ قلت : تتفاوت الأحوال والمواطن فى ذلك اليوم المتطاول ، فيقرون فى بعضها ، ويجحدون فى بعضها أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم. فإن قلت : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم ؟ قلت : الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون ؟ والثانية : ذم لهم ، وتخطئة لرأيهم ، ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم .

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ماتقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة ، وهو خبر مبتدإ محذوف : أى الأمر ذلك . و﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ تعليل ، أى الأمر ماقصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم ، على أن «أن» هى التى تنصب الأفعال . ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، على معنى : لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم . ولك أن تجعله بدلا من ذلك ، كقوله (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع) ، ﴿بظلم﴾ بسبب ظلم قدموا عليه . أو ظالما ، على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب ، لكان ظلما ، وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح ﴿ولكل﴾ من المكلفين ﴿درجات﴾ منازل ﴿مما عملوا﴾ من جزاء أعمالهم ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بساه عنه يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر .

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)

﴿وربك الغنى﴾ عن عباده وعن عبادتهم ﴿ذو الرحمة﴾ يترحم عليهم بالتكليف ليعرّضهم المنافع الدائمة ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها العصاة ﴿ويستخلف من بعدكم مايشاء﴾ من الخلق المطيع ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم ، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام .

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ (١٣٥)

«المكانة» تكون مصدراً يقال : مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن . وبمعنى المكان ، يقال : مكان ومكانة ، ومقام ومقامة . وقوله ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم . أو اعملوا على جهتكم وحالكم التى أنتم عليها . يقال للرجل إذا

أمر أن يثبت على حاله : على مكانتك يا فلان ، أى اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه ﴿ إنى عامل ﴾ أى عامل على مكانتى التى أنا عليها . والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لى ، فإنى ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أينا تكون له العاقبة المحمودة . وطريقة هذا الأمر طريقة قوله (اعملوا ما شئتم) وهى التخلية ، والتسجيل على المأمور [1] بأنه لا يأتى منه إلا الشر ، فكأنه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتفصى عنه ويعمل بخلافه . فإن قلت : ما موضع ﴿ من ﴾ ؟ قلت الرفع إذا كان بمعنى « أى » وعلق عنه فعل العلم . أو النصب إذا كان بمعنى « الذى » و ﴿ عاقبة الدار ﴾ العاقبة الحسنى التى خلق الله تعالى هذه الدار لها . وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف فى المقال وأدب حسن ، مع تضمن شدّة الوعيد ، والوثوق بأنّ المنذر محق والمنذر مبطل .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله ، وأشياء منها لآلهتهم : فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً يزيد فى نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهة ، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلوا بأنّ الله غنىّ ، وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها : وقوله ﴿ مما ذرأ ﴾ فيه أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكى ، لأنه هو الذى ذرأه وزكاه ، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذرء ولا تزكية ﴿ بزعمهم ﴾ وقرئ بالضم ، أى قد زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التى هى من الشرك ، لأنهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم فى القربة ﴿ فلا يصل إلى الله ﴾ أى لا يصل إلى الوجوه التى كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين ﴿ فهو يصل إلى شركائهم ﴾ من إنفاق عليها بذبح النسائك عندها والإجراء على سدنتها ونحو ذلك ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ فى إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم .

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

---

(١) قوله «والتسجيل على المأمور» فى الصحاح «السجل» الصك . وقد سجل الحاكم تسجيلا . وفيه أيضاً : هي مسجلة للبر والفاجر . قال الأصمعي : أى مرسلة ، يقال أسجلت الكلام أى أرسلته . (ع)

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك فى قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو ومثل ذلك التزيين البليغ [1] الذى هو علم من الشياطين . والمعنى : أن شركاءهم من الشياطين ، أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم [2] بالوأد ، أو بنحرهم للآلهة وكان الرجل فى الجاهلية

---

(١) قوله «ومثل ذلك التزيين البليغ الذى» لعله التزيين الذى . (ع)

(٢) قال محمود : «المعنى أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم ... الخ ، قال أحمد رحمه الله : لقد ركب المصنف فى هذا الفصل متن عمياء ، وتاه فى تيهاء . وأنا أبرأ إلى الله وأبرئ حملة كتابه وحفظة كلامه مما رماهم به ، فانه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفا قرأ به اجتهاداً ، لا نقلا وسماعا فلذلك غلط ابن عامر فى قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة فى شركائهم ، فاستدل بذلك على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب أولادهم بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً فقرأه منصوبا ، قال المصنف : وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جره بالاضافة وإبدال الشركاء منه . وكان ذلك أولى مما ارتكبه يعنى ابن عامر من الفصل بين المضاف والمضاف إليه الذى يسمج فى الشعر فضلا عن النثر فضلا عن المعجز . فهذا كله كما ترى ظن من الزمخشرى أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأيا منه ، وكان الصواب خلافه والفصيح سواه ، ولم يعلم الزمخشرى أن هذه القراءة بنصب الأولاد والفصل بين المضاف والمضاف إليه ، بها يعلم ضرورة أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك ، ثم تلاها النبى صلى الله عليه وسلم على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ويقرؤن بها خلفاً عن سلف ، إلى أن انتهت إلى ابن عامر فقرأها أيضاً كما سمعها . فهذا معتقد أهل الحق فى جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلا عن أفصح من نطق بالضاد صلى الله عليه وسلم . فاذا علمت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشرى ، ولا بقول أمثاله من لحن ابن عامر ، فان المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعا وضرورة . ولولا عذر أن المنكر ليس من أهل الشأنين ، أعنى علم القراءة وعلم الأصول ، ولا يعد من ذوى الفنين المذكورين ، لخيف عليه الخروج من ربقة الدين . وأنه على هذا العذر لفى عهدة خطرة وزلة منكرة تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة فيها ما ليس متواتراً ، فان هذا القائل لم يثبتها بغير النقل . وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر . وأما الزمخشرى فظن أنها تثبت بالرأى غير موقوفة على النقل . وهذا لم يقل به أحد من المسلمين . وما حمله على هذا الخيال إلا التغالى فى اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية ، فظنها قطعية حتى يرد ما خالفها ، ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذى ادعاه مطرداً ، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه . وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه وإن كان عسراً ، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله فهو مقدر بالفعل ، وبهذا التقدير عمل ، وهو أن لم تكن إضافته غير محضة ، إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة حتى قال بعض النحاة : إن إضافته ليست محضة لذلك . فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره . وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر وبين المضاف إليه بالظرف ، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره لما بيناه من انفكاكه فى التقدير وعدم توغله فى الاتصال بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه بما ليس أجنبياً عنه ، وكأنه بالتقدير فكه بالفعل ، ثم قدم المفعول على الفاعل وأضافه إلى الفاعل وبقى المفعول مكانه حين الفك ، ويسهل ذلك أيضا تغاير حال المصدر ، إذ تارة يضاف إلى الفاعل وتارة يضاف إلى المفعول . وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل لوقوعه فى غير مرتبته ، إذ ينوى به التأخير ، فكأنه لم يفصل ، كما جاز تقدم المضمر على الظاهر إذا حل فى غير رتبته ، لأن النية به التأخير . وأنشد أبو عبيدة : « فداسهم دوس الحصاد الدائس »

وأنشد أيضاً : يفركن حب السنبل الكنافج بالقاع فرك القطن المحالج

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول . ومما يقوى عدم توغله فى الاضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً ، فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد منظرة . بشواهد من أقيسة العربية . تجمع شمل القوانين =

يحلف : لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنّ أحدهم ، كما حلف عبد المطلب . وقرئ : زين ، على البناء للفاعل الذى هو شركاؤهم ، ونصب (قتل أولادهم) وزين ، على البناء للمفعول الذى هو القتل ، ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زين ، كأنه قيل : لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينه ؟ فقيل : زينه لهم شركاؤهم . وأما قراءة ابن عامر : قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجرّ الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف ، فشىء لو كان فى مكان الضرورات وهو الشعر ، لكان سمجاً مردوداً ، كما سمج وردّ .

* زَجَّ الْقَلُوصِ أَبِي مَزَادَهْ * (١)

فكيف به فى الكلام المنثور ، فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته . والذى حمله على ذلك أن رأى فى بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء . ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ـ لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم ـ لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب ﴿ ليردوهم ﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿ وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ وليخلطوه عليهم ويشبهوه . ودينهم : ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك . وقيل : دينهم الذى وجب أن يكونوا عليه . وقيل : معناه وليوقعوهم فى دين ملتبس . فان قلت : ما معنى اللام ؟ قلت : إن كان التزيين من الشياطين فهى على حقيقة التعليل ، وإن كان من السدنة فعلى معنى الصيرورة ﴿ ولو شاء الله ﴾ مشيئة قسر ﴿ ما فعلوه ﴾ لما فعل المشركون ما زين لهم من القتل . أو لما فعل الشياطين أو السدنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك ، إن جعلت الضمير جارياً مجرى اسم الاشارة ﴿ وما يفترون ﴾ وما يفترونه من الإفك . أو وافتراؤهم .

وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)

ــ النحوية لهذه القراءة ، وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة . وهذا القدر كاف إن شاء الله فى الجمع بينهما والله الموفق . وما أجريناه فى أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة ، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التى يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر فى إضافته ، ولامستبعد من القياس ، ولم يفرده فى الدلالة المذكورة اذ المتفق على عدم تمحضها لايسوغ فيها الفصل ، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة ، والله الموفق .

(١) فزججتها بمزجة زج القلوص أبى مزاده

الزج : الطعن : والمزجة : الرمح القصير ، لأنه آلة للزج . والقلوص : الناقة الشابة ، وهو مفعول فاصل بين المضاف والمضاف إليه شذوذاً . يقول : فطعنت الناقة أو الجاعة برمح قصير ، كطعن أبى مزادة القلوص فى السير .

﴿حجر﴾ فعل بمعنى مفعول كالذبح والطحن ، ويستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع ؛ لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات : وقرأ الحسن وقتادة (حجر) بضم الحاء. وقرأ ابن عباس : حرج ، وهو من التضييق وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا ﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ يعنون خدم الأوثان ، والرجال دون النساء ﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ وهى البحائر والسوائب والحوامى ﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾ فى الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام . وقيل : لايحجون عليها ولا يلبون على ظهورها . والمعنى : أنهم قسموا أنعامهم فقالوا : هذه أنعام حجر ، وأنعام محرمة الظهور ، وهذه أنعام لا يذكر عليها اسم الله . فجعلوها أجناسا بهواهم ، ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله ﴿افتراء عليه﴾ أى فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وانتصابه على أنه مفعول له : أو حال ، أو مصدر مؤكد ، لأنّ قولهم ذلك فى معنى الافتراء.

وَقَالُوا مَافِى بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

كانوا يقولون فى أجنة البحائر والسوائب : ماولد منها حيا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث ، وماولد منها ميتا اشترك فيه الذكور والإناث . وأنث ﴿خالصة﴾ للحمل على المعنى ، لأنّ (ما) فى معنى الأجنة [1] وذكر ﴿محرم﴾ للحمل على اللفظ . ونظيره (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك) ويجوز أن تكون التاء للمبالغة مثلها فى رواية الشعر . وأن تكون مصدراً وقع موقع الخالص ، كالعاقبة أى ذو خالصة . ويدل عليه قراءة من قرأ (خالصة) بالنصب على أنّ قوله ﴿لذكورنا﴾ هو الخبر ، وخالصة مصدر مؤكد ، ولايجوز أن يكون حالا متقدمة ، لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله . وقرأ ابن عباس : خالصة على الإضافة . وفى مصحف عبد الله : خالص . ﴿وإن يكن ميتة﴾ وإن يكن مافى بطونها ميتة . وقرئ : وإن

---

(١) قال محمود : «وأنث خالصة للحمل على المعنى لأن مافى معنى الأجنة ... الخ» قال أحمد : ليسا سواء ، لأنه فى الآية الأولى رجوع إلى اللفظ بعد المعنى وفيه إجمال ، وبينهما بون اقتضى أن أنكر جماعة من متأخرى الفن وقوعه فى الكتاب العزيز ، وادعوا أن جميع ماورد فيه يعود على المعنى بعد اللفظ ، وقد التزم غيرهم إجازة ذلك ، وعدوا فى الكتاب العزيز منه موضعين يمكن صرف الكلام فيهما إلى غير الموصول . وعلى الجملة فالحمل على اللفظ بعد المعنى قليل وغيره أولى ما وجد إليه سبيل . وقد ذكر المصنف وجهين آخرين سوى ذلك فقال : ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة مثلها فى راوية الشعر ، وأن يكون مصدرا وقع موقع الخالص كالعافية أى ذو خالصة . ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب ، على أن قوله (لذكورنا) هو الخبر ، و(خالصة) مصدر مؤكد . ولايجوز أن يكون حالا متقدمة ؛ لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله ، ولقد أحسن فى الاحتراز بمنع الحال من المجرور حتى يتعين المصدر .

تكن، بالتأنيث، على : وإن تكن الأجنة ميتة . وقرأ أهل مكة : وإن تكن ميتة بالتأنيث والرفع على كان التامة وتذكير الضمير فى قوله ﴿فهم فيه شركاء﴾ لأن الميتة لكل ميت ذكر أو أنثى، فكأنه قيل : وإن يكن ميت فهم فيه شركاء ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أى جزاء وصفهم الكذب على الله فى التحليل والتحريم من قوله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام).

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

نزلت فى ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر ﴿سفهاً بغير علم﴾ لخفة أحلامهم، وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم، لا هم . وقرئ (قتلوا) بالتشديد ﴿ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوائب وغيرها.

وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

﴿أنشأ جنات﴾ من الكروم ﴿معروشات﴾ مسموكات[1] ﴿وغير معروشات﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرّش . وقيل : المعروشات، ما فى الأرياف والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرّشوه (وغير معروشات) مما أنبته وحشياً فى البرارى والجبال . فهو غير معروش . يقال : عرّشت الكرم، إذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان . وسقف البيت : عرشه ﴿مختلفا أكله﴾ فى اللون والطعم والحجم والرائحة . وقرئ (أكله) بالضم والسكون وهو ثمره الذى يؤكل . والضمير للنخل والزرع داخل فى حكمه، لكونه معطوفا عليه . ومختلفاً : حال مقدرة لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك، كقوله تعالى (فادخلوها خالدين) . وقرئ (ثمره) بضمتين . فإن قلت : مافائدة قوله ﴿إذا أثمر﴾ وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه ؟ قلت : لما أبيح لهم الأكل من ثمره قيل : إذا أثمر، ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ الآية مكية، والزكاة إنما فرضت بالمدينة، فأريد بالحق ما كان يتصدق به على

(١) قوله «مسموكات» أى مرفوعات . وفى الصحاح «سمك الله السماء» رفعها . والسمك : السقف . (ع)

المساكين يوم الحصاد، وكان ذلك واجباً حتى نسخه افتراض العشر، ونصف العشر. وقيل مدنية، والحق هو الزكاة المفروضة. ومعناه: واعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء ﴿ولا تسرفوا﴾ فى الصدقة كما روى عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله (ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً).

وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿حمولة وفرشاً﴾ عطف على جنات. أى: وأنشأ من الأنعام مايحمل الأثقال وما يفرش للذبح، أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش. وقيل: «الحمولة» الكبار التى تصلح للحمل، «والفرش» الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم، لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها، مثل الفرش المفروش عليها ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ فى التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية ﴿ثمانية أزواج﴾ بدل من حمولة وفرشاً ﴿اثنين﴾ زوجين اثنين، يريد الذكر والأنثى، كالجمل والناقة، والثور والبقرة، والكبش والنعجة، والتيس والعنز. والواحد إذا كان وحده فهو فرد، فإذا كان معه غيره من جنسه سمى كل واحد منها زوجاً، وهما زوجان، بدليل قوله (خلق الزوجين الذكر والأنثى) والدليل عليه [1] قوله تعالى (ثمانية أزواج) ثم فسرها بقوله (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين)، (ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين) ونحو تسميتهم الفرد بالزوج، بشرط أن يكون معه آخر من جنسه: تسميتهم الزجاجة

(١) قوله «والدليل عليه» عبارة النسفى: ويدل عليه. (ع)

كأساً بشرط أن يكون فيها خمر . والضأن والمعز جمع ضائن وماعز ، كتاجر وتجر . وقرئا بفتح العين . وقرأ أبىّ . ومن المعزى . وقرئ : اثنان ، على الابتداء .

الهمزة فى ﴿ آلذكرين ﴾ للإنكار والمراد بالذكرين : الذكر من الضأن والذكر من المعز . وبالأنثيين : الأنثى من الضأن والأنثى من المعز ، على طريق الجنسية . والمعنى إنكار أن يحرم الله تعالى من جنس الغنم ضأنها ومعزها شيئاً من نوعى ذكورها وإناثها ، ولا مما تحمل إناث الجنسين ، وكذلك الذكران من جنسى الإبل والبقر ، والأنثيان منهما وما تحمل إناثهما ، وذلك أنهم كانوا يحرمون ذكورة الأنعام [1] تارة ، وإناثها تارة ، وأولادهما كيفما كانت ذكوراً وإناثاً ، أو مختلطة تارة ، وكانوا يقولون قد حرمها الله ، فأنكر ذلك عليهم ﴿ نبئونى بعلم ﴾ أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرمتم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى أن الله حرمه ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ بل أكنتم شهداء . ومعنى الهمزة الإنكار ، يعنى أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم ؟ وذكر المشاهدة على مذهبهم ، لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون : الله حرم هذا الذى نحرمه ، فتهكم بهم فى قوله (أم كنتم شهداء) على معنى : أعرفتم التوصية به مشاهدين ، لأنكم لا تؤمنون بالرسل ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ﴿ ليضل الناس ﴾ وهو عمرو بن لحى بن قمعة الذى بحر البحائر وسيب السوائب .

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

فإن قلت : كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه ولم يوال بينه ؟ قلت : قد وقع الفاصل بينهما اعتراضاً غير أجنبى من المعدود . وذلك أن الله عز وجل منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم ، فاعترض بالاحتجاج على من حرمها ، والاحتجاج على من حرمها تأكيد وتسديد للتحليل ، والاعتراضات فى الكلام لا تساق إلا للتوكيد ﴿ فيما أوحى إلىّ ﴾ تنبيه على أن التحريم إنما يثبت بوحى الله تعالى وشرعه ، لا بهوى الأنفس ﴿ محرماً ﴾ طعاماً محرماً من المطاعم التى حرمتموها ﴿ إلا أن يكون ميتة ﴾ إلا أن يكون الشيء المحرم ميتة ﴿ أو دما مسفوحا ﴾ أى مصبوباً سائلا ، كالدم فى العروق ، لا كالكبد والطحال . وقد رخص فى دم العروق بعد الذبح

(١) قوله «ذكورة الأنعام» يجمع الذكر على ذكارة كحجارة ، وذكور وذكران . هذا ما فى الصحاح ، لكن عبارة النسفى كعبارة المصنف ، فحرر . (ع)

﴿أو فسقا﴾ عطف على المنصوب قبله. سمى ما أهلّ به لغير الله فسقاً لتوغله فى باب الفسق. ومنه قوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) وأهلّ: صفة له منصوبة المحل. ويجوز أن يكون مفعولا له من أهلّ، أى أهلّ لغير الله به فسقاً. فإن قلت: فعلام تعطف ﴿أهلّ﴾؟ وإلام يرجع الضمير فى ﴿به﴾ على هذا القول؟ قلت: يعطف على يكون، ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكنّ فى يكون ﴿فمن اضطرّ﴾ فمن دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرّمات ﴿غير باغ﴾ على مضطر مثله تارك لمواساته ﴿ولا عاد﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

«ذو الظفر» ما له أصبع من دابة أو طائر، وكان بعض ذات الظفر حلالا لهم، فلما ظلموا حرّم ذلك عليهم فعمّ التحريم كل ذى ظفر بدليل قوله (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقوله ﴿ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما﴾ كقولك: من زيد أخذت ماله، تريد بالإضافة زيادة الربط. والمعنى أنه حرّم عليهم لحم كل ذى ظفر وشحمه وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرّم منهما إلا الشحوم الخالصة، وهى الثروب[1] وشحوم الكلى. وقوله ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ يعنى إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحفة[2] ﴿أو الحوايا﴾ أو اشتمل على الأمعاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ وهو شحم الإلية. وقيل (الحوايا) عطف على شحومهما. و«أو» بمنزلتها فى قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين ﴿ذلك﴾ الجزاء ﴿جزيناهم﴾ وهو تحريم الطيبات ﴿ببغيهم﴾ بسبب ظلمهم[3] ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أوعدنا

(١) قوله «الثروب» هى شحوم رقيقة قد غشيت الكرش والأمعاء، كذا فى الصحاح. (ع)

(٢) قوله «من السحفة» السحفة: الشحمة الملتزقة بالجلد على الظهر من الكتف إلى الورك، نقله فى الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود: معناه ذلك الجزاء جزيناهم ببغيهم بسبب ظلمهم... الخ، قال أحمد: هذه الآية وردت فيمن كفر وافترى على الله ووعيد الكافر باتفاق واقع به غير مردود عنه. وأهل السنة وإن قالوا: يجوز العفو عن العاصى الموحد، فلا يقولون إن ذلك حتم، ولا يلزمهم ذلك، لأن الله تعالى حيث توعد المؤمنين العصاة، علق حلول الوعيد بهم بالمشيئة، وأخبر أنه يغفر لمن يشاء منهم، فمن ثم اعتقدنا أن كل موحد عاص فى المشيئة، وحيث أطلق وعيدهم فى بعض الظواهر فهو محمول على المقيد، فلا يلزمهم حينئذ اعتقاد الخلف فى الخبر. والزمخشرى إنما يدندن حول إلزامهم ذلك وأنى له.

به العصاة لا نخلفه، كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة. فلما عصوا وبغوا ألحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب. ﴿فإن كذبوك﴾ فى ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة، وأنه لا يؤاخذ بالبغى ويخلف الوعيد جوداً وكرماً ﴿فقل﴾ لهم ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ لأهل طاعته ﴿ولا يردّ بأسه﴾ مع سعة رحمته ﴿عن القوم المجرمين﴾ فلا تغترّ برجاء رحمته عن خوف نقمته.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)

﴿سيقول الذين أشركوا﴾ إخبار بما سوف يقولونه، [١] ولما قالوه قال (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء) يعنون بكفرهم وتمردهم. [٢] أن شركهم وشرك

---

(١) قال محمود: «هذا إخبار بما سوف يقولونه ...الخ» قال أحمد: وفائدته توطين النفس على الجواب ومكافحتهم بالرد وإعداد الحجة قبل أوانها، كما قال (سيقول السفهاء من الناس).

(٢) عاد كلامه. قال: فلما وقع ذلك منهم قال (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء) يعنون بكفرهم ... الخ، قال أحمد رحمه الله: قد تقدم أيضا الكلام على هذه الآية، وأوضحنا أن الرد عليهم، إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم، وأن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار، وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله ورسله بذلك، فرد الله قولهم وكذبهم فى دعواهم عدم الاختيار لأنفسهم، وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل وأشرك بالله واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة، ثم بين الله تعالى أنهم لا حجة لهم فى ذلك، وأن الحجة البالغة له لا لهم بقوله (ألا لله الحجة البالغة) ثم أوضح تعالى أن كل شىء واقع بمشيئته، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون، بقوله (فلو شاء لهداكم أجمعين) والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد، وينصرف الرد إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم، وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة. وإذا تدبرت هذه وجدتها كافية فى الرد على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة، بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها، وهم الفرقة المعروفون بالجبرة. والمصنف يغالط فى الحقائق فيسمى أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية، مميزة بينها وبين أفعاله القسرية، فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين الجبرة، ويجعله لقبا عاما لأهل السنة. وجماع الرد على المجبرة الذين ميزناهم عن أهل السنة فى قوله تعالى (سيقول الذين أشركوا ـ إلى قوله ـ قل فلله الحجة البالغة) وتتمة الآية رد صراح على طائفة الاعتزال القائلين بأن الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين، فلم تقع من أكثرهم. ووجه الرد أن «لو» إذا دخلت على فعل مثبت نفته، فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال (فلو شاء) لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم، ولو شاءها لوقعت، فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحل عقدهم، فاذا ثبت اشتمال الآية على رد عقيدة الطائفتين المذكورتين المجبرة فى أولها والمعتزلة فى آخرها، فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها. فان أولها كما بينا يثبت للعبد اختياراً وقدرة

آبائهم ، وتحريمهم ما أحل الله ، بمشيئة الله وإرادته . ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ، كذهب المجبرة بعينه[1] ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ أى جاءوا بالتكذيب المطلق ؛ لأنّ الله عزّ وجلّ ركب فى العقول وأنزل فى الكتب مادل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها ، والرسل أخبروا بذلك . فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصى بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله ، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله ، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم ﴿ قل هل عندكم من علم ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿ فتخرجوه لنا ﴾ وهذا من التهكم ، والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة ﴿ إن تتبعون إلا الظنّ ﴾ فى قولكم هذا ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ تقدرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون . وقرئ (كذلك كذب الذين من قبلهم) بالتخفيف ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ يعنى فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فلله الحجة البالغة عليكم على قود مذهبكم[2] ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ منكم ومن مخالفيكم فى الدين ، فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضى أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته ، فتوالوهم ولا تعادوهم ، وتوافقوهم ولا تخالفوهم ، لأنّ المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه .

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿ هلم ﴾ يستوى فيه الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث عند الحجازيين . وبنو تميم تؤنث وتجمع . والمعنى : هاتوا شهداءكم وقربوهم . فإن قلت : كيف أمرهم باستحضار شهدائهم الذين

= على وجه يقطع حجته وعذره فى المخالفة والعصيان ، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله فى العبد ، وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الالهية خيراً أو غيره ، وذلك عين عقيدتهم ، فانهم كما يثبتون للعبد مشيئة وقدرة ، يسلبون تأثيرها ويعتقدون أن ثبوتهما قاطع لحجته ملزم له بالطاعة على وفق اختياره ، ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته فى أفعال عباده ، فهم كما رأيت تبع للكتاب العزيز ، يثبتون ماأثبت ، وينفون مانفى ، مؤيدون بالعقل والنقل ، والله الموفق .

(١) قوله «كذهب المجبرة بعينه» يعنى أهل السنة ، من أن كل كائن فهو مراد له تعالى ولو شراً . وتحقيق الفرق بينه وبين قول المشركين فى علم التوحيد ، ويكفى فيه أن قولهم من باب التهكم ، كما قالوا لما قيل لهم (أنفقوا مما رزقكم الله) : (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) . (ع)

(٢) قوله «على قود مذهبكم» لعله من قاد الفرس ونحوه قوداً ، إذا جره بسهولة ، أى على طبق مذهبكم ، أى على مقتضاه ومايؤدى إليه . (ع)

يشهدون أنّ الله حرم مازعموه محرما ، ثم أمره بأن لايشهد معهم ؟ قلت : أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ، ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر ، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شيء ، لتساوى أقدام الشاهدين والمشهود لهم فى أنهم لايرجعون إلى مايصح التمسك به . وقوله ﴿فلا تشهد معهم﴾ يعنى فلا تسلم لهم ماشهدوا به ولا تصدقهم : لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحداً منهم ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنّ من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع للهوى لاغير ، لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقا بالآيات موحداً لله تعالى . فإن قلت : هلا قيل : قل هلم شهداء يشهدون أنّ الله حرّم هذا ؟ [1] وأى فرق بينه و بين المنزل ؟ قلت : المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم ، وكان المشهود لهم يقلدونهم ويثقون بهم ويعتضدون بشهادتهم ، ليهدم مايقومون به فيحق الحق و يبطل الباطل ، فأضيفت الشهداء لذلك ، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم ، والدليل عليه قوله تعالى (فإن شهدوا فلا تشهد معهم) ولو قيل : هلم شهداء يشهدون ، لكان معناه هاتوا أناساً يشهدون بتحريم ذلك ، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق وذلك ليس بالغرض . ويناقضه قوله تعالى (فان شهدوا فلا تشهد معهم) .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَالِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

«تعال» من الخاص الذى صار عاما . وأصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عمّ . و﴿ماحرّم﴾ منصوب بفعل التلاوة ، أى أتل الذى حرمه ربكم . أو بحرم بمعنى : أتل أىّ شيء حرّم ربكم ، لأن التلاوة من القول ، و«أن» فى ﴿ألا تشركوا﴾ مفسرة

---

(١) عاد كلامه . قال : «فإن قلت هلا قيل قل هلم شهداء يشهدون أن الله حرم هذا وأى فرق بينه وبين المنزل ... الخ » قال أحمد رحمه الله : «وجه مناقضته له أنه لو قيل على خلاف المنزل ، وهو قوله : هلم شهداء يشهدون ، يفهم أن الطالب للشهداء ليس على تحقيق من أن ثم شهداء ، كما يقول الحاكم للمدعى : هات بينة تشهد بذلك ، فهو لايتحقق أن للمدعى بينة ، ثم يكون قوله (فان شهدوا) تحقيقاً لأن ثم شهداء ، فالجمع بينهما متناقض كما ترى ، والله الموفق .

و«لا» للنهي . فإن قلت : هلا قلت هي التي تنصب الفعل ، وجعلت أن لا تشركوا بدلا من (ماحرم)؟ قلت : وجب أن يكون (لا تشركوا) و(لا تقربوا) و(لا تقتلوا) و(لا تتبعوا السبل) نواهي لانعطاف الأوامر عليها ، وهي قوله (وبالوالدين إحساناً) لأن التقدير : وأحسنوا بالوالدين إحسانا ، (وأوفوا) ، (وإذا قلتم فاعدلوا) ، (وبعهد الله أوفوا) . فإن قلت : فما تصنع بقوله ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه﴾ فيمن قرأ بالفتح ، وإنما يستقيم عطفه على أن لاتشركوا إذا جعلت أن هي الناصبة للفعل ، حتى يكون المعنى : أتل عليكم نفي الإشراك والتوحيد ، وأتل عليكم أن هذا صراطي مستقيما ؟ قلت : أجعل قوله (وأن هذا صراطي مستقيما) علة للاتباع بتقدير اللام ، كقوله تعالى (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) بمعنى : ولأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه . والدليل عليه القراءة بالكسر ، كأنه قيل : واتبعوا صراطي لأنه مستقيم ، أو واتبعوا صراطي إنه مستقيم . فإن قلت : إذا جعلت (أن) مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بما حرم ربكم ، وجب أن يكون مابعده منهياً عنه محرما كله ، كالشرك ومابعده مما دخل عليه حرف النهي ، فما تصنع بالأوامر ؟ قلت : لما وردت هذه الأوامر مع النواهي ، وتقدمهن جميعاً فعل التحريم ، واشتركن في الدخول تحت حكمه ، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها ، وهي الإساءة إلى الوالدين ، وبخس الكيل والميزان . وترك العدل في القول ، ونكث عهد الله ﴿من إملاق﴾ من أجل فقر ومن خشيته ، كقوله تعالى (خشية إملاق) . ﴿ماظهر منها وما بطن﴾ مثل قوله (ظاهر الإثم وباطنه) . ﴿إلا بالحق﴾ كالقصاص ، والقتل على الردة ، والرجم .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)

﴿إلا بالتي هي أحسن﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن مايفعل بمال اليتيم ، وهي حفظه وتثميره والمعنى : احفظوه عليه حتى يبلغ أشده فادفعوه إليه ﴿بالقسط﴾ بالسوية والعدل ؛ ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ إلا مايسعها ولا تعجز عنه . وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك ؛ لأن مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج ، فأمر ببلوغ الوسع وأن ماوراءه معفو عنه ﴿ولو كان ذا قربى﴾ ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل ، فما ينبغي أن يزيد في القول أو ينقص ، كقوله (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

وقرئ : وأن هذا صراطى مستقيما ، بتخفيف «أن» وأصله : وأنه هذا صراطى ، على أن الهاء ضمير الشأن والحديث . وقرأ الأعمش: وهذا صراطى . وفى مصحف عبدالله : وهذا صراط ربكم. وفى مصحف أبى: وهذا صراط ربك ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ الطرق المختلفة فى الدين، من اليهودية والنصرانية ، والمجوسية ، وسائر البدع والضلالات ﴿فتفرق بكم﴾ فتفرقكم أيادى سبا ﴿عن سبيله﴾ عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام . وقرئ : فتفرق بإدغام التاء . وروى أبو وائل عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه خط خطاً ثم قال : هذا سبيل الرشد ، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطا ثم قال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه [١] ، ثم تلا هذه الآية (وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هذه الآيات محكمات لم ينسخهنّ شىء من جميع الكتب . وقيل : إنهنّ أم الكتاب ، من عمل بهنّ دخل الجنة ، ومن تركهنّ دخل النار ، وعن كعب الأحبار : والذى نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شىء فى التوراة. فإن قلت : علام عطف قوله (ثم آتينا موسى الكتاب) قلت : على (وصاكم به) . فإن قلت : كيف صح عطفه عليه بثم ـ والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل ـ ؟ قلت : هذه التوصية قديمة ، لم تزل توصاها كل أمة على لسان نبيهم ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : محكمات لم ينسخهنّ شىء من جميع الكتب ، فكأنه قيل : ذلكم وصاكم به يابنى آدم قديماً وحديثاً .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)

﴿ثم﴾ أعظم من ذلك أنا ﴿آتينا موسى الكتاب﴾ وأنزلنا هذا الكتاب المبارك . وقيل : هو معطوف على ما تقدّم قبل شطر السورة من قوله تعالى (ووهبنا له إسحق ويعقوب) . ﴿تماماً على الذى أحسن﴾ تماماً للكرامة والنعمة ، على الذى أحسن ، على من كان محسناً صالحاً ، يريد جنس المحسنين . وتدل عليه قراءة عبد الله : على الذين أحسنوا : أو أراد به موسى عليه السلام ، أى تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل ما أمر به أو تماماً على الذى أحسن موسى من العلم والشرائع ، من أحسن الشىء إذا أجاد معرفته ، أى

(١) أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والبزار وأبو يعلى من طريق عاصم وغيره عن أبى وائل .

زيادة على علمه على وجه التتميم. وقرأ يحي بن يعمر: على الذى أحسن، بالرفع، أى على الذى هو أحسن، بحذف المبتدإ كقراءة من قرأ (مثلا مَا بعوضة) بالرفع أى على الدين الذى هو أحسن دين وأرضاه. أو آتينا موسى الكتاب تماما، أى تاماً كاملا على أحسن ماتكون عليه الكتب، أى على الوجه والطريق الذى هو أحسن وهو معنى قول الكلبي: أتمَّ له الكتاب على أحسنه

وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿أن تقولوا﴾ كراهة أن تقولوا ﴿على طائفتين﴾ يريدون أهل التوراة وأهل الإنجيل ﴿وإن كنا﴾ هى إن المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينها وبين النافية. والأصل: وإنه كنا عن دراستهم غافلين، على أن الهاء ضمير الشأن ﴿عن دراستهم﴾ عن قراءتهم، أى لم نعرف مثل دراستهم ﴿لكنا أهدى منهم﴾ لحدة أذهاننا، وثقابة أفهامنا، وغزارة حفظنا لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأسجاعها وأمثالها، على أنا أميون. وقرئ: أن يقولوا: أو يقولوا، بالياء ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ تبكيت لهم، وهو على قراءة من قرأ يقولوا على لفظ الغيبة أحسن، لما فيه من الالتفات. والمعنى: إن صدقتكم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم، فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف ﴿فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله﴾ بعد ماعرف صحتها وصدقها، أو تمكن من معرفة ذلك ﴿وصدف عنها﴾ الناس فضلّ وأضلّ ﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾ كقوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب).

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿الملائكة﴾ ملائكة الموت ، أو العذاب ﴿أو يأتى ربك﴾ أو يأتى كل آيات ربك . بدليل قوله ﴿أو يأتى بعض آيات ربك﴾ يريد آيات القيامة والهلاك الكلى ، وبعض الآيات . أشراط الساعة ، كطلوع الشمس من مغربها ، وغير ذلك . وعن البراء بن عازب : كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما تتذاكرون ؟ فقلنا : نتذاكر الساعة قال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ، ودابة الأرض ، وخسفاً بالمغرب ، وخسفاً بالمشرق ، وخسفاً بجزيرة العرب ، والدجال ، وطلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، وناراً تخرج من عدن [1] ، ﴿لم تكن آمنت من قبل﴾ صفة لقوله نفساً . وقوله ﴿أو كسبت فى إيمانها خيراً﴾ عطف على آمنت . والمعنى أنّ أشراط الساعة إذا جاءت وهى آيات ملجئة مضطرة ، ذهب أوان التكليف عندها ، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات ، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة فى إيمانها خيراً ، فلم يفرّق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت [2] فى غير وقت الإيمان ، وبين النفس التى آمنت فى وقته ولم تكسب خيراً ، ليعلم أنّ قوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) جمع بين قرينتين ، لا ينبغى أن تنفك إحداهما عن الأخرى ، حتى يفوز صاحبهما ويسعد ، وإلا فالشقوة والهلاك ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ وعيد . وقرئ : أن يأتيهم الملائكة ، بالياء والتاء . وقرأ ابن سيرين : لا تنفع ، بالتاء ، لكون الإيمان مضافاً إلى ضمير المؤنث الذى هو بعضه كقولك : ذهبت بعض أصابعه .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)

﴿فرّقوا دينهم﴾ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى . وفى الحديث : « افترقت اليهود

(١) لم أجده لكن فى مسلم عن حذيفة نحوه .

(٢) قال محمود : « ولم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت ... الخ » قال أحمد رحمه الله : هو يروم الاستدلال على صحة عقيدته فى أن الكافر والعاصى سواء فى الخلود بهذه الآية ، إذ سوى بينهما فى عدم الانتفاع بما يستدركانه بعد ظهور الآيات ، ولا يتم له ذلك ، فان هذا الكلام اشتمل على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف . وأصل الكلام . يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد ، ولا نفساً لم تكسب فى إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد ؛ إلا أنه لف الكلامين فجعلهما كلاما واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً : أراد أن يثبت أن ذلك هو الأصل ، فهو غير مخالف لقواعد السنة ، فانا نقول : لا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير وإن نفع الإيمان المتقدم فى السلامة من الخلود ؛ فهذا بأن يدل على رد الاعتزال ، أجدر من أن يدل له . والله الموفق .

على إحدى وسبعين فرقة ، كلها فى الهاوية إلا واحدة وهى الناجية ، وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة ، كلها فى الهاوية إلا واحدة . وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى الهاوية إلا واحدة [1] » وقيل : فرّقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقرئ : فارقوا دينهم ، أى تركوه ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ فرقاً كل فرقة تشيع إماماً لها ﴿ لست منهم فى شىء ﴾ أى من السؤال عنهم وعن تفرقهم . وقيل من عقابهم . وقيل : هى منسوخة بآية السيف .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

﴿ عشر أمثالها ﴾ على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف ، تقديره عشر حسنات أمثالها ، وقرئ : عشر أمثالها ، برفعهما جميعاً على الوصف . وهذا أقل ما وعد من الإضعاف . وقد وعد بالواحد سبعمائة ، ووعد ثواباً بغير حساب . ومضاعفة الحسنات فضل ، ومكافأة السيئات عدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ لا ينقص من ثوابهم ولا يزاد على عقابهم .

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾

﴿ دينا ﴾ نصب على البدل من محل (إلى صراط) لأنّ معناه : هدانى صراطاً ، بدليل قوله (ويهديكم صراطاً مستقيما) والقيم : فيعل ، من قام ، كسيد من ساد ، وهو أبلغ من القائم .

---

(١) أخرجه أصحاب السنن إلا النسائى من رواية محمد بن عمرو عن أبى هريرة ، دون «كلها» إلى آخر ما فى المواضع ، لكن عند أبى داود فى الأخيرة «ثنتان وسبعون فى النار . وواحدة فى الجنة » وللترمذى «كلهم فى النار ، إلا ملة واحدة . وهى الناجية ، وافترقت النصارى ثنتين وسبعين فرقة . كلها فى الهاوية إلا واحدة . قالوا : من هي يارسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى ، وأخرجه ابن حبان والحاكم . ورواه الطبرانى من حديث عوف بن مالك كذلك ، إلا أنه قال «فرقة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار . قيل : من هى ؟ قال : الجماعة» ومن حديث أبى أمامة فى الأوسط ، بلفظ «كلها فى النار إلا السواد الأعظم» ولأبى نعيم وابن مردويه من حديث زيد بن أسلم عن أنس نحوه . والبزار والبيهقى فى المدخل من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص نحوه . وأخرجه أسلم بن سهل الواسطى فى تاريخه من حديث جابر مثله . وبين أن السائل عن ذلك عمر بن الخطاب ، وفى إسناده راو لم يسم ، وفى الباب عن سعد بن أبى وقاص عند ابن أبى شيبة ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، وعن معاوية أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم وإسناده حسن ، واتفقت هذه الطرق على العدد المذكور أولا : وخالفهم كثير بن عبدالله بن عمرو ابن عوف عن أبيه عن جده لجعله قوم موسى سبعين فرقة وقوم عيسى إحدى وسبعين وهذه الأمة اثنين وسبعين . وغير فى كل منها كلها فقال «إلا واحدة» وقال فى الأخيرة «الاسلام وجماعة» أخرجه الطبرانى والحاكم .

وقرئ : قيما . والقيم : مصدر بمعنى القيام وصف به . و ﴿ ملة إبراهيم ﴾ عطف بيان . و ﴿ حنيفاً ﴾ حال من إبراهيم .

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ﴾ وعبادتى وتقربى كله . وقيل : وذبحى . وجمع بين الصلاة والذبح كما فى قوله (فصل لربك وانحر) وقيل : صلاتى وحجى من مناسك الحج ﴿ ومحياى ومماتى ﴾ وما آتيه فى حياتى ، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿ لله رب العالمين ﴾ خالصة لوجهه ﴿ وبذلك ﴾ من الإخلاص ﴿ أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ لأن إسلام كل نبى متقدم لإسلام أمته .

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)

﴿ قل أغير الله أبغى ربا ﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم ، والهمزة للإنكار ، أى منكر أن أبغى ربا غيره ﴿ وهو رب كل شىء ﴾ فكل من دونه مربوب ليس فى الوجود من له الربوبية غيره ، كما قال (قل أفغير الله تأمرونى أعبد) ، ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ جواب عن قولهم (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

﴿ جعلكم خلائف الأرض ﴾ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فخلفت أمته سائر الأمم . أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً . أو هم خلفاء الله فى أرضه يملكونها ويتصرفون فيها ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ فى الشرف والرزق ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ من نعمة المال والجاه ، كيف تشكرون تلك النعمة ، وكيف يصنع الشريف بالوضيع ، والحر بالعبد ، والغنى بالفقير ﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾ لمن كفر نعمته ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن قام بشكرها . ووصف العقاب بالسرعة ، لأن ما هو آت قريب .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام صلى الله عليه وسلم واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوما وليلة .[1]

سورة الأعراف

مكية ، غير ثمان آيات : واسئلهم عن القرية ، إلى : وإذ نتقنا الجبل
وهى مائتان وست آيات [نزلت بعد ص]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المص ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

(كتاب) خبر مبتدأ محذوف ، أى هو كتاب . و ﴿ أنزل إليك ﴾ صفة له . والمراد بالكتاب السورة (فلا يكن فى صدرك حرج منه) أى شك منه[2] ، كقوله (فإن كنت فى شك

---

(١) سبقت طرقه فى سورة آل عمران . وله طريق أخرى أخرجها الثعلبي من حديث أبي بن كعب بتمامه . وفيه أبو عصمة . وهو متهم بالكذب . وأوله عند الطبرانى فى الصغير فى ترجمة إبراهيم بن نائلة من حديث ابن عمر إلى قوله «والتحميد» وفيه يوسف بن عطية ، وهو ضعيف ، وأخرجه عنه ابن مردويه فى تفسيره وأبو نعيم فى الحلية .

(٢) قال محمود : «الحرج : الشك ... الخ» قال أحمد : ويشهد له قوله تعالى (فلا تكونن من الممترين) ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح ، بأن «العقد» ربط الفكر بمعتقد . و «الاعتقاد» افتعال منه ، والعلم يشعر بانحلال العقود وهو الانشراح والتبلج والثقة . وما أحسن تنبيهه بقوله : والاعتقاد افتعال منه . يريد : إذا كان العقد مباينا للعلم ، فما ظنك بالاعتقاد ؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى . ومنه الاعتماد والاحتمال . ومن ثم ورد فى الخير «كسب» وفى نقيضه «اكتسب» لأن النفوس فى الشهوات والمخالفات واتباع الأهواء أجدر منها فى الطاعات وقمع الأغراض ، وعلى ذلك جاء (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وإن كان «العلم» من «الأعلم» المأخوذ من «العلة» بالتحريك ، وهي انشراح الشفة وانشقاقها ؛ فالذى ذكره الامام حينئذ نهاية فى نوعه ، والله الموفق .

مما أنزلنا إليك) وسمى الشك حرجاً ، لأن الشاك ضيق الصدر حرجه ، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه . أى لا تشك فى أنه منزل من الله ، ولا تحرج من تبليغه[1] لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم . فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم . فإن قلت : بم تعلق قوله ﴿ لتنذر ﴾ ؟ قلت : بأنزل ، أى أنزل إليك لإنذارك به أو بالنهى ، لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم ، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار ، لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه ، متكل على عصمته . فإن قلت : فما محل ذكرى ؟ قلت : يحتمل الحركات الثلاث . النصب بإضمار فعلها . كأنه قيل : لتنذر به وتذكر تذكيرا لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير ، والرفع عطفاً على كتاب ، أو بأنه خبر مبتدإ محذوف . والجر للعطف على محل أن تنذر ، أى للإنذار وللذكر . فإن قلت : النهى فى قوله (فلا يكن) متوجه[2] إلى الحرج فما وجهه ؟ قلت : هو من قولهم : لا أرينك ههنا .

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣)

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم ﴾ من القرآن والسنة ﴿ ولا تتبعوا من دونه ﴾ من دون الله ﴿ أولياء ﴾ أى ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم ، وأمركم باتباعه . وعن الحسن : يا ابن آدم ، أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم . والله ما نزلت آية إلا وهو يحب أن تعلم فيم نزلت وما معناها . وقرأ مالك بن دينار : ولا تبتغوا ، من الابتغاء (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً) . ويجوز أن يكون الضمير فى (من دونه) لما أنزل ، على : ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره . وقرئ : تذكرون ، بحذف التاء . ويتذكرون ، بالياء . و (قليلا) : نصب بتذكرون ، أى تذكرون تذكرا قليلا . و (ما) مزيدة لتوكيد القلة .

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)

---

(١) عاد كلامه . قال: « أو ولا تحرج من تبليغه ، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له ... الخ» قال أحمد : ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل اليه كنز أو جاء معه ملك) الآية .

(٢) عاد كلامه . قال : «فان قلت النهي فى قوله فلا يكن متوجه إلى الحرج ، فما وجهه ؟ قلت : هو من قولهم لا أرينك ههنا» قال أحمد : يريد أن الحرج منهى فى الآية ظاهراً والمراد النهى عنه ، والله أعلم .

﴿ فجاءها ﴾ فجاء أهلها ﴿ بياتاً ﴾ مصدر واقع موقع الحال ، بمعنى بائتين. يقال : بات بياتاً حسناً ، وبيتة حسنة . وقوله ﴿ هم قائلون ﴾ حال معطوفة [1] على بياتا ، كأنه قيل : فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين . فإن قلت : هل يقدر حذف المضاف الذى هو الأهل قبل (قرية) أو قبل الضمير فى (أهلكناها) ؟ قلت : إنما يقدّر المضاف للحاجة ولا حاجة ، فإنّ القرية تهلك كما يهلك أهلها . وإنما قدّرناه قبل الضمير فى (فجاءها) لقوله (أو هم قائلون) فإن قلت : لا يقال : جاءنى زيد هو فارس ، بغير واو ، فما بال قوله (هم قائلون) ؟ قلت : قدّر بعض النحويين الواو محذوفة ، ورده الزجاج وقال : لو قلت جاءنى زيد راجلا ، أو هو فارس . أو جاءنى زيد هو فارس ، لم يحتج فيه إلى واو ، لأن الذكر قد عاد إلى الأول . والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حذفت الواو استثقالا . لاجتماع حرفى عطف ، لأنّ واو الحال هى واو العطف استعيرت للوصل ، فقولك : جاءنى زيد راجلا أو هو فارس ، كلام فصيح وارد على حدّه . وأمّا جاءنى زيد هو فارس ، فخبيث . فإن قلت : فما معنى قوله (أهلكناها فجاءها بأسنا) والإهلاك إنما هو بعد مجىء البأس ؟ قلت : معناه أردنا إهلاكها كقوله (إذا قمتم إلى الصلاة) وإنما خصّ هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيلولة ، لأنهما وقت الغفلة والدعة ، فيكون نزول

---

(١) عاد كلامه . قال : «وقوله (هم قائلون) حال معطوفة على بياتا كأنه قيل ، فجاءهم ... الخ» قال أحمد : الاكتفاء بالضمير فى الجملة الاسمية الواقعة حالا ضعيف . والأفصح دخول الواو كما اختاره الزمخشرى . وأما الزجاج وغيره فيجعلون أحد الأمرين كافيا فى الاسمية ، إما الواو وإما الضمير . وأما قول الزمخشرى : إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها واو الحال كراهية لاجتماعها وهى واو عطف أيضا مع مثلها ، ففيه نظر . وذلك أن واو الحال لابد أن تمتاز عن واو العطف بمزية . ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية فى قولك جاءنى زيد وهو راكب ، ولو كانت عاطفة مجردة لاستقبح توسطها بين المتغايرين وإن لم يكن قبيحا . فالأصح خلافه ، فلما رأيناها تتوسط بينهما والكلام حينئذ هو الأفصح أو المتعين ، علمت أنها ممتازة بمعنى وخاصية عن واو العطف ، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة ، فلا غرو فى اجتماعها معها . وإن كان فيها معنى العطف مضافا إلى تلك الخاصية . فاما أن تسلبه حينئذ لاغناء العاطف عنها ، أو تستمر عليه ، كما تجتمع الواو . ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستدراك فى مثل قوله (ولكن لا يشعرون) فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف بلا كراهية ، والذى يدل على ذلك أنك لو قلت : سبح الله وأنت راكع ، أو وأنت ساجد ؛ لكان فصيحا لاخبث فيه ولا كراهة والتحقيق - والله أعلم - فى الجملة المعطوفة على الحال : أن المصحح لوقوعها حالا من غير واو ، هو العاطف ؛ إذ يقتضى مشاركة الجملة الثانية لما عطفت عليه فى الحال ، فيستغنى عن واو الحال ، كما أنك تعطف على المقسم به فتدخله فى حكم القسم من غير واو موقعة فى مثل (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) وفى مثل (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس) ولو قلت فى غير التلاوة : وبالليل إذا عسعس ، لجاز. ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم لنيابة العاطف منابه . فهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المعطوفة على الحال عن الواو المصححة للحالية ، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف ، لم تخرج عن حد الفصاحة إلى الاستثقال ، بل أفدت تأكيداً . وإن لم تأت بها فكذلك فى الفصاحة مع إفادة الاختصار ، والله الموفق للصواب .

العذاب فيهما أشد وأفظع ، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر ، وقوم شعيب وقت القيلولة.

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾

﴿فما كان دعواهم﴾ ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده . وقولهم ﴿إنا كنا ظالمين﴾ فيما كنا عليه . ويجوز : فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا ، لأنه لا مستغاث من الله بغيره ، ومن قولهم دعواهم : يالكعب . ويجوز ، فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم ، وأن لات حين دعاء ، فلا يزيدون على ذمّ أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم ، (ودعواهم) نصب خبر لكان ، و﴿أن قالوا﴾ رفع اسم له ، ويجوز العكس

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

﴿فلنسألنّ الذين أُرسل إليهم﴾ (أرسل) مسند إلى الجار والمجرور وهو (إليهم) ومعناه : فلنسألنّ المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم ، كما قال :(ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) ويسأل المرسلين عما أجيبوا به ، كما قال : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) ، ﴿فلنقصنّ عليهم﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بعلم﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم وعما وجد منهم ، فإن قلت : فإذا كان عالماً بذلك وكان يقصه عليهم ، فما معنى سؤالهم ؟ قلت معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم .

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

﴿والوزن يومئذ الحق﴾ يعني وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها . ورفعه على الابتداء . وخبره (يومئذ) . و (الحق) صفته أي : والوزن يوم يسأل الله الأمم [1] ورسلهم

(١) قوله « أي والوزن يوم يسأل الله الأمم » هذا إنما ينبني على أن يومئذ متعلق بالوزن ، والحق خبر . أما على ماقاله ، فالتقدير : ويوم يسأل الخ ، ويمكن أن مراده : والوزن كائن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم ، أي الوزن الحق ، وكان الأقرب : أي والوزن الحق يوم يسأل ... الخ (ع)

الوزن الحق ، أى العدل . وقرئ : القسط . واختلف فى كيفية الوزن فقيل : توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان ، تنظر إليه الخلائق ، تأكيداً للحجة ، وإظهاراً للنصفة ، وقطعاً للمعاذرة ، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم ، وتشهد بها عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم ، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد ، وكما تثبت فى صحائفهم فيقرؤنها فى موقف الحساب . وقيل : هى عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ جمع ميزان أو موزون ، أى فمن رجحت أعماله الموزونة التى لها وزن وقدر وهى الحسنات . أو ماتوزن به حسناتهم . وعن الحسن : وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل . وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف . ﴿بآياتنا يظلمون﴾ يكذبون بها ظلماً : كقوله (فظلموا بها) .

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿مكناكم فى الأرض﴾ جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً . أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ جمع معيشة وهى مايعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها . وما يتوصل به إلى ذلك . والوجه تصريح الياء . وعن ابن عامر : أنه همز ، على التشبيه بصحائف .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ يعنى خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوّر ، ثم صورناه بعد ذلك . ألا ترى إلى قوله ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الآية ﴿من الساجدين﴾ ممن سجد لآدم .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾

﴿ألا تسجد﴾ ، لا ، فى (أن لا تسجد) صلة بدليل قوله : ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى . ومثلها (لئلا يعلم أهل الكتاب) بمعنى ليعلم : فإن قلت : مافائدة زيادتها ؟ قلت : توكيد معنى الفعل الذى تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب . وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك ؟ ﴿إذ أمرتك﴾ لأن أمرى لك بالسجود أوجبه عليك إيجاباً وأحتمه عليك حتماً لابدّ لك منه فإن قلت : لم سأله عن المانع من السجود ، وقد علم ما منعه ؟ قلت :

للتوبيخ ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم ، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه ، لما رأى أنّ سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب . فإن قلت : كيف يكون قوله ﴿أنا خير منه﴾ جواباً لما منعك ، وإنما الجواب أن يقول : منعني كذا ؟ قلت : قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم ، وبعلة فضله عليه ، وهو أنّ أصله من نار وأصل آدم من طين ، فعلم منه الجواب وزيادة عليه ، وهى إنكار الأمر واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله ، كأنه يقول : من كان على هذه الصفة كان مستبعداً أن يؤمر بما أمر به .

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

﴿فاهبط منها﴾ من السماء التى هى مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة ، إلى الأرض التى هى مقرّ العاصين المتكبرين من الثقلين ﴿فما يكون لك﴾ فما يصح لك ﴿أن تتكبر فيها﴾ وتعصى ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك ، كما تقول للرجل : قم صاغراً ، إذا أهنته . وفى ضدّه : قم راشداً . وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار . وعن عمر رضى الله عنه : من تواضع لله رفع الله حكمته[1] وقال : انتعش أنعشك الله . ومن تكبر وعدا طوره وهصه[2] الله إلى الأرض[3] .

قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

---

(١) قوله « رفع الله حكمته » فى الصحاح : حكمة اللجام ما أحاط بالحنك . (ع)

(٢) قوله : « وهصه الله إلى الأرض » وهصه : أى غمزه إلى الأرض والوهص : كسر الشىء الرخو وشدة الوطء على الأرض ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه . حدثنا أبو خالد الأحمر وعبد الله بن إدريس وسفيان بن عتبة عن ابن عجلان عن بكير بن الأشج عن معمر بن أبى حية عن عبيد الله بن عبيد الله بن عدى بن الخيار قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال : انتعش أنعشك الله ، فهو فى نفسه صغير ، وفى أنفس الناس كبير . وإن العبد إذا تعظم وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض . وقال : اخسأ خسأك الله ، فهو فى نفسه كبير وفى أنفس الناس صغير ، لهو أحقر عندهم من خنزير » وأخرجه البيهقى فى الشعب من طريق على بن المدينى عن سفيان . وقد روى بعضه مرفوعا ، أخرجه الدارقطنى فى العلل من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من آدمى إلا وملك آخذ بحكمته . فاذا رفع نفسه قيل للملك : ضع حكمتك . وإذا وضع نفسه قيل للملك : ارفع حكمتك » قال : لا يثبت . فيه على بن زيد وهو ضعيف .

فإن قلت : لم أجيب إلى استنظاره ، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم [1] قلت : لما في ذلك من ابتلاء العباد ، وفي مخالفته من أعظم الثواب . وحكمه حكم ماخلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي ، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده .

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿فبما أغويتنى﴾ فبسبب إغوائك إياى لأقعدن لهم . وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي ولم يثبت كما ثبتت الملائكة ، مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفسا ومناصب [2] . وعن الأصم : أمرتنى بالسجود فحملنى الأنف على معصيتك . والمعنى : فبسبب وقوعى فى الغيّ لأجتهدن فى إغوائهم [3] حتى يفسدوا بسببى ، كما فسدت بسببهم . فإن قلت : بم تعلقت الباء ، فإن تعلقها

(١) قال محمود : «فإن قلت : لم أجيب إلى استنظاره ، وإنما استنظر ليفسد عباده ... الخ» قال أحمد : وهذا السؤال إنما يورده ويلتزم الجواب عنه القدرية الذين يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح فى أفعاله . وأما أهل السنة فقد أصغوا حق الاصغاء إلى قوله تعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) فلا يورد أحد منهم هذا السؤال ولا يجيب عنه من يورده ، والله الموفق .

(٢) قوله «ومن آدم أنفسا ومناصب» هذا عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة فآدم أفضل منهم . (ع)

(٣) قال محمود : «والمعنى : فبسبب وقوعى فى الغى لأجتهدن فى إغوائهم حتى يفسدوا بسببى ... الخ» قال أحمد : تحت كلام الزمخشرى هذا نزغتان من الاعتزال خفيتان :

إحداهما : تحريفه الاغواء إلى التكليف ، لأنه يعتقد أن الله تعالى لم يغوه ، أى لم يخلق له الغى بناء على قاعدة التحسين والتقبيح والصلاح والأصلح ، فيضطره اعتقاده إلى حمل الاغواء على تكليفه بالسجود ، لأنه كان سبباً فى غيه . وكثيراً مايؤول أفعال الله تعالى إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب ، ويجعل ذلك من مجاز السببية ، لأن الفعل له ملابسات بالفاعل والمفعول والزمان والمكان والسبب ، فاسناده إلى الفاعل حقيقة ، وإسناده إلى بقيتها مجاز ويجعل الفعل مسندا إلى الله تعالى لأنه مسببه لا لأنه فاعله . وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار لرجل رآه مقيداً محبوسا فى مال عليه : هذه وضعت القيود فى رجليك ، وأشار إلى سلة فيها أخبصة وألوان مختلفة رآها عند المسجون ، أى اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سببا فى تبذير المال الذى آل بك إلى وضع القيود فى رجليك . فعلى هذا يروم حمل هذه الآية ، يعنى بما كلفتنى من التكليف الذى كان سببا فى خلق الغىّ لنفسى لأقعدن ، فيجعل إبليس هو الفاعل فى الحقيقة . وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى فمجاز . هذه إحدى النزغتين .

والأخرى : جعله التكليف من جملة الأفعال ، لأنه يزعم أن كلام الله تعالى محدث من جملة أفعاله ، لا صفة من صفاته ، والتكليف من الكلام ، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما . وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما ، لأنه نسب الاغواء إلى الله تعالى ، إذ هو خالق كل شيء ، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك ما لم يسبق به إبليس ؟ نعوذ بالله من التعرض لسخط الله .

بلأقعدنّ يصدّ عنه لام القسم ، لاتقول : والله بزيد لأمرّنّ ؟ قلت : تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره : فبما أغويتنى أقسم بالله لأقعدنّ ، أى فبسبب إغوائك أقسم . ويجوز أن تكون الباء للقسم ، أى : فأقسم بإغوائك لأقعدنّ ، وإنما أقسم بالإغواء ؛ لأنه كان تكليفا، والتكليف من أحسن أفعال الله ، لكونه تعريضاً لسعادة الأبد ، فكان جديراً بأن يقسم به . ومن تكاذيب المجبرة [١] ماحكوه عن طاوس أنه كان فى المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر ، فجلس إليه فقال له طاوس : تقوم أو تقام ، فقام الرجل ، فقيل له : أتقول هذا لرجل فقيه ؟ فقال : إبليس أفقه منه ، قال رب بما أغويتنى ، وهذا يقول : أنا أغوى نفسى ، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه ، أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين [٢] . وقيل (ما) للاستفهام ، كأنه قيل : بأى شىء أغويتنى ، ثم ابتدأ لأقعدنّ . وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على «ما» الاستفهامية ، قليل شاذ . وأصل الغىّ الفساد . ومنه : غوى الفصيل ، إذا بشم . والبشم : فساد فى المعدة ﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾ لأعترضن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف ، كقوله :

* ... كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ * [٣]

---

(١) قوله «ومن تكاذيب المجبرة ماحكوه» يعنى أهل السنة ، وسماهم المعتزلة بذلك ، لقولهم : إن خالق أفعال العباد ولو قبيحة هو الله تعالى ، فيكون العبد مجبوراً فيها . فكيف يصح تكليفه . ولكنهم أثبتوا للعبد الكسب فى أفعاله ، ولذلك صح تكليفه . أما الجبر المنافى للتكليف ، فهو أن لايكون للعبد دخل فى فعله أصلا ، بحيث يكون كالريشة المعلقة فى الهواء . وبه قالت المجبرة الحقيقية ، كما هو مذكور فى أواخر المواقف . (ع)

(٢) عاد كلامه . قال : «ومن تكاذيب المجبرة : ماحكوه عن طاوس أنه كان فى المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر ، فجلس إليه فقال له طاوس تقوم أوتقام ؟ فقام الرجل . فقيل له : أتقول هذا لرجل فقيه ؟ فقال : إبليس أفقه منه ، قال رب بما أغويتنى . وهذا يقول : أنا أغوى نفسى . انتهى كلام طاوس على زعمهم . وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه وتعالى أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين» انتهى كلامه . قال أحمد : وإنما أوردت مثل هذا من كلامه وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيده عن العقائد الصحيحة لتبليغ الحجة فى وجوب الرد عليه وتمينه على من هداه الله إليه . ولقد صدق طاوس رضى الله عنه . وأما قول الزمخشرى فى أهل السنة الذين سماهم مجبرة أنهم يتهالكون فى نسبة القبائح إلى الله تعالى ، فحاصله : أنهم يخلصون التوحيد حتى لايؤمنون بخالق غير الله ، ولكى يصدقوا قوله تعالى متمدحا (الله خالق كل شىء) لا كالقدرية الذين هم يتهالكون حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فيؤولون الفاعل بالمسبب . فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، والله الموفق للصواب .

(٣) لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

لساعدة بن جؤية ، يصف رمحاً بأنه لين يضطرب صلبه فى الكف بسبب هزه ، فلا يبس فيه ، كما عسل أى اضطرب الثعلب فى الطريق ، فحذف الجار من الثانى للضرورة ، واغتفر لذكره فى الأولى . وفى عسل معنى الدخول بسرعة .

وشبهه الزجاج بقولهم : ضرب زيد الظهر والبطن ، أى على الظهر والبطن. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة : قعد له بطريق الإسلام فقال له : تدع دين آبائك ، فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له : تدع ديارك وتتغرب ، فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك ، فعصاه فقاتل »[1] . ﴿ثم لآتينهم﴾ من الجهات الأربع التى يأتى منها العدو فى الغالب . وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه ، كقوله (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) . فإن قلت : كيف قيل ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ بحرف الابتداء ﴿وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ بحرف المجاوزة ؟ قلت : المفعول فيه عدّى إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به فكما اختلفت حروف التعدية فى ذاك اختلفت فى هذا ، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس . وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط ، فلما سمعناهم يقولون : جلس عن يمينه وعلى يمينه ، وعن شماله وعلى شماله ، قلنا : معنى «على يمينه» أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلى من المستعلى عليه . ومعنى «عن يمينه» أنه جلس متجافيا عن صاحب اليمين منحرفا عنه غير ملاصق له . ثم كثر حتى استعمل فى المتجافى وغيره ، كما ذكرنا فى «تعال» . ونحوه من المفعول به قولهم رميت عن القوس ، وعلى القوس ، ومن القوس ؛ لأنّ السهم يبعد عنها ، ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمى ، ويبتدئ الرمى منها . كذلك قالوا : جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه ؛ لأنهما ظرفان للفعل . ومن بين يديه ومن خلفه : لأن الفعل يقع فى بعض الجهتين ، كما تقول : جئته من الليل ، تريد بعض الليل . وعن شقيق : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربع مراصد : من بين يدىّ ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى : أمّا من بين يدى فيقول : لا تخف ، فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً) وأمّا من خلفى ، فيخوفنى الضيعة على مخلفى فأقرأ (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) وأمّا من قبل يمينى ، فيأتينى من قبل الثناء فأقرأ (والعاقبة للمتقين) وأمّا من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فأقرأ (وحيل بينهم وبين مايشتهون) . ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ قاله تظنيناً ، بدليل قوله (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه) وقيل : سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى لهم .

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

---

(١) أخرجه النسائى وأحمد وابن حبان وأبو يعلى والطبرانى من حديث سمرة ابن الفاكه وابن أبى الفاكه به وأتم منه . ﴿تنبيهان﴾ أحدهما : قوله «بأطرقه» ضبطه ثابت فى الدلائل بكسر الراء ، بمثناة وبضم الراء . وبهاء . ثانيهما : قوله «بأطرقه» : وقع عند الطيبى ، ورواه النسائى من حديث سبرة بن معبد . وهو وهم .

﴿ مذؤما ﴾ من ذأمه إذا ذمه . وقرأ الزهرى : مذوما بالتخفيف ، مثل مسول فى مسؤول. واللام فى ﴿ لمن تبعك ﴾ موطئة للقسم . و ﴿ لأملأن ﴾ جوابه ، وهو ساد مسدّ جواب الشرط ﴿ منكم ﴾ منك ومنهم ، تغليب ضمير المخاطب ، كما فى قوله (إنكم قوم تجهلون) . وروى عصمة عن عاصم : لمن تبعك ، بكسر اللام ، بمعنى : لمن تبعك منهم هذا الوعيد ، وهو قوله (لأملأن جهنم منكم أجمعين) ، على أن (لأملأنّ) فى محل الابتداء ، و (لمن تبعك) خبره .

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

﴿ ويا آدم ﴾ وقلنا يا آدم . وقرئ : هذى الشجرة ، والأصل الياء ، والهاء بدل منها . ويقال: وسوس ، إذا تكلم كلاماً خفيا يكرره . ومنه وسوس الحلىّ ، وهو فعل غير متعدّ ، كولولت المرأة ووعوع الذئب ، ورجل موسوس ـ بكسر الواو ـ ولا يقال موسوَس بالفتح ، ولكن موسوس له ، وموسوس إليه ، وهو الذى تلقى إليه الوسوسة . ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله ، ووسوس إليه : ألقاها إليه ﴿ ليبدى ﴾ جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأياما يؤثران ستره وأن لا يطلع عليه مكشوفاً . وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور [1] وأنه

(١) قال محمود : «وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ... الخ» قال أحمد : وفى هذه الكلمات أيضا جنوح إلى قاعدة الاعتزال فى أمرين ، أحدهما : قوله إن كشف العورة لم يزل مستقبحا فى العقول ، فانه ينشأ عن اعتقاده أن التقبيح والتحسين بالعقل وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة ، إلا أنه لا يريد به ظاهره ، إذ التحسين والتقبيح إنما يدركان بالشرع والسمع لا بالعقل . ومعنى هذا الاطلاق ولو صدر من سنى : أن العقل يدرك المعنى الذى لأجله حسن الشرع الستر وقبح الكشف . الأمر الثانى : استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء وقد مضى أن ذلك معتقد المعتزلة وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه والجواب من يعتقد تفضيل الأنبياء أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس ذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك فى علم الله تعالى . ألا ترى إبليس لعنه الله قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين ؟ وهو فى ذلك ==

لم يزل مستهجناً فى الطباع مستقبحاً فى العقول . فإن قلت : ما للواو المضمومة فى ﴿ وورى ﴾ لم تقلب همزة كما قلت فى أويصل ؟ قلت : لأن الثانية مدة كألف وارى . وقد جاء فى قراءة عبد الله أورى ، بالقلب ﴿ إلا أن تكونا ملكين ﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين . وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى ، وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا . وقرئ : ملكين ، بكسر اللام ، كقوله (وملك لا يبلى) . ﴿ من الخالدين ﴾ من الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة ساكنين . وقرئ : من سوأتهما ، بالتوحيد . وسواتهما ، بالواو المشددة ﴿ وقاسمهما ﴾ وأقسم لهما ﴿ إنى لكما لمن الناصحين ﴾ . فإن قلت : المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك[1] تقول : قاسمت فلاناً حالفته ، وتقاسما تحالفا . ومنه قوله تعالى (تقاسموا بالله لنبيتنه) . قلت : كأنه قال لهما : أقسم لكما إنى لمن الناصحين ، وقالا له : أتقسم بالله إنك لمن الناصحين ، فجعل ذلك مقاسمة بينهم . أو أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها .[2] أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة ، لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم ﴿ فدلاهما ﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿ بغرور ﴾ بما غرهما به من القسم بالله . وعن قتادة : وإنما يخدع المؤمن بالله . وعن ابن عمر رضى الله عنه : أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك ، فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له[3] ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ وجدا طعمها آخذين فى الأكل منها . وقيل : الشجرة هى السنبلة . وقيل : شجرة الكرم ﴿ بدت لهما سوآتهما ﴾ أى تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ، ولا أحدهما من الآخر . وعن عائشة رضى الله عنها : ما رأيت منه ولا رأى منى[4] . وعن سعيد بن جبير : كان لباسهما من جنس الأظفار .

--- كاذب مبطل ، فلا دليل فيه ، إذ ليس فى الآية مايوجب تقرير الله تعالى لابليس على ذلك ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وغرهما ، إذ قال الله تعالى عنه (فدلاهما بغرور) فلعل تفضيله الملكية على النبوة من جملة غروره ، والله أعلم .

(١) عاد كلامه . قال : «فإن قلت المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك ... الخ» قال أحمد : ويكون فى الكلام حينئذ لف ، لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان له بلفظ المتكلم ، ولكن بالخطاب ، فجمل القسم من الجانبين كلاما واحداً مضافا لابليس .

(٢) عاد كلامه . قال : «أو أقسم لهما على النصيحة وأقسما له على قبولها» قال أحمد ، وهذا التأويل يتم لوجود المقاسمة عن ذكر المقسم عليه . وأما حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لاغير ، فيبعد التأويل المذكور ؛ إلا أن يحمل الأمر على أنه سمى قبول النصيحة نصيحة للمشاكلة والمقابلة ، كما قيل فى قوله تعالى (وواعدنا موسى) أنه سمى التزام موسى للوفاء والحضور للميعاد ميعادا ، فأسند التعبير بالمفاعلة ، والله أعلم .

(٣) أخرجه ابن سعد من رواية نافع قال «كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه لربه - وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه . فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد . فاذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه . فيقول له أصحابه : - فذكره . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية من هذا الوجه .

(٤) أخرجه أبو يعلى من رواية كامل أبى العلاء عن أبى صالح - رواه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ===

وعن وهب: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر. ويقال: طفق يفعل كذا، بمعنى جعل يفعل كذا. وقرأ أبو السمال: وطفقا بالفتح ﴿يخصفان﴾ ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها، كما يخصف النعل، بأن تجعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور. وقرأ الحسن: يخصفان، بكسر الخاء وتشديد الصاد، وأصله يختصفان. وقرأ الزهري: يُخصفان، من أخصف، وهو منقول من خصف أي يخصفان أنفسهما وقرئ: يخصفان، من خصف بالتشديد ﴿من ورق الجنة﴾ قيل: كان ورق التين ﴿ألم أنهكما﴾ عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ، حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس وروى: أنه قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أنّ أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً. قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدا. فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وطحن وعجن وخبز.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

وسميا ذنبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظلماً لأنفسهما [1] وقالا ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات، واستصغارهم العظيم من الحسنات.

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

= قالت عائشة «ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا من نسائه إلا متقنعا مرخي الثوب على رأسه، وما رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رآه مني - تعني الفرج» إسناده ضعيف. وروى الترمذي وابن ماجه وأحمد وابن أبي شيبة من رواية عبد الله بن يزيد عن مولى عائشة قالت «ما رأيت فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قط» وروى الدارقطني في غرائب مالك عن الزهري ورواه الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة مثله - وزاد «ولا نظر إلى فرجي قط» وفي إسناده زيد بن الحسن عن مالك. وهو ضعيف. وقال لا يصح هذا عن مالك ولا عن الزهري. وروى الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة نحوه. وفي إسناده بركة بن محمد الحلبي، وهو متروك.

(١) قال محمود: «وسميا ذنبهما ظلما وإن كان صغيراً مغفوراً... الخ» قال أحمد: وهذا أيضا اعتزال خفي، لأنهم يزعمون أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر وإن لم يتب العبد منها. فهذا معنى قول الزمخشري: وإن كان صغيرا مغفوراً. وإنما وسمت هذا الاعتزال بالخفاء، لأن هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة، لكنهم يعنون بكونه مغفوراً: أن الله تعالى تفضل بغفرانه، ولو شاء لآخذ به وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر، لا كما يزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته، والله الموفق.

﴿ اهبطوا ﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس. و﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ فى موضع الحال، أى متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه ﴿ مستقر ﴾ استقرار، أو موضع استقرار ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت البنانى: لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة، فجعلت حواء تدور حولهم. فقال لها: خلى ملائكة ربى فإنما أصابنى الذى أصابنى فيك، فلما توفى غسلته الملائكة بماء وسدر وترا، وحنطته وكفنته فى وتر من الثياب، وحفروا له ولحدوا. ودفنوه بسرنديب بأرض الهند. وقالوا لبنيه: هذه سنتكم بعده.

يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

جعل مافى الأرض منزلا من السماء، لأنه قضى ثم وكتب. ومنه (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) والريش لباس الزينة، استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أى أنزلنا عليكم لباسين: لباسا يوارى سوآتكم، ولباسا يزينكم؛ لأن الزينة غرض صحيح، كما قال (لتركبوها وزينة). (ولكم فيها جمال) وقرأ عثمان رضى الله عنه. ورياشا. جمع ريش، كشعب وشعاب ﴿ ولباس التقوى ﴾ ولباس الورع والخشية من الله تعالى، وارتفاعه على الابتداء وخبره إما الجملة التى هى ﴿ ذلك خير ﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر. وأما المفرد الذى هو خير وذلك صفة للمبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسوأة، لأن مواراة السوأة من التقوى، تفضيلا له على لباس الزينة. وقيل: لباس التقوى خبر مبتدإ محذوف، أى وهو لباس التقوى، ثم قيل: ذلك خير. وفى قراءة عبد الله وأبى: ولباس التقوى خير. وقيل: المراد بلباس التقوى: ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر [1] وغيرها مما يتقى به فى الحروب وقرئ: ولباس التقوى، بالنصب عطفاً على لباساً وريشاً ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده. يعنى إنزال اللباس ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليها، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

(١) قوله «الجواشن والمغافر» الجواشن: هى ماينسج من الدروع على قدر الصدر. والمغافر: ما ينسج منها على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة. (ع)

يَـٰبَنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

﴿لا يفتننكم الشيطان﴾ لا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة ، كما محن أبويكم بأنّ أخرجهما منها ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ حال ، أى أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأ كان سبباً فى أن نزع عنهما ﴿إنه يراكم هو﴾ تعليل للنهى وتحذير من فتنته ، بأنه بمنزلة العدوّ المداجى [١] يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون . وعن مالك بن دينار . إنّ عدواً يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة إلا من عصم الله ﴿وقبيله﴾ وجنوده من الشياطين ، وفيه دليل بين أن الجنّ لا يرون [٢] ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم ، وأن زعم من يدّعى رؤيتهم زور ومخرقة ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ أى خلينا بينهم وبينهم [٣] لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سوّلوا لهم من الكفر والمعاصى ، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول . فإن قلت : علام عطف وقبيله ؟ قلت : على الضمير فى يراكم المؤكد بهو ، والضمير فى أنه للشأن والحديث ، وقرأ اليزيدى (وقبيله) بالنصب وفيه وجهان : أن يعطفه على اسم إن ، وأن تكون الواو بمعنى مع ، وإذا عطفه على اسم إن وهو الضمير فى أنه ، كان راجعاً إلى إبليس .

وَإِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

(١) قوله « العدو المداجى » فى الصحاح « المداجاة » المداراة . يقال : داجيته ، إذا ، داريته ، كأنك ساترته العداوة . (ع)

(٢) قال محمود : « وفيه دليل بين أنهم لا يرون ... الخ » قال أحمد : أين يذهب به عما ورد فى الحديث الصحيح ، من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم للنبي صلى الله عليه وسلم يروم أن يشغله عن صلاته ، حتى أمكنه الله منه فأخذه عليه الصلاة والسلام فدغته وأراد أن يربطه إلى سارية من سوارى المسجد يلعب به الصبيان ، حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه . وإذا جاز ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام كان جائزاً لأولياء الله والمتبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كرامة ، لكن الزمخشرى يصده عن ذلك جحده لكرامة الأولياء ، لأنه عقيدة إخوانه ، إذ الكرامة إنما يؤتاها الولى الصادق ، فكيف ينالها من يشك فى إسلامه ، فانهم لفى عذر من جحدها والتكذيب بها . رزقنا الله الايمان بالكرامات إن لم نكن لها أهلا ، والله الموفق .

(٣) قوله « أى خلينا بينهم وبينهم » فسر الجعل بذلك ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة . وعند أهل السنة يخلقه كالخير . (ع)

الفاحشة : ماتبالغ فى قبحه من الذنوب ، أى : إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم وبأنّ الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها . وكلاهما باطل من العذر [١] لأن أحدهما تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم . والثانى افتراء على الله وإلحاد فى صفاته . كانوا يقولون : لو كره الله منا مانفعله لنقلنا عنه . وعن الحسن : إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية مجبرة [٢] يحملون ذنوبهم على الله . وتصديقه قول الله تعالى ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ لأنّ فعل القبيح مستحيل عليه [٣] لعدم الداعى ووجود الصارف ، فكيف يأمر بفعله ﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط . وقيل : المراد بالفاحشة : طوافهم بالبيت عراة .

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)

﴿ بالقسط ﴾ بالعدل وبما قام فى النفوس أنه مستقيم حسن عند كل مميز . وقيل : بالتوحيد ﴿ وأقيموا وجوهكم ﴾ وقل: أقيموا وجوهكم أى اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها ﴿ عند كل مسجد ﴾ فى كل وقت سجود ، أو فى كل مكان سجود وهو الصلاة ﴿ وادعوه ﴾ واعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أى الطاعة ، مبتغين بها وجه الله خالصاً ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم . احتجّ عليهم فى إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق ، والمعنى : أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة .

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

---

(١) قال محمود : «وكلاهما باطل من العذر لأن أحدهما... الخ ، قال أحمد : وهذا أيضا من الاعتزال الخفى ، وغرضه أن يمهد قاعدة التحسين والتقبيح ، ومراعاة الصلاح والأصلح ، واستحالة مخالفة ذلك على الله تعالى ، ولا يتم من ذلك غرض ؛ لأن المنكر عليهم : دعواهم أن الله تعالى أمرهم بالفحشاء ، وهم كاذبون فى هذه الدعوى ، ولا يلزم من سلب الأمر الارادة ، لأن الله تعالى يأمر بما لا يريد ، ويريد مالا يأمر به .

(٢) قوله «وهم قدرية مجبرة» أى كالمجبرة يعنى أهل السنة ، لقولهم : إن الله يريد الشر كالخير ، والارادة هى الأمر عند المعتزلة ، لكنها غيره عند أهل السنة ، فالفحشاء بارادته تعالى ، لكنه لا يأمر بها . وتحقيقه فى التوحيد .

(٣) قوله «فعل القبيح مستحيل عليه» يريد أن الله لا يريد فعل القبيح وهى عقيدة المعتزلة . أما عند أهل السنة فالله يريد القبيح والحسن «ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن» (ع)

﴿فريقاً هدى﴾ وهم الذين أسلموا ، أى وفقهم للإيمان ﴿وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ أى كلمة الضلالة ، وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون . وانتصاب قوله ﴿وفريقاً﴾ بفعل مضمر يفسره مابعده ، كأنه قيل : وخذل فريقاً حق عليهم الضلالة ﴿إنهم﴾ إنّ الفريق الذى حقّ عليهم الضلالة ﴿اتخذوا الشياطين أولياء﴾ أى تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به ، وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له فى ضلالهم ، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين دون الله .

يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿خذوا زينتكم﴾ أى ريشكم ولباس زينتكم ﴿عند كل مسجد﴾ كلما صليتم أو طفتم ، وكانوا يطوفون عراة . وعن طاوس ، لم يأمرهم بالحرير والديباج ، وإنما كان أحدكم يطوف عريانا ويدع ثيابه وراء المسجد ، وإن طاف وهى عليه ضرب وانتزعت عنه ، لأنهم قالوا : لا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها ؛ وقيل : تفاؤلا ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب . وقيل : الزينة المشط . وقيل : الطيب . والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة ، وكان بنو عامر فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون : فإنا أحق أن نفعل ، فقيل لهم : كلوا واشربوا ولا تسرفوا . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كل ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة [1] ويحكى أنّ الرشيد كان له طبيب نصرانى [2] حاذق ، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء . والعلم علمان ، علم الأبدان وعلم الأديان ، فقال له : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه . قال : وما هى ؟ قال: قوله تعالى ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ فقال النصرانى : ولا يؤثر من رسولكم شىء فى الطب ؟ فقال : قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيرة . قال : وما هى ؟ قال قوله «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء [3] وأعط

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة حدثنا سفيان عن إبراهيم بن ميسرة عن عطاء وطاوس عنه بهذا ؛ لكن قال «خلتان» . وروى النسائى وابن ماجه وأحمد والحاكم من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا مالم تخالطوا إسرافا ولامخيلة » .

(٢) لم أجد لها ـ أى حكاية الرشيد ـ إسنادا .

(٣) لم أجده . وروى العقيلى فى الضعفاء من رواية إبراهيم بن جريج الرهاوى عن زيد ابن أبى أنيسة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ـ رفعه «المعدة حوض البدن . والعروق إليها واردة : فاذاصحت المعدةصدرت العروق بالصحة . وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم » وقال : حديث باطل لا أصل له . وقال الدارقطنى لايصح ولا يعرف من كلام النبي صلى الله عليه وسلم لسند إبراهيم بن جريج غير هذا وكان طبيبا ، فجعل له إسنادا .

كل بدن ماعوّدته ، فقال النصرانى : ماترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً .

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)

﴿زينة الله﴾ من الثياب وكل مايتجمل به ﴿والطيبات من الرزق﴾ المستلذات من المآكل والمشارب . ومعنى الاستفهام فى من : إنكار تحريم هذه الأشياء . قيل : كانوا إذا أحرموا حرموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها ﴿قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا﴾ غير خالصة لهم ؛ لأنّ المشركين شركاؤهم فيها ﴿خالصة﴾ لهم ﴿يوم القيامة﴾ لا يشركهم فيها أحد . فإن قلت : هلا قيل : هى للذين آمنوا ولغيرهم . قلت : لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة ، وأن الكفرة تبع لهم ، كقوله تعالى (ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار) وقرئ : خالصة بالنصب على الحال ، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَٰنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)

﴿الفواحش﴾ ماتفاحش قبحه أى تزايد . وقيل هى مايتعلق بالفروج ﴿والإثم﴾ عام لكل ذنب . وقيل : شرب الخمر ﴿والبغى﴾ الظلم والكبر ، أفرده بالذكر كما قال (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) . ﴿ما لم ينزل به سلطانا﴾ فيه تهكم ، لأنه لايجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره [1] ﴿وأن تقولوا على الله﴾ وأن تتقوّلوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

﴿ولكل أمة أجل﴾ وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل فى أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم وقرئ : فإذا جاء آجالهم . وقال ﴿ساعة﴾ لأنها أقل الأوقات فى استعمال الناس . يقول المستعجل لصاحبه : فى ساعة ، يريد أقصر وقت وأقربه .

---

(١) قال محمود : «فى هذا تهكم لأنه لايجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره» قال أحمد : وإنما يعنى التهكم منه لأن الكلام جرى مجرى ماله سلطان ، إلا أنه لم ينزل ؛ لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به ولم ينف أن يكون له سلطان ، وكان أصل الكلام : وأن تشركوا بالله مالا سلطان به فينزل فيكون على طريقة :

* على لاحب لايهتدى بمناره *

يَـٰبَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

﴿إمّا يأتينكم﴾ هى «إن» الشرطية ضمت إليها «ما» مؤكدة لمعنى الشرط . ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة . فإن قلت : فما جزاء هذا الشرط ؟ قلت : الفاء وما بعده من الشرط والجزاء . والمعنى : فمن اتقى وأصلح منكم ، والذين كذبوا منكم . وقرئ : تأتينكم ، بالتاء .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَـٰتِهِ أُولَـٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿فمن أظلم﴾ فمن أشنع ظلماً ممن تقوّل على الله ما لم يقله ، أو كذب ماقاله ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أى مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له ، أى إلى وقت وفاتهم ، وهى «حتى» التى يبتدأ بعدها الكلام ، والكلام ههنا الجملة الشرطية ، وهى إذا جاءتهم رسلنا قالوا . و﴿يتوفونهم﴾ حال من الرسل ، أى متوفيهم . والرسل ملك الموت وأعوانه . «وما» وقعت موصولة بأين فى خط المصحف ، وكان حقها أن تفصل ؛ لأنها موصولة بمعنى : أين الآلهة الذين تدعون ﴿ضلوا عنا﴾ غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم ، اعترافا منهم بأنهم لم يكونوا على شىء فيما كانوا عليه ، وأنهم لم يحمدوه فى العاقبة .

قَالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

﴿قال ادخلوا﴾ أى يقول الله تعالى يوم القيامة لأولئك الذين قال فيهم (فمن أظلم ممن افترى

على الله كذبا أو كذب بآياته) وهم كفار العرب ﴿فى أمم﴾ فى موضع الحال ، أى كائنين فى جملة أمم ، وفى غمارهم مصاحبين لهم ، أى ادخلوا فى النار مع أمم ﴿قد خلت من قبلكم﴾ وتقدم زمانهم زمانكم ﴿لعنت أختها﴾ التى ضلت بالاقتداء بها ﴿حتى إذا اداركوا فيها﴾ أى تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا فى النار ﴿قالت أخراهم﴾ منزلة وهى الأتباع والسفلة ﴿لأولاهم﴾ منزلة وهى القادة والرؤس . ومعنى لأولاهم : لأجل أولاهم ؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿عذابا ضعفا﴾ مضاعفا ﴿لكل ضعف﴾ لأن كلا من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين ﴿ولكن لا تعلمون﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة (لكل ضعف) أى فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا ، وأنا متساوون فى استحقاق الضعف ﴿فذوقوا العذاب﴾ من قول القادة ، أو من قول الله لهم جميعاً .

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)

﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ لا يصعد لهم عمل صالح (إليه يصعد الكلم الطيب) ، (كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين) . وقيل : إنّ الجنة فى السماء ، فالمعنى لا يؤذن لهم فى صعود السماء ولا يطرّق لهم إليها ليدخلوا الجنة . وقيل : لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين . وقيل : لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ، ففتحنا أبواب السماء . وقرئ : لا تفتح ، بالتشديد . ولا يفتح بالياء . ولا تفتح ، بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب ، على أنّ الفعل للآيات . وبالياء على أن الفعل لله عز وجل . وقرأ ابن عباس : الجمل ، بوزن القمل . وسعيد بن جبير : الجمل ، بوزن النغر . وقرئ : الجمل ، بوزن القفل . والجمل ، بوزن النصب . والجمل . بوزن الحبل . ومعناها القلس الغليظ ، لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة . وعن ابن عباس رضى الله عنه : إنّ الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل ، يعنى أن الحبل مناسب للخيط الذى يسلك فى سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه ؛ إلا أن قراءة العامة أوقع لأن سم الابرة مثل فى ضيق المسلك . يقال : أضيق من خرت الابرة . وقالوا للدليل الماهر : خرّيت ، للاهتداء به فى المضايق المشبهة بأخرات الإبر . والجمل : مثل فى عظم الجرم . قال :

* جِسْمُ الْجِمَالِ وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ * (١)

إن الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام ، فقيل : لا يدخلون الجنة ، حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذى لا يلج إلا فى باب واسع ، فى ثقب الإبرة . وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل ، فقال : زوج الناقة ، استجهالا للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف . وقرئ ﴿فى سم﴾ بالحركات الثلاث : وقرأ عبد الله : فى سم المخيط ؛ والخياط ؛ والمخيط كالحزام والمحزم : ما يخاط به وهو الإبرة ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نجزى المجرمين﴾ ليؤذن أن الاجرام هو السبب الموصل إلى العقاب ، وأن كلّ من أجرم عوقب ، وقد كرره فقال ﴿وكذلك نجزى الظالمين﴾ لأن كلّ مجرم ظالم لنفسه ﴿مهاد﴾ فراش ﴿غواش﴾ أغطية . وقرئ : غواش . بالرفع ، كقوله تعالى : «وله الجوار المنشآت» فى قراءة عبد الله .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٤٢)

﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ جملة معترضة بين المبتدإ والخبر ، للترغيب فى اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو فى الوسع ، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح . وقرأ الأعمش : لا تكلف نفس .

وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

---

(١) حار بن عمرو ألا أحلام تزجركم عنا وأنتم من الجوف الجماخير
لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم الجمال وأحلام العصافير
كأنهم قصب جوف أسافله مثقب نفخت فيه الأعاصير

لحسان . و«حار» مرخم حارث ، مبنى على الضم لأنه منادى حذف قبله ياء النداء . و «الأحلام» جمع حلم بالضم : العقول . و «الجوف» بالضم : جمع أجوف ، أى واسع الجوف . و«الجماخير» جمع جمخور ؛ أى عظيم الجسم . يقول : كيف لا يكون لكم أحلام وأنتم عظام الأجرام ، ثم بين ذلك بقوله : لا بأس ولا ضرر يعترى هؤلاء من جهة الطول والغلظ ، يعنى : لا نقص بهم من ذلك . وفيه تهكم بهم . أو لا يستنكفون من ذلك فهم أحقاء به ، أو لا بأس يعتريك بسبب القوم من أجل طولهم وغلظهم فأجسامهم كأجسام الجمال ، وعقولهم كعقول العصافير إن كان لها عقول ، يعنى أنه لا عقل لهم . ويروى «جسم البغال» وشبههم فى فراغ أجوافهم من العقل والشجاعة بالقصب : إذا انشقت أجواف أسافله فأعاليه أكثر . وشبه منافذ حواسهم بثقوبه الخالية عن الحس . و «الأعاصير» جمع إعصار ، وهي ريح تهب مستديرة ذاهبة نحو السماء . واستعار النفخ لادخالها الهواء فيه بقوة كالنفخ . وفى القافية الاقواء ، لاختلاف حركة الروى بالكسر والضم .

بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

من كان فى قلبه غل على أخيه فى الدنيا نزع منه ، فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التوادّ والتعاطف . وعن علىّ رضى الله عنه : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم [1] ﴿ هدانا لهذا ﴾ أى وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح ﴿ وما كنا لنهتدى ﴾ اللام لتوكيد النفى [2] ويعنون : وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه . وفى مصاحف أهل الشام : ما كنا لنهتدى بغير واو ، على أنها جملة موضحة للأولى ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ فكان لنا لطفاً وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا يقولون ذلك سروراً واغتباطاً بما نالوا ، وتلذذاً بالتكلم به لا تقرباً وتعبداً ، كما نرى من رزق خيراً فى الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتمالك أن لا يقوله للفرح لا للقربة ﴿ أن تلكم الجنة ﴾ أن مخففة من الثقيلة تقديره : ونودوا بأنه تلكم الجنة ﴿ أورثتموها ﴾ والضمير ضمير الشأن والحديث أو تكون بمعنى أى ؛ لأنّ المناداة من القول ، كأنه قيل : وقيل لهم أى تلكم الجنة أورثتموها [3]

---

(١) أخرجه ابن سعد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه . والطبرى من رواية معمر عن قتادة عن على . كلاهما منقطع . وفى ابن أبى شيبة من رواية ربعى عن على . وهو متصل .

(٢) قال محمود : اللام لتوكيد النفى يعنون وما كان يستقيم ... الخ ، قال أحمد : وهذه تكفحم وجوه القدرية بالرد ، فانها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدى من خلق الله له الهدى ، وأن غير ذلك محال أن يكون ، فلا يهتدى إلا من هدى الله ، ولو لم يهده لم يهتد ، وأما القدرية فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى ، فهو إذاً مهتد وإن لم يهده الله ، إذ هدى الله للعبد خلق الهدى له ـ وفى زعمهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى ، ولا يتوقف ذلك على خلقه ـ تعالى الله عما يقولون ـ ولما فطن الزمخشرى لذلك ، جرى على عادته فى تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذى بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه ، فأنصف من نفسك واعرض قول القائل : المهتدى من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله ـ أى يخلق له الهدى ، على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين فى دار الحق (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) وانظر تباين هذين القولين ، أعنى قول المعتزلى فى الدنيا ، وقول الموحد فى الآخرة فى مقعد صدق . واختر لنفسك أى الفريقين تقتدى به ، وما أراك ـ والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا القول المحكى عن أوليا الله فى دار السلام منوهاً به فى الكتاب العزيز ، قول قدرى ضال تذبذب مع هواه وتعصبه فى دار الغرور والزوال . نسأل الله حسن المآب والمآل .

(٣) عاد كلامه . قال : «وقوله تعالى (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) المراد بسبب أعمالكم ، لا بالتفضل كما تقول المبطلة » قال أحمد : يعنى بالمبطلة قوما سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله ورحمته . قيل : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة» فقالوا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء هم أهل السنة . قيل لهم : فما معنى قوله تعالى (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) ؟ قالوا : الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل ، فضلا منه ورحمة ، لا لأن ذلك مستحق عليه وواجب للعباد وجوب الديون التى لا اختيار فى أدائها ، جمعا بين الدليلين على وجه يطابق دليل العقل ، الدال على أن الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شىء ، فانظر أيها المنصف ، هل تجد فى هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطلة ؟ وحاكم نفسك إليها ، ثم إذا وضح لك أنهم برآء فى هذا البر ، فاعرضه على قوم زعموا أنهم =

﴿ بما كنتم تعملون ﴾ بسبب أعمالكم لا بالتفضل، كما تقول المبطلة [1]

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

« أن » فى ﴿ أن قد وجدنا ﴾ يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة وأن تكون مفسرة كالتى سبقت آنفاً، وكذلك ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وزيادة فى غمهم، لتكون حكايته لطفاً لمن سمعها، وكذلك قول المؤذن بينهم: لعنة الله على الظالمين. وهو ملك يأمره الله فينادى بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار. وقرئ: أنّ لعنة الله، بالتشديد والنصب. وقرأ الأعمش: إن لعنة الله، بكسر إن على إرادة القول، أو على إجراء (أذن) مجرى قال. فإن قلت: هلا قيل: ماوعدكم ربكم، كما قيل: ما وعدنا [2] ربنا؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه. ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿ وبينهما حجاب ﴾ يعنى بين الجنة والنار. أو بين الفريقين، وهو السور المذكور فى قوله تعالى (فضرب بينهم بسور). ﴿ وعلى الأعراف ﴾ وعلى أعراف الحجاب وهو السور المضروب

ـــــ يستحقون على الله تعالى حقا بأعمالهم التى لا ينتفع بوجودها ولا يتضرر بتركها ـ تعالى وتقدس عن ذلك ـ ويطلقون القول بلسان الجراءة أن الجنة ونعيمها أقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى لا تفضل له عليهم فيه. بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من مديانه. وانظر أى الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطلة، والسلام.

(١) قوله «كما تقول المبطلة» يريد أهل السنة القائلين: دخولها بالفضل، واقتسامها بالأعمال، كما فى الحديث. (ع)

(٢) عاد كلامه: قال: فان قلت هلا قيل ماوعدكم ربكم كما قيل ماوعدنا ... الخ، قال أحمد: ولقائل أن يقول: ولو ذكر المفعول حسب ذكره فى الأول فقيل: فهل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا، لكان الفصل مطلقا أيضا باعتبار الموعود به، لأنه لم يذكر، فكان يتناول كل موجود من البعث والحساب والعقاب، الذى هو أنواع من جملتها التحسر على نعيم أهل الجنة، فليس ذلك خاصا بحذف المفعول الواقع على الموعودين، فالوجه أن حذفه إيجاز وتخفيف واستغناء عنه بالأول. والله أعلم.

بين الجنة والنار وهى أعاليه ، جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك ﴿ رجال ﴾ من المسلمين من آخرهم دخولا فى الجنة لقصور أعمالهم ، كأنهم المرجون لأمر الله ، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم فى دخول الجنة ﴿ يعرفون كلا ﴾ من زمر السعداء والأشقياء ﴿ بسيماهم ﴾ بعلامتهم التى أعلمهم الله تعالى بها ، يلهمهم الله ذلك : أو تعرفهم الملائكة .

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَـٰبِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَـٰبُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم . ونادوا رجالا من رؤوس الكفرة يقولون لهم ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ إشارة لهم إلى أهل الجنة . الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون . وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن التقدم والتأخر على حسبها ، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه فى العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون فى حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التى استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسىء عن إساءته ، ويزيد المحسن فى إحسانه . وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملا . وقوله (وإذا صرفت أبصارهم) فيه أن صارفا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا . وقرأ الأعمش : وإذا قلبت أبصارهم وقرئ : أدخلوا الجنة ، على البناء للمفعول . وقرأ عكرمة : دخلوا الجنة . فإن قلت : كيف لاءم هاتين القراءتين قوله ﴿ لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ ؟ قلت : تأويله : أدخلوا ، أو دخلوا الجنة مقولا لهم : لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون . فإن قلت : ما محل قوله : لم يدخلوها وهم يطمعون ؟ قلت : لا محل له لأنه استئناف ؛ كأن سائلا سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل : لم يدخلوها وهم يطمعون ، يعنى حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة ، فلم

يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا. ويجوز أن يكون له محل، بأن يقع صفة لرجال ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ المال أو كثرتكم واجتماعكم ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ واستكبارکم عن الحق وعلى الناس، وقرئ: تستكثرون، من الكثرة.

وَنَادَى أَصْحَٰبُ النَّارِ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

﴿ أفيضوا علينا ﴾ فيه دليل على أن الجنة فوق النار ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله فى حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد: أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة. كقوله:

* عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا * (١)

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة فى أمرهم، كما يفعل المضطر الممتحن. ﴿ حرمهما على الكافرين ﴾ منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر، كقوله:

* حَرَامٌ عَلَى عَيْنَىَّ أَنْ تَطْعَمَ الْكَرَى * (٢)

---

(١) لما حططت الرحل عنها واردا علفتها تبنا وماء باردا

يقول: لما حططت الرحل عن الناقة حال كونى وارداً للماء، علفتها تبنا وسقيتها ماء بارداً، على حذف العامل فى ماء. ويحتمل أن المعنى: ناولتها تبنا وماء على التجوز فى العلف، وذلك لأن الماء لا يكون معلوفا لها. ويجوز أن يكون مفعولا معه، أى علفتها تبنا مصاحبا للماء، فلا يلزم أن يكون الماء معلوفا، ومنعه لأن الماء لا يصاحب التبن فى العلف، فيه نظر؛ لجواز أنه وضع لها التبن ووضع لها ماء معه، لتتناول ما شاءت. ورواية الفراء هكذا:

علفتها تبنا وماء باردا حتى شتت همالة عيناها

وشتوت بموضع كذا: أقمت به زمن الشتاء، أى حتى كانت زمن الشتاء همالة: أى كثيرة الدموع عيناها؛ فهمالة: نصب على الحال، وعيناها: فاعل به. ويروى: حتى غدت، وحتى بدت.

(٢) حرام على عينى أن تطعم الكرى وأن ترقأ حتى ألاقيك ياهند

«الكرى» النعاس، وهو أول النوم. يقال: كرى يكرى كرى، من باب تعب إذا نعس. وشبه بالمطعوم على طريق المكنية. «وأن تطعم» أى تذوقه تخييل. ورقأ الدمع والدم ـ بالهمز ـ: سكن. وإسناده للعين مجاز عقلى، لأنه للدمع. ويحتمل أنه استعار ترقأ لتغمضا، لأن فيه سكون الجفون. يقول: يمتنع على عينى النعاس والنموض، أو عدم البكاء امتناعا مؤكداً، كما يمتنع المحرم على المكلف، ففيه استعارة تصريحية حتى ألاقيك ياهند، وأنال من نوالك. وفى النداء معنى التفجع.

﴿فاليوم ننساهم﴾ نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا يذكرونهم به ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ كما فعلوا بلقائه فعل الناسين، فلم يخطروه ببالهم ولم يهتموا به.

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

﴿فصلناه على علم﴾ عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه، حتى جاء حكيما قيما غير ذي عوج. وقرأ ابن محيصن: فضلناه، بالضاد المعجمة. بمعنى فضلناه على جميع الكتب، عالمين أنه أهل للتفضيل عليها. و﴿هدى ورحمة﴾ حال من منصوب فصلناه، كما أن على علم حال من مرفوعه ﴿إلا تأويله﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أى تبين وصح أنهم جاؤا بالحق ﴿نرد﴾ جملة معطوفة على الجملة التي قبلها، داخلة معها فى حكم الاستفهام، كأنه قيل: هل لنا من شفعاء، أو هل نرد. ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم، كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد؟ ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه. فلا يقدّر: هل يشفع لنا شافع أو نرد. وقرأ ابن أبي إسحاق. أو نردّ، بالنصب عطفاً على فيشفعوا لنا. أو تكون «أو» بمعنى «حتى أنّ» أى يشفعوا لنا حتى نردّ فنعمل، وقرأ الحسن بنصب (نردّ) ورفع (فنعمل) بمعنى: فنحن نعمل.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)

﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ وقرئ يغشى بالتشديد، أى يلحق الليل النهار، والنهار بالليل يحتملهما جميعاً. والدليل على الثانى قراءة حميد بن قيس: يغشى الليل النهار، بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار، أى يدرك النهار الليل ويطلبه حثيثاً، حسن الملاءمة لقراءة حميد ﴿بأمره﴾ بمشيئته وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات أى خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره، وكما يريد أن يصرفها سمى ذلك أمراً على التشبيه، كأنهن مأمورات بذلك. وقرئ: والشمس والقمر

والنجوم مسخرات ، بالرفع . ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أي هو الذى خلق الأشياء كلها ، وهو الذى صرفها على حسب إرادته .

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿تضرعا وخفية﴾ نصب على الحال ، أى ذوى تضرع وخفية . وكذلك خوفاً وطمعاً . والتضرع تفعل من الضراعة (١) وهو الذل ، أى تذللا وتملقا . وقرئ . وخفية (٢) وعن الحسن رضى الله عنه : إنّ الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفى ، إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبداً . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم . وذلك أنّ الله تعالى يقول

---

(١) قال محمود : «والتضرع تفعل من الضراعة وهى الذل ... الخ » قال أحمد : وحسبك فى تعين الاسرار فى الدعاء اقترانه بالتضرع فى الآية . فالاخلال به كالاخلال بالضراعة إلى الله فى الدعاء وإن دعاء لاضرع فيه ولاخشوع لقليل الجدوى ، فكذلك دعاء لاخفية ولاوقار يصحبه وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح فى الدعاء ، خصوصا فى الجوامع حتى يعظم اللغط ويشتد ، وتستد المسامع وتستد ، ويهتز الداعى بالناس ، ولايعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت فى الدعاء ، وفى المسجد . وربما حصلت للعوام حينئذ رقة ، لاتحصل مع خفض الصوت ورعاية سمت الوقار وسلوك السنة الثابتة بالآثار ، وماهى إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال ، ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لوكانت من أصل لكانت عند اتباع السنة فى الدعاء وفى خفض الصوت به أوفر وأوفى وأزكى ، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق ، اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

(٢) قوله «وقرئ وخفية» لعل هذه بالكسر . (ع)

(ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) وقد أثنى على زكريا فقال (إذ نادى ربه نداءً خفيا) وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً . ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي المجاوزين ماأمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره . وعن ابن جريج : هو رفع الصوت بالدعاء . وعنه : الصياح في الدعاء مكروه وبدعة . وقيل : هو الإسهاب في الدعاء . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول : اللهمّ إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل [1] ثم قرأ قوله تعالى (إنه لا يحب المعتدين) . ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ كقوله (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً) . وإنما ذكر (قريب) على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم ، أو لأنه صفة موصوف محذوف ، أي شيء قريب . أو على تشبيه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول كما شبه ذاك به ، فقيل قتلاء وأسراء ، أو على أنه بزنة المصدر ، الذي هو النقيض والضغيب [2] . أو لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيق . قرئ : نشراً وهو مصدر نشر . وانتصابه إمّا لأن أرسل ونشر متقاربان ، فكأنه قيل : نشرها نشراً : وإمّا على الحال بمعنى منتشرات . ونشراً جمع نشور . ونشراً تخفيف نشر ، كرسل ورسل . وقرأ مسروق : نشراً ، بمعنى منشورات ، فعل بمعنى مفعول ، كنقض وحسب . ومنه قولهم «ضم نشره» وبشراً جمع بشير . وبشراً بتخفيفه . وبشراً ـ بفتح الباء ـ مصدر من بشره بمعنى بشره ، أي باشرات ، وبشرى ﴿بين يدي رحمته﴾ أمام رحمته ، وهي الغيث الذي هو من أتمّ النعم وأجلها وأحسنها أثراً ﴿أقلت﴾ حملت ورفعت ، واشتقاق الإقلال من القلة ، لأنّ الرافع المطيق يرى الذي يرفعه قليلا ﴿سحاباً ثقالا﴾ سحائب ثقالا بالماء جمع سحابة ﴿سقناه﴾ الضمير للسحاب على اللفظ ، ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث ، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلا ﴿لبلد ميت﴾ لأجل بلد ليس فيه حيا ولسقيه . وقرىء : ميت ﴿فأنزلنا به﴾ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق . وكذلك ﴿فأخرجنا به ... كذلك﴾ مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات ﴿نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾

---

(١) أخرجه أبو يعلى من رواية شعبة عن زياد بن مهران عن قيس بن عباية عن مولى لسعد بن سعد سمع ابنا له يقول «اللهم إني أسألك الجنة وغرفها وكذا وكذا . وأعوذ بك من النار وأغلالها وكذا وكذا . فقال : لقد سألت الله خيرا وتعوذت به من شر كثير . وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : سيكون قوم يعتدون في الدعاء وبحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك الجنة ـ الخبر ـ وقال في آخره : لا أدري قوله وبحسبك إلى آخره من قول سعد أو من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ورواه أبو داود الطيالسي والبيهقي في الدعوات من طريقه . عن سعد بسنده ، إلا أنه قال «وبحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم» وفي الباب عن عبدالله بن مغفل أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم .

(٢) قوله «هو النقيض والضغيب» النقيض : هو صوت العقاب وصوت المحمل ، والضغيب : صوت الأرنب . (ع)

فيؤديكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين . إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه ﴿والبلد الطيب﴾ الأرض العذاة الكريمة التربة ﴿والذى خبث﴾ الأرض السبخة التى لا تنبت ماينتفع به ﴿بإذن ربه﴾ بتيسيره وهو فى موضع الحال ، كأنه قيل : يخرج نباته حسنا وافيا لأنه واقع فى مقابلة ﴿نكدا﴾ والنكد الذى لاخير فيه . وقرئ : يخرج نباته ، أى يخرجه البلد وينبته . وقوله (والذى خبث) صفة للبلد ومعناه والبلد الخبيث لايخرج نباته إلا نكداً ، فحذف المضاف الذى هو النبات ، وأقيم المضاف إليه الذى هو الراجع إلى البلد مقامه ؛ إلا أنه كان مجروراً بارزاً ، فانقلب مرفوعا مستكنا لوقوعه موقع الفاعل . أو يقدر : ونبات الذى خبث . وقرئ : نكداً ، بفتح الكاف على المصدر . أى ذا نكد . ونكداً ، بإسكانها للتخفيف ، كقوله : نزه عن الريب ، بمعنى نزه . وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ، ولمن لايؤثر فيه شيء من ذلك . وعن مجاهد : آدم وذريته منهم خبيث وطيب . وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به ، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر ، وإنزاله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نصرف الآيات﴾ نرددها ونكررها ﴿لقوم يشكرون﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ، ليفكروا فيها ويعتبروا بها . وقرئ : يصرف ، بالياء أى يصرفها الله .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

﴿لقد أرسلنا نوحا﴾ جواب قسم محذوف . فإن قلت : ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام ، إلا مع «قد» ، وقل عنهم ، نحو قوله :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ حِلْفَةَ فَاجِرٍ لَنَامُوا ... ... (١)

(١) فقالت سباك الله إنك فاضحى ألست ترى السمار والناس أحوالى
حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صالى
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه قتام كاسف الظن والبال
يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلنى والمرء ليس بقتال
أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال
لامرئ القيس . يقول : ضجرت محبوبتى سلمى حين ترقبتها ليلا من أن الرقباء حولها . والسمار : جمع سامر ، بمعنى المتحدث ليلا . وأحوال : جمع حول ، بمعنى جانب ، فيفيد كثرة الناس وانتشارهم فى جوانبها . والمنقول أنه على صورة الجمع وليس جمعا ، وكذا تثنيته ، لأنه حول الشيء وحوليه وأحواله وأحواليه وحواله وحواليه ، كلها بمعنى =

قلت : إنما كان ذلك لأن الجملة القسمية لاتساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها ، التى هى جوابها ، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذى هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم . قيل : أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة ، وكان نجاراً وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام . وقرئ : غيره ، بالحركات الثلاث ، فالرفع على المحل ، كأنه قيل : ما لكم إله غيره . والجر على اللفظ والنصب على الاستثناء ، بمعنى : مالكم من إله إلا إياه ، كقولك : مافى الدار من أحد إلا زيد أوغير زيد . فإن قلت : فما موقع الجملتين بعد قوله (اعبدوا الله) ؟ قلت : الأولى بيان لوجه اختصاصه بالعبادة . والثانية : بيان للداعى إلى عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون الله . واليوم العظيم : يوم القيامة ، أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان .

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)

﴿الملأ﴾ الأشراف والسادة . وقيل : الرجال ليس معهم نساء ﴿فى ضلال﴾ فى ذهاب عن طريق الصواب والحق . ومعنى الرؤية : رؤية القلب . فإن قلت : لم قال ﴿ليس بى ضلالة﴾ ولم يقل ضلال [1] كما قالوا ؟ قلت : الضلالة أخص من الضلال ، فكانت أبلغ فى نفى الضلال

ـــجانبه المحيط به ، ويمكن أن يراد بالمفرد : مطلق الجانب مجازاً ، فيثنى ويجمع حقيقة ، والكثير فى الماضى المجاب به القسم قرنه بقد ، بل قيل : إن لم توجد فيه قدرت قيل ، لأن الجواب مظنة للتوقع الذى هو معنى « قد » لسماع القسم أولا . و «إن» و «من» زائدتان للتوكيد ، والحديث : بمعنى المتحدث ليطابق مابعده . والصالى : المصطلى بالنار . وهاهنا حذف دل عليه المقام . أى فسمحت فنلت منها مرادى ، فأعجبتها فأصبحت معشوقا وقد كنت عاشقاً ، وأصبح زوجها عليه قتام : وهو الغبار وسواد الوجه ، كاسف الظن : منعكسه ، فهو مجاز . وكاسف البال : حزين القلب ، أوسيء الحال . والغطيط : ارتفاع صوت النفس عند الخنق والنعاس ونحو ذلك . والبكر : الفتى من الابل . والخناق : حبل يخنق به كالحزام لما يتحزم به ، والاسار لما يربط به الأسير . وقوله : ليس بقتال ، أى كما يزعم أنه شجاع . والمشرفى : السيف ، نسبة إلى مشارف جمع مشرف كجعفر ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، شبهه بالمضاجع لامتداده بجانبه وملازمته له ، والمسنونة النبال : المحددة الأطراف . والزرق : جمع زرقاء ، الصافيات اللون . وشبهها بأنياب الأغوال فى حدة الأطراف ، واستبشاع كل عند النفوس . وهذا لايستلزم وجود الغول ورؤية نابها ، وإن زعمته العرب .

(١) قال محمود : «إن قلت لم قال ليس بى ضلالة ولم يقل ضلال ....الخ» ؟ قال أحمد : تعليله كون نفيها أبلغ من نفى الضلال بأنها أخص منه ، غير مستقيم والله أعلم ، فان نفى الأخص أعم من نفى الأعم ، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لايستلزم الأخص ، بخلاف العكس . ألاتراك إذا قلت : هذا ليس بانسان ، لم يستلزم ذلك أن لايكون ـــ

عن نفسه ، كأنه قال : ليس بى شىء من الضلال ، كما لو قيل لك : ألك تمر ، فقلت : مالى تمرة فإن قلت : كيف وقع قوله ﴿ ولـكنى رسول ﴾ استدراكا للانتفاء عن الضلالة ؟ قلت : كونه رسولا من الله مبلغا رسالاته ناصحاً ، فى معنى كونه على الصراط المستقيم ، فصحّ لذلك أن يكون استدراكا للانتفاء عن الضلالة . وقرئ : أبلغكم ، بالتخفيف . فإن قلت : كيف موقع قوله (أبلغكم) [1] ؟ قلت : فيه وجهان . أحدهما : أن يكون كلاما مستأنفاً بيانا لـكونه رسول رب العالمين . والثانى : أن يكون صفة لرسول . فإن قلت : كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب ؟ قلت : جاز ذلك لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب وكان معناه ، كما قال :

* أَنَا الَّذِى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ * [2]

—— حيوانا . ولو قلت : هذا ليس بحيوان ، لاستلزم أن لا يكون إنسانا ، فنفى الأعم كما ترى أبلغ من نفى الأخص . والتحقيق فى الجواب أن يقال : الضلالة أدنى من الضلال وأقل ، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه . وأما الضلال فينطلق على القليل والكثير من جنسه ، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى ، لامن حيث كونه أخص ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، والله أعلم .

(١) قال محمود : «إن قلت كيف موقع قوله (أبلغكم) ؟ قلت فيه وجهان ... الخ» قال أحمد : وقد استدرك ابن جنى قول أبى الطيب : * أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى *
عدولا عن لفظ الغيبة لوكان إلى أدبه ، وهذه الآية والرجز العلوى كفيلان بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب .

(٢) أنا الذى سمتن أمى حيدره كليث غابات كريه المنظره
أوفيهم بالصاع كيل السندره أضربكم ضربا يبين الفقره

للامام على رضى الله عنه حين بارز مرحبا اليهودى يوم خيبر ، فقال مرحب :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
* إذا الحروب أقبلت تلهب *

فأجابه على بذلك ، وكانت أمه فاطمة بنت أسد سمته كاسم أبيها ، لأن «حيدرة» من أسماء الأسد ، فلما حضر أبو طالب سماه علياً . وسمى الأسد «حيدرة» لشدة انحداره على من يصول عليه . والليث : اسم جامد له ، واشتقوا منه ، لايثه إذا عامله معاملة الليث . والغابة : بيته الذى يغيب فيه . والسندرة : اسم امرأة كانت تبيع البر وتوفى الكيل ، أو مكيال كبير . وكان الظاهر أن يقول : الذى سمته أمه ليطابق الضمير مرجعه وهو الموصول فى الغيبة . ولكن أتى بضمير التكلم ذهابا إلى المعنى . وحسنه تقدم ضمير المتكلم ، أى أنا الشجاع الذى ظهرت على أمارة الشجاعة من صغرى ، فسمتنى أمى باسم الأسد ، ولا أكذبها فى ظنها ، وأنا كليث غابات منظرته كريهة لعبوسى فى وجه عدوى ، ثم قال : أوفى الأعداء ، أى أعطيهم عطاء وافياً . وكيل السندرة : نصب به على المفعول المطلق ، أو بمقدر : أى أكيل لهم مثل كيل تلك المرأة فى الوفاء ، أو أعطيهم بالصاع الصغير كيل المكيال الكبير . ويروى : أوفيهم بالسيف . وهذا من باب الاستعارة التمثيلية التهكمية ، شبه هيئة إيصاله الطعان إلى الأعداء بكثرة فى مقابلة مكروه يفرط منهم . بهيئة إيصال البر بالكيل فى مقابلة ثمنه ، وإن كان البر محبوبا والطعن مكروها ، والتفت مفسراً ذلك بقوله أضربكم ضرباً يبين ، أى يفصل الفقرة : جمعها فقار ، وفقرات ، وهى عظام الظهر ، وقد علمت خيبر ، أى أهلها . وشاكى السلاح : حاده وتامه . يجوز أنه نعت مرحب . ويجوز أنه خبر بعد خبر . وبطل مجرب : خبر بعد خبر لاغير . واستعار الالتهاب لاشتداد الحروب على طريق التصريح .

﴿رسالات ربى﴾ ما أوحى إلىّ فى الأوقات المتطاولة ، أو فى المعانى المختلفة من الأوامر والنواهى والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر . ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه إدريس ، وهى ثلاثون صحيفة ، ومن صحف شيث وهى خمسون صحيفة ﴿وأنصح لكم﴾ يقال نصحته ونصحت له . وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غير ، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أى من صفات الله وأحواله ، يعنى قدرته الباهرة وشدّة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين . وقيل : لم يسمعوا بقوم حلّ بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحى الله إليه . أو أراد : وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إلىّ بها .

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)

﴿أو عجبتم﴾ الهمزة للإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، كأنه قيل : أكذبتم وعجبتم ﴿أن جاءكم﴾ من أن جاءكم ﴿ذكر﴾ موعظة ﴿من ربكم على رجل منكم﴾ على لسان رجل منكم ، كقوله (ما وعدتنا على رسلك) وذلك أنهم يتعجبون من نبوّة نوح عليه السلام ويقولون : ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأوّلين ، يعنون إرسال البشر ، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿لينذركم ولتتقوا﴾ ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهى الخشية بسبب الإنذار ﴿ولعلكم ترحمون﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم .

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)

﴿والذين معه﴾ قيل كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة . وقيل : تسعة ، بنوه سام وحام ويافث ، وستة ممن آمن به . فإن قلت : ﴿فى الفلك﴾ بم يتعلق ؟ قلت : هو متعلق بمعه ، كأنه قيل : والذين استقروا معه فى الفلك أو صحبوه فى الفلك . ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء ، أى أنجيناهم فى السفينة من الطوفان ﴿عمين﴾ عمى القلوب غير مستبصرين . وقرئ : عامين . والفرق بين العمىّ والعامى : أن العمى يدل على عمى ثابت . والعامى على عمى حادث . ونحوه قوله (وضائق به صدرك) .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا

تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿أخاهم﴾ واحداً منهم من قولك : يا أخا العرب، للواحد منهم . وإنما جعل واحداً منهم ، لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله فى صدقه وأمانته ، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وأخاهم : عطف على نوحا . و﴿هوداً﴾ عطف بيان له . فإن قلت : لم حذف العاطف من قوله ﴿قال ياقوم﴾ ولم يقل «فقال» كما فى قصة نوح [1] ؟ قلت : هو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال لهم هود؟ فقيل : قال ياقوم اعبدوا الله ، وكذلك ﴿قال الملأ﴾ . فإن قلت : لم وصف الملأ ﴿الذين كفروا﴾ دون الملأ من قوم نوح ؟ قلت : كان فى أشراف قوم هود من آمن به ، منهم مرثد بن سعد الذى أسلم وكان يكتم إسلامه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن فى أشراف قوم نوح مؤمن . ونحوه قوله تعالى : وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة . ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير ﴿فى سفاهة﴾ فى خفة حلم وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر ، وجعلت السفاهة ظرفا على طريق المجاز : أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها . وفى إجابة الأنبياء عليهم السلام - من نسبهم إلى الضلال والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة ، بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم - أدب حسن وخلق عظيم ، وحكاية الله عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على

---

(١) قال محمود : «فإن قلت لم حذف العاطف من قوله تعالى فى قصة هود هذه (قال ياقوم) ولم يقل (فقال) ؟ قلت لأنه أخرج الكلام جوابا عن سؤال سائل ، كأنه قيل : فما قال هود حينئذ ؟ قيل : قال ياقوم ، وكذلك قال الملأ» قال أحمد : وحذف العاطف من المقاولة . ألا ترى قوله فى سورة الشعراء حكاية عن تقاول موسى عليه السلام وفرعون ، كيف أسقط ذكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعددة فيها . والسر فى ذلك - والله أعلم - أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيرها كالجملة الواحدة ، فاجتنب لارادة استقلال كل واحدة منها فى معناها ، والله أعلم .

ما يكون منهم ﴿ناصح أمين﴾ أى عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة ، فما حق أن أتهم . أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، أمين على ماأقول لكم لا أكذب فيه ﴿خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أى خلفتموه فى الأرض ، أو جعلكم ملوكا فى الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم ﴿فى الخلق بسطة﴾ فيما خلق من أجرامكم ذهابا فى الطول والبدانة . قيل : كان أقصرهم ستين ذراعا ، وأطولهم مائة ذراع ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ فى استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه . وواحد الآلاء « إلى » نحو إنى وإناء ، وضلع وأضلاع ، وعنب وأعناب . فإن قلت : « إذ » فى قوله (إذ جعلكم خلفاء) ماوجه انتصابه ؟ قلت : هو مفعول به وليس بظرف ، أى اذكروا وقت استخلافكم .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَٰنٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

﴿أجئتنا لنعبد الله وحده﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة ، وترك دين الآباء . فى اتخاذ الأصنام شركاء معه ، حباً لما نشأوا عليه ، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به . فإن قلت : مامعنى المجىء فى قوله ﴿أجئتنا﴾ قلت : فيه أوجه : أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه ، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قبل المبعث [١] فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوهم . وأن يريدوا به الاستهزاء ، لأنهم كانوا يعتقدون أنّ الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة ، فكأنهم قالوا : أجئتنا من السماء كما يجىء الملك ، وأن لا يريدوا حقيقة المجىء ، ولكن التعرّض بذلك والقصد ، كما يقال : ذهب يشتمنى ، ولا يراد حقيقة الذهاب ، كأنهم قالوا : أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرّضت لنا بتكليف ذلك ؟ ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ استعجال منهم للعذاب ﴿قد وقع عليكم﴾ أى حق عليكم ووجب . أو قد نزل عليكم . جعل المتوقع الذى لا بدّ من نزوله بمنزلة الواقع . ونحوه قولك لمن طلب إليك

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحي «وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه حتى جاءه الوحي وهو بغار حراء .

بعض المطالب . قد كان ذلك . وعن حسان أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل ، فجاء يبكي . فقال له يا بنىّ مالك ؟ قال : لسعني طوير كأنه ملتف فى بردى حبرة [١] ، فضمه إلى صدره وقال له : يا بنى ، قد قلت الشعر . والرجس : العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿فى أسماء سميتموها﴾ فى أشياء ماهى إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة . ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده . وهذا كقوله تعالى : ماتدعون من دونه من شيء . ومعنى (سميتموها) سميتم بها من : سميته زيداً . وقطعُ دابرهم : استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم . وقصتهم أن «عاداً» قد تبسطوا فى البلاد ما بين عمان وحضرموت . وكانت لهم أصنام يعبدونها . صداء . وصمود . والهباء . فبعث الله إليهم هوداً نبياً ، وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً ، فكذبوه وازدادوا عتواً وتجبراً ، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا ، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحرم مسلمهم ومشركهم ، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح . وسيدهم معاوية بن بكر ، فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلا ، منهم قيل بن عنز ، ومرثد بن سعد الذى كان يكتم إسلامه . فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان . ـ قينتان كانتا لمعاوية ـ فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال : قد هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء على ماهم عليه ، وكان يستحى أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه ، فذكر ذلك للقينتين . فقالتا : قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله . فقال معاوية :

أَلَا يَاقَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ لَعَلَّ اللهَ يَسْقِينَا غَمَامَا
فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَادًا قَدَ آمْسَوْا مَا يُبِينُونَ الْكَلَامَا [٢]

---

(١) قوله «فى بردى حبرة» حبرة ـ كعنبة ـ : برد يمانى . اهـ صحاح . (ع)

(٢)
ألا ياقيل ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادا قد أمسوا مايبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو لها الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عيامى
وإن الوحش يأتيهم جهارا فلا يخشى لعادى سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

لمعاوية بن بكر . وروى أن عادا بعثوا من قومهم : قيل بن عنز ، ونعيم بن هزالة ، ومرثد بن سعد بن عفير ، =

فلما غنتا به قالوا : إن قومكم يتغوثون من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم ، فقال لهم مرثد بن سعد : والله لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سقيتم وأظهر إسلامه ، فقالوا لمعاوية : احبس عنا مرثدا لا يقدمنّ معنا مكة ، فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة فقال قيل : اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم ، فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء . ياقيل ، اختر لنفسك ولقومك . فقال : اخترت السوداء فإنها أكثرهنّ ماء فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث ، فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا ، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ، ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا . فإن قلت : مافائدة نفى الإيمان عنهم فى قوله ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ، ومن نجا مع هود عليه السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، ليؤذن أنّ الهلاك خص المكذبين ، ونجى الله المؤمنين .

= وجلهمة بن الخلس خال معاوية بن بكر ، ولقمان بن عاد ، كل منهم مع نفر من رهطه ليدعوا الله بالسقيا عند الكعبة ، فنزلوا عند معاوية بن بكر فأكرمهم وبعث إليهم الجرادتين لتغنيا لهم ـ وهما قينتان مغنيتان أول من غنى فى نساء العرب ـ فنسوا قومهم من كثرة اللهو والطرب . فقال معاوية : هلك أخوالى ، ولو قلت لهم شيئا ظنوا بى بخلا . فأنشأ هذا ، وأمر الجرادتين بغنائه لهم . والهينمة : صوت خفى لايفهم . والمراد بها دعاء الله بالسقيا . ويسقينا غماما : أى ماء غمام . مايبينون الكلام ، لضعفهم من العطش . فليس نرجو ، أى ليس نحن نرجو لها أى لعاد . ويروى «به» أى بسبب العطاش . وحق الرواية «بها» أى فى أرض عاد . الشيخ ولاالغلام . والعيمة : شدة الشهوة إلى اللبن . والمراد بها مطلق الفاقة . والعيامى : جمع عيم بالتشديد ، أى رثيثة الحال ، وأصله عيائم ، فقلب إلى عيامى ، كما روى أيامى ، وهو جمع أيم ، وأصله أيائم ، أى فاقدات الأزواج . فالمعنى على التشبيه . ويجوز أن المراد : نساءكم التى تركتموهن كأنهن بلاأزواج هناك . وتكرير النساء للاستعطاف عليهن . والعادى : نسبة لعاد ، وكانوا الغلاظ الشداد . والوحش : اسم جنس جمعى ، واحده وحشى ، كانس وإنسى ، وترك وتركى . فيذكر باعتبار لفظه ، ويؤنث باعتبار جمعيته . وروى «بهما» ونهاركم : نصب على الظرف . و «من وفدقوم» تميز مقترن بمن . والسلام عطف على التحية ، وفيه تورية لأنه يشير إلى انقطاع الكلام ، كما أن المجتمعين يأتيان به عند المفارقة . فلما سمع القوم ذلك انطلقوا إلى الكعبة ، فلحقهم مرثد بن سعد وكان مؤمنا فأخروه ، فدعا الله تعالى لنفسه لاللقوم . وقال قيل : اللهم إن كان هود صادقا فاسقنا ، فأنشأ سحابة بيضاء وسحابة حمراء وسحابة سوداء . ثم نودى : ياقيل ، اختر أيها شئت . فقال : أما البيضاء فجفل ، وأما الحمراء فعارض . وأما السوداء فهطل ، فاختارها فنودى . قد اخترت رمادا أرمدا ، لايبقى من عاد أحدا ، لا والدا ولاولدا . فسارت السوداء إلى عاد فأهلكتهم . وجاء لقمان بن عاد بعد أن فرغوا من دعواتهم فقال : اللهم إنى جئتك وحدى ، فأعطنى سؤلى . وسأل عمر سبعة أنسر ، وكان عمر النسر ثمانين سنة ، فكان يأخذ النسر من وكره فلا يزال عنده حتى يموت ، وكان آخر نسوره اسمه لبد ، فلما مات مات . ثم إن ذلك كان قبل وجود مكة وزمزم ، لأنهما إنما وجدا فى زمن إبراهيم وإسماعيل . فلعل معاوية بن بكر كان مسكنه قريبا من موضع مكة ، لافى نفس موضعها ، لأنه إذ ذاك لم يكن فيه بناء ولاماء .

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

قرئ ﴿وإلى ثمود﴾ بمنع الصرف بتأويل القبيلة ، وإلى ثمود بالصرف بتأويل الحىّ ؛ أو باعتبار الأصل : لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح . وقيل : سميت ثمود لقلة مائها ، من الثمد وهو الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادى القرى ﴿قد جاءتكم بينة﴾ آية ظاهرة وشاهد على صحة نبوّتى . وكأنه قيل : ماهذه البينة ؟ فقال ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ وآية نصب على الحال ، والعامل فيها مادل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل ، كأنه قيل : أشير إليها آية . ولكم : بيان لمن هى له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود ؛ لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة ، كأنه قال : لكم خصوصاً . وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيما لها وتفخيما لشأنها ، وأنها جاءت من عنده مكوّنة من غير فحل وطروقة آية من آياته ، كما تقول : آية الله . وروى أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم فى الأرض وكثروا وعمروا أعماراً طوالا : حتى أن الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته ، فنحتوا البيوت من الجبال ، وكانوا فى سعة ورخاء من العيش ، فعتوا على الله وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان ، فبعث الله تعالى إليهم صالحا عليه السلام ، وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا ، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، فقال : أية آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا فى يوم معلوم لهم من السنة ، فتدعوا إلهك وندعو آلهتنا ، فإن استجيب لك اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتبعتنا ، فقال صالح : نعم ، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم ، ثم قال سيدهم ـ جندع بن عمرو ، وأشار إلى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة ـ أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء ـ والمخترجة التى شاكلت البخت ـ فإن فعلت صدقناك وأجبناك . فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمننّ ولتصدّقنّ ، قالوا : نعم ، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء . كما

وصفوا لايعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى، وعظاؤهم ينظرون ، ثم نتجت ولداً مثلها فى العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ، ومنع أعقابهم ناس من رؤسهم أن يؤمنوا ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترد غبا ، فإذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها ، ثم تتفحج [١] فيحتلبون ماشاؤا حتى تمتلئ أوانيهم ، فيشربون ويدخرون . قال أبوموسى الأشعرى : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا . وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان : عنيزة أم غنم ، وصدقة بنت المختار ـ لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشى ـ فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه ، فانطلق سقبها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغى ثلاثا وكان صالح قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه وانفجت [٢] الصخرة بعد رغائه فدخلها . فقال لهم صالح : تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة ، وبعد غد ووجوهكم محمرة ، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه . فأنجاه الله إلى أرض فلسطين . ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا ﴿تأكل فى أرض الله﴾ أى الأرض أرض الله والناقة ناقة الله ، فذروها تأكل فى أرض ربها ، فليست الأرض لكم ولا مافيها من النبات من أنباتكم ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشىء من الأذى إكراماً لآية الله . ويروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه « لايدخلن أحد منكم القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « ياعلى ، أتدرى من أشقى الأولين » ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال « عاقر ناقة صالح ، أتدرى من أشقى الآخرين » ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال « قاتلك [٤] » وقرأ أبو جعفر فى رواية

---

(١) قوله « ثم تتفحج » أى تفرج مابين رجليها . (ع)

(٢) قوله « وانفجت الصخرة » أى انفتحت . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما من طرق .

(٤) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى : حدثنى يزيد بن محمد بن خثيم عن محمد بن كعب القرظى عن محمد بن خثيم والد يزيد المذكور عن عمار بن ياسر قال « كنت أنا وعلى رفيقين فى غزوة العسرة إلى أن قال : فقال ياعلى ، ألا أخبرك بأشقى الناس : رجلين ؟ قال : بلى يارسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك ياعلى على هذه وأشار إلى رأسه ـ حتى يبل هذه ـ ووضع يده على لحيته » ومن هذا الوجه أخرجه النسائى فى الخصائص والحاكم والطبرى والبيهقى فى الدلائل . وفى الباب عن جابر بن سمرة أخرجه الطبرانى وعن صهيب أخرجه أبو يعلى والطبرانى . وعن على أخرجه ابن مردويه فى تفسير والشمس وضحاها ﴿تنبيه﴾ فى رواية =

تأكل فى أرض الله، وهو فى موضع الحال بمعنى آكلة ﴿وبوأكم﴾ ونزلكم. والمباءة: المنزل ﴿فى الأرض﴾ فى أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿من سهولها قصوراً﴾ أى تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص [1] واللبن والآجر. وقرأ الحسن: وتنحتون بفتح الحاء وتنحاتون بإشباع الفتحة، كقوله:

* يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى أَسِيلٍ حُرَّةٍ * [2]

فإن قلت: علام انتصب ﴿بيوتا﴾؟ قلت: على الحال، كما تقول: خط هذا الثوب قيصاً وابر هذه القصبة قلما، وهى من الحال المقدّرة، لأن الجبل لا يكون بيتاً فى حال النحت، ولا الثوب ولا القصبة قيصاً وقلما فى حال الخياطة والبرى. وقيل: كانوا يسكنون السهول فى الصيف والجبال فى الشتاء.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى

= المذكورين «أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل عليا، فقال له فى الأول: عاقر الناقة، قال صدقت. وقال فى الثانية «لا علم لى» وفى رواية جابر بن سمرة «الله أعلم».

(١) قوله «من الرهص» هو الصخر الثابت فى أسفل الحائط. اه من الصحاح. (ع)

(٢) وكان ربا أو كحيلا معقدا ... حش الوقود به جوانب قمقم
ينباع من ذفرى أسيل حرة ... زيافة مثل الفنيق المكرم

لعنترة بن شداد العبسى من معلقته، يصف عرق ناقته من السير، فشبه بالرب، وهو العصير والطلاء. أو بالكحيل وهو القطران المنعقد بالنار على جوانب القمقم. وأعقدت الدواء: أغليته حتى خثر. وحش الوقود: أشعله وأوقده. وهو هنا مبنى للمجهول وأصل «ينباع» ينبع، فتولدت الألف للاشباع، والذفرى: نقرة منخفضة جنب الأذن، إذا طال سير البعير انتفخ من وسطها جلدة وارتفعت وسال منها العرق فى النقرة، وهى المشبهة بالقمقم سابقاً. وقيل الذفرى أصل الأذن. والأسيل: الناقة المستقيمة الخلق، من قولهم: خد أسيل، وكف أسيل، وحر كل شيء: خالصه. زيافة: كثيرة الزيف وهو التبختر فى السير. والفنيق: فحل الابل المكرم باعفائه عن العمل لأجل الضراب، فالمكرم: نعت مفسر. ويروى المكدم بالدال. ويقال: كدمه إذا عضه. وأما أكدمه فلم أقف عليها، ولعلها لغة قليلة. والمكدم اسم مفعول منها، أى الذى كدمته الفحول وعضته فأثرت فيه لتنقب جلدها من أثر الرحل والركض. وروى: من ذفرى غضوب جسرة، أى شديدة الغضب صلبة موثقة الخلق. وقيل «ينباع» وزنه «ينفعل» من البوع، وهو طى المسافة البعيدة، ولا معنى له فى البيت.

عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

﴿للذين استضعفوا﴾ للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم . و﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من الذين استضعفوا . فان قلت : الضمير فى منهم راجع إلى ماذا [1] ؟ قلت : إلى (قومه) أو إلى (الذين استضعفوا) . فإن قلت : هل لاختلاف المرجعين أثر فى اختلاف المعنى ؟ قلت: نعم وذلك أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل (من آمن) مفسراً لمن استضعف منهم ، فدل أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين ، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم ، ودلّ أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ شىء قالوه على سبيل الطنز والسخرية ، كما تقول للمجسمة : أتعلمون أن الله فوق العرش . فان قلت : كيف صحّ قولهم ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ جوابا عنه [2] ؟ قلت : سألوهم عن العلم بإرساله ، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لايدخله ريب ، كأنهم قالوا : العلم بإرساله وبما أرسل به مالا كلام فيه [3] ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته ، وإنما الكلام فى وجوب الإيمان به ، فنخبركم أنا به مؤمنون ، ولذلك كان جواب الكفرة ﴿إنا بالذى آمنتم به كافرون [4]﴾ فوضعوا (آمنتم به) موضع (أرسل به) رداً لما جعله المؤمنون معلوما وأخذوه مسلماً ﴿فعقروا الناقة﴾ أسند العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم ، وقد يقال للقبيلة الضخمة : أنتم فعلتم كذا ، وما فعله إلا واحد منهم ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين ، وأمر ربهم : ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله (فذروها تأكل فى أرض الله) أو شأن ربهم وهو دينه . ويجوز أن يكون المعنى : وصدر عتوّهم عن أمر ربهم ، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب فى عتوّهم . ونحو عن هذه ما فى قوله (وما

---

(١) قال محمود : «إن قلت الضمير فى منهم راجع إلى ماذا ؟ قلت : إلى قومه ... الخ» قال أحمد : فقوله (لمن) على الأول بدل الشىء من الشىء وهما لعين واحدة . وعلى الثانى بدل بعض من كل .

(٢) عاد كلامه . قال محمود : «فان قلت كيف وقع قولهم إنا بما أرسل به مؤمنون جوابا ... الخ» قال أحمد : وقولهم (إنا به مؤمنون) ليس إخباراً عن وجوب الايمان به ، بل عن امتثال الواجب والعمل به ، ونحن قد امتثلنا .

(٣) قوله «ما لا كلام فيه» لعله : مما لا كلام فيه . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال محمود : «ولذلك كان جواب الكفرة إنا بالذى ... الخ » قال أحمد : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، ولكن أبوا ذلك حذراً مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها . وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم ، كما قال فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) فأثبت إرساله تهكما ، وليس هذا موضع التهكم ، فان الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله ، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الايمان بالرسالة احتياطاً للكفر وعلواً فى الاصرار .

فعلته عن أمرى) ﴿ائتنا بما تعدنا﴾ أرادوا من العذاب. وإنما جاز الإطلاق لأنه كان معلوما. واستعجالهم له لتكذيبهم به، ولذلك علقوه بما هم به كافرون، وهو كونه من المرسلين ﴿الرجفة﴾ الصيحة التى زلزلت لها الأرض واضطربوا لها ﴿فى دارهم﴾ فى بلادهم أو فى مساكنهم ﴿جاثمين﴾ هامدين لا يتحركون موتى. يقال: الناس جثم، أى قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة. ومنه المجثمة التى جاء النهى عنها[١]، وهى البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمى. وعن جابر أنّ النبى صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة، فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان فى حرم الله. قالوا من هو؟ قال: ذاك أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه[٢]»، وروى أنّ صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره. وروى أنه عليه السلام مرّ بقبر أبى رغال فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فذكر قصة أبى رغال، وأنه دفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب» فابتدروه وبحثوا عنه بأسيافهم فاستخرجوا الغصن[٣]. ﴿فتولى عنهم﴾ الظاهر أنه كان مشاهد الماجرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين، تولى مغتمّ متحسر على مافاته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول ﴿يا قوم لقد﴾ بذلت فيكم وسعى ولم آل جهداً فى إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم ﴿لا تحبون الناصحين﴾ ويجوز أن يتولى عنهم تولى ذاهب عنهم، منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب. وروى أنّ عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت. وروى أنه خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفا وخمسمائة دار. وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم. فإن قلت: كيف صحّ خطاب الموتى وقوله (ولكن لا تحبون الناصحين)؟ قلت: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه فى التهلكة: يا أخى، كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل منى؟ وقوله (ولكن لا تحبون الناصحين) حكاية حال ماضية.

---

(١) أما النهى فرواه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب من فى السقاء، وعن ركوب الجلالة، وعن المجثمة» ورواه البزار من طريق الوراق عن قتادة عن أنس مثله. وكذا قال، وأخرجه البزار وقال: إسناده حسن. ومن حديث العرباض بن سارية «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المجثمة» أخرجه الترمذى وحسنه من رواية سعيد بن المسيب عن أبى الدرداء قال «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل المجثمة وهى التى تضرب بالنبل».

(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والطبرى من رواية عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابر ــ وزاد «فى غزوة تبوك»، فقام فخطب الناس.

(٣) أخرجه أبو داود وابن حبان والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم فى الدلائل من رواية بجير بن أبى بجير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ولفظه «فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن» وأما قوله «فبحثوا عنه بأسيافهم» فأخرجه عبد الرزاق عن معمر مرسلا.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

﴿ولوطا﴾ وأرسلنا لوطا. و﴿إذ﴾ ظرف لأرسلنا. أو واذكر لوطا، وإذ بدل منه، بمعنى: واذكر وقت ﴿قال لقومه أتأتون الفاحشة﴾ أتفعلون السيئة المتمادية فى القبح ﴿ماسبقكم بها﴾ ماعملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة، إذا ضربتها قبله. ومنه قوله عليه السلام «سبقك بها عكاشة»[1]. ﴿من أحد من العالمين﴾ «من» الأولى زائدة لتوكيد النفى وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض. فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: هى جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولا بقوله (أتأتون الفاحشة) ثم وبخهم عليها فقال: أنتم أول من عملها. أو على أنه جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ماسبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به ﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ بيان لقوله: أتأتون الفاحشة. والهمزة مثلها فى (أتأتون) للإنكار والتعظيم. وقرئ: إنكم، على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال، من أتى المرأة إذا غشيها ﴿شهوة﴾ مفعول له، أى للاشتهاء لاحامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر، ولا ذم أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية، أنه لاداعى لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التى توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود فى كل شىء، فمن ثم أسرفوا فى باب قضاء الشهوة، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد. ونحوه (بل أنتم قوم عادون). ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ يعنى ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام، من إنكار الفاحشة، وتعظيم أمرها، ووسمهم بسمة الإسراف الذى هو أصل الشر كله، ولكنهم جاؤا

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس فى قصته. ولمسلم من حديث أبى هريرة نحوه. ومن حديث عمران بن حصين رضى الله عنه.

بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم، ضجراً بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم. وقولهم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف [1]، وأريحونا من هذا المتزهد ﴿وأهله﴾ ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين [2] ﴿من الغابرين﴾ من الذين غبروا في ديارهم، أى بقوا فهلكوا. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكانت كافرة موالية لأهل سدوم. وروى أنها التفتت فأصابها حجر فماتت. وقيل: كانت المؤتفكة خمس مدائن. وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار. وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم. وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم. وروى أن تاجراً منهم كان فى الحرم فوقف له الحجر أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه. فإن قلت: أى فرق بين مطر وأمطر؟ قلت: يقال مطرتهم السماء وواد ممطور [3]. وفى نوابغ الكلم: حرى غير ممطور. حرى أن يكون غير ممطور [4] ومعنى مطرتهم: أصابتهم بالمطر، كقولهم. غاثتهم ووبلتهم وجادتهم ورهمتهم. ويقال: أمطرت عليهم كذا، بمعنى أرسلته عليهم إرسال المطر (فأمطر علينا حجارة من السماء)، (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل). ومعنى ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ وأرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيباً يعنى الحجارة. ألا ترى إلى قوله ﴿فساء مطر المنذرين﴾.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ

(١) قوله «أبعدوا عنا هذا المتقشف» المتقشف: هو الذى يتبلغ بالقوت وبالمرقع، من القشف: وهو التغير من الشمس أو الفقر له. (ع)

(٢) قوله «من ذويه أو من المؤمنين» يعنى أقاربه وامرأته. (ع)

(٣) قال محمود: «يقال مطرتهم السماء وواد ممطور ... الخ» قال أحمد: مقصود المصنف الرد على من قول: مطرت السماء فى الخير، وأمطرت فى الشر. ويتوهم أنها تفرقة وضعية، فبين أن أمطرت: معناه أرسلت شيئاً على نحو المطر وإن لم يكن ماء، حتى لو أرسل الله من السماء أنواعا من الخيرات والأرزاق مثلا كالمن والسلوى، لجاز أن يقال فيه: أمطرت السماء خيرات، أى أرسلتها إرسال المطر. فليس للشر خصوصية فى هذه الصيغة الرباعية، ولكن اتفق أن السماء لم ترسل شيئا سوى المطر إلا وكان عذابا، فظن الواقع اتفاقا مقصودا فى الوضع فنبه على تحقيق الأمر فيه وأحسن وأجمل.

(٤) قوله «حرى غير ممطور حرى أن يكون غير ممطور» حرى الأول بمعنى ناحية وجانب. والثانى بمعنى جدير وحقيق. وممطور الأول بمعنى مصاب بالمطر. والثانى بمعنى مذهوب فيه. كذا يؤخذ من الصحاح. (ع)

أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)

كان يقال لشعيب عليه السلام خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ معجزة شاهدة بصحة نبوّتى أوجبت عليكم الإيمان بى والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا. فإن قلت: ما كانت معجزته؟ قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة، لقوله (قد جاءتكم بينة من ربكم). ولأنه لابدّ لمدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه. وكان متنبئاً لا نبيا غير أنّ معجزته لم تذكر فى القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه. ومن معجزات شعيب عليه السلام: ماروى من محاربة عصى موسى عليه السلام التنين[1] حين دفع إليه غنمه. وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصى آدم عليه السلام على يده فى المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأنّ هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام، فكانت معجزات لشعيب. فإن قلت: كيف قيل ﴿الكيل والميزان﴾ وهلا قيل: المكيال والميزان، كما فى سورة هود عليه السلام؟ قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل وهو المكيال. أو سمى ما يكال به بالكيل، كما قيل: العيش، لما يعاش به. أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر. ويقال: بخسته حقه: إذا نقصته إياه. ومنه قيل للمكس البخس. وفى أمثالهم: تحسبها حمقاء وهى باخس. وقيل ﴿أشياءهم﴾ لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء فى مبايعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين. وروى أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا هى زيوف فقطعوها قطاعا، ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفا ﴿بعد إصلاحها﴾ بعد الاصلاح فيها، أى لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم. وإضافته كإضافة قوله (بل مكر الليل والنهار) بمعنى بل مكركم فى الليل والنهار، أو

(١) قوله «التنين» هو ضرب من الحيات والدرع سود الرؤس بيض سائر الأبدان اه (ع)

بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض . أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه . ومعنى ﴿خير لكم﴾ يعني في الإنسانية وحسن الأحدوثة ، وما تطلبونه من التكسب والتربح . لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم مصدقين لي في قولي ذلكم خير لكم ﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ ولا تقتدوا بالشيطان في قوله (لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) فتقعدوا بكل صراط أي بكل منهاج من مناهج الدين . والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ ومحل (توعدون) وما عطف عليه: النصب على الحال أي: ولا تقعدوا موعدين وصادّين عن سبيل الله ، وباغيها عوجاً . فإن قلت : صراط الحق واحد ، (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فكيف قيل : بكل صراط ؟ قلت : صراط الحق واحد ، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة ، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أوعدوه وصدّوه . فإن قلت : إلام يرجع الضمير في ﴿آمن به﴾ ؟ قلت : إلى كل صراط . تقديره : توعدون من آمن به وتصدّون عنه ، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير ، زيادة في تقبيح أمرهم ، ودلالة على عظم مايصدّون عنه . وقيل : كانوا يجلسون على الطرق والمراصد ، فيقولون لمن مرّ بهم : إن شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم ، كما كان يفعل قريش بمكة . وقيل : كانوا يقطعون الطرق . وقيل : كانوا عشارين ﴿وتبغونها عوجاً﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجا ، أي تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة ، لتصدّوهم عن سلوكها والدخول فيها : أو يكون تهكما بهم ، وأنهم يطلبون لها ماهو محال ، لأنّ طريق الحق لا يعوج ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا﴾ إذ مفعول به غير ظرف . أي : واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلا عددكم ﴿فكثركم﴾ الله ووفر عددكم. قيل : إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا . ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم : فجعلكم مكثرين موسرين . أو كنتم أقلة أذلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد ﴿عاقبة المفسدين﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم ، كقوم نوح وهود وصالح ولوط ، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة ﴿فاصبروا﴾ فتربصوا وانتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ أي بين الفريقين ، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم . وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم ، كقوله (فتربصوا إنا معكم متربصون) أو هو عظة للمؤمنين وحثّ على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم . ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين ، أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على مايسوءهم من إيمان من آمن منهم ، حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب ﴿وهو خير

الحاكمين﴾ لأنّ حكمه حق وعدل ، لا يخاف فيه الحيف .

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

أى ليكوننّ أحد الأمرين : إمّا إخراجكم ، وإمّا عودكم فى الكفر . فإن قلت : كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود [1] فى الكفر فى قولهم ﴿أو لتعودنّ فى ملتنا﴾ وكيف أجابهم بقوله ﴿إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ماليس فيه تنفير ، فضلا عن الكبائر ، فضلا عن الكفر ؟ قلت : لما قالوا لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك ، فعطفوا على ضميره الذين دخلوا فى الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا : لتعودنّ ، فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عائدين جميعا ، إجراء للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال : إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه فى جملتهم

---

(١) قال محمود : «إن قلت كيف خاطبوا شعيباً بصيغة العود ... الخ» قال أحمد : والزمخشرى بنى هذا الكلام على أن صيغة العود تستدعى رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل . والتحقيق فى الجواب عن السؤال المذكور مع اقتضاء العود لذلك : أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك ، إلا أنه كثيراً مايرد بمعنى صار . وحينئذ يجوز أن يكون أخا لكان ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك وهو الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتنفة مثل صار ، وكأنهم قالوا ـ والله أعلم ـ : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا . وحينئذ يندفع السؤال . أو يسلم استعمال العود بمعنى الرجوع إلى أمر سابق . ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) والاخراج يستدعى دخولا سابقا فيما وقع الاخراج منه . ونحن نعلم أن المؤمن الناشىء فى الايمان لم يدخل قط فى ظلمة الكفر ولا كان فيها ، وكذلك الكافر الأصلى لم يدخل قط فى نور الايمان ولا كان فيه . ولكن لما كان الايمان والكفر من الأفعال الاختيارية التى خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكنا منه لو أراده . فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عنه إلى الايمان إخباراً بالاخراج من الظلمات إلى النور . توفيقاً من الله له ولطفا به . وبالعكس فى حق الكافر ، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب . وفائدة اختياره فى هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار لاقامة حجة الله على عباده ، والله أعلم .

وإن كان بريئا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ﴾ والله تعالى متعال أن يشاء ردّة المؤمنين [١] وعودهم في الكفر [٢] ؟ قلت : معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألطاف ، لعلمه أنها لا تنفع فينا وتكون عبثاً . والعبث قبيح لا يفعله الحكيم ، والدليل عليه قوله ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ أى هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون ، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل ، وقلوبهم كيف تتقلب ، وكيف تقسو بعد الرقة ، وتمرض بعد الصحة ، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان ﴿ على الله توكلنا ﴾ فى أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان . ويجوز أن يكون قوله (إلا أن يشاء الله) حسماً لطمعهم [٣] فى العود ، لأن مشيئة الله لعودهم فى الكفر محال خارج عن الحكمة [٤] ﴿ أو لو كنا كارهين ﴾ الهمزة للاستفهام . والواو واو الحال . تقديره : أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا ، ومع كوننا كارهين . وما يكون لنا ، وما ينبغى لنا . وما يصحّ لنا . ﴿ ربنا افتح بيننا ﴾ احكم بيننا . والفتاحة : الحكومة . أو أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا ﴿ وبين قومنا ﴾ وينكشف بأن تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ كقوله (وهو خير الحاكمين) . فإن قلت : كيف أسلوب قوله (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم) ؟ قلت : هو إخبار مقيد بالشرط ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون كلاما مستأنفاً فيه معنى التعجب ، كأنهم قالوا : ما أكذبنا على الله إن عدنا فى الكفر بعد الإسلام ، لأنّ المرتد أبلغ فى الافتراء من الكافر ، لأنّ الكافر مفتر على الله الكذب ، حيث يزعم أنّ لله نداً ولا ندّ له . والمرتدّ مثله فى ذلك وزائد عليه ، حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفى عليه من التميز

---

(١) قوله «والله تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين» أى تنزه عن أن يشاء ... الخ ، على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر . أما عند أهل السنة فيريده كالخير . (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت الله تعالى مقدس عن أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم إلى الكفر ... الخ » . قال أحمد : وهذا السؤال كما ترى مفرع على القاعدة الفاسدة ، فى اعتقاد وجوب رعاية الصلاح والأصلح ، وهو غير موجه على قاعدة السنة ، فظاهر الآية هو المعول عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله . وأما استدلال الزمخشرى على صحة تأويله بقوله (وسع ربنا كل شيء علما) فمن احتيالاته فى التأويلات الباطلة ، يعضدها ويتبع الشبه ويلفقها . وموقع قوله (وسع ربنا كل شيء علما) الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة والاطلاع على الأمور الغائبة ، فإن العود إلى الكفر جائز فى قدرة الله أن يقع من العبد ، ولو وقع فبقدرة الله ومشيئته المغيبة عن خلقه ، فالحذر قائم والخوف لازم ، ولكن لمن وفقه الله تعالى العقيدة الصحيحة والإيمان السالم ، والله الموفق . ونظيره قول إبراهيم عليه السلام (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علما) لما رد الأمر إلى المشيئة وهى مغيبة مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات ، والله أعلم .

(٣) عاد كلامه . قال : ويجوز أن يكون المراد حسم طمعهم ... الخ . قال أحمد : وهذا من الطراز الأول ، فألحقه به ، وسحقا سحقا .

(٤) قوله «محال خارج عن الحكمة» مبنى على مذهب المعتزلة أيضا . (ع)

بين الحق والباطل . والثانى أن يكون قسما على تقدير حذف اللام ، بمعنى : والله لقد افترينا على الله كذبا .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَٰسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩١) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٢)

﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ أى أشرافهم للذين دونهم يثبطونهم عن الإيمان ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ لاستبدالكم الضلالة بالهدى . كقوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم) وقيل : تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية . فإن قلت : ما جواب القسم الذى وطأته اللام فى (لئن اتبعتم شعيباً) وجواب الشرط ؟ قلت : قوله (إنكم إذاً لخاسرون) سادّ مسدّ الجوابين ﴿ الذين كذبوا شعيباً ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ وكذلك ﴿ كانوا هم الخاسرين ﴾ وفى هذا الابتداء معنى الاختصاص ، كأنه قيل : الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا ، كأن لم يقيموا فى دارهم ؛ لأنّ الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله ، الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم ، دون أتباعه فإنهم الرابحون . وفى هـذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير : مبالغة فى ردّ مقالة الملإ لأشياعهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٩٣)

الآسى : شدّة الحزن . قال العجاج :

* وَٱنْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الأَسَى *

اشتدّ حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال : فكيف يشتدّ حزنى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم ويجوز أن يريد لقد أعذرت إليكم فى الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حلّ بكم فلم تسمعوا قولى ولم تصدقونى فكيف آسى عليكم يعنى أنه لا يأسى عليهم لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى . وقرأ يحيى بن وثاب : فكيف إيسى ، بكسر الهمزة .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء﴾ بالبؤس والفقر ﴿والضراء﴾ بالضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه ﴿لعلهم يضرعون﴾ ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة والرخاء والصحة والسعة كقوله (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) ﴿حتى عفوا﴾ كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم، من قولهم : عفا النبات وعفا الشحم والوبر ، إذا كثرت . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «وأعفوا اللحى»[1] وقال الحطيئة :

* بِمُسْتَأْسِدِ القُرْيَانِ عَافٍ نَبَاتُهُ *[2]

وقال :

وَلٰكِنَّا نَعَضُّ السَّيْفَ مِنْهَا ... بِأَسْوُقِ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومِ[3]

(١) تقدم فى البقرة .

(٢)
فان نظرت يوما بمؤخر عينها ... إلى علم فى الغور قالت أبعد
بأرض ترى فرخ الحبارى كأنها ... بها راكب موف على ظهر قردد
بمستأسد القريان عاف نباته ... تساقطنى والرحل من صوت هدهد

للحطيئة . ومؤخر العين ـ كمؤمن ـ : جانبها . والعلم : الجبل والعلامة فى الطريق . والغور : الموضع الغائر المنخفض . وقالت له «أبعد» مجاز عن تركها إياه بسرعة ، فيبعد عنها . والحبارى : طير يهوى الجبال ، وفرخها يسمى النهار . وفرخ الكروان يسمى الليل . والموفى : المشرف . والقردد ـ كهدهد ـ المكان الغليظ المرتفع . والمستأسد : النبات القوى الغليظ الطويل ، كما سمى السبع أسداً لقوته . والقريان ـ بالضم ـ جمع قرى كفعيل : مجرى الماء الذى يجمعه إلى الروض . والعافى الكثير ، يصف ناقته بسرعة السير وأنها لخوفها فى ذلك الطريق لا تتمكن من تمام النظر إلى أعلامه ، فاذا لمحت فيه شبحاً أسرعت مبعدة عنه فى أرض مجهل ، كأن فرخ الحبارى فيها راكب مشرف فوق مكان مرتفع . وقوله «بمستأسد» بدل من قوله «بأرض» أو متعلق بتساقطنى . والمعنى : أنه لا فرق عندها بين الحزن والسهل فى نبات الغدران حال كثرته ، تردينى مع رحلها لسرعة سيرها من خوفها من صوت هدهد واحد . وعلى الأول ، تساقطنى حال من فاعل «قالت» أو جواب الشرط ، وقالت له : أبعد ، صفة علم . وعبر بالتساقط ، لأن المعنى : كلما تمكنت حركتنى ، حتى أكاد أسقط .

(٣)
إذا ما درها لم يقر ضيفا ... ضمن له قراه من الشحوم
فلا تتجاوز العضلات منها ... إلى البكر المعارب والكروم
ولكنا نعض السيف منها ... بأسوق عافيات الشحم كوم

﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ يعنى وأبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا : هذه عادة الدهر ، يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء . وقد مس آباؤنا نحو ذلك ، وما هو بابتلاء من الله لعباده ، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب ﴿ فأخذناهم ﴾ أشد الأخذ وأفظعه ، وهو أخذهم فجأة من غير شعور منهم .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

اللام فى القرى : إشارة إلى القرى التى دل عليها قوله (وما أرسلنا فى قرية من نبىّ) كأنه قال : ولو أنّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا ﴿ آمنوا ﴾ بدل كفرهم ﴿ واتقوا ﴾ المعاصى مكان ارتكابها ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ لآتيناهم بالخير من كل وجه . وقيل أراد المطر والنبات ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم ﴾ بسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام فى القرى للجنس . فإن قلت : ما معنى فتح البركات عليهم ؟ قلت : تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها . ومنه قولهم : فتحت على القارئ ، إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليه بالتلقين .

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

البيات يكون بمعنى البيتوتة . يقال : بات بياتاً . ومنه قوله تعالى (فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون) وقد يكون بمعنى التبييت ، كالسلام بمعنى التسليم . يقال : بيته العدو بياتاً ، فيجوز أن يراد : أن يأتيهم بأسنا بائتين ، أو وقت بيات ، أو مبيتاً ، أو مبيتين ، أو يكون بمعنى تبييتاً ، كأنه قيل: أن يبيتهم بأسنا بياتاً . و ﴿ ضحى ﴾ نصب على الظرف . يقال : أتانا ضحى ، وضحيا ، وضحاء

= للبيد بن ربيعة العامرى . يقول : إذا لم يكف در النوق فى قرى الضيف ، كان قراه من شحومها ، فأسند القرى إلى اللبن لأنه آلته أو سببه . وإسناد الضمان إلى نوق الابل مجاز أيضاً ، لأنها محل المضمون . والعملات فى الحقيقة لمالك الابل . والمراد : أنها معدة لذلك إما بلبنها أو شحمها . والعضلة : الحسنة السمينة . والبكر : الفتى من الابل ذكراً أو أنثى . والمعازب المهزول ، من عزب إذا أبعد . والمعزابة والمعزاب : الذى طالت عزوبته وبعده لعدم نسله أو لبعده عن البيوت ، فكأنه بمعنى المباعد فى الأصل ، ثم أريد به المهزول مجازاً . والكزم بالزاى القصر . ومنه كزم ككتف . وأكزم وكزما ، فالكزوم كصبور القصيرة . وقيل المسنة التى قصر مشفرها الأسفل عن الأعلى . أو التى لم يبق لها سن من الهرم . وكزمه أيضا إذا كسره بمقدم فمه . ويجوز أن المعازب بالفتح جمع معزاب أو معزابة ، فيكون البكر مستعملا فى معنى الجمع ، أى لاتترك الوسط السمان من الابل ذاهبين إلى الصغار المهازيل والمسنات البالغات فى الهرم ، ولكنا نجعل السيف يعض منها ، بأسوق جمع ساق مضاف إلى عافيات ، أى كثيرات الشحم لتركها من العمل سنة أو سنتين . والكوم جمع كوماء ، أى عظيمات الأسنمة مرتفعاتها .

والضحى - فى الأصل - اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت . والفاء والواو فى (أفأمن) و ﴿ أو أمن ﴾ حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار . فإن قلت : ما المعطوف عليه ؟ ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو ؟ قلت : المعطوف عليه قوله (فأخذناهم بغتة) وقوله (ولو أن أهل القرى) إلى (يكسبون) وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه . وإنما عطف بالفاء ، لأنّ المعنى : فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى ؟ وقرئ : أو أمن ، على العطف بأو ﴿ وهم يلعبون ﴾ يشتغلون بما لا يجدى عليهم كأنهم يلعبون .

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

فإن قلت . فلم رجع فعطف بالفاء قوله (أفأمنوا مكر الله) ؟ قلت : هو تكرير لقوله (أفأمن أهل القرى) ومكر الله : استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر . ولاستدراجه . فعلى العاقل أن يكون فى خوفه من مكر الله ، كالمحارب الذى يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة . وعن الربيع بن خثيم ، أن ابنته قالت له : مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ، فقال : يا بنتاه ، إنّ أباك يخاف البيات ، أراد قوله (أن يأتيهم بأسنا بياتاً)

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

إذا قرئ ﴿ أولم يهد ﴾ بالياء كان ﴿ أن لو نشاء ﴾ مرفوعاً بأنه فاعله ، بمعنى : أو لم يهد للذين يخلفون ، من خلا قبلهم فى ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن ، وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، كما أصبنا من قبلهم ، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورّثين . وإذا قرئ بالنون ، فهو منصوب كأنه قيل : أو لم يهد الله للوارثين هذا الشأن ، بمعنى : أولم نبين لهم أنا ﴿ لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ كما أصبنا من قبلهم . وإنما عدّى فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين . فإن قلت : بم تعلق قوله تعالى ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾[1] ؟ قلت : فيه أوجه ، أن يكون معطوفا على مادلّ عليه

(١) قال محمود : «إن قلت بم يتعلق قوله (ونطبع على قلوبهم) ... الخ» قال أحمد : بل يجوز والله عطفه عليه ، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع ، ولا يضرهم إن كانوا كفارا أو مقترفين للذنوب ، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنب ولابد ، إذ الطبع هو التمادى على الكفر والاصرار والغلو فى التصميم ، حتى يكون الموصوف به مأيوسا من قبوله الحق . ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة . بل إن الكافر يهدد من تماديه على كفرهم بأن يطبع الله على قلبه ، فلا يؤمن أبداً ، وهو مقتضى العطف على أصبناهم ، فتكون الآية قد هددتهم بأمرين ، أحدهما : الاصابة ببعض ذنوبهم ، والآخر الطبع على قلوبهم . وهذا الثانى أشد من الأول ، وهو أيضا نوع من الاصابة ـــ

معنى (أو لم يهد) كأنه قيل : يغفلون عن الهداية ، ونطبع على قلوبهم . أو على يرثون الأرض أو يكون منقطعاً بمعنى : ونحن نطبع على قلوبهم . فإن قلت : هل يجوز أن يكون (ونطبع) بمعنى وطبعنا ، كما (لو نشاء) بمعنى : لو شئنا ، ويعطف على أصبناهم ؟ قلت : لا يساعد عليه المعنى ؟ لأن القوم كانوا مطبوعا على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها . وهذا التفسير يؤدى إلى خلوهم عن هذه الصفة ، وأن الله تعالى لو شاء لا تصفوا بها

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)

﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ كقوله (هذا بعلى شيخا) فى أنه مبتدأ وخبر وحال ويجوز أن يكون (القرى) صفة لتلك و(نقص) خبرا ، وأن يكون (القرى نقص) خبرا بعد خبر . فإن قلت : مامعنى (تلك القرى) حتى يكون كلاما مفيدا ؟ قلت : هو مفيد ، ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة فى قولك : هو الرجل الكريم . فإن قلت : مامعنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها ؟ قلت : معناه أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولا حين جاءتهم الرسل ، أى استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين ، لا يرعوون ولا تلين شكيمتهم فى كفرهم وعنادهم مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات . ومعنى اللام تأكيد النفى وأن الإيمان كان منافياً لحالهم فى التصميم على الكفر . وعن مجاهد : هو كقوله (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) . ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين .

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)

= بالذنوب أو العقوبة عليها ، ولكنه أنكى أنواع العذاب وأبلغ صنوف العقاب . وكثيرا مايعاقب الله على الذنب بالايقاع فى ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه ، كما قال تعالى : (فزادتهم رجسا إلى رجسهم) كما زادت المؤمنين إيمانا إلى إيمانهم . وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سببا فيه وجزاء عليه ، فثواب الايمان إيمان وثواب الكفر كفر . وإنما الزمخشرى يحاذر من هذا الوجه دخول الطبع فى مشيئة الله تعالى . وذلك عنده محال ؛ لأنه قبيح والله عنه متعال ، وأنى يتم الفرار من الحق . وكم من آية صرحت بوقوع الطبع من الله ، فضلا عن تعلق المشيئة به .

﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ الضمير للناس على الإطلاق ، أى وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعنى أنّ أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه فى الإيمان والتقوى ﴿ وإن وجدنا ﴾ وإنّ الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين ، خارجين عن الطاعة مارقين . والآية اعتراض . ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين ، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله فى ضرّ ومخافة ، لئن أنجيتنا لنؤمننّ ، ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام : لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك ، إلى قوله (إذاهم ينكثون) والوجود بمعنى العلم من قولك : وجدت زيداً ذا الحفاظ ، بدليل دخول « إن » المخففة واللام الفارقة . ولا يسوغ ذلك إلا فى المبتدإ والخبر . والأفعال الداخلة عليهما .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَـٰتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ ﴿١٠٥﴾

﴿ من بعدهم ﴾ الضمير للرسل فى قوله (ولقد جاءتهم رسلهم) أو للأمم ﴿ فظلموا ﴾ فكفروا بآياتنا . أجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من واد واحد (إنّ الشرك لظلم عظيم) أو فظلموا الناس بسببها حين أوعدوهم وصدّوهم عنها ، وآذوا من آمن بها ، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً ، فلذلك قيل : فظلموا بها ، أى كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه ، وهو موضع الإيمان . يقال لملوك مصر : الفراعنة ، كما يقال لملوك فارس الأكاسرة ، فكأنه قال : يا ملك مصر وكان اسمه قابوس . وقيل : الوليد بن مصعب بن الريان ﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ فيه أربع قراآت ، المشهورة : وحقيق علىّ أن لا أقول[1] ، وهى قراءة نافع وحقيق أن لا أقول

---

(١) قال محمود : « فيه أربع قراءات ، المشهورة : وحقيق علىّ أن لا أقول ... الخ » قال أحمد : القلب يستعمل فى اللغة على وجهين ، أحدهما : قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله :

* وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر *

وكقوله : قد صرح السير عن كتمان وابتذلت   وضع المحاجن بالمهرية الدقن

فالحقيقة أن الضياطرة تشقى بالرماح ، والمهرية تبتذل بالمحاجن ، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أن الرماح قد تنفصل وتتقصف فى أجوافهم ، فعبر عن ذلك بالشقاء ، وأن المحاجن كثيرا ما ترفع وتوضع وتستعمل فى ضرب المهرية ، وربما تمزقت عن ذلك لجعل ذلك ابتذالا لها ، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً فى أمثال قوله :

والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به   وللسيوف كما للناس آجال ==

وهى قراءة عبد الله وحقيق بأن لا أقول وهى قراءة أبىّ وفى المشهورة إشكال ، ولا تخلو من وجوه ، أحدها : أن تكون مما يقلب من الكلام لأمن الإلباس ، كقوله :

* وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ * (١)

ومعناه : وتشقى الضياطرة بالرماح ، وحقيق علىّ أن لا أقول ، وهى قراءة نافع . والثانى : أنّ ما لزمك فقد لزمته ، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق ، أى لازماً له . والثالث : أن يضمن (حقيق) معنى حريص ، كما ضمن « هيجنى » معنى ذكرنى فى بيت الكتاب . والرابع ـ وهو الأوجه ـ الأدخل فى نكت القرآن : أن يعرق موسى(٢) فى وصف نفسه بالصدق فى ذلك المقام لاسيما وقد روى أنّ عدو الله فرعون قال له ـ لما قال (إنى رسول من رب العالمين)

ـــــ والمراد بشقاء السيف : انقطاعه فى أضلاع المضروب ، كما صرح بذلك فى قوله :

طوال الردينيات يقصفها دمى ... وبيض السريجيات يقطعها لحمى

الوجه الثانى : قلب معرى عن هذا المعنى البليغ ، ولذلك لايستفصح ، كقولهم : خرق الثوب المسمار وأشباهه ، وعلى الوجه الأول الأفصح جاءت الآية على هذه القراءة ، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشرى ، وفى طيه من المبالغة مانبهت عليه . وأما الوجه الثانى وهو «أن مالزمك فقد لزمته» ففيه نظر من حيث أن اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر ، ولزوم موسى عليه السلام لقول الحق من هذا النمط . وأما الوجه الثالث فلا يلائم بين القراءتين ، وقد ذكر لها وجه خامس : وهو أن يكون «على» بمعنى الباء ، ونقل « رميت على القوس » بمعنى رميت بالقوس ، وهو وجه حسن ملائم ، والله أعلم . ويشهد له قراءة أبى : حقيق بأن لا أقول .

(١) كذبتم وبيت الله حين تعالجوا ... قوادم حرب لاتلين ولا تمرى
نزلت بخيل لاهوادة بينها ... وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

لخداش بن زهير ، يقول لقومه : كذبتم وحق بيت الله : فى دعواكم إمكان الصلح ، وهذا يعلم ضمنا من قوله «حين تعالجوا» ، أو استعار الكذب للخطأ فى الظن أو الرأى ، أى أخطأتم فى عارستكم الجماعات القادمات الحرب لأجل الصلح . ويشبه أن يكون قوله «تعالجوا» محرفا ، وأصله بالصاد والحاء بدل العين والجيم ، وعلى كل لحذف نونه للوزن أو للتخفيف ، و« لاتلين » صفة قوادم . وأمرت الناقة : در لبنها . شبه الرضاء بالصلح بأمر الناقة . على طريق التصريح ، ثم نفاه وبين ذلك بقوله « نزلت بخيل » أى فى أصحاب خيل . ويحتمل أن الخيل مجاز عن الفرسان ، أو كناية عنهم . وروى « وتلحق خيل » فهو عطف على «لاتلين» أى : وتسرع خيل منها . والهوادة : الصلح والبقية من القوم يرجى بها صلاحهم ، والمعنى أنهم لايرجى صلحهم . وتشقى : أى تتعب الرماح بسبب الضياطرة ، وهو من باب القلب لا من اللبس . والمعنى : وتشقى الضياطرة بالرماح . والضيطر : الضخم الجبان . وقياس جمعه ضياطير ، إلا أنه عوض الهاء من الياء . والحمر عند العرب : كناية عن العجم . لأنها تصف الحسن بالأخضر ، والقبيح بالأحمر . والمعنى : تتعب ضياطرتهم من حمل رماحهم . ويجوز أن المراد من طعن رماحنا . ويحتمل أن لا قلب ، وأنه بالغ فى ضخمهم ، حتى كأن الرماح تتعب من طعنهم ، لكن الأول هو المنقول . والمعنى : لانصالحوهم بل نحاربهم .

(٢) قوله « أن يعرق موسى» لعله : يغرق بالمعجمة . وفى الصحاح . أغرق النازع فى القوس ، أى استوفى مدها . (ع)

كذبت، فيقول : أنا حقيق على قول الحق أى واجب علىّ قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به، ولا يرضى إلا بمثلى ناطقاً به ﴿ فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ فخلهم حتى يذهبوا معى راجعين إلى الأرض المقدّسة التى هى وطنهم ومولد آبائهم. وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفى وانقرضت الأسباط، غلب فرعون نسلهم واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذى دخل يوسف مصر واليوم الذى دخله موسى أربعمائة عام

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)

فإن قلت : كيف قال له ﴿ فأت بها ﴾ بعد قوله (إن كنت جئت بآية)؟ قلت : معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأتنى بها وأحضرها عندى لتصح دعواك ويثبت صدقك ﴿ ثعبان مبين ﴾ ظاهر أمره لايشك فى أنه ثعبان. وروى أنه كان ثعبانا ذكراً أشعر فاغراً فاه[1] بين لحييه ثمانون ذراعا، وضع لحيه الأسفل فى الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً، ودخل فرعون البيت وصاح : ياموسى، خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل؛ فأخذه موسى فعاد عصى. فإن قلت : بم يتعلق ﴿ للناظرين ﴾؟ قلت يتعلق ببيضاء. والمعنى : فإذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجا عن العادة، يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ماروى أنه أرى فرعون يده وقال : ماهذه؟ قال : يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها، فإذا هى بيضاء بياضاً نورانيا غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)

---

(١) قوله «فاغراً فاه» أى فاتحا فاه. (ع)

﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه، حتى خيل إليهم العصى حية، والآدم أبيض. فإن قلت قد عزى هذا الكلام إلى فرعون فى سورة الشعراء، وأنه قاله للملإ وعزى ههنا إليهم. قلت: قد قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا. أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم. أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك: يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه من الخاصة، ثم تبلغه الخاصة العامة. والدليل عليه أنهم أجابوه فى قولهم ﴿أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم﴾ وقرئ سحار، أى يأتوك بكل ساحر مثله فى العلم والمهارة. أو بخير منه. وكانت هذه مؤامرة مع القبط. وقولهم (فماذا تأمرون) من أمرته فأمرنى بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأى. وقيل: فماذا تأمرون؟ من كلام فرعون، قاله للملأ لما قالوا له: إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم. كأنه قيل: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه، ومعنى أرجئه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما. وقيل: احبسهما. وقرئ: أرجئه، بالهمزة. وأرجه، من أرجأه وأرجاه.

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

فإن قلت: هلا قيل: وجاء السحرة فرعون فقالوا؟ قلت: هو على تقدير سائل سأل: ماقالوا إذ جاؤه؟ فأجيب بقوله ﴿قالوا أإن لنا لأجراً﴾ أى جعلا على الغلبة: وقرئ: إن لنا لأجراً، على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه: كأنهم قالوا: لابد لنا من أجر. والتنكير للتعظيم، كقول العرب: إن له لإبلا، وإن له لغنما، يقصدون الكثرة. فإن قلت: ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ ماالذى عطف عليه؟ قلت: هو معطوف على محذوف سد مسده حرف الإيجاب، كأنه قال إيجابا لقولهم: إن لنا لأجراً: نعم إن لكم لأجراً، وإنكم لمن المقربين، أراد: إنى لأقتصر بكم على الثواب وحده، وإن لكم مع الثواب مايقل معه الثواب، وهو التقريب والتعظيم، لأن المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة. وروى أنه قال لهم: تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج. وروى أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ماصنعتم؟ قالوا قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض، إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به. وروى أنهم كانوا ثمانين ألفاً. وقيل: سبعين ألفاً وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً. واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر. وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى. وقيل: قال فرعون: لا نغالب موسى إلا بما هو منه، يعنى السحر.

قَالُوا يَـٰمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين ، قبل أن يتخاوضوا فى الجدال ، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع . وقولهم ﴿وإمّا أن نكون نحن الملقين﴾ فيه مايدل على رغبتهم فى أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر ، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل ، وقد سوّغ لهم موسى ماتراغبوا فيه ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم . وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوى . وأنّ المعجزة لن يغلبها سحر أبداً ﴿سحروا أعين الناس﴾ أروها بالحيل والشعوذة [١] وخيلوا إليها ماالحقيقة بخلافه ، كقوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) . روى أنهم ألقوا حبالا غلاظاً وخشبا طوالا ، فإذا هى أمثال الحيات ، قد ملأت الأرض وركب بعضها بعضا ﴿واسترهبوهم﴾ وأرهبوهم إرهابا شديداً ، كأنهم استدعوا رهبتهم ﴿بسحر عظيم﴾ فى باب السحر . روى أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها مايوهم الحركة . قيل : جعلوا فيها الزئبق ﴿مايأفكون﴾ ماموصولة

(١) قال محمود : «معناه أروها بالحيل والشعوذة ... الخ» قال أحمد : معتقد المعتزلة إنكار وجود السحر والشياطين والجن فى خبط طويل لهم . ومعتقد أهل السنة إقرارها الظواهر على ما هي عليه ، لأن العقل لا يحيل وجود ذلك . وقد ورد السمع بوقوعه ، فوجب الاقرار بوجوده ، ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر فى الهواء ، ويستدق فيتولج فى الكوة الضيقة ، ولا يمتنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر ما يستأثر الاقتدار عليه ، وذلك واقع بقدرة الله تعالى عند إرشاد الساحر . هذا هو الحق والمعتقد الصدق ، وإنما أجريت هذا الفصل لأن كلام الزمخشرى لايخلو من رمز إلى إنكاره ، إلا أن هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن التصريح بالدفاع وكشف القناع ، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس عما فى نفسه ، فيسميه شعوذة وحيلة . وبالقطع يعلم أن الشعوذة لاتعلم فى يد ابن عمر رضى الله عنه حتى بكوعها ، ولا تؤثر فى سيد البشر حتى يخيل اليه أنه يأتى نساءه وهو لا يأتيهن . وقد ورد ذلك وأمثاله مستفيضا واقعا ، فالعمدة أن كل واقع فبقدرة الله تعالى ، فلا يمتنع أن يوقع تعالى بقدرته عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء ويهدى من يشاء ، والله الموفق .

أو مصدرية ، بمعنى : ما يأفكونه أى يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوّرونه . أو إفكهم ، تسمية للمأفوك بالإفك ، روى أنها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصى كما كانت ، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرّقها أجزاء لطيفة قالت للسحرة : لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ﴿فوقع الحق﴾ فحصل وثبت . ومن بدع التفاسير : فوقع قلوبهم ، أى فأثر فيها من قولهم . قاس وقيع ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ وصاروا أذلاء مبهوتين ﴿وألقى السحرة﴾ وخرّوا سجدا : كأنما ألقاهم ملق لشدّة خرورهم . وقيل : لم يتمالكوا مما رأوا ، فكأنهم ألقوا . وعن قتادة : كانوا أول النهار كفاراً سحرة ، وفى آخره شهداء بررة . وعن الحسن . تراه ولد فى الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا ، وهؤلاء كفار نشأوا فى الكفر ، بذلوا أنفسهم لله .

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)

﴿آمنتم به﴾ على الإخبار ، أى فعلتم هذا الفعل الشنيع ، توبيخا لهم وتقريعاً . وقرئ : أآمنتم ، بحرف الاستفهام ، ومعناه الإنكار والاستبعاد ﴿إنّ هذا لمكر مكرتموه فى المدينة﴾ إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى فى مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم ، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بنى إسرائيل ، وكان هذا الكلام من فرعون تمويها على الناس لئلا يتبعوا السحرة فى الإيمان . وروى أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر : أتؤمن بى إن غلبتك ؟ قال لآتين بسحر لا يغلبه سحر . وإن غلبتنى لأومنن بك ، وفرعون يسمع ، فلذلك قال ما قال ﴿فسوف تعلمون﴾ وعيد أجمله ثم فصله بقوله ﴿لأقطعنّ﴾ وقرئ لأقطعن بالتخفيف . وكذلك (ثم لأصلبنكم) ﴿من خلاف﴾ من كل شق طرفا . وقيل : إن أوّل من قطع من خلاف وصلب لفرعون .

قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ فيه أوجه ، أن يريدوا : إنا لا نبالى بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك . أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد

القطع والصلب ، أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا . أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله ، فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله . أرادوا : وما تعيب منا إلا ماهو أصل المناقب والمفاخر كلها ، وهو الإيمان . ومنه قوله :

* وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ * (١)

﴿أفرغ علينا صبراً﴾ هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا ، حتى يفيض علينا ويغمرنا ، كما يفرغ الماء فراغا . وعن بعض السلف : إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنوباً ثم يقول : قدمازحتك ، أي يغمره بالحياء والخجل . أو صب علينا مايطهرنا من أوضار الآثام ، وهو الصبر على ماتوعدنا به فرعون ، لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم ﴿وتوفنا مسلمين﴾ ثابتين على الإسلام .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿ويذرك﴾ عطف على (يفسدوا) لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم ، وكان ذلك مؤدّيا إلى ما دعوه فساداً وإلى تركه وترك آلهته ، فكأنه تركهم لذلك . أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء ، نحو قول الحطيئة :

أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ وَيَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ (٢)

والنصب بإضمار «أن» تقديره : أيكون منك ترك موسى ، ويكون تركه إياك وآلهتك . وقرئ : ويذرك وآلهتك بالرفع عطفا على أتذر موسى ، بمعنى : أتذره وأيذرك ، يعني : تطلق له ذلك . أو يكون مستأنفا أو حالا على معنى : أتذره وهو يذرك وآلهتك . وقرأ الحسن : ويذرك بالجزم ،

(١) على عرفات للطعان عوابس بهن كلوم بين دام وجالب
إذا استنزلوا للطعن عنهن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

للنابغة الذبياني يصف فرسانا على أفراس عارفات صابرات عوابس كوالح ، فبهن جروح رطبة بالدم ، وأخر يابسة ، عليها جلبة ، أي قشرة . وإذا التحم القتال واقتضى الحال نزولهم عن الخيل ، أسرعوا نازلين عنهن باذلين أعمارهم ، كإسراع الجمال المصاعب ، جمع مصعب . تقول : أصعبت الجمل إذا تركته عن العمل حتى صار صعبا شديدا . والفلول انثلامات في حد السيف . والقراع : المضاربة . والكتائب : الجماعات ، والبيت من استتباع المدح بما يشبه الذم ، أي إن كانت فلول السيف من ذلك عيباً ، فأثبته ، وهي ليست عيبا فلا عيب فيهم قط ، وهو مبالغة في المدح .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٥٧٨ فراجعه إن شئت اهـ مصححه

كأنه قيل : يفسدوا ، كما قرئ (وأكن من الصالحين) كأنه قيل : أصدّق . وقرأ أنس رضى الله عنه : ونذرك ، بالنون والنصب ، أى يصرفنا عن عبادتك فنذرها . وقرئ : ويذرك وإلاهتك ، أى عبادتك . وروى أنهم قالوا له ذلك ، لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس ، فأرادوا بالفساد فى الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك ، وقيل : صنع فرعون لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ، ويقولون : ليقربونا إلى الله زلفى ، ولذلك قال : أنا ربكم الأعلى ﴿سنقتل أبناءهم﴾ يعنى سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء ، ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر ، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا ، وأن غلبة موسى لا أثر لها فى ملكنا واستيلائنا ، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذى أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده ، فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه ، وأنه منتظر بعد .

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَاجِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله﴾ قال لهم ذلك ـ حين قال فرعون : سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا ـ يسكنهم ويسليهم ، ويعدهم النصرة عليهم ، ويذكر لهم ماوعد الله بنى إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم . فإن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على التى قبلها ؟ قلت : هى جملة مبتدأة مستأنفة . وأمّا (وقال الملأ) فمعطوفة على ما سبقها من قوله (قال الملأ من قوم فرعون) وقوله ﴿إن الأرض لله﴾ يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة ، كقوله (وأورثنا الأرض) وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر لأنها من جنس الأرض ، كما قال ضمرة : إنما المرء بأصغريه ، فأراد بالمرء الجنس ، وغرضه أن يتناوله تناولا أوليا ﴿والعاقبة للمتقين﴾ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط ، وأن المشيئة متناولة لهم . وقرأ (والعاقبة للمتقين) بالنصب : أبىّ وابن مسعود ، عطفا على الأرض .

﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا﴾ يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبئ ، وإعادته عليهم بعد ذلك ، وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع

الخدم والمهن ويمسون به من العذاب ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل . وكشف عنه ، وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده فى أرض مصر ﴿فينظر كيف تعملون﴾ فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم . وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان ، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد ، فقرأ عمرو هذه الآية ، ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال : قد بقى فينظر كيف تعملون .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿بالسنين﴾ بسنى القحط . و«السنة» من الأسماء الغالبة كالدابة والنجم ونحو ذلك ، وقد اشتقوا منها فقالوا : أسنت القوم ، بمعنى أقحطوا . وقال ابن عباس رضى الله عنه : أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم . وأمّا نقص الثمرات فكان فى أمصارهم . وعن كعب : يأتى على الناس زمان لاتحمل النخلة إلا تمرة ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر [1] وتكذيبهم لآيات الله ، ولأن الناس فى حال الشدّة أضرع خدودا وألين أعطافا وأرق أفئدة . وقيل : عاش فرعون أربعمائة سنة ولم ير مكروها فى ثلثمائة وعشرين سنة . ولو أصابه فى تلك المدّة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية .

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ من الخصب والرخاء ﴿قالوا لنا هذه﴾ أى هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل فى النعمة والرفاهية ، واللام مثلها فى قولك . الجل للفرس ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ من ضيقة وجدب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ يتطيروا بهم ويتشاءموا ويقولوا : هذه بشؤمهم ، ولولا مكانهم لما أصابتنا ، كما قالت الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه من عندك . فإن قلت : كيف قيل : فإذا جاءتهم الحسنة بإذا وتعريف الحسنة [2] ، وإن تصبهم

---

(١) قال محمود : « معنى لعلهم يذكرون : يتنبهون لأن ذلك كان لاصرارهم ... الخ » قال أحمد : دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة . وأما دعوى اختصاصها بهم حتى لا يشركهم فيها أحد فدل عليه تقدير الخبر الذى هو لنا ، وقد علمت طريقة المصنف فى إسناده الحصر من تقديم ماحقه أن يؤخر كالمفعول والخبر ونحوه .

(٢) عاد كلامه . قال : فان قلت : «كيف قيل فاذا جاءتهم الحسنة ... الخ» قال أحمد : وقد ورد : (إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) فلم يراع فرق ما بينهما ، ولعل بين سياق الآيتين اختلافا أوجب فى كل واحد منهما ما ذكر فيه .

سيئة بأن وتنكير السيئة ؟ قلت : لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه . وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ، ولا يقع إلا شيء منها . ومنه قول بعضهم : قد عددت أيام البلاء، فهل عددت أيام الرخاء ﴿ طائرهم عند الله ﴾ أي سبب خيرهم وشرهم عند الله ، وهو حكمه ومشيئته ، والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه ، كقوله تعالى (قل كل من عند الله) ويجوز أن يكون معناه : ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله ، ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه (النار يعرضون عليها) الآية . ولا طائر أشأم من هذا . وقرأ الحسن : إنما طيركم عند الله ، وهو اسم لجمع طائر غير تكسير ، ونظيره : التجر ، والركب . وعند أبي الحسن : هو تكسير .

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

﴿ مهما ﴾ هي « ما » المضمنة معنى الجزاء [1] ، ضمت إليها « ما » المزيدة المؤكدة للجزاء في

---

(١) قال محمود : « مهما هي « ما » المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها « ما » المزيدة المؤكدة للجزاء ... الخ » قال أحمد : والذي عده أولا من كلام سيبويه ، وسنذكره : قال سيبويه : وسألت الخليل عن مهما فقال : هي « ما » أدخلت معها « ما » ، بلغو بمنزلتها مع متى ، إذا قلت : متى ما تأتني حدثتك . انتهى كلام سيبويه . وكأن هذا القائل ـ والله أعلم ـ اغتر بتشبيه الخليل لها بمتى ما ، فظنها في معناها . وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما في لحاقها زائدة مؤكدة للأولى بما اللاحقة لمتى . عاد كلام سيبويه قال : ولكنهم استقبحوا تكرير لفظ واحد ، فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل . قال سيبويه : ويجوز أن تكون كاذ ضمت اليها ما انتهى كلامه . قال أحمد : ومعنى تشبيه سيبويه لها باذما أن الجزاء بجملة الكلمة لا بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل . والذي يحقق ذلك أن سيبويه قال أول هذا الباب : وأما « حيث » و « إذ » فلا يجازى بهما حتى يضم اليهما ما ، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما وكأنما ، وليست ما فيهما بلغو ، ولكن كل واحدة منهما مع ما بمنزلة حرف واحد ، فانظر قوله : وليست ما فيهما بلغو ، يعني ليست زائدة مؤكدة ، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزاء حتى لا يفيده إلا اجتماع جزئي الكلمة ويبقى وراء ذلك نظر في أن سيبويه هل أراد أن « ما » ضمت إلى « مه » التي هي الصوت ، أو إلى « ما » الجزائية . والظاهر من مراده أن انضمامها إلى الصوت ، لأنها لو كانت منضمة إلى « ما » الجزائية ، لكانت مستقلة بإفادة الجزاء قبل انضمام « ما » إليها ، ولا تكون مثل إذا وحيث ، ولا يكون تنظير سيبويه مطابقا . وهذا الذي فهمه ابن طاهر وتبعه فيه تلميذه ابن خروف . وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه ، ورد قول ابن بابشاذ أن هذا المذهب للخليل خاصة ، وقد تواطأ ابن بابشاذ والزمخشري على نفي هذا المذهب عن سيبويه ، وإعزائه إلى غيره . وأظهر ما قوى به مذهب الخليل ـ والله أعلم ـ أن هذه الكلمة استعملت في الاستفهام حسب استعمالها في الجزاء وأنشدوا :

مهما لي الليلة مهما ليه 　　 أودى بنعلي وسرباليه

=

قولك : متى ماتخرج أخرج ، (أينما تكونوا يدرككم الموت) ، (فإما نذهبن بك) إلا أن الألف قلبت هاء استثقالا لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصرى . ومن الناس من زعم أن « مه » هى الصوت الذى يصوت به الكاف ، و « ما » للجزاء ، كأنه قيل : كف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فإن قلت : ما محل مهما ؟ قلت : الرفع بمعنى : أيما شىء تأتنا به . أو النصب ، بمعنى . أيما شىء تحضرنا [1] تأتنا به . ومن آية : تبيين لمهما . والضميران فى (به) و (بها) راجعان إلى مهما ، إلا أن أحدهما ذكر على اللفظ ، والثانى أنث على المعنى، لأنه فى معنى الآية . ونحوه قول زهير :

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ [2]

وهذه الكلمة فى عداد الكلمات التى يحرفها من لا يد له فى علم العربية ، فيضعها غير موضعها ، ويحسب مهما بمعنى متى ما ، ويقول مهما جئتنى أعطيتك، وهذا من وضعه ، وليس من كلام واضع العربية فى شىء ، ثم يذهب فيفسر (مهما تأتنا به من آية) بمعنى الوقت ، فيلحد فى آيات الله وهو لا يشعر ، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين يدى الناظر فى كتاب سيبويه . فإن قلت : كيف سموها آية ، ثم قالوا لتسحرنا بها ؟ قلت : ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية ، وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى ، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهى ﴿ الطوفان ﴾ ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل . قيل : طغى الماء فوق حروثهم ، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة، لا يرون

= أراد : مالى الليلة ، ولا إشكال ههنا أنها « ما » الاستفهامية كررت تأكيداً ، كما يقولون : لا لا ، ونعم نعم ، ثم استكره تكرار اللفظ بعينه ، فقلبت ألف الأولى هاء . وقد جاء قلب الاستفهامية وإن لم يكن تكرار ، فهو معه أجدر . وإذا وضح أن « مهما » الواقعة فى الاستفهام أصلها « ما » مكررة ، كان ذلك أوضح دليل على أن الواقعة فى الجزاء كذلك ، والاستشهاد بالنظائر أميز حجج العربية ، والله أعلم . وأما رد الزمخشرى على من زعم أنها بمعنى « متى ما » فرد صحيح ، والآية أصدق شاهد على رده ، فان الضمير المجرور فيها عائد إلى مهما حتما ، وقد اتصل به مفسراً له قوله (من آية) دل على أن الضمير واقع على الآية ، فلزم وقوع « مهما » عليها ضرورة إيجاد المرجع فى المضمر ومظهره ، فذهاب هذا القائل إلى إيقاع « مهما » على الوقت زاعما أنها بمعنى « متى ما » ذهاب عن الصواب . وعذر الزمخشرى واضح فى الرد على تسجيله وإغلاظ النكير عليه ، وتفويق سهام التشنيع إليه . فتأمل هذا الفصل ، ففيه إنارة للسبيل ، وشفاء للغليل ، والله الموفق .

(١) قوله « أيما شىء تحضرنا » لعله تحضر فقط . (ع)

(٢) لزهير بن أبى سلمى من معلقته . ومهما : اسم شرط بمعنى أى شىء على المختار ، فلذلك يعود عليه الضمير ، ثم إن كان المراد به مؤنثا كما هنا ، فتارة يعود عليه الضمير مذكراً باعتبار اللفظ كما فى قوله « يكن » ، وتارة مؤنثا باعتبار المعنى كما فى قوله « وإن خالها » ، ولم يجعل هذا عائداً على الخليقة ، لأن « مهما » هو المحدث عنه ، و « من خليقة » بيان له . ولما بين بالمؤنث حسن تأنيث ضميره بعد بيانه . يقول : أى طبيعة وسجية تكون فى الانسان تعلم للناس بأماراتها ، وإن ظنها خافية عليهم .

شمساً ولا قمراً ، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره . وقيل أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون ، وبيوت بنى اسرائيل وبيوت القبط مشتبكة ، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا فى الماء إلى تراقيهم ، فمن جلس غرق ، ولم تدخل بيوت بنى إسرائيل قطرة ، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف ، ودام عليهم سبعة أيام . وعن أبى قلابة : الطوفان الجدرى ، وهو أوّل عذاب وقع فيهم ، فبقى فى الأرض . وقيل : هو الموتان[1] وقيل: الطاعون ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك ، فدعا فرفع عنهم ، فما آمنوا ، فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله ، فأقاموا شهراً ، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم ، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل منها شيء ، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة ، فكشف عنهم بعد سبعة أيام : خرج موسى عليه السلام إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب ، فرجع الجراد إلى النواحى التى جاء منها ، فقالوا : ما نحن بتاركى ديننا . فأقاموا شهراً ، فسلط الله عليهم القمل وهو الحنان فى قول أبى عبيدة كبار القردان . وقيل : الدبا وهو أولاد الجراد . قيل : نبات أجنحتها . وقيل : البراغيث . وعن سعيد بن جبير : السوس ، فأكل ما أبقاه الجراد ، ولحس الأرض ، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه ، وكان يأكل أحدهم طعاماً فيمتلئ قملا ، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا يسيرا . وعن سعيد ابن جبير . أنه كان إلى جنبهم كثيب أعفر ، فضربه موسى بعصاه فصار قملا ، فأخذت فى أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ، ولزم جلودهم كأنه الجدرى ، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم ، فقالوا : قد تحققنا الآن أنك ساحر ، وعزة فرعون لا نصدقك أبداً ، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع ، فدخلت بيوتهم وامتلأت منها آنيتهم وأطعمتهم ، ولا يكشف أحد شيئا من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع ، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه ، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد ، وكانت تقذف بأنفسها فى القدور وهى تغلى ، وفى التنانير وهى تفور ، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة ، فما بقى إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود ، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم ، ثم نقضوا العهد ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً ، فشكوا إلى فرعون فقال: إنه سحركم فكان يجمع بين القبطى والاسرائيلى على إناء واحد ، فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء

(١) قوله «وقيل هو الموتان» فى الصحاح : الموتان ـ بالضم : موت يقع فى الماشية . وفيه أيضا : الطاعون الموت الوحى من الوباء . وفيه . الوحى ، على فعيل : السريع . (ع)

وما يلى القبطى دماً ، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطى الدم وللإسرائيلى الماء ، حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية : اجعلى الماء فى فيك ثم مجيه فى فىّ ، فيصير الماء فى فيها دماً . وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك ، فكان يمص الأشجار الرطبة ، فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاجا . وعن سعيد بن المسيب : سال عليهم النيل دما . وقيل: سلط الله عليهم الرعاف وروى أنّ موسى عليه السلام مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات ، وروى أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال : يارب ، إنّ عبدك هذا قد علا فى الأرض فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة ، ولقومى عظة ، ولمن بعدى آية . فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان ، ثم الجراد ، ثم مابعده من النقم . وقرأ الحسن : والقمل ، بفتح القاف وسكون الميم ، يريد القمل المعروف ﴿ آيات مفصلات ﴾ نصب على الحال . ومعنى مفصلات : مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التى لا يقدر عليها غيره ، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم . أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم ، وينظر أيستقيمون على ماوعدوا من أنفسهم ، أم ينكثون إلزاماً للحجة عليهم ؟

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

﴿ بما عهد عندك ﴾ ما مصدرية . والمعنى بعهده عندك وهو النبوّة والباء إمّا أن تتعلق بقوله ﴿ ادع لنا ربك ﴾ على وجهين : أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوّة . أو ادع الله لنا متوسلا إليه بعهده عندك . وإمّا أن يكون قسما مجاباً بلنؤمنن ، أى أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك ﴿ إلى أجل هم بالغوه ﴾ إلى حدّ من الزمن هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ جواب لما ، يعنى : فلما كشفناه عنهم فاجؤا النكث وبادروا لم يؤخروه ولكن كما كشف عنهم نكثوا ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ فأردنا الانتقام منهم ﴿ فأغرقناهم ﴾ . واليم : البحر الذى لا يدرك قعره . وقيل : هو لجة البحر ومعظم مائه ، واشتقاقه من التيمم ، لأن المستنفعين به يقصدونه ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها .

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

﴿القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ هم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والأرض: أرض مصر والشام ، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتصرفوا كيف شاؤا فى أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية ﴿باركنا فيها﴾ بالخصب وسعة الأرزاق ﴿كلمت ربك الحسنى﴾ قوله (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) إلى قوله (ما كانوا يحذرون) والحسنى : تأنيث الأحسن صفة للكلمة . ومعنى تمت على بنى إسرائيل : مضت عليهم واستمرت من قولك : تمّ على الأمر إذا مضى عليه ﴿بما صبروا﴾ بسبب صبرهم ، وحسبك به حاثاً على الصبر ، ودالا على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه ، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن الله له الفرج . وعن الحسن : عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله . وتلا الآية . ومعنى خف : طاش جزعا وقلة صبر ، ولم يرزن رزانة أولى الصبر . وقرأ عاصم فى رواية : وتمت كلمات ربك الحسنى . ونظيره (من آيات ربه الكبرى). ﴿ماكان يصنع فرعون وقومه﴾ ماكانوا يعملون ويسوون من العمارات وبناء القصور ﴿وما كانوا يعرشون﴾ من الجنات (هو الذى أنشأ جنات معروشات) أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة فى السماء . كصرح هامان وغيره . وقرئ : يعرشون ، بالكسر والضم . وذكر اليزيدى أن الكسر أفصح . وبلغنى أنه قرأ بعض الناس . يغرسون ، من غرس الأشجار . وما أحسبه إلا تصحيفا منه .

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)

وهذا آخر ما اختصّ الله من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل وما أحدثوه ـ بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستعباده ، ومعاينتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر ـ من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك

من أنواع الكفر والمعاصى ، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه ظلوم كفار جهول كنود ، إلا من عصمه الله (وقليل من عبادى الشكور) وليسلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما رأى من بنى إسرائيل بالمدينة . وروى أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وقومه ، فصاموه شكراً لله تعالى ﴿فأتوا على قوم﴾ فمروا عليهم ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ يواظبون على عبادتها ويلازمونها . قال ابن جريج : كانت تماثيل بقر : وذلك أوّل شأن العجل وقيل : كانوا قوماً من لخم . وقيل : كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم وقرئ : وجوّزنا ، بمعنى أجزنا . يقال : أجاز المكان وجوزه وجاوزه بمعنى جازه ، كقولك : أعلاه وعلاه وعالاه . وقرئ : يعكفون ، بضم الكاف وكسرها ﴿اجعل لنا إلهاً﴾ صنما نعكف عليه ﴿كما لهم آلهة﴾ أصنام يعكفون عليها . وما، كافة للكاف ، ولذلك وقعت الجملة بعدها وعن على رضى الله عنه أنّ يهوديا قال له : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجفّ ماؤه . فقال : قلتم اجعل لنا إلها قبل أن تجفّ أقدامكم ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى ، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده ، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع ﴿إن هؤلاء﴾ يعنى عبدة تلك التماثيل ﴿متبر ما هم فيه﴾ مدمر مكسر ما هم فيه ، من قولهم إناء متبر ، إذا كان فضاضا [1] . ويقال لكسار الذهب : التبر ، أى يتبر الله ويهدم دينهم الذى هم عليه على يدىّ ، ويحطم أصنامهم هذه ويتركها رضاضاً ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أى ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان فى زعمهم تقربا إلى الله كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وفى إيقاع (هؤلاء) اسما لإن ، وتقديم خبر المبتدإ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار ، وأنه لا يعدوهم البتة ، وأنه لهم ضربة لازب ، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا ﴿أغير الله أبغيكم إلها﴾ أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً ، وهو فعل بكم ما فعل دون غيره ، من الاختصاص بالنعمة التى لم يعطها أحداً غيركم ، لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره . ومعنى الهمزة : الإنكار والتعجب من طلبتهم ـ مع كونهم مغمورين فى نعمة الله ـ عبادة غير الله .

وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ يبغونكم شدّة العذاب ، من سام السلعة إذا طلبها . فإن قلت : ما محل

(١) قوله «فضاضا» أى فتاتا كالرضاض . أفاده الصحاح . (ع)

يسومونكم ؟ قلت : هو استئناف لا محلّ له . ويجوز أن يكون حالا من المخاطبين أو من آل فرعون . و﴿ذلكم﴾ اشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب . والبلاء : النعمة أو المحنة . وقرئ : يقتلون، بالتخفيف .

وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)

وروى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوّهم ، أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذى القعدة ، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فسوك ، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك . وقيل : أوحى الله تعالى إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك . وقيل : أمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً ، وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله ثم أنزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها . ولقد أجمل ذكر الاربعين فى سورة البقرة ، وفصلها ههنا . و﴿ميقات ربه﴾ ماوقته له من الوقت وضربه له . و﴿أربعين ليلة﴾ نصب على الحال أى تمّ بالغاً هذا العدد . و﴿هرون﴾ عطف بيان لأخيه . وقرئ بالضم على النداء ﴿اخلفنى فى قومى﴾ كن خليفتى فيهم ﴿وأصلح﴾ وكن مصلحاً . أو وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور بنى إسرائيل، ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه .

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)

﴿لميقاتنا﴾ لوقتنا الذى وقتنا له وحدّدنا . ومعنى اللام الاختصاص، فكأنه قيل: واختص مجيئه بميقاتنا ، كما تقول : أتيته لعشر خلون من الشهر ﴿وكلمه ربه﴾ من غير واسطة (١) كما يكلم

(١) قال محمود : « معناه كلمه من غير واسطة ...الخ» قال أحمد : وهذا تصريح منه بخلق الكلام ، كما هو معتقد المعتزلة ، والذى يخص به هذه الآية من وجوه الرد عليه : أنها سيقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها (إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات فى بعض الأجرام واسماع ــ

الملك، وتكليمه: أن يخلق الـكلام [1] منطوقا به فى بعض الأجرام كما خلقه مخطوطا فى اللوح وروى: أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الـكلام من كل جهة. وعن ابن عباس رضى الله عنه: كلمه أربعين يوما وأربعين ليلة، وكتب له الألواح. وقيل إنما كلمه فى أول الأربعين ﴿أرنى أنظر إليك﴾ ثانى مفعولى أرنى محذوف [2] أى أرنى نفسك أنظر إليك. فإن قلت:

موسى لذلك، لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام فى ذلك، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام؛ لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقاً فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر. ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية، فلا محمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات البارى سبحانه وتعالى وإن لم يكن جسما، فكذلك نجيز أن يسمع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا. والكلام فى هذه العقيدة طويل، والشوط بطين. وهذه النكتة هى الخاصة بهذه الآية، والله الموفق.

(١) قوله «وتكليمه أن يخلق الـكلام» هذا على مذهب المعتزلة: أن كلامه تعالى ألفاظ يخلقها الله فى بعض الأجرام. أما على مذهب أهل السنة، فان كلامه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته، فتكليمه لعبده أن يكشف له عنها، كما تقرر فى علم التوحيد. (ع)

(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله أرنى أنظر إليك محذوف المفعول الأول مذكور الثانى، والتقدير أرنى نفسك أنظر إليك ... الخ» قال أحمد: ماأشد ما اضطرب كلامه فى هذه الآية، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة، ويشين بكدره وجه الغزالة، هيهات قد تبين الصبح لذى عينين، فالحق أبلج لايمازجه ريب إلا عند ذى رين. أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام، وأخصر وجه فى إجادة ذلك: أن الوجود مصحح الرؤية، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً. وقد شمل الجواز الجوهر والعرض، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده. وأما استبعاد أن يرى ماليس فى جهة فأمر وهمى مثله عرض للمعطلة فعميت بصائرهم، حتى أنكروا موجوداً لا فى جهة، ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال وهام، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئى لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا فى جهة، فكذلك يرى لا فى جهة، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه، لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى، والقدرية يجرهم الطمع ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم، وما هم حينئذ إلا ممن آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عندالله وجيها. وأما قوله عليه السلام: (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) تبريا من أفاعيلهم وتسفيها لهم وتضليلا لرأيهم، فلا راحة للقدرية فى الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية، فان الذى كان الاهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل فى قول أكثر المفسرين ثم. وإن كان السبب طلبهم للرؤية، فليس لأنها غير جائزة على الله. ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع فى دار الدنيا والخبر صدق، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية فلما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها، كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيباً للخبر، فن ثم سفههم موسى عليه السلام وتبرأ من طلب ماأخبر الله أنه لايقع ثم، ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها، فانما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة، وتوقيفهم الايمان عليها حيث قالوا (ان نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) ألا ترى أن قولهم (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إنما سألوا فيه جائزاً، ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم على الله مالا يتوقف وجوب الايمان عليه، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشرى بعين الهوى وعمايته عن سبيل الهدى، والله الموفق.

الرؤية عين النظر ، فكيف قيل : أرنى أنظر إليك ؟ قلت : معنى أرنى نفسك ، اجعلنى متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لى فأنظر إليك وأراك ، فإن قلت : فكيف قال ﴿لن ترانى﴾ ولم يقل لن تنظر إلىّ ، لقوله (أنظر إليك) ؟ قلت : لما قال (أرنى) بمعنى اجعلنى متمكناً من الرؤية التى هى الإدراك ، علم أن الطلبة هى الرؤية [1] لا النظر الذى لا إدراك معه ، فقيل : لن ترانى ، ولم يقل لن تنظر إلىّ . فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلكّ ـ وهو من أعلم الناس بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبتعاليه عن الرؤية التى هى إدراك ببعض الحواس ، وذلك إنما يصحّ فيما كان فى جهة . وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون فى جهة . ومنعُ المجبرة إحالته [2] فى العقول غير لازم ، لأنه ليس بأوّل مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد قال ـ حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة ـ (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) إلى قوله (تضلّ بها من تشاء) فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالا ـ ؟ قلت : ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالا . وتبرأ من فعلهم ، وليلقمهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق ، فلجوا وتمادوا فى لجاجهم وقالوا : لابدّ ، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك ، وهو قوله (لن ترانى) ليتيقنوا وينزاح عنهم مادخلهم من الشبهة ، فلذلك قال : (رب أرنى أنظر إليك) . فإن قلت : فهلا قال : أرهم ينظروا إليك [3] ؟ قلت : لأنّ الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه ، كما أسمعه كلامه فسمعوه معه ، إرادة مبنية على قياس فاسد . فلذلك قال موسى :

---

(١) قوله « أن الطلبة هى الرؤية » فى الصحاح «الطلبة» بكسر اللام : ماطلبته من شىء . (ع)

(٢) قوله «ومنع المجبرة إحالته» يعنى أهل السنة ، حيث ذهبوا إلى جواز رؤيته تعالى ومنعوا اشتراط كون المرئى فى جهة . قال تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) والجائز قد يتنفى فى بعض الأوقات ويقع فى بعض . والحديث كما سيأتى «ستروں ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» ومحل الكلام علم الكلام . (ع)

(٣) عاد كلامه . قال : فان قلت : هلا قال أرهم ينظروا إليك ... الخ» ؟ قال أحمد : وهذا الكلام الآخر من الطراز الأول ، وأقرب شاهد على رده أنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثا غير مفيد لهذا الغرض ، لأن هؤلاء لايخلو أمرهم . إما أن يكونوا مؤمنين بموسى ، أو كفاراً به ، فان كانوا مؤمنين به ، فاخباره إياهم بأن الله تعالى لايرى ولايجوز عليه ذلك ، كاف فى حصول المقصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته ، على علم بأن ذلك محال . وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام فلا يحصل الغرض من ذلك أيضا ؛ لأن الله تعالى إذا منعه مسؤله من الرؤية ، فانما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك ، وهم كفار بموسى عليه السلام ، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك ؟ فهذا أوضح مصداق ؛ لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازها على الله تعالى ، فأخبره الله أن ذلك لايقع فى الدنيا وإن كان جائزاً .

أرنى أنظر إليك ، ولأنه إذا زجر عما طلب ، وأنكر عليه فى نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى ، وقيل له : لن يكون ذلك : كان غيره أولى بالإنكار ، ولأنّ الرسول إمام أمته ، فكان مايخاطب به أو مايخاطب راجعاً إليهم . وقوله (أنظر إليك) وما فيه من معنى المقابلة [١] التى هى محض التشبيه والتجسيم ، دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم ، وجل صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه ، مقابلا بحاسة النظر ، فكيف بمن هو أعرق فى معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، والنظام ، وأبى الهذيل والشيخين ، وجميع المتكلمين ؟ فإن قلت : مامعنى (لن) ؟ قلت : تأكيد النفى الذى تعطيه « لا » [٢] وذلك أن «لا» تنفى المستقبل . تقول : لا أفعل غداً ، فإذا أكدت نفيها قلت : لن أفعل غداً . والمعنى : أنّ فعله ينافى حالى ، كقوله (لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) فقوله (لا تدركه الأبصار) نفى للرؤية فيما يستقبل . ولن ترانى تأكيد وبيان ، لأنّ المنفى مناف لصفاته . فإن قلت : كيف اتصل الاستدراك فى قوله ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ بما قبله ؟ قلت : اتصل به على معنى أنّ النظر إلىّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر : وهو أن تنظر إلى الجبل الذى يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم ، كيف أفعل به وكيف أجعله دكا بسبب طلبك الرؤية ؟ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره ، كأنه عزّ وعلا حقق عند طلب الرؤية مامثله عند نسبة الولد [٣] إليه فى قوله (وتخرّ الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا) . ﴿فإن استقرّ مكانه﴾

---

(١) عاد كلامه . قال : « وقوله أنظر إليك وما فيه من معنى المقابلة ... الخ » قال أحمد : ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردها . وأما تنزيهه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استحالة الرؤية إليه فهو غنى عنه . وأما إقناعه فى تفضيله برجحانه عليه السلام فى العلم بالله وبصفاته على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبى الهذيل والشيخين ، فهو نقص عن منصبه العلى ، وأقل العوام المقلدين لأهل السنة ، راجح عند الله على أصحاب البدع والأهواء ، وإن ملؤا الأرض نفاقا ، وشحنوا مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقا ، فكيف بكليم الله عليه أفضل الصلاة والسلام .

(٢) عاد كلامه . قال : «فان قلت مامعنى لن ؟ قلت تأكيد النفى الذى تعطيه لا ... الخ» قال أحمد . «لن» كما قال تشارك «لا» فى النفى وتمتاز بمزية تأكيده . وأما استنباط الزمخشرى من ذلك منافاة الرؤية لحال البارى عز وجل ، ثم إطلاق الحال على الله تعالى عما يستحرز عنه . واستشهاده على أن «لن» تشعر باستحالة المنفى بها عقلا ، مردود كثيراً بكثير من الآى ، كقوله تعالى (قل لن تخرجوا معى أبداً) فذلك لا يحيل خروجهم عقلا ، و (لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) ، (لن تتبعونا) . فهذه كلها جائزات عقلا ، لولا أن الخبر منع من وقوعها ، فالرؤية كذلك .

(٣) عاد كلامه . قال : « ثم حقق تعالى عند طلب الرؤية مامثله عند نسبة الولد ... الخ » قال أحمد : نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الزمخشرى كنسبة الولد إليه ، وهذا مفرع على المعتقد السالف بطلانه ، وليس له فى هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية ، تلقفها من كل فج . والحق أن دك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء . ولاتستقر الدنيا لاظهار شىء من ملكوت السماء . وهذا هو المأثور عن السلف فى هذه الآية . ومعناه عند أبى الحسن رحمه الله فعل فعلا سماه تجليا ، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانية فى جهة ، وإما لأنهم كتموا الخبر بأنه لايرى فى الدنيا ، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالمجموع .

كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً [١] فى جهاته ﴿فسوف ترانى﴾ تعليق لوجود الرؤية بوجود مالا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكا ويسويه بالأرض ، وهذا كلام مدمج بعضه فى بعض ، وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع . ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ؟ ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة فى وجود الرؤية ؟ أعنى قوله (فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى) . ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته ﴿جعله دكا﴾ أى مدكوكا مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير . والدكّ والدقّ أخوان ، كالشك والشق . وقرئ دكاء . والدكاء : اسم للرابية الناشزة من الأرض ، كالدكة أو أرضاً دكاء مستوية . ومنه قولهم : ناقة دكاء متواضعة السنام ، وعن الشعبي : قال لى الربيع بن خثيم : ابسط يدك دكاء ، أى مدّها مستوية . وقرأ يحيى بن وثاب : دكا ، أى قطعاً دكا جمع دكاء ﴿وخرّ موسى صعقاً﴾ من هول مارأى . وصعق من باب : فعلته ففعل . يقال صعقته فصعق . وأصله من الصاعقة . ويقال لها الصاقعة ، من صقعه إذا ضربه على رأسه ومعناه : خرّ مغشياً عليه غشية كالموت ، وروى أنّ الملائكة مرّت عليه وهو مغشى عليه [٢] فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون : يا ابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة ؟ ﴿فلما أفاق﴾ من صعقته ﴿قال سبحانك﴾ أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها ﴿تبت إليك﴾ من طلب الرؤية ﴿وأنا أوّل المؤمنين﴾ بأنك لست بمرئىّ ولا مدرك بشيء من الحواس . فإن قلت : فإن كان طلب الرؤية للغرض الذى ذكرته ، فممّ تاب [٣] ؟ قلت : من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن

---

(١) عاد كلامه . قال : « ومعنى فان استقر مكانه : فان ثبت كما كان ذاهبا ... الخ » قال أحمد : وهذا من حيل القدرية فى إحالة الرؤية يقولون : قد علقها الله على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه ، والمعلق على المحال محال . وهذه حيلة باطلة ، فان المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار ، وذلك ممكن جائز ، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له ، لا يرفع إمكان استقراره ، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس . وحينئذ يتوجه دليلا لأهل السنة فنقول : استقرار الجبل ممكن ، وقد علق عليه وقوع الرؤية ، والمعلق على الممكن ممكن ، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدوراً ونحن نقول مقدور ، ولكن ما تعلقت المشيئة بايجاده . وقولنا أقعد بالآداب ، وأسعد بالاجلال فى الخطاب .

(٢) عاد كلامه . قال : « ومعنى وخر موسى صعقا : وخر مغشيا عليه غشية كالموت وروى أن الملائكة مرت عليه ... الخ » قال أحمد ، وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عونا وظهراً على المعتقد الفاسد . والوجه التورك بالغلط على ناقلها وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم الله بالوكز بالرجل والغمص فى الخطاب .

(٣) عاد كلامه . قال : « فان قلت إن كان طلب الرؤية للغرض الذى ذكرته فم تاب ... الخ » ؟ قال أحمد : أما دك الجبل ، فقد سلف الكلام على سره . وأما تسبيح موسى عليه السلام فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية فى الدنيا ، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه وعن الخلف فى خبره الحق وقوله الصدق ، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله وقدس علمه وخبره عن الخلف . وأما التوبة فى حق الأنبياء =

كان لغرض صحيح على لسانه، من غير إذن فيه من الله تعالى، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية فى هذه الآية، وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله دكا، وكيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان [١] ذلك مبالغة فى إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال أنا أول المؤمنين. ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة [٢] كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبا. ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة، فإنه من منصوبات أشياخهم! والقول ماقال بعض العدلية [٣] فيهم:

لَجَمَاعَةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً ... وَجَمَاعَةٌ حُمُرٌ لَعَمْرِى مُوكَفَهْ

قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا ... شُنْعَ الْوَرَى فَتَسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَهْ [٤]

وتفسير آخر: وهو أن يريد بقوله (أرنى انظر إليك) عرفنى نفسك تعريفاً واضحاً جلياً، كأنها إراءة فى جلائها بآية مثل آيات القيامة التى تضطر الخلق إلى معرفتك (أنظر إليك) أعرفك معرفة اضطرار، كأنى أنظر إليك، كما جاء فى الحديث «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» [٥]

= فلا تستلزم كونها عن ذنب، لأن منصبهم الجليل ينبغى أن يكون منزهاً مبرأ من كل ما ينحط به، ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية عن الاذن كان أكمل. وقد ورد: سيئات المقربين حسنات الأبرار.

(١) قوله «ولم يخل كليمه من نفيان ذلك» قوله «نفيان» هو ما يتطاير من قطر المطر، وقطر الدلو، ومن الرمل عند الوطء، ومن الصوف عند النفش، ونحو ذلك. كذا فى شرح المعلقات للعلامة الزوزنى. (ع)

(٢) عاد كلامه. قال: «ثم تعجب من المتسمين بالاسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة ... الخ» قال أحمد رحمه الله: وقد انتقل الزمخشرى فى هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة. ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاعره والمنافح عنه وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء الملقبين بالعدلية وبالناجين سلاما، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعداءه، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعداءهم فنقول:

وجماعة كفروا برؤية ربهم ... حقاً ووعد الله ما لن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل ... عدلوا بربهم فحسبهمو سفه

وتلقبوا الناجين كلا إنهم ... إن لم يكونوا فى لظى فعلى شفه

(٣) قوله «والقول ما قال بعض العدلية» غفر الله للمصنف مالوث به لسانه وقلبه فى ذكر هذه الأبيات. (ع)

(٤) للزمخشرى فى أهل السنة، أى هم جماعة سموا هوى أنفسهم سنة، ولكن من عرف أن مستند المعتزلة العقل، ومستند الجماعة النقل عرف الهوى من الهدى. وحمر أى كالحمر. موكفة: أى موضوع عليها الاكاف، مبالغة فى التشبيه. قد شبهوه: أى الله عز وجل بخلقه حيث قالوا: إنه يرى بالعين، فخافوا تشنيع الناس عليهم فتستروا بقولهم: إنه يرى بلا كيف. فالبلكفة منحوتة من ذلك.

(٥) متفق عليه من حديث جرير بن عبد الله البجلى قال كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر. فقال: أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر. الحديث، وللبخارى من رواية «إنكم سترون ربكم عيانا» واتفقا عليه من حديث أبى سعيد وأبى هريرة بمعناه.

بمعنى : ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى (قال لن ترانى) أى لن تطيق معرفتى على هذه الطريقة ، ولن تحتمل قوتك تلك الآية المضطرة ولكن انظر إلى الجبل . فإنى أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات ، فإن ثبت لتجليها واستقر مكانه ولم يتضعضع فسوف تثبت لها وتطيقها ، (فلما تجلى ربه للجبل) فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته (جعله دكا وخر موسى صعقا) لعظم ما رأى (فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك) مما اقترحت وتجاسرت (وأنا أول المؤمنين) بعظمتك وجلالك ، وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وبأسك .

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤)

﴿اصطفيتك على الناس﴾ اخترتك على أهل زمانك وآثرتك عليهم ﴿برسالاتى﴾ وهى أسفار التوراة ﴿وبكلامى﴾ وبتكليمى إياك ﴿فخذ ما آتيتك﴾ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ على النعمة فى ذلك فهى من أجل النعم . وقيل : خر موسى صعقاً يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم النحر . فإن قلت : كيف قيل : اصطفيتك على الناس وكان هرون مصطفى مثله ونبيا ؟ قلت : أجل ، ولكنه كان تابعاً له وردءاً ووزيراً . والكليم : هو موسى عليه السلام ، والأصيل فى حمل الرسالة .

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤٧)

ذكروا فى عدد الألواح وفى جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح . وقيل : سبعة . وقيل : لوحين ، وأنها

كانت من زمرد جاء بها جبريل عليه السلام. وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء. وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له، فقطعها بيده وشقها بأصابعه. وعن الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة، وأن طولها كان عشرة أذرع. وقوله ﴿من كل شيء﴾ في محل النصب مفعول كتبنا. و ﴿موعظة﴾ وتفصيلا بدل منه. والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام. وقيل أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى عليهم السلام. وعن مقاتل: كتب في الألواح: إني أنا الله الرحمن الرحيم، لاتشركوا بي شيئا، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين؛ فإن من حلف باسمي كاذبا فلا أزكيه، ولا تقتلوا ولاتزنوا ولا تعقوا الوالدين ﴿فخذها﴾ فقلنا له: خذها، عطفاً على كتبنا. ويجوز أن يكون بدلا من قوله (فخذ ما آتيتك) والضمير في (خذها) للألواح، أولكل شيء، لأنه في معنى الأشياء، أو الرسالات، أو للتوراة. ومعنى ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة فعل أولى العزم من الرسل ﴿يأخذوا بأحسنها﴾ أي فيها ماهو حسن وأحسن، كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر. فرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب، كقوله تعالى (واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم) وقيل: يأخذوا بما هو واجب أو ندب، لأنه أحسن من المباح. ويجوز أن يراد: يأخذوا بما أمروا به، دون مانهوا عنه، على قولك: الصيف أحر من الشتاء ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ يريد دار فرعون وقومه وهي مصر، كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم، لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم. وقيل منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم في ممركم عليها في أسفاركم. وقيل: دار الفاسقين: نار جهنم. وقرأ الحسن: سأوريكم وهي لغة فاشية بالحجاز. يقال: أورني كذا، وأوريته. ووجهه أن تكون من أوريت الزند، كأن المعنى: بينه لي وأنره لأستبينه. وقرئ: سأورثكم، وهي قراءة حسنة يصححها قوله (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون). ﴿سأصرف عن آياتي﴾ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم، فلايفكرون فيها ولايعتبرون بها، غفلة وانهماكا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم. وعن الفضيل بن عياض: ذكر لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا عظمت أمتي الدنيا نزع عنها هيبة الاسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي [1]. وقيل: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون

---

(١) لم أجده من هذا الوجه. وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادره من حديث أبي هريرة مثله، وزاد «وإذا تسابت أمتي سقطت من أعين الناس» ذكره في الخامس والسبعين بعد المائة، وفي إسناده البختري بن عبيد وهو ضعيف.

أن يبطل آية موسى، بأن جمع لها السحرة، فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل. ويجوز: سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها. وتسميتها سحراً بإهلاكهم. وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها، لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم ﴿بغير الحق﴾ فيه وجهان: أن يكون حالا بمعنى يتكبرون غير محقين، لأنّ التكبر بالحق لله وحده. وأن يكون صلة لفعل التكبر، أى يتكبرون بما ليس بحق وماهم عليه من دينهم ﴿وإن يروا كلّ آية﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لا يؤمنوا بها﴾ وقرأ مالك بن دينار: وإن يروا بضم الياء. وقرئ: سبيل الرشد والرشد والرشاد، كقولهم: السقم والسّقم والسقام. وما أسفه من ركب المفازة، فإن رأى طريقاً مستقيما أعرض عنه وتركه، وإن رأى معتسفا مرديا أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو ذلك فى دينه أسفه ﴿ذلك﴾ فى محل الرفع أو النصب على معنى: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرفَ بسببه. ﴿ولقاء الآخرة﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أى ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ماوعد الله فى الآخرة.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿من بعده﴾ من بعد فراقه إياهم إلى الطور. فإن قلت: لم قيل: واتخذ قوم موسى عجلا، والمتخذ هو السامرى؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم، لأن رجلا منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا، والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به، فكأنهم أجمعوا عليه. والثانى: أن يراد واتخذوه إلها وعبدوه. وقرئ (من حليهم) بضم الحاء والتشديد، جمع حلى، كثدى وثدىّ، ومن حليهم ـ بالكسر ـ للإتباع كدلى. ومن حليهم، على التوحيد. والحلى: اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة. فإن قلت: لم قال: من حليهم، ولم يكن الحلىّ لهم، إنما كانت عوارى فى أيديهم؟ قلت: الإضافة تكون بأدنى ملابسة، وكونها عوارى فى أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم. ألا ترى إلى قوله عزّ وعلا (فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى إسرائيل)، ﴿جسدا﴾ بدناً ذا لحم ودم كسائر

الأجساد . والخوار : صوت البقر ، قال الحسن : إنّ السامرى قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر ، فقذفه فى فى العجل ، فكان عجلا له خوار . وقرأ على رضى الله عنه . جؤار ، بالجيم والهمزة ، من جأر إذا صاح . وانتصاب جسدا على البدل من (عجلا) ﴿ألم يروا﴾ حين اتخذوه إلها أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل ، حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته ، وهو الذى هدى الخلق إلى سبل الحق ومناهجه بما ركز فى العقول من الأدلة ، وبما أنزل فى كتبه . ثم ابتدأ فقال ﴿اتخذوه﴾ أى أقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿وكانوا ظالمين﴾ واضعين كل شيء فى غير موضعه ، فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم ، ولا أول مناكيرهم ﴿ولما سقط فى أيديهم﴾ ولما اشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ، لأنّ من شأن من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعض يده غما ، فتصير يده مسقوطا فيها ، لأن فاه قد وقع فيها . و (سقط) مسند إلى (فى أيديهم) وهو من باب الكناية . وقرأ أبو السميفع : سقط فى أيديهم ، على تسمية الفاعل ، أى وقع العض فيها . وقال الزجاج : معناه سقط الندم فى أيديهم ، أى فى قلوبهم وأنفسهم ، كما يقال : حصل فى يده مكروه ، وإن كان محالا أن يكون فى اليد ، تشبيها لما يحصل فى القلب وفى النفس بما يحصل فى اليد ويرى بالعين ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ وتبينوا ضلالهم تبينا كأنهم أبصروه بعيونهم . وقرئ : لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا ، بالتاء . وربنا ، بالنصب على النداء ، وهذا كلام التائبين ، كما قال آدم وحواء عليهما السلام : وإن لم تغفر لنا وترحمنا .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)

الأسف : الشديد الغضب (فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقيل : هو الحزين ﴿خلفتمونى﴾ قمتم مقامى وكنتم خلفائى من بعدى . وهذا الخطاب إما أن يكون لعبدة العجل من السامرى وأشياعه ، أو لوجوه بنى إسرائيل وهم هرون عليه السلام والمؤمنون معه . ويدل عليه قوله (اخلفنى فى قومى) والمعنى : بئس ما خلفتمونى حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله ، أو حيث لم تكفوا من عبد

غير الله . فان قلت : أين ما تقتضيه بئس من الفاعل والمخصوص بالذم ؟ قلت : الفاعل مضمر يفسره ماخلفتمونى . والمخصوص بالذم محذوف تقديره : بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم . فإن قلت : أى معنى لقوله ﴿ من بعدى ﴾ بعد قوله (خلفتمونى) ؟ قلت : معناه من بعد ماراأيتم منى ، من توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، وإخلاص العبادة له . أو من بعد ما كنت أحمل بنى إسرائيل على التوحيد ، وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر ، حين قالوا (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه . ونحوه (فخلف من بعدهم خلف) أى من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة يقال : عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ، ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ، ويضمن معنى سبق فيعدّى تعديته ، فيقال عجلت الأمر ، والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم ، وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به ، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم ، فحدّثتم أنفسكم بموتى ، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم . وروى أنّ السامرى قال لهم ـ حين أخرج لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى ـ : إن موسى لن يرجع ، وإنه قد مات وروى أنهم عدّوا عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ، ثم أحدثوا ماأحدثوا ﴿ وألقى الألواح ﴾ وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدّة الضجر عند استماعه حديث العجل ، غضباً لله وحمية لدينه ، وكان فى نفسه حديداً شديد الغضب ، وكان هارون ألين منه جانبا ولذلك كان أحب إلى بنى إسرائيل من موسى . وروى أن التوراة كانت سبعة أسباع ، فلما ألقى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقى منها سبع واحد ، وكان فيما رفع تفصيل كل شىء وفيما بقى الهدى والرحمة ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ أى بشعر رأسه ﴿ يجرّه إليه ﴾ بذؤابته ، وذلك لشدّة ماورد عليه من الأمر الذى استفزه وذهب بفطنته ، وظنا بأخيه أنه فرط فى الكف ﴿ ابن أم ﴾ قرئ بالفتح تشبيها بخمسة عشر ، وبالكسر على طرح ياء الإضافة . وابن أمى ، بالياء . وابن إمّ ، بكسر الهمزة والميم . وقيل : كان أخاه لأبيه وأمه ، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم ، إشارة إلى أنهما من بطن واحد . وذلك أدعى إلى العطف والرقة ، وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها ، ولأنها هى التى قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ﴿ إنّ القوم استضعفونى ﴾ يعنى أنه لم يأل جهدا فى كفهم بالوعظ والإنذار . وبما بلغته طاقته من بذل القوة فى مضادّتهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه ﴿ فلا تشمت بى الأعداء ﴾ فلا تفعل بى ماهو أمنيتهم من الاستهانة بى والإساءة إلىّ . وقرئ . فلا يشمت بى الأعداء ، على نهى الأعداء عن الشماتة . والمراد أن لايحل به مايشمتون به لأجله ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ ولا تجعلنى فى موجدتك علىّ وعقوبتك لى قرينا لهم

وصاحبا. أو ولا تعتقد أنى واحد من الظالمين مع براءتى منهم ومن ظلمهم. لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء ﴿قال رب اغفرلى ولأخى﴾ ليرضى أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسى فرط فى حسن الخلافة. وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما فى الدنيا والآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

﴿غضب من ربهم وذلة﴾ الغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم. والذلة: خروجهم من ديارهم لأن ذل الغربة مثل مضروب. وقيل: هو ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير، من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية ﴿المفترين﴾ المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامرى: هذا إلهكم وإله موسى. ويجوز أن يتعلق فى الحياة الدنيا بالذلة وحدها ويراد: سينالهم غضب فى الآخرة. وذلة فى الحياة الدنيا. وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله.

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

﴿والذين عملوا السيئات﴾ من الكفر والمعاصى كلها ﴿ثم تابوا﴾ ثم رجعوا ﴿من بعدها﴾ إلى الله واعتذروا إليه ﴿وآمنوا﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إن ربك من بعدها﴾ من بعد تلك العظائم ﴿لغفور﴾ لستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿رحيم﴾ منعم عليهم بالجنة. وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم. عظم جنايتهم [1] أولا ثم أردفها تعظيم رحمته، ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل، ولكن لا بد من حفظ الشريطة: وهى وجوب التوبة [2] والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة [3]، لا يلتفت إليها حازم.

---

(١) قال محمود: «عظم جناية متخذى العجل أولا، ثم أردفها بحكم عام ... الخ» قال أحمد: يعرض بوجوب وعيد الفساق وأن مغفرة الذنب بدون التوبة منه من المحال الممتنع، وقد تقدم عد ذلك من الأهواء والبدع، بل الحق أن المغفرة لما عدا الشرك موكولة إلى المشيئة، غير ممتنعة عقلا، ثم واقعة نقلا، والله الموفق.

(٢) قوله: «من حفظ الشريطة وهي وجوب التوبة» مذهب المعتزلة أن الكبيرة لا تغفر إلا بالتوبة. ومذهب أهل السنة أنها قد تغفر بمجرد الفضل. (ع)

(٣) قوله «وأشعبية باردة» خصلة منسوبة إلى أشعب، وهو رجل كان طماعا. ويضرب به المثل فى الطمع، كما فى الصحاح. (ع)

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ هذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه [1] على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا وألق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شعب البلاغة . وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة : ولما سكن عن موسى الغضب ، لاتجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفا من تلك الروعة . وقرئ : ولما سكت . وأسكت: أى أسكته الله ، أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله . والمعنى : ولما طفئ غضبه ﴿أخذ الألواح﴾ التى ألقاها ﴿وفى نسختها﴾ وفيما نسخ منها ، أى كتب . والنسخة فعلة بمعنى مفعول كالخطبة ﴿لربهم يرهبون﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول ، لأن تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً . ونحوه (للرؤيا تعبرون) وتقول : لك ضربت .

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ

---

(١) قال محمود : وهذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه على مافعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وخذ برأس أخيك ... الخ، قال أحمد : وهو من النمط الذى قدمته من قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكان الأصل : ولما سكت موسى عن الغضب ، ولذلك عده بعض أهل العربية من المقلوب ، وسلكه فى نمط خرق الثوب المسمار . والتحقيق أنه ليس منه وأن هذا القلب أشرف وأفصح ، لأنه بماله على معنى بليغ ، وهو أن الغضب كان متمكنا من موسى حتى كان كأنه يصرفه فى أوامره ، وكل ما وقع منه حينئذ فعن الغضب صادر ، حتى كأنه هو الذى أمره به . ومثل هذه النكتة الحسناء لا تلفى فى خرق الثوب المسمار ، بل هى موجودة فى قوله تعالى (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) على خلاف قولة نافع . وقد تقدم ذلك آنفا ، والله الموفق .

وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

﴿واختار موسى قومه﴾ أى من قومه ، لحذف الجار وأوصل الفعل ، كقوله :

* وَمِنَّا الَّذِى اخْتِيرَ الرِّجَالَ سَمَاحَةً * (١)

قيل اختار من اثنى عشر سبطا ، من كل سبط ستة حتى تتاموا اثنين وسبعين، فقال : ليتخلف منكم رجلان ، فتشاحوا ، فقال : إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج ، فقعد كالب ويوشع . وروى أنه لم يصب إلا ستين شيخا ، فأوحى الله تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة ، فاختارهم فأصبحوا شيوخا . وقيل : كانوا أبناء ماعدا العشرين ، ولم يتجاوزوا الأربعين ، قد ذهب عنهم الجهل والصبا ، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربه ، وكان أمره ربه أن يأتيه فى سبعين من بنى إسرائيل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم : ادنوا ، فدنوا ، حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجدا ، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه : افعل ، ولا تفعل . ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه ، فطلبوا الرؤية فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم ، فقالوا : ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فقال : رب أرنى أنظر إليك، يريد : أن يسمعوا الرد والإنكار من جهته ، فأجيب بلن ترانى ، ورجف بهم الجبل فصعقوا . ولما كانت الرجفة ﴿قال﴾ موسى ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى﴾ وهذا تمنّ منه للإهلاك قبل أن يرى مارأى من تبعة طلب الرؤية ، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة : لو شاء الله لأهلكنى قبل هذا ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ يعنى أتهلكنا جميعاً . يعنى نفسه وإياهم ، لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء ، وهم طلبوها سفها وجهلا ﴿إن هى إلا فتنتك﴾ أى محنتك وابتلاؤك حين كلمتنى وسمعوا كلامك ، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالا فاسداً ، حتى افتتنوا وضلوا ﴿تضلّ بها من تشاء وتهدى من تشاء﴾ تضلّ بالمحنة الجاهلين غير الثابتين فى معرفتك ، وتهدى العالمين

---

(١) ومنا الذى اختير الرجال سماحة وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

المعنى : ومنا الذى اختاره الناس من بين الرجال ، فالرجال نصب على نزع الخافض . وسماحة : تمييز لبيان جهة الاختيار . وجوداً عطف عليه ، إذا هب الرياح ، كناية عن دخول الشتاء ، فتهيج الرياح الزعازع ، أى الشديدة المحركة للأشياء ، وإذا جاد زمن انقطاع الميرة ، فمكيف بالصيف .

بك الثابتين بالقول الثابت . وجعل ذلك إضلالا من الله وهدى منه ، لأن محنته لما كانت سبباً [1] لأن ضلوا واهتدوا فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع فى الكلام ﴿أنت ولينا﴾ مولانا القائم بأمورنا ﴿واكتب لنا﴾ وأثبت لنا واقسم ﴿فى هذه الدنيا حسنة﴾ عافية وحياة طيبة وتوفيقاً فى الطاعة ﴿وفى الآخرة﴾ الجنة ﴿هدنا إليك﴾ تبنا إليك . وهاد اليه يهود إذا رجع وتاب . والهود : جمع هائد ، وهو التائب . ولبعضهم :

يَارَاكِبَ الذَّنْبِ هُدْهُدْ وَٱسْجُدْ كَأَنَّكَ هُدْهُدْ [2]

وقرأ أبو وجرة السعدى : هدنا إليك ، بكسر الهاء ، من هاده يهيده إذا حركه وأماله . ويحتمل أمرين ، ان يكون مبنيا للفاعل والمفعول بمعنى حركنا إليك أنفسنا وأملناها أو حركنا إليك وأملنا على تقدير: فعلنا ، كقولك : عدت يا مريض بكسر العين، فعلت من العيادة . ويجوز : عدت بالإشمام . وعدت ، بإخلاص الضمة فيمن قال : عود المريض . وقول القول . ويجوز على هذه اللغة أن يكون (هدنا) بالضم فعلنا من هاده يهيده ﴿عذابى﴾ من حاله وصفته أنى ﴿أصيب به من أشاء﴾ أى من وجب على فى الحكمة [3] تعذيبه ، ولم يكن فى العفو عنه مساغ لكونه مفسدة . وأمّا (رحمتى) فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء ، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب فى نعمتى . وقرأ الحسن : من أساء ، من الإساءة . فسأكتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يابنى إسرائيل للذين يكونون فى آخر الزمان من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون ، لا يكفرون بشيء منها ﴿الذين يتبعون الرسول﴾ الذى نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ﴿النبى﴾ صاحب المعجزات ﴿الذى يجدونه﴾ يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بنى إسرائيل ﴿مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ...... ويحل لهم الطيبات﴾ ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة ، كالشحوم وغيرها . أو ما طاب فى الشريعة والحكم ، مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح ، وما خلى كسبه من السحت ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير ، وما أهلّ لغير الله به أو ماخبث فى الحكم ، كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة . الإصر : الثقل الذى يأصر صاحبه ، أى يحبسه من الحراك لثقله

---

(١) قوله « لأن محنته لما كانت سببا » صرف الكلام عن ظاهره ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عندهم . أما على مذهب أهل السنة فلا حاجة إلى ذلك . (ع)

(٢) للزمخشرى ، شبه ملازمته للذنب بملازمة الراكب للمركوب . وهاد يهود ، إذا تاب ورجع . وهد : أمر منه ، وكرر للتوكيد . ثم قال : واسجد كأنك هدهد ، فشبهه به لكثرة ما يطرق برأسه إلى الأرض لا فى السرعة ، فالمعنى : اسجد كثيراً .

(٣) قوله «أى من وجب على فى الحكمة» هذا عند المعتزلة . وأما أهل السنة فلا يجب على الله تعالى عندهم شيء . (ع)

وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته ، نحو اشتراط قتل الأنفس فى صحة توبتهم . وكذلك الأغلال ، مثل لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة ، نحو : بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية ، وقطع الأعضاء الخاطئة . وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب . وإحراق الغنائم ، وتحريم العروق فى اللحم ، وتحريم السبت . وعن عطاء : كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلى لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم . وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة . وقرئ آصارهم . على الجمع ﴿ وعزروه ﴾ ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو . وقرئ بالتخفيف . وأصل العزر : المنع . ومنه التعزير للضرب دون الحد . لأنه منع عن معاودة القبيح . ألا ترى إلى تسمية الحد ، والحد هو المنع . و ﴿ النور ﴾ القرآن . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ أنزل معه ﴾ وإنما أنزل مع جبريل ؟ قلت : معناه أنزل مع نبوته ، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعا به . ويجوز أن يعلق باتبعوا . أى : واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه . أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له فى اتباعه . فإن قلت : كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه ؟ قلت : لما دعا لنفسه ولبنى إسرائيل ، أجيب بما هو منطو على توبيخ بنى إسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله تعالى وعلى كفرهم بآيات الله العظام التى أجراها على يد موسى ، وعرض بذلك فى قوله (والذين هم بآياتنا يؤمنون) وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به كعبدالله بن سلام وغيره من أهل الكتابين ، لطفاً لهم وترغيباً فى إخلاص الإيمان والعمل الصالح ، وفى أن يحشروا معهم ولا يفرق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة الله [1] التى وسعت كل شىء .

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَاإِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

﴿ إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾ قيل : بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى كافة الإنس وكافة الجن . وجميعاً : نصب على الحال من إليكم . فإن قلت : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾ ما محله ؟ قلت : الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعنى . وهو الذى يسمى النصب على المدح . ويجوز أن يكون جرا على الوصف ، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله إليكم . ﴿ إليكم جميعاً ﴾ وقوله ﴿ لا إله إلا هو ﴾ بدل من الصلة التى هى له ملك

(١) قوله « عن رحمة الله » لعله « فى رحمة الله » . أو ضمن التفريق معنى الابعاد ، فعدى بعن . (ع)

السموات والأرض ، وكذلك ﴿ يحيي ويميت ﴾ وفى (لا إله إلا هو) بيان للجملة قبلها ، لأنّ من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة . وفى يحيي ويميت : بيان لاختصاصه بالإلهية ، لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره ﴿ وكلماته ﴾ وما أنزل عليه وعلى من تقدّمه من الرسل من كتبه ووحيه . وقرئ وكلمته على الإفراد وهى القرآن . أو أراد جنس ما كلم به . وعن مجاهد : أراد عيسى ابن مريم . وقيل : هى الكلمة التى تكوّن منها عيسى وجميع خلقه ، وهى قوله (كن) وإنما قيل إن عيسى كلمة الله ، فخص بهذا الاسم ، لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ، ولم يكن من نطفة تمنى ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ إرادة أن تهتدوا . فإن قلت : هلا قيل : فآمنوا بالله وبى ، بعد قوله : إنى رسول الله إليكم ؟ قلت : عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التى أجريت عليه ، ولما فى طريقة الالتفات من مزية البلاغة ، وليعلم أنّ الذى وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، كائناً من كان ، أنا أو غيرى ، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه .

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿ ومن قوم موسى أمة ﴾ هم المؤمنون التائبون من بنى إسرائيل ، لما ذكر الذين تزلزلوا منهم فى الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين عبادة العجل واستجازة رؤية الله تعالى ، ذكر أنّ منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق . ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم . وبالحق يعدلون بينهم فى الحكم لا يجورون . أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به من أعقابهم . وقيل : إنّ بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا ، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ، ففتح الله لهم نفقاً فى الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين ، وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا . وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل ذهب به ليلة الاسراء نحوهم ، فكلمهم فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا . قال : هذا محمد النبي الأمى ، فآمنوا به وقالوا : يا رسول الله ، إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد ، فليقرأ عليه منى السلام فردّ محمد على موسى عليهما السلام السلام ، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة ، وأمرهم أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يسبتون ، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت . وعن مسروق . قرئ : بين يدى عبد الله فقال رجل : إنى منهم . فقال عبد الله : يعنى لمن كان فى مجلسه من المؤمنين : وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئاً من يهدى بالحق وبه يعدل . وقيل : لو كانوا فى طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين .

وهذا من باب الفرض والتقدير وإلا فقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى كل أفق ، وتغلغل فى كل نفق ، ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا برّ ولا بحر فى مشارق الأرض ومغاربها ، إلا وقد ألقاه إليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة .

وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

﴿وقطعناهم﴾ وصيرناهم قطعا ، أى فرقا وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم . وقرئ وقطعناهم بالتخفيف ﴿اثنتى عشرة أسباطا﴾ كقولك اثنتى عشرة قبيلة . والأسباط : أولاد الولد ، جمع سبط وكانوا اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام . فإن قلت : مميز ماعدا العشرة مفرد ، فما وجه مجيئه مجموعا ؟ وهلا قيل : اثنى عشر سبطا ؟ قلت : لو قيل ذلك لم يكن تحقيقا لأنّ المراد : وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة ، وكل قبيلة أسباط لا سبط ، فوضع أسباطا موضع قبيلة . ونظيره :

* بَيْنَ رِمَاحَيْ مَالِكٍ وَنَهْشَلِ * [1]

(١) تبقلت فى أول التبقل بين رماحي مالك ونهشل
فى حبة حرف وحمض هيكل مستأسد ذبانه فى غيطل
يقلن للرائد أعشبت انزل

لأبى النجم ، يصف رمكة باعتيادها الحروب واقتحامها المكاره من أول أمرها . يقال : تبقلت الغنم وغيرها : رعت البقل وهو النبات الرطب . شبه اقتحام تلك الفرس للحروب من صغرها حتى اعتادتها برعى الدابة للكلأ واعتيادها عليه ، بجامع التمرن والاعتياد والسهولة ، بل والاستلذاذ ، ثم استعار التبقل لذلك على طريق التصريحية ، وبالغ فى ذلك حيث أسند الفعل إليها ، كأنه لا دخل له فيه . ويروى : من أول التبقل ، بين رماحى مالك ونهشل : أى بين رماح مالك بن ضبعة ورماح نهشل بن دارم من أمراء العرب ، فثنى الرماح دلالة على التنويع والتمايز . وقال أبو حنيفة : الحبة بالكسر اليبس المنكسر المتراكم . وقال الأزهرى : هى البذور الساقطة مع الأوراق فى آخر الصيف والحرن : اليابسة الدقيقة . والحمض نوع من النبات . والهيكل : الطويل الضخم . والمستأسد : الطويل الغليظ أيضا . وذبان جمع ذباب ، كغربان وغراب . والغيطل ـ بالعين المهملة ـ : الأصوات المختلطة . والرائد : هو الذى يتقدم القوم لطلب الخصب . يقلن ، أى الذبان . وأعشب الرجل : وجد العشب ، وصف النبات بالكثرة والالتفاف حتى كثر ذبابه وصارت له أصوات مختلطة ، فكان يدعو الرائد ويحمله على النزول فى هذا المكان عند سماع صوته ، ـــ

و ﴿أمما﴾ بدل من اثنتى عشرة . بمعنى : وقطعناهم أمما لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد ، وكل واحدة كانت تؤم خلاف ماتؤمه الأخرى ، لا تكاد تأتلف . وقرئ اثنتى عشرة بكسر الشين ﴿فانبجست﴾ فانفجرت . والمعنى واحد ، وهو الانفتاح بسعة وكثرة : قال العجاج :

* وَكِيفَ غَرْبَىْ دَالِجٍ تَبَجَّسَا * [(١)]

فإن قلت : فهلا قيل : فضرب فانبجست ؟ قلت : لعدم الإلباس . وليجعل الانبجاس مسبباً عن الإيحاء بضرب الحجر للدلالة على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر ، وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به . من قوله ﴿كل أناس﴾ نظير قوله : اثنتى عشرة أسباطاً ، يريد كل أمة من تلك الأمم الثنتى عشرة . والأناس ، اسم جمع غير تكسير ، نحو . رخال وتناء وتوام [(٢)] وأخوات لها . ويجوز أن يقال : إن الأصل الكسر والتكسير ، والضمة بدل من الكسرة ، كما أبدلت فى نحو . سكارى وغيارى [(٣)] من الفتحة ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ وجعلناه ظليلا عليهم فى التيه ، و ﴿كلوا﴾ على إرادة القول ﴿وما ظلمونا﴾ وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ، ولكن كانوا يضرون أنفسهم . ويرجع وبال ظلمهم إليهم .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

ـــ فاستعار القول لذلك على سبيل التصريح . وروى : مستأسد أذنابه فى عيطل . تقول الرائد ، فالأذناب جمع ذنب ، أى أطرافه تصوت بالريح بقول ذلك النبات والمجاز كما تقدم . هذا ، وحق الرواية : بين رماكى مالك ونهشل . والرمكة : الأنثى من البراذين والخيل ، وجمعها رماك وأرماك ورمكات ، كثمرة وثمار وأثمار وثمرات . يصف فرسه بأنها رعت البقل حقيقة مع تلك الخيول والبراذين ؛ فلا مجاز هنا .

(١) واعلبت عيناه من فرط الأسى ... وكيف غربى دالج تبجسا

فرط الأسى : شدة الحزن . والوكيف : مصدر نصب باعلبت ؛ لأن معناه : وكفت . والغرب : الدلو العظيم . والدالج : من يأخذ الدلو من البئر فيفرغه فى الحوض . والتبجس . اتساع الانفجار . يقول : انصبت دموع عينيه من شدة الحزن ، كانصباب دلوى رجل مفرغ لهما فى الحوض تفجرا بسعة . وفيه تشبيه العينين بالغربين .

(٢) قوله : « نحو رخال وتناء وتوام » رخال : هى الاناث من أولاد الضأن . والتناء : القاطنون بالبلد . والتوام ـ بالمد ـ واحده توأم ، وزان كوكب . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله : « نحو سكارى وغيارى » غار الرجل على أهله فهو غيور . وجمعه غير وغيران . وجمعه غياوى وغيارى ، كذا فى الصحاح . (ع)

﴿وإذ قيل لهم﴾ واذكر إذ قيل لهم. والقرية: بيت المقدس. فإن قلت: كيف اختلفت العبارة ههنا وفي سورة البقرة؟ قلت: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض. ولا تناقض بين قوله، اسكنوا هذه القرية وكلوا منها، وبين قوله فكلوا لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها. وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها، فهم جامعون في الإيجاد بينهم، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله ﴿نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين﴾ موعد بشيئين: بالغفران، وبالزيادة، وطرح الواو لا يخلّ بذلك، لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيد المحسنين، وكذلك زيادة ﴿منهم﴾ زيادة بيان، وأرسلنا، وأنزلنا. و﴿يظلمون﴾ ويفسقون من واد واحد. وقرئ: يغفر لكم خطيئاتكم، وتغفر لكم خطاياكم. وخطيئاتكم، وخطيئتكم. على البناء للمفعول.

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

﴿وسلهم﴾ وسل اليهود. وقرئ: واسألهم. وهذا السؤال معناه التقرير والتقريع بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأنّ هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحي، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم، علم أنه من جهة الوحي. ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك: أعدوتم في السبت؟ والقرية أيلة. وقيل: مدين. وقيل: طبرية. والعرب تسمي المدينة قرية. وعن أبي عمرو بن العلاء. مارأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج، يعني رجلين من أهل المدن ﴿حاضرة البحر﴾ قريبة منه راكبة لشاطئه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ إذ يتجاوزون حدّ الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه. وقرئ: يَعدّون بمعنى يعتدون، أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين، ويُعدّون من الإعداد، وكانوا

يعدون آلات الصيد يوم السبت، وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة. والسبت: مصدر سبتت اليهود، إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد، فمعناه: يعدون في تعظيم هذا اليوم، كذلك قوله ﴿يوم سبتهم﴾ معناه يوم تعظيمهم أمر السبت. ويدل عليه قوله ﴿ويوم لا يسبتون﴾ قراءة عمر بن عبد العزيز: يوم إسباتهم. وقرئ: لا يسبتون، بضم الباء. وقرأ علي: لا يسبتون بضم الياء، من أسبتوا. وعن الحسن: لا يسبتون على البناء للمفعول، أي لا يدار عليهم السبت، ولا يؤمرون بأن يسبتوا، فإن قلت: إذ يعدون، وإذ تأتيهم، ما محلهما من الإعراب؟ قلت: أما الأول فمجرور بدل من القرية، والمراد بالقرية أهلها، كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال. ويجوز أن يكون منصوباً بكانت، أو بحاضرة. وأما الثاني فمنصوب بيعدون. ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل. والحيتان السمك، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة ﴿شرّعاً﴾ ظاهرة على وجه الماء. وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض. يقال شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا. وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا ﴿كذلك نبلوهم﴾ أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم ﴿وإذ قالت﴾ معطوف على إذ يعدون، وحكمه حكمه في الإعراب ﴿أمة منهم﴾ جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم، حتى أيسوا من قبولهم، لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم ﴿لم تعظون قوما الله مهلكهم﴾ أي مخترمهم ومطهر الأرض منهم ﴿أومعذبهم عذاباً شديداً﴾ لتماديهم في الشر. وإنما قالوا ذلك، لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم ﴿قالوا معذرة إلى ربكم﴾ أي موعظتنا إبلاء عذر إلى الله. ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط ﴿ولعلهم يتقون﴾ ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء. وقرئ (معذرة) بالنصب، أي وعظناهم معذرة إلى ربكم، أو اعتذرنا معذرة ﴿فلما نسوا﴾ يعني أهل القرية، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا﴾ الظالمين الراكبين للمنكر. فإن قلت: الأمة الذين قالوا (لم تعظون) من أي الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم المعذبين؟ قلت: من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين. وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه، حيث لم يروا فيه غرضا صحيحاً لعلمهم بحال القوم. وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهي لا يؤثر فيه، سقط عنه النهي. وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث. ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر [1] والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه،

---

(١) قوله «على المآصر» المآصر هي المحابس، من أصره الله حبسه. كذا في الصحاح. (ع)

كان ذلك عبثا منك . ولم يكن إلا سببا للتلهى بك . وأما الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أو لفرط حرصهم وجدّهم فى أمرهم كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله (فلعلك باخع نفسك) وقيل : الأمة هم الموعوظون ، لما وعظوا قالوا للواعظين : لم تعظون منا قوما تزعمون أنّ الله مهلكهم أو معذبهم ؟ وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : ياليت شعرى ما فعل بهؤلاء الذين قالوا : لم تعظون قوما ؟ قال عكرمة : فقلت جعلنى الله فداك ، ألا ترى أنهم كرهوا ماهم عليه وخالفوهم وقالوا ، لم تعظون قوما الله مهلكهم ، فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا . وعن الحسن : نجت فرقتان وهلكت فرقة ، وهم الذين أخذوا الحيتان . وروى أنّ اليهود أُمروا باليوم الذى أُمرنا به وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا يوم السبت ، فابتلوا به وحرّم عليهم فيه الصيد ، وأمروا بتعظيمه ، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا بيضا سمانا كأنها المخاض ، لا يرى الماء من كثرتها ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم جاءهم إبليس فقال لهم : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا تسوقون الحيتان إليها يوم السبت ، فلا تقدر على الخروج منها . وتأخذونها يوم الأحد ، وأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا إلى خشبة فى الساحل ، ثم شواه يوم الأحد ، فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى تنوره فقال له : إنى أرى الله سيعذبك ، فلما لم يره عذب أخذ فى السبت القابل حوتين ، فلما رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم ، صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا ، وكانوا نحوا من سبعين ألفاً ، فصار أهل القرية أثلاثا ؛ ثلث نهوا وكانوا نحواً من اثنى عشر ألفاً ، وثلث قالوا : لم تعظون قوما ؟ وثلث هم أصحاب الخطيئة . فلما لم ينتهوا قال المسلمون : إنا لا نساكنكم ، فقسموا القرية بجدار : للمسلمين باب ، وللمعتدين باب . ولعنهم داود عليه السلام ، فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس شأنا ، فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قردة ، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القرود أنسباءها من الإنس ، والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود ، فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه ويبكى ، فيقول : ألم ننهك فيقول برأسه : بلى . وقيل : صار الشباب قردة ، والشيوخ خنازير . وعن الحسن : أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها ، أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة ، هاه وايم الله ، ماحوتٌ أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم . ولكن الله جعل موعدا ، والساعة أدهى وأمرّ ﴿ بئيس ﴾ شديد . يقال : بؤس يبؤس بأسا ، إذا اشتدّ ، فهو بئيس . وقرئ : بئس . بوزن حَذِر . وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء ، كما يقال : كبد فى كبد . وبيس على قلب الهمزة ياء ، كذيب فى ذئب ، وبيئس على فيعل ، بكسر الهمزة وفتحها . وبيس . بوزن ريس ، على قلب همزة بيئس ياء وإدغام الياء فيها ،

وبيس على تخفيف بيس، كهين فى هين. وبائس على فاعل ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ فلما تكبروا عن ترك مانهوا عنه، كقوله (وعتوا عن أمر ربهم)، ﴿قلنا لهم كونوا قردة﴾ عبارة عن مسخهم قردة، كقوله (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) والمعنى: أنّ الله تعالى عذبهم أولا بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك فمسخهم. وقيل: فلما عتوا، تكرير لقوله (فلما نسوا) والعذاب البئيس: هو المسخ.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿تأذن ربك﴾ عزم ربك، وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام؛ لأنّ العازم على الأمر يحدّث نفسه به ويؤذنها بفعله، وأجرى مجرى فعل القسم، كعلم الله، وشهد الله. ولذلك أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله ﴿ليبعثنّ﴾ والمعنى: وإذ حتم ربك وكتب على نفسه ليبعثنّ على اليهود ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ فكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس، إلى أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر. ومعنى ليبعثنّ عليهم ليسلطنّ عليهم، كقوله: بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد.

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿وقطعناهم فى الأرض أمما﴾ وفرقناهم فيها، فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم ﴿منهم الصالحون﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو الذين وراء الصين ﴿ومنهم دون ذلك﴾ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم الكفرة والفسقة. فإن قلت: ما محل دون ذلك؟ قلت: الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح، ونحوه (وما منا إلا له مقام معلوم) بمعنى: وما منا أحد إلا له مقام ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ بالنعم والنقم ﴿لعلهم﴾ ينتهون فينيبون ﴿فخلف﴾ من بعد المذكورين ﴿خلف﴾ وهم الذين كانوا فى زمن رسول الله

صلى الله عليه وسلم ﴿ورثوا الكتاب﴾ التوراة بقيت فى أيديهم بعد سلفهم يقرؤنها ويقفون على مافيها من الأوامر والنواهى والتحليل والتحريم، ولا يعملون بها ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أى حطام هذا الشىء الأدنى، يريد الدنيا وما يتمتع به منها. وفى قوله (هذا الأدنى) تخسيس وتحقير. والأدنى: إما من الدنو بمعنى القرب، لأنه عاجل قريب. وإما من دنو الحال وسقوطها وقلتها، والمراد: ماكانوا يأخذونه من الرشا فى الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ لايؤاخذنا الله بما أخذنا. وفاعل (سيغفر) الجار والمجرور، وهو (لنا) ويجوز أن يكون الأخذ الذى هو مصدر يأخذون ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ الواو للحال، أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين. وغفران الذنوب لايصح إلا بالتوبة، والمصر لاغفران له ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ يعنى قوله فى التوراة: من ارتكب ذنبا عظيما فإنه لايغفر له إلا بالتوبة ﴿ودرسوا مافيه﴾ فى الكتاب من اشتراط التوبة فى غفران الذنوب، والذى عليه المجبرة [1] هو مذهب اليهود بعينه كما ترى. وعن مالك بن دينار رحمه الله، يأتى على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به، قالوا: سيغفر لنا، لأنا لم نشرك بالله شيئا، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداهنة، فهؤلاء من هذه الأمة أشباه الذين ذكرهم الله، وتلا الآية. ﴿والدار الآخرة خير﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿للذين يتقون﴾ الرشا ومحارم الله. وقرئ: ورثوا الكتاب. وألاتقولوا، بالتاء. وادارسوا، بمعنى تدارسوا. وأفلا تعقلون، بالياء والتاء. فإن قلت: ما موقع قوله ﴿ألا يقولوا على الله إلا الحق﴾؟ قلت: هو عطف بيان لميثاق الكتاب. ومعنى ميثاق الكتاب. الميثاق المذكور فى الكتاب. وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب وافتراء على الله. وتقول عليه ماليس بحق. وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان (أن لايقولوا) مفعولا له. ومعناه: لئلا يقولوا. ويجوز أن تكون (أن) مفسرة، و(لاتقولوا) نهياً، كأنه قيل: ألم يقل لهم لاتقولوا على الله إلا الحق؟ فإن قلت: علام عطف قوله (ودرسوا مافيه)؟ قلت: على (ألم يؤخذ عليهم) لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا مافيه.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ فيه وجهان، أحدهما: أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره ﴿إنا لانضيع أجر المصلحين﴾ والمعنى: إنا لانضيع أجرهم؛ لأن المصلحين فى معنى الذين يمسكون

---

(١) قوله «فى غفران الذنوب والذى عليه المجبرة» يعنى أهل السنة، ومذهبهم تجويز المغفرة بمجرد الفضل، لا الطمع فيها مع الاصرار على المعصية. (ع)

بالكتاب ، كقوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) والثانى : أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون ، ويكون قوله (إنا لا نضيع) اعتراضا . وقرئ : يمسكون ، بالتشديد . وتنصره قراءة أبىّ . والذين مسكوا بالكتاب . فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة . ومنها إقامة الصلاة ، فكيف أفردت ؟ قلت : إظهارا لمزية الصلاة لكونها عماد الدين ، وفارقة بين الكفر والإيمان . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه . والذين استمسكوا بالكتاب .

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ قلعناه ورفعناه ، كقوله : ورفعنا فوقهم الطور . ومنه : نتق السقاء ، إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه . والظلة : كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب . وقرئ بالطاء ، من أطل عليه إذا أشرف ﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾ وعلموا أنه ساقط عليهم ، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة . لغلظها وثقلها ، فرفع الله الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم ، وكان فرسخا فى فرسخ . وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم ، فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه ، فلذلك لاترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، ويقولون : هى السجدة التى رفعت عنا بها العقوبة . ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله . لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فلذلك لاترى يهوديا تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنغض لها رأسه [1] ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ على إرادة القول . أى : وقلنا خذوا ما آتيناكم ، أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿بقوة﴾ وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿واذكروا ما فيه﴾ من الأوامر والنواهى ولا تنسوه . أو واذكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه . ويجوز أن يراد : خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة إن كنتم تطيقونه ، كقوله (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض) فانفذوا . ﴿واذكروا ما فيه﴾ من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار ﴿لعلكم تتقون﴾ ما أنتم عليه . وقرأ ابن مسعود : وتذكروا . وقرئ : واذّكروا ، بمعنى . وتذكروا .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

(١) قوله « وأنغض لها رأسه » أى حرك رأسه كالمتعجب . أفاده الصحاح . (ع)

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿ من ظهورهم ﴾ بدل من بنى آدم بدل البعض من الكل. ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم : إخراجهم من أصلابهم نسلا وإشهادهم على أنفسهم . وقوله ﴿ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ﴾ من باب التمثيل والتخييل[1] ؛ ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألست بربكم ؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك . وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام ، وفى كلام العرب. ونظيره قوله تعالى (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ، (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) وقوله :

* إِذْ قَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ الْحَقِ * [2]

* * *

* قَالَتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا قَرْقَارِ * [3]

---

(١) قال محمود : « هذا من باب التمثيل والتخييل ... الخ » قال أحمد : إطلاق التمثيل أحسن ، وقد ورد الشرع به . وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فمردود ، ولم يرد به سمع ، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة . ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر مالم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه ، فلذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالا . وأما كيفية الاخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك .

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ١٨١ فراجعه هناك إن شئت اه مصححه .

(٣) قالت له ريح الصبا قرقار واختلط المعروف بالانكار

لأبى النجم العجلى . و « قرقار » اسم فعل بمعنى قرقر : أمر للسحاب لتنزيله منزلة العاقل ، أى : صوت بالرعد . هذا قول سيبويه . وقال المبرد تبعاً للمازنى : هو حكاية صوت الرعد ، وهو على كل مبنى على الكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين ، لكنه على الأول متحمل للضمير ، فهو مركب . وعلى الثانى : لا ضمير فيه ، فهو مفرد ، لكن فيه أن حكاية الأصوات لا تفيد حثا ولا زجراً . وهنا يفيد الحث لقرينة المقام ولا فعل لها ، وهذا له فعل . يقال : قرقرت الدجاجة إذا صوتت ، إلا أن يقال إن المعنى : صوت يارعد قرقار . وقولهم . قرقرت الدجاجة ، مأخوذ من قرقار ، كما أخذوا العياط من عيط بكسرتين بينهما سكون ، حكاية لصوت المتلاعبين . واختلط يحتمل أنه أمر وهو أنسب بما قبله . ويحتمل أنه ماض . والمراد بالانكار المنكر ، ولا قول للريح . وإنما شبهها حيث تسوق السحاب بمن يصح منه القول ، على طريق المكنية والقول تخييل . ويجوز أن يستعار القول لصوت =

ومعلوم أنه لا قول ثم، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى ﴿ أن تقولوا ﴾ مفعول له، أى فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول، كراهة ﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ لم ننبه عليه ﴿ أو ﴾ كراهة أن ﴿ تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ فاقتدينا بهم، لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم فى الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء. كما لا عذر لآبائهم فى الشرك ـ وأدلة التوحيد منصوبة لهم ـ فإن قلت: بنو آدم وذرياتهم من هم[1]؟ قلت: عنى ببنى آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله، حيث قالوا: عزير ابن الله. وبذرياتهم: الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخلافهم المقتدين بآبائهم. والدليل على أنها فى المشركين وأولادهم: قوله (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل) والدليل على أنها فى اليهود: الآيات التى عطفت عليها هى، والتى عطفت عليها وهى على نمطها وأسلوبها، وذلك قوله (واسألهم عن القرية)، (إذ قالت أمة منهم لم تعظون)، (وإذ تأذن ربك)، (وإذ نتقنا الجبل فوقهم)، (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا). ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ أى كانوا السبب فى شركنا؛ لتأسيسهم الشرك، وتقدمهم فيه، وتركه سنة لنا ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿ نفصل الآيات ﴾ لهم ﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفصلها. وقرئ: ذريتهم، على التوحيد. وأن يقولوا: بالياء.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

= السحاب، على طريق التصريح. ويجوز أنه من باب الكناية. وعلى هذا النحو قوله فى ناقة صالح: فأتاها أحيمر كأخى السهم بعضب، فقال كونى عقيراً. وصرف الممنوع للضرورة. وأضاف الملق لغير الملق، ليدل على الملازمة لوجه شبه العاقر بالمبهم. أى قالت الصبا للسحاب: قرقر بالرعد. واختلط الأماكن التى اعتدت سقيها بالتى كنت لا تبلغها بالسق، أى سو بين الجميع فيه. ويحتمل أن المعروف المطر والمنكر الرعد والبرق والصواعق، أى افعل الجميع على أنه ماض، فهو عطف على قالت. وليس من قول الريح. وعليه فيجوز أيضاً رفع المعروف، ويكون الفعل لازما. وهذا البيت من أبيات الكتاب.

(١) عاد كلامه. قال: «فان قلت بنو آدم وذرياتهم من هم... الخ»؟ قال أحمد: والأظهر أنها شاملة لجملة بنى آدم فتدخل اليهود فى عمومها، لأن كل واحد من بنى آدم يصدق عليه الأمران جميعاً أنه ابن آدم وأنه ذريته، ولا يخرج من هذا إلا آدم عليه السلام، وإنما لم يذكر لظهوره، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى فى فن البلاغة بالف اختصاراً وإيجازاً.

﴿ واتل عليهم ﴾ على اليهود ﴿ نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ هو عالم من علماء بنى إسرائيل . وقيل : من الكنعانيين ، اسمه بلعم بن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله ﴿ فانسلخ منها ﴾ من الآيات ، بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريناً له . أو فأتبعه خطواته . وقرئ : فاتبعه ، بمعنى فتبعه ﴿ فكان من الغاوين ﴾ فصار من الضالين الكافرين . روى أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال : كيف أدعو على من معه الملائكة ، فألحوا عليه ولم يزالوا به حتى فعل ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ مال إلى الدنيا ورغب فيها . وقيل : مال إلى السفالة . فإن قلت : كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذى يستحق به الرفع ؟ قلت : المعنى : ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها . وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات فذكرت المشيئة . والمراد : ما هى تابعة له ومسببة عنه ، كأنه قيل : ولو لزمها لرفعناه بها . ألا ترى إلى قوله (ولكنه أخلد إلى الأرض) فاستدرك المشيئة بإخلاده الذى هو فعله . فوجب أن يكون (ولو شئنا) فى معنى ما هو فعله ، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال : ولو شئنا لرفعناه ولكنا لم نشأ ﴿ فمثله كمثل الكلب ﴾ فصفته التى هى مثل فى الخسة والضعة كصفة الكلب فى أخس أحواله وأذلها وهى حال دوام اللهث[1] به واتصاله ، سواء حمل عليه ـ أى شدّ عليه وهيج فطرد ـ أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه . وذلك أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرّك ، وإلا لم يلهث ، والكلب يتصل لهثه فى الحالتين جميعاً ، وكان حق الكلام أن يقال : ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته ، فوضع قوله (فمثله كمثل الكلب) موضع حططناه أبلغ حط ، لأنّ تمثيله بالكلب فى أخس أحواله وأذلها فى معنى ذلك . وعن ابن عباس رضى الله عنه ، الكلب منقطع الفؤاد ، يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه . وقيل : معناه إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال ، كالكلب إن طردته فسعى لهث ، وإن تركته على حاله لهث . فإن قلت : ما محل الجملة الشرطية ؟ قلت : النصب على الحال ، كأنه قيل : كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثاً فى الحالتين . وقيل : لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره ، وجعل يلهث كما يلهث الكلب ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ،

---

(١) قوله « دوام اللهث به » فى الصحاح لهث الكلب إذا خرج لسانه من التعب أو العطش . وقوله تعالى (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هاربا . وإن تتركه شد عليك ونبح ، فيتعب نفسه فى الحالين فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان . (ع)

وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به ﴿ فاقصص ﴾ قصص بلعم الذى هو نحو قصصهم ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ فيحذرون مثل عاقبته، إذ ساروا نحو سيرته، وزاغوا شبه زيغه، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحى فيزدادوا إيقاناً بك وتزداد الحجة لزوماً لهم.

سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿ ساء مثلا القوم ﴾ أى مثل القوم. أوساء أصحاب مثل القوم. وقرأ الجحدرى ساء مثل القوم. ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ إما أن يكون معطوفا على كذبوا، فيدخل فى حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب، بآيات الله وظلم أنفسهم. وإما أن يكون كلاما منقطعا عن الصلة، بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب، وتقديم المفعول به للاختصاص، كأنه قيل: وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّها إلى غيرها.

مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿ فهو المهتدى ﴾ حمل على اللفظ. و ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ حمل على المعنى.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿ كثيرا من الجن والإنس ﴾ هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم فى أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون مايتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان، وجعلهم ـ لإعراقهم [1] فى الكفر وشدة شكائمهم فيه، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار ـ مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم فى الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار ومنه كتاب عمر رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد: بلغنى أن أهل الشام اتخذوا لك دلوكا [2] عجن

(١) قوله «لاعراقهم» يقال أعرق الشجر والنبات ـ بالعين المهملة ـ إذا امتدت عروقه فى الأرض. وأغرق النازع فى القوس ـ بالمعجمة ـ أى استوفى مدها اه من الصحاح. (ع)

(٢) قوله «دلوكا» فى الصحاح: الدلوك ما يدلك به من طيب وغيره. (ع)

بخمر وإنى لأظنكم آل المغيرة ذرء النار [١] . ويقال لمن كان عريقاً فى بعض الأمور : ماخلق فلان إلا لكذا . والمراد وصف حال اليهود [٢] فى عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع علمهم أنه النبي الموعود . وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم ، كأنهم خلقوا للنار ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ فى عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبر ﴿ بل هم أضل ﴾ من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبر ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ الكاملون فى الغفلة . وقيل : الأنعام تبصر منافعها ومضارّها فتلزم بعض ما تبصره ، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ التى هى أحسن الأسماء [٣] ؛ لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك ﴿ فادعوه بها ﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه ، كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم [٤] : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، يا نخىّ . أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى ، نحو أن يقولوا : يا ألله ، ولا يقولوا : يا رحمن وقد قال الله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ويجوز أن يراد : ولله الأوصاف الحسنى [٥] ، وهى الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق

(١) أخرجه أبو عبيد فى غريبه : حدثنى إسماعيل بن عياش عن حميد بن ربيعة عن سليمان بن موسى : أن عمر كتب إلى خالد ـ فذكره منقطعا .

(٢) قوله « والمراد وصف حال اليهود » إنما فسره بذلك لأنه تعالى يجب عليه الأصلح للعبد عند المعتزلة ، وخلقه لجهنم ليس أصلح له . وعند أهل السنة لا يجب عليه شيء . (ع)

(٣) قال محمود : « معنى الحسنى التى هى أحسن الأسماء ... الخ » قال أحمد : أى مما يجوز عليه وإن لم يرد إطلاقه شرعا ، كالشريف والعارف ، ونحو ذلك .

(٤) قال محمود : « كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم ... الخ » قال أحمد : وفى هذا التأويل بعد ، لأن ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه إلحاد فى العرف ، وإنما يطلق على فعل لا على ترك ، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها إلى ذاته ، وهذا أدل على الرحمن منه على مثل أبيض الوجه ونحوه ، فان هذا ليس من أسمائه ، إلا أن يقال : أضافه إليه تنزيلا على زعمهم .

(٥) قال محمود : « ويجوز أن يراد : ولله الأوصاف الحسنى ، وهي الوصف بالعدل والخير ... الخ » قال أحمد : لا يدع حشو العقائد الفاسدة فى غير موضع يسعها ، فان يكن المراد الأوصاف ، فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة والانفراد بالمخلوقات ، حتى لا يشرك معه عباده فى خلق أفعالهم . ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل ، وأن كل

فصفوه بها، وذروا الذين يلحدون [1] فى أوصافه فيصفونه بمشيئة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل فى التشبيه كالرؤية ونحوها. وقيل: إلحادهم فى أسمائه: تسميتهم [2] الأصنام آلهة، واشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

لما قال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً) فأخبر أن كثيراً من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار، أتبعه قوله ﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق﴾ وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا قرأها «هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها [3]» (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) وعنه صلى الله عليه وسلم «إنّ من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى عليه السلام [4]» وعن الكلبى: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب. وقيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

ـــــــــــــــــــــــــــ

= قضائه عدل، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم، وأن وعده الصدق وقوله الحق، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها، إلى غير ذلك من أوصافه الجليلة، وذروا الذين يلحدون فى أوصافه فيجحدونها، ثم يزعمون أنه لا تشمل قدرته المخلوقات، بل هى مقسومة بينه وبين عباده، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه مصلحة، ويحجرون واسعاً من مغفرته وعفوه وكرمه على الخطائين من موحديه، إلى غير ذلك من الالحاد المعروف بالطائفة المتلقبين عدلية، المزكين لأنفسهم وهو أعلم بمن اتقى.

(١) قوله «وذر الذين يلحدون» يريد أهل السنة القائلين: كل كائن فهو مراد ومخلوق له تعالى ولو شراً، وتجوز رؤيته، خلافا للمعتزلة فى كل ذلك، كما تقرر فى محله. (ع)

(٢) قال محمود: «وقيل إلحادهم فى أسمائه: تسميتهم ... الخ» قال أحمد: وهذا تفسير حسن ملائم، والله أعلم.

(٣) ذكره الثعلبي عن قتادة وابن جريج. وإسناده إليهما مذكور فى أول كتابه.

(٤) ذكره الثعلبي عن الربيع بن أنس، وإسناده إليه فى أول كتابه. رواه أحمد من حديث عمران بن حصين بلفظ «لا تزال طائفة من أمتى على الحق حتى يأتى أمر الله، وينزل عيسى ابن مريم» وفى تاريخ البخارى عن عبد الطفاوى عن جابر نحوه، ورواه أبو يعلى من وجه آخر، وزاد «فيقول إمامهم: تقدم يا روح الله فيقول: أنتم أحق أمر كرم به هذه الأمة».

الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة. قال الأعشى:

فَلَوْ كُنْتَ فِي جُبٍّ ثَمَانِينَ قَامَةً ... وَرَقِيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

لَيَسْتَدْرِجَنْكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهِرَّهُ ... وَتَعْلَمَ أَنِّى عَنْكُمُ غَيْرُ مُفْحَمِ (١)

ومنه: درج الصبي إذا قارب بين خطاه. وأدرج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء. ودرج القوم: مات بعضهم فى أثر بعض. ومعنى ﴿سنستدرجهم﴾ سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم ﴿من حيث لا يعلمون﴾ ما يراد بهم. وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم فى الغىّ، فكلما جدّد عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجدّدوا معصية، فيتدرّجون فى المعاصى بسبب ترادف النعم، ظانين أنّ مواترة النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هى خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه ﴿وأملى لهم﴾ عطف على (سنستدرجهم) وهو داخل فى حكم السين ﴿إنّ كيدى متين﴾ سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد، من حيث أنه فى الظاهر إحسان وفى الحقيقة خذلان ﴿ما بصاحبهم﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿من جنة﴾ من جنون، وكانوا يقولون شاعر مجنون. وعن قتادة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم علا الصفا فدعاهم فخذاً فخذاً يحذرهم بأس الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا المجنون، بات يهوت (٢) إلى الصباح (٣) ﴿أو لم ينظروا﴾ نظر استدلال ﴿فى ملكوت السموات والأرض﴾ فيما تدلان عليه من عظم الملك. والملكوت: الملك العظيم ﴿وما خلق الله من شيء﴾ وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء، من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف ﴿وأن عسى﴾ أن مخففة من الثقيلة، والأصل: وأنه عسى، على أن الضمير ضمير الشأن. والمعنى: أو لم ينظروا فى أن الشأن والحديث عسى ﴿أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ ولعلهم يموتون عما قريب، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم. قبل مغافصة الأجل (٤) وحلول العقاب. ويجوز أن يراد باقتراب الأجل: اقتراب الساعة، ويكون من «كان» التى فيها ضمير الشأن. فإن قلت: بم يتعلق قوله ﴿فبأىّ حديث بعده يؤمنون﴾؟ قلت: بقوله (عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) كأنه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان

---

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٩٥ فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٢) قوله «بات يهوت» أى يصيح. (ع)

(٣) أخرجه الطبرى باسناد صحيح إلى قتادة قال «وذكر لنا - فذكره. فأنزل الله (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة الآية)

(٤) قوله «وقبل مغافصة الأجل» أى أخذه إياهم على حين غفلة. اه من الصحاح (ع)

بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا.

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

قرئ ﴿ويذرهم﴾ بالياء والنون، والرفع على الاستئناف. ويذرهم، بالياء والجزم عطفا على محل ﴿فلا هادى له﴾ كأنه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿يسئلونك﴾ قيل إن قوما من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً، فإنا نعلم متى هى، وكان ذلك امتحاناً منهم، مع علمهم أن الله تعالى قد استأثر بعلمها. وقيل: السائلون قريش. و﴿الساعة﴾ من الأسماء الغالبة. كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة، لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو على العكس لطولها، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق. ﴿أيان﴾ بمعنى متى. وقيل: اشتقاقه من أى فعلان منه، لأن معناه أى وقت وأى فعل، من أويت إليه، لأن البعض آو إلى الكل متساند إليه. قاله ابن جنى، وأبى أن يكون من «أين» لأنه زمان، و«أين» مكان. وقرأ السلمى: إيان، بكسر الهمزة [1] ﴿مرساها﴾ إرساؤها، أو وقت إرسائها؛ أى إثباتها وإقرارها. وكل شىء ثقيل رسوه ثباته واستقراره. ومنه: رسى الجبل وأرسى السفينة. والمرسى: الأنجر الذى ترسى به، ولا أثقل من الساعة، بدليل قوله (ثقلت فى السموات والأرض) والمعنى: متى يرسيها الله ﴿إنما علمها﴾ أى علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحداً من ملك مقرب ولا نبى مرسل، يكاد يخفيها من نفسه، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أى لا تزال خفية، لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها فى وقتها بغتة، لا يجليها [2] بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه، لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها ﴿ثقلت فى السموات والأرض﴾ أى كل من أهلها من الملائكة

(١) قوله «وقرأ السلمى إيان بكسر الهمزة» فى الصحاح «أيان» سؤال عن زمان و«إيان» بكسر الهمزة لغة سليم. وبه قرأ السلمى (إيان يبعثون). (ع)

(٢) قوله «بغتة لا يجليها» لعله: وقيل لا يجليها، بل لعله «أو لا يجليها». (ع)

والثقلين أهمه شأن الساعة، ويوده أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه. أو ثقلت فيها لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدها وأهوالها. أو لأن كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهى ثقيلة فيها ﴿إلا بغتة﴾ إلا فجأة على غفلة منكم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه [1] والرجل يسقى ماشيته، والرجل يقوم سلعته فى سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه [2]» ﴿كأنك حفىّ عنها﴾ كأنك عالم بها. وحقيقته: كأنك بليغ فى السؤال عنها [3]، لأن من بالغ فى المسألة عن الشيء والتنقير عنه، استحكم علمه فيه ورصن [4] وهذا التركيب معناه المبالغة. ومنه: إحفاء الشارب. واحتفاء البقل: استئصاله. وأحفى فى المسألة، إذا ألحف [5]. وحفى بفلان وتحفى به: بالغ فى البرّ به. وعن مجاهد: استحفيت عنها

(١) قوله «والرجل يصلح حوضه» فى البخارى: يليط حوضه. وروى «يلوط» أى يصلحه اه (ع)

(٢) أخرجه الطبرى بالاسناد المذكور إلى قتادة قال ذكر لنا ـ فذكره. وفى الصحيحين عن أبى هريرة رفعه «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ـ الحديث».

(٣) قال محمود «معناه كأنك بليغ فى السؤال عنها ... الخ» قال أحمد وفى هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى إلا فى الكتاب العزيز، وهو أجل من أن يشارك فيها، وذاك أن المعهود فى أمثال هذا التكرير أن الكلام إذا بنى على مقصد، واعترض فى أثنائه عارض فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببدايته، وقد تقدم لذلك فى الكتاب العزيز أمثال، وسيأتى وهذا منها، فانه لما ابتدأ الكلام بقوله (يسئلونك عن الساعة أيان مرساها) ثم اعترض ذكر الجواب المضمن فى قوله (قل إنما علمها عند ربى) إلى قوله (بغتة) أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الانكار عليهم، وهو المضمن فى قوله (كأنك حفى عنها) وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده فطرى ذكره تطرية عامة، ولا نراه أبدا يطرى إلا بنوع من الاجمال كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم، فمن ثم قيل (يسألونك) ولم يذكر المسؤل عنه وهو الساعة، اكتفاء بما تقدم، فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال (قل إنما علمها عند الله) ويلاحظ هذا فى تلخيص الكلام بعد بسطه. ومن أدق ما وقفت عليه العرب فى هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد تطرية للذكر قوله:

عجل لنا هذا وألحقنا بذا ال ... الشحم إنا قد مللناه بجل

أى فقط، فذكر الألف واللام خاتمة للأول من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثانى استبعد العهد بالأولى، فطرى ذكرها وأبقى الأولى فى مكانها. ومن ثم استدل ابن جنى على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء فهو بيت كامل وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن، قال: ولو كان بيتا واحدا لم يكن عهد الأولى متباعدا، فلم يكن محتاجا إلى تكريرها. ألا ترى أن عبيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات وجعل آخر المصراع الأول أل، لم يعدها أول المصراع الثانى، لأنها بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً. وذلك قوله:

ياخليلى اربعا واستخبرا ال ... منزل الدارس من أهل الحلال

مثل سحق البرد عفى بعدك ال ... قطر مغناه وتأويب الشمال

ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتا، فانظر هذه النكتة كيف بالغت العرب فى رعايتها حتى عدت القريب بعيدا والمتقاصر مديدا، فتأملها فانها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان فى صناعتى العربية والبيان، والله المستعان.

(٤) قوله «ورصن» أى: ثبت وتمكن اه. (ع)

(٥) قوله «إذا ألحف» أى ألح وعنف اه. (ع)

السؤال حتى علمت . وقرأ ابن مسعود : كأنك حفيّ بها ، أى عالم بها بليغ فى العلم بها . وقيل (عنها) متعلق بيسئلونك : أى يسئلونك عنها كأنك حفيّ أى عالم بها . وقيل : إن قريشاً قالوا له إن بيننا وبينك قرابة ، فقل لنا متى الساعة ؟ فقيل : يسئلونك عنها كأنك حفيّ تتحفى بهم فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوى علمها عن غيرهم ، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله فى إخبارك به ، لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص، كسائر ما أوحى إليك . وقيل : كأنك حفيّ بالسؤال عنها تحبه وتؤثره ، يعنى أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذى استأثر الله به ولم يؤته أحداً من خلقه . فإن قلت : لم كرر يسئلونك وإنما علمها عند الله ؟ قلت : للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله (كأنك حفيّ عنها) وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق فى كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة ، منهم محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رحمهما الله ﴿ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾ أنه العالم بها ، وأنه المختص بالعلم بها .

قُلْ لَاأَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿قل لاأملك لنفسى﴾ هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب : أى أنا عبد ضعيف لاأملك لنفسى اجتلاب نفع ولادفع ضرر كالمماليك والعبيد ﴿إلا ماشاء﴾ ربى ومالكى من النفع لى والدفع عنى ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ لكانت حالى على خلاف ما هى عليه ، من استكثار الخير ، واستغزار المنافع ، واجتناب السوء والمضار ، حتى لا يمسنى شىء منها . ولم أكن غالباً مرة ومغلوبا أخرى فى الحروب ، ورابحا وخاسرا فى التجارات ، ومصيبا مخطئا فى التدابير ﴿إن أنا إلا﴾ عبد أرسلت نذيراً وبشيراً ، وما من شأنى أنى أعلم الغيب ﴿لقوم يؤمنون﴾ يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً ، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم . أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفا أى إلا نذير للكافرين ، وبشير لقوم يؤمنون .

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

﴿من نفس واحدة﴾ وهى نفس آدم عليه السلام ﴿وجعل منها زوجها﴾ وهى حواء، خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه. أو من جنسها كقوله (جعل لكم من أنفسكم أزواجا). ﴿ليسكن إليها﴾ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وقال (ليسكن) فذكر بعد ما أنث فى قوله: واحدة. منها زوجها، ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم. ولأن الذكر هو الذى يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان التذكير أحسن طباقا للمعنى. والتغشى: كناية عن الجماع. وكذلك الغشيان والإتيان ﴿حملت حملا خفيفا﴾ خف عليها، ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلنه. وقد تسمع بعضهن تقول فى ولدها: ما كان أخفه على كبدى حين حملته ﴿فمرت به﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق[١] وقيل (حملت حملا خفيفا) يعنى النطفة (فمرت به) فقامت به وقعدت. وقرأ ابن عباس رضى الله عنه: فاستمرت به، وقرأ يحيى بن يعمر: فمرت به، بالتخفيف. وقرأ غيره: فمارت به، من المرية، كقوله (أفتمارونه) وأفتمرونه. ومعناه: فوقع فى نفسها ظن الحمل، فارتابت به ﴿فلما أثقلت﴾ حان وقت ثقل حملها كقولك: أقربت[٢]. وقرئ: أثقلت، على البناء للمفعول: أى أثقلها الحمل (دعوا الله ربهما) دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذى هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا ﴿لئن آتيتنا﴾ لئن وهبت لنا ﴿صالحاً﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنه وبرئ[٣]. وقيل. ولداً ذكراً، لأن الذكورة من الصلاح والجودة. والضمير فى ﴿آتيتنا﴾ و ﴿لنكونن﴾. لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما[٤]

---

(١) قوله «من غير إخداج ولا إزلاق» إخداج: أى نقصان. ولا إزلاق: أى إسقاط. (ع)

(٢) قوله «كقولك أقربت» أى قرب ولادها. (ع)

(٣) قوله «وبرئ» لعله: وبرئ من الآفات. (ع)

(٤) قال محمود: «الضمير فى (آتيتنا) و (لنكونن) لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما ... الخ» قال أحمد وأسلم من هذين التفسيرين وأقرب ـ والله أعلم ـ أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكان المعنى ـ والله أعلم ـ خلقكم جنسا واحدا، وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر الجنس الآخر الذى هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت. وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون، لأن المشركين منهم (أئذا مامت لسوف أخرج حياً) و (قتل الانسان ما أكفره) ،(إن الانسان لفى خسر) كما أنه كذلك على التفسير الأول أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء وهو واقع من بعضهم وعلى التفسير الثانى أضافه إلى قصى وعقبه، والمراد البعض؛ فهذا السؤال وارد على التأويلات الثلاثة، وجوابه واحد ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه فى التأويل الأول. ومما ينصرف إلى التأويل الثانى من استبعاد تخصيص قصى بهذا الأمر المشترك فى الجنس، وهو جعل زوجته منه وكون المراد بذلك أن يسكن إليها لأن ذلك عام فى الجنس، والله أعلم.

﴿ فلما آتاهما ﴾ ما طلباه من الولد الصالح السوىّ ﴿ جعلا له شركاء ﴾ أى جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. وكذلك ﴿ فيما آتاهما ﴾ أى آتى أولادهما، وقد دلّ على ذلك بقوله ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ حيث جمع الضمير. وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبدمناة [1] وعبد شمس وما أشبه ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم. ووجه آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم آل قصى ألا ترى إلى قوله فى قصة أم معبد [2] :

فَيَا لَقُصَيٍّ مَازَوَى اللهُ عَنْكُمُ ... بِهِ مِنْ فَخَارٍ لَا يُبَارَى وَسُودَدِ [3]

ويراد هو الذى خلقكم من نفس قصىّ، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوىّ جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما

---

(١) قوله «وعبد مناة» فى النسفى: وعبد مناف (ع)

(٢) هذا طرف من حديث أم معبد فى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم. وقد أخرجه الحاكم مطولا. من حديثها وحديث أخيها حبيش بن خالد. ومن حديث زوجها أبى معبد، وطريق أم معبد رويناها فى الغيلانيات. وفى الطبرانى وفى الدلائل لأبى نعيم والبيهقى.

(٣)
جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم ترحلا ... فيافوز من أمسى رفيق محمد
فيالقصى ما زوى الله عنكم ... به من فخار لايبارى وسؤدد
ليهن بنى سعد مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

لرجل من الجن، سمعوا صوته بمكة ولم يروا شخصه، حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مع أبى بكر مهاجراً وجهل أهلها خبرهما بعد خروجهما من الغار. ويروى «جزاية» بالتاء كهداية. ويروى «قالا» بدل «حلا» والمعنى متقارب، إلا أن الثانى خاص بالاستراحة فى منتصف النهار. و «خيمتى» نصب على التوسع بحذف حرف الجر و «أم معبد» امرأة من بنى سعد نزلا عندها بالبر والخير. ذكر بعضهم أن اسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية و «يالقصى» أصله «يا آل قصى» فخفف وقد اختلف فيها، فقيل: أصلها يا آل قصى أيضاً. وقيل: هى حرف جر، فقيل زائد. وقيل أصلى متعلق بيا عند سيبويه، وبالفعل الذى نابت عنه عند ابن جنى «وما» استفهامية، والمعنى: يا آل قصى، أتدرون ماقبضه الله ومنعه بخروج رسول الله من بينكم من فخار لايضاهى ومن شرف عظيم؟ وفى هذا الاستفهام معنى التعجب والاستعظام، حتى كأنّ المستفهم عنه لايعرف كنهه. ويجوز أن اللام للتعجب، و«ما» موصول بدل من «قصى». ويجوز أن اللام للاستغاثة، كأنه استغاث بهم لعلهم يتداركون ما فاتهم. وساد فى قومه: شرف، ومصدره السؤدد، بالهمز وضم الدال، وبالواو فتفتح داله كما هنا. والأصل: السود ـ بالضم ـ كالحسن، فزيدت الدال للالحاق ببرقع وجندب. «وليهن» مجزوم بلام الأمر، والمقصود الدعاء. و «مقام» فاعل، و «بنى» مفعول. يقال: هنأه الطعام ونحوه، بالهمز: إذا نفعه وحمدت عاقبته عنده، وهو من بابى نفع وضرب، ويبدل همزه بما يناسب ماقبله، وقد يحذف البدل كما هنا، كأنه أصلى، لكن الحذف عامى. والمرصد والمرصاد: الطريق يرصد فيه الرصد. وقوله «للمؤمنين» فيه حث على الهجرة.

الأربعة بعد مناف وعبد العزى وعبد قصىّ وعبد الدار ، وجعل الضمير فى (يشركون) لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما فى الشرك ، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه . وقرئ : شركا ، أى ذوى شرك وهم الشركاء ، أو أحدثا لله شركا فى الولد .

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾

أجريت الأصنام مجرى أولى العلم فى قوله ﴿ وهم يخلقون ﴾ بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة . والمعنى : أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله ، وهم يخلقون ؟ لأن الله عز وجل خالقهم . أو لا يقدر على اختلاق شيء ، لأنه جماد . وهم يخلقون : لأن عبدتهم يختلقونهم، فهم أعجز من عبدتهم ﴿ ولا يستطيعون لهم ﴾ لعبدتهم ﴿ نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم ﴿ وإن تدعوهم ﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿ إلى الهدى ﴾ أى إلى ما هو هدى ورشاد ، وإلى أن يهدوكم . والمعنى : وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى ، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبتكم ، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله . ويدل عليه قوله (فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) ﴿ سواء عليكم أدعوتموهم ﴾ أم صمتم عن دعائهم ، فى أنه لا فلاح معهم . فإن قلت : هلا قيل : أم صمتم ؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية ؟ قلت : لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم ، كقوله (وإذا مس الناس ضرّ) فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم ، فقيل : إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم ، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم .

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله ﴿ عباد أمثالكم ﴾ وقوله (عباد أمثالكم) استهزاء بهم ، أى قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم . ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال ﴿ ألهم أرجل يمشون بها ﴾ وقيل : عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم . وقرأ سعيد بن جبير : إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم بتخفيف إن ونصب عباداً أمثالكم ، والمعنى : ماالذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم ، على إعمال « إن » النافية عمل « ما » الحجازية ﴿ قل ادعوا شركاءكم ﴾ واستعينوا بهم فى عداوتى ﴿ ثم كيدون ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم ﴿ فلا تنظرون ﴾ فإنى لا أبالى بكم ، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله ، وكانوا قد خوّفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك ، كما قال قوم هود له : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) قال لهم : (إنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون) .

إِنَّ وَلِـيِّـيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْـكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾

﴿ إنّ ولي الله ﴾ أى ناصرى عليكم الله ﴿ الذى نزل الكتاب ﴾ الذى أوحى إلىّ كتابه وأعزنى برسالته ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخذلهم .

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُـدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

﴿ ينظرون إليك ﴾ يشبهون الناظرين إليك ، لأنهم صوّروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشىء ينظر إليه ﴿ وهم لا يبصرون ﴾ وهم لا يدركون المرئىّ

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

﴿ العفو ﴾ ضد الجهد : أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم ، وتسهل من غير كلفة ، ولا تداقهم ، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا ، كقوله صلى الله عليه وسلم « يسروا ولا تعسروا » [1] قال :

خُـذِى ٱلْعَفْوَ مِنِّى تَسْتَدِيمِى مَوَدَّتِى وَلَا تَنْطِقِى فِى سَوْرَتِى حِينَ أَغْضَبُ [2]

---

(١) متفق عليه من حديث أنس أتم منه .

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٣٦٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وقيل : خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة ، فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً . والعرف : المعروف والجميل من الأفعال ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ، ولا تمارهم ، واحلم عنهم ، وأغض على ما يسوؤك منهم . وقيل : لما نزلت الآية سأل جبريل فقال : لا أدرى حتى أسأل [١] ، ثم رجع فقال : يا محمد ، إن ربك أمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وعن جعفر الصادق : أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق . وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها .

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ وإما ينخسنك منه نخس . بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿ فاستعذ بالله ﴾ ولا تطعه . النزغ والنسغ : الغرز والنخس ، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصى . وجعل النزغ نازغا ، كما قيل جدّ جدّه . وروى أنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف يارب والغضب [٢] » فنزل (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب ، كقول أبى بكر رضى الله عنه : إنّ لى شيطاناً يعترينى [٣]

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

(١) أخرجه الطبرى من طريق سفيان بن عيينة عن أبى المرادى قال لما أنزل الله فذكره وهذا منقطع . وأخرجه ابن مردويه موصولا من حديث جابر ومن حديث قيس بن سعد ، وزاد فى أوله « لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمزة قال : والله لأمثلن بسبعين منهم . فجاء جبريل بهذه الآية ، فذكر الحديث » وفى مسند أحمد عن عقبة بن عامر « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : ياعقبة ، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا : أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » وغفل الطيبى فقال فى حديث الأصل : رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر .

(٢) أخرجه الطبرى من رواية ابن وهب عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم « لما نزلت » فذكره مفصلا .

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده . وابن سعد فى الطبقات قالا : حدثنا وهب بن جرير حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن يقول « خطب أبو بكر رضى الله عنه يوما ، فقال : أما والله . ما أنا بخيركم ولقد كنت لمقامى هذا كارها . ولوددت أن فيكم من يكفينى أفرط ، وأن أعمل فيكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا أقوم لها ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتصم بالوحى . وكان معه ملك . إن لى شيطانا يعترينى . فإذا غضبت فاجتنبونى الحديث » رواه عبدالرزاق عن معمر عن رجل عن الحسن نحوه . ورويناه فى جزء الأنصارى من طريق أبى هلال عن الحسن قال « لما استخلف أبو بكر بدأ بكلام والله ما تكلم به أحد غيره » فذكر نحوه .

﴿ طيف من الشيطان ﴾ لمة منه مصدر ، من قولهم : طاف به الخيال يطيف طيفاً. قال :

* أَنَّى أَلَمَّ بِكَ الْخَيَالُ يَطِيفُ * (١)

أو هو تخفيف طيف فيعل ، من طاف يطيف كلين . أو من طاف يطوف كهين . وقرئ : طائف، وهو يحتمل الأمرين أيضاً . وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان ، وأنّ المتقين هـــذه عادتهم : إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته ﴿ تذكروا ﴾ ما أمر الله به ونهى عنه ، فأبصروا السداد ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم . وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين ، فإن الشياطين يمدونهم فى الغى ، أى يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم . وقرئ : يُمدّونهم من الامداد . ويمادّونهم ، بمعنى يعاونونهم ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا. وقوله (وإخوانهم يمدونهم) كقوله :

* قَوْمٌ إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِى كَوَاثِبِهَا * (٢)

فى أنّ الخبر جار على ما هو له . ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين، ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين . فيكون الخبر جارياً على ما هو له ، والأوّل أوجه . لأن إخوانهم فى مقابلة الذين اتقوا . فإن قلت : لم جمع الضمير فى إخوانهم والشيطان مفرد ؟ قلت : المراد به الجنس ، كقوله (أولياؤهم الطاغوت) .

---

(١) أنى ألم به الخيال يطيف ومطافه بك ذكرة وشغوف

لكعب بن زهير . وأنى : استفهام تعجبي بمعنى كيف ، أو من أين . وألم : أى نزل للزيارة . والخيال : مايراه النائم . وطاف به الخيال يطيف طيفا ومطافا : أقبل عليه . وطاف حوله يطوف طوافا وطوفانا : حام عليه ودار حوله ، ويكنى به عن اللمس . وقوله «يطيف» جملة حالية مؤكدة أو مؤسسة . ومطافه : أى طيفه هو سبب التذكر ووصول الحب لشغاف القلب ، فأقام المسبب مقام السبب ، وعبر عن نفسه أولا بضمير الغيبة ، وثانيا بالخطاب . على طريق الالتفات فرارا من شبهة التكرار . وروى بك بالخطاب .

(٢) قوم إذا الخيل جالوا فى كواثبها فوارس الخيل لاميل ولا قدم

«الخيل» الأفراس . و«الكاثبة» للفرس القربوس ، وللبعير الغارب ، وللرجل الكاهل . وللحمار السيسيا . و«الميل» جمع أميل ، وهو الذى لايثبت على ظهر فرسه . والقدم : جمع أقدم ، وهو اللئيم الضعيف . أو جمع قدم بالسكون بمعناه . وضمير «جالوا» للقوم ، لجرى الخبر على غير ما هو له . أى إذا الخيل جالوا هم فى سروجها وما يبرز الضمير هكذا ، لأن محل وجوبه فى الصفة لا الفعل ، أو لأمن اللبس ، لأن الواو ضمير العقلاء . فإن قيل : إن «إذا» لاتضاف إلا للجملة الفعلية ، فالخيل فاعل فعل محذوف . أجيب بمنع أنها لاتضاف إلا للفعلية ، وبأن ذلك فى الشرطية لا الظرفية كما هنا . وقيل : يحتمل على بعد أن الخيل بمعنى الفرسان ، وضمير كواثبها للأفراس المدلول عليها بذكر الخيل : أى قوم إذا الفرسان جالوا فى كواثب الأفراس ، فوارس الخيل ، ثابتون عليها لامائلون عن ظهورها ، ولا عاجزون كأن أيديهم مغلولة .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

اجتبى الشيء ، بمعنى جباه لنفسه : أى جمعه ، كقولك : اجتمعه ، أو جبى إليه فاجتباه : أى أخذه ، كقولك : جليت إليه العروس فاجتلاها ، ومعنى ﴿لولا اجتبيتها﴾ هلا اجتمعتها ، افتعالا من عند نفسك ؛ لأنهم كانوا يقولون : (إن هذا إلا إفك مفترى) أو هلا أخذتها منزّلة عليك مقترحة ؟ ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى﴾ ولست بمفتعل للآيات ، أو لست بمقترح لها ﴿هذا بصائر﴾ هذا القرآن بصائر ﴿من ربكم﴾ أى حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى ، أو هو بمنزلة بصائر القلوب .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن فى صلاة وغير صلاة . وقيل : كانوا يتكلمون فى الصلاة فنزلت ، ثم صار سنة فى غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا فى مجلس يقرأ فيه القرآن . وقيل معناه : وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له . وقيل : معنى فاستمعوا له : فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه .

وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

﴿واذكر ربك فى نفسك﴾ هو عامّ فى الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك ﴿تضرّعاً وخيفة﴾ متضرعاً وخائفاً ﴿ودون الجهر﴾ ومتكلما كلاماً دون الجهر ، لأنّ الإخفاء أدخل فى الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر ﴿بالغدوّ والآصال﴾ لفضل هذين الوقتين . أو أراد الدوام . ومعنى بالغدوّ : بأوقات الغدوّ ، وهى الغدوات . وقرئ : والإيصال ، من آصل إذا دخل فى الأصيل ، كأقصر وأعتم [1] وهو مطابق للغدوّ ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه .

إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

---

(١) قوله «كأقصر وأعتم» أقصر : أى دخل فى القصر أى العشى ، وأعتم : دخل فى العتمة ، أى وقت العشاء . أفاده الصحاح . (ع)

﴿ إنّ الذين عند ربك ﴾ هم الملائكة صلوات الله عليهم . ومعنى (عند) دنو الزلفة ، والقرب من رحمة الله تعالى وفضله ، لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته ﴿ وله يسجدون ﴾ ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره ، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من « قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً ، وكان آدم شفيعاً له يوم القيامة »[١]

سورة الأنفال

مدنية ، [إلا من آية ٣٠ إلى غاية آية ٣٦ فمكية]

وهي خمس وسبعون آية [نزلت بعد البقرة]

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

النفل : الغنيمة ، لأنها من فضل الله تعالى وعطائه . قال لبيد :

* إنّ تقوى ربّنا خيرُ نَفَل *[٢]

(١) ذكرت أسانيده في تفسير آل عمران وسيأتي في آخر الكتاب .

(٢)
إن تقوى ربنا خير نفل ... وبإذن الله ريثي وعجل
أحمد الله فلا ند له ... بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال ومن شاء أضل

للبيد بن ربيعة العامري ، شبه الثواب الذي وعده الله عباده على التقوى بالنفل ـ بالتحريك ـ وهو ما يعده الامام

والنفل ما ينفله الغازى ، أى يعطاه زائداً على سهمه من المغنم ، وهو أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء فى الحرب : من قتل قتيلا فله سلبه . أو قال لسرية : ما أصبتم فهو لكم ، أو فلكم نصفه أو ربعه . ولا يخمس النفل ، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه . وعند الشافعى رحمه الله فى أحد قوليه : لا يلزم . ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين فى غنائم بدر ، وفى قسمتها ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ، ولمن الحكم فى قسمتها ؟ أللمهاجرين أم للأنصار ؟ أم لهم جميعاً؟ فقيل له : قل لهم هى لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء ، ليس لأحد غيره فيها حكم . وقيل شرط لمن كان له بلاء فى ذلك اليوم أن ينفله ، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ، فلما يسر الله لهم الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا ، فقال الشبان : نحن المقاتلون ، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات : كنا ردءا لكم وفئة تنحازون إليها إن انهزمتم[2] وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : المغنم قليل والناس كثير : وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك . فنزلت . وعن سعد بن أبى وقاص : قتل أخى عمير يوم بدر ، فقتلت به سعيد بن العاص[3] وأخذت سيفه فأعجبنى ، فجئت به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقلت : إنّ الله قد شفى صدرى من المشركين ، فهب لى هذا السيف فقال : ليس هذا لى ولا لك ، اطرحه فى القبض[4] فطرحته وبى مالا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخى وأخذ سلبى ، فما جاوزت إلا قليلا حتى جاءنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقد أنزلت

ـــ المجاهد تحريضا على اقتحام الحرب فاستعار النفل له على طريق التصريحية وأخبر به عن التقوى لأنها سببه . ويجوز استعارة النفل للتقوى بجامع النفع ، وباذن الله وتسهيله . ريثى : أى بطئى . وعجل : أى سرعتى ، فحذفت ياء الاضافة للوزن ، فلا ند : أى لا مثل له ، بيديه : أى بقدرته التى هى كالآلة فى أفعاله تعالى كاليدين لأفعالنا . ويحتمل أنه شبه خزائنه سبحانه باليد فيها شيء ، لسهولة تصرفه فيما فيها واختصاصه به ، فالباء بمعنى فى . وتثنية اليد للمبالغة فى التشبيه . ولامانع من جعله ترشيحا للاستعارة على الوجهين . «ماشاء فعل» أى ماأراده فعله ، وبين ذلك بقوله «من هداه طرق الخير اهتدى» حتما حال كونه طيب الشأن . ومن شاء إضلاله أضله حتما ، أى تركه ونفسه ومنعه لطفه ، حتى يضل حال كونه كاسف البال أى حزين القلب فى العاقبة ، فهي حال منتظرة ، أو سيء الحال والشأن ، وهذا محذوف معلوم من المقابلة بما قبله .

(١) أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والحاكم من حديث أبى أمامة عن عبادة بن الصامت . قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فشهدنا معه بدرا . فالتقى الناس . فهزم الله العدو . فذكر الحديث فى اختلافهم فى قسمة الغنائم . قال : فنزلت ويسألونك عن الأنفال ـ الآية. فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم بين المسلمين .

(٢) أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم من رواية داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتى مكان كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا . فتسارع إليه الشبان وثبت الشيوخ تحت الرايات ـ الحديث» قلت : وأما قوله «حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين» فليس فى هذا الحديث .

(٣) (قوله فقتلت به سعيد بن العاص) فى حواشى البيضاوى : أنه العاص بن سعيد . (ع)

(٤) قوله «فى القبض» القبض ـ كسبب ـ : المال المقبوض . (ع)

سورة الأنفال ، فقال : ياسعد ، إنك سألتني السيف وليس لى ، وإنه قد صار لى فاذهب فخذه [١]
وعن عبادة بن الصامت : نزلت فينا يامعشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فقسمه بين المسلمين على السواء، وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين [٢] . وقرأ ابن محيصن : يسألونك علنفال ، بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وإدغام نون عن فى اللام : وقرأ ابن مسعود : يسألونك الأنفال ، أى يسألك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال . فان قلت : ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول فى قوله ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ ؟ قلت : معناه أن حكمها مختص بالله ورسوله ، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر فى قسمتها مفوّضا إلى رأى أحد ، والمراد : أنّ الذى اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواسى المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات ، فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافى ﴿فاتقوا الله﴾ فى الاختلاف والتخاصم ، وكونوا متحدين متآخين فى الله ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ وتآسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم . وعن عطاء : كان الاصلاح بينهم أن دعاهم وقال : اقسموا غنائمكم بالعدل ، فقالوا : قد أكلنا وأنفقنا ، فقال : ليردّ بعضكم على بعض . فان قلت : ما حقيقة قوله (ذات بينكم) ؟ قلت : أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق ، كقوله (بذات الصدور) وهى مضمراتها . لما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها : ذات البين ، كقولهم : اسقنى ذا إنائك ، يريدون ما فى الإناء من الشراب . وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ، ليعلمهم أنّ كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها . ومعنى قوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم كاملى الإيمان . واللام فى قوله ﴿إنما المؤمنون﴾ إشارة إليهم . أى إنما الكاملو الإيمان من صفتهم كيت وكيت والدليل عليه قوله (أولئك هم المؤمنون حقا) . ﴿وجلت قلوبهم﴾ فزعت . وعن أمّ الدرداء : الوجل فى القلب كاحتراق السعفة [٣] ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال . بلى ، قالت : فادع الله فإنّ الدعاء يذهبه . يعنى فزعت لذكره استعظاما له ، وتهيبا من جلاله وعزّة

(١) أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وأبو شيبه وأبو عبيد فى الأموال : وسعيد ابن منصور كلهم قال : حدثنا أبو معاوية عن الشيبانى عن محمد بن عبيد بن أبى عون عنه قال أبوعبيد : كذايقول : سعيد بن العاصى . والصواب العاص بن سعيد . وفى روايتهم فقلت سعيد بن العاصى لم يقولوا به .

(٢) أخرجه أحمد وإسحاق والطبرى من طريق ابن إسحاق عن عبدالرحمن عن الحارث عن سليمان بن مكحول ـ عن أبى أمامة عنه به .

(٣) قوله «كاحتراق السعفة» أى غصن النخلة ، كما فى الصحاح . (ع)

سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه ، وهذا الذكر خلاف الذكر فى قوله (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) لأن ذلك ذكر رحمته ورأفته وثوابه . وقيل : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له : اتق الله فينزع . وقرئ : وجات ، بالفتح ، وهى لغة نحو «وبق» فى «وبق»[1]. وفى قراءة عبد الله : فرقت ﴿زادتهم إيمانا﴾ ازدادوا بها يقينا وطمأنينة فى نفس . لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه ، وقد حمل على زيادة العمل . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : الإيمان سبع وسبعون شعبة ، أعلاها : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان[2] . وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : إن للإيمان سننا وفرائض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم ، لا يخشون ولا يرجون إلا إياه . جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ﴿حقا﴾ صفة للمصدر المحذوف ، أى أولئك هم المؤمنون إيمانا حقا ، أو هو مصدر مؤكد للجملة التى هى (أولئك هم المؤمنون) كقولك : هو عبد الله حقا ، أى حق ذلك حقا . وعن الحسن أنّ رجلا سأله : أمؤمن أنت ؟ قال : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا مؤمن . وإن كنت تسألنى عن قوله (إنما المؤمنون) فوالله لا أدرى أمنهم أنا أم لا . وعن الثورى : من زعم أنه مؤمن بالله حقا ، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنه ، فقد آمن بنصف الآية . وهذا إلزام منه ، يعنى كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقا ، فلا يقطع بأنه مؤمن حقا ، وبهذا تعلق من يستثنى فى الإيمان . وكان أبو حنيفة رضى الله عنه ممن لا يستثنى فيه . وحكى عنه أنه قال لقتادة : لم تستثنى فى إيمانك ؟ قال : اتباعا لإبراهيم عليه السلام فى قوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) فقال له : هلا اقتديت به فى قوله (أو لم تؤمن قال بلى) ؟ ﴿درجات﴾ شرف وكرامة وعلو منزلة ﴿ومغفرة﴾ وتجاوز لسيئاتهم ﴿ورزق كريم﴾ نعيم الجنة . يعنى لهم منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم ، وهذا معنى الثواب .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ﴿٥﴾

---

(١) قوله «نحو وبق فى وبق ... الخ» وبق : أى هلك . وفرقت : خافت . (ع)

(٢) أخرجه مسلم وأصحاب السنن وابن حبان برواية أبى صالح عن أبى هريرة . وهو فى البخارى باختصار .

﴿كما أخرجك ربك﴾ فيه وجهان [١] أحدهما. أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدإ محذوف تقديره. هذه الحال كحال إخراجك. يعنى أنّ حالهم فى كراهة مارأيت من تنفيل الغزاة، مثل حالهم فى كراهة خروجك للحرب. والثانى: أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر فى قوله (الأنفال لله والرسول) أى الأنفال استقرت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون. و ﴿من بيتك﴾ يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها، لأنها مهاجره ومسكنه، فهى فى اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه ﴿بالحق﴾ أى إخراجاً ملتبسا بالحكمة والصواب الذى لا محيد عنه ﴿وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ فى موضع الحال، أى أخرجك فى حال كراهتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشأم فيها تجارة عظيمة [٢] معها أربعون راكبا، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو ابن هشام، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: ياأهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول. عيركم أموالكم، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها: إنى رأيت عجبا رأيت كأنّ ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة. فحدّث بها العباس فقال أبو جهل: مايرضى رجالهم أن يتنبئوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير. فى المثل السائر: لا فى العير ولا فى النفير، فقيل له: إنّ العير أخذت طريق الساحل ونجت، فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله لا يكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمور، ونقيم القينات والمعازف ببدر، فيتسامع جميع العرب بمخرجنا، وإن محمداً لم يصب العير، وإنا قد أعضضناه [٣]، فمضى

(١) قال محمود: «فى «كما» وجهان، أحدهما: أن يرتفع محل الكاف ... الخ» قال أحمد: وكان جدى أبو العباس أحمد الفقيه الوزير رحمه الله يذكر فى معنى الآية وجها أوجه من هذين، وهو أن المراد تشبيه اختصاصه عليه السلام بالأنفال، وتفويض أمرها إلى حكمه من حيث الاثابة والجزاء. باخراجه من بيته مطيعا لله تعالى سامعا لأمره راضيا بحكمه على كراهة المؤمنين لذلك فى الطاعة، فشبه الله تعالى ثوابه بهذه المزية بطاعته المرضية، فكما بلغت طاعته الغاية فى نوع الطاعات، فكذلك بلغت إثابة الله له الغاية فى جنس المثوبات. وجماع هذا المعنى هو المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام «الأجر على قدر النصب» ولك على هذا المعنى أن تجعل الكاف مرفوعة ومنصوبة على حسب التقدير، والله الموفق.

(٢) هذه القصة منتزعة من سيرة ابن هشام إلا قوله «وإن فى أهل العير عمرو بن هشام فان عمرو بن هشام هو أبو جهل ولم يكن فى العير، وإنما كان فى النفير وأخرجه الطبرى من قول ابن إسحاق، وبعضه عن ابن عباس وعن عروة وعن السدى بتقديم وتأخير وزيادة ونقص وفى مغازى الواقدى عن محمود بن لبيد بعضه. وعن سعيد بن المسيب بعضه.

(٣) قوله «وإنا قد أعضضناه» فى الصحاح: أعضضته الشيء فعضه. وفى الحديث «فأعضوه بهن أبيه» ويقال: =

بهم إلى بدر ـ وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة ـ فنزل جبريل عليه السلام فقال : يامحمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إمّا العير ، وإمّا قريشا ، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال : ماتقولون : إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول ، فالعير أحب إليكم أم النفير ؟ قالوا : بل العير أحب إلينا من لقاء العدو ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم ردّد عليهم فقال : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل . فقالوا يارسول الله . عليك بالعير ودع العدو ، فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فأحسنا ، ثم قام سعد بن عبادة فقال : انظر أمرك فامض . فو الله لو سرت إلى عدن أبين [1] ماتخلف عنك رجل من الأنصار ، ثم قال المقداد بن عمرو يارسول الله ، امض لما أمرك الله ، فإنا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، مادامت عين منا تطرف ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أشيروا علىّ أيها الناس وهو يريد الأنصار ، لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى [2] عليهم نصرته إلا على عدوّ دهمه بالمدينة ، فقام سعد بن معاذ فقال : لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل ، قال : قد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعلّ الله يريك منا ماتقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد ، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإنّ الله وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم . وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس

ـــ أعضضته سيفى ، أى ضربته به . وأعض القوم . أكلت إبلهم العض ، وهو بالضم علف الأمصار ، وبالكسر الشوك الصغير . (ع) .

(١) قوله «إلى عدن أبين» فى الصحاح : أبين اسم رجل نسب إليه عدن ، فقيل : عدن أبين . (ع)

(٢) قوله «يتخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى» لعله «أن تكون» أولعله «الأنصار ترى» وبالجملة فأحد الحرفين يغنى عن الآخر . (ع)

دونها شيء، فناداه العباس وهو فى وثاقه : لا يصلح [١] فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لم ؟ قال : لأنّ الله وعدك إحدى الطائفتين . وقد أعطاك ما وعدك ، وكانت الكراهة من بعضهم لقوله (وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون) .

يُجَـٰدِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْـدَ مَاتَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

والحق الذى جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلقى النفير ، لإيثارهم عليه تلقى العير ﴿بعد ماتبين﴾ بعد إعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ينصرون . وجدالهم : قولهم ما كان خروجنا إلا للعير ، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب ؟ وذلك لكراهتهم القتال . ثم شبه حالهم فى فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة ، بحال من يعتل إلى القتل [٢] ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن ، وهو مشاهد لأسبابه ، ناظر إليها لا يشك فيها . وقيل : كان خوفهم لقلة العدد ، وأنهم كانوا رجالة . وروى أنه ما كان فيهم إلا فارسان .

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾

﴿إذ﴾ منصوب بإضمار اذكر . و ﴿أنها لكم﴾ بدل من إحدى الطائفتين . والطائفتان : العير والنفير . ﴿غير ذات الشوكة﴾ العير ، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا ، والشوكة كانت فى النفير لعددهم وعدتهم : والشوكة : الحدّة مستعارة من واحدة الشوك . ويقال : شوك القنا لشباها [٣] . ومنها قولهم : شائك السلاح ، أى تتمنون أن تكون لكم العير ، لأنها الطائفة التى لاحدّة لها ولا شدّة ، ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿أن يحق الحق﴾ أن يثبته ويعليه ﴿بكلماته﴾ بآياته المنزلة فى محاربة ذات الشوكة ، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم فى قليب بدر . والدابر الآخر : فاعل من دبر . إذا أدبر . ومنه دابرة الطائر . وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال ، يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف

(١) أخرجه الترمذى وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والبزار وابن حبان والحاكم من رواية إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) قوله «بحال من يعتل إلى القتل» أى يجذب جذبا عنيفا . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «شوك القنا لشباها» شباة كل شيء : حد طرفه ، والجمع شبا وشبوات ، كذا فى الصحاح . وشباها جمع مضاف لضمير القنا . (ع)

الأمور[1] وأن لا تلقوا ما رزؤكم فى أبدانكم وأحوالكم[2] والله عز وجلّ يريد معالى الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلوّ الكلمة ، والفوز فى الدارين . وشتان ما بين المرادين . ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزّكم وأذلهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناه العير وما فيها . وقرئ : بكلمته ، على التوحيد .

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

فإن قلت : بم يتعلق قوله ﴿ليحق الحق﴾ ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك ، ما فعله إلا لهما . وهو إثبات الإسلام وإظهاره ، وإبطال الكفر ومحقه . فإن قلت : أليس هذا تكريراً ؟ قلت : لا ، لأنّ المعنيين متباينان ، وذلك أنّ الأوّل تمييز بين الإرادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها ، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذى هو سيد الأغراض . ويجب أن يقدّر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى : وقيل : قد تعلق بيقطع .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾

فإن قلت : بم يتعلق ﴿إذ تستغيثون﴾ ؟ قلت : هو بدل من (إذ يعدكم) وقيل بقوله (ليحق الحق ويبطل الباطل) واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بدّ من القتال ، طفقوا يدعون الله ويقولون : أى ربنا انصرنا على عدوّك ، يا غياث المستغيثين أغثنا . وعن عمر رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلثمائة ، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض ـ فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضى الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه ، وقال : يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك[3] ﴿أنى

---

(١) قال محمود : «يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفاسف الأمور ... الخ» قال أحمد : والتحقيق فى التمييز بين الكلامين أن الأول ذكر الارادة فيه مطلقة غير مقيدة بالواقعة الخاصة ، كأنه قيل : وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق وتمحيق الكفر على الاطلاق ، ولارادته أن يحق الحق ويبطل الباطل خصكم بذات الشوكة ، فبين الكلامين عموم وخصوص ، وإطلاق وتقييد . وفى ذلك ما لا يخفى من المبالغة فى تأكيد المعنى بذكره على وجهين : إطلاق ، وتقييد . والله أعلم .

(٢) قوله «وأحوالكم» لعله وأموالكم . (ع)

(٣) أخرجه مسلم من رواية ابن عباس عن عمر رضى الله عنه .

بمدكم﴾ أصله بأنى ممدكم ، فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله . وعن أبى عمرو أنه قرأ (إنى ممدكم) بالكسر ، على ارادة القول ، أو على إجراء استجاب مجرى (قال) لأنّ الاستجابة من القول . فإن قلت : هل قاتلت الملائكة يوم بدر ؟ قلت : اختلف فيه ، فقيل : نزل جبريل فى يوم بدر فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر ، وميكائيل فى خمسمائة على الميسرة وفيها علىّ بن أبى طالب فى صور الرجال ، عليهم ثياب بيض وعمائم بيض وقد أرخوا أذنابها بين أكتافهم . فقاتلت . وقيل : قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين . وعن أبى جهل أنه قال لابن مسعود : من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمع ولا نرى شخصا ؟ قال : من الملائكة ، فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أنتم . وروى أنّ رجلا من المسلمين بينما هو يشتد فى أثر رجل من المشركين : إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه ، فنظر إلى المشرك قد خر مستلقيا وشقّ وجهه ، فحدث الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صدقت ذاك من مدد السماء [1] . وعن أبى داود المازنى : تبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل إليه[2] سيفى ، وقيل لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين ، وإلا فملك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا كلهم ، فإنّ جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط ، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة . وقرئ (مردفين) بكسر الدال وفتحها ، من قولك : ردفه إذا تبعه . ومنه قوله تعالى (ردف لكم بعض الذى تستعجلون) بمعنى ردفكم . وأردفته إياه : إذا أتبعته . ويقال . أردفته ، كقولك أتبعته ، إذا جئت بعده ، فلا يخلو المكسور الدال من أن يكون بمعنى متبعين ، أو متبعين ، فإن كان بمعنى متبعين [3] فلا يخلو من أن يكون بمعنى : متبعين بعضهم بعضاً ، أو متبعين بعضهم لبعض، أو بمعنى : متبعين إياهم المؤمنين ، أى يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم ، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدمونهم بين أيديهم وهم على ساقتهم ، ليكونوا على أعينهم وحفظهم . أو بمعنى متبعين أنفسهم ملائكة آخرين ، أو متبعين غيرهم من الملائكة : ويعضد هذا الوجه قوله تعالى فى سورة آل عمران (بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) . (بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ومن قرأ (مردفين) بالفتح فهو بمعنى متبعين أو متبعين . وقرئ : مردّفين ، بكسر الراء وضمها وتشديد الدال : وأصله مرتدفين ، أى مترادفين أو متبعين ، من ارتدفه ، فأدغمت تاء الافتعال

---

(١) هذا طرف من حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى الذى قبله .

(٢) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى : حدثنى أبى عن رجال من بنى مازن عن أبى داود المازنى ـ فذكره ؛ ومن طريقه أخرجه إسحاق والطبرى وغيرهما .

(٣) قوله «فان كان بمعنى متبعين» يقرأ هذا بالتسكين ، ولم يذكر مقابله وهو ما كان بمعنى متبعين بالتشديد . (ع)

فى الدال ، فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل ، أو على إتباع الدال . وبالضم على إتباع الميم . وعن السدى : بآلاف من الملائكة . على الجمع ليوافق مافى سورة آل عمران . فإن قلت : فبم يعتذر لمن قرأ على التوحيد ولم يفسر المردفين بإرداف الملائكة ملائكة آخرين ، والمردفين بارتدافهم غيرهم ؟ قلت : بأن المراد بالألف من قاتل منهم . أو الوجوه منهم الذين من سواهم أتباع لهم .

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى ﴿وما جعله﴾ ؟ قلت : إلى قوله (أنى ممدكم) لأن المعنى : فاستجاب لكم بإمدادكم . فإن قلت : ففيمن قرأ بالكسر ؟ قلت : إلى قوله (أنى ممدكم) لأنه مفعول القول المضمر فهو فى معنى القول . ويجوز أن يرجع إلى الإمداد الذى يدل عليه ممدكم ﴿إلا بشرى﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ، كالسكينة لبنى إسرائيل ، يعنى أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم وذلتكم ، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر ، وتسكيناً منكم ، وربطا على قلوبكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ يريد ولا تحسبوا النصر من الملائكة ، فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة . أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله ، والمنصور من نصره الله .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ (١١)

﴿إذ يغشاكم﴾ بدل ثان من (إذ يعدكم) أو منصوب بالنصر ، أو بما فى (من عند الله) من معنى الفعل ، أو بما جعله الله . أو بإضمار اذكر . وقرئ : يغشيكم بالتخفيف والتشديد [1] ونصب النعاس

---

(١) قال محمود : «وقرئ (إذ يغشيكم) بالتخفيف والتشديد ... الخ» قال أحمد : ومثل هذا النظر يجرى عند قوله تعالى (هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعا) لأن فاعل الاراءة هو الله عز وجل ، وفاعل الخوف والطمع هم ، وقد انتصبا مفعولا لها فالجواب : أنه لما كان الله تعالى إذا أراهم البرق رأوه ، كانوا فاعلين فى المعنى وكان المعنى وهو الذى يريكم البرق فترونه خوفا وطمعا ، فهذا مثل آية الأنفال ، فان المفعول فى المعنى فاعل . وسيأتى مزيد بحث فى هذه النكتة . وقد جرى القلم بتعجيلها ههنا ، وذلك أن لقائل أن يقول : فاعل يغشى النعاس إياهم هو الله تعالى ، وهو فاعل الأمنة أيضا وخالقها وحينئذ يتحد فاعل الفعل والعلة فيرتفع السؤال ويزول الاشكال على قواعد السنة التى تقتضى نسبة أفعال الخلق الى الله تعالى على أنه خالقها ومبدعها ، ولمورد السؤال أن يقول المعتبر أن يكون فاعل الفعل متصفا بالعلة كما هو متصف بالفعل ، والبارى عز وجل . إن كان خالق الأمنة للعبد وكان بها آمنا فالعبد هو الفاعل اللغوى وإن كان الله تعالى هو الفاعل حقيقة وعقيدة ، وحينئذ يفتقر السؤال إلى الجواب السالف والله الموفق .

والضمير لله عزّ وجل . و﴿أمنة﴾ مفعول له . فإن قلت : أما وجب أن يكون فاعل الفعل المعلل والعلة واحداً ؟ قلت : بلى ، ولكن لما كان معنى يغشاكم النعاس . تنعسون ، انتصب أمنة على أن النعاس والأمنة لهم . والمعنى : إذ تنعسون أمنة بمعنى أمنا ، أى لأمنكم، و﴿منه﴾ صفة لها : أى أمنة حاصلة لكم من الله عزّ وجلّ . فإن قال : فعلى غير هذه القراءة [١] قلت : يجوز أن تكون الأمنة بمعنى الإيمان ، أى ينعسكم إيماناً منه . أو على يغشيكم النعاس فتنعسون أمناً ، فإن قلت : هل يجوز أن ينتصب على أنّ الأمنة للنعاس الذى هو فاعل يغشاكم ؟ أى يغشاكم النعاس لأمنه على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازى وهو لأصحاب النعاس على الحقيقة ، أو على أنه أنامكم فى وقت كان من حق النعاس فى مثل ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم ؟ وإنما غشيكم أمنة حاصلة من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل ؟ قلت : لا تبعد فصاحة القرآن عن احتماله ، وله فيه نظائر ، وقد ألم به من قال :

يَهَابُ النَّوْمُ أَنْ يَغْشَى عُيُونًا تَهَابُكَ فَهُوَ نَفَّارٌ شَرُودُ [٢]

وقرئ (أمنة) بسكون الميم . ونظير «أمن أمنة» «حي حياة» ونحو «أمن أمنة» «رحم رحمة» والمعنى : أن ما كان بهم من الخوف كان يمنعهم من النوم ، فلما طامن الله قلوبهم وأمنهم رقدوا وعن ابن عباس رضى الله عنه : النعاس فى القتال : أمنة من الله ، وفى الصلاة : وسوسة من الشيطان [٣] ﴿وينزل﴾ قرئ بالتخفيف والتثقيل . وقرأ الشعبي : ما ليطهركم به : قال ابن جنى : ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره ، فكأنه قال : ما للطهور . و﴿رجز الشيطان﴾ وسوسته إليهم ، وتخويفه إياهم من العطش . وقيل : الجنابة ، لأنها من تخييله . وقرئ : رجس الشيطان ، وذلك أن إبليس تمثل لهم ، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الماء [٤] ونزل المسلمون فى كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا فاحتلم أكثرهم . فقال لهم : أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة ، وقد عطشتم ، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش ، فإذا قطع العطش أعناقكم

---

(١) عاد كلامه . قال : فان قلت فعلى غير هذه القراءة قلت كذلك ... الخ » قال أحمد : وجه حسن بشرط الأدب فى إسقاط لفظة التخييل ، وقد تقدمت له أمثالها .

(٢) للزمخشرى ، يقول : يخاف النوم أن يغزو عيونا تخافك فالنوم كثير النفار والشرود ، شبهه بحيوان يصح منه الخوف على طريق المكنية . وقوله فهو نفار شرود : تفريع للترشيح . ونسبة الخوف للعيون مجاز عقلى .

(٣) لم أجده عن ابن عباس . والظاهر أنه تحرف وإنما هو ابن مسعود . كذا ذكره الثعلبي . وأخرجه عبد الرزاق والطبرى . وكذا ابن أبى شيبة والطبرانى كلهم من حديث ابن مسعود موقوفا .

(٤) الثعلبي بغير إسناد . وأخرجه الطبرانى وابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس مطولا وفى هذا ماليس فيه وهو عند أبى نعيم والبيهقى فى الدلائل من هذا الوجه .

مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة ، فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا ، فأنزل الله عز وجل المطر ، فمطروا ليلا حتى جرى الوادى واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الحياض على عدوة الوادى ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا وتوضؤوا ، وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام ، وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس . والضمير فى (به) للماء . ويجوز أن يكون للربط ، لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت القدم فى مواطن القتال .

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)

﴿إذ يوحى﴾ يجوز أن يكون بدلا ثالثاً من (إذ يعدكم) وأن ينتصب بيثبت ﴿أنى معكم﴾ مفعول يوحى وقرئ : إنى ، بالكسر على إرادة القول ، أو على إجراء يوحى مجرى يقول ، كقوله (أنى ممدكم) والمعنى : أنى معينكم على التثبيت فثبتوهم . وقوله ﴿سألقى ... فاضربوا﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لقوله (إنى معكم فثبتوا) ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب فى قلوب الكفرة ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم . واجتماعهما غاية النصرة . ويجوز أن يكون غير تفسير ، وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم فى القتال ، وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدون بالملائكة . وقيل : كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفون وجهه فيأتى فيقول : إنى سمعت المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفن ، ويمشى بين الصفين فيقول : أبشروا ، فإن الله ناصركم لأنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه . وقرئ (الرعب) بالتثقيل ﴿فوق الأعناق﴾ أراد أعالى الأعناق التى هى المذابح ، لأنها مفاصل ، فكان إيقاع الضرب فيها حزا وتطييراً للرؤس . وقيل : أراد الرؤس لأنها فوق الأعناق ، يعنى ضرب الهام . قال :

* وَأَضْرِبُ هَامَةَ الْبَطَلِ الْمُشِيحِ * (١)

* * *

غَشَيْتُهُ وَهُوَ فِي جَأْوَاءَ بَاسِلَةٍ عَضْبًا أَصَابَ سَوَاءَ الرَّأْسِ فَانْفَلَقَا (٢)

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة (٤٠٩) فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) وفارس فى غمار الموت منغمس إذا تألى على مكروهة صدقا
غشيته وهو فى جأواء باسلة عضبا أصاب سواء الرأس فانفلقا

للعباس بن قيس الكنانى والغمر الماء الكثير فشبه الموت بسيل عظيم على سبيل الكناية . والغمار والانغماس فيه تخييل . —

والبنان : الأصابع ، يريد الأطراف . والمعنى : فاضربوا المقاتل والشوى ، لأنّ الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل ، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً . ويجوز أن يكون قوله (سألقى) إلى قوله (كل بنان) عقيب قوله (فثبتوا الذين آمنوا) تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به ، كأنه قال : قولوا لهم قولى (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) أو كأنهم قالوا : كيف نثبتهم ؟ فقيل : قولوا لهم قولى (سألقى) فالضاربون على هذا هم المؤمنون .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل ، ومحله الرفع على الابتداء و﴿بأنهم﴾ خبره ، أى ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم . والمشاقة : مشتقة من الشق ، لأن كلا المتعاديين فى شق خلاف شق صاحبه ، وسئلت فى المنام عن اشتقاق المعاداة فقلت : لأن هذا فى عدوة وذاك فى عدوة ، كما قيل : المخاصمة والمشاقة ، لأن هذا فى خصم أى فى جانب ، وذاك فى خصم ، وهذا فى شق ، وذاك فى شق . والكاف فى (ذلك) لخطاب الرسول عليه السلام ، أو لخطاب كل واحد ، وفى ﴿ذلكم﴾ للكفرة ، على طريقة الالتفات . ومحل (ذلكم) الرفع على ذلكم العقاب ، أو العقاب ذلكم ﴿فذوقوه﴾ ويجوز أن يكون نصباً على : عليكم ذلكم فذوقوه ، كقولك : زيداً فاضربه ﴿وأن للكافرين﴾ عطف على ذلكم فى وجهيه ، أو نصب على أن الواو بمعنى مع . والمعنى : ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذى لكم فى الآخرة ، فوضع الظاهر موضع الضمير ، وقرأ الحسن : وإن للكافرين بالكسر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)

ـــ ويجوز أن تستعار النهار لأهوال الموت على طريق التصريحية . ويحتمل أن تستعار لجيش ذلك الفارس على طريق التصريحية أيضا . وأضافه للموت لأنه ينشأ عنها والانغماس ترشيح . « إذا تألى » أى حلف «على مكروهة» أى حرب «صدق» أى بر فى يمينه «غشيته» ألحقت به والحال أنه «فى جأواء» أى كتيبة عظيمة اسودت أو اخضرت بكثرة السلاح والدروع ، من الجوة مثل الحوة ، أو من الجؤوة مثل الحمرة ، وهى هى بشرط أن يرهقها سواد . وقيل السواد يرهقه خضرة لصدأ دروعها «باسلة» أى مانعة عابسة . ويجوز أن الجأواء الدرع الصدئة . وعضبا : مفعول غشيته ، أى سيفا قاطعا «أصاب» أى طلب ونال «سواء» أى وسط الرأس «فانفلق» الرأس أو وسطه ، مدح قرنه مع ظفره به ، ليدل على بلوغه غاية الشجاعة .

﴿زحفا﴾ حال من الذين كفروا. والزحف: الجيش الدهم [١] الذى يرى لكثرته كأنه يزحف، أى يدب دبيباً، من زحف الصبى إذا دبّ على إسته قليلا قليلا، سمى بالمصدر والجمع زحوف والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفرّوا، فضلا أن تدانوهم فى العدد أو تساووهم، أو حال من الفريقين. أى إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم، أو حال من المؤمنين كأنهم أشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين، وهم زحف من الزحوف اثنى عشر ألفاً، وتقدمة [٢] نهى لهم عن الفرار يومئذ. وفى قوله (ومن يولهم يومئذ) أمارة عليه ﴿إلا متحرّفا لقتال﴾ هو الكرّ بعد الفرّ، يخيل عدوّه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها ﴿أو متحيزاً﴾ أو منحازاً ﴿إلى فئة﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها. وعن ابن عمر رضى الله عنه: خرجت سرية وأنا فيهم ففرّوا [٣] فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت. فقلت: يارسول الله نحن الفرّارون، فقال: بل أنتم العكارون [٤] وأنا فئتكم. وانهزم رجل من القادسية، فأتى المدينة إلى عمر رضى الله عنه فقال: ياأمير المؤمنين هلكت، فررت من الزحف، فقال عمر رضى الله عنه: أنا فئتك [٥]. وعن ابن عباس رضى الله عنه: إنّ الفرار من الزحف من أكبر الكبائر. فإن قلت: بم انتصب (إلا متحرفا)؟ قلت: على الحال، وإلا لغو. أو على الاستثناء من المولين، أى: ومن يولهم إلا رجلا منهم متحرّفا أو متحيزاً. وقرأ الحسن (دبره) بالسكون ووزن متحيز متفيعل لا متفعل، لأنه من حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوّز.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا أقبلوا على التفاخر، فكان القائل يقول: قتلت

---

(١) قوله «الجيش الدهم» هو العدد الكثير. والدهمة: السواد، كذا فى الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وتقدمة نهى لهم» لعله عطف على المعنى، أى: إشعاراً وتقدمة نهى. (ع)

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى والبخارى فى الأدب المفرد من رواية يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عمر رضى الله عنهما. وكذا أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار فى مسانيدهم. قال الترمذى: لانعرفه إلا من رواية يزيد بن أبى زياد.

(٤) قوله «بل أنتم العكارون» من عكر إذا عطف وكر. أفاده الصحاح. (ع)

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة من رواية منصور عن إبراهيم. قال: فر رجل فذكره.

وأسرت ، ولما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه قريش قد جاءت [(١)] بخيلائها وفخرها يكذبون رسلك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فقال ـ لما التقى الجمعان ـ لعلى رضى الله عنه : أعطنى قبضة من حصباء الوادى ، فرمى بها فى وجوههم وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه ، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم [(٢)] ، فقيل لهم ﴿فلم تقتلوهم﴾ والفاء جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ﴿ولكنّ الله قتلهم﴾ لأنه هو الذى أنزل الملائكة وألقى الرعب فى قلوبهم ، وشاء النصر والظفر وقوى قلوبكم ، وأذهب عنها الفزع والجزع ﴿وما رميت﴾ أنت يا محمد ﴿إذ رميت ولكنّ الله رمى﴾ يعنى أنّ الرمية التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنّ صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأنّ أثرها الذى لا تطيقه البشر فعل الله عزّ وجلّ ، فكأنّ الله هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلا . وقرئ : ولكن الله

---

(١) قال محمود : «ولما جاءت قريش قال عليه الصلاة والسلام : هذه قريش جاءت ... الخ» قال أحمد رحمه الله : أوضح مصداق فى التمييز بين الحقيقة والمجاز . ألا تراك تقول للبليد : ليس بحمار ، ويصدق عليه مع صدق قولك فيه على سبيل التجوز إنه حمار . فاذا ثبت لك أن من مميزات المجاز صدق سلبه بخلاف الحقيقة ، فافهم أن هذه الآية تكفح وجوه القدرية بالرد ، وذلك أن الله تعالى أثبت الفعل للخلق ونفاه عنهم ، ولا محمل لذلك إلا أن ثبوته لهم مجاز ، والفاعل والخالق حقيقة هو الله تعالى ، فأثبته لهم مجازاً ، ونفاه عنهم حقيقة . وإياك أن تعرج على تنكيس الزمخشرى فى تأويل الآية ، فانه نظر أعوج ، وباطل محلج ، والحق أبلج ، والله الموفق بكرمه .

(٢) قال الطيبى : لم يذكر أحد من أئمة الحديث أن هذه الرمية كانت ببدر ، ثم حديث سلمة بن الأكوع . قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا فذكر القصة ، وهو تعقيب غير مرضى فقد روى الواقدى فى المغازى عن ابن أبى الزهرى عن الزهرى عن عروة بن الزبير قال «لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فذكر نحوه إلى قوله : ما وعدتنى» وروى الطبرى من وجه آخر عن هشام بن عروة عن عروة قال «لما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا قال : فزعموا أنه قال ، هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى . فلما أقبلوا استقبلوا فحثا فى وجوههم فهزمهم الله تعالى» وروى الطبرى من رواية على بن أبى طلحة قال «ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يوم بدر ، فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا . فأمره جبريل فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم . فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب . فولوا مدبرين» وعنده أيضا من طريق أسباط عن السدى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى يوم بدر : أعطنى حصباء من الأرض . فناوله حصا عليه تراب ، فرمى به فى وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينه من ذلك التراب ، ثم ردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم . وأنزل الله (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ـ الآية)» . وروى الواقدى فى المغازى أيضاً من طريق حكيم بن حزام فى قصة بدر قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ كفاً من الحصباء فرمانا بها وقال : شاهت الوجوه . فما بقى منهم أحد إلا امتلأ وجهه وعيناه فانهزم أعداء الله ، والمسلمون يقتلون ويأسرون . وأخرجه الطبرى من وجه آخر عن حكيم بن حزام نحوه دون ما فى آخره .

قتلهم. ولكن الله رمى، بتخفيف «لكن» ورفع ما بعده ﴿وليبلى المؤمنين﴾ وليعطيهم ﴿بلاء حسنا﴾ عطاء جميلا. قال زهير:

* فَأَبْلاهُمَا خَيْرَ الْبَلاَءِ الَّذِى يَبْلُو * (١)

والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل مافعل، وما فعله إلا لذلك ﴿إن الله سميع﴾ لدعائهم ﴿عليم﴾ بأحوالهم.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨)

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، ومحله الرفع: أى الغرض ذلكم ﴿وأنّ الله موهن﴾ معطوف على ذلكم. يعنى: أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين. وقرئ: موهن، بالتشديد. وقرئ على الإضافة، وعلى الأصل الذى هو التنوين والإعمال.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهمّ انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعانى، إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على حق فانصرنا. وروى أنهم قالوا: اللهمّ انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين. وروى أنّ أبا جهل قال يوم بدر: اللهمّ أينا كان أهجر وأقطع للرحم فأحنه اليوم. أى فأهلكه. وقيل: (إن تستفتحوا) خطاب المؤمنين ﴿وإن تنتهوا﴾ خطاب للكافرين، يعنى: وإن تنتهوا عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فهو خير لكم﴾ وأسلم ﴿وإن تعودوا﴾ لمحاربته ﴿نعد﴾ لنصرته عليكم ﴿وأنّ الله﴾ قرئ بالفتح على: ولأنّ الله معين المؤمنين كان ذلك. وقرئ بالكسر، وهذه أوجه. ويعضدها قراءة ابن مسعود: والله مع المؤمنين. وقرئ: ولن يغنى عنكم، بالياء للفصل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ

---

(١) جزى الله بالاحسان مافعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

يقول: كافأ الله باحسانه إليهما مافعلاه بكم من الاحسان. وأبلى: مضمن معنى أعطى. يقال: بلاه الله وأبلاه وابتلاه، بمعنى اختبره. والاسم: البلاء. ويجىء بمعنى النقمة وبمعنى النعمة كما هنا. وأعطاهما خير نعمته التى يبلوها الناس ويختبرهم باعطائها

عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

﴿ولا تولوا﴾ قرئ بطرح إحدى التاءين وإدغامها ، والضمير فى ﴿عنه﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنّ المعنى : وأطيعوا رسول الله كقوله : الله ورسوله أحق أن يرضوه ، ولأنّ طاعة الرسول وطاعة الله شىء واحد (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فكأن رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما ، كقولك : الإحسان والإجمال لاينفع فى فلان . ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة ، أى : ولا تولوا عن هذا الأمر وامتثاله وأنتم تسمعونه . أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوه ﴿وأنتم تسمعون﴾ أى تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصمّ المكذبين من الكفرة ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ أى ادّعوا السماع ﴿وهم لايسمعون﴾ لأنهم ليسوا بمصدقين فكأنهم غير سامعين . والمعنى : أنكم تصدقون بالقرآن والنبوّة ، فإذا توليتم عن طاعة الرسول فى بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها ، كان تصديقكم كلا تصديق ، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن . ثم قال ﴿إنّ شر الدواب﴾ أى إنّ شر من يدب على وجه الأرض . أو إنّ شرّ البهائم الذين هم صمّ عن الحق لا يعقلونه ، جعلهم من جنس البهائم ، ثم جعلهم شرّها ﴿ولو علم الله﴾ فى هؤلاء الصم البكم ﴿خيرا﴾ أى انتفاعا باللطف ﴿لأسمعهم﴾ للطف بهم [1] حتى يسمعوا سماع المصدقين ، ثم قال ﴿ولو أسمعهم لتولوا﴾ عنه . يعنى : ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف ، فلذلك منعهم ألطافه . أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا ، وقيل : هم بنو عبد الدار بن قصى لم يسلم منهم إلا

(١) قال محمود « يعنى : ولو علم الله أن اللطف ينفع فى هؤلاء ... الخ » قال أحمد رحمه الله : إطلاق القول بأن الله تعالى يلطف بالعبد فلا ينفع لطفه مردود ، فان اللطف هو إسداء الجميل والالطاف به ، واسمه اللطيف من ذلك ، فاذا أسدى الجميل إلى العبد بأن أسمعه إسماع لطيف به ، فتلك الغاية المرجوة ومعنى اللطف به على هذا : أن يخلق فى قلبه قبول الحق وحسن الاصغاء إليه والاهتداء به ، ولكن لايتم ذلك على عقيدة الاعتزال والرأى الفاسد فى خلق الأفعال ، لأن مقتضاها أن العبد هو الذى يخلق لنفسه قبول الحق والهداية وحسن الاستماع والاصغاء ، وأن الله تعالى لايشارك العبد فى خلق ذلك ، بل الذى ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق ، ولايلزم حصول مراده على العموم - تعالى الله عما يقولون - ثم ولو تنزل متنزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل الزمخشرى أيضا ، فان حاصله : ولو علم الله فيهم خيراً للطف بهم ، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللطف ، فيلزم عدم انتفاعهم باللطف على تقدير علم الله الخير فيهم ، وهذا غير مستقيم لما يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى ، وذلك محال عقلا ، فلا يرتفع الاشكال إلا بتقدير الاسماع الواقع جوابا أولا ، خلاف الاسماع الواقع شرطا ثانيا ، كيلا يتكرر الوسط فيلزم المحال المذكور . وأقرب وجه فى اختلاف الاسماعين : أن يراد بالأول : ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم إسماعا يخلق لهم به الهداية والقبول ، ولو أسمعهم لا على أنه يخلق لهم الاهتداء ، بل إسماعا مجرداً من ذلك ، لتولوا وهم معرضون . فهذا هو الوجه فى تأويل الآية ، والله الموفق .

رجلان : مصعب بن عمير ، وسويد بن حرملة : كانوا يقولون : نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد ، لا نسمعه ولا نجيبه ، فقتلوا جميعاً بأحد، وكانوا أصحاب اللواء . وعن ابن جريج: هم المنافقون. وعن الحسن : أهل الكتاب .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

﴿ إذا دعاكم ﴾ وحد الضمير كما وحده فيما قبله ، لأن استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاستجابته ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد ، والمراد بالاستجابة . الطاعة والامتثال . وبالدعوة : البعث والتحريض . وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على باب أبيّ ابن كعب فناداه وهو فى الصلاة فعجل فى صلاته ثم جاء فقال : ما منعك عن إجابتى ؟ قال : كنت أصلى . قال : ألم تخبر فيما أوحى إلىّ (استجيبوا لله وللرسول) قال : لاجرم لا تدعونى إلا أجبتك[1] . وفيه قولان ، أحدهما : إن هذا مما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى أن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير ، وإذا وقع مثله للمصلى فله أن يقطع صلاته ﴿ لما يحييكم ﴾ من علوم الديانات والشرائع ، لأن العلم حياة ، كما أنّ الجهل موت . ولبعضهم :

لَا تُعْجِبَنَّ الْجَهُولَ حُلَّتُهُ فَذَاكَ مَيْتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ[2]

وقيل لمجاهدة الكفار ، لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم ، كقوله (ولكم فى القصاص حياة) وقيل للشهادة ، لقوله (بل أحياء عند ربهم) . ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ يعنى أنه يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها[3] وهى التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ورده سليما كما يريده الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله ﴿ واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة . وقيل :

(١) أخرجه الترمذى والنسائى دون قوله : لاجرم إلى آخره وأخرجه ابن مردويه من الوجه الذى أخرجه منه الترمذى وفى آخره قال «إنى لاجرم يارسول الله لاتدعونى إلا أجبتك وإن كنت أصلى» وفى الباب عن أبى سعيد ابن الحكم ، أخرجه البخارى بغير هذا السياق واقتصر عليه الطيبى .

(٢) للزمخشرى ، نهى للجهول عن العجب والخيلاء بثيابه ، لأنه كالميت فى عدم النفع وعدم الادراك ، ويلزم من ذلك أن ثوبه الذى يعجب به كالكفن ، حيث اشتمل على جسم لاإدراك فيه ولانفع . والميت هنا بالتخفيف .

(٣) قال محمود : «معناه أنه يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها ... الخ» قال أحمد رحمه الله : نعم ، هذا عقد أهل السنة الذى استمار لهم لقب المجبرة ، وهو العقد الحق المؤسس على التقوى وتفويض المخلوقات كلها إلى الواحد الحق خالق الخلق ، فان كان ذلك ظلما فأنا برىء من الطائفة المتسمية بالعدلية ، إصراراً على هذا الرأى الباطل والمعتقد الماحل ، والله الموفق .

معناه إنّ الله قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ، ويغير نياته ومقاصده ، ويبدله بالخوف أمناً وبالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً ، وبالنسيان ذكراً ، وما أشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى . فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب [١] من أفعال القلوب فلا ، والمجبرة على أنه يحول بين المرء والإيمان إذا كفر ، وبينه وبين الكفر إذا آمن ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً . وقيل معناه : أنه يطلع على كل ما يخطره المرء بباله ، لا يخفى عليه شيء من ضمائره ، فكأنه بينه وبين قلبه . وقرئ : بين المر ، بتشديد الراء . ووجهه أنه قد حذف الهمزة وألقى حركتها على الراء ، كالخب ، ثم نوى الوقف على لغة من يقول : مررت بعمرّ .

وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

﴿فتنة﴾ ذنبا . قيل هو إقرار المنكر بين أظهرهم . وقيل : افتراق الكلمة . وقيل (فتنة) عذاباً . وقوله : ﴿لا تصيبن﴾ لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر . أو نهياً بعد أمر . أو صفة لفتنة ، فإذا كان جواباً ، فالمعنى إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم وهذا كما يحكى أن علماء بنى اسرائيل نهوا عن المنكر تعذيراً [٢] فعمهم الله بالعذاب ، وإذا كانت نهياً بعد أمر فكأنه قيل : واحذروا ذنباً أو عقاباً ، ثم قيل : لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة ، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول ، كأنه قيل : واتقوا فتنة مقولا فيها لا تصيبنّ ، ونظيره قوله :

حَتَّى إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَاخْتَلَطْ ... جَاؤُا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطْ [٣]

---

(١) قوله «فأما ما يثاب العبد عليه ... الخ» المسئلة هنا من فروع مسألة خلق أفعال العباد الاختيارية ، فعند المعتزلة أن المريد الخالق لها هو العبد ، وإذا صح تكليفه لظهور اختياره . وعند أهل السنة أن المريد الخالق لها هو الله تعالى . وإنما صح تكليف العبد لما له فيها من الكسب ، وهو اختيار بعضها على بعض بشهادة الوجدان ، خلافا للجبرية القائلين بالجبر المحض ، ومحله التوحيد .

(٢) قوله نهوا عن المنكر تعذيراً التعذير في الأمر : التقصير فيه اه صحاح . (ع)

(٣)
بتنا بحسان ومعزاه يئط ... يلحس أذنيه وحينا يمتخط
ما زلت أسعى فيهمو وأختبط ... حتى إذا جن الظلام واختلط
جاؤا بمذق هل رأيت الذيب قط

لأحمد الرجاز . وقيل : إنه للعجاج ، يصف رجلا بالبخل . وبات بالقوم : إذا نزل بهم ليلا . والأط : صوت الجوف . والمعز ـ محركة ومسكنة ـ والمعيز ، والأمعوز ، والمعزى : خلاف الضأن من الغنم . فهو اسم جمع ، وتأنيث المعزى لغة . والاختباط : تطلب المعروف من غير اهتداء . يقول : نزلنا عند حسان ليلا ، والحال أن معزاه جائعة هزيلة ، فالأطيط كناية عن الأول ، والامتخاط كناية عن الثاني ، ويجوز أن ذلك كناية عن كثرة المعز عنده ، ولبخله قراهم بالمذق بعد مدة كان يمكنه أن يذبح لهم فيها شاة ، وهذا أنسب بما بعده ، وضمير أذنيه يحتمل

أى بمذق مقول فيه هذا القول، لأنه سمار فيه لون الورقة [1] التى هى لون الذئب . ويعضد المعنى الأخير قراءة ابن مسعود : لتصيبنّ ، على جواب القسم المحذوف . وعن الحسن : نزلت فى علىّ وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة . قال الزبير : نزلت فينا وقرأناها زماناً ، وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنيون بها . وعن السدى : نزلت فى أهل بدر فاقتتلوا يوم الجمل . وروى «أن الزبير كان يساير النبي صلى الله عليه وسلم يوماً ، إذ أقبل علىّ رضى الله عنه ، فضحك إليه الزبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف حبك لعلىّ ؟ فقال يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى أحبه كحبي لوالدى أو أشدّ حبا . قال : فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله »[2] فإن قلت : كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة فى جواب الأمر ؟ قلت : لأنّ فيه معنى النهى ، إذا قلت : انزل عن الدابة لا تطرحك ، فلذلك جاز لا تطرحنك ولا تصيبنّ ولا يحطمنكم . فإن قلت : فما معنى (من) فى قوله (الذين ظلموا منكم) ؟ قلت : التبعيض على الوجه الأوّل ، والتبيين على الثانى ، لأنّ المعنى : لا تصيبنكم خاصة على ظلمكم ؛ لأن الظلم أقبح منكم من سائر الناس[3] .

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ

ــــ عوده على المعزى لأنه مذكر عند الأكثر ، ويجوز أنه عائد لحسان ، وهو ذم شنيع ، وفيهم : أى فى حيه . وجن النبص : طال . والليل : أظلم . والذباب : كثرت أصواته . والظلام : كثر واختلط وتراكم بعضه فوق بعض بحيث لا يتخلله نور . والمذق : المزج . والمراد به لبن مخلوط بماء . ويروى : بمذق ـ بالكسر ـ : وهو ذلك اللبن . ويروى : جاءوا بضيح ، بمعجمة فمثناة تحتية فمهملة ، بمعنى المذق ، إلا أنه رقيق . و«هل رأيت» استفهام تقريرى والجملة صفة لمذق ، أى مذق مقول فيه ذلك ، والمراد تشبيه المذق بالذيب فى الكدرة ، فكنى بالاستفهام عن ذلك ، لأن من أراد إخطار الشىء بالبال ورسمه فى الخيال يستفهم عنه ، فكأنه قال له هل رأيته ؟ فقال نعم ، قال : إن اللبن مثله ، لكن حذف هذا كله واستغنى بالاستفهام عنه . وقط : ظرف مبنى على الضم ، وسكن للوقف .

(١) قوله «لأنه سمار فيه لون الورقة» قوله «سمار» هو ـ بالفتح ـ لبن رقيق . وتسمير اللبن . ترقيقه بالماء . والورقة : بياض يضرب إلى سواد وإلى خضرة اه صحاح . (ع)

(٢) لم أجده هكذا وإنما رواه ابن أبى شيبة من طريق الأسود بن قيس حدثنى من رأى الزبير يقعص الخيل فناداه على : يا أبا عبد الله فأقبل حتى التقت أعناق دوابهما فقال له على : أنشدك الله ، أتذكر يوم أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أناجيك فقال : أتناجيه ؟ والله ليقاتلنك وهو لك ظالم قال : فضرب الزبير وجه دابته فانصرف «وروى البيهقى فى الدلائل من طريق أبى حرب بن أبى الأسود الديلى عن أبيه قال : «لما دنا على وأصحابه من طلحة والزبير ودنت الصفوف بعضها من بعض خرج على فنادى : ادعوا لى الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال على رضى الله عنهما يازبير ، نشدتك الله ، أتذكر يوم مر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمكان كذا وكذا فقال : يازبير ، أتحب عليا ؟ فقلت : ألا أحب ابن خالى وابن عمى وعلى قربى ؟ قال : أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم ؟ قال ، بلى ، ولكنى نسيته وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة قال «لما ولى الزبير يوم الجمل بلغ عليا فقال : لو كان يعلم أنه على حق ما ولى وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لقيه فى سقيفة بنى ساعدة فقال : أتحبه يازبير ؟ قال : ومايمنعنى ؟ قال : فكيف بك إذا قاتلته» .

(٣) قوله «أقبح منكم من سائر الناس» لعله منه من سائر الناس . (ع)

فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)

﴿ إذ أنتم ﴾ نصبه على أنه مفعول به مذكور لا ظرف: أى اذكروا وقت كونكم أقلة أذلة مستضعفين ﴿ فى الأرض ﴾ أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ لأن الناس كانوا جميعا لهم أعداء منافين مضادّين ﴿ فآواكم ﴾ إلى المدينة ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ بمظاهرة الأنصار و بإمداد الملائكة يوم بدر ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ من الغنائم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ إرادة أن تشكروا هذه النعم. وعن قتادة: كان هذا الحىّ من العرب أذلّ الناس، وأشقاهم عيشا، وأعراهم جلداً، وأبينهم ضلالا، يؤكلون ولا يأكلون، فمكن الله لهم فى البلاد، ووسع لهم فى الرزق والغنائم وجعلهم ملوكا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)

معنى الخون: النقص، كما أن معنى الوفاء التمام. ومنه: تخوّنه، إذا تنقصه، ثم استعمل فى ضدّ الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، وقد استعير فقيل: خان الدلو الكرب، وخان المشتار السبب[1] لأنه إذا انقطع به فكأنه لم يف له. ومنه قوله تعالى (وتخونوا أماناتكم) والمعنى لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه، ورسوله بأن لا تستنوا به. و ﴿ أماناتكم ﴾ فيما بينكم بأن لا تحفظوها ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ تبعة ذلك ووباله، وقيل وأنتم تعلمون أنكم تخونون، يعنى أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو. وقيل: وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن. وروى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة[2] فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم

---

(١) قوله «وخان الدلو الكرب وخان المشتار السبب» قوله «الكرب» حبل يشد فى رأس الدلو. والمشتار مجتنى العسل. والسبب: الحبل اه صحاح (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى عن الكلبى بغير سند، لكن سنده إليه فى أول الكتاب. وقد روى ابن إسحاق فى المغازى: حدثنا إسحاق بن يسار عن عبد بن كعب السلمى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصرهم - يعنى قريظة - خمساً وعشرين ليلة - فذكر القصة بطولها - إلى أن قال: ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر فذكر قصة مختصرة. وأخرجها البيهقى فى الدلائل من طريق سعيد بن المسيب فى قصة طويلة - فذكر نحو ما هنا. وهكذا ذكرها عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبوك. فربط نفسه بسارية فذكر القصة» وأخرجه الواقدى عن معمر عن الزهرى عن ابن كعب بن مالك مثله.

﴿تنبيه﴾ تسمية أبى لبابة مروان لم أره إلا من هذه الرواية. ومدة حصار بنى قريظة المحفوظ فيها ما قاله ابن إسحاق.

بنى النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام . فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاأن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة مروان بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأنّ عياله وماله فى أيديهم ، فبعثه إليهم فقالوا له : ماترى ،هل ننزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه إنه الذبح . قال أبو لبابة فما زالت قدماى حتى علمت أنى قد خنت الله ورسوله فنزلت ، فشدّ نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علىّ ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك فحل نفسك . فقال : لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى ، فجاءه فحله بيده فقال : إنّ من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالى . فقال صلى الله عليه وسلم : يجزيك الثلث أن تتصدّق به . وعن المغيرة : نزلت فى قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه . وقيل (أماناتكم) ما ائتمنكم الله عليه من فرائضه وحدوده . فإن قلت : (وتخونوا) جزم هو أم نصب ؟ قلت : يحتمل أن يكون جزما داخلا فى حكم النهى ، وأن يكون نصباً بإضمار «أن» كقوله (وتكتموا الحق) وقرأ مجاهد : وتخونوا أمانتكم ، على التوحيد .

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

جعل الأموال والأولاد فتنة ، لأنهم سبب الوقوع فى الفتنة وهى الإثم أو العذاب . أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده (والله عنده أجر عظيم) فعليكم أن تنوطوا بطلبه وبما تؤدى إليه هممكم ، وتزهدوا فى الدنيا ، ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد ؛ حتى تورّطوا أنفسكم من أجلهما ، كقوله (المال والبنون . الآية) وقيل : هى من جملة ما نزل فى أبى لبابة وما فرط منه لأجل ماله وولده .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿فرقاناً﴾ نصراً ، لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه ، والاسلام بإعزاز أهله . ومنه قوله تعالى (يوم الفرقان) أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم فى أقطار الأرض ، من قولهم (بتّ أفعل كذا) حتى سطع الفرقان : أى طلع الفجر . أو مخرجا من الشبهات وتوفيقاً وشرحاً للصدور . أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان ، وفضلا ومزية فى الدنيا والآخرة .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)

لما فتح الله عليه، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله عز وجل فى نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح الله له من حسن العاقبة، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك وذلك أن قريشا ـ لما أسلمت الأنصار و بايعوه ـ فرقوا أن يتفاقم أمره[1]، فاجتمعوا فى دار الندوة متشاورين فى أمره، فدخل عليهم إبليس فى صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا، فقال أبو البخترى: رأيى أن تحبسوه فى بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتتربصوا به ريب المنون. فقال إبليس: بئس الرأى؛ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم: فقال هشام بن عمرو: رأيى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم؛ فلا يضركم ما صنع واسترحتم. فقال إبليس: بئس الرأى يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا. فقال الشيخ ـ لعنه الله ـ: صدق هذا الفتى، هو أجودكم رأياً. فتفرقوا على رأى أبى جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت فى مضجعه، وأذن الله له فى الهجرة، فأمر علياً رضى الله عنه فنام فى مضجعه، وقال له: اتشح ببردتى، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه، وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه، فأبصروا علياً فبهتوا وخيب الله عز وجل سعيهم، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم[2] ﴿ليثبتوك﴾ ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، وفلان مثبت وجعاً. وقرئ: ليثبتوك، بالتشديد. وقرأ النخعى: ليبيتوك، من البيات. وعن ابن عباس: ليقيدوك، وهو دليل لمن فسره بالإيثاق

---

(١) قوله «فرقوا أن يتفاقم أمره» أى خافوا أن يعظم أمره. اهـ صحاح. (ع)

(٢) القصة أخرجها ابن إسحاق فى المغازى: حدثنى من لا أتهم عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال «لما اجتمعت قريش فى دار الندوة وتشاوروا فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم اعترضهم إبليس فى هيئة شيخ فذكره مطولا» وأخرجه الطبرى وأبو نعيم فى الدلائل من طريق ابن إسحاق عن ابن أبى نجيح. وليس فى أوله أن ذلك بسبب الأنصار. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهرى عن عروة قال «لما كثر المسلمون ـ فذكر معناها». ووصلها الواقدى عن معمر بذكر عائشة قال: وعن ابن أبى خيثمة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس نحوه.

﴿ويمكرون﴾ ويخفون المكايد له ﴿ويمكر الله﴾ ويخفى الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة ﴿والله خير الماكرين﴾ أى مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل ولا يصيب إلا بما هو مستوجب.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ نفاجة منهم وصلف [1] تحت الراعدة، فإنهم لم يتوانوا فى مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاؤوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقدح المعلى دونه، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا فى باب البيان خاصة، وأن يماتنهم واحد، فيتعللوا بامتناع المشيئة، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس، من حرصهم على أن يقهروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتهالكهم على أن يغمروه [2]. وقيل: قائله النضر بن الحرث المقتول صبراً، حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذى جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم واسفنديار فزعم أن هذا مثل ذاك، وأنه من جملة تلك الأساطير، وهو القائل ﴿إن كان هذا هو الحق﴾ وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعنى إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل، كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر. ومراده نفى كونه حقاً، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذاباً فكان تعليق العذاب بكونه حقا مع اعتقاد أنه ليس بحق، كتعليقه بالمحال فى قولك: إن كان الباطل حقا، فأمطر علينا حجارة. وقوله: (هو الحق) تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين: هذا هو الحق. وقرأ الأعمش (هو الحق) بالرفع، على أن هو مبتدأ غير

(١) قوله «نفاجة منهم وصلف الخ» «نفاجة» أى تكبر. و«الصلف» مجاوزة الحد كبرا. «والراعدة» السحابة. وهذا مثل يضرب للرجل يتوعد ثم لا يقوم به. والقدح المعلى: أحد سهام الميسر يخرج للغالب اهـ صحاح (ع)

(٢) قوله «على أن يغمروه» يقال للرجل: غمره القوم، إذا علوه شرفا، كذا فى الصحاح. (ع)

فصل . وهو فى القراءة الأولى فصل . ويقال : أمطرت السماء ، كقولك أنجمت وأسبلت [1] ومطرت ، كقولك : هتنت وهتلت . وقد كثر الأمطار فى معنى العذاب . فإن قلت : مافائدة قوله ﴿من السماء﴾ ؟ والأمطار لا تكون إلا منها . قلت : كأنه يريد أن يقال : فأمطر علينا السجيل وهى الحجارة المسوّمة للعذاب ، فوضع (حجارة من السماء) موضع السجيل ، كما تقول : صب عليه مسرودة من حديد ، تريد درعاً ﴿بعذاب أليم﴾ أى بنوع آخر من جنس العذاب الأليم ، يعنى أن أمطار السجيل بعض العذاب الأليم ، فعذبنا به أو بنوع آخر من أنواعه. وعن معاوية أنه قال لرجل من سبإ ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! قال : أجهل من قومى قومك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الحق (إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة) ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له . اللام لتأكيد النفى ، والدلالة على أنّ تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم فى الحكمة ، لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال مادام نبيهم بين أظهرهم وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم . والدليل على هذا الإشعار قوله (ومالهم ألا يعذبهم الله) وإنما يصح هذا بعد إثبات التعذيب ، كأنه قال : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وهو معذبهم إذا فارقتهم ، وما لهم أن لا يعذبهم ﴿وهم يستغفرون﴾ فى موضع الحال . ومعناه نفى الاستغفار عنهم : أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم ، كقوله : وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون ، ولا يتوقع ذلك منهم . وقيل : معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر ، وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين ، (ومالهم أن لا يعذبهم الله) وأى شىء لهم فى انتفاء العذاب عنهم ، يعنى : لاحظّ لهم فى ذلك وهم معذبون لامحالة . وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدّون عن المسجد الحرام كما صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، وإخراجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الصدّ ، وكانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء ﴿وما كانوا أولياءه﴾ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمره وأربابه ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ من المسلمين ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلى أمره ، إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً ، فكيف بالكفرة عبدة الأصنام ﴿ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾ كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند ويطلب الرياسة . أو أراد بالأكثر : الجميع ، كما يراد بالقلة : العدم .

(١) قوله «أنجمت وأسبلت الخ» أنجمت : أى انكشفت نجومها . وأسبلت : أمطرت . وهتنت وهتلت : تتابع مطرها . اهـ صحاح (ع)

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

المكاء : فعال بوزن الثغاء والرغاء [1] من مكا يمكو إذا صفر : ومنه المكاء ، كأنه سمى بذلك لكثرة مكائه . وأصله الصفة ، نحو الوضاء والفراء . وقرئ : مكا بالقصر . ونظيرهما : البكى والبكاء . والتصدية : التصفيق ، تفعلة من الصدى أو من صدّ يصدّ [2] (إذا قومك منه يصدّون) وقرأ الأعمش : وما كان صلاتهم ، بالنصب على تقديم خبر كان على اسمه ، فإن قلت : ماوجه هذا الكلام ؟ قلت : هو نحو من قوله :

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ ... أَدَاهِمَ سُودًا أَوْ مُحَدْرَجَةً سُمْرَا [3]

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء ، ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة ، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة : الرجال والنساء ، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاته يخلطون عليه ﴿فذوقوا﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر ، بسبب كفركم وأفعالكم التى لا يقدم عليها إلا الكفرة .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قيل نزلت فى المطعمين يوم بدر ، كان يطعم كل واحد منهم كلّ يوم عشر جزائر . وقيل :

---

(١) قوله «بوزن الثغاء والرغاء» الثغاء : صوت الغنم . والرغاء : صوت الابل . والمكا ـ بالتشديد ـ : طائر وجمعه مكاكى اهـ صحاح (ع)

(٢) قوله «أو من صد يصد» فى الصحاح : صد يصد ويصد صديداً : أى ضج (ع)

(٣) للفرزدق . «والأدهم» فى الأصل الأسود ، ثم غلب على الحية السوداء ، ثم سمى به القيد الحديد . «والمحدرج» المفتول : أى ما كنت . أظن أن يكون عطاؤه قيوداً سوداً ، أوسياطاً مفتولة سمرا حقيقة . أووصفها بذلك لقبحها ، كما يصفون الحسن بالأخضر . ويروى «حمرا» فوضع القيود والسياط موضع العطاء ، ووضع الشاعر الرجاء موضع الظن ، وأطلق العطاء على العقاب مجازا ، وعرض بذلك إلى أنه كان يرجو العطا . ويروي «أخاف زياداً أن يكون»

قالوا لكل من كان له تجارة فى العير : أعينوا بهذا المال على حرب محمد ، لعلنا ندرك منه ثأرنا بما أصيب منا ببدر . وقيل : نزلت فى أبى سفيان وقد استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقية . والأوقية اثنان وأربعون مثقالا ﴿ليصدوا عن سبيل الله﴾ أى كان غرضهم فى الإنفاق الصدّ عن اتباع محمد وهو سبيل الله ، وإن لم يكن عندهم كذلك ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ أى تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة ، فكأنّ ذاتها تصير ندما وتنقلب حسرة ﴿ثم يغلبون﴾ آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالا قبل ذلك فيرجعون طلقاء [1] (كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى) . ﴿والذين كفروا﴾ والكافرون منهم ﴿إلى جهنم يحشرون﴾ لأنّ منهم من أسلم وحسن إسلامه ﴿ليميز الله الخبيث﴾ الفريق الخبيث من الكفار ﴿من﴾ الفريق ﴿الطيب﴾ من المؤمنين ، فيجعل الفريق ﴿الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً﴾ عبارة عن الجمع والضم ، حتى يتراكبوا ، كقوله تعالى : (كادوا يكونون عليه لبدا) يعنى لفرط ازدحامهم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الخبيث ، وقيل : ليميز المال الخبيث الذى أنفقه المشركون فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون كأبى بكر وعثمان فى نصرته (فيركمه) فيجعله فى جهنم فى جملة ما يعذّبون به ، كقوله (فتكوى بها جباههم وجنوبهم ... الآية) ، واللام على هذا متعلقة بقوله (ثم تكون عليهم حسرة) وعلى الأوّل بيحشرون ، وأولئك : إشارة إلى الذين كفروا . وقرئ : ليميز على التخفيف .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَاقَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)

﴿قل للذين كفروا﴾ من أبى سفيان وأصحابه . أى قل لأجلهم هذا القول وهو ﴿إن ينتهوا﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل : إن تنتهوا يغفر لكم ، وهى قراءة ابن مسعود . ونحوه : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ماسبقونا إليه) خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه ، أى إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول فى الإسلام ﴿يغفر لهم ماقد سلف﴾ لهم من العداوة ﴿وإن يعودوا﴾ لقتاله ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر . أو فقد مضت سنة الذين تحزّبوا على أنبيائهم من الأمم فدمّروا ، فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا . وقيل : معناه أنّ الكفار إذا انتهوا عن

(١) قوله « فيرجعون طلقاء » فى الصحاح « الطليق » الأسير الذى أطلق عنه إساره وخلى سبيله . (ع)

الكفر وأسلموا غفر لهم ماقد سلف لهم من الكفر والمعاصى ، وخرجوا منها كما تنسلّ الشعرة من العجين . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « الإسلام يجب ماقبله » وقالوا : الحربى إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط . وأما الذمى فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقى عليه حقوق الآدميين . وبه احتجّ أبو حنيفة رحمه الله فى أنّ المرتدّ إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة فى حال الردّة . وقبلها ؛ وفسر (وإن يعودوا) بالارتداد . وقرئ (يغفر لهم) على أن الضمير لله عزوجل

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط ﴿ويكون الدين كله لله﴾ ويضمحل عنهم كل دين باطل ، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فإن انتهوا﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ يثيبهم على توبتهم وإسلامهم . وقرىء : تعملون ، بالتاء ، فيكون المعنى : فإن الله بما تعملون من الجهاد فى سبيله والدعوة إلى دينه والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام (بصير) يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿وإن تولوا﴾ ولم ينتهوا ﴿فاعلموا أنّ الله مولاكم﴾ أى ناصركم ومعينكم ، فثقوا بولايته ونصرته .

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

---

(١) أخرجه مسلم من رواية عبد الرحمن بن أسامة عن عمرو بن العاص فى قصة . وفيها هذا لكن بلفظ « يهدم ما قبله » قال النووى : غلط كثير من الفقهاء فذكره بلفظ « يجب ماقبله » ويروى « يحت » بالمهملة والمثناة اه . وقد رواه الطبرى من هذا الوجه ، بلفظ « إن الاسلام يجب ما كان قبله » وأخرجه ابن إسحاق فى المغازى من طريق حبيب بن أبى أويس الثقفى حدثنى عمرو بن العاص من فيه إلى فى قال « لما جئت أريد الاسلام فذكر القصة . وفيها ياعمرو ، إن الاسلام يجب ما قبله . والهجرة تجب ما كان قبلها » ومن هذا الوجه أخرجه أحمد وإسحاق والبيهقى فى الدلائل . وأخرجه ابن سعد فى خالد بن الوليد من طريق المغيرة بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام قال قال خالد ابن الوليد ... فذكر قصة إسلامه وفيها « إن الاسلام يجب ما كان قبله » وفى ترجمة المغيرة بن شعبة من رواية يعقوب ابن عتبة عن المغيرة . فذكر قصة إسلامه . وفيها ذلك . وفى ترجمة هبار بن الأسود من حديث جبير بن مطعم فى قصة إسلام هبار . وفيه « والاسلام يجب ما كان قبله » وفى أسانيد الثلاثة الواقدى .

﴿أنما غنمتم﴾ ما موصولة. و﴿من شيء﴾ بيانه. قيل: من شيء حتى الخيط والمخيط، ﴿فأن لله﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: فحق، أو فواجب أن لله خمسه. وروى الجعفي عن أبي عمرو، فإن لله بالكسر. وتقويه قراءة النخعي: فلله خمسه. والمشهورة آكد وأثبت للإيجاب، كأنه قيل: فلا بد من ثبات الخمس فيه، لا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه. من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات، كقولك: ثابت واجب حق لازم: وما أشبه ذلك، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد، وقرئ: خمسه بالسكون فإن قلت: كيف قسمة الخمس؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله أنها كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسهم لذوي قرباه من بني هاشم وبني المطلب، دون بني عبد شمس وبني نوفل، استحقوه حينئذ بالنصرة والمظاهرة. لما روى عن عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما، أنهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة: فقال صلى الله عليه وسلم: إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبك بين أصابعه [1] وثلاثة أسهم: لليتامى والمساكين، وابن السبيل. وأمّا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرهم، فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل. وأمّا عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين: كعدّة الغزاة من السلاح والكراع [2] ونحو ذلك. وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين. والباقي للفرق الثلاث. وعند مالك ابن أنس رحمه الله: الأمر فيه مفوّض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض، وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم. فإن قلت: ما معنى ذكر الله عز وجل وعطف الرسول وغيره عليه [3] قلت: يحتمل أن يكون معنى لله وللرسول، لرسول الله

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من طريق سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم بتمامه وهو في الصحيح دون قوله «لم يفارقوني».

(٢) قوله «من السلاح والكراع» الكراع: هو اسم جمع للخيل اه صحاح. (ع)

(٣) قال محمود «إن قلت ما معنى ذكر الله وعطف الرسول وغيره عليه ...» الخ. قال أحمد: لأن مالكا رضى الله عنه لا يرى ذكر الوجوه المذكورة لبيان أنه لا يصرف فيما سواها، وليس لأن يتملكاها ولا على التحديد حتى لا يجوز الاقتصار على بعض الوجوه دون بعض، بل الأمر عنده موكول إلى نظر الامام فيصرف الخمس في مصالح المسلمين ومن جملتها قرابته عليه الصلاة والسلام، ولا تحديد عنده في ذلك البتة، وهذا التأويل الثالث ينطبق على مذهب،

صلى الله عليه وسلم، كقوله (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وأن يراد بذكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القرب. وأن يراد بقوله (فأن لله خمسه) أن من حق الخمس أن يكون متقربا به إليه لا غير. ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة، تفضيلا لها على غيرها. كقوله تعالى (وجبريل وميكال) فعلى الاحتمال الأول مذهب الإمامين. وعلى الثانى ما قال أبو العالية: أنه يقسم على ستة أسهم: سهم لله تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة [1]. وعنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة وهو سهم الله تعالى، ثم يقسم ما بقى على خمسة [2]. وقيل: إن سهم الله تعالى لبيت المال، وعلى الثالث مذهب مالك بن أنس. وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان على ستة أسهم لله وللرسول سهمان، وسهم لأقاربه حتى قبض. فأجرى أبو بكر رضى الله عنه الخمس على ثلاثة. وكذلك روى عن عمر ومن بعده من الخلفاء. وروى أن أبا بكر رضى الله عنه منع بنى هاشم الخمس وقال: إنما لكم أن يعطى فقيركم ويزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم، فأما الغنى منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غنى لا يعطى من الصدقة شيئا، ولا يتيم موسر. وعن زيد بن على رضى الله عنه: كذلك قال، ليس لنا أن نبنى منه قصوراً، ولا أن نركب منه البراذين. وقيل: الخمس كله للقرابة. وعن على رضى الله عنه أنه قيل له: إن الله تعالى قال (واليتامى والمساكين) فقال: أيتامنا ومساكيننا. وعن الحسن رضى الله عنه فى سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه لولى الأمر من بعده. وعن الكلبى رضى الله عنه أن الآية نزلت ببدر. وقال الواقدى: كان الخمس فى غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة. فإن قلت: بم تعلق قوله ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾؟ قلت: بمحذوف يدل عليه (واعلموا) المعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به، فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرد، ولكنه العلم المضمن بالعمل، والطاعة لأمر الله تعالى؛

= وبيان ذلك أن المراد حينئذ بذكر الله تعالى بيان أن الخمس يصرف فى وجوه التقربات لله تعالى غير مقيد، ثم تخصيص الوجوه المذكورة بعد ليس تحديداً، ولكن تنبيها على فضلها والتخصيص لقصد التفصيل بعد التعميم لا يرفع حكم العموم الأول، بل هو قار على حاله، كما أن العموم ثابت للملائكة وإن خص جبريل وميكال، بعده، والله تعالى أعلم.

(١) قوله «يصرف إلى رتاج الكعبة» فى الصحاح «الرتج» بالتحريك: الباب العظيم، وكذلك الرتاج. ومنه رتاج الكعبة. (ع)

(٢) أخرجه أبوداود فى كتاب المراسيل من طريق الربيع بن أنس عن أبى العالية. قال «كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالغنيمة قسمها خمسة أقسام، ثم يقبض بيده قبضة من الخمس أجمع ثم يقول: هذه للكعبة. ثم يقول لا تجعلوا لله نصيباً فإن لله الآخرة والدنيا ثم يأخذ سهما لنفسه وسهما لذى القربى وسهما لليتامى، وسهما للمساكين، وسهما لابن السبيل، أخرجه أبوعبيدة فى الأموال، والطبرى من هذا الوجه.

لأنّ العلم المجرّد يستوى فيه المؤمن والكافر ﴿وما أنزلنا﴾ معطوف على (بالله) أى إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل ﴿على عبدنا﴾ وقرئ عبدنا كقوله (وعبدالطاغوت) بضمتين ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر. و ﴿الجمعان﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين. والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير والذليل على العزيز، كما فعل بكم ذلك اليوم.

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)

﴿إذ﴾ بدل من يوم الفرقان. والعدوة: شط الوادي بالكسر والضم والفتح. وقرئ بهن وبالعدية، على قلب الواو ياء، لأنّ بينها وبين الكسرة حاجزاً غير حصين كما فى الصبية. والدنيا والقصوى: تأنيث الأدنى والأقصى. فإن قلت: كلتاهما «فعلى» من بنات الواو، فلم جاءت إحداهما بالياء والثانية بالواو؟ قلت: القياس هو قلب الواو ياء كالعليا. وأما القصوى فكالقود فى مجيئه على الأصل. وقد جاء القصيا، إلا أنّ استعمال القصوى أكثر، كما كثر استعمال «استصوب» مع مجيء «استصاب» و«أغيلت» مع «أغالت»[1] والعدوة الدنيا مما يلى المدينة، والقصوى مما يلى مكة ﴿والركب أسفل منكم﴾ يعنى الركب الأربعين الذين كانوا يقودون العير أسفل منكم بالساحل. وأسفل: نصب على الظرف، معناه: مكانا أسفل من مكانكم، وهو مرفوع المحل: لأنه خبر المبتدإ. فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين، وأن العير كانت أسفل منهم[2]؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدوّ وشوكته، وتكامل عدّته، وتمهد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم[3] وأنّ غلبتهم فى مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله سبحانه، ودليلا على أنّ ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوّته وباهر قدرته، وذلك أنّ العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهى خبار[4]

---

(١) قوله «وأغيلت مع أغالت» أغيلت: أى أرضعت وهى موطوءة. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت ما فائدة ذكر مركز الفريقين وأن العير كانت أسفل منهم ... الخ» قال أحمد: وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشرى وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز.

(٣) قوله «والتياث أمرهم» أى اختلاط أمرهم اهـ صحاح. (ع)

(٤) قوله «وهى خبار» أى رخوة ذات جحرة. اهـ صحاح (ع)

تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة. وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها، تضاعف حميتهم وتشحذ فى المقاتلة عنها نياتهم. ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم، ليبعثهم الذب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذل جهيداهم فى القتال، وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه. فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط هممهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم، ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدتهم. وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر. ليقضى أمراً كان مفعولا من إعزاز دينه وإعلاء كلمته حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة، حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين فى الخروج، وشخص بقريش[1] مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم، حتى نفروا ليمنعوا عيرهم. وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان ﴿ولو تواعدتم﴾ أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال، لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما فى قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقى فى ما وفقه الله وسبب له ﴿ليقضى﴾ متعلق بمحذوف، أى ليقضى أمراً كان واجباً أن يفعل. وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك. وقوله ﴿ليهلك﴾ بدل منه. واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام، أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة، لا عن مخالجة شبهة، حتى لا تبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذى يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغر المحجلة التى من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه مغالطاً لها. وقرئ: ليهلك، بفتح اللام. وحيى، بإظهار التضعيف ﴿لسميع عليم﴾ يعلم كيف يدبر أموركم ويسوى مصالحكم. أو لسميع عليم بكفر من كفر وعقابه، وبإيمان من آمن وثوابه.

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

﴿إذ يريكهم الله﴾ نصبه بإضمار اذكر. أو هو بدل ثان من يوم الفرقان، أو متعلق بقوله (لسميع عليم) أى يعلم المصالح إذ يقللهم فى عينك ﴿فى منامك﴾ فى رؤياك. وذلك أن الله عز وجل أراه إياهم فى رؤياه قليلا، فأخبر بذلك أصحابه فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم. وعن

(١) قوله «وشخص بقريش» يقال للرجل إذا ورد عليه أمر أقلقه: شخص به. اه صحاح. (ع)

الحسن : فى منامك فى عينك ، لأنها مكان النوم ، كما قيل للقطيفة [1] : المنامة ، لأنه ينام فيها . وهذا تفسير فيه تعسف ، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن ، وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته ﴿ لفشلتم ﴾ لجبنتم وهبتم الإقدام ﴿ ولتنازعتم ﴾ فى الرأى ، وتفرقت فيما تصنعون كلمتكم ، وترجحتم بين الثبات والفرار ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أى عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع .

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤٤)

﴿ وإذ يريكموهم ﴾ الضميران مفعولان . يعنى : وإذ يبصركم إياهم . و ﴿ قليلا ﴾ نصب على الحال ، وإنما قللهم فى أعينهم تصديقاً لرؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدّوا ويثبتوا . قال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفاً [2] ﴿ ويقللكم فى أعينهم ﴾ حتى قال قائل منهم : إنما هم أكلة جزور . فإن قلت : الغرض فى تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض فى تقليل المؤمنين فى أعينهم ؟ قلت : قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثرهم فيها بعده ليجترؤا عليهم ، قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ، وتفل شوكتهم [3] حين يرون ما لم يكن فى حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله (يرونهم مثليهم رأى العين) ولئلا يستعدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أولا وكثرتهم آخراً . فإن قلت : بأى طريق يبصرون الكثير قليلا [4] ؟ قلت بأن يستر الله عنهم

---

(١) قوله «القطيفة» هي دثار مخمل . اه صحاح . (ع)

(٢) قال إسحاق فى مسنده : أخبرنا عمرو بن محمد ، ويحيى بن آدم قال حدثنا إسرائيل . عن أبى إسحاق عن أبى عبيدة عن عبدالله بن مسعود . فذكره ، ومن هذا الوجه أخرجه الطبرى وابن أبى حاتم .

(٣) قوله «وتفل شوكتهم» أى تكسر . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قال محمود : «إن قلت بأى طريق يبصرون الكثير قليلا ... الخ» قال أحمد : وفى هذا دليل بين على أن الله تعالى هو الذى يخلق الادراك فى الحاسة غير موقوف على سبب من مقابلة أو قرب أو ارتفاع حجب أو غير ذلك ؛ إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلا لما أمكن أن يستر عنهم البعض وقد أدركوا البعض ، والسبب الموجب مشترك ، فعلى هذا يجوز أن يخلق الادراك مع اجتماعها ، فلا ربط إذاً بين الرؤية ونفيها فى مقدرة الله تعالى ، وهى رادة على القدرية المنكرين لرؤية الله تعالى ، بناء على اعتبار هذه الأسباب فى حصول الادراك عقلا ، وأنها تستلزم الجسمية ؛ إذ المقابلة والقرب وارتفاع الحجب إنما تتأتى فى جسم ، فهذه الآية حسبهم فى إبطال زعمهم ، ولكنهم يمرون عليها . وهم عنها معرضون ، والله الموفق

بعضه بساتر أو يحدث فى عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث فى أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين . قيل لبعضهم : إن الأحول يرى الوحد اثنين ، وكان بين يديه ديك واحد فقال: مالى لا أرى هذين الديكين أربعة ؟

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

﴿ وإذا لقيتم فئة ﴾ إذا حاربتم جماعة من الكفار ، وترك أن يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار . واللقاء اسم للقتال غالب ﴿ فاثبتوا ﴾ لقتالهم ولا تفروا ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ فى مواطن الحرب مستظهرين بذكره ، مستنصرين به ، داعين له على عدوكم : اللهم اخذلهم، اللهم اقطع دابرهم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ لعلكم تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة . وفيه إشعار بأنّ على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون هما ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره . وناهيك بما فى خطب أمير المؤمنين عليه السلام فى أيام صفين وفى مشاهده مع البغاة والخوارج ـ من البلاغة والبيان ولطائف المعانى وبليغات المواعظ والنصائح ـ دليلا على أنهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل وإن تفاقم الأمر ﴿ ولا تنازعوا ﴾ قرئ بتشديد التاء ﴿ فتفشلوا ﴾ منصوب بإضمار أن ، أو مجزوم لدخوله فى حكم النهى ، وتدل على التقديرين قراءة من قرأ (وتذهب ريحكم) بالتاء والنصب ، وقراءة من قرأ : ويذهب ريحكم ، بالياء والجزم . والريح : الدولة ، شبهت فى نفوذ أمرها وتمشيه بالريح وهبوبها ، فقيل : هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره . ومنه قوله :

يَاصَاحِبَيَّ أَلَا لَاحَيَّ بِالْوَادِى إِلَّا عَبِيدٌ قُعُودٌ بَيْنَ أَذْوَادِ

أَتَنْظِرَانِ قَلِيلاً رَيْثَ غَفْلَتِهِمْ أَمْ تَعْدُوَانِ فَإِنَّ الرِّيحَ لِلْعَادِى (١)

---

(١) لسليك بن سلكة ، مر مع صاحبيه بجوف مراد واد باليمن فوجدوا إبلا قدملأته ، فقال لهما : أتنظرانى هنا حتى آتى الرعاء وأعلم خبر الحى أقريب أم بعيد ، فلم يزل يلاطفهم حتى أخبروه بمكان الحى ، فاذا هم بعيد ، فقال لهم : ألا أغنيكم ؟ قالوا : بلى ، فتغنى بأعلى صوته بالبيتين ، فأتاه صاحباه فاستاقوا الابل . وآم بالمد . قيل : جمع إماء جمع أمة . وقيل : هو أيضا جمع أمة ، فأصله أأمو كأذرع جمع ذراع . وعلى الثانى أأمو أيضا ، كآكم جمع أكمة ، لأن أمة أصله أموة ، فأبدلت الهمزة الثانية فى الجمع ألفا وقلبت الواو ياء لتطرفها . والهمزة كسرة لمناسبتها ، ثم أعل إعلال قاض . وروى بدله «قعود» والذود من الابل : من ثلاثة إلى عشرة . وأتنظران ، من أنظرته إذا أخرته . والريث : التأخر والتوانى ، وهو نصب على البدلية من قليلا . أو على الظرفية . ويجوز قراءة «أتنظران» من

وقيل لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى. وفى الحديث: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[١]

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

حذرهم ـ بالنهى عن التنازع واختلاف الرأى ـ نحو ماوقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من فشلهم وذهاب ريحهم ﴿كالذين خرجوا من ديارهم﴾ هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير، فأتاهم رسول أبى سفيان وهم بالجحفة: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدراً نشرب بها الخمور، وتعزف علينا القيان[٢] ونطعم بها من حضرنا من العرب. فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها، فسقوا كؤس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى[٣] والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل، مخلصين أعمالهم لله.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

﴿و﴾ اذكر ﴿إذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التى عملوها فى معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم، أى بطل كيده حين نزلت جنود الله وكذا عن الحسن رحمه الله: كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم. وقيل: لما اجتمعت قريش على السير ذكرت الذى بينها وبين بنى كنانة من الحرب، فكان ذلك يثنيهم، فتمثل لهم إبليس

ـــــــــــــــ

= نظره إذا انتظره. فريث. يجوز أنه مفعول به. و«وتعدوان» من العدو، وهو السرعة السير، أو من العدوان، وهو تعدى الحد. واستعار الريح للدولة والأمر النافذ بجامع النفوذ من كل. ويروى «تغدوان» و«الغادى» بالغين المعجمة: أى أم تسرعان إلى، فان الظفر للمسرع. وفيه دلالة على أن السرعة أرجح من التأخر.

(١) متفق عليه من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٢) قوله «وتعزف علينا القيان» تلعب بالملاهي وتغنى والقينة الأمة مغنية أو غير مغنية والجمع القيان والقين الحداد والجمع القيون وكل عبد هو عند العرب قين وقان الشيء يقينه قينا إذا أصلحه وزينه أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «وأن يكونوا من أهل التقوى» لعله: وأن لا يكونوا. أو لعله بأن يكونوا. (ع)

فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكنانى ـ وكان من أشرافهم ـ فى جند من الشياطين معه راية، وقال: لاغالب لكم اليوم، وإنى مجيركم من بنى كنانة. فلما رأى الملائكة تنزل، نكص وقيل: كانت يده فى يد الحارث بن هشام، فلما نكص قال له الحارث: إلى أين؟ أتخذلنا فى هذه الحال؟ فقال: إنى أرى مالا ترون، ودفع فى صدر الحارث وانطلق، وانهزموا، فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان. وفى الحديث: وما رؤى إبليس يوما أصغر ولا أدحر[1] ولا أغيظ من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ماروى يوم بدر[2]. فإن قلت: هلا قيل لاغالباً لكم كما يقال: لاضاربا زيداً عندنا؟ قلت: لو كان (لكم) مفعولا لغالب، بمعنى: لاغالباً إياكم لكان الأمر كما قلت؛ لكنه خبر تقديره: لا غالب كائن لكم.

إِذْ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

﴿إذ يقول المنافقون﴾ بالمدينة ﴿والذين فى قلوبهم مرض﴾ يجوز أن يكون من صفة المنافقين، وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بثابتى الأقدام فى الإسلام. وعن الحسن: هم المشركون ﴿غرّ هؤلاء دينهم﴾ يعنون أنّ المسلمين اغتروا بدينهم وأنهم يتقوون به وينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف، ثم قال جوابا لهم ﴿ومن يتوكل على الله فإنّ الله عزيز﴾ غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

﴿ولو ترى﴾ ولو عاينت وشاهدت؛ لأن «لو» ترد المضارع إلى معنى الماضى؛ كما ترد «إن»

---

(١) قوله «ولا أدحر» الدحور: الطرد والابعاد، اه صحاح. (ع)

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ من رواية طلحة بن عبيدالله بن كريز مرسلا، ومن طريق مالك أخرجه عبدالرزاق والطبرى، والبيهقى فى الشعب وانفرد أبو النضر بن إسماعيل بن إبراهيم العجلى عن مالك. فقال عن طلحة عن أبيه قال ابن عبدالبر: الصواب مرسل ﴿تنبيه﴾ هو طلحة بن عبدالله بن بكير، وكريز مصغر، ووقع فى المناسك للنووى طلحة بن عبدالله أحد العشرة، وهو وهم بين.

الماضى إلى معنى الاستقبال . و﴿ إذ ﴾ نصب على الظرف . وقرئ : يتوفى . بالياء والتاء . و﴿ الملائكة ﴾ رفعها بالفعل و﴿ يضربون ﴾ حال منهم ، ويجوز أن يكون فى (يتوفى) ضمير الله عز وجل ، و﴿ الملائكة ﴾ مرفوعة بالابتداء ، و(يضربون) خبر . وعن مجاهد : وأدبارهم : أستاههم ، ولكن الله كريم يكنى ، وإنما خصوهما بالضرب . لأن الخزى والنكال فى ضربهما أشدّ ، وبلغنى عن أهل الصين أن عقوبة الزانى عندهم أن يصبر ، ثم يعطى الرجل القوى البطش شيئاً عمل من حديد كهيئة الطبق فيه رزانة وله مقبض ، فيضربه على دبره ضربة واحدة بقوّته فيجمد فى مكانه . وقيل : يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ﴿ وذوقوا ﴾ معطوف على (يضربون) على إرادة القول : أى ويقولون ذوقوا ﴿ عذاب الحريق ﴾ أى مقدمة عذاب النار . او وذوقوا عذاب الاخرة : بشارة لهم به . وقيل : كانت معهم مقامع من حديد ، كلما ضربوا بها التهبت النار أو ويقال لهم يوم القيامة : ذوقوا . وجواب (لو) محذوف : أى لرأيت أمراً فظيعاً منكراً ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام الملائكة ، و(ذلك) رفع بالابتداء و(بما قدمت) خبره ﴿ وأن الله ﴾ عطف عليه ، أى ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم وبأن الله ﴿ ليس بظلام للعبيد ﴾ لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين . وقيل : ظلام للتكثير لأجل العبيد [1] أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاما بليغ الظلم متفاقمه .

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

الكاف فى محل الرفع : أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون . ودأبهم: عادتهم وعملهم الذى دأبوا فيه : أى داوموا عليه وواظبوا . و﴿ كفروا ﴾ تفسير لدأب آل فرعون . و﴿ ذلك ﴾ إشارة

---

(١) قال محمود : « وقيل ظلام للتكثير لأجل العبيد ... الخ» قال أحمد : وبهذه النكتة يجاب عن قول القائل نفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى ، فلم عدل عن الابلغ . والمراد تنزيه الله تعالى وهو جدير بالمبالغة ، فهذان الجوابان عتيدان فى هذا السؤال .

إلى ما حل بهم ، يعنى ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصح فى حكمته أن يغير نعمته عند قوم ﴿حتى يغيروا ما﴾ بهم من الحال . فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركى مكة حتى غير الله نعمته عليهم؟ ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة قلت : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها ، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام . فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين فى إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوإ مما كانت ، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ﴿وأن الله سميع﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿عليم﴾ بما يفعلون ﴿كدأب آل فرعون﴾ تكرير للتأكيد . وفى قوله ﴿بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق . وفى ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصى .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)

﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أى أصروا على الكفر ولجوا فيه ، فلا يتوقع منهم إيمان وهم بنو قريظة، عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمالئوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركى مكة بالسلاح وقالوا : نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدهم فنكثوا ومالوا معهم يوم الخندق ، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم ﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من الذين كفروا ، أى الذين عاهدتهم من الذين كفروا جعلهم شر الدواب ، لأن شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصرين الناكثون للعهود ﴿وهم لا يتقون﴾ لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون ما فيه من العار والنار ﴿فإما تثقفنهم فى الحرب﴾ فإما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم ، من وراءهم من الكفرة ، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد ، اعتباراً بهم واتعاظاً بحالهم . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : فشرذ ، بالذال المعجمة ، بمعنى : ففرق ، وكأنه مقلوب «شذر» من قولهم «ذهبوا شذر مذر»[1] ، ومنه : الشذر : الملتقط من المعدن لتفرقه . وقرأ أبو حيوة : من خلفهم . ومعناه : فافعل

(١) قوله «وكأنه مقلوب شذر ، من قولهم ذهبوا » شذر مذر » بفتحات ، أى فى كل وجهة . اه صحاح . (ع)

التشريد من ورائهم ، لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد فى الوراء وأوقعه فيه ؛ لأن الوراء جهة المشردين ، فإذا جعل الوراء ظرفا للتشريد فقد دلّ على تشريد من فيه ، فلم يبق فرق بين القراءتين ﴿لعلهم يذكرون﴾ لعلّ المشردين من ورائهم يتعظون .

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)

﴿وإما تخافن من قوم﴾ معاهدين ﴿خيانة﴾ ونكثا بأمارات تلوح لك ﴿فانبذ إليهم﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿على سواء﴾ على طريق مستو قصد ، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخباراً مكشوفا بينا أنك قطعت ما بينك وبينهم ، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ فلا يكن منك إخفاء نكث العهد والخداع وقيل : على استواء فى العلم بنقض العهد . وقيل على استواء فى العداوة . والجار والمجرور فى موضع الحال ، كأنه قيل : فانبذ إليهم ثابتاً على طريق قصد سوى ، أو حاصلين على استواء فى العلم أو العداوة ، على أنها حال من النابذ والمنبوذ إليهم معاً .

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)

﴿سبقوا﴾ أفلتوا وفاتوا من أن يظفر بهم ﴿إنهم لا يعجزون﴾ إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم . وقرئ : أنهم ، بالفتح ، بمعنى : لأنهم ، كل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل ، إلا أن المكسورة على طريقة الاستئناف ، والمفتوحة تعليل صريح وقرئ: يعجزون ، بالتشديد . وقرأ ابن محيصن : يعجزون ، بكسر النون . وقرأ الأعمش : ولا تحسب الذين كفروا ، بكسر الباء وبفتحها ، على حذف النون الخفيفة . وقرأ حمزة : ولا يحسبن بالياء على أن الفعل للذين كفروا . وقيل فيه : أصله أن سبقوا ، فحذفت أن ، كقوله (ومن آياته يريكم البرق) واستدل عليه بقراءة ابن مسعود رضى الله عنه : أنهم سبقوا . وقيل : وقع الفعل على أنهم لا يعجزون ، على أن «لا» صلة ، وسبقوا فى محل الحال ، بمعنى سابقين أى مفلتين هاربين . وقيل معناه : ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا ، فحذف الضمير لكونه مفهوما . وقيل : ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا . وهذه الأقاويل كلها متمحلة ، وليست هذه القراءة التى تفرد بها حمزة بنيرة . وعن الزهرى أنها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين .

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)

﴿من قوة﴾ من كل مايتقوى به فى الحرب من عددها. وعن عقبة بن عامر [١]: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: «ألا إن القوة الرمى[٢]» قالها ثلاثا. ومات عقبة عن سبعين قوسا فى سبيل الله. وعن عكرمة: هى الحصون. والرباط: اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله. ويجوز أن يسمى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة. ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال. وقرأ الحسن: ومن ربط الخيل، بضم الباء وسكونها جمع رباط. ويجوز أن يكون قوله ﴿ومن رباط الخيل﴾ تخصيصاً للخيل من بين مايتقوى به. كقوله (وجبريل وميكال) وعن ابن سيرين رحمه الله أنه سئل عمن أوصى بثلث ماله فى الحصون؟ فقال: يشترى به الخيل، فترابط فى سبيل الله ويغزى عليها، فقيل له: إنما أوصى فى الحصون، فقال: ألم تسمع قول الشاعر:

* أَنَّ الْحُصُونَ الْخَيْلُ لَامَدَرُ الْقُرَى * [٣]

﴿ترهبون﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد. وقرأ ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهما تخزون والضمير فى (به) راجع إلى مااستطعتم (عدو الله وعدوكم) هم أهل مكة ﴿وآخرين من دونهم﴾ هم اليهود وقيل المنافقون، وعن السدى هم أهل فارس، وقيل كفرة الجن، وجاء فى الحديث. إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا داراً فيها فرس عتيق، وروى أن صهيل الخيل يرهب الجن [٤]

---

(١) قال محمود: «القوة الرمى، روى عقبة بن عامر أنها الرمى ... الخ» قال أحمد: والمطابق للرمى أن يكون الرباط على بابه مصدراً، والله أعلم، وهو حسبى ونعم الوكيل.

(٢) أخرجه مسلم أتم منه.

(٣) ولقد علمت على تجنبي الردى أن الحصون الخيل لامدر القرى

لأشعر الجعفى، يقول: ولقد تيقنت مع أنى متجنب للردى أن الحصون المانعة منه هى الخيل وآلات الحرب لاالبناء، كالقلاع التى فى القرى. وأتى بقوله «على تجنبي الردى» لدفع توهم أنه رجل يلق بنفسه إلى التهلكة فلذلك يحب الحرب، فهو من باب الاحتراس. ويروى: على توقى الردى ـ بتشديد الياء ـ أى: مع أنى أتوقى الهلاك. قال رجل لعبيد الله بن الحسن: إن أبى أوصى بثلث ماله للحصون. قال: اذهب فاشتر به خيلا. قال: إنما ذكر الحصون. فقال: أما سمعت قول الأشعر. فأنشد البيت.

(٤) لم أجده هكذا، وروى ابن سعد والطبرانى وابن عدى من رواية سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله ابن عريب عن أبيه عن جده. رفعه فى قوله عز وجل (وآخرين من دونهم ـ الآية) قال: هم الجن، ولن يختل الشيطان إنسانا فى داره فرس عتيق وأعله ابن عدى، بسعيد بن سنان وضعفه عن أبى معين، وغيره، وله شاهد

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)

جنح له وإليه: إذا مال. والسلم تؤنث تأنيث نقيضها وهى الحرب قال:

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَارَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ (١)

وقرئ بفتح السين وكسرها. وعن ابن عباس رضى الله عنه أن الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ وعن مجاهد بقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) والصحيح أن الأمر موقوف على مايرى فيه الامام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً. وقرأ الأشهب العقيلى. فاجنح بضم النون ﴿وتوكل على الله﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر فى جنوحهم إلى السلم، فإنّ الله كافيك وعاصمك من مكرهم وخديعتهم. قال مجاهد، يريد قريظة.

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَاأَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)

﴿فإنّ حسبك الله﴾ فإن محسبك الله: قال جرير:

إِنِّى وَجَدْتُ مِنَ الْمَكَارِمِ حَسْبَكُمْ أَنْ تَلْبَسُوا خَزَّ الثِّيَابِ وَتَشْبَعُوا (٢)

﴿وألف بين قلوبهم﴾ التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرة، لأنّ العرب ـ لما فيهم من الحمية والعصبية، والانطواء على الضغينة فى أدنى شىء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا ـ لايكاد يأتلف منهم قلبان، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع

= من رواية الوضين بن عطاء عن سليمان بن موسى مرسلا، ولابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس فى هذه الآية قال: هو الشيطان، لايقرب ناصية فرس وإسناده واه. وقوله: «روى أن صهيل الخيل يطرد الجن» لم أجده.

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٥٢ فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٢) إنى وجدت من المكارم حسبكم ... أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذوكرت المكارم مرة ... فى مجلس أنتم به فتقنعوا

لجرير، أى: إنى وجدت كافيكم من المكارم لبس الخز من الثياب والشبع من الطعام والشراب، وجعلهما من المكارم تهكما بهم. أو على زعمهم، أو المعنى: مغنيكم عنها هاتان الخصلتان، فمن للبدل. أوالمعنى: إن كان ذلك من المكارم فهو كافيكم لمبالغتكم فيه. ويروى: حر الثياب، بمهملتين، أى جيدها. وتذوكرت: مبنى للمجهول، أى: فاذا تذاكر الناس بالمكارم ولو مرة واحدة فغطوا وجوهكم حياء كالنساء فلستم من المكارم فى شىء.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتحدوا ، وأنشئوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتوادّ ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب فى الله والبغض فى الله ، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب . فهو يقلبها كما شاء ، ويصنع فيها ماأراد ، وقيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ماأهلك سادتهم ورؤساءهم ودقّ جماجمهم ، ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى ، وبينهما التجاور الذى يهيج الضغائن ويديم التحاسد والتنافس ، وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها وتكرهه وتنفر عنه ، فأنساهم الله تعالى ذلك كله حتى اتفقوا على الطاعة وتصافوا وصاروا أنصاراً وعادوا أعواناً ، وما ذاك إلا بلطيف صنعه وبليغ قدرته

يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

﴿ومن اتبعك﴾ الواو بمعنى مع وما بعده منصوب ، تقول : حسبك وزيداً درهم ، ولا تجرّ ؛ لأنّ عطف الظاهر المجرور على المكنى ممتنع قال :

* فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ عَضْبٌ مُهَنَّدُ * [1]

والمعنى : كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً أو يكون فى محل الرفع : أى كفاك الله وكفاك المؤمنون ، وهذه الآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال ، وعن ابن عباس رضى الله عنه نزلت فى إسلام عمر رضى الله عنه ، وعن سعيد بن جبير أنه أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر ، فنزلت .

يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْـَٔانَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ

(١) إذا كانت الهيجاء واشتقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

يقول : إذا وجدت الحرب وافترقت العصبة ووقع الخلاف وظهر الشر فيكفيك مع الضحاك سيف مطبق من حديد الهند ، فانشقاق العصا تمثيل لوقوع الخلاف وظهور الشر . وحسب : اسم فعل بمعنى يكفى . والكاف مفعوله . والضحاك مفعول معه . وسيف فاعله . والجمهور على أنه صفة مشبهة بمعنى كاف مبتدأ ، والكاف مضاف إليه . وسيف خبره . والضحاك مفعول لمحذوف ، أى يكفى لأن الصفة المشبهة لاتنصب المفعول معه . وروى الضحاك بالجر ، أى : وحسب الضحاك ، وبالرفع على إنابته مناب «حسب» المحذوف . والواو للمعية على الأول ، وللعطف على غيره ويروى : عضب مهند . والعضب : السيف القاطع .

يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦).

التحريض : المبالغة فى الحث على الأمر من الحرض ، وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت ، أوأن تسميه حرضا : وتقول له : ماأراك إلا حرضاً فى هذا الأمر وممرضاً فيه ، ليهيجه ويحرك منه . ويقال : حركه وحرضه وحرصه وحرشه وحربه ، بمعنى ، وقرئ حرص ، بالصاد غير المعجمة ، حكاها الأخفش ، من الحرص ، وهذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله تعالى وتأييده ، ثم قال ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أى بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم ، فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ويستحقون خذلانه ، خلاف من يقاتل على بصيرة ومعه مايستوجب به النصر والإظهار من الله تعالى . وعن ابن جريج كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد منهم للعشرة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث حمزة رضى الله عنه فى ثلاثين راكباً ، فلقى أبا جهل فى ثلثمائة راكب . قيل : ثم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه ، وذلك بعد مدة طويلة ، فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين ، وقيل : كان فيهم قلة فى الابتداء ، ثم لما كثروا بعد نزل التخفيف . وقرئ : ضعفاً ، بالفتح والضم ، كالمكث والمكث ، والفقر والفقر . وضعفاً : جمع ضعيف . وقرئ الفعل المسند إلى المائة بالتاء والياء فى الموضعين ، والمراد بالضعف : الضعف فى البدن . وقيل : فى البصيرة والاستقامة فى الدين ، وكانوا متفاوتين فى ذلك فإن قلت : لم كرر المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده ؟ قلت : للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت ؛ لأن الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف ، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين .

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)

وقرئ : للنبى ، على التعريف . وأسارى . ويثخن ، بالتشديد . ومعنى الإثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ، من قولهم : أثخنته الجراحات إذا أثبتته حتى تثقل عليه الحركة . وأثخنه المرض إذا أثقله من الثخانة التى هى الغلظ والكثافة ، يعنى حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل

فى أهله ، ويعز الإسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر . ثم الأسر بعد ذلك . ومعنى ﴿ما كان﴾ ماصح له وما استقام ، وكان هذا يوم بدر ، فلما كثر المسلمون نزل (فإمّا منّاً بعد وإمّا فداء) وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتى بسبعين أسيراً فيهم العباس عمه وعقيل بن أبى طالب ، فاستشار أبا بكر رضى الله عنه فيهم [١] فقال : قومك وأهلك استبقهم لعلّ الله أن يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك . وقال عمر رضى الله عنه : كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم ، فإنّ هؤلاء أئمة الكفر ، وإن الله أغناك عن الفداء : مكن علياً من عقيل ، وحمزة من العباس ، ومكنى من فلان لنسيب له ، فلنضرب أعناقهم . فقال صلى الله عليه وسلم : إنّ الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة ، وإنّ مثلك ياأبا بكر مثل إبراهيم ، قال (فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) ومثلك ياعمر مثل نوح ، قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) ثم قال لأصحابه : أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق . وروى أنه قال لهم : إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتموهم ، واستشهد منكم بعدّتهم ، فقالوا : بل نأخذ الفداء ، فاستشهدوا [٢] بأحد : وكان فداء الأسارى عشرين أوقية ، وفداء العباس أربعين أوقية . وعن محمد بن سيرين : كان فداؤهم مائة أوقية ، والأوقية أربعون درهما وستة دنانير [٣] . وروى أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية ، فدخل عمر على رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن عباس عن عمر فى حديث طويل ، وقد تقدم طرف منه فى أوائل السورة . وفى الباب عن أبى عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه كما سيأتى قريبا .

(٢) قوله «وروى أنه قال لهم : إن شئتم قتلتم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم : فقالوا : بلى . فأخذ الفداء . فاستشهدوا بأحد» أخرجه الطبرى من طريق أشعث بن سوار عن محمد بن سيرين عن عبيدة هو ابن عمرو قال «أسر المسلمون من المشركين سبعين وقتلوا سبعين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اختاروا أن تأخذوا منهم الفداء . فتتقووا به على عدوكم ويقتل منكم سبعين ، أو تقتلوهم ، فقالوا : بل نأخذ الفدية منهم ويقتل منا سبعون ، قال فأخذوا منهم الفدية ، وقتل سبعون ورواه ابن مردويه موصولا من طريق ابن عون . عن ابن سيرين عن عبيدة عن على وزاد فيه : قال «وكان آخر السبعين ثابت بن قيس بن شماس» وروى الواقدى فى المغازى من طريق يحيى ابن أبى كثير . عن على . قال «أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر فخيره فى الأسرى . أن يضرب أعناقهم . أو يأخذ منهم الفداء . ويستشهد منكم فى قابل عدتهم . الحديث مع ضعفه وهو منقطع .

(٣) قوله «وكان فداء الأسارى عشرين أوقية وفداء العباس أربعين أوقية والأوقية أربعون درهما وستة دنانير» أما كون الفداء كان عشرين أوقية . فروى الطبرى من طريق عبيدة بن عمر قال «كان فداء أسارى بدر مائة أوقية والأوقية أربعون درهما ومن الدنانير ستة دنانير . وأما فداء العباس رضى الله عنه . فروى ابن مردويه من طريق على وابن عباس ، قال كان العباس يوم بدر أسيرا فافتدى نفسه بأربعين أوقية ذهب» وروى ابن مردويه . من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال «لما كان يوم بدر أسر سبعون فجعل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين أوقية ذهبا وجعل على عمه العباس مائة أوقية : وعلى عقيل ثمانين ، فقال للقرابة صنعت هذا . الحديث .

صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان [١] فقال : يارسول الله أخبرنى ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت ، فقال : أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ، ولقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة منه ـ وروى أنه قال : لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ ، رضى الله عنهما ، لقوله كان الإثخان فى القتل أحب إلىّ [٢] ﴿عرض الدنيا﴾ حطامها ، سمى بذلك لأنه حدث قليل اللبث ، يريد الفداء. ﴿والله يريد الآخرة﴾ يعنى ماهو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان فى القتل . وقرئ : يريدون ، بالياء . وقرأ بعضهم والله يريد الآخرة ، بجر الآخرة على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على حاله ، كقوله :

أَكُلَّ ٱمْرِئٍ تَحْسَبِينَ ٱمْرَأً وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارَا [٣]

ومعناه والله يريد عرض الآخرة . على التقابل . يعنى ثوابها ﴿والله عزيز﴾ يغلب أولياءه على أعدائه ويتمكنون منهم قتلا وأسراً ويطلق لهم الفداء ، ولكنه ﴿حكيم﴾ يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا وهم يعجلون ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ لولا حكم منه سبق إثباته فى اللوح وهو أنه لا يعاقب أحد بخطأ ، وكان هذا خطأ فى الاجتهاد ؛ لأنهم نظروا فى أن استبقاءهم ربما كان سبباً فى إسلامهم وتوبتهم ، وأنّ فداءهم يتقوى به على الجهاد فى سبيل الله ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأفل لشوكتهم . وقيل كتابه أنه سيحل لهم الفدية التى أخذوها . وقيل : إن أهل بدر مغفور لهم . وقيل : إنه لا يعذب قوماً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهى ، ولم يتقدم نهى عن ذلك ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ روى أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم

---

(١) أخرجه أحمد والطبرى . من رواية الأعمش عن عمر بن سمرة عن أبى عبيدة عن عبد الله فذكره مطولا .

(٢) أخرجه الطبرى من طريق ابن إسحاق قال «لم يكن أحد من المؤمنين ممن حضر بدراً إلا أحب الغنائم غير عمر بن الخطاب فانه جعل لايلقى أسيرا إلا ضرب عنقه وقال سعد بن معاذ : يارسول الله الاثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو نزل من السماء عذاب لما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ» ورواه الواقدى فى المغازى من وجه آخر منقطع بمعناه . وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه «لو نزل العذاب . ماأفلت منه إلا ابن الخطاب» .

(٣) لأبى دواد . وقيل لحارثة بن حمران الايادى ، وهو من أبيات الكتاب . والهمزة للاستفهام الانكارى ، يخاطب امرأة ، أو نفسه ، أى : لاتحسبي أن كل رجل رجل كامل ، ولاتحسبي أن كل نار تتوقد فى الليل نار متوقدة لقرى الضيفان ، يعنى أن الرجل هو الكريم الشجاع ، والنار هى نار القرى لاغير . وحذف المضاف مع بقاء المضاف إليه على حالة الاضافة مطرد ، إذا عطف على مثله ليدل عليه كما هنا ، وإلا فهو سماعى ، بل مُطرد عند الكوفيين ولو بغير عطف . ونار مجرور بمضاف محذوف ؛ ولايصح عطفه على امرئ . وعطف المنصوب على المنصوب لئلا يلزم العطف على معمولى عاملين مختلفين ، وهما «كل» و«تحسبين» وهو ممنوع عند سيبويه ومن وافقه .

يمدّوا أيديهم إليها ، فنزلت . وقيل : هو إباحة للفداء ، لأنه من جملة الغنائم ﴿ واتقوا الله ﴾ فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه .

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

فإن قلت : مامعنى الفاء ؟ قلت : التسبيب والسبب محذوف ، معناه : قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم . وحلالا : نصب على الحال من المغنوم ، أو صفة للمصدر ، أى أكلا حلالا . وقوله ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ معناه أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه ، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾

﴿ فى أيديكم ﴾ فى ملكتكم ، كأن أيديكم قابضة عليهم . وقرئ : من الأسرى ﴿ فى قلوبكم خيراً ﴾ خلوص إيمان وصحة نية ﴿ يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ من الفداء ، إما أن يخلفكم فى الدنيا أضعافه ، أو يثيبكم فى الآخرة . وفى قراءة الأعمش : يثبكم خيراً . وعن العباس رضى الله عنه أنه قال : كنت مسلماً ، لكنهم استكرهونى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن يكن ما تذكره حقا فالله يجزيك ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا »[1] وكان أحد الذين ضمنوا إطعام أهل بدر وخرج بالذهب لذلك . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس : « افد ابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، فقال : يا محمد ، تركتنى أتكفف قريشاً مابقيت . فقال له : فأين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لا أدرى مايصيبنى فى وجهى هذا ، فإن حدث بى حدث فهو لك ولعبد الله وعبيدالله والفضل ؛ فقال العباس وما يدريك ؟ قال « أخبرنى به ربى » قال العباس : فأنا أشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل ، ولقد كنت مرتاباً فى أمرك ، فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب . قال العباس رضى الله عنه : فأبدلنى الله خيراً من ذلك ، لى الآن عشرون عبداً ، إن أدناهم ليضرب فى عشرين ألفاً ، وأعطانى زمزم ماأحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربى[2] . وروى أنه قدم على رسول الله

---

(١) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى ، والحاكم من طريقه ـ حدثنى يحيى بن عباد عن أبيه عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسرهم وبعثت زينب فى فداء أبى العاص ـ قال العباس يارسول الله إنى كنت مسلما . فذكره

(٢) هو الذى قبله بتمامه بالاسناد المذكور . ورواه أبو نعيم فى الدلائل من طريق إسحاق : حدثنى بعض أصحابنا عن مقسم عن ابن عباس . بمعناه مطولا . ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بمعناه ، وفيه محمد بن حميد الرازى ، وهو ضعيف ، وقوله «وكان العباس أحد الذين ضمنوا إطعام بدر ، وخرج بالذهب لذلك» لم أجد هذا .

صلى الله عليه وسلم مال البحرين ثمانون ألفاً ، فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه ، وأمر العباس أن يأخذ منه ما قدر على حمله ، وكان يقول : هـذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة [1] وقرأ الحسن وشيبة : مما أخذ منكم ، على البناء للفاعل .

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ نكث ما بايعوك عليه من الإسلام والردّة واستحباب دين آبائهم ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فأمكن منهم﴾ كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم إن أعادوا الخيانة . وقيل : المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)

الذين هاجروا : أي فارقوا أوطانهم وقومهم حبا لله ورسوله : هم المهاجرون . والذين آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم : هم الأنصار ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي يتولى بعضهم بعضاً في الميراث ، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوي القرابات ، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) وقرئ : من ولايتهم ، بالفتح والكسر ، أي من توليهم في الميراث . ووجه الكسر أن تولى بعضهم بعضا شبه بالعمل والصناعة ، كأنه بتوليه صاحبه يزاول أمراً ويباشر عملا ﴿فعليكم النصر﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إلا على قوم﴾ منهم ﴿بينكم وبينهم﴾ عهد فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لأنهم لا يبتدؤون بالقتال ، إذ الميثاق مانع من ذلك .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)

---

(١) أخرجه الطبري حدثنا بشر بن معاذ حدثنا يزيد . حدثنا سعد بن أبي عروبة . عن قتادة هكذا . وروى الحاكم في فضائل العباس من طريق سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال . عن أبي موسى ، أن العلاء بن الحضرمي بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البحرين بثمانين ألفا فأمر بها فنثرت على الحصير ونودي بالصلاة ... الحديث ،

﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين (أولئك بعضهم أولياء بعض) ومعناه: نهى المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً ثم قال: ﴿ إلا تفعلوه ﴾ أى إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضاً حتى في التوارث، تفضيلا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار. ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً. وقرئ كثير بالثاء.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَـٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه، بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المال لأجل الدين، وليس بتكرار لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم [1] مع الموعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل ﴿ والذين آمنوا من بعد ﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة، كقوله (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) ألحقهم بهم وجعلهم منهم تفضلا منه وترغيبا ﴿ وأولو الأرحام ﴾ أولو القرابات أو أولى بالتوارث، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿ في كتاب الله ﴾ تعالى في حكمه وقسمته. وقيل في اللوح. وقيل في القرآن، وهو آية المواريث وقد استدل به أصحاب أبى حنيفة رحمه الله على توريث ذوى الأرحام.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه برىء من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته في الدنيا» [2]

---

(١) قوله «والشهادة لهم» لعله: والشهادة لهم بالإيمان. (ع)

(٢) ذكرت أسانيده في تفسير آل عمران.

سـورة التوبة

مدنية [إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان]

وآياتها ١٣٠ وقيل ١٢٩ [نزلت بعد المائدة]

لها عدة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدمدمة، سورة العذاب، لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث[1] عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم. وعن حذيفة رضي الله عنه: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه. فإن قلت: هلا صدرت بآية التسمية كما في سائر السور؟ قلت: سأل عن ذلك عبد الله بن عباس عثمان رضي الله عنهما فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها،[2] فلذلك قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين[3]. وعن أبي كعب: إنما توهموا ذلك، لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود. وسئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال: اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبذ والمحاربة، قال تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) قيل: فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب إلى أهل الحرب: بسم الله الرحمن الرحيم. قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم، ألا تراه يقول (سلام على من اتبع الهدى[4]) فمن دعى إلى الله عز وجل فأجاب ودعى[5] إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى، وأما النبذ فإنما هو البراءة

---

(١) قوله «تبحث» لعله أي تبحث. (ع)

(٢) قوله «شبيهة بقصتها» هذا الضمير للأنفال، بدليل التشبيه، وإن لم يجر لها ذكر هنا. وعبارة الخازن ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت التوبة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها ... الخ. (ع)

(٣) أخرجه أصحاب السنن، وابن حبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والبزار. من طريق يوسف بن مهران. ويزيد الفارسي. عن ابن عباس. قال «سألت عثمان بن عفان، ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما فذكر الحديث بطوله سوى قوله وكانتا تدعيان القرينتين، فلم يذكرها إلا إسحاق

(٤) هو في حديث ابن عباس الطويل عن أبي سفيان. وهو متفق عليه. وفيه فقرأ الكتاب فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. الحديث.

(٥) قوله «ودعى» لعله: أو دعى. (ع)

واللعنة ، وأهل الحرب لا يسلم عليهم ، ولا يقال : لا تفرق ولا تخف ، ومترس [١] ولا بأس : هذا أمان كله . وقيل : سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة ، كلتاهما نزلت فى القتال ، تعدّان السابعة من الطول [٢] وهى سبع وما بعدها المئون ، وهذا قول ظاهر ؛ لأنهما معاً مائتان وست ، فهما بمنزلة إحدى الطول . وقد اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم : الأنفال وبراءة سورة واحدة . وقال بعضهم : هما سورتان ، فتركت بينهما فرجة لقول من قال : هما سورتان ، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال : هما سورة واحدة .

بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدْتُم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ (٢)

﴿براءة﴾ خبر مبتدإ محذوف أى هذه براءة و﴿من﴾ لابتداء الغاية ، متعلق بمحذوف وليس بصلة ، كما فى قولك : برئت من الدين . والمعنى : هذه براءة واصلة من الله ورسوله ﴿إلى الذين عاهدتم﴾ كما يقال : كتاب من فلان إلى فلان . ويجوز أن يكون (براءة) مبتدأ لتخصيصها بصفتها ، والخبر (إلى الذين عاهدتم) كما تقول : رجل من بنى تميم فى الدار . وقرئ (براءة) بالنصب ، على : اسمعوا براءة . وقرأ أهل نجران (من الله) بكسر النون ، والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرته . والمعنى أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذى عاهدتم به المشركين وأنه [٣] منبوذ إليهم . فإن قلت : لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين ؟ قلت : قد أذن الله فى معاهدة المشركين أوّلا فاتفق المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهدوهم ، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم ، فخوطب المسلمون

(١) قوله «ومترس» بفتح الميم والتاء وسكون الراء : فارسى ، معناه : أمان . (ع)

(٢) قوله «من الطول» الطول ـ بكسر ففتح ـ بمعنى الطويلة . أفاده الصحاح . وعبارة غيره : الطوال .

(٣) قال محمود معناه : «أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذى عاهدتم به المشركين ... الخ» قال أحمد : ووراء ماذكره سر آخر هو المرعي ، والله أعلم . وذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله فى مقام نسب إليه النبذ من المشركين ، لاتحسن شرعا . ألاترى إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمراء السرايا حيث يقول لهم : وإذا نزلت بحصن فطلبوا النزول على حكم الله فأنزلهم على حكمك ، فانك لاتدرى أصادفت حكم الله فيهم أولا ؟ وإن طلبوا ذمة الله فأنزلهم على ذمتك ، فلأن تخفر ذمتك خير من أن تخفر ذمة الله . فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوقير ذمة الله مخافة أن تخفر وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع ، فتوقير عهد الله وقد تحقق من المشركين النكث ، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لاينسب العهد المنبوذ إلى الله أحرى وأجدر . فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه ، والله أعلم .

بما تجدّد من ذلك فقيل لهم : اعلموا أنّ الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين . وروى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب ، فنكثوا إلا ناساً منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فنبذ العهد إلى الناكثين ، وأمروا أن يسيحوا فى الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤا لا يتعرّض لهم ، وهى الأشهر الحرم فى قوله (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها . وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان ، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد ، فأمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه على موسم سنة تسع ، ثم أتبعه علياً رضى الله عنه راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم ، فقيل له : لو بعثت بها إلى أبى بكر رضى الله عنه ؟ فقال : لا يؤدى عنى إلا رجل منى ، فلما دنا علىّ سمع أبو بكر الرغاء ، فوقف ، وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما لحقه قال : أمير أو مأمور ؟ قال : مأمور . وروى أنّ أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، لا يبلغنّ رسالتك إلا رجل منك ، فأرسل علياً ، فرجع أبو بكر رضى الله عنهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، أشىء نزل من السماء قال : نعم ، فسر وأنت على الموسم ، وعلىّ ينادى بالآى . فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضى الله عنه وحدثهم عن مناسكهم ، وقام على رضى الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال : يأيها الناس ، إنى رسول رسول الله إليكم . فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية [1] . وعن مجاهد رضى الله عنه ثلاث عشرة آية ، ثم قال : أمرت بأربع : أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل

---

(١) [قلت] هذا ملفق من مواضع . فصدره مذكور فى مغازى ابن إسحاق . وقوله «وهم بنو ضمرة وبنو كنانة أى الذين نكثوا إلا من استثنى منهم كما يفهم من ظاهره . وسيأتى بيان ذلك قريبا بعد أحاديث . وذلك أن العهد كان فى سنة ست والنكث ونزولها والفتح فى سنة ثمان كما سيأتى بعد قليل : أن المدة التى بلا نكث كانت ثمانية عشر شهرا . فعلى هذا كان أول النكث . فى شهر ربيع الآخر سنة ثمان هذا هو التحقيق فى النقل . وأما قوله «وكان الأمير بها أى فى سنة ثمان على مكة وعلى الحج . فهذا ذكره الواقدى فى المغازى . وأما قوله «فأمر أبو بكر على موسم سنة تسع إلى آخره» فهو فى الصحيح من حديث أبى هريرة بمعناه . وأما قوله وأتبعه عليا فرواه أحمد ، وأبو يعلى من رواية أبى إسحق عن يزيد بن منيع عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه «أن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه ببراءة إلى أهل مكة . فذكر الحديث وفيه فسار ثلاثا ثم قال لعلى الحقه ورد على أبا بكر وبلغها قال ففعل ، فلما قدم أبو بكر بكى وقال يارسول الله حدث فى شىء ؟ قال : ماحدث فيك إلا خير . لكننى أمرت أن لايبلغ إلا أنا أو رجل منى» وفى المستدرك من طريق جميع بن عمير ، أتيت ابن عمر فسألته عن على فانتهرنى ثم قال ، ألا أحدثك عن على إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبابكر وعمر ببراءة إلى أهل مكة فانطلقا فاذا هما براكب فقالا من هذا ؟ فقال : أنا على بن أبى طالب فقال : يا أبا بكر هات الكتاب ، الحديث ، وروى . (*)

(*) كذا بأحد الأصلين بياض قدر أسطر . وفى الأصل الآخر سقط الكلام ولم يترك بياضاً . اه مصححه

نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده : فقالوا عند ذلك ياعلى ، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف . وقيل : إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه ؛ لأنّ العرب عادتها فى نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها ، فلو تولاه أبو بكر رضى الله عنه لجاز أن يقولوا : هذا خلاف مايعرف فينا من نقض العهود ، فأزيحت علتهم بتولية ذلك علياً رضى الله عنه . فإن قلت : الأشهر الأربعة ماهى ؟ قلت : عن الزهرى رضى الله عنه أنّ براءة نزلت فى شوال ، فهى أربعة أشهر : شوّال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرّم ، وقيل هى عشرون من ذى الحجة ، والمحرّم ، وصفر ، وشهر ربيع الأوّل ، وعشر من شهر ربيع الآخر . وكانت حرما ؛ لأنهم أومنوا فيها وحرّم قتلهم وقتالهم . أو على التغليب ؛ لأنّ ذا الحجة والمحرّم منها . وقيل : لعشر من ذى القعدة إلى عشر من ربيع الأول ؛ لأنّ الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسىء الذى كان فيهم ، ثم صار فى السنة الثانية من ذى الحجة . فإن قلت : ماوجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين فى الأشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك ؟ قلت : قالوا قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها ﴿غير معجزى الله﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ، وهو مخزيكم : أى مذلكم فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالعذاب .

وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

﴿وأذان﴾ ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين ، ثم الجملة معطوفة على مثلها ، ولا وجه لقول من قال : إنه معطوف على براءة ، كما لا يقال : عمرو معطوف على زيد ، فى قولك : زيد قائم ، وعمرو قاعد ، والأذان : بمعنى الإيذان وهو الإعلام ، كما أنّ الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء . فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية ؟ قلت : تلك إخبار بثبوت البراءة . وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت . فإن قلت : لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس ؟ قلت : لأنّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأمّا الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث ﴿يوم الحج الأكبر﴾ يوم عرفة . وقيل : يوم النحر ؛ لأنّ فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ، من الطواف . والنحر ، والحلق ، والرمى . وعن على رضى الله عنه : أن رجلا أخذ

بلجام دابته فقال : ما الحج الأكبر ؟ قال يومك هذا . خل عن دابتي[1] . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال « هذا يوم الحج الأكبر[2] » ، ووصف الحج بالأكبر لأنّ العمرة تسمى الحج الأصغر ، أو جعل الوقوف بعرفة هو الحج الأكبر لأنه معظم واجباته ؛ لأنه إذا فات فات الحج ، وكذلك إن أريد به يوم النحر ؛ لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج ـ فهو الحج الأكبر . وعن الحسن رضى الله عنه : سمى يوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين فيه وموافقته لأعياد أهل الكتاب ، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده ، فعظم على قلب كل مؤمن وكافر . حذفت الباء التى هى صلة الأذان تخفيفاً . وقرئ (إنّ الله) بالكسر ؛ لأنّ الأذان فى معنى القول ﴿ورسوله﴾ عطف على المنوى فى (برىء) أو على محل « إن » المكسورة واسمها : وقرئ بالنصب ، عطفاً على اسم « إن » أو لأنّ الواو بمعنى مع : أى برىء معه منهم ، وبالجرّ على الجوار . وقيل : على القسم ، كقوله : لعمرك . ويحكى أن أعرابياً سمع رجلا يقرؤها فقال : إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه برىء ، فلببه الرجل إلى عمر ، فحكى الأعرابى قراءته ، فعندها أمر عمر رضى الله عنه بتعلم العربية[3] ﴿فإن تبتم﴾ من الكفر والغدر ﴿فهو خير لكم وإن توليتم﴾ عن التوبة ، أو ثبتم على التولى والإعراض عن الإسلام والوفاء فاعلموا أنكم غير سابقين الله تعالى ولا فائتين أخذه وعقابه .

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

فإن قلت : ممّ استثنى قوله ﴿إلا الذين عاهدتم﴾[4] ؟ قلت : وجهه أن يكون مستثنى من

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة والطبرى من رواية شعبة عن الحاكم عن يحيى بن الجزار عن على « أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته وسأله عن الحج الأكبر فقال : هو يومك هذا خل سبيلها

(٢) أخرجه البخارى تعليقا وأبو داود والحاكم من رواية هشام بن الغاز عن نافع عن ابن عمر مطولا ورواه الطبرانى والطبرى وأبو نعيم فى الحلية وابن أبى حاتم مختصراً من طريق سعيد بن عبد العزيز عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى الجمرة يوم النحر . وقال : هذا يوم الحج الأكبر » وفى الباب عن على رضى الله عنه ، أخرجه الترمذى مرفوعا وموقوفا . وعن ابن أبى أوفى عند الطبرانى . وعن ابن مسعود فى تاريخ أصبهان لأبى نعيم فى ترجمة عمر بن هارون .

(٣) لم أجده باسناده وذكره القرطبى فى التذكرة عن ابن أبى مليكة قال « قدم أعرابى فى زمن عمر فذكره أتم منه ، وزاد فى آخره : وأمر بأبى الأسود فوضع النحو اه والمشهور أن الذى أمر أبا الأسود بوضع النحو على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٤) قال محمود : « إن قلت مم هذا الاستثناء قلت وجهه أن يكون مستثنى ... الخ » قال أحمد : ويجوز أن يكون =

قوله (فسيحوا فى الأرض) لأن الكلام خطاب للمسلمين . ومعناه : براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فقولوا لهم سيحوا ، إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتموا إليهم عهدهم والاستثناء بمعنى الاستدراك ، وكأنه قيل بعد أن أمروا فى الناكثين ، ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا عليهم عهدهم ، ولا تجروهم مجراهم ، ولا تجعلوا الوفىّ كالغادر ﴿إن الله يحب المتقين﴾ يعنى أنّ قضية التقوى أن لا يسوّى بين القبيلين فاتقوا الله فى ذلك ﴿لم ينقصوكم شيئاً﴾ لم يقتلوا منكم أحداً ولم يضروكم قط ﴿ولم يظاهروا﴾ ولم يعاونوا ﴿عليكم﴾ عدوّا ، كما عدت بنو بكر على خزاعة عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشد :

لَاهُمَّ إِنِّى نَاشِــــدٌ مُحَمَّدَا   حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيكَ الْأَتْلَدَا

إِن قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا   وَنَقَضُوا ذِمَامَكَ الْمُؤَكَّدَا

هُمْ بَيَّتُونَا بِالْحَطِيمِ هُجَّدَا   وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا (١)

= قوله فسيحوا خطابا من الله تعالى المشركين غير مضمر قبله القول ، ويكون الاستثناء على هذا من قوله إلى الذين عاهدتم ، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين لا الباقين على العهد ، فأتموا إليهم أيها المسلمون عهدهم ، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين فى قوله (إلى الذين عاهدتم) إلى خطاب المشركين فى قوله (فسيحوا) ثم التفات من التكلم إلى الغيبة بقوله : (واعلموا أنكم غير معجزى الله) وأن الله وأصله واعلموا أنكم غير معجزى وأنى ، وفى هذا الالتفات بعد الالتفات الأول افتنان فى أساليب البلاغة وتفخيم للشأن وتعظيم للأمر ثم يتلو هذا الالتفات العود إلى خطاب المسلمين بقوله : إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم فأتموا ، وكل هذا من حسنات الفصاحة وإنما بعث الزمخشرى على تقدير القول قبل (فسيحوا) مراعاة أن يطابق قوله فأتموا ، إذا المخاطب على هذا التقدير المسلمون أولا وثانياً ولا يكون فيه شىء من الالتفاتات المبنية على التأويل الذى ذكرناه ، وكلا الوجهين ممتاز بنوع من البلاغة وطرف من الفصاحة ، والله أعلم .

(١) إن قريشا أخلفوك الموعدا   وتقضوا ذمامك المؤكدا
وزعموا أن لست تنجى أحدا   وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا فى الحطيم هجدا   وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا   وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا   فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا   إن شيم خطب وجهه تربدا

لعمرو بن سلام الخزاعى . لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة أعانت قريش بنى بكر على حرب بنى خزاعة ، ففزع عمرو إليه بالمدينة وأنشده ذلك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لا نصرت إن لم أنصركم . و«لاهم» أصله اللهم ، خفف وأظهر فى مقام الاضمار للدلالة على التعظيم والتهييج لما أراده . والحلف : العهد . والأتلد : الأقدم . والتفت إلى الخطاب للاستعطاف . وجعله كالأب لهم لمراعاته مصالحهم . وعطف بثمة للترتيب فى الاخبار ونزع إليه كناية عن نقض العهد . و«الذمام» العهد . وقيل : جمع ذمة بمعنى العهد أيضا . وروى «ميثاقك» . وأذل ، وأقل ، بمعنى أذلاء قليلون ، فليس مفيدا للزيادة . ويجوز أنه على بابه بالنظر لزعمهم ، أى : أذل وأقل عما زعموا فيك وفى قومك . و«الحطيم» معروف ، كانوا فى الجاهلية يحلفون فيه فيحطم الكاذب . ويروى «بالأتير» =

فقال عليه الصلاة والسلام : لا نصرت إن لم أنصركم»[1] وقرئ : لم ينقضوكم ، بالضاد معجمة أى لم ينقضوا عهدكم . ومعنى ﴿فأتموا إليهم﴾ فأدوه إليهم تاماً كاملا . قال ابن عباس رضى الله عنه : بقى لحى من كنانة من عهدهم تسعة أشهر ، فأتم إليهم عهدهم .

فَإِذَا ٱنسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

انسلخ الشهر ، كقولك انجرد الشهر ، وسنة جرداء . و ﴿الأشهر الحرم﴾ التى أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿فاقتلوا المشركين﴾ يعنى الذين نقضوكم وظاهروا عليكم ﴿حيث وجدتموهم﴾ من حل أو حرم ﴿وخذوهم﴾ وأسروهم . والأخيذ : الأسير ﴿واحصروهم﴾ وقيدوهم وامنعوهم من التصرف فى البلاد . وعن ابن عباس رضى الله عنه : حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام ﴿كل مرصد﴾ كل ممر ومجتاز[2] ترصدونهم به ، وانتصابه على الظرف كقوله (لأقعدن لهم

= والأتير : الطريق ، وواحده وتيرة . وهو هنا اسم ماء لخزاعة بأسفل مكة . و «الهجد» جمع هاجد ، وهو المتيقظ من النوم للعبادة . و «العتيد» الحاضر ، يقال : عتده تعتيدا ، وأعتده إعتاداً : هيأه وأحضره ، فهو عتيد وأعتد . وفيه جعل اسم التفضيل بمعنى المفعول ، فلعله من عتد إذا حضر . والأصل أعده إعداداً فأبدلت الدال تاء ، و «هداك الله» جملة اعتراضية دعائية . و «المدد» الزيادة : أى يأتوا زيادة لنا تعيننا على أعدائنا . وفى الاضافة إلى الله تهييج لهم . و «الفيلق» الجيش المزدحم المتكاثف . كالبحر فى الكثرة وسرعة السير . و «المزبد» المخرج للرغوة من شدة السير والغليان . «يسمو» يعلو «صعداً» أى صعوداً . «إن شيم» أى رؤى . وروى بالمهملة : أى أحق ، «تربد» أى تغير وصار مغبراً كلون الرماد . والغضب عند نزول المكروه أمارة الشجاعة . وهذا كان سبب فتح مكة .

(١) أخرجه ابن اسحاق فى المغازى والبيهقى فى الدلائل من طريقة . قال حدثنى الزهرى عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا «كان فى صلح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، فذكر القصة مطولة وفيها الشعر . وفيها فتكثوا فى المدنة نحو سبعة أو ثمانية عشر شهرا . وروى الطبرانى من طريق على بن الحسين حدثنى ميمونة بنت الحارث قالت «كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، فذكرت القصة والشعر . وأوردها الواقدى فى المغازى مطولا من طرق ثم قال . حدثنى عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن أبى أنس عن ابن عباس . قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر طرف ردائه ويقول «ياعمرو لانصرت إن لم أنصربنى كعب بما أنصر منه نفسى» .

(٢) قال محمود : «المرصد المجاز والممر ... الخ» قال أحمد : ويكون انتصابه دون جره من الاتساع ؛ لأن المرصد ظرف مختص ، والأصل قصور الفعل عن نصبه ، ويكون مثل قوله فى الاتساع :

• كما عسل الطريق الثعلب •

ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون مرصد مصدراً ؛ لأن صيغة اسم الزمان والمكان والمصدر من فعلة واحدة ، فعلى هذا يكون منصوبا نصباً أصلياً ؛ لأن اقعدوا فى معنى ارصدوا ، كأنه قيل : وارصدوهم كل مرصد ؛ إلا أن الظرفية يقويها قوله (حيث وجدتموهم) فيقتضيها قصد المطابقة بين ظرفى المكان ، والله أعلم .

صراطك المستقيم). ﴿فخلوا سبيلهم﴾ فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر. أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم كقوله:

* خَلِّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ * [1]

وعن ابن عباس رضى الله عنه: دعوهم وإتيان المسجد الحرام ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

﴿أحد﴾ مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر، تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء، لأنّ «إن» من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق، فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، وتبين [2] ما بعثت له فأمّنه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثم أبلغه﴾ بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم. ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت. وعن الحسن رضى الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى عليّ رضى الله عنه فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله، أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا، لأنّ الله تعالى يقول (وإن أحد من المشركين استجارك... الآية) وعن السدّي والضحاك

---

(١) خل السبيل لمن يبنى المنار به ... وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر
قد خفت يا ابن التي ماتت منافقة ... من خبث بردة أن لاينزل المطر

لجرير يهجو عمر بن لجأ التيمي. ويروى: خل الطريق. ومنار الطريق: حدوده. يقول له: اترك سبيل المعالى لمن يبنى الأعلام فيه ويقيم شعائره ويبين حدوده. شبه الخصال الحيدة بالطريق الجادة بجامع الوصول بكل إلى المراد وعدم الميل عن كل على سبيل التصريحية، وبناء المنار ترشيح: والمراد به: إقامة الشعائر الجيلة وتحسين شأنها لتتبعها الناس. أونصب دلائل على الكرم لتهتدى إليه العفاة. وبرزة هي أم عمر، وقيل: الأرض الواسعة. وعليه فنع صرفه ضرورة، ولكن البيت الثاني يؤيد ماقلنا، أى اخرج بأمك القبيحة إلى ماألجاك إليه القدر الأزلى، وهو ماانطبعت عليه من الخصال الخسيسة. والمراد بالأمر في الموضعين: بيان حاله التي هو عليها لاحقيقة الأمر. ويحتمل أن الاول أمر بترك التفاخر، فتكون صورة الأمر الثاني للمشاكلة، أوبمعنى طلب اعترافه بحال نفسه. وجعله النحويون من قبيل التحذير ومثلوا به لذكر عامل المحذر منه، وهو يزيد على مجرد الأمر بالتخلية بأن بينه وبين ذلك السبيل منافرة حتى صح تحذيره منه. وخفت بضم التاء، ولكن فتحها أبلغ في الهجو. وتكرير اسم برزة للتنكير والتعبير بها، أى أنها شؤم على الناس يخاف منها الجدب.

(٢) قوله «وتبين» لعله «ويتبين» عطفاً على يسمع. (ع)

رضى الله عنهما: هى منسوخة بقوله تعالى (فاقتلوا المشركين). ﴿ذلك﴾ أى ذلك الأمر، يعنى الأمر بالإجارة فى قوله (فأجره). ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم﴾ قوم جهلة ﴿لا يعلمون﴾ ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)

﴿كيف﴾ استفهام فى معنى الاستنكار والاستبعاد، لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أضداد وغرة صدورهم[1]، يعنى: محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا فى ذلك ولا تحدثوا به نفوسكم ولا تفكروا فى قتلهم. ثم استدرك ذلك بقوله ﴿إلا الذين عاهدتم﴾ أى ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عند المسجد الحرام﴾ ولم يظهر منهم نكث كبنى كنانة وبنى ضمرة، فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم ﴿فما استقاموا لكم﴾ على العهد ﴿فاستقيموا لهم﴾ على مثله ﴿إن الله يحب المتقين﴾ يعنى أن التربص بهم من أعمال المتقين ﴿كيف﴾ تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد[2]، وحذف الفعل لكونه معلوماً كما قال:

وَخَبَّرْتُمَانِى أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةٌ وَقَلِيبُ[3]

يريد: فكيف مات. أى: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ بعد

---

(١) قوله «وغرة صدورهم» أى ملتهبة من الغيظ. (ع)

(٢) قال محمود: «كيف تكرار لاستبعاد ثبات... الخ» قال أحمد السر فى تكرار كيف ـ والله أعلم ـ أنه لما ذكره أولا لاستبعاد ثبات عهدهم عند الله ولم يذكر إذ ذاك سبب البعد للغاية باستثناء الباقين على العهد وطال الكلام، أعيدت «كيف» تطرية للذكر، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض، فلم يقصد مجرد التكرار، بل هذا السر الذى انطوى عليه، وقد تقدمت له أمثال، والله الموفق.

(٣) لعمر أبى إن البعيد الذى مضى وإن الذى يأتى غداً لقريب
وخبرتمانى أنما الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب

لكعب الغنوى فى مرثية أخيه. و «الهضبة» الصخرة العظيمة. وجعل الخطاب لاثنين على عادة العرب ولو لم يوجدا. وإنما بالكسر على الحكاية، أو بالفتح على المفعولية: أى وأخبرتمانى أن الموت والوباء فى القرى فقط، فكيف تدعيان ذلك وقد مات أخى فى هذه البرية. أو كيف مات أخى فيها. والقليب: البئر لأنه قلب ترابه من بطن الأرض إلى ظهرها. وهاتا: إشارة للبرية. ويجوز أنها للهضبة: أى وهذا قليب.

ماسبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ، لم ينظروا فى حلف ولاعهد ولم يبقوا عليكم ﴿لا يرقبوا فيكم إلا﴾ لا يراعوا حلفاً . وقيل : قرابة . وأنشد لحسان رضى الله عنه :

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ [1]

وقيل (إلا) إلها . وقرئ : إيلا ، بمعناه . وقيل: جبرئيل ، وجبرئل ، من ذلك . وقيل : منه اشتق الآل بمعنى القرابة ، كما اشتقت الرحم من الرحمن ، والوجه أن اشتقاق الإلّ بمعنى الحلف ، لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه ، من الألّ وهو الجؤار ، وله أليل : أى أنين يرفع به صوته . ودعت ألليها : إذا ولولت[2] ، ثم قيل لكل عهد وميثاق : إلّ . وسميت به القرابة ، لأن القرابة عقدت بين الرجلين مالا يعقده الميثاق ﴿يرضونكم﴾ كلام مبتدأ فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن ، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد . وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان ، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ متمردون خلعاء لا مروءة تزعهم [3] ، ولا شمائل مرضية تردعهم ، كما يوجد ذلك فى بعض الكفرة ، من التفادى عن الكذب والنكث ، والتعفف عما يثلم العرض ويجر أحدوثة السوء .

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)

﴿اشتروا﴾ استبدلوا ﴿بآيات الله﴾ بالقرآن والإسلام ﴿ثمنا قليلا﴾ وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿فصدوا عن سبيله﴾ فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم . وقيل : هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿هم المعتدون﴾ المجاوزون الغاية فى الظلم والشرارة .

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)

---

(١) لحسان بن ثابت . والال ـ بالكسر ـ الحلف والعهد والقرابة . والسقب : حوار الناقة . والرأل : ولد النعام . يقول : وحياتك إن قرابتك من قريش بعيدة أو معدومة ، كقرابة ولد الناقة من ولد النعام . ويروى : كآل السيف . والوجه أنه تحريف .

(٢) قوله «ودعت ألليها إذا ولولت» فى الصحاح : وأما قول الكميت يمدح رجلا :

وأنت ماأنت فى غبراء مظلمة إذا دعت ألليها الكاعب الفضل

فيجوز أن يريد الألل ، ثم ثنى كأنه يريد صوتا بعد صوت . اه (ع)

(٣) قوله «لامروءة تزعهم» أى تكفهم . اه صحاح (ع)

﴿فإن تابوا﴾ عن الكفر ونقض العهد ﴿فإخوانكم فى الدين﴾ فهم إخوانكم على حذف المبتدإ، كقوله تعالى (فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم). ﴿ونفصل الآيات﴾ ونبينها. وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمّل تفصيلها فهو العالم بعثاً وتحريضاً على تأمّل مافصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢)

﴿وطعنوا فى دينكم﴾ وثلبوه وعابوه ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم: إشعاراً بأنهم إذا نكثوا فى حال الشرك تمرّداً وطغيانا وطرحاً لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانا للمسلمين فى الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا مابايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون فى دين الله ويقولون ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدم فيه، لايشق كافر غبارهم. وقالوا: إذا طعن الذمى فى دين الإسلام طعنا ظاهراً، جاز قتله؛ لأن العهد معقود معه على أن لايطعن، فاذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ جمع يمين. وقرئ: لا إيمان لهم، أى لا إسلام لهم. أو لايعطون الأمان بعد الردة والنكث، ولا سبيل إليه. فإن قلت: كيف أثبت لهم الأيمان فى قوله (وإن نكثوا أيمانهم) ثم نفاها عنهم؟ قلت: أراد أيمانهم التى أظهروها ثم قال: لا أيمان لهم على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن يمين الكافر لاتكون يمينا. وعند الشافعى رحمه الله: يمينهم يمين. وقال: معناه أنهم لايوفون بها، بدليل أنه وصفها بالنكث ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقوله (فقاتلوا أئمة الكفر) أى ليكن غرضكم فى مقاتلتهم بعد ماوجد منهم ماوجد من العظائم أن تكون المقاتلة سببا فى انتهائهم عما هم عليه. وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد. فإن قلت: كيف لفظ أئمة؟ قلت: همزة بعدها همزة بين بين، أى: بين مخرج الهمزة والياء [١]. وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة، وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين. وأما التصريح بالياء فليس بقراءة. ولا يجوز أن تكون قراءة. ومن صرح بها فهو لاحن محرف.

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣)

(١) قوله «بين مخرج الهمزة والياء: لعله «مخرجى الهمزة والياء». (ع)

﴿ألا تقاتلون﴾ دخلت الهمزة على (لاتقاتلون) تقريراً بانتفاء المقاتلة . ومعناه : الحض عليها على سبيل المبالغة ﴿نكثوا أيمانهم﴾ التى حلفوها فى المعاهدة ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ من مكة حين تشاوروا فى أمره بدار الندوة ، حتى أذن الله تعالى له فى الهجرة ، فخرج بنفسه ﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾ أى : وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المنير وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادءون بالقتال والبادئ أظلم ، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم ؟ وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها . ويقرر أن من كان فى مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب ، حقيق بأن لاتترك مصادمته ، وأن يوبخ من فرط فيها ﴿أتخشونهم﴾ تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ فتقاتلوا أعداءه ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعنى أن قضية الإيمان الصحيح أن لايخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يبالى بمن سواه ، كقوله تعالى (ولا يخشون أحداً إلا الله)

قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

لما وبخهم الله على ترك القتال ، جرّد لهم الأمر به فقال ﴿قاتلوهم﴾ ووعدهم ـ ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم ـ أنه يعذبهم بأيديهم قتلا ، ويخزيهم أسراً ، ويوليهم النصر والغلبة عليهم ﴿ويشف صدور﴾ طائفة [1] من المؤمنين ، وهم خزاعة ، قال ابن عباس رضى الله عنه : هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا ، فلقوا من أهلها أذى شديداً ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه ، فقال : أبشروا فإن الفرج قريب ﴿ويذهب غيظ﴾ قلوبكم [2] لما لقيتم منهم من المكروه ، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها ، فكان ذلك دليلا على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحة نبوّته ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ ابتداء كلام ، وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره ، وكان ذلك أيضاً ، فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم . وقرئ :

(١) قوله «ويشفِ صدور طائفة» هذا لفظ التلاوة . والأنسب ويشفى ، عطفاً على (يعذبهم بأيديكم) لأنه من جملة الوعد . (ع)

(٢) قوله «ويذهب غيظ قلوبكم» التلاوة (غيظ قلوبهم) ولعل بعض الناسخين فهم أنه من البشرى ، فغيره بلفظ الخطاب . والمتجه (غيظ قلوبهم) لما لقوا ، ثم قوله (ويذهب) بالرفع عطف على يعذبهم بأيديكم ؛ لأنه من جملة الوعد كما سيشير إليه . (ع)

ويتوب بالنصب بإضمار «أن» ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى ﴿والله عليم﴾ يعلم ماسيكون، كما يعلم ما قد كان ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿أم﴾ منقطعة، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان. والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه، حتى يتبين الخلص منكم، وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة أى بطانة، من الذين يضادّون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رضوان الله عليهم ﴿ولما﴾ معناها التوقع، وقد دلت على أن تبين ذلك، وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين. وقوله ﴿ولم يتخذوا﴾ معطوف على جاهدوا، داخل فى حيز الصلة، كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله. والوليجة: فعيلة من ولج، كالدخيلة من دخل. والمراد بنفى العلم نفى المعلوم، كقول القائل. ما علم الله منى ماقيل فىّ، يريد: ما وجد ذلك منى.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

﴿ما كان للمشركين﴾ ما صح لهم وما استقام ﴿أن يعمروا مسجد الله﴾ يعنى المسجد الحرام، لقوله (وعمارة المسجد الحرام) وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان، أحدهما: أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها: فعامره كعامر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد. والثانى: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها، دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ومقدمته وهو آكد، لأنّ طريقته طريقة الكناية، كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك. و﴿شاهدين﴾ حال من الواو فى (يعمروا) والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وبعبادته. ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون عراة ويقولون: لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصى، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها. وقيل: هو قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. وقيل: قد أقبل المهاجرون

والأنصار على أسارى بدر فعيروهم بالشرك ، فطفق علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم ، وأغلظ له فى القول . فقال العباس : تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا . فقال : أو لكم محاسن ؟ قالوا : نعم ونحن أفضل منكم أجراً : إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقى الحجيج ونفك العانى ، فنزلت ﴿حبطت أعمالهم﴾ التى هى العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة . وإذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال (١) الثابتة الصحيحة إذا تعقبها ، فما ظنك بالمقارن . وإلى ذلك أشار فى قوله (شاهدين) حيث جعله حالا عنهم ودل على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم فى حال واحدة ، وذلك محال غير مستقيم .

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ وقرئ بالتوحيد ، أى : إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتداً بها ، والعمارة تتناول رم ما استرم منها ، وقمها وتنظيفها ، وتنويرها بالمصابيح ، وتعظيمها ، واعتيادها للعبادة والذكر ، ومن الذكر درس العلم ، بل هو أجله وأعظمه ، وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا فضلا عن فضول الحديث . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً (٢) ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة (٣) » وفى الحديث « الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش (٤) » وقال عليه السلام : « قال الله تعالى : إن بيوتى فى أرضى المساجد ، وإن زوارى فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى ، فحق على المزور أن يكرم (٥) زائره . وعنه

(١) قال محمود : « إذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال ... الخ » قال أحمد : كلام صحيح إلا قوله « إن الكبيرة تهدم الأعمال ، فانه تفريع على قاعدة المعتزلة ، والحق خلافها .

(٢) قوله « فيقعدون فيها حلقا » فى نسخة : فيعدون . وفى أخرى : فيغدون . وليحرر . (ع)

(٣) أخرجه الطبرانى من رواية أبى وائل عن ابن مسعود رفعه « سيكون فى آخر الزمان قوم يجلسون فى المساجد حلقا حلقا ، مناهم الدنيا لا تجالسوهم . فليس لله فيهم حاجة » وفيه بديع أبو الخليل راويه عن الأعمش عنه . وهو متروك وقال الدارقطنى : إنه تفرد به ، وفيه نظر . فقد أخرجه ابن حبان فى صحيحه من طريق عيسى بن يونس عن الأعمش بلفظ « سيكون فى آخر الزمان قوم يكون حديثهم فى مساجدهم ليس لله فيهم حاجة » وفى الباب عن أنس رفعه « يأتى على الناس زمان يتحلقون فى مساجدهم ، وليس همتهم إلا الدنيا لا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة » أخرجه الحاكم من طريق الثورى عن عوف عن الحسن عنه .

(٤) يأتى فى لقمان .

(٥) لم أجده هكذا وفى الطبرانى عن سلمان عن النبى صلى الله عليه وسلم « من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء . =

عليه السلام «من ألف المسجد ألفه الله [١]» ، وقال عليه السلام «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان [٢]» ، وعن أنس رضى الله عنه : من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام فى ذلك المسجد ضوؤه [٣]» . فإن قلت : هلا ذكر الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : لما علم وشهر أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول عليه السلام لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين مزدوجين كأنهما شىء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه ، انطوى تحت ذكر الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول عليه السلام . وقيل : دلّ عليه بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . فان قلت : كيف قيل ﴿ولم يخش إلا الله﴾ والمؤمن يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها ؟ قلت : هى الخشية والتقوى فى أبواب الدين ، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف ، وإذا اعترضه أمران : أحدهما حق الله ، والآخر حق نفسه أن يخاف الله ، فيؤثر حق الله على حق نفسه . وقيل : كانوا يخشون الأصنام ويرجونها ، فأريد نفى تلك الخشية عنهم ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء [٤] وحسم لأطماعهم من الانتفاع [٥] بأعمالهم التى استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها ، بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى ، اهتداؤهم دائر بين عسى ولعل ، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون ونائلون عند الله الحسنى . وفى هذا الكلام ونحوه لطف للمؤمنين فى ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى .

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ ١٩﴾

ـــ ثم أتى المسجد فهو زائر لله ، وحق على المزور أن يكرم زائره» وروى عبدالرزاق ومن طريقه الطبرى عن معمر عن ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون . قال «وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن بيوت الله فى الأرض المساجد ، وإن حقا على الله أن يكرم من زاره فيها» ومن هذا الوجه . أخرجه عبدالله بن المبارك فى الزهد

(١) أخرجه ابن عدى . والطبرانى فى الأوسط من رواية ابن لهيعة عن دراج بن الهيثم عن أبى سعيد به .

(٢) أخرجه الترمذى وابن ماجه . وابن حبان . والحاكم من رواية أبى الهيثم عن أبى سعيد .

(٣) رواه الحارث بن أسامة من رواية الحكم بن سفلة العبدى . عن أنس رضى الله عنه . من أسرج فى مسجد سراجا لم يزل مرفوعا ومن طريق الحارث أخرجه سليم الرازى فى كتاب الترغيب وفى الطبرانى فى مسند الشاميين من حديث على بن أبى طالب رفعه «من علق قنديلا فى مسجد صلى عليه سبعون ألف ملك ـ الحديث بمعناه» .

(٤) قال محمود : «فى هذه الآية تبعيد للمشركين ... الخ» قال أحمد : وأكثرهم يقول : إن «عسى» من الله واجبة بناء منهم على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين ، والحق فيما قال الزمخشرى ، ولكن الخطاب مصروف إليهم أى لحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوة ، والعاقبة عند الله معلومة ، ولله عاقبة الأمور .

(٥) قوله «من الانتفاع» لعله «فى» كعبارة النسفى . (ع)

السقاية والعمارة : مصدران من سقى وعمر ، كالصيانة والوقاية . ولا بد من مضاف محذوف تقديره ﴿أجعلتم﴾ أهل ﴿سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله﴾ وتصدقه قراءة ابن الزبير وأبى وجزة السعدى[1] ـ وكان من القراء ـ: سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام . والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، وأن يسوى بينهم . وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر . وروى أن المشركين قالوا لليهود : نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام ، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود : أنتم أفضل . وقيل : إن عليا رضي الله عنه قال للعباس : يا عمّ ألا تهاجرون ، ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : ألست فى أفضل من الهجرة : أسقى حاجّ بيت الله ، وأعمر المسجد الحرام ، فلما نزلت قال العباس : ما أرانى إلا تارك سقايتنا . فقال عليه السلام « أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً »[2]

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾

هم ﴿أعظم درجة عند الله﴾ من أهل السقاية والعمارة عندكم ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم . قرئ : (يبشرهم) بالتخفيف والتثقيل . وتنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرّف . وعن ابن عباس رضى الله عنه : هى فى المهاجرين خاصة[3]

﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا

(١) قوله « وأبى وجزة السعدى » فى الصحاح : أنه شاعر ومحدث . (ع)

(٢) ذكره الثعلبي عن الحسن بغير إسناد لكن سنده إليه فى أول الكتاب فى تفسير عبد الرزاق عن معمر عن عمر ، وهو ابن عبيد عن الحسن قال « نزلت فى على والعباس ، وعثمان وشيبة تكلموا فى ذلك . فقال العباس : ما أرانى إلا تاركا سقايتنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فذكره .

(٣) أخرجه الثعلبي من رواية جويبر عن الضحاك عنه .

وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

وكان قبل فتح مكة من آمن لم يتمّ إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم. فقالوا يارسول الله: إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين، فنزلت، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك. وقيل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة[1] فنهى الله تعالى عن موالاتهم. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحبّ فى الله ويبغض فى الله: حتى يحب فى الله أبعد الناس، ويبغض فى الله أقرب الناس إليه»[2]. وقرئ: عشيرتكم، وعشيراتكم. وقرأ الحسن: وعشائركم ﴿فتربصوا حتى يأتى الله بأمره﴾ وعيد. عن ابن عباس: هو فتح مكة. وعن الحسن: هى عقوبة عاجلة أو آجلة. وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته، فلا يدرى أى طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين، فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

(١) ذكره الثعلبى أيضا عن مقاتل، وسنده إليه فى أول الكتاب.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ وفى الطبرانى عن عمرو بن الحق أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا يجد العبد صريح الايمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله»، وفى إسناده رشد بن سعد. وهو ضعيف؛ وفى الباب عن أبى أمامة رواه أبو داود. وعن معاذ بن أنس رواه أبو يعلى وغيره.

مواطن الحرب : مقاماتها ومواقفها (١) قال :

وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلَاىَ طُحْتَ كَمَا هَوَي ... بِأَجْرَامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِى (٢)

---

(١) قال محمود : « مواطن الحرب مقاماتها ومواقفها ... الخ » قال أحمد : لامانع ـ والله أعلم ـ من عطف الظرفين المكانى والزمانى أحدهما على الآخر ، كعطف أحد المفعولين على الآخر والفعل واحد ، إذ يجوز أن تقول ضرب زيدعمراً فى المسجد ويوم الجمعة ، كما تقول : ضربت زيداً وعمرا ، ولايحتاج إلى إضمار فعل جديدغيرالأول ، هذا مع أنه لابد من تغاير الفعلين الواقعين بالمفعولين فى الحقيقة ، فانك إذا قلت : أضرب زيداً اليوم وعمراً غداً ، لم يشك فى أن الضربين متغايران بتغاير الظرفين ، ومع ذلك الفعل واحد فى الصناعة . فعلى هذا يجوز فى الآية ـ والله أعلم ـ بقاء كل واحد من الظرفين على حاله غير مؤول إلى الآخر ، على أن الزمخشرى أوجب تعدد الفعل وتقدير ناصب لظرف الزمان غير الفعل الأول ، وإن كانا عنده جميعاً زمانين ، لعلة أن كثرتهم لم تكن ثابتة فى جميع المواطن . يريد : ولوذهبت إلى اتحاد الناصب للزم ذلك ، وهذا غير لازم . ألاتراك لوقلت : أضرب زيداً حين يقوم وحين يقعد ، لكان الناصب للظرفين واحداً وهما متغايران ، وإنما يمتنع عمل الفعل الواحد فى ظرفى زمان مختلفين عند عدم العطف المتوسط بينهما ، والله أعلم .

(٢)
تكاشرنى كرها كأنك ناصح ... وعينك تبدى أن صدرك لى دوى
لسانك ماذى وعينك علقم ... وشرك مبسوط وخيرك منطوى
فليت كفافاً كان خيرك كله ... وشرك عنى ماارتوى الماء مرتوى
وكم موطن لولاى طحت كما هوى ... بأجرامه من قلة النيق منهوى
جمعت وفحشا غيبة ونميمة ... ثلاث خصال لست عنها بمرعوى

ليزيد بن الحكم بن أبى العاص الثقفى . والمكاشرة : المضاحكة ، واختارها فى التعبير إشارة إلى أنها ليست مضاحكة حقيقة يوافقها القلب ، وإنما هى إظهار الأسنان فقط أمامه ليريه أنه ناصح الرجل كرض فسد قلبه ، ودوى أى خالص المودة . ودوى صدره أيضاً حقد ، فهو دوى بالتخفيف كعمي ، أو التشديد كغنى ، على فعل أو فعيل ، وعلى التشديد فتخفيفه للوزن . و« الماذى » عسل النحل لأنه يمذى منها ، وتسمى الخمرة ماذية لسهولتها . و« العلقم » الحنظل وكل شجر مر وكل شىء مر ، أى لسانك كالعسل فى حلاوة الكلام . وعينك كالعلقم فى كراهية النفس ونفرتها عن كل ، حيث تنظر لى نظر الحسود المغتاظ ، وشبه الشر والخير ببساطين على سبيل المكنية ، والبسط والطى تخييل . واسم ليت ضمير الشأن أوضمير المخاطب محذوفا ، وخيرك اسم كان ، وكفافا خبرها . وشرك عطف على خيرك . ويجوز أنه من باب التنازع عن من أجازه فى الحروف ، لأن « ليت » مقتضية للعمل فى خيرك ، و« كان » مقتضية للعمل فيه ، فأعمل فيه الثانى وحذف ضميره من الأول ، لأنه وإن كان عمدة ، مشبهة للفضلة فى نصبه ، وكما أجاز حذفه الكوفيون فى باب كان وباب ظن ، نعلمه من مفسره ، أى : فليت الحال والشأن كان خيرك كله وشرك ، كفافا : بالفتح ، أى مغنيا كافياً لك عنى ، ولو كسر « كفافا » على أنه مفاعلة من الكف لجاز ، ويكون المصدر بمعنى اسم الفاعل ، مبالغة : أى كافا لك ، أومنكفا عنى مادام « مرتو » يرتوى الماء ، أى : يستقيه ، يعنى دائما ، وكم : خبرية للتكثير ، أى كثير من مواطن الحرب لولا وجودى لطحت بكسر الطاء وضمها من باب باع ، وقال : أى هلكت فيها كما هوى منهو ، أى سقط ساقط من قلة النيق . ويروى : قنة النيق ، والمعنى واحد ، أى : من رأس الجبل العالى ، ومذهب سيبويه أن « لولا » حرف جر إذا وليها ضمير نصب . ومذهب الأخفش أنه وضع ضمير النصب موضع ضمير الرفع على الابتداء ، وأنكر المبرد وروده ، وهو محجوج بهذا . وقال أبو على الفارسى : الفعل ومطاوعه قد يكونان لازمين معا ، كهوى وانهوى ، وغوى وانغوى ، بدليل نحو هذا البيت . وحمله الجمهور على الضرورة . والقياس : هاو وغاو . وبعضهم على أنهما مطاوعان لأهديته وأغويته ، لكن مطاوعه بانفعل لافعل شاذة ، =

وامتناعه من الصرف لأنه جمع ، وعلى صيغة لم يأت عليها واحد ، والمواطن الكثيرة : وقعات بدر ، وقريظة ، والنضير ، والحديبية ، وخيبر ، وفتح مكة . فإن قلت : كيف عطف الزمان والمكان وهو ﴿يوم حنين﴾ على المواطن ؟ قلت : معناه وموطن يوم حنين . أو فى أيام مواطن كثيرة ويوم حنين . ويجوز أن يراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين ، على أنّ الواجب أن يكون يوم حنين منصوباً بفعل مضمر لا بهذا الظاهر . وموجب ذلك أنّ قوله ﴿إذ أعجبتكم﴾ بدل من يوم حنين ، فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح ؛ لأنّ كثرتهم لم تعجبهم فى جميع تلك المواطن[1] ولم يكونوا كثيراً فى جميعها ، فبقى أن يكون ناصبه فعلا خاصاً به ، إلا إذا نصبت «إذ» بإضمار «اذكر» وحنين : واد بين مكة والطائف ، كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً الذين حضروا فتح مكة ، منضما إليهم ألفان من الطلقاء ، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضامّهم من إمداد سائر العرب فكان الجمّ الغفير ، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة ، فساءت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل قائلها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . وقيل أبو بكر رضى الله عنه[2] وذلك قوله (إذ أعجبتكم كثرتكم) فاقتتلوا قتالا شديداً وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة ، وزلّ عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة ، وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وهو ثابت فى مركزه لا يتحلحل ، ليس معه إلا عمه العباس رضى الله تعالى عنه آخذ بلجام دابته وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه ، وناهيك بهذه الوحدة شهادة صدق على تناهى

ـــــ ولو قيل : انهوى مطاوع هوى به لجاز . لكنه ليس قياساً ، ثم قال له : جمعت غيبة ونميمة وفحشا ، فقدم المعطوف للضرورة . وجعله ابن جنى مفعولا معه ، وأجاز تقديمه على مصاحبه تمسكا بذلك ، ويمكن أن يكون ضرورة أيضاً . وفيه إشارة من أول وهلة إلى إرادة التعدد والتكثير وثلاث خصال بدل مما قبله ، ولست عنها : أى لست بمنزجر عنها ، فقدم المعمول للاهتمام ، والياء فى القافية للاطلاق .

(١) قوله «لم تعجبهم فى جميع تلك المواطن» إنما يلزم كون كثرتهم أعجبتهم فى جميعها ، مع أنه خلاف الواقع لو جعل (إذ أعجبتكم) بدلا من المواطن أيضاً ، فتدبر . (ع)

(٢) لم أجده بهذا السياق وقوله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها : قد ورد أنه قال «لن تغلب اثنا عشر ألفا عن قلة» فى حديث غير هذا . وأما هذا فان كان المصنف وقع على شيء من ذلك فما كان قوله «وأدركتهم كلمة الاعجاب بالكثرة وزل عنهم إلى آخره بلائق . وأما قوله «وقيل قالها أبو بكر» فلم أقف عليه وقوله «ومن هوازن وثقيف وفى أربعة آلاف غلام مسح ، والصواب أن هوازن وثقيفا كانوا من المشركين والذى فى مسلم من حديث العباس «شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ـ فذكرت القصة ، وفيها تغير ونقص عما ساقه المصنف وليس فيها «خذا نخذا» وإنما فيه «أن عباسا نادى أصحاب السمرة ونادى أصحاب الشجرة . قال فعطوا عطف البقرة على أولادها ، وروى يونس بن بكر فى زيادة المغازى عن أبى جعفر الرازى بن الربيع يعنى ابن أنس «أن رجلا قال يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة . فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله ـ وذكر الآية قال الربيع وكانوا اثنى عشر ألفا منهم ألفان من أهل مكة .

شجاعته ورباطة جأشه [١] صلى الله عليه وسلم ، وما هي إلا من آيات النبوة ، وقال : يارب ائتنى بما وعدتنى . وقال صلى الله عليه وسلم للعباس ـ وكان صيتا : صيح بالناس ، فنادى الأنصار فخذاً فخذاً ، ثم نادى : يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب البقرة ، فكروا عنقاً واحداً [٢] وهم يقولون : لبيك لبيك ، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتال المسلمين فقال : هذا حين حمى الوطيس ، ثم أخذ كفا من تراب فرماهم به ثم قال : انهزموا ورب الكعبة فانهزموا ، قال العباس : لكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض خلفهم على بغلته ﴿بما رحبت﴾ ما مصدرية ، والباء بمعنى مع ، أى مع رحبها [٣] وحقيقته ملتبسة برحبها ، على أنّ الجار والمجرور فى موضع الحال . كقولك : دخلت عليه بثياب السفر ، أى ملتبسا بها لم أحلها ، تعنى مع ثياب السفر . والمعنى : لا تجدون موضعا تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب ، فكأنها ضاقت عليكم ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ ثم انهزمتم ﴿سكينته﴾ رحمته التى سكنوا بها وآمنوا ﴿وعلى المؤمنين﴾ الذين انهزموا . وقيل : هم الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقع الهرب ﴿وأنزل جنوداً﴾ يعنى الملائكة ، وكانوا ثمانية آلاف ، وقيل خمسة آلاف ، وقيل ستة عشر ألفا ﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالقتل والأسر ، وسبى النساء والذرارى ﴿ثم يتوب الله﴾ أى يسلم بعد ذلك ناس منهم . وروى أنّ ناسا منهم جاؤا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام وقالوا : يارسول الله ، أنت خير الناس وأبرّ الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا . قيل : سبى يومئذ ستة آلاف نفس ، وأخذ من الإبل والغنم مالا يحصى ، فقال : إنّ عندى ما ترون ، إنّ خير القول أصدقه ، اختاروا : إما ذراريكم ونساءكم ، وإما أموالكم . قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن هؤلاء جاؤا مسلمين ، وإنا خيرناهم بين الذرارى والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئا ، فمن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يرده فشأنه ، ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه . قالوا : رضينا وسلمنا ، فقال : إنى لا أدرى لعل فيكم من لا يرضى ، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا ، فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا [٤] .

---

(١) قوله «ورباطة جأشه» الجأش : رواع القلب عند الفزع . ورابط الجأش : من يربط نفسه عن الفرار لشجاعته . (ع)

(٢) قوله «عنقا واحدا» ويقال هم عنق إليك أى مائلون إليك كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «مع رحبها» فى الصحاح «الرحب» بالضم : السعة . (ع)

(٤) ذكره الثعلبي بغير سند وهذه القصة قد ذكرها ابن إسحاق فى المغازى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله ، وذكرها البخارى من رواية الزهرى عن عروة عن المسور ومروان ، ورواها الطبرى وغيره عن رواية زهير ابن حرد ، وفيه الشعر الذى أنشده زهير .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

النجس: مصدر. يقال: نجس نجساً، وقذر قذراً. ومعناه ذوو نجس؛ لأنّ معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهى ملابسة لهم. أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة فى وصفهم بها. وعن ابن عباس رضى الله عنه: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير. وعن الحسن: من صافح مشركا توضأ. وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين. وقرئ: نِجْس، بكسر النون وسكون الجيم، على تقدير حذف الموصوف، كأنه قيل: إنما المشركون جنس نجس، أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابعا لرجس وهو تخفيف نجس، نحو: كبد، فى كبد ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ فلا يحجوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ﴿بعد عامهم هذا﴾ بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة حين أمّر أبو بكر على الموسم، وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول علىّ كرم الله وجهه حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك. ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم. وعند الشافعى: يمنعون من المسجد الحرام خاصة. وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره من المساجد. وعن عطاء رضى الله عنه أن المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأن على المسلمين أن لا يمكنوهم من دخوله. ونهىُ المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه[1] وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك ﴿وإن خفتم عيلة﴾ أى فقراً بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم فى قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فأرسل السماء عليهم مدرارا، فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم، وأسلم أهل تبالة وجرش[2] فحملوا إلى

(١) قال محمود: «هذا النهى راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه» قال أحمد: وقد يستدل به من يقول: إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وخصوصا بالمناهى، فان ظاهر الآية توجه النهى إلى المشركين، إلا أنه بعيد، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهى، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهى المسلمين عن تمكينهم من قربانه، ويرشد إلى أن المخاطب فى الحقيقة المسلمين، تصدير الكلام بخطابهم فى قوله (يا أيها الذين آمنوا) وتضمينه نصا بخطابهم بقوله (وإن خفتم عيلة) وكثيرا ما يتوجه النهى على من المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت ثم ملازمة، كقوله: لأرينك ههنا، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، والله أعلم.

(٢) قوله «وأكثر ميرهم ... الخ» المير: إطعام الطعام. ويقال: بلد باليمن. وجرش: موضع منه أيضا. أفاده الصحاح. (ع)

مكة الطعام وما يعاش به ، فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته . وعن ابن عباس رضى الله عنه : ألقى الشيطان فى قلوبهم الخوف وقال : من أين تأكلون ؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم بالجزية . وقيل : بفتح البلاد والغنائم . وقرئ : عائلة ، بمعنى المصدر كالعافية . أو حالا عائلة . ومعنى قوله ﴿إن شاء﴾ الله . إن أوجبت الحكمة إغناءكم وكان مصلحة لكم فى دينكم ﴿إن الله عليم﴾ بأحوالكم ﴿حكيم﴾ لا يعطى ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب .

قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ بيان للذين مع ما فى حيزه . نفى عنهم الإيمان بالله لأنّ اليهود مثنية والنصارى مثلثة . وإيمانهم باليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف ما يجب وتحريم ما حرم الله ورسوله ، لأنهم لا يحرمون ما حرم فى الكتاب والسنة . وعن أبى روق : لا يعملون بما فى التوراة والإنجيل ، وأن يدينوا دين الحق ، وأن يعتقدوا دين الإسلام الذى هو الحق وما سواه الباطل . وقيل : دين الله ، يقال : فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده . سميت جزية ؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أى يقضوه ، أو لأنهم يجزون بها من منّ عليهم بالإعفاء عن القتل ﴿عن يد﴾ إما أن يراد يد المعطى أو الآخذ[1] فمعناه على إرادة يد المعطى حتى يعطوها عن يد : أى عن يد مؤاتية غير ممتنعة[2] لأنّ من أبى وامتنع لم يعطيده ، بخلاف المطيع المنقاد ، ولذلك قالوا : أعطى بيده . إذا انقاد وأصحب[3] . ألا ترى إلى قولهم . نزع يده عن الطاعة ، كما يقال : خلع ربقة الطاعة عن عنقه ، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة ، لا مبعوثا على يد أحد . ولكن عن يد المعطى إلى يد الآخذ ، وأما على إرادة يد الآخذ فمعناه حتى يعطوها[4] عن يد قاهرة مستولية ، أو عن إنعام عليهم ، لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم

---

(١) قال محمود : «إما أن يراد يد المعطى أو الآخذ ... الخ» قال أحمد : فيكون كاليد فى قوله عليه السلام «لا تبيعوا الذهب ... إلى قوله إلا يدا بيد» .

(٢) قوله «أى عن يد مؤاتية غير ممتنعة» فى الصحاح : آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة ، إذا وافقته وطاوعته . والعامة تقول : واتيته . (ع)

(٣) قوله «وأصحب» أى سهل بعد صعوبة . انتهى صحاح . (ع)

(٤) عاد كلامه قال : وإن أريد به الآخذ فمعناه حتى يعطوها ... الخ» قال أحمد : وهذا الوجه أملأ بالفائدة ، والله أعلم .

لهم نعمة عظيمة عليهم ﴿وهم صاغرون﴾ أى تؤخذ منهم على الصغار والذل . وهو أن يأتى بها بنفسه ماشياً غير راكب ، ويسلمها وهو قائم ـ والمتسلم جالس ، وأن يتلتل تلتلة [١] ويؤخذ بتلبيبه ، ويقال له : أدّ الجزية ، وإن كان يؤدّيها ويزخ فى قفاه . وتسقط بالإسلام عند أبى حنيفة ولا يسقط به خراج الأرض . واختلف فيمن تضرب عليه ، فعند أبى حنيفة : تضرب على كل كافر من ذمى ومجوسى وصابىء وحربى ، إلا على مشركى العرب وحدهم . روى الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح عبدة الأوثان على الجزية ، إلا من كان من العرب [٢] وقال لأهل مكة : هل لكم فى كلمة إذا قلتموها دانت لكم بها العرب وأدّت إليكم العجم الجزية وعند الشافعى لا تؤخذ من مشركى العجم . والمأخوذ عند أبى حنيفة فى أوّل كل سنة من الفقير الذى له كسب : اثنا عشر درهما . ومن المتوسط فى الغنى : ضعفها ، ومن المكثر : ضعف الضعف ثمانية وأربعون . ولا تؤخذ من فقير لا كسب له . وعندّ الشافعى : يؤخذ فى آخر السنة من كل واحد دينار ، فقيراً كان أو غنيا ، كان له كسب أو لم يكن .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

﴿عزير ابن الله﴾ مبتدأ وخبر ، كقوله : المسيح ابن الله ، وعزير : اسم أعجمى كعازر وعيزار وعزرائيل ، ولعجمته وتعريفه : امتنع صرفه . ومن نوّن فقد جعله عربياً . وأما قول من قال : سقوط التنوين لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ (أحد الله) أو لأنّ الابن وقع وصفا والخبر محذوف وهو معبودنا ، فتمحل عنه مندوحة . وهو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة ، وما هو بقول كلهم عن ابن عباس رضى الله عنه : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاش بن قيس ومالك بن الصيف ، فقالوا ذلك . وقيل : قاله فنحاص . وسبب هذا القول أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام ، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم ، فخرج عزير وهو غلام يسيح فى الأرض ، فأتاه جبريل عليه السلام : فقال له إلى أين تذهب ؟ قال : أطلب العلم فحفظه التوراة . فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفا ، فقالوا ما جمع الله التوراة فى صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه [٣] . والدليل على أن هذا القول كان

---

(١) قوله «وأن يتلتل تلتلة» أى يزعزع ويزلزل . وقوله «يزخ» أى يدفع كما فى الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه عبدالرزاق فى تفسيره : أخبرنا معمر عن الزهرى بهذا ، وزاد «وقبل الجزية من البحرين وكانوا مجوساء .

(٣) قلت أورد المخرج منضما إلى الذى قبله ولم يذكر من أخرجه والصواب أنه حديث آخر أخرجه

فيهم : أن الآية تليت عليهم ، فما أنكروا ولا كذبوا ، مع تهالكهم على التكذيب . فإن قلت : كل قول يقال بالفم فما معنى قوله ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ ؟ قلت : فيه وجهان . أحدهما : أن يراد أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان . وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب . وما لا معنى له مقول بالفم لا غير . والثاني : أن يراد بالقول المذهب ، كقولهم : قول أبي حنيفة ، يريدون مذهبه وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب ، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد ﴿يضاهون﴾ لا بدّ فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم ، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه : فانقلب مرفوعا . والمعنى : أن الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم ، يعني أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث . أو يضاهي قول المشركين : الملائكة بنات الله تعالى الله عنه . وقيل : الضمير للنصارى ، أي يضاهي قولهم : المسيح ابن الله ، قول اليهود : عزير ابن الله ، لأنهم أقدم منهم . وقرئ يضاهؤن بالهمز من قولهم : امرأة ضهيأ على فعيل ، وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض وهمزتها[1] مزيدة كما في عرقىء ﴿قاتلهم الله﴾ أي هم أحقاء بأن يقال لهم هذا ، تعجبا من شناعة قولهم ، كما يقال لقوم ركبوا شنعاء : قاتلهم الله ما أعجب فعلهم ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن الحق ؟

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١)

اتخاذهم أربابا : أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرم الله وتحريم ما حلله ، كما تطاع الأرباب في أوامرهم . ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به : عباده ، بل كانوا يعبدون الجن (يا أبت لا تعبد الشيطان) وعن عدىّ بن حاتم رضي الله عنه : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال : « أليسوا يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه ، ويحلون ما حرّمه فتحلونه » ؟ قلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم[2] . وعن فضيل رضى

(١) قوله «أنها لا تحيض وهمزتها مزيدة» هذا لا يناسب قوله «على فعيل» فلعله «أو همزة ... الخ» . (ع)

(٢) الواقدى من طريق عامر بن سعد عن عدى بن حاتم بهذا ، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن عطاء ابن يسار عن عدى بن حاتم ، ورواه الترمذى من طريق مصعب بن سعد عن عدى بن حاتم بهذا وأتم منه ، إلا قوله «فتلك عبادتهم» وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين ، وغطيف =

الله عنه : ما أبالى أطعت مخلوقا فى معصية الخالق ، أو صليت لغير القبلة . وأمّا المسيح فحين جعلوه ابنا لله فقد أهلوه للعبادة . ألا ترى إلى قوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين) . ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص فى الإنجيل والمسيح عليه السلام : أنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه له عن الإشراك به ، واستبعاد له . ويجوز أن يكون الضمير فى (وما أمروا) للمتخذين أربابا ، أى : وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا الله ويوحدوه ، فكيف يصح أن يكونوا أربابا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم .

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

مثل حالهم فى طلبهم أن يبطلوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، بحال من يريد ان ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق ، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الإشراق أو الإضاءة ، ليطفئه بنفخه ويطمسه ﴿ ليظهره ﴾ ليظهر الرسول عليه السلام ﴿ على الدين كله ﴾ على أهل الأديان كلهم . أو ليظهر دين الحق على كل دين . فإن قلت : كيف جاز ، أبى الله إلا كذا ، ولا يقال : كرهت أو أبغضت إلا زيداً[1] ؟ قلت : قد أجرى « أبى » مجرى « لم يرد » ألا ترى كيف قوبل (يريدون أن يطفئوا) بقوله (ويأبى الله) وكيف أوقع موقع ولا يريد الله إلا أن يتمّ نوره) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ

ـــ ليس بمعروف ، وأخرجه ابن أبى شيبة والطبرانى والطبرى وأبو يعلى من هذا الوجه رواه البيهقى فى المدخل كذلك وزاد « فتلك عبادتهم » .

(١) قال : محمود « إن قلت كيف جاز أبى الله إلا كذا ولا يقال كرهت ... الخ » قال أحمد : ولا يقال على هذا إن الاباء عدم الارادة ، فكما صح الايجاب بعد نفى الارادة ، فينبغى أن يصح بعدما هو فى معناها مطلقا ، لأنا نقول لوجود حرف النفى أثر فى تصحيح مجىء حرف الايجاب بعد فلا يلزم ذلك ، والله أعلم .

فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل الأخذ. ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله. وإمّا على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل. ومنه قوله:

إنَّ لَنَا أَحْمِرَةً عِجَافَا ... يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِكَافَا (١)

يريد: علفاً يشترى بثمن إكاف. ومعنى أكلهم بالباطل: أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام، والتخفيف والمسامحة في الشرائع ﴿والذين يكنزون﴾ يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل، وكنز الأموال، والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى، تغليظا ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطى منكم طيب ماله: سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم. وقيل: نسخت الزكاة آية الكنز. وقيل: هي ثابتة، وإنما عنى بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «ما أدّى زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً»(٢) وعن عمر رضي الله عنه أنّ رجلا سأله عن أرض له باعها فقال: أحرز مالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك. قال: أليس بكنز؟ قال: ما أدّى زكاته فليس بكنز(٣) وعن عمر رضي الله عنه: كل ما أديت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين. وما لم

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢١٦ فراجعه إن شئت اهـ مصححه.

(٢) أخرجه البيهقي من طريق محمد بن جبير عن سفيان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر مرفوعا بلفظ «كل ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا، وكل مالا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرا» قال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، والمشهور عن سفيان بن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قوله. ورواه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عدى من طريق سويد بن عبد العزيز عن عبيد الله بسنده مرفوعا، ولفظه «كل مال وإن كان تحت سبع أرضين يؤدى زكاته فليس بكنز، وكل مال لا يؤدى زكاته وإن كان ظاهرا فهو كنز» قال ابن عدى: وفيه سويد وغيره يرويه موقوفا والموقوف رواه عبد الرزاق عن عبيد الله العمري موقوفا والشافعي عن ابن عيينة عن ابن عجلان عن نافع نحوه، وفي الباب عن أم سلمة قالت «جئت ألبس أوضاحا من ذهب فقلت يارسول الله أكنز هو؟ فقال: ما بلغ الذي يؤدى زكاته فليس بكنز» أخرجه أبو داود والحاكم.

(٣) أخرجه عبد الرزاق من طريق بشر بن سعيد أن رجلا باع رجلا حائطا أو مالا بمال عظيم فقال له عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: أحسن موضع هذا المال ـ الحديث» ورواه ابن أبي شيبة من طريق أخرى عن سعيد ابن أبي سعيد أن عمر سأل رجلا ـ فذكره.

يؤدّ زكاته فهو الذى ذكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض [١] فإن قلت : فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضى الله عنه أنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تباً للذهب تبا للفضة » قالها ثلاثاً . فقالوا له : أىّ مال نتخذ ؟ قال « لساناً ذاكراً ، وقلباً خاشعاً ، وزوجة تعين أحدكم على دينه [٢] » وبقوله عليه الصلاة والسلام « من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها » [٣] وتوفى رجل فوجد فى مئزره دينار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كية » وتوفى آخر فوجد فى مئزره ديناران ، فقال « كيتان » [٤] قلت : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأمّا بعد فرض الزكاة ، فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه ، ويؤدّى عنه ما أوجب عليه فيه ، ثم يعاقبه . ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وعبيد الله رضى الله عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية ، لأنّ الإعراض اختيار للأفضل ، وإلا دخل فى الورع والزهد فى الدنيا ، والاقتناء مباح موسع لا يذمّ صاحبه ، ولكل شيء حدّ . وما روى عن علىّ رضى الله عنه :

(١) تقدم الكلام عليه .

(٢) كذا ذكره مرسلا ، وهومعروف من رواية سالم بن ثوبان أخرجه الطبرى والطبرانى فى الأوسط من طريق موئل بن إسماعيل عن الثورى عن الأعمش ومنصور وعمرو بن مرة عن سالم بن أبى الجعد عن ثوبان بهذا ، ورواه الترمذى وأحمد فى الزهد من رواية إسرائيل عن منصور ومده به ، وليس فيه « تبا للذهب تبا للفضة » بل فيه : فقال بعض أصحابه « لوعلمنا أى المال خير فنتخذه » قال البخارى وغيره : سالم لم يسمع من ثوبان ، ورواه ابن ماجه وأحمد وأبو نعيم فى الحلية من رواية عبدالله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم عن ثوبان قال « لما نزلت قالوا : فأى المال نتخذ ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعيره فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأنا فى أثره فقال : يارسول الله أى المال نتخذ ؟ ـ الحديث » وفى الباب عن على أخرجه عبدالرزاق عن الثورى عن أبى حصين عن أبى الضحى عن جعدة بن مبيرة عنه ، وعن بريدة أخرجه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه . وعن بعض الصحابة أخرجه أحمد من رواية سعيد عن سالم بن عطية عن عبدالله بن عطية عن عبدالله بن أبى الهذيل حدثنى صاحب لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تبا للذهب تبا للفضة » فحدثنى صاحبى أنه انطلق مع عمر ، فقال : يارسول الله . فذكر نحوه .

(٣) أخرجه البخارى فى التاريخ والطبرى وابن مردويه من طريق عبدالله بن عبدالواحد الثقفى عن أبى النجيب الشامى « كان نعل سيف أبى هريرة من فضة ، فنهاه عنه أبو ذر وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها » وفى الباب عن أبى أمامة ، أخرجه الطبرانى بلفظ « مامن عبد يموت فيترك صفراء أو بيضاء إلا كوى بها » وعن ثوبان أخرجه ابن مردويه والطبرانى فى مسند الشاميين من رواية أرطاة بن المنذر عن ابن عامر عنه ، بلفظ « مامن أحد يترك صفراء أو بيضاء من ذهب أو فضة إلا جعل صفائح ثم كوى بها » .

(٤) أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبرانى والطبرى من طريق شهر بن حوشب عن أبى أمامة ، بلفظ مروه فى الموضعين . ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود بالشطر الثانى .

أربعة آلاف فما دونها نفقة ، فما زاد فهو كنز[١] : كلام في الأفضل . فإن قلت : لم قيل : ولا ينفقونها ، وقد ذكر شيئان ؟ قلت : ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ ، لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم ، فهو كقوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وقيل : ذهب به إلى الكنوز . وقيل : إلى الأموال . وقيل : معناه ولا ينفقونها والذهب ،[٢] كما أن معنى قوله :

* فَإِنِّى وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ *[٣]

وقيار كذلك . فإن قلت : لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال ؟ قلت : لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء ، ولا يكنزهما إلا من فضلا عن حاجته ، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر أجناس المال ، فكان ذكر كنزهما دليلا على ما سواهما . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿يحمى عليها﴾ ؟ وهلا قيل : تحمى ، من قولك : حمى الميسم[٤] وأحميته ، ولا تقول : أحميت على الحديد ؟ قلت : معناه أن النار تحمى عليها ، أى توقد ذات حمى وحر شديد ، من قوله (نار حامية) ولو قيل : يوم تحمى ، لم يعط هذا المعنى . فإن قلت : فإذا كان الإحماء للنار ، فلم ذكر الفعل ؟ قلت : لأنه مسند إلى الجار والمجرور ، أصله : يوم تحمى النار عليها ، فلما حذفت النار قيل : يحمى عليها ، لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها ، كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير ، فإن لم تذكر القصة قلت : رفع إلى الأمير . وعن ابن عامر أنه قرأ : تحمى ، بالتاء . وقرأ أبو حيوة : فيكوى بالياء . فإن قلت : لم خصت هذه الأعضاء ؟ قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم ـ حيث لم ينفقوها فى سبيل الله ـ إلا الأغراضَ الدنيوية ، من وجاهة عند الناس ، وتقدم ، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم ، يتلقون بالجميل ، ويحيون بالإكرام ، ويبجلون ويحتشمون ، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم ، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم ، لا يخطرون ببالهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذهب أهل الدثور بالأجور »[٥] وقيل : لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس زوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم . وقيل : معناه

---

(١) أخرجه عبدالرزاق والطبرى بإسناده الماضى عن على رضى الله عنه قبل بحديثين .

(٢) قوله «والذهب» لعله و «والذهب كذلك» . (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٢٩ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٤) قال محمود : «إن قلت : هلا قيل تحمى ، كما يقال : حمى الميسم وأحميته ... الخ» قال أحمد : وفى هذا الفصل دقائق إعراب يشوب حسنها إغراب ، والله الموفق .

(٥) أخرجه مسلم من طريق أبى الأسود عن أبى ذر «أن أناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : قالوا : يارسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ـ الحديث .

يكون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم ﴿هذا ما كنزتم﴾ على إرادة القول. وقوله ﴿لأنفسكم﴾ أى كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التى حامت حولها وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ لهم ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ وقرئ: تكنزون، بضم النون، أى وبال المال الذى كنتم تكنزونه أو وبال كونكم كانزين.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿فى كتاب الله﴾ فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابا. وقيل فى اللوح ﴿أربعة حرم﴾ ثلاثة سرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب. ومنه قوله عليه السلام فى خطبته فى حجة الوداع: ألا إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض [1]. السنة اثنا عشر شهراً: منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم. ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان. والمعنى: رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه، وعاد الحج فى ذى الحجة، وبطل النسىء الذى كان فى الجاهلية، وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ﴿ذلك الدين القيم﴾ يعنى أنّ تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها، حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجبا: الأصم ومنصل الأسنة، حتى أحدثت النسىء فغيروا ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ فى الحرم ﴿أنفسكم﴾ أى لا تجعلوا حرامها حلالا. وعن عطاء. تالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا، وما نسخت، وعن عطاء الخراسانى رضى الله عنه: حلت القتال فى الأشهر الحرم براءة من الله ورسوله. وقيل: معناه لا تأثموا فيهن، بيانا لعظم حرمتهن، كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى (فمن فرض فيهنّ الحج فلا رفث ولا فسوق... الآية) وإن كان ذلك محرما فى سائر الشهور ﴿كافة﴾ حال من الفاعل أو المفعول ﴿مع المتقين﴾ ناصر لهم، حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها.

---

(١) متفق عليه من حديث أبى بكرة وفى الباب عن ابن عمر رضى الله عنهما أخرجه الطبرى من رواية موسى ابن عبيدة عن صدقة بن يسار عنه بلفظ المصنف. وهو ضعيف. وعن ابن عباس أخرجه ابن مردويه.

إِنَّمَا النَّسِىءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

والنسىء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى ﴿ليواطئوا عدة ماحرّم الله﴾ أى ليوافقوا العدّة التى هى الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين. وربما زادوا فى عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت. ولذلك قال عز وعلا ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ يعنى من غير زيادة زادوها. والضمير فى: يحلونه، ويحرمونه للنسىء. أى إذا أحلوا شهراً من الأشهر الحرم عاما، رجعوا فحرموه فى العام القابل. وروى أنه حدث ذلك فى كنانة لأنهم كانوا فقراء محاويج إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكنانى مطاعاً فى الجاهلية، وكان يقوم على جمل فى الموسم فيقول بأعلى صوته: إنّ آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم يقوم فى القابل فيقول: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. جعل النسىء زيادة فى الكفر، لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً، فزادتهم رجساً إلى رجسهم، كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً (فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) وقرئ (يضل) على البناء للمفعول، و(يضل) بفتح الياء والضاد، و(يضل) على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ الزهرى: ليوطئوا بالتشديد. والنسىء مصدر نسأه إذا أخره. يقال نسأه نسأ ونساء ونسيئاً، كقولك: مسه مساً ومساساً ومسيساً. وقرئ بهن جميعا. وقرئ النسى، بوزن الندى. والنسى بوزن النهى، وهما تخفيف النسىء والنسء. فإن قلت: مامعنى قوله ﴿فيحلوا ماحرّم الله﴾؟ قلت: معناه فيحلوا بمواطأة العدّة وحدها من غير تخصيص ماحرّم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها ﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ خذلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة ﴿والله لايهدى﴾ أى لا يلطف بهم بل يخذلهم. وقرئ: زين لهم سوء أعمالهم، على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)

﴿اثاقلتم﴾ تثاقلتم. وبه قرأ الأعمش، أى تباطأتم وتقاعستم. وضمن معنى الميل والإخلاد فعدى بإلى. والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، ونحوه: (أخلد إلى الأرض واتبع هواه) وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم: وقرئ اثاقلتم؟ على الاستفهام الذى معناه الإنكار والتوبيخ. فإن قلت: فما العامل فى «إذا» وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه[1]؟ قلت: مادل عليه قوله (اثاقلتم) أو ما فى (مالكم) من معنى الفعل، كأنه قيل: ماتصنعون إذا قيل لكم كما تعمله فى الحال إذا قلت: مالك قائماً، وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف، استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو، فشق عليهم. وقيل: ماخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة إلا ورّى عنها بغيرها إلا فى غزوة تبوك[2] ليستعد الناس تمام العدة ﴿من الآخرة﴾ أى بدل الآخرة كقوله: (لجعلنا منكم ملائكة). ﴿فى الآخرة﴾ فى جنب الآخرة ﴿إلا تنفروا﴾ سخط عظيم على المتثاقلين[3] حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غنى عنهم فى نصرة دينه، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً: وقيل: الضمير للرسول: أى ولا تضروه، لأنّ الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره، ووعد الله كائن لا محالة، وقيل يريد بقوله (قوما غيركم) أهل اليمن. وقيل: أبناء فارس، والظاهر مستغن عن

---

(١) قوله «وحرف الاستفهام» لعله: وأحرف الاستفهام، بدليل قوله «مانعة». وقوله «أن يعمل فيه» لعله: أن يعمل فيه «اثاقلتم». (ع)

(٢) متفق عليه من حديث كعب بن مالك.

(٣) قال محمود: «فى هذه الآية سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم عذابا أليما ... الخ» قال أحمد: ويقرب إعادة الضمير إلى الرسول أن الضمير فى قوله (إلا تنصروه) عقيب ذلك عائد إليه اتفاقا. والله أعلم.

للتخصيص. فإن قلت: كيف يكون قوله ﴿فقد نصره الله﴾ جواباً للشرط؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد، فدلّ بقوله (فقد نصره الله) على أنه ينصره في المستقبل، كما نصره في ذلك الوقت. والثاني: أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً في ذلك الوقت: ، فلن يخذل من بعده. وأسند الإخراج إلى الكفار كما أسند إليهم في قوله (من قريتك التي أخرجتك) لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج، فكأنهم أخرجوه ﴿ثاني اثنين﴾ أحد اثنين، كقوله (ثالث ثلاثة) وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى الله عنه. يروى أنّ جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال: من يخرج معي؟ قال أبو بكر، وانتصابه على الحال: وقرئ ثاني اثنين، بالسكون. و ﴿إذ هما﴾ بدل من إذ أخرجه. والغار: ثقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثا ﴿إذ يقول﴾ بدل ثان. قيل طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله [١] فقال عليه الصلاة والسلام: «ماظنك باثنين الله ثالثهما»: وقيل: لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه [٢]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم أعم أبصارهم [٣]»: فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون، وقد أخذ الله بأبصارهم عنه. وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر رضى الله عنه فقد كفر، لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة ﴿سكينته﴾ ماألقى في قلبه من الأمنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه. والجنود الملائكة يوم بدر، والأحزاب وحنين. وكلمة الذين كفروا: دعوتهم إلى الكفر ﴿وكلمة الله﴾ دعوته إلى الإسلام. وقرئ (كلمة الله) بالنصب، والرفع أوجه. و ﴿هي﴾ فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلوّ، وأنها المختصة به دون سائر الكلم ﴿خفافا وثقالا﴾ خفافا في النفور لنشاطكم له، وثقالا عنه لمشقته عليكم، أو خفافا لقلة عيالكم وأذيالكم، وثقالا لكثرتها. أو خفافا من السلاح وثقالا منه. أو ركبانا ومشاة. أو شبابا وشيوخا. أو مهازيل

(١) لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه قال «نظرت إلى أقدام المشركين على رؤسنا ونحن في الغار. فقلت: يارسول الله لوأن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا. فقال: ياأبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما».

(٢) أخرجه البزار من طريق عوف بن عمرو عن أبي مصعب المكي: سمعت أنس بن مالك وغيره «أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الغار أمر الله تعالى صخرة فنبتت في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فسترته وأمر العنكبوت فنسجت في وجهه فسترته. وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار ـ الحديث»

(٣) لم أجده

وسمانا . أو صحاحا ومراضا . وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أعلىّ أن أنفر ؟ قال : نعم ، حتى نزل قوله (ليس على الأعمى حرج) . وعن ابن عباس : نسخت بقوله (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) وعن صفوان بن عمرو : كنت والياً على حمص ، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو . فقلت : ياعمّ لقد أعذر الله إليك فرفع حاجبيه وقال : يابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا ، إلا أنه من يحبه الله يبتله . وعن الزهري : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له : إنك عليل صاحب ضرر ، فقال : استنفرنا الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن ، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)

العرض : ما عرض لك من منافع الدنيا . يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، أى لو كان ما دعوا إليه غنما قريبا سهل المنال ﴿وسفراً قاصداً﴾ وسطا مقاربا ﴿الشقة﴾ المسافة الشاطة الشاقة . وقرأ عيسى بن عمر : بعدت عليهم الشقة ، بكسر العين والشين . ومنه قوله :

يَقُولُونَ لَا تَبْعَدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَهُ ... وَلَا بُعْدَ إِلَّا مَا تُوَارِي الصَّفَائِحُ (١)

﴿بالله﴾ متعلق بسيحلفون . أو هو من جملة كلامهم . والقول مرادفى الوجهين ، أى سيحلفون يعنى المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أو سيحلفون بالله يقولون : لو استطعنا . وقوله (لخرجنا) سدّ مسدّ جوابى القسم ولو جميعا ، والإخبار بما سوف يكون بعد القفول من حلفهم واعتذارهم . وقد كان من جملة المعجزات . ومعنى الاستطاعة : استطاعة العدّة ، أو استطاعة الأبدان ، كأنهم تمارضوا . وقرئ : لو استطعنا،

---

(١) يقال «بعد» ككرم وتعب ، ومصدرهما : البعد بفتحتين ، وبضم فسكون . وقد اشتهر باب تعب فى معنى الهلاك ، ولاتبعد ـ بالفتح ـ كلمة جارية على لسانهم عند المصيبة ، دالة على تناهى الجزع ، ولابعد : معناه لابعد إلا بعد ماتواريه الصفائح . أو ولا ذو بعد إلا ماتواريه . أو لابعيد إلاماتواريه ، على أن المصدر بمعنى الوصف . واستعمل «ما» فى العاقل ، لأن المراد بها الوصف . أوالمراد بها الأجسام والأشباح مجردة عن الادراكات والأرواح . والصفائح : أحجار عراض يسقف بها القبر ، أى البعيد ، حقيقته «ومايستره القبر» ، كناية عن موته .

بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع فى قوله (فتمنوا الموت). ﴿يهلكون أنفسهم﴾ إما أن يكون بدلا من سيحلفون، أو حالا بمعنى مهلكين. والمعنى: أنهم يوقعونها فى الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف. ويحتمل أن يكون حالا من قوله (لخرجنا) أى لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها فى التهلكة بما نحملها من المسير فى تلك الشقة. وجاء به على لفظ الغائب، لأنه مخبر عنهم. ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا، لكان سديدا. يقال: حلف بالله ليفعلنّ ولأفعلنّ، فالغيبة على حكم الإخبار، والتكلم على الحكاية.

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

﴿عفا الله عنك﴾ كناية عن الجناية، لأنّ العفو رادف لها[1]. ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت[2]. و﴿لم أذنت لهم﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو. ومعناه: مالك أذنت لهم فى القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن ﴿حتى يتبين لك﴾ من صدق فى عذره ممن كذب فيه. وقيل شيئان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فعاتبه الله تعالى.

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

﴿لا يستأذنك﴾ ليس من عادة المؤمنين[3] أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا، وكان الخلص

---

(١) قال محمود: «هذا كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها ... الخ» قال أحمد رحمه الله: ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين: إما أن لا يكون هو المراد. وإما أن يكون هو المراد، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، وخصوصا فى حق المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزمخشرى على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام. ولقد أحسن من قال فى هذه الآية: إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداء: لم أذنت لهم؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) قوله «ومعناه أخطأت وبئس مافعلت» خاطب الله رسوله خطاب الرقة والرأفة، وفسره المصنف بخطاب الغلظة والقسوة، وشتان مابينهما. (ع)

(٣) عاد كلامه. قال: وقوله (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله ـ إلى قوله ـ إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله ... الآية) قال: معناه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا ... الخ، قال أحمد: وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقا، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يسدى إليه معروفا، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاما؛ فان الاستئذان فى أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكره، وصلوات الله على خليله وسلامه لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه، أنه كان لايتعاطى شيأ من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم، فلذلك مدحه الله

من المهاجرين والأنصار يقولون : لا نستأذن النبي أبدا ، ولنجاهدنّ أبدا معه بأموالنا وأنفسنا. ومعنى ﴿أن يجاهدوا﴾ فى أن يجاهدوا، أو كراهة أن يجاهدوا ﴿والله عليم بالمتقين﴾ شهادة لهم بالانتظام فى زمرة المتقين ، وعدة لهم بأجزل الثواب .

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾

﴿إنما يستأذنك﴾ يعنى المنافقين ، وكانوا تسعة وثلاثين رجلا ﴿يترددون﴾ عبارة عن التحير ، لأن التردد ديدن المتحير ، كما أنّ الثبات والاستقرار ديدن المستبصر . قرئ : عده ، بمعنى عدّته ، فعل بالعدّة ما فعل بالعدة من قال :

* وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الأَمْرِ الَّذِى وَعَدُوا * (١)

من حذف تاء التأنيث ، وتعويض المضاف إليه منها . وقرئ : عدّة ، بكسر العين بغير إضافة ، وعده بإضافة . فإن قلت : كيف موقع حرف الاستدراك ؟ قلت : لما كان قوله (ولو أرادوا الخروج) معطياً معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو . قيل ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ كأنه قيل : ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم ، كما تقول : ما أحسن إلىّ زيد . ولكن أساء إلىّ ﴿فثبطهم﴾ فكسلهم وخذلهم وضعف رغبتهم فى الانبعاث ﴿وقيل اقعدوا﴾ جعل إلقاء الله فى قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود . وقيل : هو قول الشيطان

ـــ تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الخلة الجميلة والآداب الجليلة ، فقال تعالى (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) أى ذهب على خفاء منهم كيلا يشعروا به ، والمهتم بأمر ضيفه بمرأى منه ربما يعد كالمستأذن له فى الضيافة ، فهذا من الآداب التى ينبغى أن يتمسك بها ذوو المروءة وأولو الفتوة ، وأشد من الاستئذان فى الخروج للجهاد ونصرة الدين التثاقل عن المبادرة إليه بعد الحض عليه والمناداة ، وأسوأ أحوال المتثاقل - وقد دعى الناس إلى الغزاة - أن يكون متمسكا بشعبة من النفاق نعوذ بالله من التعرض لسخطه .

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٢٣ فراجعه إن شئت اه مصححه

بالوسوسة. وقيل: هو قولهم لأنفسهم. وقيل: هو إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم في القعود. فإن قلت: كيف جاز أن يوقع الله تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة، وتعالى الله عن إلهام القبيح[1]؟ قلت: خروجهم كان مفسدة، لقوله (لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا) فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة. فإن قلت: فلم خطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإذن لهم فيما هو مصلحة؟ قلت: لأن إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القفول بإعلام الله تعالى، ولكن لأنهم استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه، فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجوّز في قبولها، فمن ثم أتاه العتاب. ويجوز أن يكون في ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الإذن لهم مع تثبيط الله إياهم مصلحة أخرى، فبإذنه لهم فقدت تلك المصلحة. وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينبعثوا وكان قعودهم بغير إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت عليهم الحجة ولم تبق لهم معذرة. ولقد تدارك الله ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالنفاق. وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر. فإن قلت: ما معنى قوله ﴿مع القاعدين﴾؟[2] قلت: هو ذم لهم وتعجيز، وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت، وهم القاعدون والخالفون والخوالف، ويبينه قوله تعالى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف). ﴿إلا خبالا﴾ ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون لأن الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالا. والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء، فكان استثناء متصلا: لأن الخبال بعض أعم العام، كأنه قيل: ما زادوكم شيئاً إلا خبالا. والخبال: الفساد والشر ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب[3] والنمائم وإفساد ذات البين. يقال: وضع البعير وضعاً إذا أسرع وأوضعته أنا. والمعنى: ولأوضعوا ركائبهم بينكم، والمراد الإسراع بالنمائم؛ لأن الراكب أسرع من

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاز أن يوقع الله في نفوسهم كراهة الخروج للغزو ... الخ» قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه مبني على قاعدتين فاسدتين: إيجاب مراعاة المصالح على الله تعالى، والتحسين والتقبيح. وقد تكرر بطلان ذلك فاحذره. واعلم أن معتقد أهل السنة أن الله تعالى ألقى كراهة الخروج في قلوبهم، لأنه أراد شقاوتهم، وانضاف إلى ذلك إرادة راحة المخلصين من مرافقتهم: إذ الأمر ليس شرطا في نفوذ المشيئة، والله الموفق.

(٢) عاد كلامه. قال: «فإن قلت فما معنى قوله مع القاعدين ... الخ» قال أحمد: وهذا من تنبيهاته الحسنة، ونزيده بسطاً فنقول: لو قيل اقعدوا مقتصراً عليه، لم يفد سوى أمرهم بالقعود، وكذلك: كونوا مع القاعدين، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد، الموسومين بهذه السمة، إلا من عبارة الآية. ولعن الله فرعون: لقد بالغ في توعد موسى عليه السلام بقوله: لأجعلنك من المسجونين، ولم يقل: لأجعلنك مسجونا، لمثل هذه النكتة من المبالغة

(٣) قوله «بالتضريب» أي بالاغراء. (ع)

الماشي . وقرأ ابن الزبير رضى الله عنه : ولأرقصوا ، من رقصت الناقة رقصاً إذا أسرعت وأرقصتها . قال:

* وَالرَّاقِصَات إِلَى مِنًى فَالْغَبْغَبِ *

وقرئ : ولأوفضوا . فإن قلت : كيف خطّ فى المصحف : ولا أوضعوا ، بزيادة ألف؟ قلت: كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربى ، والخط العربى اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقى من ذلك الألف أثر فى الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً ، وفتحتها ألفاً أخرى ، ونحو : أولا أذبحنه . ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ يحاولون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم فى مغزاكم ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ أى نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم . أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم ﴿ لقد ابتغوا الفتنة ﴾ أى العنت ونصب الغوائل والسعى فى تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك ، كما فعل عبد الله بن أبىّ يوم أحد حين انصرف بمن معه وعن ابن جريج رضى الله عنه : وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا ليفتكوا به ﴿ من قبل ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ ودبروا لك الحيل والمكايد ، ودوّروا الآراء فى إبطال أمرك . وقرئ : وقلبوا بالتخفيف ﴿ حتى جاء الحق ﴾ وهو تأييدك ونصرك ﴿ وظهر أمر الله ﴾ وغلب دينه وعلا شرعه .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)

﴿ ائذن لى ﴾ فى القعود ﴿ ولا تفتنى ﴾ ولا توقعنى فى الفتنة وهى الإثم ، بأن لا تأذن لى فإنى إن تخلفت بغير إذنك أثمت . وقيل : ولا تلقنى فى الهلكة ، فإنى إذا خرجت معك هلك مالى وعيالى وقيل : قال الجدّ بن قيس : قد علمت الأنصار أنى مستهتر بالنساء [1] فلا تفتنى ببنات الأصفر ، يعنى نساء الروم ، ولكنى أعينك بمال فاتركنى . وقرئ : ولا تفتنى ، من أفتنه ﴿ ألا فى الفتنة سقطوا ﴾ أى إنّ الفتنة هى التى سقطوا فيها ، وهى فتنة التخلف . وفى مصحف أبىّ رضى الله عنه : سقط ، لأنّ «من» موحد اللفظ مجموع المعنى ﴿ لمحيطة بالكافرين ﴾ يعنى أنها تحيط بهم يوم القيامة . أو هى محيطة بهم الآن ؛ لأنّ أسباب الإحاطة معهم فكأنهم فى وسطها .

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠)

(١) قوله «إنى مستهتر» أى مولع لا أبالى بما يقال فى شأنى انتهى . (ع)

﴿ إن تصبك ﴾ فى بعض الغزوات ﴿ حسنة ﴾ ظفر وغنيمة ﴿ تسؤهم وإن تصبك مصيبة ﴾ نكبة وشدّة فى بعضها نحو ما جرى فى يوم أحد يفرحوا بحالهم فى الانحراف عنك . و﴿ يقولوا قد أخذنا أمرنا ﴾ أى أمرنا الذى نحن متسمون به ، من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم ﴿ من قبل ﴾ من قبل ماوقع . وتولوا عن مقام التحدّث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم ﴿ وهم فرحون ﴾ مسرورون . وقيل : تولوا : أعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

قرأ ابن مسعود رضى الله عنه : قل هل يصيبنا . وقرأ طلحة رضى الله عنه : هل يصيّبنا، بتشديد الياء . ووجهه أن يكون « يفيعل » لا « يفعل » ، لأنه من بنات الواو ، كقولهم : الصواب، وصاب السهم يصوب ، ومصاوب[1] فى جمع مصيبة ، فحق « يفعل » منه « يصوّب » ألا ترى إلى قولهم : صوّب رأيه . إلا أن يكون من لغة من يقول : صاب السهم يصيب . ومن قوله[2] أسهمى الصائبات والصيب ، واللام فى قوله ﴿ إلا ما كتب الله لنا ﴾ مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل : لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله به بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة . ألا ترى إلى قوله ﴿ هو مولانا ﴾ أى الذى يتولانا ونتولاه ، ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله ، فليفعلوا ما هو حقهم .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

﴿ إلا إحدى الحسنيين ﴾ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسن العواقب ، وهما النصرة والشهادة ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ إحدى السوأتين[3] من العواقب ، إمّا ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ﴾ وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود ﴿ أو ﴾ بعذاب ﴿ بأيدينا ﴾ وهو القتل على الكفر ﴿ فتربصوا ﴾ بنا ما ذكرنا من عواقبنا ﴿ إنا معكم متربصون ﴾

---

(١) قوله « ومصاوب » فى الصحاح : أجمعت العرب على همز المصائب ، وأصله الواو كأنهم شبهوا الأصلى بالزائد ، ويجمع أيضا على مصاوب ، وهو الأصل . (ع)

(٢) قوله « ومن قوله » لعله : ومنه . أو لعله : ومنها . وفى الصحاح : صاب السهم القرطاس يصيبه صيبا لغة فى أصابه . (ع)

(٣) قوله « إحدى السوأتين » لعله : السوأيين . (ع)

ما هو عاقبتكم، فلا بدّ أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣)

﴿أنفقوا﴾ يعني في سبيل الله ووجوه البر ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ نصب على الحال، أي طائعين أو مكرهين. فإن قلت: كيف أمرهم بالانفاق ثم قال ﴿لن يتقبل منكم﴾؟ قلت: هو أمر في معنى الخبر، كقوله تبارك وتعالى (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدّا) ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه قوله تعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وقوله:

* أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً * (١)

أي لن يغفر الله لهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم. ولا نلومك ـ أسأت إلينا أم أحسنت. فإن قلت: متى يجوز نحو هذا؟ قلت: إذا دلّ الكلام عليه كما جاز عكسه في قولك رحم الله زيداً وغفر له. فإن قلت: لم فعل ذلك؟ قلت: لنكتة فيه، وهي أنّ كثيراً كأنه يقول لعزة: امتحني لطف محلك عندي وقوة محبتي لك، وعامليني بالاساءة. والاحسان، وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة كنت أو محسنة؟ وفي معناه قول القائل:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ قُمْتَ بِالسَّيْفِ عَامِدًا ... لِتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَغِشَّكَ فِي الْوُدِّ (٢)

وكذلك المعنى: أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلافا بين حال الاستغفار وتركه؟ فإن قلت: ما الغرض في نفي التقبل؟ أهو ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبله منهم ورده عليهم ما يبذلون منه؟ أم هو كونه غير مقبول

---

(١) أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلت

لكثير صاحب عزة، يقول: امتحنيني في المحبة، وعامليني بالاساءة والاحسان، وانظري هل يتغير حالي، وافعلي ما يجبرك زوجك عليه من شتمي، كما يأتي في كلامه، ولا تتحرجي عنه فانه مثل إحسانك، ولهذا ذكر الاحسان والمعنى: لالوم ولا بغض، سواء أسأت أو أحسنت، فالأمر بمعنى الخبر، ثم التفت وقال: ليست عزة ملومة عندنا ولا مبغضة إن تبغضت، أي تكلفت البغض لنا وأظهرته. ويجوز أن المعنى: لاملومة أنت ولا مقلية، فالالتفات في قوله «إن تبغضت» فقط.

(٢) أخوك الذي إن قمت بالسيف عامداً ... لتضربه لم يستغشك في الود

ولو جئت تبغي كفه لتبينها ... تبادر إشفاقا عليك من الرد

يرى أنه في الود وان مقصر ... على أنه قد زاد فيه عن الجهد

روى يستفشك «بالشين بدل الثاء». والمعنى متقارب. والسين والتاء للعد، أي لم يعدك خائنا مضراً. وتبينها تقطعها. والاشفاق: الخوف. والواني: المتواني. يقول: إن أخاك الصدق هو الذي لو قصدته بالمكاره لم يعدها غشا منك في المودة، بل يبادرك بكل ماطلبته خوفا عليك من أذى المنع، يظن أو يعتقد أنه مقصر في الود، مع أنه جاوز فيه الحد، وتكلف غير طاقته.

عند الله تعالى ذاهباً هباء لا ثواب له ؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعاً . وقوله ﴿طوعا أو كرها﴾ معناه طائعين من غير إلزام من الله ورسوله ، أو ملزمين . وسمى الإلزام إكراها ، لأنهم منافقون ، فكان إلزامهم الإنفاق شاقا عليهم كالإكراه . أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم : لأنّ رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه ، أو مكرهين من جهتهم . وروى أنها نزلت فى الجدّ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مالى أعينك به فاتركنى ﴿إنكم﴾ تعليل لردّ إنفاقهم . والمراد بالفسق : التمرّد والعتو .

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

﴿أنهم﴾ فاعل منع . وهم . وأن تقبل : مفعولاه . وقرئ : أن تقبل ، بالتاء والياء على البناء للمفعول . ونفقاتهم . ونفقتهم ، على الجمع والتوحيد . وقرأ السلمى : أن يقبل منهم نفقاتهم ، على أن الفعل لله عزّ وجلّ ﴿كسالى﴾ بالضم والفتح . جمع كسلان ، نحو سكارى وغيارى ، فى جمع سكران وغيران ، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثوابا ، ولا يخشون بتركها عقابا فهى ثقيلة عليهم كقوله تعالى (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقرأت فى بعض الأخبار أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كره للمؤمن أن يقول : كسلت ، كأنه ذهب إلى هذه الآية ، فإنّ الكسل من صفات المنافقين ، فما ينبغى أن يسنده المؤمن إلى نفسه . فإن قلت : الكراهية خلاف الطواعية ، وقد جعلهم الله تعالى طائعين فى قوله (طوعا) ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون . قلت: المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة واختيار .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

الإعجاب بالشىء : أن يسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه . والمعنى : فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا ، كقوله تعالى (ولا تمدّنّ عينيك) فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب ، بأن عرّضه للتغنم والسبى ، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب ، وكلفهم الإنفاق منه فى أبواب الخير ، وهم كارهون له على رغم أنوفهم ، وأذاقهم أنواع الكلف

والمجاشم فى جمعه واكتسابه وفى تربية أولادهم . فإن قلت : إن صح تعليق التعذيب [1] بإرادة الله تعالى ، فما بال زهوق أنفسهم ﴿وهم كارهون﴾ ؟ قلت : المراد الاستدراج بالنعم ، كقوله تعالى (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) كأنه قيل : ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون، ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة .

وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَـٰرَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)

﴿لمنكم﴾ لمن جملة المسلمين ﴿يفرقون﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين ، فيتظاهرون بالإسلام تقية ﴿ملجأ﴾ مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿أو مغارات﴾ أو غيرانا . وقرئ بضم الميم ، من أغار الرجل وغار إذا دخل الغور . وقيل : هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا . يعنى : أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم . ويجوز أن يكون من : أغار الثعلب ، إذا أسرع ، بمعنى مهارب ومفاز ﴿أو مدّخلا﴾ أو نفقا يندسون فيه وينجحرون ، وهو مفتعل من الدخول . وقرئ مدخلا من دخل ، ومدخلا من أدخل : مكانا يدخلون فيه أنفسهم . وقرأ أبى بن كعب رضى الله عنه : متدخلا وقرئ : لوألوا إليه لالتجئوا إليه ﴿يجمحون﴾ يسرعون إسراعا لا يردّهم شيء ، من الفرس الجموح ، وهو الذى إذا حمل لم يرده اللجام . وقرأ أنس رضى الله عنه : يجمزون . فسئل فقال : يجمحون ويجمزون ويشتدّون [2] واحد .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)

﴿يلمزك﴾ يعيبك فى قسمة الصدقات ويطعن عليك . قيل : هم المؤلفة قلوبهم . وقيل هو ابن ذى الخويصرة رأس الخوارج ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فقال: اعدل يارسول الله . فقال صلوات الله عليه وسلامه « ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟ [3] وقيل : هو أبو الجواظ ، من المنافقين ، قال : ألا ترون إلى صاحبكم ! إنما يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ،

---

(١) قوله «فان قلت إن صح تعليق ... الخ » مبنى على أنه تعالى لايريد الشر ؛ وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة : أنه يريده كالخير . (ع)

(٢) قوله «ويجمزون ويشتدون» فيقال : جمز بالجيم يجمز بالكسر : أسرع ، وحمز بالحاء يحمز بضمها : اشتد اه صحاح فتدبر . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبي سعيد واللفظ للبخارى . ولهما : «إذ جاء ذو الخويصرة» وهو المحفوظ

وهو يزعم أنه يعدل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا أبالك أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً» فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون»[(١)] وقرئ : يلمزك بالضم ، ويلمزك ويلامزك . التثقيل والبناء على المفاعلة مبالغة فى اللمز . ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم ، لا للدين وما فيه صلاح أهله ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه . وإذا للمفاجأة : أى وإن لم يعطوا منها فاجؤا السخط .

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)

جواب «لو» محذوف تقديره : ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم . والمعنى : ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم وقالوا كفانا فضل الله وصنعه ، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما آتانا اليوم ﴿إنا إلى الله﴾ فى أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون .

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)

﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها[(٢)] لا تتجاوزها إلى غيرها ، كأنه قيل : إنما هى لهم لا لغيرهم . ونحوه قولك . إنما الخلافة لقريش . تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها ، وعليه مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه . وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أنهم قالوا : فى أى صنف منها وضعتها أجزأك . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين لجبرتهم بها

---

(١) لم أجده .

(٢) قال محمود : « هذا قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها الخ » قال أحمد : وهو مذهب مالك رضى الله عنه ، والقول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذا من إشعار اللام بالتمليك كما ذهب إليه الشافعي لا يساعده السياق فان الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على أن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً فهذا هو الغرض الذي سيقت له فلا اقتضاء فيها لما سواه والله أعلم .

كان أحب إلىّ . وعند الشافعىّ رضى الله عنه ، لا بدّ من صرفها إلى الأصناف الثمانية . وعن عكرمة رضى الله عنه . أنها تفرّق فى الأصناف الثمانية . وعن الزهرى أنه كتب لعمر ابن عبدالعزيز تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية ﴿والعاملين عليها﴾ السعاة الذين يقبضونها ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان فى المسلمين قلة . والرقاب : المكاتبون يعانون منها . وقيل : الأسارى . وقيل : تبتاع الرقاب فتعتق ﴿والغارمين﴾ الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها مايبلغ النصاب . وقيل الذين تحملوا الحمالات فتداينوا فيها وغرموا ﴿وفى سبيل الله﴾ فقراء الغزاة والحجيج المنقطع بهم ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع عن ماله فهو فقير حيث هو غنىّ حيث ماله ﴿فريضة من الله﴾ فى معنى المصدر المؤكد ، لأنّ قوله إنما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم . وقرئ فريضة بالرفع على : تلك فريضة . فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى « فى » فى الأربعة الأخيرة[1] ؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأنّ « فى » للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً ، وذلك لما فى فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفى فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازى الفقير أو المنقطع فى الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال ، وتكرير « فى » فى قوله (وفى سبيل الله وابن السبيل) فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين . فإن قلت : فكيف وقعت هذه الآية فى تضاعف ذكر المنافقين ومكايدهم ؟ قلت : دل بكون هذه الأصناف مصارف

---

(١) عاد كلامه . قال : فان قلت لم عدل عن اللام إلى فى فى الأربعة الأخيرة ... الخ» قال أحمد : وثم سر آخر هو أظهر وأقرب وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكا ، فكان دخول اللام لائقابهم . وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون مايصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم . ولكن فى مصالح تتعلق بهم . فالمال الذى يصرف فى الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به ، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لالهم . وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك . وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا فى سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور باللام ممكن ، ولكنه على القريب منه أقرب والله أعلم . وكان جدى أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجها فى الاستدلال لمالك على أن الغرض بيان المصرف ، واللام لذلك لام الملك . فيقول : متعلق الجار الواقع خبرا عن الصدقات محذوف ، فيتعين تقديره . فاما أن يكون التقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء ، كقول مالك : أو مملوكة للفقراء ، كقول الشافعى ؛ لكن الأول متعين ، لأنه تقدير يكتفى به فى الحرفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفى معا ، فيصح أن تقول : هذا الشىء مصروف فى كذا وكذا ، بخلاف تقديره مملوكة ، فانه إنما يلتئم مع اللام ، وعند الانتهاء إلى « فى » يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتئم بها ، فتقديره من اللام عام التعلق ، شامل الصحة ، متعين ، والله الموفق .

الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم. حسماً لأطماعهم وإشعاراً باستيجابهم الحرمان، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم ومالها؟ وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها صلوات الله عليه وسلامه؟.

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع [١] ويقبل قول كل أحد. سمى بالجارحة التي هى آلة السماع، كأنّ جملته أذنٌ سامعة. ونظيره قولهم للربيئة [٢]. عين. وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه (هو أذن). وأذن خير، كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح. كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نِعم الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن فى الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن فى غير ذلك ودلّ عليه قراءة حمزة (ورحمة) بالجرّ عطفاً عليه أى: هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم، أى أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين. مراعاة لما رأى الله من المصلحة فى الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه، إلا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته. وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة. وقيل: إنّ جماعة منهم ذموه صلوات الله عليه وسلامه وبلغه ذلك، فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم: لا عليكم، فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن، ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذرنا أيضاً فيرضى، فقيل: هو أذن خير لكم. وقرئ: أذنٌ خيرٌ لكم، على أن أذن خبر مبتدإ محذوف: وخير كذلك، أى هو أذن هو خير لكم يعنى إن كان كما تقولون فهو خير لكم، لأنه يقبل

---

(١) قال محمود: «الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ... سمى الرجل بالجارحة التى هى آلة السماع ... الخ» قال أحمد: لاشيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه لأنه فى الأول إطماع لهم بالموافقة، ثم كر على طمعهم بالحسم واعقبهم فى تنقصه باليأس منه؛ ويضاهى هذا من مستعملات الفقهاء: القول بالموجب، لأن فى أوله إطماعا للخصم بالتسليم، ثم بتا للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الاطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه، والله الموفق.

(٢) قوله «للربيئة» فى الصحاح: الربيئة الطليعة. (ع)

معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم . [1] وقرأ نافع بتخفيف الذال . فإن قلت : لم عدّى فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى ، وإلى المؤمنين باللام ؟ قلت : لأنه قصد التصديق بالله الذى هو نقيض الكفر به ، فعدّى بالباء وقصد السماع من المؤمنين ، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدّقه ، لكونهم صادقين عنده ، فعدّى باللام ألا ترى إلى قوله (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) ما أنباه [2] عن الباء . ونحوه : فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) ، (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) ، (آمنتم له قبل أن آذن لكم) . فإن قلت : ماوجه قراءة ابن أبي عبلة : ورحمة بالنصب ؟ قلت : هى علة معللها محذوف تقديره : ورحمة لكم يأذن لكم ، فحذف لأنّ قوله (أذن خير لكم) يدل عليه .

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)

﴿لكم ليرضوكم﴾ الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم ، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق . وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكانا فى حكم مرضىّ واحد ، كقولك : إحسان زيد وإجماله نعشنى وجبر منى . أو والله أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك .

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

المحادّة مفاعلة من الحدّ كالمشاقة من الشقّ ﴿فأن له﴾ على حذف الخبر . أى . فحق أن له ﴿نار جهنم﴾ وقيل . معناه فله ، وأنّ : تكرير ؛ لأن فى قوله (أنه) تأكيداً . ويجوز أن يكون (فأن له) معطوفا على أنه ، على أن جواب (من) محذوف تقديره : ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له نار جهنم . وقرئ : ألم تعلموا بالتاء .

---

(١) قوله «على سوء دخلتكم» أى مذمتكم . وفى الصحاح أن دخلة الرجل بالضم : باطن أمره اه ، ولعلها غلبت فى المذمة . (ع)

(٢) قوله « ماأنباه عن الباء ونحوه » أى : ما أبعده . (ع)

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

كانوا يستهزؤن بالإسلام وأهله وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم؛ حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله، لوددت أنى قدمت فجلدت مائة جلدة؛ وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا. والضمير في عليهم وتنبئهم للمؤمنين. وفي قلوبهم: للمنافقين. وصحّ ذلك لأن المعنى يقود إليه. ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم. ومعنى تنبئهم بما في قلوبهم، كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت. يعني أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها. وقيل: معنى يحذر: الأمر بالحذر، أى ليحذر المنافقون. فإن قلت: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ فما معنى قوله ﴿مخرج ما تحذرون﴾؟ قلت: معناه محصل مبرز إنزال السورة. أو أنّ الله مظهر ما كنتم تحذرونه، أى تحذرون إظهاره من نفاقكم.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشأم وحصونه، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك فقال: احبسوا علىّ الركب، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يا نبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر [1] ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن﴾ لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم، وبأنه موجود منهم، حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته ﴿لا تعتذروا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم ﴿قد كفرتم﴾ قد ظهر كفركم باستهزائكم ﴿بعد إيمانكم﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نعذب طائفة

(١) ذكره الواحدي عن قتادة بغير سند، ووصله الطبري.

بأنهم كانوا مجرمين ﴾ مصرين على النفاق غير تائبين منه . أو إن نعف عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستهزؤا فلم نعذبهم فى العاجل ، نعذب فى العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مستهزئين . وقرأ مجاهد: إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيث ، والوجه التذكير : لأن المسند إليه الظرف ، كما تقول : سير بالدابة . ولا تقول : سيرت بالدابة ، ولكنه ذهب إلى المعنى ، كأنه قيل : إن ترحم طائفة ، فأنث لذلك وهو غريب ، والجيد قراءة العامة : إن يعف عن طائفة ، بالتذكير . وتعذب طائفة ، بالتأنيث . وقرئ : إن يعف عن طائفة يعذب طائفة ، على البناء للفاعل وهو الله عزّ وجل .

الْمُنَـٰفِقُونَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَـٰفِقِينَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿ بعضهم من بعض ﴾ أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم فى قولهم (ويحلفون بالله إنهم لمنكم) وتقرير قوله (وما هم منكم) ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ عن الإيمان والطاعات ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ شحا بالمبارّ والصدقات والإنفاق فى سبيل الله ﴿ نسوا الله ﴾ أغفلوا ذكره ﴿ فنسيهم ﴾ فتركهم من رحمته وفضله ﴿ هم الفاسقون ﴾ هم الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير ، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف الله به المنافقين حين بالغ فى ذمهم ، وإذا كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول كسلت [1] ، لأن المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله (كسالى) فما ظنك بالفسق ﴿ خالدين فيها ﴾ مقدرين الخلود ﴿ هى حسبهم ﴾ دلالة على عظم عذابها ، وأنه لا شيء أبلغ منه ، وأنه بحيث لا يزاد عليه ، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ﴿ ولعنهم الله ﴾ وأهانهم من التعذيب ، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين ، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة [2] المكرمين ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ ولهم نوع من العذاب سوى الصلى بالنار ، مقيم دائم كعذاب النار . ويجوز أن يريد :

(١) تقدم فى أواخر البقرة .

(٢) قوله « وألحقهم بالملائكة » مبنى على مذهب المعتزلة ، من تفضيل الملك على البشر . (ع)

ولهم عذاب مقيم معهم فى العاجل لا ينفكون عنه ، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق ، والظاهر المخالف للباطن ، خوفا من المسلمين وما يحذرونه أبدا من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٦٩)

الكاف محلها رفع على : أنتم مثل الذين من قبلكم . أو نصب على: فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا . ونحوه قول النمر :

* كَالْيَوْمِ مَطْلُوبًا وَلاَ طَلَبًا * [(١)]

بإضمار «لم أر» ، وقوله ﴿ كانوا أشد منكم قوة ﴾ تفسير لتشبيههم بهم ، وتمثيل فعلهم بفعلهم. والخلاق : النصيب ، وهو ما خلق للإنسان ، أى قدر من خير ، كما قيل له « قسم » لأنه قسم . ونصيب ، لأنه نصب ، أى أثبت . والخوض : الدخول فى الباطل واللهو ﴿ كالذى خاضوا ﴾ كالفوج الذى خاضوا ، وكالخوض الذى خاضوه . فإن قلت : أى فائدة فى قوله (فاستمتعوا بخلاقهم) وقوله (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) مغن عنه كما أغنى قوله (كالذى خاضوا) عن أن يقال: وخاضوا فخضتم كالذى خاضوا ؟ قلت : فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها ، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة وطلب الفلاح فى الآخرة ، وأن يخسس أمر الاستمتاع ويهجن أمر الرضى به ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله . وأما (وخضتم كالذى خاضوا) فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن

---

(١) حتى إذا الكلاب قال لها كاليوم مطلوباً ولا طلباً

لأوس بن حجر . وقيل : للنمر بن تولب ، وفيه حذف لا يستقيم إلا به ، أى قال لها : لم أنظر كاليوم مطلوباً ، والضمير لكلبة الصيد . والكلاب : معلم الكلاب أو الصياد بها ، أى ليس المطلوب والطلب فى هذا اليوم مثلهما فى غيره بل أعظم . ولعل المراد بالطلب الطالب ، ثم يحتمل أن هذا مقول القول ، ويحتمل أنه جواب إذا ومقول القول محذوف ، إشارة إلى سرعتها : أى قال لها : اذهبي مثلا .

باستناده إليه عن تلك التقدمة ﴿ حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ نقيض قوله (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) .

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)

﴿ وأصحاب مدين ﴾ وأهل مدين وهم قوم شعيب ﴿ والمؤتفكات ﴾ مدائن قوم لوط . وقيل: قريات قوم لوط وهود وصالح . وائتفاكهن : انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ فما صحّ منه أن يظلمهم وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح وأن يعاقبهم بغير جرم ، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ فى مقابلة قوله فى المنافقين (بعضهم من بعض) . ﴿ سيرحمهم الله ﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة ، فهى تؤكد الوعد ، كما تؤكد الوعيد فى قولك: سأنتقم منك يوماً ، تعنى أنك لا تفوتنى وإن تباطأ ذلك ، ونحوه (سيجعل لهم الرحمن ودّا) ، ولسوف يعطيك ربك فترضى) . (سوف يؤتيهم أجورهم) . ﴿ عزيز ﴾ غالب على كل شىء قادر عليه ، فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿ حكيم ﴾ واضع كلا موضعه على حسب الاستحقاق ﴿ ومساكن طيبة ﴾ عن الحسن قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد . و (عدن) علم ، بدليل قوله (جنات عدن التى وعد الرحمن) ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « عدن دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ، لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون ، والصدّيقون، والشهداء . يقول الله تعالى : طوبى لمن دخلك »[1] وقيل: هى مدينة

(١) أخرجه البزار من طريق زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد عنه ، وقال : لا نعلمه =

فى الجنة . وقيل : نهر جناته على حافاته ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله ، لأنّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة ، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته ، والكرامة أكبر أصناف الثواب ، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر فى نفسه مما وراءه من النعم ، وإنما تتهنأ له برضاه ، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت . وسمعت بعض أولى الهمة البعيدة والنفس المرّة[1] من مشايخنا يقول: لا تطمح عيني ولا تنازع نفسى إلى شيء مما وعد الله فى دار الكرامة ، كما تطمح وتنازع إلى رضاه عنى ، وأن أحشر فى زمرة المهديين المرضيين عنده ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما وعدَ الله ، أو إلى الرضوان: أى هو ﴿الفوز العظيم﴾ وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً . وروى «أن الله عز وجلّ يقول لأهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أُدخل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا »[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

﴿جاهد الكفار﴾ بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالحجة[3] ﴿واغلظ عليهم﴾ فى الجهادين جميعاً ، ولا تحابهم وكل من وقف منه على فساد فى العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه ، يجاهد بالحجة ، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها . عن ابن مسعود : إن لم يستطع بيده فبلسانه ، فإن لم يستطع فليكفهرّ فى وجهه[4] فإن لم يستطع فبقلبه[5] . يريد الكراهة والبغضاء والتبرأ منه . وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها .

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟

═ إلا من هذا الوجه وزيادة لا يعلم وروى عنه غير الليث وأخرجه الطبرانى والدارقطنى فى المؤتلف وابن مردويه من هذا الوجه .

(١) قوله «والنفس المرة» أى القوية الشديدة العقل ، من المرة بالكسر ، وهى القوة وشدة العقل ، كما فى الصحاح . (ع)

(٢) متفق عليه من حديث أبى سعيد .

(٣) قال محمود : «معناه جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة ... الخ ، قال أحمد : والحمد لله الذى أنطقه بالحجة لنا فى إغلاظنا عليه أحيانا ، والله الموفق .

(٤) قوله «فليكفهر فى وجهه» فى الصحاح «اكفهر الرجل» إذا عبس . (ع)

(٥) أخرجه الطبرى وابن مردويه من رواية عمرو بن أبى جندب عنه .

بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ، ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم ، منهم الجلاس بن سويد . فقال الجلاس : والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا ، فنحن شر من الحمير . فقال عامر بن قيس الأنصارى للجلاس : أجل ، والله إنّ محمداً لصادق وأنت شرّ من الحمار . وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستحضر فحلف بالله ما قال ، فرفع عامر يده فقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق [1] فنزلت ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ فقال الجلاس : يارسول الله ، لقد عرض الله علىّ التوبة . والله لقد قلته وصدق عامر ، فتاب الجلاس وحسنت [2] توبته ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ وهو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند مرجعه من تبوك : توائق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادى إذا تسنم العقبة بالليل ، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح ، فالتفت فإذا قوم متلثمون ، فقال : إليكم إليكم ياأعداء الله [3] ، فهربوا. وقيل:

---

(١) قوله «تصديق الكاذب وتكذيب الصادق» لعله تصديق الصادق وتكذيب الكاذب . ويمكن أنه جعل نفسه كاذبا ، والجلاس صادقا ، لأنه مقتضى ظاهر الحلف . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند لكن سنده إليه أول الكتاب . وروى ابن سعد وعبدالرزاق والطبرى من رواية هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت أم عمير بنت سعيد عند الجلاس بن سويد . فقال الجلاس بن سويد فى غزوة تبوك إن كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير . فقال له عامر بن قيس الأنصارى ، وهو ابن عمه ـ فذكره . وكذا ذكره موسى بن عقبة فى المغازى ليس فيه كانت أم عمير إلى آخره ، بل أوله فى قصة تبوك إلى أن قال : وقال الجلاس حين سمع ماأنزل الله فى المنافقين .

(٣) أخرجه أحمد من حديث أبى الطفيل قال « لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أمر مناديا ينادى لايأخذن العقبة أحد ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير وحده ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يسير وحذيفة رضى الله عنه يقود به ، وعمار رضى الله عنه يسوق به . فأقبل رهط متلثمين على الرواحل حتى غشوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فرجع عمار فضرب وجوه الرواحل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة : قدقد ـ فلحقه عمار فقال : سق سق حتى أناخ . فقال لعمار : هل تعرف القوم فقال : لا ، كانوا متلثمين . وقد عرفت عامة الرواحل . فقال : أتدرى ماأرادوا برسول الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . فقال : أرادوا أن يمكروا برسول الله فطرحوه من العقبة . فلما كان بعد ذلك وقع بين عمار رضى الله عنه وبين رجل منهم شيء مما يكون بين الناس . فقال : أنشدكم الله ، كم أصحاب العقبة الذين أرادوا أن يمكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : ترى أنهم =

همّ المنافقون بقتل عامر لردّه على الجلاس . وقيل : أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبيّ وإن لم يرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ﴿وما نقموا﴾ وما أنكروا وما عابوا ﴿إلا أن أغناهم الله﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفاً فاستغنى ﴿فإن يتوبوا﴾ هى الآية التى تاب عندها الجلاس ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ بالقتل والنار .

وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾

روى أنّ ثعلبة بن حاطب قال : يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال صلى الله عليه وسلم : «ياثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه [(١)]، فراجعه وقال : والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطينّ كل ذى حق حقه ، فدعا له ، فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة ، فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل : كثر ماله حتى لا يسعه واد . قال : ياويح ثعلبة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدّقين لأخذ الصدقات ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه الفرائض ، فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، وقال : ارجعا حتى أرى رأيى ، فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه : ياويح ثعلبة مرّتين ، فنزلت ، فجاءه ثعلبة بالصدقة ، فقال : إنّ الله منعنى أن

ـــ أربعة عشر ، فان كنت فيهم فهم خمسة عشر ، ومن هذا الوجه رواه الطبرانى والبزار وقال روى من طريق عن حذيفة وهذا أحسنها وأصلحها إسنادا . ورواه ابن إسحاق فى المغازى ومن طريقه البيهقى فى الدلائل عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن حذيفة بن اليمان . قال : كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به . وعمار رضى الله عنه يسوق الناقة حتى إذا كنا بالعقبة وإذا اثنى عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال : فانتهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرخ بهم فولوا مدبرين .

(١) أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الدلائل والشعب وابن أبى حاتم والطبرى وابن مردويه كلهم من طريق على بن زيد عن القاسم بن عبدالرحمن عن أمامة . وهذا إسناد ضعيف جدا . فقال السهيلى عن ابن إسحاق ثعلبة بن حاطب من البدريين . وعن ابن إسحاق أيضا فى المنافقين وذكر هذه الآية التى نزلت فيه . فلعلهما اثنان

أقبل منك ، فجعل التراب على رأسه فقال : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها ، وجاء بها إلى عمر رضى الله عنه فى خلافته فلم يقبلها ، وهلك فى زمان عثمان رضى الله عنه . وقرئ (لنصدقنْ ولنكوننْ) بالنون الخفيفة فيهما ﴿من الصالحين﴾ قال ابن عباس رضى الله عنه : يريد الحج ﴿فأعقبهم﴾ عن الحسن وقتادة رضى الله عنهما : أنّ الضمير للبخل . يعنى : فأورثهم البخل ﴿نفاقا﴾ متمكنا ﴿فى قلوبهم﴾ لأنه كان سببا فيه وداعياً إليه . والظاهر أن الضمير لله عزّ وجل . والمعنى: فخذلهم حتى نافقوا[1] وتمكن فى قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدّق والصلاح وكونهم كاذبين . ومنه : جعل خلف الوعد ثلث النفاق . وقرئ : يكذبون ، بالتشديد . وألم تعلموا ، بالتاء . عن علىّ رضى الله عنه .

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

﴿سرهم ونجواهم﴾ ما أسرّوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين ، وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها .

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿الذين يلمزون﴾ محله النصب أو الرفع على الذمّ . ويجوز أن يكون فى محل الجرّ بدلا من الضمير فى سرهم ونجواهم . وقرئ : يلمزون ، بالضم ﴿المطّوّعين﴾ المتطوعين المتبرعين . روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حثّ على الصدقة فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب . وقيل : بأربعة آلاف درهم وقال : كان لى ثمانية آلاف ، فأقرضت ربى أربعة وأمسكت أربعة لعيالى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت[2]، فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً ،

---

(١) قوله «والمعنى فخذلهم حتى نافقوا» فسره بذلك على مذهب المعتزلة ، من أنه تعالى لا يخلق الشر . (ع)

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين ـ الآية) قال : جاء عبدالرحمن بن عوف بأربعين أوقية . من ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر . فقال بعض المنافقين والله ماجاء عبدالرحمن بن عوف بما جاء به إلا رياء وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع . ومن طريق عطية العوفى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إلى الناس ، فنادى فيهم : أن اجمعوا صدقاتكم . فجمع الناس صدقاتهم . وجاء رجل بصاع من تمر . فقال : يارسول الله بت ليلتى أجر بالجرير ـ الحديث ، وجاء عبدالرحمن بن عوف فقال : يارسول الله مالى ثمانية آلاف ، فأربعة آلاف لى ، وأربعة آلاف أقرضها ربى ـ فذكره» وقال عبدالرزاق فى تفسيره أخبرنا =

وتصدّق عاصم بن عدىّ بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصارى رضى الله عنه بصاع من تمر فقال : بت ليلتى أجرّ بالجرير [1] على صاعين ، فتركت صاعا لعيالى ، وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات . فلمزهم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ، ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات ، فنزلت ﴿إلا جهدهم﴾ إلا طاقتهم . قرئ بالفتح والضم ﴿سخر الله منهم﴾ كقوله : الله يستهزئ بهم فى أنه خبر غير دعاء . ألا ترى إلى قوله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ .

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

سأل عبد الله بن عبد الله بن أبىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وكان رجلا صالحا ــ أن يستغفر لأبيه فى مرضه ففعل ، فنزلت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ الله قد رخص لى فسأزيد على السبعين» [2] فنزلت (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) وقد ذكرنا

= معمر عن قتادة قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله . وكان له ثمانية آلاف دينار . فتصدق بأربعة آلاف دينار . فقال أناس من المنافقين : إن عبد الرحمن لعظيم الرياء . فقال الله عز وجل (الذين يلمزون المطوعين) وكان لرجل من الأنصار صاعان من تمر . فجاء بأحدهما . فقال أناس من المنافقين : إن كان الله لغنيا عن صاع هذا . فقال الله عز وجل (إلا جهدهم) وروى البزار من رواية عمر بن أبى مسلمة عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تصدقوا فانى أريد أن أبعث بعثا فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يارسول الله ، عندى أربعة آلاف درهم ألفان أقرضها ربى وألفان لعيالى ــ الحديث» وفيه «وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر» أخرجه عن طالوت بن عبادة عن أبى عوانة عنه وقال : تفرد طالوت بوصله ثم رواه عن أبى كامل عن أبى عوانة ومن طريقه ابن مردويه وفى المغازى بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدى فتصدق بمائة وسق من تمر فألقاه فى الصدقة فتضاحكوا به وقالوا : إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل» انتهى وقصة أبى عقيل أخرجها إبراهيم الحربى والطبرانى والطبرى من رواية خالد بن يسار عن ابن أبى عقيل عن أبيه قال «بت أجر الجرير على ظهرى على صاعين من تمر ــ الحديث» وفى إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف قلت : قصة أبى عقيل أخرجها البخارى من حديث أبى مسعود الأنصارى باختصار وفيه «جاء إنسان آخر بأكثر من ذلك» وفى رواية : بشيء كثير .

(١) قوله «بالجرير» هو حبل البعير . ويروى : أجر بالجرير الماء كذبها ، من أجر . (ع)

(٢) لم أجده بهذا السياق وأصله فى المتفق عليه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال «لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام يصلى عليه فأخذ عمر رضى الله عنه بثوبه فقال : أتصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه فقال إنما خيرنى فقال : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم الآية) وسأزيده على السبعين فصلى عليه فأنزل الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) فترك الصلاة عليهم ــ لفظ مسلم

أن هذا الأمر فى معنى الخبر،[1] كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط، وذكرنا النكتة فى المجيء به على لفظ الأمر، والسبعون جار مجرى المثل فى كلامهم للتكثير، قال علىّ بن أبى طالب عليه السلام:

لَأُصْبِحَنْ الْعَاصِ وَابْنَ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِى النَّوَاصِي[2]

فإن قلت: كيف خفى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام[3] وتمثيلاته، والذى يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار، كيف وقد تلاه بقوله (ذلك بأنهم كفروا... الآية) فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: «قد رخص لى ربى فسأزيد على السبعين» قلت: لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية

(١) قال محمود: «قد ذكرنا أن هذا الأمر فى معنى الخبر... الخ» قال أحمد: وما يدعيه الزمخشرى فى هذا وأمثاله من محذوف هو المقصود بالأمر وهذا واقع موقعه، كقول كثير عزة «أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة» كأنه يقول لها: امتحنى محلك عندى وقوة محبتى لك، وعامليني بالاساءة والاحسان، وانظرى هل يتفاوت حالى معك مسيئة أو محسنة؟ وكذلك معنى الآية (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وانظر هل يغفر لهم فى حالتى الاستغفار وتركه؟ وهل يتفاوت الحالان أولا؟ قال أحمد: وقد ورد بصيغة الخبر فى الآية الأخرى فى قوله تعالى (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم).

(٢)
لأصبحن العاصى وابن العاصى سبعين ألفا عاقدى النواصى
مستحقبين حلق الدلاص قد جنبوا الخيل مع القلاص
آساد محل حين لا مناص

لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فى عمرو بن العاص. وصبحه: سقاه الصبوح وقت الصباح. ويروى «لأصحبن» من الصحبة ولعله تحريف. شبه إنالة المكروه بإنالة المحبوب على سبيل التهكم، فهو استعارة تصريحية تهكمية. ويجوز أنه شبه الفرسان لاتيانهم صباحا بالصبوح على سبيل المكنية التهكمية. ولأصبحن: تخييل. وسبعين ألفاً: مفعول ثانى. والمراد به الكثرة. والعاقدين: جمع عاقد، والمراد: نواصى خيلهم أو أطراف عمائمهم من خلفهم أو شعور رؤوسهم. وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والاشاحة فى القتال. والحقاب: ماتلفه المرأة على وسطها، ويطلق على ذات وسطها. والحقيبة: خرج صغير خلف الراكب. والحلق - بالكسر -: جمع حلقة. والدلاص: الدرع الملساء المضيئة، يوصف به الواحد والجمع. فالمعنى: أنهم لابسون الدروع. أولاشيء فى حقائبهم غيرها. والقلاص فتيات الابل: أى جمعوا بين النوعين، وجعلهم كآساد المحل، أى الجدب؛ ليفيد أنهم جياع وعطاش إلى لحوم الأعداء ودمائهم، وحق اسم «لا» أن يبنى على الفتح، فيجوز أنه كسره للقافية. والأوجه أنه الاسم بمعنى غير كما فى الصحاح، أوحين غير مناص، أوبنى على الكسر لنية الاضافة. وشبهه بنزال، أو هو مجرور بمن الاستغراقية مقدرة كما مر فى «ولات أوان» ويجوز - على بعد - أن يكون فى الكلام مضاف محذوف، أى لاحين لاوقت مناص، أى تأخر عن الحرب، ويمكن أن «لا» زائدة بين المتضايفين، كما فى «بئر لاحور سرى» أى حين مناص الفرسان وفرارهم.

(٣) عاد كلامه. قال: فان قلت كيف خفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح من نطق بالضاد... الخ، قال أحمد: وقد أنكر القاضى رضى الله عنه حديث الاستغفار ولم يصححه، وتغالى قوم فى قبوله حتى إنهم اتخذوه عمدة فى مفهوم المخالفة، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفى الغفران بالسبعين ثبوت الغفران بالزائد عليه، وذلك سبب إنكار القاضى عليهم.

رحمته ورأفته على من بعث إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام (ومن عصانى فإنك غفور رحيم) وفى إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة : لطف لأمّته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض .

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)

﴿ المخلفون ﴾ الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم فى المدينة فى غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان ﴿ بمقعدهم ﴾ بقعودهم عن الغزو ﴿ خلاف رسول الله ﴾ خلفه . يقال : أقام خلاف الحى ، بمعنى بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم ، وتشهد له قراءة أبى حيوة : خلف رسول الله . وقيل : هو بمعنى المخالفة لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض ، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال ، أى قعدوا لمخالفته أو مخالفين له ﴿ أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ تعريض بالمؤمنين وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله تعالى وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض . وكره ذلك المنافقون . وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان وداعى الإيقان ﴿ قل نار جهنم أشد حرا ﴾ استجهال لهم ، لأن من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل : ولبعضهم :

مَسَرَّةُ أَحْقَابٍ تَلَقَّيْتُ بَعْدَهَا ... مَسَاءَةَ يَوْمٍ أَرْيُهَا شِبْهُ الصَّابِ
فَكَيْفَ بِأَنْ تَلْقَى مَسَرَّةَ سَاعَةٍ ... وَرَاءَ تَقَضِّيهَا مَسَاءَةُ أَحْقَابِ [1]

* * *

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)

معناه : فسيضحكون قليلا ، ويبكون كثيرا ﴿ جزاء ﴾ إلا أنه أخرج على لفظ الأمر، للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره . يروى أن أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا ، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم .

(١) للزمخشرى . و « الأحقاب » الأزمان الكثيرة المتتابعة ، جمع حقب بالضم بمعنى الدهر . و « الأرى » العسل . و « الشبه » المثل . و « الصاب » نبت مر الطعم . وقيل : هو الحنظل يقول إن مسرة أزمان كثيرة ترى بعدها مساءة يوم واحد ، حالها الشبيه بالعسل هو فى الحقيقة شبيه بالحنظل . فكيف الحال بعكس ذلك ؟ .

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)

وإنما قال ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ لأنّ منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف ، أو اعتذر بعذر صحيح . وقيل : لم يكن المخالفون كلهم منافقين ، فأراد بالطائفة : المنافقين منهم ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ يعنى إلى غزوة بعد غزوة تبوك . و﴿ أول مرة ﴾ هي الخروج إلى غزوة تبوك ، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذى علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق ، بخلاف غيرهم من المتخلفين ﴿ مع الخالفين ﴾ قد مرّ تفسيره . قرأ مالك بن دينار رحمه الله . مع الخلفين ، على قصر الخالفين . فإن قلت (مرة) نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل ، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات ؟ قلت : أكثر اللغتين : هند أكبر النساء ، وهي أكبرهنّ . ثم إنّ قولك : هى كبرى امرأة ، لا تكاد تعثر عليه . ولكن هى أكبر امرأة ، وأول مرة ، وآخر مرة . وعن قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا قيل فيهم ما قيل .

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)

روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم [١] فلما

---

(١) لم أجده هكذا فأما أوله وهو « كان يقوم ، إلى آخره » وأما قصة عبد الله فى الجائز من المستدرك من طريق ابن إسحاق حدثنى الزهرى عن عروة عن أسامة بن زيد قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله ابن أبى ليعوده فى مرضه الذى مات فيه . فلما عرف فيه الموت قال له : أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود فقال : قد أبغضتهم . أسعد بن زرارة . فما نفعه ، فلما مات أتاه ابنه فقال : قد مات فأعطنى قيصك أكفنه فيه فنزع عليه الصلاة والسلام قميصه فأعطاه إياه » وأما قوله « بعثت إليك لتستغفر لى لا لتوبخنى » فزاده الطبرانى من طريق معمر عن قتادة قال « أرسل عبد الله ابن أبى وهو مريض إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل عليه قال له النبي صلى الله عليه وسلم : أهلكك حب يهود . قال : يارسول الله ، أرسلت إليك لتستغفر لى ولم أرسل إليك لتوبخنى ، وسأله قيصه أن يكفن فيه ، فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه فى قيصه ، ونفث فى جلده ودلاه فى قبره ، فأنزل الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) وفى الدلائل للبيهقى من طريق الواقدى باسناده فى هذه القصة قال : فقال « ليس هذا بحين عتاب ، هو الموت ، فان مت فاحضر غسلى وأعطنى قيصك أكفن فيه فأعطاه ثم قال : وصل على واستغفر لى ، وفى رواية له فقال له ابنه ـ وكان يقال له الحباب ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ==

مرض رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بعث إليه ليأتيه ، فلما دخل عليه قال : أهلكك حب اليهود. فقال : يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لى لا لتؤنبنى [1] وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده ويصلى عليه ، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته ، فسأله عن اسمه فقال : أنت عبد الله ابن عبد الله . الحباب اسم شيطان . فلما همّ بالصلاة عليه قال له عمر : أتصلى على عدو الله ، فنزلت وقيل : أراد أن يصلى عليه فجذبه جبريل [2] . فإن قلت : كيف جازت له تكرمة المنافق وتكفينه فى قميصه ؟ قلت : كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له . وذلك أن العباس رضى الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ اسيراً ببدر لم يجدوا له قميصاً . وكان رجلا طوالا [3] ، فكساه عبد الله قميصه [4] وقال له المشركون يوم الحديبية : إنا لا نأذن لمحمد [5] ولكنا نأذن لك ، فقال : لا ، إن لى فى رسول الله أسوة حسنة [6] فشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم له ذلك ، وإجابة له إلى مسئلته إياه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلا ، وكان يتوفر على دواعى المروءة ويعمل بعادات الكرام ، وإكراماً لابنه الرجل الصالح ، فقد روى أنه قال له : أسألك أن تكفنه فى بعض قمصانك ، وأن تقوم على قبره ، لا يشمت به الأعداء [7] ، وعلماً بأن تكفينه فى قميصه لا ينفعه مع كفره ، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان ، وليكون إلباسه إياه لطفاً

ـــ يارسول الله أعطه قميصك الذى يلى جلدك ، وأما قوله الحباب اسم شيطان فرواه ابن سعد والطبرى من طريق عروة وغيره قال « لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه فقال : إن أبي احتضر وأحب أن تشهده وتصلى عليه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما اسمك ؟ قال : الحباب بن عبد الله قال : بلى ، أنت عبد الله ، إن الحباب اسم شيطان . قال : فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وصلى عليه وأما قول عمر فقد قدمنا أنه فى الصحيحين .

(١) قوله « لا لتؤنبنى » أى تعنفنى باللوم .

(٢) أخرجه أبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يصلى على عبد الله بن أبي فأخذ جبريل بثوبه وقال (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) ويزيد ضعيف .

(٣) قوله « وكان رجلا طوالا » فى الصحاح : الطوال ـ بالضم : الطويل . (ع)

(٤) أخرجه البخاري من رواية عمرو بن دينار سمع جابراً « لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس ، ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي صلى الله عليه وسلم قميصا . فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي صلى الله عليه وسلم إياه فلذلك نزع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه الذى ألبسه . قال ابن عتبة كانت له عند النبي صلى الله عليه وسلم يد فأحب أن يكافئه . ورواه الحاكم فى المستدرك من حديث جابر وأدرج فيه الكلام الأخير .

(٥) قوله « إنا لا نأذن لمحمد » أى فى دخوله مكة . (ع)

(٦) أخرجه الواقدى فى المغازى : حدثنا جابر بن سليم عن صفوان بن عثمان قال « كانت قريش يوم الحديبية أرسلت إلى عبد الله بن أبي : إن أحببت أن تدخل فتطوف فافعل . وابنه جالس عنده . فقال له ابنه : يا أبت اذكر الله أن تطوف بالبيت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى ابن أبي وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه فسر » .

(٧) لم أجده . وأصل سؤال ابنه فى الصحيح كما تقدم .

لغيره، فقد روى أنه قيل له : لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: «إنّ قميصى لن يغنى عنه من الله شيئاً، وإنى أؤمل فى الله أن يدخل فى الإسلام كثير بهذا السبب»[1] فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] وكذلك ترحمه واستغفاره كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف، لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك، دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتما عليه. فإن قلت: فكيف جازت الصلاة عليه؟ قلت: لم يتقدم نهى عن الصلاة عليهم. وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم، لما فى ذلك من المصلحة. وعن ابن عباس رضى الله عنه: ما أدرى ماهذه الصلاة، إلا أنى أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخادع[3] ﴿مات﴾ صفة لأحد. وإنما قيل: مات، وماتوا بلفظ الماضى ـ والمعنى على الاستقبال ـ على تقدير الكون والوجود، لأنه كائن موجود لا محالة ﴿إنهم كفروا﴾ تعليل للنهى، وقد أعيد قوله ﴿ولا تعجبك﴾ لأنّ تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزل له وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه. وأن يعتقد أن العمل به مهمّ يفتقر إلى فضل عناية به، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشىء الذى أهم صاحبه. فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ويتخلص إليه، وإنما أعيد هذ المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللهِ وَجَـٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـٔذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَـٰهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

---

(١) لم أره هكذا، وأصله أخرجه الطبرى من رواية معمر عن قتادة قال ذكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كلمه فى ذلك. فقال: وما يغنى عنه قميصى من الله، وإنى لأرجو أن يسلم به ألف من قومه».

(٢) لم أره هكذا إلا فى مرسل قتادة الذى قبله.

(٣) أخرجه سعيد بن داود فى تفسيره من طريقه. قال حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى الحكم بن أبان سمع عكرمة عن عباس قال «لما مرض عبد الله بن أبى مرضه الذى مات فيه قال للنبى صلى الله عليه وسلم امنن على فكفنى فى قميصك وصل على قال: فكفنه فى قميصه وصلى عليه. قال ابن عباس: والله ما أدرى ماهذه الصلاة كانت: فالله أعلم، وما خادع محمدا إنسان قط».

يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها في قوله ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه. وقيل هي براءة، لأنّ فيها الأمر بالإيمان والجهاد ﴿أن آمنوا﴾ هي أن المفسرة ﴿أولو الطول﴾ ذوو الفضل والسعة، من طال عليه طولا ﴿مع القاعدين﴾ مع الذين لهم علة وعذر في التخلف ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك ﴿لكن الرسول﴾ أي إن تخلف هؤلاء فقد نهد [1] إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً، كقوله (إن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً). (فإن استكبروا فالذين عند ربك). ﴿الخيرات﴾ تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ. وقيل: الحور، لقوله (فيهن خيرات).

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

﴿المعذرون﴾ من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد: وحقيقته أنه يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له: أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لإتباع الميم. ولكن لم تثبت بهما قراءة، وهم الذين يعتذرون بالباطل، كقوله: يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم وقرئ. المعذرون، بالتخفيف: وهو الذي يجتهد في العذر ويحتشد فيه. قيل: هم أسد وغطفان. قالوا: إن لنا عيالا: وإن بنا جهدا فائذن لنا في التخلف. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا، فقال صلى الله عليه وسلم: سيغنيني الله عنكم. وعن مجاهد. نفر من غفار، اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى: وعن قتادة: اعتذروا بالكذب: وقرئ: المعّذّرون بتشديد العين والذال، من تعذر بمعنى اعتذر، وهذا غير صحيح: لأنّ التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد. في المطوعين، وأزكى وأصدق. وقيل: أريد المعتذرون بالصحة، وبه فسر المعذرون والمعذرون، على قراءة ابن عباس رضى الله عنه الذين لم يفرطوا في العذر ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ هم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان. وقرأ أبيّ: كذّبوا، بالتشديد ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ من الأعراب ﴿عذاب أليم﴾ في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار

(١) قوله «فقد نهد» أي نهض، كما في الصحاح. (ع)

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢)

﴿الضعفاء﴾ الهرمى والزمنى. والذين لا يجدون: الفقراء. وقيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة. والنصح لله ورسوله: الإيمان بهما، وطاعتهما في السر والعلن، وتوليهما، والحب والبغض فيهما كما يفعل الموالى الناصح بصاحبه ﴿على المحسنين﴾ على المعذورين الناصحين، ومعنى: لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم. ولا طريق للعاتب عليهم ﴿قلت لا أجد﴾ حال من الكاف في (أتوك) وقد قبله مضمرة، كما قيل في قوله (أو جاؤكم حصرت صدورهم) أي إذا ما أتوك قائلا لا أجد ﴿تولوا﴾ ولقد حصر الله المعذورين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة، والذين عدموا آلة الخروج، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها. وقيل «المستحملون» أبو موسى الأشعرى وأصحابه. وقيل البكاؤن، وهم ستة نفر من الأنصار ﴿تفيض من الدمع﴾ كقولك. تفيض دمعاً، وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض. و «من» للبيان كقولك: أفديك من رجل، ومحل الجار والمجرور النصب على التميز ﴿ألا يجدوا﴾ لئلا يجدوا. ومحله نصب على أنه مفعول له، وناصبه المفعول له الذى هو حزناً.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)

فإن قلت: ﴿رضوا﴾ ما موقعه؟ قلت: هو استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ يعنى أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم. فإن قلت: فهل يجوز أن

يكون قوله (قلت لا أجد) استئنافاً مثله، كأنه قيل : إذا ماأتوك لتحملهم تولوا ، فقيل : مالهم تولوا باكين ؟ فقيل : قلت لا أجد ماأحملكم عليه . إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض ﴿قلت﴾ نعم ويحسن ﴿لن نؤمن لكم﴾ علة للنهى عن الاعتذار ؛ لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال [1] وقوله ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ علة لانتفاء تصديقهم لأنّ الله عز وجلّ إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما فى ضمائرهم من الشر والفساد ، لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم ﴿وسيرى الله عملكم﴾ أتنيبون أم تثبتون على كفركم ﴿ثم تردون﴾ إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية ، فيجازيكم على حسب ذلك .

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

﴿لتعرضوا عنهم﴾ فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿إنهم رجس﴾ تعليل لترك معاتبتهم ، يعنى أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم ، إنما يعاتب الأديب ذو البشرة . والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه ، ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار . وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿ومأواهم جهنم﴾ يعنى وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً ، فلا تتكلفوا عتابهم .

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

﴿لترضوا عنهم﴾ أى غرضهم فى الحلف بالله طلب رضاهم لينفعهم ذلك فى دنياهم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها . وقيل إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم . قيل : هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما ، وكانوا ثمانين رجلا منافقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ، لا تجالسوهم ولا تكلموهم . وقيل : جاء عبد الله ابن أبىّ يحلف أن لا يتخلف عنه أبداً .

---

(١) قوله «وجب عليه الاخلال» أى الترك . يقال : أخل الرجل بمركزه ، إذا تركه . (ع)

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٨﴾

﴿الأعراب﴾ أهل البدو ﴿أشدّ كفراً ونفاقاً﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشئهم فى بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة ﴿وأجدر أن لا يعلموا﴾ وأحق بجهل حدود الدن وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم [1] «إن الجفاء والقسوة فى الفدادين» [2] ﴿والله عليم﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر ﴿حكيم﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ومخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿مغرماً﴾ غرامة وخسراناً. والغرامة: ما ينفقه الرجل وليس يلزمه، لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله عزّ وجلّ وابتغاء المثوبة عنده ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ دوائر الزمان: دوله وعقبه [3] لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء معترض، دعى عليهم بنحو ما دعوا به، كقوله عز وجل (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) وقرئ السوء بالضم وهو العذاب، كما قيل له سيئة. والسوء بالفتح، وهو ذم للدائرة، كقولك: رجل سوء، فى نقيض قولك: رجل صدق، لأنّ من دارت عليه ذامّ لها ﴿والله سميع﴾ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿عليم﴾ بما يضمرون. وقيل هم أعراب أسد وغطفان وتميم ﴿قربات﴾ مفعول ثان ليتخذ. والمعنى: أنّ ما ينفقه سبب لحصول القربات

(١) متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى فى أثناء حديث فيه «وإن الجفاء وغلظ القلوب فى الفدادين عند أصول أذناب الابل» كذا للبخارى ولمسلم «إن القسوة وغلظ القلوب».

(٢) قوله «والقسوة فى الفدادين» الفدادين: هم الذين تعلو أصواتهم فى حروثهم ومواشيهم. ورجل فداد: شديد الفديد. وهو الصوت: أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود: «دوائر الزمان: دوله، وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ... الخ» قال أحمد: وفى آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء لحال المدعو عليهم ولقولهم، وذلك أن الذى نسب إليهم تربص الدوائر مطلقاً والذى دعى عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوإ الدوائر لا على الاطلاق، والله الموفق.

عند الله ﴿وصلوات الرسول﴾ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، كقوله «اللهم صل على آل أبي أوفى»[1] وقال تعالى (وصل عليهم) فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قربات وصلوات ﴿ألا إنها﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد، من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف. مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك ﴿سيدخلهم﴾ وما في السين من تحقيق الوعد. وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان[2] إذا خلصت النية من صاحبها. وقرئ (قربة) بضم الراء. وقيل: هم عبدالله وذو البجادين ورهطه.

وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿السابقون الأولون من المهاجرين﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين. وقيل الذين شهدوا بدراً. وعن الشعبي: من بايع بالحديبية وهي بيعة الرضوان ما بين الهجرتين ﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾ أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر. وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن. وقرأ عمر رضي الله عنه: والأنصار بالرفع عطفا على السابقون[3]. وعن عمر أنه كان يرى أنّ قوله (والذين اتبعوهم بإحسان) بغير واو صفة للأنصار، حتى قال له زيد: إنه بالواو، فقال: ائتوني بأبيّ، فقال تصديق ذلك في أول الجمعة (وآخرين منهم) وأوسط الحشر (والذين جاؤا من بعدهم) وآخر الأنفال (والذين آمنوا من بعد). وروى أنه سمع رجلا يقرؤه بالواو، فقال: من أقرأك؟ قال: أبيّ. فدعاه فقال: أقرأنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنك لتبيع القرظ بالبقيع، قال: صدقت، وإن شئت قلت: شهدنا وغبتم، ونصرنا وخذلتم، وآوينا وطردتم[4]. ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا

---

(١) متفق عليه من حديث عبدالله بن أبي أوفى قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل عليه فأتى أبو أوفى بصدقة. فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى».

(٢) قال محمود: «ما أدل هذا الكلام على أن الصدقة من الله بمكان ... الخ» قال أحمد: وللقدرية كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر، وأنه مخلد في النار وإن كان موحداً، وغرض الزمخشري أن يجعل الفسق الذي وسم به المنافق هو الذي يوسم به الموحد، حتى يكون استحقاقهما للخلود واحداً. فاحذره، والله أعلم.

(٣) لم أره هكذا.

(٤) لم أره هكذا، وفي الطبري من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب قال «مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) فأخذ عمر بيده. وقال: من أقرأك هذا؟ قال: أبي بن كعب فقال:

رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، وارتفع السابقون بالابتداء ، وخبره ﴿رضى الله عنهم﴾ ومعناه : رضى عنهم لأعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية وفى مصاحف أهل مكة : تجرى من تحتها ، وهى قراءة ابن كثير ، وفى سائر المصاحف : تحتها ، بغير من .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)

﴿وممن حولكم﴾ يعنى حول بلدتكم وهى المدينة ﴿منافقون﴾ وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿ومن أهل المدينة﴾ عطف على خبر المبتدأ الذى هو ممن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت : ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، على أن ﴿مردوا﴾ صفة موصوف محذوف ، كقوله :

* أَنَا ٱبْنُ جَلَا ... ... * (١)

وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاما مبتدأ أو صفة لمنافقون ، فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ﴿مردوا على النفاق﴾ تمهروا فيه ، من مرن فلان عمله ، ومرد عليه : إذا درب به وضرى ، حتى لان عليه ومهر فيه ، ودل على مرانتهم عليه ومهارتهم فيه بقوله ﴿لا تعلمهم﴾

— لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه . فلما جاء عمر : قال : أنت أقرأت هذا هذه الآية ؟ قال : نعم ، وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لايبلغها أحد بعدنا . فقال أبى : تصديق ذلك فى أول سورة الجمعة وفى سورة الحشر وفى الأنفال ، فذكرها . وروى ابن مردويه من طريق حبيب بن الشهيد عن عمرو ابن عامر عن عمر بن الخطاب ـ فذكر نحوه وفيه : فقال أبى : لقد أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبيع الخبط ، فقال عمر : نعم إذن .

(١) أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى
وما ذا تبتغى الشعراء منى وقد جاوزت حد الأربعين

لسحيم بن وثيل الرياحى ، كان عبداً حبشياً ، فاتهم ببنت مولاه . فقتله . وقيل للمثقب العبدى ، ونسب البيت الأول للعرجى . وجلا : صفة لمحذوف ، أى ابن رجل جلا واتضح أمره بالشجاعة ، فالفعل لازم . أوجلا غمة الحرب وكشف همها ، فهو متعد ، وحذف المنعوت هنا ضرورة ، لأنه لايطرد إلا إذا صلح النعت لمباشرة العامل ، أوكان المنعوت بعض اسم مجرور بمن ، أو فى كما مر ، وإضافة «طلاع» لما بعده لفظية ، فلا تفيده تعريفا . وتوسيط الواو بين النعوت لتوكيد ربطها بالمنعوت . والثنايا : العقبات الصعبة . استعارها لعظائم الأمور على سبيل التصريح ، والطلوع ترشيح «متى أضع» بيضة الحرب على رأسى «تعرفونى» كناية عن نزول الحرب فتثبت شجاعته . وروى «تدرى» بدل «تبتغى» وهو افتعال من الدراية ، أى : ماذا تستعلم الشعراء منى ، والحال أنى جاوزت حد الأربعين سنة ، وكسر نون الجمع لغة . ويجوز أنه جر بالكسر على لغة من يعربه كالحين .

أى يخفون عليك مع فطنتك [١] وشهامتك وصدق فراستك ، لفرط تنوقهم [٢] فى تحامى ما يشكك فى أمرهم ، ثم قال ﴿نحن نعلمهم﴾ أى لا يعلمهم إلا الله ، ولا يطلع على سرهم غيره ، لأنهم يبطنون الكفر فى سويداوات قلوبهم إبطانا ، ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين ، لا تشك معه فى إيمانهم ، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به ، فلهم فيه اليد الطولى ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قيل : هما القتل وعذاب القبر . وقيل الفضيحة وعذاب القبر . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنهم اختلفوا فى هاتين المرتين ، فقال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] خطيبا يوم الجمعة فقال : «اخرج يافلان فإنك منافق ، اخرج يافلان فإنك منافق [٤]» . فأخرج ناسا وفضحهم ، فهذا العذاب الأول ، والثانى عذاب القبر . وعن الحسن : أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم ﴿إلى عذاب عظيم﴾ إلى عذاب النار .

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ أى لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا متذممين نادمين ، وكانوا ثلاثة . أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام [٥] . وقيل : كانوا عشرة ، فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم : بلغهم ما نزل فى المتخلفين فأيقنوا بالهلاك ، فأوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل المسجد فصلى ركعتين ـ وكانت عادته صلى الله عليه وسلم كلما قدم من سفر ـ فرآهم موثقين ، فسأل عنهم ، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلهم ، فقال : وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم ، فنزلت ،

---

(١) قال محمود : «ومعناه أنه مع شهامتك وفطنتك وصدق فراستك يخفون حالهم عليك ... الخ» قال أحمد : وكأن قوله تعالى (مردوا على النفاق) توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام لما لهم من الخبرة فى النفاق والضراوة به والله أعلم .

(٢) قوله «لفرط تنوقهم» أى تأنقهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «فقال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم» ظاهره أن القائل هو ابن عباس . (ع)

(٤) أخرجه الطبرى وابن مردويه والطبرانى فى الأوسط من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس بهذا إلى قوله «وفضحهم» وزاد «ولم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم عمر فاختبأ منهم ، ثم دخل المسجد فقال له رجل : ياعمر أبشر ، فقد فضح الله المنافقين اليوم . فهذا العذاب الأول والعذاب الثانى عذاب القبر» .

(٥) قوله «روى أن الذين اعترفوا بذنوبهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام» لم أجده .

فأطلقهم وعذرهم ، فقالوا : يارسول الله ، هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا ، فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فنزلت : خذ من أموالهم [١] ﴿عملا صالحا﴾ خروجا إلى الجهاد ﴿وآخر سيئا﴾ تخلفا عنه . عن الحسن وعن الكلبي : التوبة والإثم . فإن قلت : قد جعل كل واحد منهما مخلوطا فما المخلوط به [٢] ؟ قلت : كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ؛ لأن المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد : خلطت كل واحد منهما بصاحبه . وفيه ما ليس في قولك : خلطت الماء باللبن ؛ لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به ، وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء . ويجوز أن يكون من قولهم : بعت الشاء شاة ودرهما ، بمعنى شاة بدرهم . فإن قلت : كيف قيل ﴿أن يتوب عليهم﴾ وما ذكرت توبتهم ؟ قلت : إذا ذكر اعترافهم بذنوبهم ، وهو دليل على التوبة ، فقد ذكرت توبتهم .

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿تطهرهم﴾ صفة لصدقة . وقرئ : تطهرهم ، من أطهره بمعنى طهره . وتطهرهم ، بالجزم جوابا للأمر . ولم يقرأ (وتزكيهم) إلا بإثبات الياء . والتاء في (تطهرهم) للخطاب أو لغيبة المؤنث . والتزكية : مبالغة في التطهير وزيادة فيه . أو بمعنى الإنماء والبركة في المال ﴿وصلّ عليهم﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم ، والسنة أن يدعو المصدّق لصاحب الصدقة [٣] إذا أخذها . وعن الشافعي رحمه الله : أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة : أجرك الله فيما أعطيت ، وجعله طهوراً ، وبارك لك فيما أبقيت . وقرئ : إنّ صلاتك ، على التوحيد [٤] ﴿سكن لهم﴾

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية (وآخرون اعترفوا بذنوبهم ـ الآية) كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع النبي صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ـ الحديث» .

(٢) قال محمود : «إن قلت قد جعل كل واحد منهما مخلوطا فما المخلوط به ... الخ» قال أحمد : والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن فالمصرح به في هذا الكلام أن الماء المخلوط واللبن مخلوط به ، والمدلول عليه لزوما لا تصريحا كون الماء مخلوطا به واللبن مخلوطا ، وإذا قلت : خلطت الماء واللبن ، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطا . وأما ما خلط به كل واحد منهما فغير مصرح به ، بل من اللازم أن كل واحد منهما مخلوط به . ويحتمل أن يكون قرينة أو غيره . فقول الزمخشري : «إن قولك خلطت الماء واللبن يفيد ما يفيده مع الباء وزيادة» ليس كذلك ، فالظاهر في الآية ـ والله أعلم ـ أن العدول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل ، كأنه قيل : عملوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط فعبر عنهما معا به ، والله أعلم .

(٣) قوله «يدعو المصدق لصاحب الصدقة» المصدق اسم فاعل : الذي يأخذ الصدقات ، أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله «وقرئ إن صلاتك على التوحيد» بدل قراءة صلواتك على الجمع . (ع)

يسكنون إليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم ﴿والله سميع﴾ يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم ﴿عليم﴾ بما في ضمائرهم، والغم من الندم لما فرط منهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

قرئ ﴿ألم يعلموا﴾ بالياء والتاء، وفيه وجهان، أحدهما: أن يراد المتوب عليهم، يعني: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم ﴿أن الله هو يقبل التوبة﴾ إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو للتخصيص والتأكيد، وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين. وقيل: معنى التخصيص في هو: أن ذلك ليس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردّها، فاقصدوه بها ووجهوها إليه.

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿وقل﴾ لهؤلاء التائبين ﴿اعملوا﴾ فإن عملكم لا يخفى ـ خيراً كان أو شراً ـ على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم. والثاني: أن يراد غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة. فقد روى أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت. فإن قلت: فما معنى قوله ﴿ويأخذ الصدقات﴾ قلت: هو مجاز عن قبوله لها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل[1] والمعنى: أنه يتقبلها ويضاعف عليها. وقوله ﴿فسيرى الله﴾ وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

قرئ مرجون ومرجؤن من أرجيته. وأرجأته: إذا أخرته. ومنه المرجئة، يعني: وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم ﴿إما يعذبهم﴾ إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا ﴿وإما

(١) أخرجه عبد الرزاق والطبراني من طريق عبد الله بن قتادة المحاربي عنه. وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً «ما تصدق أحد بصدقة من طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه ... الحديث».

يتوب عليهم﴾ إن تابوا ، وهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شدّ أنفسهم على السوارى وإظهار الجزع والغم ، فلما علموا أنّ أحداً لا ينظر إليهم فوّضوا أمرهم إلى الله تعالى ، وأخلصوا نياتهم ، ونصحت توبتهم ، فرحمهم الله [١] ﴿والله عليم حكيم﴾ وفى قراءة عبد الله : غفور رحيم . وإمّا للعباد : أى خافوا عليهم [٢] العذاب ، وارجوا لهم الرحمة .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

فى مصاحف أهل المدينة والشام : الذين اتخذوا بغير واو ، لأنها قصة على حيالها . وفى سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذى أحدثه المنافقون على سائر قصصهم . روى أنّ بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم ، فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف [٣] وقالوا : نبنى مسجداً ونرسل إلى

---

(١) لم أجده بهذا السياق . والقصة فى الصحيحين من حديث كعب بن مالك : وهو حديث ابن عباس الذى قبله باختصار .

(٢) قوله «وإما للعباد أى خافوا عليهم» عبارة النسفى : وإما للشك وهو راجع إلى العباد . (ع)

(٣) لم أجده بهذا السياق إلا فى الثعلبي بلا إسناد ، وليس صدره بصحيح فان مسجد قباء كان قد أسس والنبى صلى الله عليه وسلم بقباء أول ما هاجر ، وبنى مسجد الضرار وكان فى غزوة تبوك فبينهما تسع سنين لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفى عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء خرج رجال منهم عرج جدعبدالله بن حنيف ، ووديعة ابن حزام ، ومشجع بن حارثة ، فبنو مسجدا ـ الحديث » من قوله «فبنوا مسجدا إلى مسجد قباء إلى آخره» ذكره ابن إسحاق فى المغازى والطبرى من طريقه عن الزهرى ويزيد بن رومان وغيرهما قالوا : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذى أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار . وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه وهو متجهز لغزوة تبوك ـ الحديث» ولم يذكر فى الذين أرسلوا إلى هدمه سوى مالك بن الدخشم ، ومعن بن عدى لم يذكر وحشيا قاتل حمزة وعامر بن السكن ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق قال : ذكر الزهرى عن ابن أكيمة الليثى عن ابن أخى رهم أنه سمع أبا رهم الغفارى فذكر نحوه . وأما كونهم بنوه بسبب أبى عامر ، فرواه ابن مردويه من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ، ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ، ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم ، وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين . أن استعدّوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة ، فبنوا مسجداً بجنب مسجد قباء ، وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى على جناح سفر وحال شغل . وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه ، فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد ، فنزلت عليه ، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشى قاتل حمزة ، فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه ، ففعلوا ، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين ﴿ضراراً﴾ مضارّة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة ﴿وكفراً﴾ وتقوية للنفاق ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين فى مسجد قباء فيغتص [1] بهم ، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم ﴿وإرصاداً﴾ وإعداداً ﴿لـ﴾ أجل ﴿من حارب الله ورسوله﴾ وهو الراهب : أعدوه له ليصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب ، فهو لاحق بمسجد الضرار . وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة فى مسجد بنى عامر ؛ فقيل له : مسجد بنى فلان لم يصلوا فيه بعد ، فقال : لا أحب أن أصلى فيه ، فإنه بنى على ضرار ، وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء أو سمعة فإنّ أصله ينتهى إلى المسجد الذى بنى ضراراً . وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضى الله عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا فى مدينة مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه . فإن قلت : ﴿والذين اتخذوا﴾ ما محله من الإعراب ؟ قلت : محله النصب على الاختصاص . كقوله (المقيمين الصلاة) وقيل : هو مبتدأ خبره محذوف ، معناه : وفيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله (والسارق والسارقة) ، فإن قلت : بم يتصل قوله ﴿من قبل﴾ ؟ قلت . باتخذوا ، أى اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف ﴿إن أردنا﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿إلا﴾ الخصلة ﴿الحسنى﴾ أو الإرادة الحسنى ، وهى الصلاة . وذكر الله والتوسعة على المصلين

(١) قوله «فيغتص» أى يمتلىء اهـ . (ع)

﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ قيل هو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء ، وهي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وخرج يوم الجمعة ، وهو أولى ، لأنّ الموازنة بين مسجدى قباء أوقع . وقيل : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : وعن أبي سعيد الخدرى : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى ، فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال : هو مسجدكم هذا مسجد[1] المدينة ﴿من أول يوم﴾ من أول يوم من أيام وجوده ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكت القوم . ثم أعادها : فقال عمر : يارسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم . فقال صلى الله عليه وسلم : أترضون بالقضاء ؟ قالوا : نعم . قال : أتصبرون على البلاء ؟ قالوا : نعم . قال : أتشكرون في الرخاء ؟ قالوا : نعم . قال : صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة . فجلس ثم قال : يامعشر الأنصار ، إن الله عزّ وجلّ قد أثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط ، فقالوا يارسول الله ، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ، ثم نتبع الأحجار الماء . فتلا النبي صلى الله عليه وسلم (رجال يحبون أن يتطهروا)[2] وقرئ : أن يطهروا ، بالإدغام . وقيل : هو عام في التطهر من النجاسات كلها . وقيل : كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ، ويتبعون الماء أثر البول . وعن الحسن : هو التطهر من الذنوب بالتوبة . وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم ، فحموا عن آخرهم . فإن قلت : مامعنى المحبتين ؟ قلت : محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء المشتهى له على إيثاره . ومحبة الله تعالى إياهم : أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم ، كما يفعل المحب بمحبوبه .

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قرئ أسس بنيانه ، وأُسس بنيانه ، على البناء للفاعل والمفعول . وأسس بنيانه ، جمع أساس .

(١) رواه مسلم بلفظه .

(٢) لم أجده هكذا : وكأنه ملفق من حديثين : ذكر المخرج أولهما ابن الطبراني في الأوسط قال : حدثنا الهيثم ابن خلف الدورى بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر . ومعه أناس ، فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا ، ثلاث مرات ، فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله ، نؤمن بما أتيتنا به ونحمد الله في الرخاء ، ونصبر في البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال مؤمنون ورب الكعبة» انتهى ، وهذا فيه من المخالفة بين السياقين مالايخفى ، وأما الثاني ، فروى ابن مردويه من طريق ابن عباس نحوه

على الإضافة ، وأساس بنيانه ، بالفتح والكسر : جمع أس ؛ وآساس بنيانه على أفعال ، جمع أس أيضا . وأس بنيانه . والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه [١] على قاعدة قوية محكمة وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه ﴿ خير أم من ﴾ أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل ﴿شفا جرف هار﴾ فى قلة الثبات والاستمساك . وضع شفا الجرف فى مقابلة التقوى ؛ لأنه جعل مجازا عما ينافى التقوى . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿فانهار به فى نار جهنم﴾ ؟ قلت : لما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل قيل : فانهار به فى نار جهنم ، على معنى : فطاح به الباطل فى نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذى هو للجرف ، وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنيانا على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى فى قعرها . والشفا : الحرف والشفير . وجرف الوادى : جانبه الذى يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا . والهار : الهائر وهو المتصدع الذى أشفى على التهدم والسقوط . ووزنه فعل ، قصر عن فاعل ، كخلف من خالف . ونظيره : شاك وصات ، فى شائك وصائت . وألفه ليست بألف فاعل ، إنما هى عينه . وأصله هور وشوك وصوت . ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره . وقرئ : جرف . بسكون الراء . فإن قلت : فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر : على تقوًى من الله ، بالتنوين ؟ قلت : قد جعل الألف للإلحاق لا للتأنيث ، كتترى فيمن نوّن . ألحقها بجعفر . وفى مصحف أبىّ : فانهارت به قواعده . وقيل : حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤى الدخان يخرج منه . وروى أن مجمع بن حارثة كان إمامهم فى مسجد الضرار ، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب فى خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمّهم فى مسجدهم . فقال : لا ، ولا نعمة عين ، أليس بإمام مسجد الضرار ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، لا تعجل علىّ ، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أنى لا أعلم ما أضمروا فيه ، ولو علمت ما صليت معهم فيه ، كنت غلاما قارئاً للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرؤن من القرآن شيئا . فعذره وصدّقه وأمره بالصلاة بقومه .

لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

﴿ريبة﴾ شكا فى الدين ونفاقا ، وكان القوم منافقين . وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم كما قال عزّ وجلّ (ضراراً وكفرا) فلما هدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ازدادوا

(١) قوله «فمن أسس بنيان دينه» هذا كما فى الحديث «بنى الاسلام على خمس» . (ع)

ـ لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم ـ تصميما على النفاق ومقتاً للإسلام ، فمعنى قوله ﴿لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم﴾ لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحل أثره ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ قطعاً وتفرق أجزاء ، فحينئذ يسلون عنه . وأمّا ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع [1] تصويراً لحال زوال الريبة عنها . ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو فى القبور أو فى النار . وقرئ : يقطع ، بالياء . وتقطع ، بالتخفيف . وتقطع ، بفتح التاء بمعنى تتقطع . وتقطع قلوبهم ، على أن الخطاب للرسول أى إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم . وقرأ الحسن : إلى أن . وفى قراءة عبد الله : ولو قطعت قلوبهم . وعن طلحة : ولو قطعت قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب . وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفاً على تفريطهم .

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيله بالشروى [2] . وروى : تاجرهم فأغلى لهم الثمن . وعن عمر رضى الله عنه فجعل لهم الصفقتين جميعاً . وعن الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها . وروى أن الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت [3] . قال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم . قال : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل . ومرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابىّ وهو يقرؤها فقال : كلام من ؟ قال كلام الله . قال : بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو فاستشهد [4] ﴿يقاتلون﴾ فيه معنى الأمر ، كقوله (تجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم)

---

(١) قوله «فيجوز أن يكون ذكر التقطيع» على قراءة (تقطع) بالتشديد ، مبنيا للمفعول . (ع)

(٢) قوله «فى سبيله بالشروى» كالجدوى . فى الصحاح والوشاح هى المثل . والظن أنها هنا اسم للاشتراء . (ع)

(٣) أخرجه الطبرى من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى وغيره ، قال : لما بايعت الأنصار ليلة العقبة ـ فذكره

(٤) ذكره الثعلبى هكذا بلا سند عن البصرى مرسلا لكن سنده إلى الحسن البصرى أول كتابه . قلت : أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق أبى شيبة عن عطاء الخراسانى عن جابر «نزلت هذه الآية على رسول الله ـــ

وقرئ : فيقتلون ويقتلون على بناء الأوّل للفاعل والثانى للمفعول ، وعلى العكس ﴿وعدا﴾ مصدر مؤكد . أخبر بأن هـذا الوعد الذى وعده للمجاهدين فى سبيله وعد ثابت قد أثبته ﴿فى التوراة والإنجيل﴾ كما أثبته فى القرآن ، ثم قال ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ لأنّ إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم ، فكيف بالغنى الذى لا يجوز عليه القبيح قط ، ولا ترى ترغيباً فى الجهاد أحسن منه وأبلغ .

التَّـٰئِبُونَ الْعَـٰبِدُونَ الْحَـٰمِدُونَ السَّـٰئِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّـٰجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

﴿التائبون﴾ رفع على المدح . أى : هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين . ويدل عليه قراءة عبدالله وأبى رضى الله عنهما : التائبين ،بالياء إلى : والحافظين ، نصباً على المدح . ويجوز أن يكون جراً صفة للمؤمنين . وجوّز الزجاج أن يكون مبتدأ خبره محذوف ، أى : التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا ، كقوله (وكلا وعد الله الحسنى) وقيل : هو رفع على البدل من الضمير فى يقاتلون . ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره العابدون ، وما بعده خبر بعد خبر ، أى : التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال . وعن الحسن : هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق . و﴿العابدون﴾ الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها . و﴿السائحون﴾ الصائمون شبهوا بذوى السياحة فى الأرض فى امتناعهم من شهواتهم . وقيل : هم طلبة العلم يسيحون فى الأرض يطلبونه فى مظانه .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ (١١٣)

قيل قال صلى الله عليه وسلم لعمه أبى طالب : أنت أعظم الناس علىّ حقاً ، وأحسنهم عندى

ـــ صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد (إن الله اشترى) فكبر الناس فى المسجد . فأقبل رجل من الأنصار . فقال : أنزلت هذه الآية ؟ فقال : نعم . فقال بيع رابح . لانقيل ولانستقيل » وأخرجه عبد بن حميد : حدثنا إبراهيم هو ابن عبد الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة « لما نزلت هذه الآية (إن الله اشترى ...) قال رجل من الأنصار يالها بيعة ، ما أربحها . والله لانقيل ولانستقيل » وأخرجه الطبرى من طريق محمد بن كعب وغيره قالوا : قال عبد الله ابن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « اشترط لربك ولنفسك ماشئت قال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال الجنة قالوا : ربح البيع ، لانقيل ولا نستقيل » .

يداً ، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتى ، فأبى ، فقال : لا أزال أستغفر لك مالم أنه عنه [١] ، فنزلت . وقيل : لما افتتح مكة سأل أى أبويه أحدث به عهداً ؟ فقيل : أمك آمنة ، فزار قبرها بالأبواء ، ثم قام مستعبراً فقال : إنى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى ، فنزلت . وهذا أصح لأنّ موت أبى طالب كان قبل الهجرة ، وهذا آخر ما نزل بالمدينة . وقيل : استغفر لأبيه . وقيل : قال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا وذوى قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه ، وهذا محمد يستغفر لعمه ﴿ما كان للنبى﴾ ما صح له الاستغفار فى حكم الله وحكمته ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ لأنهم ماتوا على الشرك .

وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

قرأ طلحة وما استغفر ابراهيم لأبيه . وعنه : وما يستغفر إبراهيم ، على حكاية الحال الماضية ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ أى وعدها إبراهيم أباه ، وهو قوله (لأستغفرن لك) ويدل عليه قراءة الحسن وحماد الراوية : وعدها أباه . فإن قلت كيف خفى على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده ؟ قلت : يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له ، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحى ، لأن العقل يجوّز أن يغفر الله للكافر . ألا ترى إلى قوله عليه السلام لعمه : لأستغفرنّ لك مالم أنه . وعن الحسن قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلاناً يستغفر لآبائه المشركين ، فقال : ونحن نستغفر لهم فنزلت [٢] وعن على رضى الله عنه : رأيت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت له ، فقال : أليس قد استغفر إبراهيم [٣] فإن قلت : فما معنى قوله ﴿فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرّأ منه﴾ ؟ قلت : معناه : فلما تبين له من جهة الوحى أنه لن يؤمن وأنه يموت كافراً وانقطع رجاؤه عنه ، قطع استغفاره فهو كقوله (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) . ﴿أواه﴾ فعال ، من أوه كلآل من اللؤلؤ ، وهو الذى يكثر التأوه . ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له ، مع شكاسته عليه [٤] وقوله لأرجمنك .

---

(١) متفق عليه من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه فى حديث ، وغفل الحاكم فاستدركه .

(٢) لم أجده .

(٣) أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة وأبويعلى والبزار من طريق أبى الخليل عن على قال «سمعت رجلا يستغفر لأبويه ـ الحديث» .

(٤) قوله «مع شكاسته عليه» أى صعوبته . وفى الصحاح : رجل شكس ـ بالتسكين ـ أى صعب الخلق . (ع)

وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)

يعني ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ضلالا، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب. وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم. وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه. وفى هذه الآية شديدة ماينبغى أن يغفل عنها: وهى أن المهدىّ للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل فى حكم الإضلال. والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهى. فأما ما يعلم بالعقل[1] كالصدق[2] فى الخبر، وردّ الوديعة فغير موقوف على التوقيف.

لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)

﴿تاب الله على النبي﴾ كقوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وقوله (واستغفر لذنبك) وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح. وقيل: معناه تاب الله عليه من إذنه للمنافقين فى التخلف عنه، كقوله (عفا الله عنك). ﴿فى ساعة العسرة﴾ فى وقتها، والساعة مستعملة فى معنى الزمان المطلق، كما استعملت الغداة والعشية واليوم:

---

(١) قال محمود: «فأما مايدرك حظره بالعقل ... الخ» قال أحمد: هذا تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح، وأن العقل حاكم، والشرع كاشف لما غمض عليه، تابع لمقتضاه. وهذه القاعدة قد سبق بطلانها فى غير ماموضع، والله الموفق.

(٢) قوله «فأما مايعلم بالعقل كالصدق» مبنى على مذهب المعتزلة أن الحكم قد يعلم بالعقل وعند أهل السنة لاحكم قبل الشرع. (ع)

* غَدَاةَ طَفَتْ عَلْمَاءِ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ * (١)

وَكُنَّا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً عَشِيَّةَ قَارَعْنَا جُذَامَ وَحِمْيَرَا (٢)

إِذَا جَاءَ يَوْمًا وَارِثِي يَبْتَغِي الْغِنَى يَجِدْ جُمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلْأَى وَلَا صِفْرٍ (٣)

---

(١) غداة طفت علماء بكر بن وائل وعاجت صدور الخيل شطر تميم

المراد بالغداة مطلق الزمن ليناسب المدح . طفت ـ بالفاء ـ علت وارتفعت . ويروى بالغين ، والمراد : العلو أيضاً . وعلماء : أصله على الماء ، والمراد : ارتفع قدرهم فى العز والمجد وانخفض غيرهم ، كما يرتفع الشيء على وجه الماء ويرسب الآخر . أوالمعنى : أنهم طغوا بالغين على أطغى شيء كالماء ، فالماء طاغ على الناس وهم طاغون عليه . وفيه دلالة على الشجاعة . وبكر بن وائل : اسم أبى قبيلة سميت هي باسمه . والوائل : أصله السابق الملتجئ . وعاجت : أى أمالت صدور خيلها . وإيقاع الموج على الصدور ، لأن السير والتحول من جهة إلى أخرى يظهران بها . وشطر : أى جهة قبيلة تميم .

(٢) وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية قارعنا جذام وحميرا

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

لزفر بن الحرث الكلابى من التابعين شهد وقعة صفين وغيرها . ويقال فى المثل : ما كل بيضاء شحمة ، ولا كل سوداء تمرة فما هنا تلميح له . والمراد بالعشية : مطلق الزمن لا آخر النهار فقط ، لدلالة المقام على ذلك . والمقارعة : المضاربة بالرماح والسيوف . ويروى : ليالى لاقينا . وجذام : اسم قبيلة سميت به ، وهى من اليمن كانت تنزل جبال حسمى ، يقال : هى أول ما انحسر عنه الطوفان لارتفاعها ، وحمير : أبو قبيلة أيضا سميت باسمه . ويروى : جذاما ، بالتنوين للضرورة . والنبع : شجر تتخذ منه الرماح . يقول : كنا ظننا أنهم ضعفاء نظفر بهم كغيرهم ، فقوله «كل بيضاء شحمة» استعارة تمثيلية لذلك . وعشية : نصب بحسبنا ، فلما التقت الرماح بيننا أبت أن تتكسر . وشبهها بما يصح منه الاباء على طريق الكناية . وأبت تخييل ، وبعد ذلك فهو كناية عن قوة القبيلتين وعدم انخذالها . وقيل : إنه يصفهما بالكرم وحسن القرى . فيكون الكلام كله بما فيه من المجاز والكناية ، منقول من هيئة التقاء الصفوف فى الحرب إلى هيئة التقاء الضيفان مع المضياف وعدم عجزه عن قراهم على طريق التمثيل ، لكن العشية على حقيقتها . ومع توجيهنا له بذلك ، يبعده قوله «حسبنا كل بيضاء شحمة» وهو قول من لم يقف على بقية القصيدة ، فانها مصرحة بأن المعنى محاربتهم إياهم ومكافأتهم لهم .

(٣) إذا جاء يوما وارثى يبتغى الغنا يجد جمع كف غير ملآى ولا صفر

يجد فرسا مثل العنان وصارما حساما إذا ماهز لم يرض بالهبر

وأسمر خطيا كأن كعوبه نوى القسب قد أربى ذراعا على العشر

لحاتم الطائى . والمراد باليوم : مطلق الزمن ، بخلاف النهار فانه خاص بالمحدود الطرفين . وهكذا غالب استعمال العرب . والمراد بالغنى : التركة ، لأنها سببه . وجمع الكف ـ بالضم ـ : الكف المقبوضة ، فهو من إضافة الصفة للموصوف . والملآى : الممتلئة . وصفر الرجل ـ بالكسر ـ وأصفر فهو مصفر : افتقر . والصفر ـ بالضم ، وقيل بالكسر ـ : الخالى . والصارم : السيف القاطع . وحسم الشيء : قطعه بالحسام الشديد القطع . ويطلق على الحديد الحد . والهبر : قطع بضعة كثيرة من اللحم . والسمرة : لون بين البياض والأدمة . والخط : موضع تنسب له الرماح الجيدة . والكعب : مابين العقدتين . والقسب : نوع من التمر صلب النوى . وربا الشيء وأربى : زاد ، وقد تقلب

والعسرة : حالهم فى غزوة تبوك كانوا فى عسرة من الظهر : يعتقب العشرة على بعير واحد. وفى عسرة من الزاد : تزودوا التمر المدود والشعير المسوّس والإهالة الزنخة[1]، وبلغت بهم الشدّة أن اقتسم التمرة اثنان، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء. وفى عسرة من الماء، حتى نحروا الإبل واعتصروا فرثها. وفى شدّة زمان، من حمارّة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة ﴿كاد تزيغ قلوب فريق منهم﴾ عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول فى تلك الغزوة والخروج معه. وفى «كاد» ضمير الشأن، وشبهه سيبويه بقولهم : ليس خلق الله مثله. وقرئ : يزيغ، بالياء. وفى قراءة عبد الله : من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم، يريد المتخلفين من المؤمنين كأبى لبابة وأمثاله ﴿ثم تاب عليهم﴾ تكرير للتوكيد. ويجوز أن يكون الضمير للفريق : تاب عليهم لكيدودتهم.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

﴿الثلاثة﴾ كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. ومعنى ﴿خلفوا﴾ خلفوا عن الغزو. وقيل : عن أبى لبابة وأصحابه حيث تيب عليهم بعدهم. وقرئ (خلفوا) أى خلفوا الغازين بالمدينة، أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم[2]. وقرأ جعفر الصادق رضى الله عنه : خالفوا. وقرأ الأعمش : وعلى الثلاثة المخلفين ﴿بما رحبت﴾ برحبها، أى : مع سعتها، وهو مثل للحيرة فى أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعا مما هم فيه ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أى قلوبهم، لا يسعها أنس ولا سرور : لأنها حرجت من فرط الوحشة والغمّ

═ باؤه ميا، كما روى : قد أرمى. وذراعا : تمييز، أى زاد ذراعا على العشر الأذرع، فيكون مقداره أحد عشر ذراعا، والجملة وصف لأسمر. ويحتمل أنها حال من النوى، أى : زاد النوى حال كونه مقدار ذراع على العشر من النوى، فذراعا حال فى ضمن الحال وإذا أشبهت كعوبه النوى فى هذه الحالة، فكل ذراع منه يزيد على عشرة كعوب. ويجوز أن ذراعا تمييز محول عن الفاعل، أى : زاد كل ذراع من هذا الأسمر على عشرة كعوب. يقول : إذا طلب وارثى تركتى يجد أشياء حقيقة بأن يقبض عليها بالكف حرصا عليها. فقوله «جمع كف» كناية عن ذلك غير ممتلئة عند من يحب المال، وغير خالية عند ملاقى الأبطال، ويجد الثانى بدل من الأول. وشبه فرسه بالعنان فى الضمور والمكانة إذا هز أى حرك، كناية عن الضرب به، وشبهه بمن يصح منه الرضا على طريق الكناية ولم يرض تخييل : أى يجد فرسا ضامراً وسيفا قاطعا ورمحا طويلا أوصلبا. وجزم المضارع فى جواب إذا وهو قليل.

(١) قوله «والإهالة الزنخة» أى الدهن المنتن. وحمارّة القيظ بتشديد الراء شدة حره اه من الصحاح. (ع)

(٢) قوله «أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم» الخالفة : الذى لا خير فيه. وخلوف الفم : تغيره : اه من الصحاح. (ع)

﴿ وظنوا ﴾ وعلموا ﴿ أن لا ملجأ من ﴾ سخط ﴿ الله إلا ﴾ إلى استغفاره ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرّة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا، وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة، علماً منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. روى أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به. عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال: يا حائطاه، ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمرك، اذهب فأنت في سبيل الله. ولم يكن لآخر إلا أهله فقال: يا أهلاه ما بطأني ولا خلفني إلا الضن بك لا جرم، والله لأكابدنّ المفاوز حتى ألحق برسول الله، فركب ولحق به. ولم يكن لآخر إلا نفسه لا أهل ولا مال، فقال يا نفس ما خلفني إلا حب الحياة لك والله لأكابدنّ الشدائد حتى ألحق برسول الله، فتأبط زاده ولحق به. قال الحسن: كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها. وعن أبي ذرّ الغفاري: أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى سواده: كن أبا ذرّ، فقال الناس: هو ذاك، فقال: «رحم الله أبا ذرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[1] وعن أبي خيثمة[2] أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء، فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح[3]: ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالريح، فمدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يزهاه السراب فقال: كن أبا خيثمة فكانه. ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له. ومنهم من بقي لم يلحق به، منهم الثلاثة قال كعب:

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي في الدلائل، قال: حدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن مسعود قال «لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جعل لا يزال الرجل يتخلف ـ فذكره مطولا»

(٢) أخرجه ابن سعد بهذا بغير سند. وذكره الواقدي في المغازي حدثنا محمد بن رفاعة بن ثعلبة بن أبي مالك عن أبيه عن جده قال سألت زيد بن ثابت عن غزوة تبوك. فذكر القصة الطويلة وفيه وكان أبو خيثمة ويسمى عبد الله ابن خيثمة ـ السالمي رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام، حتى دخل على امرأتين له في يوم حار ـ فذكره وأخرجه ابن اسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي من طريقه قال حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم «أن أبا خيثمة سالم ـ فذكره. وله طريق أخرى عند الطبراني من طريق إبراهيم بن سعد بن خيثمة حدثنا أبي عن أبيه قال: تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، حتى مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت حائطا ـ فذكر الحديث نحوه» وفي الصحيحين في حديث كعب بن مالك الطويل «فلما بلغ تبوك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما فعل كعب بن مالك فذكر الحديث وفيه: فبينما هم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كن أبا خيثمة فاذا هو أبو خيثمة.

(٣) قوله «في الضح والريح» الضح الشمس. ويزهاه السراب: يرفعه اهـ من الصحاح. (ع)

لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد علىّ كالمغضب بعد ما ذكرنى وقال: ليت شعرى ما خلف كعباً؟ فقيل له: ما خلفه إلا حسن برديه والنظر فى عطفيه. فقال: معاذ الله ما أعلم إلا فضلا وإسلاماً [1] ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة، فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع [2]: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً وكنت كما وصفنى ربى (وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) وتتابعت البشارة، فلبست ثوبى وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمين، فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وقال: لتهنك توبة الله عليك، فلن أنساها لطلحة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر: «أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك» ثم تلا علينا الآية. وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال: ان تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّـٰدِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْـلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْـكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَـلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

﴿مع الصادقين﴾ وقرئ: من الصادقين وهم الذين صدقوا فى دين الله نية وقولا وعملا، أو الذين صدقوا فى إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وقيل: هم الثلاثة، أى كونوا مثل هؤلاء فى صدقهم وثباتهم. وعن ابن عباس

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن كعب بن مالك عن كعب بن مالك مطولا، وقال فيه فقال رجل من بنى سلمة حبسه برداه فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت ـ الحديث، قال المخرج: الوهم فيه من المصنف. وأخرجه أحمد وفيه: فقال رجل من قومى يا رسول الله خلفه برداه والنظر فى عطفيه، وأفاد الواقدى فى المغازى: أن الذى قال ذلك عبد الله بن قيس.

(٢) قوله «من ذروة سلع» سلع هو جبل بالمدينة، اه من الصحاح. (ع)

رضى الله عنه : الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب . أى كونوا مع المهاجرين والأنصار ، ووافقوهم وانتظموا فى جملتهم ، واصدقوا مثل صدقهم . وقيل لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك . وعن ابن مسعود رضى الله عنه [١] : ولا يصلح الكذب فى جدّ ولا هزل ، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجزه . اقرءوا إن شئتم : وكونوا مع الصادقين . فهل فيها من رخصة؟ ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علما بأنها أعزّ نفس عند الله وأكرمها عليه . فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض فى شدّة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت [٢] فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيموا لها وزنا ، وتكون أخف شىء عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربئوا [٣] بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهى بليغ ، مع تقبيح لأمرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله : ما كان لهم أن يتخلفوا ، من وجوب مشايعته ، كأنه قيل ذلك الوجوب ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم لا يصيبهم﴾ شىء من عطش ، ولا تعب ، ولا مجاعة فى طريق الجهاد ، ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم ، ولا يتصرفون فى أرضهم تصرفا يغيظهم ويضيق صدورهم ﴿ولا ينالون من عدو نيلا﴾ ولا يرزءونهم شيئا بقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند الله . وذلك مما يوجب المشايعة . ويجوز أن يراد بالوطء الإيقاع والإبادة ، لا الوطء بالأقدام والحوافر ، كقوله عليه السلام [٤] : «آخر وطأة وطئها الله بوج [٥]» ، والموطئ إمّا مصدر كالمورد ، وإمّا مكان . فإن كان مكانا فمعنى يغيظ الكفار : يغيظهم وطؤه . والنيل أيضاً يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً ، وأن يكون بمعنى المنيل . ويقال : نال منه إذا رزأه ونقصه . وهو عام فى كل ما يسوؤهم وينكبهم ويلحق بهم ضرراً . وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام وقعود

(١) أخرجه الثعلبي من رواية وهب بن جرير عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن أبيه ، موقوفا وكذا أخرجه إسحاق فى مسنده عن وهب ورواه البيهقى فى الشعب مختصراً . ورواه الحاكم مرفوعا من رواية أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود رفعه «لا يصلح الكذب فى جد ولا هزل ، ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجزه» .

(٢) قوله «تتهافت» أى تتساقط . (ع)

(٣) قوله «يربئوا» أى يرتفعوا . اه من الصحاح . (ع)

(٤) أخرجه أحمد وابن سعد والطبرانى والبيهقى فى الأسماء من حديث يعلى بن مرة الثقفى فى أثناء حديث وأخرجه إسحاق والبيهقى أيضاً والطبرانى من رواية عمر بن عبد العزيز قال : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم .

(٥) قوله «بوج» هى بلد بالطائف اه صحاح . (ع)

ومشى وكلام وغير ذلك، وكذلك الشر. وبهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أنّ المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش فى الغنيمة، لأنّ وطء ديارهم مما يغيظهم وينكى فيهم، ولقد أسهم النبى صلى الله عليه وسلم لابنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب [1]، وأمدّ أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه المهاجر بن أبي أمية وزياد بن أبي لبيد بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس، فلحقوا بعد ما فتحوا فأسهم لهم [2]. عند الشافعى: لا يشارك المدد الغانمين. وقرأ عبيد ابن عمير: ظماء بالمد. يقال: ظمئ ظماءة وظماء ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة﴾ ولو تمرة ولو علاقة سوط ﴿ولا كبيرة﴾ مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى جيش العسرة ﴿ولا يقطعون واديا﴾ أى أرضاً فى ذهابهم ومجيئهم، والوادى كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل، وهو فى الأصل «فاعل» من ودى إذا سال. ومنه الودى. وقد شاع فى استعمال العرب بمعنى الأرض. يقولون: لا تصلّ فى وادى غيرك ﴿إلا كتب لهم﴾ ذلك من الإنفاق وقطع الوادى: ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله (ليجزيهم) متعلق بكتب أى أثبت فى صحائفهم لأجل الجزاء.

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

اللام لتأكيد النفى. ومعناه أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن [3].

---

(١) لم أره هكذا. وقد عزاه الطيبي لأبي داود والترمذي. وفى الصحيحين عن أبي موسى بلغنا مخرج النبى صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لى. أنا أصغرهم ـ الحديث قال: فأسهم لنا ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خيبر إلا أصحاب سفينتنا».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا عبدالله بن إدريس عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب «أن أبا بكر بعث عكرمة بن أبي جهل مدداً للمهاجر بن أبي أمية، وزياد بن أسد. فانتهوا إلى القوم وقد فتح عليهم. قال: فأشركهم فى الغنيمة» رواه الواقدى فى المغازى: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن عقبة عن الحرث بن فضيل قال: لما جاء كتاب زياد بن لبيد ـ فذكر نحوه.

(٣) قال محمود: «ومعناه أن نفير الكافة لطلب العلم غير ممكن ... الخ». قال أحمد: قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) على التفسير الأول: أمر لا نهى. وعلى الثانى: خبر والمراد به النهى، لأنه فى الأول راجع إلى تنفير أهل البوادى إلى المدينة للتفقه، وهذا لو أمكن الجميع فعله لكان جائزاً أو واجبا، وإن لم يمكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية. وأما فى الثانى فلأن المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين وكان ذلك ممكنا بل واقعا، فنهوا عن إطراح التفقه بالكلية وأمروا به أمر كفاية والله أعلم. قال أحمد: ولا أجد فى تأخرى عن حضور الغزاة عذراً إلا صرف الهمة لتحذير هذا المصنف، فانى تفقهت فى أصل الدين وقواعد العقائد مؤيداً بآيات الكتاب العزيز مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء. وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه بلغنا الله الخير، ووفقنا لما يرضيه، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وفيه أنه لو صح وأمكن ولم يؤد إلى مفسدة لوجب، لوجوب التفقه على الكافة، ولأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ﴿فلولا نفر﴾ فحين لم يمكن نفير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر ﴿من كل فرقة منهم طائفة﴾ أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير ﴿ليتفقهوا فى الدين﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه، ويتجشموا المشاق فى أخذها وتحصيلها ﴿ولينذروا قومهم﴾ وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم فى التفقه: إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ويؤمونها من المقاصد الركيكة، من التصدّر والترؤس والتبسط فى البلاد، والتشبه بالظلمة فى ملابسهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشوّ داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم [1] إذا لمح ببصره مدرسة لآخر، أو شرذمة جثوا بين يديه، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء من قوله عزّ وجل (لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا). ﴿لعلهم يحذرون﴾ إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملا صالحاً. ووجه آخر: وهو أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث بعثا ـ بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل فى المتخلفين من الآيات الشداد ـ استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحى والتفقه فى الدين، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذى هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلاد بالسيف. وقوله (ليتفقهوا) الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم، (ولينذروا قومهم) ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿يلونكم﴾ يقربون منكم، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم [2]، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب. ونظيره (وأنذر عشيرتك الأقربين) وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم غزا الشأم. وقيل: هم قريظة والنضير وفدك

---

(١) قوله «وانقلاب حماليق أحدهم» الحماليق: هى ما يسوده الكحل من باطن الجفن. وقيل: ما غطته الأجفان من بياض المقلة. اهـ من الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «القتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم ... الخ» قال أحمد: يتعين القتال على أحد فريقين: إما من نزل بهم عدو وفيهم قوة عليه، ثم على من قرب منهم حتى يكتفوا. وإما من عينهم الامام لذلك وإن بعدت بهم الدار. وإذا أوجب الله على هذه الأمة القتال وإزعاج العدو من دياره وإخراجه من قراره، فوجوبه وقد نزل العدو بدار الاسلام أجدر.

وخيبر . وقيل : الروم ، لأنهم كانوا يسكنون الشأم والشأم أقرب إلى المدينة من العراق وغيره ، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ، مالم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى . وعن ابن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن قتال الديلم ؟ فقال : عليك بالروم . وقرئ (غلظة) بالحركات الثلاث ، فالغلظة كالشدة ، والغلاظة كالضغطة ، والغلاظة كالسخطة ونحوه (واغلظ عليهم) (ولا تهنوا) وهو يجمع الجرأة والصبر على القتال وشدة العداوة والعنف في القتل والأسر ، ومنه (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) . ﴿مع المتقين﴾ ينصر من اتقاه فلم يترأف على عدوه

وَإِذَا مَاأُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿فمنهم من يقول﴾ فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض ﴿أيكم زادته هذه﴾ السورة ﴿إيمانا﴾ إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به . وأيكم : مرفوع بالابتداء . وقرأ عبيد بن عمير : أيكم ، بالفتح على إضمار فعل يفسره (زادته) تقديره : أيكم زادت زادته هذه إيمانا ﴿فزادتهم إيمانا﴾ لأنها أزيد لليقين والثبات ، وأثلج للصدر . أو فزادتهم عملا ، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان ، لأن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل ﴿فزادتهم رجسا إلى رجسهم﴾ كفراً مضموما إلى كفرهم ، لأنهم كلما جددوا بتجديد الله الوحي كفراً ونفاقا ، ازداد كفرهم واستحكم وتضاعف عقابهم .

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَاأُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

قرئ : ولا يرون ، بالياء والتاء ﴿يفتنون﴾ يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم ، ولا يذكرون ، ولا يعتبرون ، ولا ينظرون في أمرهم ، أو يبتلون في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده . أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقتلهم وينكل بهم ، ثم لا ينزجرون ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحى[1]

(١) قال محمود : «معناه تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحى ... الخ» قال أحمد : يحتمل الدعاء كما فسره . ويحتمل

وسخرية به قائلين ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك ، فنخاف الافتضاح بينهم . أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لواذا يقولون : هل يراكم من أحد . وقيل : معناه : إذا ما أنزلت سورة فى عيب المنافقين ﴿صرف الله قلوبهم﴾ دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما فى قلوب أهل الإيمان من الانشراح ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم ومن نسبكم عربى قرشى مثلكم ، ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أى شديد عليه شاق ـ لكونه بعضاً منكم ـ عنتكم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب ﴿حريص عليكم﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذى جاء به ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رءوف رحيم﴾ . وقرئ : من أنفسكم ، أى من أشرفكم وأفضلكم . وقيل : هى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة وعائشة رضى الله عنهما . وقيل : لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله (رءوف رحيم) . ﴿فإن تولوا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوّض إليه . فهو كافيك معرّتهم [1] ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم . وقرئ (العظيم) بالرفع . وعن ابن عباس رضى الله عنه : العرش لا يقدر أحد قدره . وعن أبىّ ابن كعب : آخر آية نزلت (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما نزل علىّ القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً ، ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد ، فإنهما أنزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة » [2]

= الاخبار بأن الله صرف قلوبهم أى منعها من تلقى الحق بالقبول . ولكن الزمخشرى يفر من جعله خبرا لأن صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده ، بناء على قاعدة الصلاح والأصلح ، ولا يزال يؤول الظاهر إذا اقتضى ذلك كما مر له فى قوله (ختم الله على قلوبهم) فلما احتملت هذه الآية الدعاء والخبر على حد سواء ، تعين عنده جعلها دعاء ، ثم فى هذا الدعاء مناسبة الفعل الصادر منهم وهو الانصراف . كقوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) وكقوله (ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء) .

(١) قوله « فهو كافيك معرتهم » المعرة : الاثم ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى من حديث عائشة باسناد واه .

سـورة يونس

مكية ، [إلا الآيات ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ فمدنية]

وهى مائة وتسع آيات [نزلت بعد الإسراء]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُبِينٌ (٢)

﴿ الر ﴾ تعديد للحروف على طريق التحدى . و ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة . و ﴿ الحكيم ﴾ ذو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها . أو وصف بصفة محدثة . قال الأعشى :

وَغَرِيبَةٍ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةٍ قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا [1]

الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه . و ﴿ أن أوحينا ﴾ اسم كان ، وعجباً : خبرها . وقرأ ابن مسعود : عجب ، فجعله اسما وهو نكرة و (أن أوحينا) خبراً وهو معرفة ، كقوله :

* يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ * [2]

---

(١) للأعشى . أى : ورب قصيدة غريبة حكيمة ناطقة بالحكمة دالة عليها ، أو حكيم قائلها ، فهو من الاسناد للسبب ، لأنها سبب فى وصف قائلها بالحكمة . قد قلتها ليتعجب الناس ويقولوا من هذا الشاعر البليغ الذى قالها . وذا : اسم إشارة فى لغة الحجاز ، واسم موصول فى لغة طيئ ، وهى أقرب هنا ، فجملة «قالها» صلة الموصول .

(٢) كأن سلافة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض من التفاح هصره اجتناء

لحسان بن ثابت قبل تحريم الخمر . والسلافة : أول ما يسيل من ماء العنب . ويروى «سبيئة» أى مشتراة . يقال : سبأ الخمر كنصر ، إذا اشتراها . ويروى خبيئة : أى مصونة فى الخابية . وبيت رأس : قرية بالشام . وقبل : ＝

والأجود أن تكون «كان» تامة ، وأن أوحينا بدلا من عجب . فإن قلت : فما معنى اللام فى قوله (أكان للناس عجباً) ؟ وما هو الفرق بينه وبين قولك : أكان عند الناس عجباً ؟ قلت: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم ، وليس فى عند الناس هذا المعنى ، والذى تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر ، وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم [1] دون عظيم من عظمائهم . فقد كانوا يقولون : العجب أنّ الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب ، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة ، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب ، لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشراً مثلهم . وقال الله تعالى (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً ، لأنّ الله تعالى إنما يختار من استحق الاختيار، لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوّة . والغنى والتقدّم فى الدنيا ليس من تلك الأسباب فى شيء (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى، فكيف يكون عجباً ؟ إنما العجب العجيب والمنكر فى العقول تعطيل الجزاء ﴿ أن أنذر الناس ﴾ أن هى المفسرة ، لأنّ الإيحاء فيه معنى القول . ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه أنذر الناس ، على معنى : أن الشأن قولنا أنذر الناس . و ﴿ أن لهم ﴾ الباء معه محذوف ﴿ قدم صدق عند ربهم ﴾ أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة [2] . فإن قلت: لم سميت السابقة

ـــ المراد بالرأس الرئيس ، وشرابها أطيب من غيره ، و«مزاجها» خبر يكون مع أنه معرفة . و «عسل» اسمها مع أنه نكرة ، وكان القياس العكس فقلب للضرورة . وجوزه ابن مالك فى معمول «كان» و«إن» فلا قلب . وقال الفارسى : إن انتصاب مزاجها على الظرفية المجازية . وروى برفع الكلمات الثلاث ، على أن اسم كان ضمير الشأن . وقول ابن السيد : بزيادة «كان» هنا : غير مرضى ؛ لأن زيادة المضارع لاترتكب إلا عند الضرورة ، ويروى بنصب العسل فقط ، فهو خبر ورفع ماء ، بتقدير : وخالطها ماء . وجملة الكون صفة سلافة . وعلى أنيابها : خبر «كأن» المشددة . والمزاج : مايمزج به غيره . والمراد بالأنياب : الثغر كله . والغض : الطرى الرطب . والهصر : عطف الغصن وإمالته إليك من غير إبانة لتجنى ثمره . والتهصير : مبالغة فيه . وروى «الجناء» بدل «الاجتناء» . وهو بالقصر مصدر . لكن مد هنا ضرورة . وإسناد التهصير إلى ذلك مجاز عقلى ، من باب الاسناد للسبب . وإيقاعه على التفاح على تقدير مضاف ، أى : هصر غصنه . ويروى : أو طعم غصن ، فلا تجوز فى تهصيره . لكن إضافة طعم إليه على تقدير مضاف . أى طعم ثمر غصن . شبه ريقها بالخمر الجيدة وطعمه بطعم تفاح ميل غصنه الجانى ليجتنيه ، إشارة إلى أنه مجنى الآن لم يمض عليه شيء من الزمان ، وتلويحاً لتشبيه محبوبته بالأغصان فى الرقة واللين والميلان .

(١) قوله «من أفناء رجالهم» فى الصحاح : يقال هو من أفناء الناس ، إذا لم يعلم من هو . (ع)

(٢) قال محمود : «أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة ... الخ» قال أحمد : ولم يرد فى سابقة السوء تسميتها قدما ، إما لأن المجاز لايطرد ، وإما أن يكون مطردا ولكن غلب العرف على قصرها كما يغلب فى الحقيقة ، والله أعلم .

قدما ؟ قلت : لما كان السعى والسبق بالقدم ، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما ، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد ، وباعاً لأن صاحبها يبوع بها ، فقيل : لفلان قدم فى الخير . وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل ، وأنه من السوابق العظيمة وقيل : مقام صدق ﴿إن هذا﴾ إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿لسحر﴾ ومن قرأ : لساحر، فهذا إشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين فى تسميته سحراً . وفى قراءة أبىّ : ما هذا إلا سحر .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

﴿يدبر﴾ يقضى ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعل المتحرى للصواب الناظر فى أدبار الأمور وعواقبها ، لئلا يلقاه ما يكره آخراً . و ﴿الأمر﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش . فإن قلت : ما موقع هذه الجملة ؟ قلت : قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السموات والأرض ، مع بسطتها واتساعها فى وقت يسير ، وبالاستواء على العرش ، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره ، وكذلك قوله ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ دليل على العزة والكبرياء ، كقوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن) و ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم[1] الموصوف بما وصف به هو ربكم ، وهو الذى يستحق منكم العبادة ﴿فاعبدوه﴾ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان ، فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿أفلا تذكرون﴾ فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أى لا ترجعون فى العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه ﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد لقوله (إليه مرجعكم) و ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد لقوله (وعد الله) . ﴿إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه ، وهو أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم . وقرئ : أنه يبدؤ

(١) قوله «ذلك العظيم» لعله ذلكم . (ع)

الخلق ، بمعنى لأنه . أو هو منصوب بالفعل الذى نصب وعد الله : أى وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته . والمعنى : إعادة الخلق بعد بدئه . وقرئ : وعد الله ، على لفظ الفعل . ويبدئ ، من أبدأ . ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقا ، أى حقّ حقا بدأ الخلق ، كقوله :

أَحَقًّا عِبَادَ اللهِ أَنْ لَسْتُ جَائِيًا وَلَا ذَاهِبًا إِلَّا عَلَيَّ رَقِيبُ [١]

وقرئ : حق أنه يبدؤ الخلق ، كقولك : حق أنّ زيداً منطلق ﴿بالقسط﴾ بالعدل ، وهو متعلق بيجزى . والمعنى : ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم . أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً ، لأنّ الشرك ظلم . قال الله تعالى (إنّ الشرك لظلم عظيم) والعصاة ظلام أنفسهم ، وهذا أوجه ، لمقابلة قوله (بما كانوا يكفرون) .

هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَاخَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)

الياء فى ﴿ضياء﴾ منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها . وقرئ : ضئاء بهمزتين بينهما ألف على القلب ، بتقديم اللام على العين ، كما قيل فى عاق : عقا . والضياء أقوى من النور ﴿وقدره﴾ وقدر القمر . والمعنى وقدّر مسيره ﴿منازل﴾ أو قدّره ذا منازل ، كقوله تعالى (والقمر قدّرناه منازل) . ﴿والحساب﴾ وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالى ﴿ذلك﴾ إشارة إلى المذكور أى ما خلقه إلا ملتبساً بالحق الذى هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً . وقرئ : يفصل ، بالياء .

إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)

خصّ المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر .

---

(١) أحقا عباد الله أن لست جائياً ولا ذاهبا إلا على رقيب
ولا زائراً فرداً ولا فى جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب

لعبد الله بن الدمينة الخثعمى . وقيل : لقيس بن الملوح . قال المرزوقى : أحقاً انتصب عند سيبويه على الظرفية ، كأنه قال : أفى الحق ذلك ، لأنهم كثيراً مايقولون : أفى الحق كذا . وعند المبرد على المفعولية المطلقة ، أى أحق ذلك حقاً ، لأنه مصدر . وعباد الله : منادى . وروى : أن لست وارداً ولا صادراً . والمعنى واحد . والرقيب : المانع من لقاء الحبيب . ويجوز أن يراد به ما فى قوله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى مناظر حاضر ، أو قوله تعالى (إن كل نفس لما عليها حافظ) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعونه أصلا، ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم، المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق. أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ من الآخرة، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي، كقوله تعالى (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة). ﴿واطمأنوا بها﴾ وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها، فبنوا شديداً وأملوا بعيداً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة[1] على سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب، ولذلك جعل ﴿تجرى من تحتهم الأنهار﴾ بيانا له وتفسيرا، لأنّ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها. ويجوز أن يريد: يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة، كقوله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) ومنه الحديث: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة. والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة فيقول له: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار[2]». فإن قلت: فلقد دلت هذه الآية على أنّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح.

---

(١) قال محمود: «معناه يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة ... الخ» قال أحمد: هو يقرر بذلك زعمه في أن شرط دخول الجنة العمل الصالح، وأن من لم يعمل مخلد في النار كالكافر، وأنى له ذلك وقد جعل الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الايمان، فقال (يهديهم ربهم بإيمانهم) وقول الزمخشري «أن المراد إضافة العمل» لا ينتهض عن حيز الدعوى، فإن الله لم يعلل بغير الايمان وإن جرى لغيره ذكر أولا فلا يلزم إجراؤه ثانياً ولا محوج إليه. وشبهته أن الايمان المجهول سبباً مضاف إلى ضمير الصالحين، فيلزم أخذ الصلاح قيداً في التسبب، وهو ممنوع؛ فإن الضمير إنما يعود على الذوات لا باعتبار الصفات وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال وأشكال، والله الموفق.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سعيد عن قتادة قال: بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن المؤمن إذا خرج من قبره ـ فذكره» وروى ابن أبي شيبة من طريق عمرو بن قيس عن عطية عن ابن عمر قال «يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره عمله في أحسن صورة. فذكر نحوه بتمامه.

والإيمان الذى لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور . قلت: الأمر كذلك . ألا ترى كيف أرقع الصلة مجموعا فيها بين الإيمان والعمل ، كأنه قال : إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، ثم قال : بإيمانهم ، أى بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح ، وهو بين واضح لا شبهة فيه ﴿دعواهم﴾ دعاؤهم ، لأن «اللهم» نداء لله ومعناه : اللهم إنا نسبحك ، كقول القانت فى دعاء القنوت : اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد . ويجوز أن يراد بالدعاء : العبادة (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) على معنى أن لا تكليف فى الجنة ولا عبادة ، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه . وذلك ليس بعبادة ، إنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة ، كقوله تعالى (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) . ﴿وآخر دعواهم﴾ وخاتمة دعائهم الذى هو التسبيح ﴿أن﴾ يقولوا ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ . ومعنى (وتحيتهم فيها سلام) أن بعضهم يحيى بعضاً بالسلام . وقيل : هى تحية الملائكة إياهم ، إضافة للمصدر إلى المفعول . وقيل : تحية الله لهم . وأن هى المخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه الحمد لله ، على أن الضمير للشأن ، كقوله :

* أَنْ هالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ * [1]

وقرئ : أنّ الحمدَ لله ، بالتشديد ونصب الحمد .

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

أصله ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ تعجيله لهم الخير ، فوضع ﴿استعجالهم بالخير﴾ موضع تعجيله لهم الخير [2] إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأن استعجالهم بالخير

---

(١) وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول
فى فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتعل

للأعشى ميمون بن قيس . والحانوت : محل البيع والشراء . والمراد : محل بيع الطعام والشراب . يتبعنى شاو : أى غلام يشوى اللحم . مشل : أى مسرع . شلول : خفيف فى العمل : شلشل : بالضم ، أى ماض فى الخدمة وقضاء الحوائج : شول - ككتف - خفيف فى العمل . وقيل : مخرج للحم من القدر . فى فتية : أى حال كونى مع فتيان كسيوف الهند فى إنفاذ العزائم فى المكارم . أوفى بياض الوجوه وتهللها . والأول أنسب بقوله : قد علموا أنه ، أى الحال والشأن . هالك وفان كل حاف : غير لابس للنعل ، ومنتعل : لابس له ، وهما كناية عن الفقير والغنى ، وإذا استويا فى الفنى فلا معنى للبخل الذى لا يوجب البقاء . ويجوز أنهما كناية عن جميع الناس مبالغة فى التعميم .

(٢) قال محمود : «فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشرى الحسنة التى تقوم على دقة نظره شاهدة وبينة ، ولا يكاد وضع المصدر مؤكداً أو مقارناً لغير فعله فى الكتاب العزيز يخلو من مثل هذه الفائدة الجليلة . والنحاة غايتهم أن يقولوا فى قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا) أنه أجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة . أو هذا المصدر لفعل دل عليه المذكور تقديره : نبتم نباتا ، =

تعجيل لهم ، والمراد أهل مكة . وقولهم : فأمطر علينا حجارة من السماء ، يعني : ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لقضى إليهم أجلهم﴾ لأميتوا وأهلكوا . وقرئ : لقضى إليهم أجلهم ، على البناء للفاعل ، وهو الله عز وجل ، وتنصره قراءة عبد الله : لقضينا إليهم أجلهم فإن قلت : فكيف اتصل به قوله ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وما معناه ؟ قلت : قوله (ولو يعجل الله) متضمن معنى نفي التعجيل ، كأنه قيل : ولا نعجل لهم الشر ، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم ﴿في طغيانهم﴾ أي فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم ، إلزاما للحجة عليهم .

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢)

﴿لجنبه﴾ في موضع الحال ، بدليل عطف الحالين عليه أي دعانا مضطجعاً ﴿أو قاعداً أو قائماً﴾ . فإن قلت : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟ قلت معناه أن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا في حالاته كلها ـ إن كان منبطحاً عاجز النهض [1] متخاذل النوء [2] أو كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أو كان قائماً لا يطيق المشي والمضطرب ـ إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة [3] بتمامها . ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالا وهو صاحب الفراش . ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود . ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء ، لأن الإنسان للجنس ﴿مرّ﴾ أي مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ، ونسي حال الجهد . أو مرّ عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه ، كأنه لا عهد له به ﴿كأن لم يدعنا﴾ ، كأنه لم يدعنا ، فخفف وحذف ضمير الشأن قال :

ـــ ولا يزيدون على ذلك ، وإذا راجع الفطن قريحته وناجي فكرته ، هل قرن المصدر في كتاب الله بغير فعله لفائدة أو لا ـ تسور بلطف النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها ، فالفائدة ـ والله أعلم ـ في اقتران قوله (نباتا) بقوله (أنبتكم) التنبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدور ، وسرعة إمضاء حكمها حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم أي إذا وجد من الله الانبات وجد لهم النبات حتما فكان أحد الأمرين عين الآخر فقرن به والله أعلم .

(١) قوله «عاجز النهض» نهض نهضاً ونهوضاً : قام . (ع)

(٢) قوله «متخاذل النوء» في الصحاح : ناء ينوء نوءا إذا نهض بجهد ومشقة . (ع)

(٣) قوله «والمسحة» في الصحاح : وعلى فلان مسحة من جمال . (ع)

* كَأَنْ ثَدْيَاهُ حُقَّانِ * (١)

﴿كذلك﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زين للمسرفين﴾ زين الشيطان بوسوسته أو الله بخذلانه وتخليته ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

﴿لما﴾ ظرف لأهلكنا: والواو في ﴿وجاءتهم﴾ للحال، أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحجج والشواهد على صدقهم وهي المعجزات. وقوله: ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ يجوز أن يكون عطفاً على ظلموا، وأن يكون اعتراضاً واللام لتأكيد النفي. يعني: وما كانوا يؤمنون حقاً، تأكيداً لنفي إيمانهم. وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم، وأن الإيمان مستبعد منهم. والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثه الرسل ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزاء يعني الإهلاك ﴿نجزي﴾ كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرئ «يجزي» بالياء ﴿ثم جعلناكم﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا ﴿لننظر﴾ أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم. و ﴿كيف﴾ في محل النصب بتعملون لا ينتظر، لأنّ معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدّم عليه عامله. فإن قلت: كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة (٢)

---

(١) ونحر مشرق اللون كأن ثدياه حقان

أي: ورب نحر. ويروى بالرفع عطفا على شيء تقدم، أي ولها. والنحر: موضع القلادة من الصدر. ويروى: وصدر مشرق، أي أبيض مضيء. ويروى: وصدر مشرق النحر. ويروى: ووجه مشرق اللون، وكأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. وقال أبو حيان: لاحاجة للاضمار عند الاهمال. وروى: كأن ثدييه بالاعمال مع التخفيف وهو قليل. وإضافة الثديين لضمير النحر للملابسة ولضمير الوجه على تقدير مضاف، أي: ثديا صاحبته. والحقان: تثنية حق وهو ما يعمل من العاج ونحوه، يوضع فيه أعز الأشياء. وقيل تثنية حقة، وحذفت منه التاء.

(٢) قال محمود: «إن قلت كيف جاز النظر على الله تعالى ... الخ» قال أحمد: وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هذين النزغتين عقيدة طائفة من القدرية، يقولون: إن الله لا يرى ولا يرى، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا. وتقدم إبطال دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة والجسمية فلا نعيده، والله الموفق.

قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشىء موجوداً شبه بنظر الناظر وعيان المعاين فى تحققه .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)

غاظهم ما فى القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين ، فقالوا ﴿ائت بقرآن﴾ آخر ليس فيه مايغيظنا من ذلك نتبعك ﴿أو بدّله﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها . فأمر بأن يجيب عن التبديل ، لأنه داخل تحت قدرة الإنسان ، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل ، وأن يسقط ذكر الآلهة . وأما الإتيان بقرآن آخر ، فغير مقدور عليه للإنسان ﴿ما يكون لى﴾ ما ينبغى لى وما يحل ، كقوله تعالى (مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق) . ﴿أن أبدّله من تلقاء نفسى﴾ من قبل نفسى . وقرئ بفتح التاء : من غير [1] أن يأمرنى بذلك ربى ﴿إن أتبع إلا مايوحى إلىّ﴾ لا آتى ولا أذر شيئاً من نحو ذلك ، إلا متبعاً لوحى الله وأوامره . إن نسخت آية تبعت النسخ ، وإن بدّلت آية مكان آية تبعت التبديل ، وليس إلىّ تبديل ولا نسخ ﴿إنى أخاف إن عصيت ربى﴾ بالتبديل والنسخ من عند نفسى ﴿عذاب يوم عظيم﴾ . فإن قلت : أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا : (ائت بقرآن غير هذا) ؟ قلت : بلى ، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز ، وكانوا يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا . ويقولون : افترى على الله كذبا ، فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله . مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصحائها وبلغائها إذا عجزوا عنه ، كان الواحد منهم أعجز . فإن قلت : لعلهم أرادوا : ائت بقرآن غير هذا أو بدّله ، من جهة الوحى كما أتيت بالقرآن من جهته . وأراد بقوله : (ما يكون لى) ما يتسهل لى وما يمكننى أن أُبدّله . قلت : يرده قوله (إنى أخاف إن عصيت ربى) . فإن قلت : فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم فى هذا الاقتراح ؟ قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر ، وأما اقتراح التبديل والتغيير ، فللطمع ولاختبار الحال . وأنه إن وجد منه تبديل ، فإما أن يهلكه الله فينجو منه ، أو لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافترائه على الله .

---

(١) قوله «من غير» لعله «أى من غير» . (ع)

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)

﴿لو شاء الله ماتلوته عليكم﴾ يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجا عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أمىّ لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ فى بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً ، يبهر كل كلام فصيح ، ويعلو على كل منثور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان وما يكون ، ناطقاً بالغيوب التى لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم [1] أربعين سنة تطلعون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شىء من أسراره ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به ﴿ولا أدراكم به﴾ ولا أعلمكم به على لسانى . وقرأ الحسن : ولا أدراتكم به ، على لغة من يقول : أعطاته وأرضاته ، فى معنى أعطيته وأرضيته . وتعضده قراءة ابن عباس : ولا أنذرتكم به . ورواه الفراء : ولا أدرأتكم به ، وبالهمز . وفيه وجهان ، أحدهما : أن تقلب الألف همزة ، كما قيل : لبأت بالحج . ورثأت الميت وحلأت [2] السويق ، وذلك لأنّ الألف والهمزة من واد واحد . ألا ترى أنّ الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة . والثانى : أن يكون من درأته إذا دفعته ، وأدرأته إذا جعلته دارئا . والمعنى : ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤونى بالجدال وتكذبونى . وعن ابن كثير : ولأدراكم به ، بلام الابتداء لإثبات الإدراء ومعناه : لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيرى ، ولكنه يمنّ على من يشاء من عباده ، فخصنى بهذه الكرامة ورآنى لها أهلا دون سائر الناس ﴿فقد لبثت فيكم عمراً﴾ وقرئ (عمراً) بالسكون . يعنى : فقد أقمت فيما بينكم يافعا وكهلا ، فلم تعرفونى متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهمونى باختراعه ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلى . وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من إضافة الافتراء إليه .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

---

(١) قوله «ظهرانيكم» فى الصحاح : ظهرانيهم ـ بفتح النون . (ع)

(٢) قوله «وحلأت» أى جعلته حلوا . (ع)

(ممن افترى على الله كذبا) يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله فى قولهم: إنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون تفاديا مما أضافوه إليه من الافتراء.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)

﴿ مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ الأوثان التى هى جماد لا تقدر على نفع ولا ضر. وقيل: إن عبدوها لم تنفعهم، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة معاقباً على المعصية. وكان أهل الطائف يعبدون اللات، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافا ونائلة ﴿ و ﴾ كانوا ﴿ يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وعن النضر بن الحرث: إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى ﴿ أتنبؤن الله بما لا يعلم ﴾ أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بالمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوما له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات، لم يكن شيأ لأن الشيء مايعلم ويخبر عنه، فكان خبراً ليس له مخبر عنه. فإن قلت: كيف أنبأوا الله بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأنّ الذى أنبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه. وقرئ: أتنبؤن، بالتخفيف. وقوله ﴿ فى السموات ولا فى الأرض ﴾ تأكيد لنفيه، لأنّ مالم يوجد فيهما فهو منتف معدوم ﴿ تشركون ﴾ قرئ بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية، أى عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)

﴿ وما كان الناس إلا أمّة واحدة ﴾ حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم، وذلك فى عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل. وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿ لقضى بينهم ﴾ عاجلا فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف، وتلك دار ثواب وعقاب. وقالوا ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾

أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط، حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرد وانهماكهم في الغي ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ أي هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به، يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿فانتظروا﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)

سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه، «وإذا» الأولى للشرط، والآخرة جوابها وهي للمفاجأة، والمكر: إخفاء الكيد وطيه، من الجارية الممكورة المطوية الخلق. ومعنى ﴿مستهم﴾ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم. فإن قلت: ما وصفهم بسرعة المكر، فكيف صح قوله ﴿أسرع مكرا﴾؟ قلت: بلى دلت على ذلك كلمة المفاجأة، كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجئوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رءوسهم من مس الضراء، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم. والمعنى: أن الله تعالى دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام ﴿إن رسلنا يكتبون﴾ إعلام بأن ما تظنونه خافيا مطويا لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم. وقرئ: يمكرون، بالتاء والياء. وقيل: مكرهم قولهم سقينا بنوء كذا. وعن أبي هريرة: إن الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا [1].

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ

(١) أخرجه إسحق والطبري: والثعلبي من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي سلمة عن أبي هريرة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة أو ليمسيهم بها فيصبح بها قوم كافرون، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا» قال محمد فذكرت الحديث لسعيد بن المسيب فقال: ونحن سمعناه من أبي هريرة. ولمسلم من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعا «قال الله تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق بها كافرين، يقولون: الكوكب وبالكوكب مطرنا».

بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

قرأ زيد بن ثابت : ينشركم. ومثله قوله (فانتشروا فى الأرض)، (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون). فإن قلت : كيف جعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر[1]، والتسيير فى البحر إنما هو بالكون فى الفلك؟ قلت : لم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد «حتى» بما فى حيزها، كأنه قيل : يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجىء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظنّ للهلاك[2] والدعاء بالإنجاء. فإن قلت : ما جواب «إذا»؟ قلت : جاءتها. فإن قلت : فدعوا؟ قلت : بدل من ظنوا؛ لأنّ دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به. فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت : المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح. فإن قلت : ما وجه قراءة أمّ الدرداء : فى الفلكى، بزيادة ياء النسب؟ قلت : قيل هما زائدتان كما فى الخارجى والأحمرى. ويجوز أن يراد به اللجّ والماء الغمر الذى لا تجرى الفلك إلا فيه.

---

(١) قال محمود : «إن قلت كيف جعل الكون فى الفلك غاية ... الخ» قال أحمد : وهذه أيضا من نكته التى لا يكتنه حسنها، وقد مر لى قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه فى توأمتها، وذلك عند قوله تعالى (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) وقد استدل الزمخشرى بها لأبى حنيفة فى أن الصغير يبتلى قبل البلوغ بأن يسلم إليه قدر من المال يمتحن فيه. خلافا لمالك، فانه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ قال الزمخشرى : ووجه الاستدلال أن الله تعالى جعل البلوغ غاية الابتلاء، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغيا به. واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف بأن المجعول غاية هو جملة ما فى حيز «حتى» من البلوغ مقرونا بإيناس الرشد، وهذا المجموع هو الذى يلزم وقوعه بعد الابتلاء، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الابتلاء، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل والآخر بعد، فلا يحصل المجموع إلا بعد الابتلاء. ويوضح ذلك هذه الآية، فانه تعالى جعل غاية تسييرهم فى الفلك كونهم فيها، مضافا إلى ماذكر معه. ونحن نعلم أن كونهم فى الفلك ـ وذلك أحد ما جعل غاية ـ متقدم على التسيير وإن كان المجموع واقعا، كوقوع الحادثة بجملتها بعد الكون فى الفلك والله أعلم. وإنما بسطت القول ههنا لفواته ثم، فجدد بما مضى عهدا.

(٢) قوله «والظن للهلاك» عبارة النسفى : بالهلاك. (ع)

والضمير فى ﴿جرين﴾ للفلك ، لأنه جمع فلك كالأسد ، فى فعل أخى فعل [١] . وفى قراءة أم الدرداء : للفلك ، أيضاً : لأنّ الفلكى يدلّ عليه ﴿جاءتها﴾ جاءت الريح الطيبة ، أى تلقتها . وقيل : الضمير للفلك ﴿من كل مكان﴾ من جميع أمكنة الموج ﴿أحيط بهم﴾ أى أهلكوا جعل إحاطة العدو بالحى مثلا فى الهلاك ﴿مخلصين له الدين﴾ من غير إشراك به : لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه ﴿لئن أنجيتنا﴾ على إرادة القول . أولأن (دعوا) من جملة القول ﴿يبغون فى الأرض﴾ يفسدون فيها ويعبثون متراقين فى ذلك ، ممعنين فيه ، من قولك : بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿بغير الحق﴾ والبغى لا يكون بحق؟ قلت : بلى ، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة ، وهدم دورهم ، وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم [٢] كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة . قرئ : متاع الحياة الدنيا ، بالنصب . فإن قلت : ما الفرق بين القراءتين؟ قلت : إذا رفعت كان المتاع خبراً للمبتدإ الذى هو (بغيكم) و (على أنفسكم) صلته ، كقوله (فبغى عليهم) ومعناه : إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم ، يعنى : بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها . وإذا نصبت (فعلى أنفسكم) خبر غير صلة ، معناه . إنما بغيكم وبال على أنفسكم ، و (متاع الحياة الدنيا) فى موضع المصدر المؤكد ، كأنه قيل : تتمتعون متاع الحياة الدنيا . ويجوز أن يكون الرفع على : هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تمكر ولا تعن ماكراً ، ولا تبغ ولا تعن باغياً ، ولا تنكث ولا تعن ناكثاً » [٣] وكان يتلوها . وعنه عليه الصلاة والسلام « أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغى واليمين الفاجرة » [٤] وروى : « ثنتان يعجلهما الله

---

(١) قوله «كالأسد فى فعل» أى كما جاء «فعل» بالضم فى «فعل» بفتحتين ، كأسد فى أسد ، جاز مجىء «فعل» بالضم فى فعل «بالضم» كفلك فى فلك ، وذلك لأن «فعلا» بفتحتين و «فعلا» بالضم أخوان ، لأنهما يشتركان فى الشىء الواحد ، كالعرب والعرب والعجم والعجم ، والرهب والرهب . فما جاز فى أحدهما لا يمتنع فى الآخر ، وقد جاز «فعل» بالضم فى «فعل» بالفتح ، فليجز «فعل» بالضم فى «فعل» بالضم ، لأنهما أخوات . كذا فى الصحاح ، فتأمله . (ع)

(٢) متفق على معناه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

(٣) أخرجه ابن المبارك فى الزهد : أخبرنا يونس بن يزيد عن الزهرى : قال «بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تمكر ولا تعن ماكرا ، فإن الله تعالى يقول (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولا تبغ ولا تعن باغيا ، فإن الله تعالى يقول (إنما بغيكم على أنفسكم) » ولا تنكث ولا تعن ناكثا ، فإن الله تعالى يقول (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) وفى مستدرك الحاكم بعضه من حديث أبى بكرة مرفوعا « لا تبغ ولا تعن باغيا فإن الله تعالى يقول (إنما بغيكم على أنفسكم) .

(٤) أخرجه إسحاق فى مسنده عن جرير عن برد بن يسار عن مكحول رفعه «أعجل الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة ، تدع الديار بلاقع» ولأبى يعلى من حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رفعته «أسرع الخير ثوابا صلة الرحم . وأسرع الشر عقوبة البغى» .

تعالى فى الدنيا : البغى وعقوق الوالدين »[١] وعن ابن عباس رضى الله عنه : لو بغى جبل على جبل لدك الباغى.[٢] وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين فى أخيه :

يَاصَاحِبَ الْبَغْيِ إِنّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ الْمَرْءِ أَعْدَلُهُ

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ[٣]

وعن محمد بن كعب : ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : البغى والنكث والمكر . قال الله تعالى : (إنما بغيكم على أنفسكم)

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَـٰهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَـٰمُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)

هذا من التشبيه المركب ، شبهت حال الدنيا فى سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال ، بحال نبات الأرض فى جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف ، وزين الأرض بخضرته ورفيفه[٤] ﴿فاختلط به﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿أخذت الأرض زخرفها وازّينت﴾ كلام فصيح: جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس ، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون ، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين . وأصل (ازّينت) تزينت ،

---

(١) أخرجه إسحاق فى مسنده والطبرانى من حديث عبدالله بن أبى بكرة عن أبيه . وللبخارى فى الأدب المفرد من رواية بكار بن عبدالعزيز عن أبيه عن جده رفعه «كل الذنوب يؤخر الله منها ماشاء إلى يوم القيامة إلا البغى وعقوق الوالدين ، فانه يعجل لصاحبه فى الدنيا قبل الموت» .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب حدثنا أبو نعيم حدثنا قطر بن خليفة عن أبى يحيى القتات سمعت مجاهدا عن ابن عباس رضى الله عنهما موقوفا . ورواه ابن المبارك فى الزهد عن قطر عن يحيى عن مجاهد مرسلا . ورواه البيهقى فى الشعب من طريق الأعمش عن أبى يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس . ورواه ابن مردويه عن أنس رضى الله عنه أخرجه ابن حبان فى الضعفاء فى ترجمة إحمد بن الفضل . وقال : إنه كان يضع الحديث .

(٣) كان المأمون بن الرشيد يتمثل بهما فى بغى أخيه عليه ، وكرر لفظ البغى تنفيرا عنه ، وشبهه بالمصرعة لأن صاحبه يرتبك فيه فى العاقبة وربما هلك . وربع يربع ، إذا لم يتجاوز قدر نفسه . فاربع : أى الزم قدرك واعدل فى فعالك . والفعال ـ بالفتح ـ : غالب فى فعل الخير . والمراد هنا مطلق الفعل ، أى : فخير عمل المرء أقومه ، فلو بغى جبل على جبل يوما من الأيام لعوقب واندك منه أعاليه . ويلزم منه اندكاك أسافله . وهذا عقد قول ابن عباس رضى الله عنهما : لو بغى جبل على جبل لدك الباغى .

(٤) قوله «ورفيفه» أى بريقه وتلألؤه . وشجر رفيف : إذا تندت أوراقه ، كذا فى الصحاح . (ع)

فأدغم. وبالأصل قرأ عبد الله. وقرئ: وأزينت، أى أفعلت، من غير إعلال الفعل كأغيلت أى صارت ذات زينة. وازيانت، بوزن ابياضت ﴿قادرون عليها﴾ متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها، رافعون لغلتها ﴿أتاها أمرنا﴾ وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم ﴿فجعلناها﴾ فجعلنا زرعها ﴿حصيدا﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع فى قطعه واستئصاله ﴿كأن لم تغن﴾ كأن لم يغن زرعها، أى لم ينبت [1] على حذف المضاف فى هذه المواضع لا بدّ منه، وإلاّ لم يستقم المعنى. وقرأ الحسن: كأن لم يغن، بالياء على أنّ الضمير للمضاف المحذوف، الذى هو الزرع. وعن مروان أنه قرأ على المنبر: كأن لم تتغن بالأمس، من قول الأعشى:

* طَوِيلُ الثَّــوَاءِ طَوِيلُ التَّغَنِّى * [2]

والأمس مثل فى الوقت القريب، كأنه قيل: كأن لم تغن آنفاً.

وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

﴿دار السلام﴾ الجنة، أضافها إلى اسمه تعظيما لها. وقيل السلام السلامة، لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه. وقيل: لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم (إلا قيلا سلاماً سلاما) ﴿ويهدى﴾ ويوفق ﴿من يشاء﴾ وهم الذين علم أنّ اللطف يجدى عليهم، لأنّ مشيئته تابعة لحكمته ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديون.

---

(١) قوله «أى لم ينبت» لعله لم يثبت. وفى الصحاح: غنى بالمكان أى أقام، وغنى أى عاش. (ع)

(٢)
وكنت امرأ زمنا بالعراق ... طويل الثواء طويل التغنى
فأبنت قيسا ولم آته ... على نأيه ساد أهل اليمن
لجئتك مرتاد ما أخبروا ... ولولا الذى خبروا لم ترن

للأعشى، يستمنح قيس بن معديكرب ويقول: وكنت رجلا طويل الثواء فى العراق، طويل التغنى فيه دهراً طويلا. فزمنا: ظرف. ويجوز قراءته: زمنا، كحذر: أى هرم. والثواء: الاقامة. وغنى بالمكان يغنى، كرضى يرضى: أقام ومكث. وقد يقال: تغنى تغنيا كترضى ترضيا، إذا تمكث وتلبث. فالتغنى - بالتشديد -: مصدر حذفت لامه عند الوقف وإن كان حذفها قليلا، فأنبئت قيسا والحال أنى لم أجئه: مع أنه ناء أى بعيد عنى، أى مع بعده ساد أهل اليمن بجوده وكرمه على أهل الأرض، لجملة «ساد» فى محل المفعول الثانى، ثم بعد ماقدم المدح التفت إلى خطابه بقوله: لجئتك مرتادا ومتعرفا ومتطلبا لما أخبروا به من كرمك وجودك، وإضافة مرتاد للموصول لاتفيده التعريف؛ لأنها إضافة الوصف لمعموله لفظيا، فصح وقوعه حالا، ولولا الذى خبرونى به لم تنظرنى عندك ولم أجئ إليك. وروى: ولم أبله، من بلاه يبلوه إذا اختبره. وروى خبر أهل اليمن أى أنبئته والحال أنى لو أختبره أفضل أهل اليمن، لجئتك مختبراً لحالك.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

﴿الحسنى﴾ المثوبة الحسنى ﴿وزيادة﴾ وما يزيد على المثوبة وهى التفضل. ويدل عليه قوله تعالى (ويزيدهم من فضله) وعن على رضى الله عنه: الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة. وعن ابن عباس رضى الله عنه: الحسنى: الحسنة، والزيادة: عشر أمثالها. وعن الحسن رضى الله عنه: عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وعن مجاهد رضى الله عنه: الزيادة مغفرة من الله ورضوان. وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ماتريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم. وزعمت المشبهة والمجبرة [1] أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى [2] وجاءت بحديث مرقوع [3] «إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه» [4] ﴿ولا يرهق وجوههم﴾ لا يغشاها ﴿قتر﴾ غبرة فيها سواد ﴿ولا ذلة﴾ ولا أثر هوان وكسوف بال. والمعنى لا يرهقهم ما يرهق

---

(١) قوله «وزعمت المشبهة والمجبرة» يريد أهل السنة القائلين بجواز رؤيته تعالى ووقوعها فى الآخرة، خلاف المعتزلة فى ذلك. (ع)

(٢) ذكر محمود فى الزيادة تفاسير كثيرة، ثم قال: وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى... الخ. قال أحمد: نسبة تفسير الزيادة برؤية الله تعالى إلى زعم أهل السنة الملقبين عنده بالمشبهة والمجبرة: مرور على ديدنه المعروف فى التكذيب بما لم يحط به علما، وهذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة، والحديث المروى فيه مدون فى الصحاح متفق على صحته، وقد جعل أهل السنة جاؤا به من عند أنفسهم، ومن قبل قال المصرون على الكفر لسيد البشر وصاحب السنة: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، حملا له على أنه جاء به من عنده، فلأهل السنة إذاً أسوة بصاحبها، ولقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة، فابتلاء الحق بالباطل قديم، والله الموفق. وإن فى قوله تعالى على أثر ذلك (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) مصداقا لصحة هذا التفسير، فان فيه تنبيها على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى لجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب، عكس المحرومين المحجوبين فان وجوههم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد. نسأل الله الكفاية. فأولئك يغشى وجوههم أنوار المشاهدة، وهؤلاء يغشى وجوههم كقطع الليل المظلم، منهم شقى وسعيد.

(٣) قوله «بحديث مرقوع» بالقاف، أى مفترى، كذا قيل. وهو فى مقابلة المرفوع بالفاء، أى المضاف إلى النبى صلى الله عليه وسلم. (ع)

(٤) قال الطيبي: قوله «مرقوع» هو عنده بالقاف أى مرقع معدى. وهو عند أهل السنة بالفاء اه. وقد أخرجه مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبى ليلى عن صهيب. ورواه الترمذى وقال: كذا رفعه حماد بن سلمة. وقد رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبى ليلى قوله. انتهى. وفى الباب عن أبى موسى مرفوعا أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين. وللطبرى. وعن ابن عمر وأنس أخرجهما ابن مردويه باسنادين ضعيفين. وعن أبى بكر الصديق أخرجه إسحاق فى مسنده من رواية عامر بن سعد عنه. وعن ابن عباس وعلى أخرجهما ابن مردويه أيضا.

أهل النار إذكارا بما ينقذهم منه برحمته . ألا ترى إلى قوله تعالى ، (ترهقها قترة) (وترهقهم ذلة) .

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)

فإن قلت : ما وجه قوله ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ وكيف يتلاءم ؟ قلت : لا يخلو ، إمّا أن يكون (والذين كسبوا) معطوفاً على قوله (الذين أحسنوا) كأنه قيل: والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وإمّا أن يقدّر : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى : جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها ، وهذا أوجه من الأول ، لأنّ فى الأوّل عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه . وفى هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل ، لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله ، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله. وقرئ : يرهقهم ذلة ، بالياء ﴿ من الله من عاصم ﴾ أى لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه. ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ﴿ مظلماً ﴾ حال من الله . ومن قرأ (قطعاً) بالسكون من قوله (بقطع من الليل) جعله صفة له . وتعضده قراءة أبىّ بن كعب : كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم . فإن قلت : إذا جعلت مظلماً حالا من الليل ، فما العامل فيه ؟ قلت : لا يخلو إمّا أن يكون (أغشيت) من قبل إن (من الليل) صفة لقوله (قطعاً) فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة ، وإما أن يكون معنى الفعل فى (من الليل) .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)

﴿ مكانكم ﴾ الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم . و ﴿ وأنتم ﴾ أكد به الضمير فى مكانكم لسدّه مسدّ قوله الزموا ﴿ وشركاؤكم ﴾ عطف عليه . وقرئ (وشركاءكم) على أنّ الواو بمعنى مع ، والعامل فيه ما فى مكانكم من معنى الفعل ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا أقرانهم . والوصل [1] التى كانت بينهم فى الدنيا . أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم فى

---

(١) قوله «أقرانهم» مفرده «قرن» بالتحريك وهو حبل يقرن به البعيران ، كما فى الصحاح . وقوله «والوصل» مفرده «وصلة» أى اتصال وذريعة ، كما فى الصحاح أيضا . (ع)

الموقف . وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم ، كقوله تعالى (ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا) . وقرئ : فزايلنا بينهم ، كقولك : صاعر خدّه وصعره ، وكالمته وكلمته . ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ إنما كنتم تعبدون الشياطين ، حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعتموهم .

فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

﴿ إن كنا ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، وهم الملائكة والمسيح ومن عبدوه من دون الله من أولى العقل ، وقيل : الأصنام ينطقها الله عزّ وجلّ فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطماعهم ﴿ هنالك ﴾ في ذلك المقام وفي ذلك الموقف أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿ تبلوا كل نفس ﴾ تختبر وتذوق ﴿ ما أسلفت ﴾ من العمل فتعرف كيف هو ، أقبيح أم حسن ، أنافع أم ضارّ ، أمقبول أم مردود ؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرّفه ليكتنه حاله . ومنه قوله تعالى (يوم تبلى السرائر) وعن عاصم : نبلو كلّ نفس ، بالنون ونصب كل : أي نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل ، فنعرف حالها بمعرفة حال عملها : إن كان حسناً فهي سعيدة ، وإن كان سيئاً فهي شقية . والمعنى : نفعل بها فعل الخابر ، كقوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء وهو العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر . وقرئ : تتلو ، أي تتبع ما أسلفت ؛ لأنّ عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار . أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر ﴿ مولاهم الحق ﴾ ربهم الصادق ربوبيته ؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة . أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم ، العدل الذي لا يظلم أحداً . وقرئ : الحق ، بالفتح على تأكيد قوله (ردّوا إلى الله) كقولك هذا عبد الله الحق لا الباطل . أو على المدح كقولك : الحمد لله أهل الحمد ﴿ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله . أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة .

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ

فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أى يرزقكم منهما جميعاً، [1] لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته ﴿ من يملك السمع والأبصار ﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة. أو من يحميهما ويحصنهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ ومن يلى تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿ أفلا تتقون ﴾ أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال ﴿ فذلكم ﴾ إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله ﴿ ربكم الحق ﴾ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال ﴿ فأنى تصرفون ﴾ عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الحق ﴿ حقت كلمة ربك ﴾ أى كما حق وثبت أنّ الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق، فكذلك حقت كلمة ربك ﴿ على الذين فسقوا ﴾ أى تمرّدوا فى كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه، و ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الإيمان، وعلم الله منهم ذلك. أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان، وأن إيمانهم غير كائن. أو أراد بالكلمة: العدة بالعذاب، وأنهم لا يؤمنون تعليل، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)

(١) قال محمود: «معناه أى من يرزقكم منهما جميعا ... الخ» قال أحمد: وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية الزاعمين أن الأرزاق منقسمة، فمنها مارزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها مارزقه العبد لنفسه وهو الحرام وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفى لو سمعوا (أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون).

فإن قلت: كيف قيل لهم ﴿هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن رفعه دافع كان مكابراً راداً للظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه، دلالة على أنهم فى إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ فأمره بأن ينوب عنهم فى الجواب، يعنى أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم. يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين: ويقال: هدى بنفسه بمعنى اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى اشترى. ومنه قوله ﴿أمن لا يهدى[1]﴾ وقرئ لا يهدّى بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال. والأصل: يهتدى، فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت لالتقاء الساكنين، وقد كسرت الياء لاتباع مابعدها. وقرئ: إلا أن يهدى من هداه وهدّاه للمبالغة. ومنه قولهم: تهدى. ومعناه أن الله وحده هو الذى يهدى للحق، بما ركب فى المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر فى الأدلة التى نصبها لهم، وبما لطف بهم ووفقهم وألهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أندادا لله أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير، يهدى إلى الحق مثل هداية الله. ثم قال: أفمن يهدى إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع، أم الذى لا يهدى أى لا يهتدى بنفسه، أو لا يهدى غيره إلا أن يهديه الله وقيل: معناه أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه ﴿إلا أن يهدى﴾ إلا أن ينقل، أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديه ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ بالباطل، حيث تزعمون أنهم أندادا لله.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وما يتبع أكثرهم﴾ فى إقرارهم بالله ﴿إلا ظنا﴾ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم ﴿إن الظن﴾ فى معرفة الله ﴿لا يغنى من الحق﴾ وهو العلم ﴿شيئاً﴾ وقيل: وما يتبع أكثرهم فى قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن. والمراد بالأكثر: الجميع ﴿إن الله عليم﴾ وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء. وقرئ: تفعلون، بالتاء.

---

(١) قوله «أم من لا يهدى» من قولهم: هدى بنفسه. أم من لا يهدى، كيرمى. وقوله: بفتح الهاء... الخ: بقيت القراءة بكسرها مع التشديد، وقد أشار إليها بقوله «أو كسرت» والقراءة كيرمى لحمزة وعلى. وبالفتح مع التشديد للمكي والشامي. وبالكسر معه لعاصم. والأصل: يهتدي. وهي قراءة عبدالله، أفاده النسفى. (ع)

وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

﴿وما كان هذا القرآن﴾ افتراء ﴿من دون الله ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذى بين يديه﴾ وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة، لأنه معجز دونها فهو عيار عليها وشاهد لصحتها، كقوله تعالى (هو الحق مصدقاً لما بين يديه) وقرئ: ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب، على: ولكن هو تصديق وتفصيل. ومعنى ﴿وما كان أن يفترى﴾ وما صحّ وما استقام، وكان محالا أن يكون مثله فى علو أمره وإعجازه مفترى ﴿وتفصيل الكتاب﴾ وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع، من قوله (كتاب الله عليكم). فإن قلت: بم اتصل قوله ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾ قلت: هو داخل فى حيز الاستدراك. كأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلا منتفياً عنه الريب كائنا من رب العالمين. ويجوز أن يراد: ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلا منه لا ريب فى ذلك، فيكون (من رب العالمين) متعلقاً بتصديق وتفصيل، أو يكون (لا ريب فيه) اعتراضاً، كما تقول: زيد لا شكّ فيه كريم ﴿أم يقولون افتراه﴾ بل أيقولون اختلقه، على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم. أو إنكار لقولهم واستبعاد. والمعنيان متقاربان ﴿قل﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فأتوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بسورة مثله﴾ فأنتم مثلى فى العربية والفصاحة. ومعنى (بسورة مثله) أى شبيهة به فى البلاغة وحسن النظم. وقرئ: بسورة مثله، على الإضافة، أى: بسورة كتاب مثله ﴿وادعوا﴾ من دون الله ﴿من استطعتم﴾ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله، يعنى: أنّ الله وحده هو القادر على أن يأتى بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره، فلا تستعينوه وحده، ثم استعينوا بكل من دونه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنه افتراء ﴿بل كذبوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن، وفاجؤه فى بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه؛ وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ على التقليد من الحشوية،

إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ـ وإن كانت أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة وبيان الاستقامة ـ أنكرها فى أول وهلة، واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب. فإن قلت: ما معنى التوقع فى قوله ﴿ولما يأتهم تأويله﴾؟ قلت: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل [1]، تقليداً للآباء. وكذبوه بعد التدبر، تمرداً وعناداً، فذمّهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرّر عليهم التحدى، ورازوا قواهم [2] فى المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغياً وحسداً ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ يعنى قبل النظر فى معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا. وقيل: هو فى الذين كذبوا وهم شاكون. ويجوز أن يكون معنى (ولما يأتهم تأويله) ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أى عاقبته، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق، يعنى أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتسرّعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا فى نظمه وبلوغه حدّ الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ يصدق به فى نفسه، ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب. ومنهم من يشكّ فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال، أى: ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصرّ ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ بالمعاندين، أو المصرين.

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

﴿وإن كذبوك﴾ وإن تموا على تكذيبك [3] ويئست من إجابتهم، فتبرأ منهم وخلهم فقد أعذرت، كقوله تعالى (فإن عصوك فقل إنى برىء) وقيل: هى منسوخة بآية السيف.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

---

(١) قال محمود: «ومعناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ...الخ» قال أحمد: وكان التكذيب قبل الاحاطة بعلمه ربما يوهم عذراً ما للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تنحسم أعذارهم ويتحقق شقاؤهم، والله أعلم.

(٢) قوله «ورازوا قواهم» أى جربوها وخبروها. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «وإن تموا على تكذيبك» أى مضوا عليه ولم يرجعوا عنه. أفاده الصحاح. (ع)

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوّة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال: أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأنّ الأصم العاقل ربما تفرّس واستدل إذا وقع في صماخه دوىّ الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تمّ الأمر. وأتحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى العمى - وهو فقد البصر - فقد البصيرة؛ لأنّ الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن [1]. وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء. يعنى: أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا، كالصمّ والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول. وقوله ﴿أفأنت ..... أفأنت﴾ دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على ردّ الأصم والأعمى المساوى العقل حديدى السمع والبصر راجحى العقل، إلا هو وحده.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿إنّ الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ أى لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب. ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين، يعنى: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سببا فيه.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

﴿إلا ساعة من النهار﴾ يستقربون وقت لبثهم فى الدنيا. وقيل فى القبور، لهول ما يرون ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا، وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدّة الأمر عليهم. فإن قلت: (كأن لم يلبثوا) و(يتعارفون) كيف موقعهما؟ قلت أما الأولى فحال من «هم» أى يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة. وأما الثانية فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة، لقوله: كأن لم يلبثوا إلا ساعة، لأنّ التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكرا ﴿قد خسر﴾ على إرادة القول، أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هى شهادة من الله تعالى على خسرانهم. والمعنى أنهم وضعوا فى تجارتهم [2]

(١) قوله «ويتظنن» أى يعمل ظنه. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وضعوا فى تجارتهم» فى الصحاح: وضع الرجل فى تجارته وأوضع - على مالم يسم فاعله - وضعا فيهما، أى خسر. (ع)

ويبعهم الإيمان بالكفر ﴿وما كانوا مهتدين﴾ للتجارة عارفين بها ، وهو استئناف فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أخسرهم !

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

﴿فإلينا مرجعهم﴾ جواب نتوفينك ، وجواب نرينك محذوف ، كأنه قيل : وإما نرينك بعض الذى نعدهم فى الدنيا فذاك ، أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه فى الآخرة . فإن قلت : الله شهيد على ما يفعلون فى الدارين ، فما معنى ثم ؟ قلت : ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، كأنه قال : ثم الله معاقب على ما يفعلون . وقرأ ابن أبى عبلة : ثَم ، بالفتح ، أى هنالك . ويجوز أن يراد : أن الله مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة ، حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ولكل أمة رسول﴾ يبعث إليهم لينبههم على التوحيد ، ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فإذا جاء﴾هم ﴿رسولهم﴾ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه ﴿قضى بينهم﴾ أى بين النبى ومكذبيه ﴿بالقسط﴾ بالعدل ، فأنجى الرسول وعذب المكذبون ، كقوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) أو لكل أمّة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، كقوله تعالى (وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق) .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

﴿متى هذا الوعد﴾ استعجال لما وعدوا من العذاب استبعادا له ﴿لا أملك لنفسى ضرا﴾ من مرض أو فقر ﴿ولا نفعا﴾ من صحة أو غنى ﴿إلا ما شاء الله﴾ استثناء منقطع : أى ولكن ما شاء الله من ذلك كائن ، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب ؟ ﴿لكل أمة أجل﴾ يعنى أن عذابكم له أجل مضروب عند الله ، وحدّ محدود من الزمان ﴿إذا جاء﴾ ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة ، فلا تستعجلوا . وقرأ ابن سيرين : فإذا جاء آجالهم .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)

﴿ بياتا ﴾ نصب على الظرف ، بمعنى . وقت بيات . فإن قلت : هلا قيل ليلا أو نهاراً ؟ قلت: لأنه أريد : إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ، كما يبيت العدو المباغت . والبيات بمعنى التبييت ، كالسلام بمعنى التسليم ، وكذلك قوله ﴿ نهاراً ﴾ معناه فى وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب . ونحوه (بياتا وهم نائمون) ، (ضحى وهم يلعبون) الضمير فى ﴿ منه ﴾ للعذاب . والمعنى : أن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار ، فأى شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال . ويجوز أن يكون معناه التعجب ، كأنه قيل : أى شيء هول شديد [1] يستعجلون منه ، ويجب أن تكون «من» للبيان فى هذا الوجه . وقيل : الضمير فى (منه) لله تعالى . فإن قلت : بم تعلق الاستفهام ؟ وأين جواب الشرط ؟ قلت : تعلق بأرأيتم ؛ لأنّ المعنى : أخبرونى ماذا يستعجل منه المجرمون ، وجواب الشرط محذوف وهو : تندموا على الاستعجال ، أو تعرفوا الخطأ فيه . فإن قلت : فهلا قيل : ماذا تستعجلون منه [2] . قلت : أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام ؛ لأنّ من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعا من مجيئه وإن أبطأ ، فضلا أن يستعجله . ويجوز أن يكون (ماذا يستعجل منه المجرمون) جوابا للشرط ، كقولك : إن أتيتك ماذا تطعمنى ؟ ثم تتعلق الجملة بأرأيتم ، وأن يكون ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ﴾ جواب الشرط ، و(ماذا يستعجل منه المجرمون) اعتراضاً . والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ، ودخول حرف الاستفهام على ثم ، كدخوله على الواو والفاء فى قوله (أفأمن أهل القرى) ، (أو أمن أهل القرى). ﴿ آلآن ﴾ على إرادة القول ، أى : قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم به ﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ يعنى : وقد كنتم به تكذبون ؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة التكذيب

(١) قوله «أى شيء هول شديد» لعله أى شيء أى هولا شديدا . (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت هلا قيل ماذا تستعجلون منه ... الخ» ؟ قال أحمد : وفى هذا النوع البليغ نكتتان ، إحداهما : وضع الظاهر مكان المضمر . والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر ، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة ، والله أعلم .

والإنكار. وقرئ: آلان، بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام ﴿ثم قيل الذين ظلموا﴾ عطف على «قيل» المضمر قبل آلآن.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣)

﴿ويستنبئونك﴾ ويستخبرونك فيقولون ﴿أحق هو﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء. وقرأ الأعمش: آلحق هو، وهو أدخل في الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل. وذلك أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحق، والضمير للعذاب الموعود. و﴿أي﴾ بمعنى «نعم» في القسم خاصة، كما كان «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة. وسمعتهم يقولون في التصديق: إيوَ. فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين العذاب، وهو لاحق بهم لا محالة.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

﴿ظلمت﴾ صفة لنفس على: ولو أن لكل نفس ظالمة ﴿ما في الأرض﴾ أي ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها على كثرتها ﴿لافتدت به﴾ لجعلته فدية لها. يقال: فداه فافتدى. ويقال: افتداه أيضاً بمعنى فداه ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ لأنهم بهتوا لرؤيتهم مالم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعاينوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب، كما ترى المقدم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة [1] ويبقى جامداً مبهوتاً. وقيل أسر رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم، حياء منهم وخوفا من توبيخهم. وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سر الشيء، لخالصه. وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة. وقيل: أسروا الندامة: أظهروها، من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره. وليس هناك تجلد ﴿وقضى بينهم﴾ أي بين الظالمين والمظلومين. دل على ذلك ذكر الظلم. ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله، وأنه

(١) قوله «لا ينبس بكلمة» أي لا يتكلم. أفاده الصحاح. (ع)

المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق. وهو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك، فيخاف ويرجى، ولا يغتر به المغترون.

يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

﴿قد جاءتكم موعظة﴾ أى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد ﴿و﴾هو ﴿شفاء﴾ أى دواء ﴿لما فى﴾ صدوركم من العقائد الفاسدة ودعاء إلى الحق ﴿ورحمة﴾ لمن آمن به منكم. أصل الكلام: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا. والتكرير للتأكيد والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه. والفاء داخلة لمعنى الشرط؛ كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لامفروح به أحق منهما. ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا. ويجوز أن يراد: قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته، فبذلك: فبمجيئها فليفرحوا. وقرئ فلتفرحوا، بالتاء وهو الأصل والقياس، وهى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى. وعنه [1] «لتأخذوا مضاجعكم [2]» قالها فى بعض الغزوات. وفى قراءة أبىّ: فافرحوا ﴿هو﴾ راجع إلى ذلك. وقرئ: مما تجمعون، بالياء والتاء. وعن أبىّ بن كعب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا (قل بفضل الله وبرحمته) فقال «بكتاب الله والإسلام [3]» وقيل «فضله» الإسلام «ورحمته» ما وعد عليه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الترمذى من حديث معاذ بن جبل قال «أبطأ عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاة الفجر حتى كادت الشمس تطالع ثم خرج فأقيمت الصلاة فصلى بنا صلاة تجوزها فلما سلم قال: فأنتم على مصافكم ـ الحديث»

(٢) قوله «لتأخذوا مضاجعكم» لعل الرواية «مصافكم». (ع)

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى (قل بفضل الله) فذكره. وعن أبى سعيد كذلك أخرجه الطبرى، وروى ابن مردويه من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قل بفضل الله وبرحمته» قال: بفضل الله القرآن وبرحمته أن جعلكم من الملة».

الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

﴿أرأيتم﴾ أخبرونى. و﴿ما أنزل الله﴾ «ما» فى موضع النصب بأنزل، أو بأرأيتم، فى معنى: أخبرونيه ﴿فجعلتم منه حراما وحلالا﴾ أى أنزله الله رزقا حلالا كله فبعضتموه وقلتم: هذا حلال وهذا حرام، كقولهم (هذه أنعام وحرث حجر)، (مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) ﴿آلله أذن لكم﴾ متعلق بأرأيتم. وقل: تكرير للتوكيد. والمعنى: أخبرونى آلله أذن لكم فى التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تتكذبون على الله فى نسبة ذلك إليه. ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار. وأم منقطعة بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريرا للافتراء. وكفى بهذه الآية زاجرة زجراً بليغاً عن التجوز فيما يسئل عنه من الأحكام. وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد فى شىء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان. ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت، وإلا فهو مفتر على الله ﴿يوم القيامة﴾ منصوب بالظن، وهو ظنّ واقع فيه، يعنى: أى شىء ظنّ المفترين فى ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره. وقرأ عيسى بن عمر: وما ظنّ، على لفظ الفعل. ومعناه: وأى ظنّ ظنوا يوم القيامة. وجىء به على لفظ الماضى لأنه كائن فكأن قد كان ﴿إنّ الله لذو فضل على الناس﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحى وتعليم الحلال والحرام ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

﴿وما تكون فى شأن﴾ «ما» نافية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والشأن: الأمر، وأصله الهمز بمعنى القصد، من شأنت شأنه إذا قصدت قصده. والضمير فى ﴿منه﴾ للشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل، كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن، لأنّ كلّ جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له. أو لله عزّ وجل. وما ﴿تعملون﴾ أنتم جميعاً ﴿من عمل﴾ أىّ عمل كان

﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ شاهدين رقباء نحصى عليكم ﴿إذ تفيضون فيه﴾من أفاض فى الأمر إذا اندفع فيه ﴿وما يعزب﴾ قرئ بالضم والكسر : وما يبعد وما يغيب ، ومنه : الروض العازب ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ القراءة بالنصب والرفع ، والوجه النصب على نفى الجنس ، والرفع على الابتداء ليكون كلاما برأسه . وفى العطف على محل ﴿من مثقال ذرة﴾ أو على لفظ (مثقال ذرّة) فتحاً فى موضع الجرّ لامتناع الصرف : إشكال ، لأنّ قولك « لا يعزب عنه شيء إلا فى كتاب » مشكل . فإن قلت : لم قدمت الأرض على السماء ، بخلاف قوله فى سورة سبأ (عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرّة فى السموات ولا فى الأرض) ؟ قلت : حق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ووصل بذلك قوله (لا يعزب عنه) لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء ، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية .

أَلَاۤ إِنَّ أَوْلِيَاۤءَ اللهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

﴿أولياء الله﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة . وقد فسر ذلك فى قوله ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فهو توليهم إياه ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ فهو توليه إياهم . وعن سعيد بن جبير أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل : من أولياء الله ؟ فقال : « هم الذين يذكر الله برؤيتهم »[1] يعنى السمت والهيئة . وعن ابن عباس رضى الله عنه : الإخبات والسكينة . وقيل : هم المتحابون فى الله . وعن عمر رضى الله عنه : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول « إنّ من عباد الله عباداً ماهم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله » قالوا يارسول الله ، خبرنا من هم وما أعمالهم ؟ فلعلنا نحبهم ، قال : « هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس »

(١) أخرجه ابن أبى شيبة من رواية أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عنه به وابن مردويه من طريق يحيى الحمانى عن يعقوب السهمى عن جعفر كذلك ووصله النسائى والبزار من رواية محمد بن سعيد بن سابق عن يعقوب بذكر ابن عباس . قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولياء الله قال : الذين إذا رءوا ذكر الله .» قال البزار : رواه غير محمد عن يعقوب بغير ذكر ابن عباس .

ثم قرأ الآية [١] (الذين آمنوا) نصب أو رفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء والخبر لهم البشرى ، والبشرى فى الدنيا مابشر الله به المؤمنين المتقين فى غير مكان من كتابه ، وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم «هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له [٢]» وعنه عليه الصلاة والسلام : ذهبت النبوة وبقيت المبشرات : وقيل : هى محبة الناس له والذكر الحسن . وعن أبى ذر : قلت : لرسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال «تلك عاجل بشرى المؤمن [٣]» وعن عطاء : لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة . قال الله تعالى (تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة) وأمّا البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرءون منها ، وغير ذلك من البشارات

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه والطبرى وأبو نعيم فى أوائل الحلية والبيهق فى الشعب من رواية جرير عن عمارة بن غزية عن أبى زرعة عن عمر به . قال البيهق : أبو زرعة عن عمر مرسل . ورواه ابن مردويه من وجه آخر بذكر أبى هريرة بين أبى زرعة وعمر ورواه النسائى وابن حبان من وجه آخر عن أبى زرعة عن أبى هريرة . فلم يذكر عمر . وفى الباب عن أنس أخرجه ابن عدى والعقيلى والبيهق فى الشعب أيضا فى العاشر منه وفيه واقد بن سلامة عن يزيد الرقاشى . وهما ضعيفان . وعن أبى الدرداء أخرجه الطبرانى وفيه فرج بن فضالة وهو ساقط . وعن أبى مالك الأشعرى . أخرجه عبدالرزاق ومن طريقه الطبرانى والبيهقى وفيه شهر بن حوشب وعن ابن عمر أخرجه الحاكم من رواية زياد بن خيثمة عنه . وعن العلاء بن زياد مرسلا . أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه .

(٢) أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم والبيهق وأحمد وإسحاق من طريق أبى سلمة عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (لهم البشرى فى الحياة الدنيا ، قال : هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له ، رجاله ثقات : إلا أنه معلول ، فان أبا سلمة لم يسمع من عبادة ، وقد أخرجه الترمذى والحاكم أيضا عن أبى سلمة قال : نبئت عن عبادة ، وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية حميد بن عبدالرحمن المرىء عن عبادة . وأخرجه الترمذى أيضا وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبرانى والبيهق من طريق عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر : سألت أبا الدرداء عن قول الله تعالى (لهم البشرى فى الحياة الدنيا) قال سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» زاد بعضهم «وفى الآخرة الجنة» قال ابن أبى حاتم عن أبيه : هذا الرجل لايعرف . وفى الباب عن ابن مسعود أخرجه ابن مردويه بلفظ «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر مثل حديث عبادة» وعن جابر بن عبدالله بن رباب أخرجه البزار وابن عدى ومن طريق الكلبى عن أبى صالح عنه مرفوعا فى قوله تعالى (لهم البشرى) ـ الحديث . وعن جابر أخرجه ابن مردويه من رواية جابر الجعفى عن أبى جعفر عن جابر . قال : جابر هذا هو ابن رباب . كذا قال فأخطأ . وقد أخرجه من وجه آخر عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر عن أبى هريرة أخرجه الطبرى وابن مردويه من رواية عمار بن محمد عن الأعمش عن أبى صالح عنه . قيل : انفرد به عمار . لكن أخرجه النسائى فى الكنى من رواية إسحاق بن عبدالرحمن بن عمر : ان الأعمش حدثه ، فذكره . وقال : أبو إسحاق لاأعرفه . والحديث خطأ . وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أخرجه النسائى وأبو يعلى من رواية دراج عن عبدالرحمن بن جبير عنه . وزاد «الرؤيا جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة .

(٣) أخرجه مسلم بلفظ «فتحبه وتحمده الناس عليه» .

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ، كقوله تعالى (ما يبدّلُ القول لدىّ) و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين فى الدارين ، وكلتا الجملتين اعتراض ،

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

﴿ ولا يحزنك ﴾ وقرئ : ولا يحزنك ، من أحزنه ﴿قولهم﴾ تكذيبهم لك . وتهديدهم ، وتشاورهم فى تدبير هلاكك وإبطال أمرك ، وسائر مايتكلمون به فى شأنك ﴿ إنّ العزة لله ﴾ استئناف بمعنى التعليل ، كأنه قيل : مالى لا أحزن ؟ فقيل : إنّ العزة لله جميعاً ، أى إن الغلبة والقهر فى ملكة الله جميعاً ، لا يملك أحد شيئاً منها لاهم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم وينصرك عليهم (كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى) . (إنا لننصر رسلنا) وقرأ أبو حيوة . أن العزة ، بالفتح بمعنى : لأن العزة على صريح التعليل . ومن جعله بدلا من قولهم ثم أنكره ، فالمنكر هو تخريجه ، لاما أنكر من القراءة به ﴿هو السميع العليم﴾ يسمع مايقولون . ويعلم مايدبرون ويعزمون عليه . وهو مكافئهم بذلك .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

﴿من فى السموات ومن فى الارض﴾ يعنى العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان ، وإنما خصهم ، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفى ملكته فهم عبيد كلهم ، وهو سبحانه وتعالى ، ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولا أن يكون شريكا له فيها ، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له نداً وشريكا ، وليدلّ على أنّ من اتخذ غيره ربا من ملك أو إنسى فضلا عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدّى إليه التقليد وترك النظر . ومعنى : وما يتبعون شركاء ، أى : وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء ، لأنّ شركة الله فى الربوبية محال ﴿إن يتبعون إلا﴾ ظنهم أنها شركاء ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يحزرون ويقدرون أن تكون شركاء تقديراً باطلا . ويجوز أن يكون (ومايتبع) فى معنى الاستفهام ، يعنى : وأى شىء يتبعون . و (شركاء) على هذا نصب بيدعون ، وعلى الأوّل بيتبع . وكان حقه . وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء ، فاقتصر على أحدهما للدلالة . ويجوز أن تكون « ما » موصولة معطوفة على « من » كأنه قيل : ولله مايتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء ، أى : وله شركاؤهم . وقرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه : تدعون ، بالتاء ، ووجهه أن يحمل (وما يتبع) على الاستفهام ، أى : وأى شىء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين ، يعنى :

أنهم يتبعون الله ويطيعونه. فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن. ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبيون من الحق

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التى يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة، بأنه جعل لهم الليل مظلماً ليسكنوا فيه مما يقاسون فى نهارهم من تعب التردّد فى المعاش، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم ﴿لقوم يسمعون﴾ سماع معتبر مذكر.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُ هُوَ الْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد، وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿هو الغنى﴾ علة لنفى الولد لأنّ ما يطلب به الولد من يلد، وما يطلبه له السبب فى كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفيا ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولدا ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله: (إن عندكم) على أن يجعل القول مكاناً للسلطان، كقولك. ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين. فدلّ على أنّ كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس بعلم.

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿يفترون على الله الكذب﴾ بإضافة الولد إليه ﴿متاع فى الدنيا﴾ أى افتراؤهم هذا منفعة قليلة فى الدنيا، وذلك حيث يقيمون رياستهم فى الكفر ومناصبة النبى صلى الله عليه وسلم بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ

لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)

﴿ كبر عليكم ﴾ عظم عليكم وشق وثقل . ومنها قوله تعالى (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) ويقال : تعاظمه الأمر ﴿ مقامى ﴾ مكانى ، يعنى نفسه ، كما تقول : فعلت كذا لمكان فلان : وفلان ثقيل الظل . ومنه (ولمن خاف مقام ربه) بمعنى خاف ربه . أو قيامى [١] ومكثى بين أظهركم مدداً طوالا ألف سنة إلا خمسين عاماً . أو مقامى [٢] وتذكيرى : لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ، ليكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعا ، كما يحكى عن عيسى صلوات الله عليه أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ من أجمع الأمر وأزمعه ، إذا نواه وعزم عليه . قال :

* هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْمًا وَأَمْرِى مُجْمَعُ * [٣]

والواو بمعنى «مع» يعنى : فأجمعوا أمركم مع شركائكم . وقرأ الحسن : وشركاؤكم بالرفع، عطفا على الضمير المتصل ، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام ، كما تقول : اضرب زيداً وعمرو . وقرئ : فاجمعوا من الجمع . وشركاءكم نصب للعطف على المفعول ، أو لأنّ الواو بمعنى « مع » وفى قراءة أبىّ : فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم . فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء ؟ قلت : على وجه التهكم ، كقوله (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون) . فإن قلت : ما معنى الأمرين ؟ أمرهم الذى يجمعونه ، وأمرهم الذى لا يكون عليهم غمة ؟ قلت : أمّا الأمر الأوّل فالقصد إلى إهلاكه ، يعنى : فأجمعوا ما تريدون من إهلاكى واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم فى كيدى . وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده

---

(١) قوله «أو قيامى ومكثى» لعله أو مقامى بالضم . (ع)

(٢) قوله «أو مقامى وتذكيرى» لعل هذا أو قيامى . (ع)

(٣) ياليت شعرى والحوادث جمة هل أغدون يوما وأمرى مجمع

قوله «والحوادث جمة» أى كثيرة . جملة اعتراضية . وأغدون : مؤكد بالنون الخفيفة . وأمرى مجمع : أي منوى مجزوم بامتثاله . أو المعنى : وشملى مجتمع بعد تفرقه ، وهى جملة حالية مغنية عن خبر أغدون . أوخبرها . وزيدت الواو لتوكيد الربط . وأجمع يتعلق بالمعقول ، وجمع يتعلق بالمحسوس .

ربه من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا. وأما الثانى ففيه وجهان، أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وماكانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعنى: ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببى غصة وحالكم عليكم غمة: أى غما وهما. والغم والغمة، كالكرب والكربة. والثانى أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره. ومنها قوله عليه السلام «ولا غمة فى فرائض الله»[1] أى لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعنى: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا[2] عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونى به ﴿ثم اقضوا إلىّ﴾ ذلك الأمر الذى تريدون بى، أى: أدوا إلىّ قطعه وتصحيحه، كقوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر) أو أدوا إلىّ ماهو حق عليكم عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه ﴿ولا تنظرون﴾ ولا تمهلونى. وقرئ: ثم أفضوا إلىّ، بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إلىّ بشركم. وقيل هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أى أصحروا به إلىّ وأبرزوه لى ﴿فإن توليتم﴾ فإن أعرضتم عن تذكيرى ونصيحتى ﴿فما سألتكم من أجر﴾ فما كان عندى ما ينفركم عنى وتتهمونى لأجله من طمع فى أموالكم وطلب أجر على عظتكم (إن أجرى إلا على الله) وهو الثواب الذى يثيبنى به فى الآخرة أى: ما نصحتكم إلا لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذى كل مسلم مأمور به. والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه فى سوق الأمر معهم على الطريق الذى يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير ﴿فكذبوه﴾ فتموا على تكذيبه[3] وكان تكذيبهم له فى آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم فى أولها، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان ﴿وجعلناهم خلائف﴾ يخلفون الهالكين بالغرق ﴿كيف كان عاقبة المنذرين﴾ تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله، وتسلية له.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

﴿من بعده﴾ من بعد نوح ﴿رسلا إلى قومهم﴾ يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ﴿فجاءوهم

(١) هو طرف من حديث وائل بن حجر فى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأقيال، وفيه: «ولا توصم فى الدين ولا غمة فى فرائض الله» وقال: الغمة السترة، أى لا تستر فى فرائض الله، بل ظاهر بها.

(٢) قوله «مستورا عليكم» لعله أراد ملتبسا، فلذا قال عليكم، كما أشار إليه النسفى. (ع)

(٣) قوله «فتموا على تكذيبه» أي استمروا. أفاده الصحاح. (ع)

بالبينات﴾ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لشدة شكيمتهم فى الكفر وتصميمهم عليه ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق . فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها ، كأن لم يبعث إليهم أحد ﴿كذلك نطبع ﴾ مثل ذلك الطبع المحكم نطبع ﴿على قلوب المعتدين ﴾ والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم ، لأنّ الخذلان يتبعه . ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

﴿من بعدهم﴾ من بعد الرسل﴿بآياتنا﴾ بالآيات التسع ﴿فاستكبروا﴾ عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ، ويتعظموا عن تقبلها ﴿ وكانوا قوماً مجرمين﴾ كفاراً ذوى آثام عظام ، فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردّها ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾ فلما عرفوا أنه هو الحق ، وأنه من عند الله ، لا من قبل موسى وهرون ﴿قالوا﴾ لحبهم الشهوات ﴿ إن هذا لسحر مبين﴾ وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر الذى ليس إلا تمويهاً وباطلا . فإن قلت : هم قطعوا بقولهم (إن هذا لسحر مبين) على أنه سحر ، [1] فكيف قيل لهم : أتقولون أسحر هذا ؟ قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله﴿أتقولون للحق﴾ أتعيبونه وتطعنون فيه . وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه ، من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه ، ونحو القول : الذكر ، فى قوله(سمعنا فتى يذكرهم) ثم قال ﴿ أسحر هذا ﴾ فأنكر ما قالوه فى عيبه والطعن عليه ، وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم (إن هذا لسحر مبين)كأنه قيل . أتقولون ما تقولون ، يعنى قولهم : إن هذا لسحر مبين ، ثم قيل : أسحر هذا ؟ وأن يكون جملة قوله (أسحر هذا ولا يفلح الساحرون) حكاية لكلامهم ، كأنهم قالوا : أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ كما قال

(١) قال محمود : «إن قلت هم قطعوا بقولهم إن هذا لسحر مبين على أنه سحر ... الخ» قال أحمد : وفى الفرق بين الوجهين غموض ، وإيضاحه أن القول على الوجه الأول وقع كناية عن العيب ، فلا يتقاضى مفعولا وفى الثانى على أنه يطلب مفعولا والله أعلم .

موسى للسحرة : ما جئتم به آلسحر ، إنّ الله سيبطله ﴿ لتلفتنا ﴾ لتصرفنا . واللفت والفتل : أخوان ، ومطاوعهما الالتفات والانفتال ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ يعنون عبادة الأصنام ﴿ وتكون لكما الكبرياء ﴾ أي الملك ؛ لأنّ الملوك موصوفون بالكبر . ولذلك قيل للملك : الجبار ، ووصف بالصيد والشوس ، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله :

مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلاَ كِبْرِيَاء [٣]

ينفى ما عليه الملوك من ذلك . ويجوز أن يقصدوا ذمهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا ، كما قال القبطي لموسى عليه السلام : إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أي مصدقين لكما فيما جئتما به . وقرئ : يطبع ، ويكون لكما ، بالياء .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢)

﴿ ما جئتم به ﴾ ما موصولة واقعة مبتدأ . و ﴿ السحر ﴾ خبر ، أى الذى جئتم به هو السحر [١]

---

(١) لعبد الله بن قيس الرقيات . وقيل : لقيس الرقيات يمدح مصعبا ، سمى قيس الرقيات لأنه اتفق له أنه تزوج عدة نسوة ، كل منهن تسمى رقية . وملك : وصف كحذر ، فلذلك نصب «ملك رأفة» على المصدر . وروى «ملكه ملك» على المبتدأ والخبر . وضمير «فيه» للمصدر . أى : ليس فى ملكه جبروت منه ، أى من مصعب . ويحتمل أن الضميرين له . والجبروت : مبالغة فى الجبر والقهر ، أى : ليس فيه ذلك كغيره ، فهو أعظم الملوك .

(٢) قال محمود : «ما موصولة مبتدأ ، والسحر خبر أى الذى جئتم به ... الخ» قال أحمد : وليس المراد فى القراءة الأولى الإخبار بأن ماجاؤا به سحر خاصة ، ولكن مع تنزيه ماجاء به عن كونه سحراً . وإنما يستفاد ذلك بما فى هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر ، ولو مرت بخاطر الامام أبى المعالى فى مسئلة تحريمة التكبير لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر ، فانا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه فانما أراد إضافة السحر إلى ماجاؤا به محصوراً فيه ، حتى لايتعدى إلى الحق الذى جاء به هو منه شىء . وأما القراءة الثانية ففيها - والله أعلم - إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أولا (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) حكاية لقولهم ، ويكون (أسحر هذا) هو الذى قالوه ، ولايناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا (إن هذا لسحر مبين) وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدؤا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له ، بل قد يكون الاستفهام فى بعض المواطن أبت من الاخبار . الاترى أنهم يقولون فى قوله : آأنت أم سالم ، أبلغ فى البت من قوله : مخبرا أنت أم سالم ؟ ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة بيت الانكار ودعوى أنه سحر فقالوا : إن هذا لسحر مبين ، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثانى ،

لا الذى سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله . وقرئ : آلسحر ، على الاستفهام . فعلى هـذه القراءة «ما» استفهامية ، أى : أىّ شيء جئتم به ، أهو السحر ؟ وقرأ عبدالله : ما جئتم به سحر . وقرأ أبىّ : ما أتيتم به سحر . والمعنى : لا ما أتيت به ﴿إن الله سيبطله﴾ سيمحقه أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة ﴿لا يصلح عمل المفسدين﴾ لا يثبته ولا يديمه ، ولـكن يسلط عليه الدمار ﴿ويحق الله الحق﴾ ويثبته ﴿بكلماته﴾ بأوامره وقضاياه . وقرئ : بكلمته ، بأمره ومشيئته .

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فما آمن لموسى﴾ فى أول أمره ﴿إلا ذرية من قومه﴾ إلا طائفة من ذرارى بنى إسرائيل ، كأنه قيل : إلا أولاد من أولاد قومه . وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون ، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف . وقيل : الضمير فى قومه لفرعون ، والذرية : مؤمن آل فرعون ، وآسية امرأته ، وخازنه ، وامرأة خازنه ، وماشطته . فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى قوله ﴿وملئهم﴾ ؟ قلت : إلى فرعون ، بمعنى آل فرعون ، كما يقال : ربيعة ومضر . أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له . ويجوز أن يرجع إلى الذرية ، أى على خوف من فرعون وخوف من أشراف بنى إسرائيل ، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم . ويدل عليه قوله ﴿أن يفتنهم﴾ يريد أن يعذبهم ﴿وإنّ فرعون لعال فى الأرض﴾ لغالب فيها قاهر ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ فى الظلم والفساد ، وفى الكبر والعتو ، بادعائه الربوبية .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم

= ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما أن لا يكونوا قالوا سوى (أسحر هذا) على سبيل الانكار حسبما تقدم ، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله ، لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الانكار وبت القول أنه سحر . وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بعبارة أخرى . وحكاية القصص المتلوة فى الكتاب العزيز بصيغ مختلفة لا تحملها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية ، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعانى . وحاصل هذا البحث : أن قول موسى عليه السلام (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهما ، فقال : ما جئتم به آلسحر ؟ على قراءة الاستفهام قرضاً بوفاء على السواء ، والذى يحقق لك أن الاستفهام والاخبار فى مثل هذا المعنى مؤداهما واحد : أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام (ما جئتم به السحر) على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءتان ، وهو قول واحد دل على أن مؤدى الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر . وإنما حمل الزمخشرى على تأويل القول بالتعييب ، أو إضمار مفعول تقولون . استشكالا لوقوع الاستفهام محكياً بالقول ، والمحكى أولا عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافى بين الأمرين ، فشد بهذا الفصل عرى التمسك ، فانه من دقائق النكت . والله الموفق .

مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ صدقتم به وبآياته ﴿فعليه توكلوا﴾ فإليه أسندوا أمركم فى العصمة من فرعون. ثم شرط فى التوكل الإسلام، وهو أن يسلموا نفوسهم لله، أى يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط. ونظيره فى الكلام: إن ضربك زيد فاضربه، إن كانت بك قوة ﴿فقالوا على الله توكلنا﴾ إنما قالوا ذلك، لأن القوم كانوا مخلصين، لا جرم أنّ الله سبحانه قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء فى أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿لا تجعلنا فتنة﴾ موضع فتنة لهم، أى: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا. أو فتنة لهم يفتتنون بنا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

تبوأ المكان: اتخذه مباءة، كقولك: توطنه، إذا اتخذه وطناً. والمعنى اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته[1] مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه ﴿واجعلوا بيوتكم﴾ تلك ﴿قبلة﴾ أى مساجد متوجهة نحو القبلة وهى الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا فى أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم فى خفية من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك فى أول الإسلام بمكة. فإن قلت: كيف نوّع الخطاب، فثنى أولا، ثم جمع، ثم وحد آخراً. قلت: خوطب موسى وهرون عليهما السلام أن يتبوآ لقومهما بيوتا، ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوّض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنّ ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التى هى الغرض، تعظيما لها وللمبشر بها.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(١) قوله «بمصر بيوتا من بيوته» لعل الضمير لمصر. (ع)

الزينة: ما يتزين به من لباس أو حلى أو فرش أو أثاث أو غير ذلك. وعن ابن عباس رضى الله عنه: كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت. فإن قلت: ما معنى قوله ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾؟ قلت: هو دعاء بلفظ الأمر[1]، كقوله (ربنا اطمس)، (واشدد)، وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا وردّد عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلا، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً، وعلى الإنذار إلا استكباراً، وعن النصيحة[2] إلا نبوا، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغى والضلال، وأنّ إيمانهم كالمحال الذى لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحى من الله ـ اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقته وكراهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون[3] فيه، كأنه قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال. وليكونوا ضلالا،[4] وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما علىّ منهم، هم أحق بذلك وأحق، كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر إذا ما لم يقبل منه، حسرة على ما فاته من قبول نصيحته، وحرداً[5] عليه، لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه. ومعنى الشدّ على القلوب. الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان ﴿فلا يؤمنوا﴾ جواب للدعاء الذى هو «اشدد»، أو دعاء بلفظ النهى، وقد

---

(١) قال محمود: «قلت هو دعاء بلفظ الأمر ... الخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفى الذى هو أدق من دبيب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفا. ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل والباطن أن اللام للتعليل، وأن الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن الله إنما أمدهم بالزينة والأموال وما يتبعهما من النعم استدراجا ليزدادوا إثما وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم بقوله (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمخشرى بنى على القاعدة الفاسدة فى استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أن من الجور أن يملى لهم فى الضلالة ويعاقبهم عليها، فهو متبتل لما يرد من الآيات بعمل الحيلة فى تأويلها وردها إلى معتقده وجعلها تبعا له، كما تقدم له فى تأويل قوله (ليزدادوا إثما) وكأين من آية غراء رام أن يسترغثها ويطفئ نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً وعقداً، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ثم لا يسعه إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات، ولقد برأه الله وكان عند الله وجيها.

(٢) قوله «وعن النصيحة» لعله وعلى (ع)

(٣) قوله «يتسكعون» فى الصحاح: «التسكع» التمادى فى الباطل. (ع)

(٤) قوله «وليكونوا ضلالا» هذا على قراءة (ليضلوا) بفتح الياء. والقراءة المشهورة (ليضلوا) بضمها. وعبارة النسفى: ليضلوا الناس عن طاعتك اه (ع)

(٥) قوله «وحرداً عليه» فى الصحاح: الحرد ـ بالتحريك: الغضب. (ع)

حملت اللام فى ليضلوا على التعليل، على أنهم جعلوا نعمة الله سبباً فى الضلال، فكأنهم أوتوها ليضلوا. وقوله (فلا يؤمنوا) عطف على ليضلوا. وقوله (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم) دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقرأ الفضل الرقاشي: أئنك آتيت؟ على الاستفهام، واطمس بضم الميم.

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)

قرئ: دعواتكما. قيل: كان موسى يدعو وهرون يؤمّن. ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان. والمعنى: إنّ دعاءكما مستجاب. وما طلبتما كائن ولكن فى وقته ﴿فاستقيما﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة فى إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام فى قومه ألف عام إلا قليلا ولا تستعجلا. قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة ﴿ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون﴾ أى لا تتبعا طريق الجهلة بعادة الله فى تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا فإن العجلة ليست بمصلحة. وهذا كما قال لنوح عليه السلام (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) وقرئ: ولا تتبعانِ، بالنون الخفيفة، وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية، وبتخفيف التاء من تبع.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)

قرأ الحسن: وجوزنا من أجاز المكان وجوزه وجاوزه، وليس من جوز الذى فى بيت الأعشى:

* وَإِذَا تَجَوَّزْنَا حِبَالَ قَبِيلَةٍ * (١)

(١) وإذا تجوزنا حبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالا
للأعشى. وشبه عهود الأمان التى يأخذها من القبيلة يتوثق ويتوصل بها إلى أخرى بالحبال، بجامع التوثق بكل على طريق التصريحية. أى: وإذا تجشمنا مجاوزة عهود قبيلة وتكلفنا مجاوزة محل أمانها؛ فايقاع التجوز على الحبال: مجاز عقلى، أخذت ناقتى من القبيلة الأخرى حال كونها ذاهبة إليك حبالا، أى عهوداً للتوصل للقبيلة الأخرى. وهكذا. وإسناد الأخذ لها مجاز عقلى، ويكفى فى الملابسة مجاورتها له حين الفعل. وإنما أسنده إليها للمبالغة، وتخييل أنها تعرف الممدوح وفضله، فهى المسافرة إليه بنفسها. وروى يجوزها. وجبال بالجيم، فمعنى أخذت: قطعت من أرض القبيلة الأخرى بالسير إليك جبالا غير تلك. وعلى كل، ففيه دليل على صعوبة الطريق.

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال وجوزنا بنى إسرائيل فى البحر كما قال :

* كَمَا جَوَّزَ السَّكِّيَّ فِي الْبَابِ فَيْتَقُ * (١)

﴿فأتبعهم﴾ فلحقهم . يقال : تبعته حتى أتبعته . وقرأ الحسن : وعدوّا (٢) . وقرئ : أنه بالفتح على حذف الباء التى هى صلة الإيمان ، وإنه بالكسر على الاستئناف بدلا من آمنت . كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات فى ثلاث عبارات حرصاً على القبول ، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته . وقاله حين لم يبق له اختيار قط ، وكانت المرّة الواحدة كافية فى حال الاختيار وعند بقاء التكليف .

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾

﴿آلان﴾ أتؤمن الساعة فى وقت الاضطرار حين أدركك الغرق (٣) وأيست من نفسك . قيل : قال ذلك حين ألجمه الغرق يعنى حين أو شك أن يغرق . وقيل : قاله بعد أن غرق فى نفسه . والذى يحكى أنه حين قال (آمنت) أخذ جبريل من حال البحر (٤) فدسه فى فيه ، فللغضب لله على الكافر فى وقت قد علم أنّ إيمانه لا ينفعه . وأمّا مايضم إليه من قولهم : خشية أن تدركه رحمة الله فمن زيادات الباهتين (٥) لله وملائكته : وفيه جهالتان ، إحداهما : أنّ الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس ، فحال البحر لا يمنعه . والأخرى : أنّ من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر

(١) ولا بد من جار يجيز سبيلها كما جوز السكى فى الباب فيتق
للأعشى يصف مفازة الغزل فيها المحلق عن بنى عكاظ كما يأتى قريباً . يقول : ولا بد لمريد قطعها من جار : أى قريب منها يعين المسافر على سلوك سبيلها . وجازه يجوزه : سلكه . وأجازه يجيزه : أسلكه . وكذا جوزه يجوزه بالتشديد فيهما . والسكى : المسمار ، نسبة للسك ، ، وهو تضبيب الباب وتسميره . والفيتق : النجار ؛ لأنه يفتق الخشب بالمسمار . ويروى : كما سلك السكى ، أى : لا يعدم من معين ، ينفذه فيها كما أنفذ النجار المسمار فى الباب . وعبر بالماضى ليدل على أن المشبه به معهود للسامع .

(٢) قوله : « وقرأ الحسن وعدوا » فى الصحاح : عدا عدوا وعدوا وعداء اه . وقد مر فى قوله تعالى (فيسبوا الله عدواً) (ع)

(٣) قال محمود : « معناه أتؤمن الساعة فى وقت اضطرارك حين أدركك الغرق . . . الخ » قال أحمد : ولقد أنكر منكراً ، وغضب لله وللملائكة كما يجب لهم ، والله الموفق .

(٤) قوله « من حال البحر فدسه » أى طينه الأسود . أفاده الصحاح . وفى الحديث « قال جبريل يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه » كذا فى الخازن . (ع)

(٥) قوله « الباهتين لله » فى الصحاح « بهته » إذا قال عليه ما لم يفعله . (ع)

لأن الرضا بالكفر كفر[1] ﴿من المفسدين﴾ من الضالين المضلين عن الإيمان، كقوله (الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) وروى أنّ جبريل عليه السلام أتاه بفتيا: ما قول الأمير فى عبد لرجل نشأ فى ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماه أن يغرق فى البحر، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه ﴿ننجيك﴾ بالتشديد والتخفيف: نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر. وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض. وقرئ ننحيك، بالحاء: نلقيك بناحية مما يلى البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور ﴿ببدنك﴾ فى موضع الحال، أى: فى الحال التى لا روح فيك، وإنما أنت بدن، أو ببدنك كاملا سويا لم ينقص منه شيء ولم يتغير. أو عرياناً لست إلا بدناً من غير لباس. أو بدرعك. قال عمرو بن معديكرب:

---

(١) قوله «والذى يحكى» . . . إلى قوله «لأن الرضا بالكفر كفر» هذا إفراط منه فى الجهل بالمنقول والغض من أهله. فان الحديث صحيح الزيادات، وقد أخرجه الترمذى وصححه، والنسائى وابن حبان والحاكم وإسحاق والبزار وأبو داود والطيالسى كلهم من رواية شعبة عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه أحدهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن جبريل كان يدس فى فم فرعون الطين مخافة أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله» لفظ الترمذى والباقين نحوه، وله طريق أخرى أخرجها أحمد وإسحاق وعبد بن حميد والبزار والطبرانى من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس، بلفظ «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل: يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ الطين من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة، وله طريق أخرى أخرجها يحيى بن عبد الحميد الحمانى فى مسنده عن أبى خالد الأحمر عن عمرو بن يعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال جبريل عليه السلام للنبى صلى الله عليه وسلم: وذكر فرعون «فلقد رأيتنى وأنا لأكبر فه بالحمأة مخافة أن تدركه الرحمة، وفى الباب عن أبى هريرة أخرجه الطبرى وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب فى السادس والخمسين وابن مردويه من طريق عتبة بن سعيد عن كثير بن زاذان عن أبى حازم عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال لى جبريل «لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فى فرعون مخافة أن يقول ربى الله، فتدركه رحمة الله» وعن ابن عمر رضى الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال لى جبريل: يا محمد ما غضب ربك على أحد غضبه على فرعون إذ قال: ما علمت لكم من إله غيرى. وإذ نادى فقال: أنا ربكم الأعلى. فلما أدركه الغرق استغاث وأقبلت أحشو فاه مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه الطبرانى وابن مردويه من رواية محمد بن سليمان بن أبى ضمرة عن عبد الله بن أبى قيس عنه، قلت: وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشرى، فللحديث توجيه وجيه، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشرى، وذلك أن فرعون كان كافراً كفر عناد، ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل، وكيف توجه منفرداً وأظهر أنه مخلص، فأجرى له النيل، ثم تمادى على طغيانه وكفره فخشى جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الاخلاص بلسانه فتدركه رحمة الله فيؤخره فى الدنيا فيستمر على غيه وطغيانه فدس فى فه الطين، ليمنعه التكلم بما يقتضى ذلك، هذا وجه الحديث. ولا يلزم منه جهل ولا رضا بكفر بل الجهل كل الجهل ممن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد وأيضاً فإيمانه فى تلك الحالة على تقدير أنه كان صدقا بقلبه لا يقبل لأنه وقع فى حال الاضطرار ولذلك عقب فى الآية بقوله تعالى (آلآن وقد عصيت قبل) وفيه إشارة فى قوله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا).

أَعَاذِلُ شِكَّتِي بَدَنِي وَسَيْفِي وَكُلُّ مُقَلِّصٍ سَلِسُ الْقِيَادِ [1]

وكانت له درع من ذهب يعرف بها . وقرأ أبو حنيفة رحمه الله : بأبدانك وهو على وجهين: إما أن يكون مثل قولهم : هوى بأجرامه ، يعنى : ببدنك كله وافياً بأجزائه . أو يريد : بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها ﴿ لمن خلفك آية ﴾ لمن وراءك من الناس علامة ، وهم بنو إسرائيل ، وكان فى أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق . وروى أنهم قالوا : ما مات فرعون ولا يموت أبداً . وقيل : أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه ، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه ، وكأن مطرحه كان على ممر من بنى إسرائيل حتى قيل : لمن خلفك . وقيل : (لمن خلفك) لمن يأتى بعدك من القرون . ومعنى كونه آية : أن تظهر للناس عبوديته ومهانته ، وأنّ ما كان يدّعيه من الربوبية باطل محال ، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عز وجل ، فما الظنّ بغيره ، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك ، فلا يجترئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله . وقرئ : لمن خلقك ، بالقاف: أى لتكون لخالقك آية كسائر آياته . ويجوز أن يراد : ليكون طرحك على الساحل وحدك وتمييزك من بين المغرقين ـ لئلا يشتبه على الناس أمرك ، ولئلا يقولوا ـ لادعائك العظمة إنّ مثله لا يغرق ولا يموت ـ آية من آيات الله التى لا يقدر عليها غيره ، وليعلموا أنّ ذلك تعمد منه لإماطة الشبهة فى أمرك .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

﴿ مبوّأ صدق ﴾ منزلا صالحاً مرضيا وهو مصر والشام ﴿ فما اختلفوا ﴾ فى دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرأوا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة ، وعلموا أن الاختلاف فيه تفرّق عنه . وقيل هو العلم بمحمد صلى الله عليه وسلم واختلاف بنى إسرائيل ، وهم أهل الكتاب ، اختلافهم فى صفته ونعته ، وأنه هو أم ليس به . بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه . كما قال الله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) .

---

(١) لعمرو بن معديكرب ، وكانت له درع من ذهب تعرفه بها العرب . يقول : ياعاذلة ، إن سلاحى درعى وسيفى وفرسي المكتنز اللحم المدبج الخلق . وقيل : المقلص الطويل القوائم المين القود . ويروى : سهل القياد . والمعنى واحد . وإطلاق البدن على الدرع فى الأصل مجاز علاقته المجاورة أو المحلية ، وأتى بأداة العموم فى الفرس لأنه الذى يكثر تغييره .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥)

فإن قلت : كيف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك﴾ مع قوله فى الكفرة (وإنهم لفى شك منه مريب) [١] قلت : فرق عظيم بين قوله (إنهم لفى شك منه مريب) بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق ، وبين قوله (فإن كنت فى شك) بمعنى الفرض والتمثيل ، كأنه قيل : فإن وقع لك شك مثلا وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديراً ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب﴾ والمعنى : أن الله عز وجل قدم ذكر بنى إسرائيل وهم قرأة الكتاب ، ووصفهم بأنّ العلم قد جاءهم ، لأنّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد أن يؤكد عليهم بصحة القرآن وصحة نبوّة محمد عليه السلام ، ويبالغ فى ذلك ، فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديراً ـ وسبيل من خالجته شبهة فى الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها ، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته ، وإما بمقادحة العلماء المنبهين على الحق ـ فسل علماء أهل الكتاب ، يعنى : أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلا عن غيرك ، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله ، لا وصف رسول الله بالشك فيه ، ثم قال ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ أى ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أنّ ما أتاك هو الحق الذى لا مدخل فيه للمرية ﴿فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ أى فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله . ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإلهاب ، كقوله (فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين . ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) ولزيادة التثبيت والعصمة، ولذلك قال عليه السلام عند نزوله ، لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق [٢] ، وعن ابن عباس رضى الله عنه : لا والله ، ما شك طرفة عين ، ولا سأل

---

(١) قال محمود : «إن قلت كيف قال له عليه السلام : (فان كنت فى شك) مع قوله فى الكفرة (وإنهم لفى شك منه مريب) ... الخ ؟ قال أحمد : ولو قال هذا المفسر : إن نفى الشك عنه عليه الصلاة والسلام توطئة لأمره بالسؤال لتقوم حجته على المسئولين لا ليستفيد بسؤالهم علما لمزيد تعين الابراء بقوله له (قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله) فأمر بالسؤال والجواب جميعا ـ لكان أقوم وأسلم ، والله أعلم .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، ومن طريقه الطبرى عن معمر عن قتادة فى هذه الآية ، قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لا أشك ولا أسأل» .

أحداً منهم ، وقيل خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد خطاب أمته . ومعناه : فإن كنتم فى شك مما أنزلنا إليكم ، كقوله (وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) وقيل : الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك ، كقول العرب : إذا عز أخوك فهن . وقيل : «إن» للنفى ، أى : فما كنت فى شك فاسأل ، يعنى : لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ، ولكن لتزداد يقينا ، كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينه إحياء الموتى . وقرئ : فاسأل الذين يقرؤن الكتب .

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

﴿حقت عليهم كلمة ربك﴾ ثبت عليهم قول الله الذى كتبه فى اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره . وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدّر ومراد [1] تعالى الله عن ذلك .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَٰنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)

﴿فلولا كانت﴾ فهلا كانت ﴿قرية﴾ واحدة من القرى التى أهلكناها ، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف ، ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه ﴿فنفعها إيمانها﴾ بأن يقبله الله منها لوقوعه فى وقت الاختيار . وقرأ أبىّ . وعبد الله : فهلا كانت ﴿إلا قوم يونس﴾ استثناء من القرى ؛ لأنّ المراد أهاليها ، وهو استثناء منقطع بمعنى : ولكن قوم يونس لما آمنوا . ويجوز أن يكون متصلا والجملة فى معنى النفى ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء . وقرئ بالرفع على البدل ، هكذا روى عن الجرمى والكسائى . روى أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه ، فذهب عنهم مغاضباً ، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب ، فلبسوا المسوح ، وعجوا [2] أربعين ليلة . وقيل : قال لهم يونس : إن أجلكم أربعون ليلة ، فقالوا : إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك ، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخاناً شديداً ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسوّد سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى

(١) قوله «لا كتابة مقدر ومراد» مبنى على مذهب المعتزلة أن الله لا يريد الشر . وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى يريد كل كائن خيرا كان أو شرا . (ع)

(٢) قوله «وعجوا» أى رفعوا أصواتهم . أفاده الصحاح . (ع)

الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحنّ بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة. وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم، حتى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا «ياحيّ حين لا حيّ، وياحيّ محيي الموتى، وياحيّ لا إله إلا أنت» فقالوها فكشف عنهم. وعن الفضيل بن عياض: قالوا: «اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله».

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)

﴿ولو شاء ربك﴾ مشيئة القسر[1] والإلجاء[2] ﴿لآمن من فى الأرض كلهم﴾ على وجه الإحاطة والشمول ﴿جميعاً﴾ مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه. ألا ترى إلى قوله ﴿أفأنت تكره الناس﴾ يعنى إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت. وإيلاء الاسم حرف الاستفهام، للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه، وإنما الشأن فى المكره من هو؟ وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه، لأنه هو القادر على أن يفعل فى قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان، وذلك غير مستطاع للبشر.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

(١) قوله «مشيئة القسر» هذا مذهب المعتزلة، وذلك أنهم أوجبوا على الله الصلاح والأصلح، وإيمان الكل أصلح، لكن الآية تخالف مذهبهم فقالوا: إنه تعالى أراد إيمان الكل إرادة تخيير للعباد، فلم يلزم وقوع المراد، ولو أراده إرادة إجبار لوقع، وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئا، ولزوم وقوع المراد لا ينافى تخيير العباد، لما لهم من الكسب فى أفعالهم الاختيارية وإن كان فاعلها فى الحقيقة هو الله، كما تقرر فى التوحيد. (ع)

(٢) قال محمود: «المراد مشيئة القسر والالجاء» قال أحمد: وهذا من دسه الاعتزال مخلسا، وخلط الباطل بالحق مدلسا. ولما علم أن الآية تقتضى عدم مشيئة الله تعالى لايمان الخلق بصيغة الكلية، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر - إذ مقتضى «لولا» امتناع، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد، إذ يزعمون أن الله تعالى شاء الايمان من جميع أهل الارض، فلم يؤمن إلا بعضهم - أخذ يحرف مشيئة الايمان إلى مشيئة القسر والالجاء، ليتم له أن المشيئة المرادة فى الآية لم تقع؛ إلا أنا نوافقه على أن الله تعالى ما قسر الخلق ولا سلب اختيارهم، بل أمرهم بالايمان وخلق لهم اختيارا له وقصداً، وهذا كما ترى لا يعد فى التأويل. بل هو أجدر بالتعطيل، فوجب رده وإقرار الظاهر على حاله، نعوذ بالله من زيغ الشيطان وإضلاله، والله الموفق.

﴿وما كان لنفس﴾ يعنى من النفوس التى علم أنها تؤمن ﴿إلا بإذن الله﴾ أى بتسهيله وهو منح الألطاف ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان[1] ، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر ، كقوله (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وسمى الخذلان رجسا وهو العذاب لأنه سببه . وقرئ : الرجز ، بالزاى . وقرئ ونجعل ، بالنون .

قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

﴿ماذا فى السموات والأرض﴾ من الآيات والعبر ﴿وما تغنى الايات والنذر﴾ والرسل المنذرون ، أو الإنذارات ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ لا يتوقع إيمانهم ، وهم الذين لا يعقلون وقرئ : وما يغنى ، بالياء ، و«ما» نافية ، أو استفهامية .

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ وقائع الله تعالى فيهم ، كما يقال «أيام العرب» لوقائعها ﴿ثم ننجى رسلنا﴾ معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله (إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجى رسلنا ، على حكاية الأحوال الماضية ﴿والذين آمنوا﴾ ومن آمن معهم ، كذلك ﴿ننج المؤمنين﴾ مثل ذلك الإنجاء ننجى المؤمنين منكم ، ونهلك المشركين . و﴿حقاً علينا﴾ اعتراض ، يعنى : حق ذلك علينا حقاً . وقرئ : ننجّ ، بالتشديد .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿يا أيها الناس﴾ يا أهل مكة ﴿إن كنتم فى شك من دينى﴾ وصحته وسداده ، فهذا دينى فاسمعوا وصفه ، واعرضوه على عقولكم ، وانظروا فيه بعين الإنصاف ، لتعلموا أنه دين

(١) قوله «وهو الخذلان» تأويل الرجس بالخذلان على مذهب المعتزلة ، وعلى مذهب أهل السنة لا حاجة إلى تأويله . (ع)

لا مدخل فيه للشك ، وهو أنى لا أعبد الحجارة التى تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم ﴿ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم﴾ وإنما وصفه بالتوفى ، ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى ، فيعبد دون مالا يقدر على شيء ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ يعنى أنّ الله أمرنى بذلك، بما ركّب فىّ من العقل ، وبما أوحى إلىّ فى كتابه . وقيل : معناه إن كنتم فى شك من دينى وبما أنا عليه ـ أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم ـ فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا فى أمرى، واقطعوا عنى أطماعكم . واعلموا أنى لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولا أختار الضلالة على الهدى ، كقوله (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) . (أمرت أن أكون) أصله : بأن أكون ، فحذف الجار ، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذى هو حذف الحروف الجارة مع «إن» و «أن» . وأن يكون من الحذف غير المطرد ، وهو قوله : أمرتك الخير فاصدع بما تؤمر .

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

فإن قلت : عطفُ قوله ﴿وأن أقم﴾ على (أن أكون) فيه إشكال ، لأنّ «أن» لا تخلو من أن تكون التى للعبارة ، أو التى تكون مع الفعل فى تأويل المصدر . فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول ، لأنّ عطفها على الموصولة يأبى ذلك. والقول بكونها موصولة مثل الأولى ، لا يساعد عليه لفظ الأمر ، وهو (أقم) لأنّ الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب . قلت : قد سوّغ سيبويه أن توصل «أن» بالأمر والنهى ، وشبه ذلك بقولهم : أنت الذى تفعل ، على الخطاب ؛ لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه فى معنى المصدر . والأمر والنهى دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال (أقم وجهك) استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالا . و ﴿حنيفاً﴾ حال من الدين ، أو من الوجه .

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿فإن فعلت﴾ معناه : فإن دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك . فكنى عنه بالفعل إيجازاً ﴿فإنك إذاً من الظالمين﴾ إذاً جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر ، كأنّ سائلا سأل عن تبعة عبادة الأوثان . وجعل من الظالمين ؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ، (إنّ الشرك لظلم عظيم) .

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

أتبع النهى عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر، أنّ الله عزّ وجلّ هو الضارّ النافع، الذى إن أصابك بضرّ لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذى لا شعور به. وكذلك إن أرادك بخير لم يردّ أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها، وهو أبلغ من قوله (إن أرادنى الله بضر هل هنّ كاشفات ضرّه، أو أرادنى برحمة هل هنّ ممسكات رحمته). فإن قلت: لم ذكر المس فى أحدهما، والإرادة فى الثانى؟ قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً: الإرادة والإصابة فى كل واحد من الضرّ والخير، وأنه لا رادّ لما يريده منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ وهو الإصابة فى أحدهما، والإرادة فى الآخر، ليدلّ بما ذكر على ما ترك، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير فى قوله تعالى ﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة.

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

﴿قد جاءكم الحق﴾ فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن آثر الضلال فما ضرّ إلا نفسه، واللام وعلى: دلا على معنى النفع والضر. وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل. وفيه حث على إيثار الهدى واطراح الضلال مع ذلك ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موكول إلىّ أمركم وحملكم على ما أريد، إنما أنا بشير ونذير.

وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿واصبر﴾ على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم ﴿حتى يحكم الله﴾ لك بالنصرة عليهم والغلبة. وروى أنها لما نزلت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال «إنكم ستجدون بعدى أثرة، فاصبروا حتى تلقونى»[1] يعنى أنى أمرت فى هذه الآية بالصبر على ما سامتنى الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة، قال أنس: فلم نصبر. وروى أنّ أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد، فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها

(١) ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند. والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد الله بن زيد فى أثناء حديث، ومن حديث أسيد بن حضير، ليس فيه كون الآية سبب ذلك، بل سببه قسمة غنائم حنين.

فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : يامعشر الأنصار ، إنكم ستلقون بعدى أثرة . قال معاوية : فماذا قال ؟ قال : قال «فاصبروا حتى تلقونى» قال فاصبر . قال : إذن نصبر . فقال عبد الرحمن بن حسان [1] :

أَلاَ أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ   أَمِيرَ الظَّالِمِينَ نَثَا كَلاَمِى
بِأَنَّا صَابِرُونَ فَمُنْظِرُوكُمْ   إِلَى يَوْمِ التَّغَابُنِ وَالْخِصَامِ [2]

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة يونس أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به ، وبعدد من غرق مع فرعون» [3]

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه ، ومن طريقه الحاكم والبيهقى عن عبدالرزاق عن معمر عن ابن عقيل أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصارى : فقال معاوية تلقانا الناس كلهم غيركم يامعشر الأنصار فما يمنعكم أن تلقونى ؟ قال : لم تكن لنا دواب . فقال معاوية : فأين النواضح . قال أبو قتادة . عقرناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر . ثم قال أبو قتادة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما إنكم سترون بعدى أثرة . قال معاوية : فما أمركم ؟ قال : أمرنا أن نصبر حتى نلقاه . قال : فاصبروا حتى تلقوه . فقال عبدالرحمن بن حسان حين بلغه ذلك ـ فذكر البيتين . وقال : يا أمير المؤمنين .

(٢) لعبدالرحمن بن حسان ، حين دخل معاوية بن أبى سفيان بن حرب المدينة ، فتلقته الأنصار وتخلف أبو قتادة ، ثم دخل عليه فقال له : مالك تخلفت ؟ فقال : لم يكن عندنا دواب . قال : فأين النواضح ؟ قال : قطعناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : يامعشر الأنصار ستلقون بعدى أثرة . قال معاوية ، فماذا قال ؟ قال : فاصبروا حتى تلقونى . قال : فاصبروا . قال : إذاً نصبر . والثناء يقال للخير ، وقد يقال للشر . والنثا : خاص بالشر . وروى «نثا كلامى» ومنظروكم : ممهلوكم . أى أنت وقومك . والتغابن : ظهور الغبن للعمال فى تجارات الأعمال . والخصام : المخاصمة والمجادلة ، أى إلى يوم القيامة .

(٣) تقدم إسناده فى آل عمران . ويأتى فى آخر القرآن .

سورة هود عليه السلام

مكية [إلا الآيات ١٢ و ١٧ و ١١٤ فمدنية]

وهى مائة وثلاث وعشرون آية [نزلت بعد سورة يونس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)

﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف. ويجوز أن يكون نقلا بالهمزة، من «حكم» بضم الكاف، إذا صار حكيما: أى جعلت حكيمة، كقوله تعالى (آيات الكتاب الحكيم) وقيل: منعت من الفساد، من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح. قال جرير:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا [(١)]

وعن قتادة: أُحكمت من الباطل ﴿ثم فصلت﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص. أو جعلت فصولا، سورة سورة، وآية آية. وفرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة واحدة. أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد: أى بين ولخص. وقرئ: أحكمت آياته ثم فصلت: أى أحكمتها أنا ثم فصلتها. وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت، أى فرقت بين الحق والباطل. فإن قلت: ما معنى ثم؟ قلت: ليس معناها التراخى فى الوقت، ولكن فى الحال، كما تقول: هى محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل. وكتاب: خبر مبتدإ محذوف. وأحكمت: صفة له. وقوله ﴿من لدن حكيم خبير﴾ صفة ثانية. ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر. وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أى: من عنده إحكامها وتفصيلها. وفيه طباق حسن؛ لأنّ المعنى: أحكمها حكيم وفصلها: أى بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

(١) لجرير، يقول: يابنى حنيفة، امنعوا سفهاءكم عنى كما تمنع الدابة بالحكمة، فان غضبى عليكم شديد. وفيه ضرب من التهديد، تخوفه عليهم كناية عن ذلك. وأن أغضب: مفعول أخاف، أى أخاف عليكم غضبى.

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

﴿ألا تعبدوا﴾ مفعول له على معنى: لئلا تعبدوا. أو تكون «أن» مفسرة؛ لأنّ فى تفصيل الآيات معنى القول، كأنه قيل: قال لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله ﴿وأن استغفروا﴾ أى أمركم بالتوحيد والاستغفار. ويجوز أن يكون كلاما مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة. ويدل عليه قوله ﴿إننى لكم منه نذير وبشير﴾ كأنه قال: ترك عبادة غير الله، إننى لكم منه نذير، كقوله تعالى (فضرب الرقاب) والضمير فى (منه) لله عز وجل، أى: إننى لكم نذير وبشير من جهته، كقوله (رسول من الله) أو هى صلة لنذير، أى: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم. فإن قلت: ما معنى ثم فى قوله ﴿ثم توبوا إليه﴾؟ قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. أو استغفروا، والاستغفار توبة. ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها، كقوله (ثم استقاموا). ﴿يمتعكم﴾ يطوّل نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى أن يتوفاكم، كقوله (فلنحيينه حياة طيبة) ﴿ويؤت كل ذى فضل فضله﴾ ويعط فى الآخرة كل من كان له فضل فى العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه. أو فضله فى الثواب، والدرجات تتفاضل فى الجنة على قدر تفاضل الطاعات ﴿وإن تولوا﴾ وإن تتولوا ﴿عذاب يوم كبير﴾ هو يوم القيامة. وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل. وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شىء، فكان قادراً على أشدّ ما أراد من عذابهم لا يعجزه. وقرئ: وإن تولوا، من ولى.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

﴿يثنون صدورهم﴾ يزورّون عن الحق وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشىء استقبله بصدره، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ﴿ليستخفوا منه﴾ يعنى:

ويريدون ليستخفوا من الله ، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم . ونظير إضمار يريدون ـ لقود المعنى [١] إلى إضماره ـ الإضمار فى قوله تعالى (اضرب بعصاك البحر فانفلق) معناه فضرب فانفلق . ومعنى ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ ويريدون الاستخفاء [٢] حين يستغشون ثيابهم أيضاً ، كراهة لاستماع كلام الله تعالى ، كقول نوح عليه السلام (جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم) ثم قال ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ يعنى أنه لا تفاوت فى علمه بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء ، والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ، ونفاقهم غير نافق عنده . روى أنها نزلت فى الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة وله منطق حلو وحسن سياق للحديث ، فكان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم مجالسته ومحادثته ، وهو يضمر خلاف ما يظهر . وقيل : نزلت فى المنافقين . وقرئ : تثنونى صدورهم ، واثنونى «افعوعل» من الثنى ، كاحلولى من الحلاوة ، وهو بناء مبالغة ، قرئ بالتاء والياء . وعن ابن عباس لتثنونى . وقرئ تثنونّ وأصله تثنونن «تفعوعل» من الثن [٣] وهو ما هش وضعف من الكلأ ، يريد : مطاوعة صدورهم للثنى ، كما يثنى الهش من النبات . أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم . وقرئ : تثنئن ، من اثنأن «افعال» منه ، ثم همز كما قيل : ابيأضت ، وادهأمت وقرئ : تثنوى ، بوزن ترعوى .

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾

فإن قلت : كيف قال ﴿على الله رزقها﴾ بلفظ الوجوب [٤] وإنما هو تفضل ؟ قلت : هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم ، رجع التفضل واجباً كنذور العباد . والمستقر : مكانه من الأرض ومسكنه . والمستودع حيث كان مودعا قبل الاستقرار ، من صلب ، أو رحم ،

(١) قوله «لقود المعنى» أى لتأدية المعنى . (ع)

(٢) قوله «ويريدون الاستخفاء» الظاهر أن هذا هو الخبر عن قوله : ومعنى ألا حين الخ . كما قال أولا ، يعنى ويريدون . (ع)

(٣) قوله «من الثن» فى الصحاح «الثن» بالكسر : يبس الحشيش . (ع)

(٤) قال محمود «إن قلت كيف قال على الله رزقها بلفظ الوجوب ... الخ» قال أحمد : كل ما يسديه الله تعالى من رزق لبهيمة أو مكلف فى الدنيا أو ثواب فى الآخرة ، فذلك كله فضل ولا واجب على الله تعالى ، وإن ورد مثل هذه الصيغة فمحمول على أن الله عز وجل لما وعد بفضله ـ ووعده خبر ، وخبره صدق ـ وجب وقوع الموعود : أى يستحيل فى العقل أن لا يقع ، للزوم الخلف فى خبر الصادق ، فعبر عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف ، وبينهما هذا الفرق المذكور . هذه قاعدة أهل الحق . وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى (إنما التوبة على الله) ، والله الموفق .

أو بيضة ﴿ كل ﴾ كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها في اللوح ، يعنى ذكرها مكتوب فيه مبين .

وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ أى ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض . وارتفاعه فوقها إلا الماء . وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض . وقيل : وكان الماء[1] على متن الريح ، والله أعلم بذلك ، وكيفما كان فالله ممسك كل ذلك بقدرته ، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه ﴿ ليبلوكم ﴾ متعلق بخلق ، أى خلقهن لحكمة بالغة ، وهى أن يجعلها مساكن لعباده ، وينعم عليهم فيها بفنون النعم ، ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصى ، فمن شكر وأطاع أثابه ، ومن كفر وعصى عاقبه . ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال : ليبلوكم . يريد : ليفعل بكم ما يفعل المبتلى لأحوالكم كيف تعملون . فإن قلت : كيف جاز تعليق فعل البلوى ؟ قلت : لما فى الاختبار من معنى العلم ؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له ، كما تقول : انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتا ؛ لأنّ النظر والاستماع من طريق العلم . فإن قلت : كيف قيل : ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ وأعمال المؤمنين هى التى تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المتقون ، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده ، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفاً للسامعين ، وترغيباً فى حيازة فضلهم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم «ليبلوكم أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله[2] » ، قرئ : ولئن قلت إنكم مبعوثون ، بفتح الهمزة . ووجهه أن يكون من قولهم : ائت السوق عنك تشترى لنا لحماً ، وأنك تشترى بمعنى علك ، أى : ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون ، بمعنى : توقعوا بعثكم وظنوه ، ولا تبتوا القول بإنكاره ، لقالوا :

---

(١) قوله «وقيل : وكان الماء» لعله «كان» بدون واو . ويمكن أن المعنى كان عرشه على الماء وكان الماء . (ع)

(٢) أخرجه داود بن المحبر فى كتاب العقل والحرث فى مسنده عنه ، والطبرى وابن مردويه من طريقه عن عبدالواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر . وداود ساقط . وأخرجه ابن مردويه أيضا من طريق محمد ابن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثورى عن كليب كذلك ، وإسناده أسقط من الأول .

﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ باتين القول ببطلانه . ويجوز أن تضمن «قلت» معنى «ذكرت» ومعنى قولهم (إن هذا إلا سحر مبين) أنّ السحر أمر باطل ، وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به . أو أشاروا [1] بهذا إلى القرآن لأنّ القرآن هو الناطق بالبعث ، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره . وقرئ : إن هذا إلا ساحر ، يريدون الرسول ، والساحر : كاذب مبطل ،

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

﴿العذاب﴾ عذاب الآخرة . وقيل عذاب يوم بدر . وعن ابن عباس : قتل جبريل المستهزئين ﴿إلى أمة﴾ إلى جماعة من الأوقات ﴿ما يحبسه﴾ ما يمنعه من النزول استعجالا له على وجه التكذيب والاستهزاء . و﴿يوم يأتيهم﴾ منصوب بخبر ليس ، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس ، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها ، كان ذلك دليلا على جواز تقديم خبرها ، إذ المعمول تابع للعامل ، فلا يقع إلا حيث يقع العامل ﴿وحاق بهم﴾ وأحاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ العذاب الذى كانوا به يستعجلون . وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون ؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة الاستهزاء . والمعنى : ويحيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله فى أخباره .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿الإنسان﴾ للجنس ﴿رحمة﴾ نعمة من صحة وأمن وجدة ﴿ثم نزعناها منه﴾ ثم سلبنا تلك النعمة ﴿إنه ليؤوس﴾ شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة . قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع ﴿كفور﴾ عظيم الكفران لما سلف له من التقلب فى نعمة الله نسّاء له ﴿ذهب السيئات عنى﴾ أى المصائب التى ساءتنى ﴿إنه لفرح﴾ أشر

(١) قوله «أو أشاروا بهذا» لعله : وأشاروا . (ع)

بطر ﴿فخور﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر ﴿إلا الذين﴾ آمنوا، فإنّ عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية فى رشادهم. ومن اقتراحاتهم (لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى إليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه، فحرّك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردّهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ أى لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردّهم له وتهاونهم به ﴿وضائق به صدرك﴾ بأن تتلوه عليهم ﴿أن يقولوا﴾ مخافة أن يقولوا ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ أى هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ولم أنزل عليه مالا نريده ولا نقترحه، ثم قال ﴿إنما أنت نذير﴾ أى ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقترحوا ﴿والله على كل شىء وكيل﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه، وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحى بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم. فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدراً. ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد ونحوه كانوا قوماً عامين فى بعض القراءات، وقول السمهرى العكلى:

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللَّئِيمُ فَسَامِنٌ ... بِهَا وَكِرَامُ النَّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا (١)

* * *

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)

---

(١) للعكلى. والشحوب تغير اللون. وأنشده أبو زيد شاهداً على أن الشحوب فى لغة بنى كلاب الهزال، وهو أنسب بالمقابلة لقوله بمنزلة مجدبة صفتها أنها. أما اللئيم الذى همه بطنه، فهو سامن فيها لكثرة أكله. وأما كرام الناس فهم متغيرون فيها مهازيل، لأنهم يطعمون ولا يطعمون. و«فاعل» من سمن شاذ، وقياسه «فعيل».

(أم) منقطعة. والضمير فى ﴿افتراه﴾ لما يوحى إليك. تحداهم أوّلا بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخاير فى الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد ﴿مثله﴾ بمعنى أمثاله، ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له ﴿مفتريات﴾ صفة لعشر سور. لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله، قاودهم[1] على دعواهم وأرخى معهم العنان وقال: هبوا أنى اختلقته من عند نفسى ولم يوح إلىّ وأنّ الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلى لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام. فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟ قلت: معناه مثله فى حسن البيان والنظم وإن كان مفترى.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله (لكم فاعلموا) بعد قوله (قل)؟ قلت: معناه: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدّونهم، وقد قال فى موضع آخر: (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم) ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله:

* فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ *[2]

ووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين، والضمير فى (لم يستجيبوا) لمن استطعتم، يعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ أى أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه ﴿و﴾ اعلموا عند ذلك ﴿أن لا إله إلا﴾ الله وحده، وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد. ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه: فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد. ومعنى (فهل أنتم مسلمون) فهل أنتم مخلصون؟

(١) قوله «قاودهم» ضمن معنى وافقهم وسايرهم. (ع)

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٢٩٤ فراجعه إن شئت. اه مصححه.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿ نوف إليهم ﴾ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا ، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق . وقيل : هم أهل الرياء . يقال للقراء منهم : أردت أن يقال : فلان قارئ ، فقد قيل ذلك . ولمن وصل الرحم وتصدّق : فعلت حتى يقال ، فقيل . ولمن قاتل فقتل : قاتلت حتى يقال فلان جرىء ، فقد قيل : وعن أنس بن مالك : هم اليهود والنصارى ، إن أعطوا سائلا أو وصلوا رحماً ، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن . وقيل : هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم . وقرئ : يوفّ ، بالياء على أن الفعل لله عزّ وجلّ . وتوفّ إليهم أعمالهم بالتاء ، على البناء للمفعول . وفى قراءة الحسن : نوفى ، بالتخفيف وإثبات الياء ، لأنّ الشرط وقع ماضياً ، كقوله :

* يَقُولُ لَاَغائِبٌ مَالِى وَلَا حَرِمُ * [(١)]

﴿ وحبط ما صنعوا فيها ﴾ وحبط فى الآخرة ما صنعوه ، أو صنيعهم ، يعنى : لم يكن له ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة ، إنما أرادوا به الدنيا ، وقد وفى إليهم ما أرادوا ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ أى كان عملهم فى نفسه باطلا ، لأنه لم يعمل لوجه صحيح ، والعمل الباطل لا ثواب له . وقرئ : وبطل على الفعل . وعن عاصم : وباطلا بالنصب ، وفيه وجهان : أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون ، ومعناه : وباطلا ، أىّ باطل كانوا يعملون . وأن تكون بمعنى المصدر على : وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَـٰبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

﴿ أفمن كان على بينة ﴾ معناه : أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة [(٢)] أى لا يعقبونهم فى المنزلة

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٥٣٧ فراجعه إن شئت . اه مصححه .

(٢) قوله «فمن كان على بينة» عبارة النسفى : كمن كان . وعبارة الخازن : أفمن كان على بينة من ربه ، أى كمن كان يريد ... الخ . (ع)

ولا يقاربونهم ، يريد أنّ بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً ، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره ، كان على بينة ﴿من ربه﴾ أى على برهان من الله وبيان أنّ دين الإسلام حق وهو دليل العقل ﴿ويتلوه﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿شاهد منه﴾ أى شاهد يشهد بصحته ، وهو القرآن (منه) من الله ، أو شاهد من القرآن ، فقد تقدّم ذكره آنفاً ﴿ومن قبله﴾ ومن قبل القرآن ﴿كتاب موسى﴾ وهو التوراة ، أى : ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى . وقرئ : كتابَ موسى بالنصب ، ومعناه : كان على بينة من ربه ، وهو الدليل على أنّ القرآن حق ، (ويتلوه) : ويقرأ القرآن (شاهد منه) شاهد ممن كان على بينة . كقوله (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) ، (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) ، (ومن قبله كتاب موسى) ويتلو من قبل القرآن والتوراة ﴿إماماً﴾ كتاباً مؤتما به فى الدين قدوة فيه ﴿ورحمة﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم ﴿أولئك﴾ يعنى من كان على بينة ﴿يؤمنون به﴾ يؤمنون بالقرآن ﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ يعنى أهل مكة ومن ضامهم من المتحزّبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فالنار موعده فلا تك فى مرية﴾ وقرئ : مُرية ، بالضم وهما الشك ﴿منه﴾ من القرآن أو من الموعد .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَـٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿يعرضون على ربهم﴾ يحبسون فى الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم ﴿الأشهاد﴾ من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكا ، ويقال ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ فواخزياه وافضيحتاه . والأشهاد : جمع شاهد أو شهيد ، كأصحاب أو أشراف ﴿ويبغونها عوجاً﴾ يصفونها بالاعوجاج وهى مستقيمة . أو يبغون أهلها أن يعوجوا

بالارتداد ، وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به ﴿أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض﴾ أى ما كانوا يعجزون الله فى الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم ، وهو من كلام الأشهاد ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ وقرئ : يضعف ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ أراد أنهم لفرط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له ، كأنهم لا يستطيعون السمع [1] ولعل بعض المجبرة [2] يتوثب إذا عثر عليه فيوعوع [3] به على أهل العدل ، كأنه لم يسمع الناس يقولون فى كل لسان : هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه ، وهذا مما يمجه سمعى . ويحتمل أن يريد بقوله (وما كان لهم من أولياء) أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ، وولايتها ليست بشىء ، فما كان لهم فى الحقيقة من أولياء ، ثم بين نفى كونهم أولياء بقوله (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) فكيف يصلحون للولاية . وقوله (يضاعف لهم العذاب) اعتراض بوعيد ﴿خسروا أنفسهم﴾ اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله ، فكان خسرانهم فى تجارتهم ما لا خسران أعظم منه ، وهو أنهم خسروا أنفسهم ﴿وضل عنهم﴾ وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الآلهة وشفاعتها ﴿لا جرم﴾ فسر فى مكان آخر ﴿هم الأخسرون﴾ لا ترى أحداً أبين خسراناً منهم .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾

---

(١) قال محمود : «أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم ... الخ» قال أحمد : أهل الحق وإن نفوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدرة الخالق عز وجل ، لا ينفون استطاعة العبد نفسها ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية ، وإنما الذى ينفى الاستطاعة جملة هم الجبرة حقيقة لا أهل السنة . والحق مع الزمخشرى فى هذا الموضع إلا فى غفلته حيث يقول : فيوعوع بها على أهل العدل ، يعنى الآية المذكورة . وهذه سقطة عظيمة ، وهب أن المجبر غلط فى الاستدلال بالآية على معتقده ، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراده الآية وعوعة ، وإنما تلا كتاب الله تعالى غير أن خطأه فى تصحيح معتقده الباطل به . وما الزمخشرى إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الآداب للكتاب العزيز ، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس أو الحارث بن حلزة . وأما أدب القرآن فيضيق عن أسهل من ذلك ، والله الموفق .

(٢) قوله «ولعل بعض المجبرة» إن كان مراده بهم أهل السنة كعادته ، فهم لا يسلبون عن العبد الاستطاعة فى الفعل ، بل يثبتون له الكسب والاستطاعة مع الفعل ، وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة فى الهواء فلا ضير . ونقل الخازن عن ابن عباس فى هذه الآية أنه قال : أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فانه قال : ما كانوا يستطيعون السمع ، وهو طاعته . وما كانوا يبصرون . وأما فى الآخرة فانه قال (لا يستطيعون) (خاشعة أبصارهم) . (ع)

(٣) قوله «فيوعوع به» فى الصحاح : الوعوعة صوت الذئب . (ع)

(وأخبتوا إلى ربهم) واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهى الأرض المطمئنة . ومنه قولهم للشيء : الدنيء الخبيت . قال :

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزْ قِ وَلَا يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيتُ (١)

وقيل : التاء فيه بدل من الثاء .

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع (٢) وهو من اللف والطباق . وفيه معنيان : أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين ، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب ، وأن يشبهه بالذى جمع بين العمى والصمم ، أو الذى جمع بين البصر والسمع (٣) . على أن تكون الواو فى (والأصم) وفى (والسميع) لعطف الصفة على الصفة ، كقوله :

* الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ * (٤)

﴿هل يستويان﴾ يعنى الفريقين ﴿مثلا﴾ تشبيهاً .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)

أى أرسلنا نوحاً بأنى لكم نذير . ومعناه أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام ، وهو قوله ﴿إنى لكم نذير مبين﴾ بالكسر ، فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى (كأن) والمعنى على الكسر ،

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٥٤٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قال محمود : «شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع إلى قوله أن تكون الواو ... الخ» قال أحمد : بخلافها على الوجه الأول ، فانها لعطف الموصوف على الموصوف . وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس فى كونه شبه تشبيهين اثنين ففيه نظر . فان امرأ القيس شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً ، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين ، وإنما ينظر ببيت امرئ القيس على الوجه الثانى ، فان مقتضاه أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً ، ولكن فى صفتين متعددتين ، والأمر فى ذلك قريب ، والله أعلم .

(٣) قوله «أو الذى جمع بين البصر والسمع» لعله : والذى . (ع)

(٤) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٤١ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وهو قولك : إنّ زيدا كالأسد . وقرئ بالكسر على إرادة القول ﴿أن لا تعبدوا﴾ بدل من (إنى لكم نذير) أى أرسلناه بأن لا تعبدوا ﴿إلا الله﴾ أو تكون «أن» مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير . وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازى لوقوع الألم فيه . فإن قلت : فإذا وصف به العذاب ؟ قلت : مجازى مثله ، لأنّ الأليم فى الحقيقة هو المعذب ، ونظيرهما قولك : نهارك صائم ، وجدّ جدّه .

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

﴿الملأ﴾ الأشراف من قولهم : فلان مليء بكذا ، إذا كان مطيقاً له ، وقد ملؤا بالأمر ؛ لأنهم ملؤا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وبتدبيرها . أو لأنهم يتمالؤن أى يتظاهرون ويتساندون ، أو لأنهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة [1] أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة [2] وأنّ الله لو أراد أن يجعلها فى أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا : هب أنك واحد من الملأ وموازٍ لهم فى المنزلة ، فما جعلك أحق منهم ؟ ألا ترى إلى قولهم : وما نرى لكم علينا من فضل . أو أرادوا أنه كان ينبغى أن يكون ملكا لا بشر . والأراذل جمع الأرذل كقوله (أكابر مجرميها) «أحاسنكم أخلاقاً» ، وقرئ : بادي الرأى ، بالهمز وغير الهمز ، بمعنى : اتبعوك أوّل الرأى أو ظاهر الرأى ، وانتصابه على الظرف ، أصله : وقت حدوث أوّل رأيهم ، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه . أرادوا : أنّ اتباعهم لك إنما هو شىء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر ، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية ، لأنهم كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال ، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ، ولقد زلّ عنهم

(١) قوله «والمجالس أبهة» كسكرة : عظمة . (ع)

(٢) قال محمود : «هو تعريض بأنهم كانوا أحق منه بالنبوة ... الخ» قال أحمد : ويحتمل فى الوجهين أن يكون المراد أول الرأى . ولكنه ترك الهمز استثقالا ؛ إلا أن يكون القارىء بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز ، والمعنيان متقاربان ، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحا بمن اتبعه من وجهين ، أحدهما : أن المتبعين أراذل ليسوا قدوة ولا أسوة . والثانى : أنهم مع ذلك لم يترووا فى اتباعه . ولا أمعنوا الفكرة فى صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية . وغرض هؤلاء أن لا يقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به ، والله أعلم

أن التقدّم فى الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا أن يجعله سبباً فى الاختيار للنبوّة والتأهيل لها ، على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين فى طلب الآخرة ورفض الدنيا ، مزهدين فيها ، مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها ، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضعة عند الله ﴿من فضل﴾ من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة . ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ فيما تدعونه .

قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿أرأيتم﴾ أخبرونى ﴿إن كنت على بينة﴾ على برهان ﴿من ربى﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواى ﴿وآتانى رحمة من عنده﴾ بإيتاء البينة على أن البينة فى نفسها هى الرحمة ، ويجوز أن يريد بالبينة : المعجزة ، وبالرحمة : النبوّة . فإن قلت : فقوله ﴿فعميت﴾ ظاهر على الوجه الأوّل ، فما وجهه على الوجه الثانى ؟ وحقه أن يقال فعميتا ؟ قلت : الوجه أن يقدّر فعميت بعد البينة ، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة : ومعنى عميت خفيت . وقرئ : فعميت بمعنى أخفيت . وفى قراءة أبى : فعماها عليكم . فإن قلت : فما حقيقته ؟ قلت : حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء ، لأنّ الأعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره ، فمعنى فعميت عليكم البينة فلم تهدكم ، كما لو عمى على القوم دليلهم فى المفازة بقوا بغير هاد . فإن قلت : فما معنى قراءة أبىّ ؟ قلت : المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله [1] وتصميمهم ، فجعلت تلك التخلية تعمية منه ، والدليل عليه قوله ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ يعنى

---

(١) قوله «فخلاهم الله» لم يفسره بمعنى أخفاها ، لأن الله لا يفعل الشر عند المعتزلة . وعند أهل السنة يفعل كل ممكن . (ع)

أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها ، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها ، ولا إكراه في الدين ؟ وقد جيء بضميرى المفعولين متصلين جميعاً . ويجوز أن يكون الثانى منفصلا كقولك : أنلزمكم إياها . ونحوه (فسيكفيكهم الله) ويجوز : فسيكفيك إياهم . وحكى عن أبى عمرو إسكان الميم . ووجهه أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة ، فظنها الراوى سكونا . والإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين ؛ لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا فى ضرورة الشعر . والضمير فى قوله ﴿لا أسئلكم عليه﴾ راجع إلى قوله لهم (إنى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله) . وقرئ : وما أنا بطارد الذين آمنوا ، بالتنوين على الأصل . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿إنهم ملاقو ربهم﴾ ؟ قلت : معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم . أو يلاقونه فيجازيهم على ما فى قلوبهم من إيمان صحيح ثابت ، كما ظهر لى منهم وما أعرف غيره منهم . أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به [1] من بناء إيمانهم على بادئ الرأى من غير نظر وتفكر . وما علىّ أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون . ونحوه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية . أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة ﴿تجهلون﴾ تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل : من قوله :

* أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا * [2]

أو تجهلون بلقاء ربكم . أو تجهلون أنهم خير منكم ﴿من ينصرنى من الله﴾ من يمنعنى من انتقامه ﴿إن طردتهم﴾ وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به ، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء ﴿أعلم الغيب﴾ معطوف على (عندى خزائن الله) أى لا أقول عندى خزائن الله ، ولا أقول : أنا أعلم الغيب . ومعناه : لا أقول لكم : عندى خزائن الله فأدعى فضلا عليكم فى الغنى ، حتى تجحدوا فضلى بقولكم (وما نرى لكم علينا من فضل) ولا أدعى علم الغيب حتى تنسبونى إلى الكذب والافتراء ، أو حتى أطلع على ما فى نفوس أتباعى وضمائر قلوبهم ﴿ولا أقول إنى ملك﴾ حتى تقولوا لى ما أنت إلا بشر مثلنا ، ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً فى الدنيا والآخرة لهوانهم عليه ، كما تقولون ، مساعدة لكم ونزولا على هواكم ﴿إنى إذاً لمن الظالمين﴾ إن قلت شيئاً من ذلك ، والازدراء : افتعال من زرى عليه إذا عابه . وأزرى به : قصر به ، يقال ازدرته عينه ، واقتحمته عينه .

---

(١) قوله «ذلك مما تقرفونهم به» أى ترمونهم وتعيبونهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لعمرو بن كلثوم من معلقته ، و«ألا» استفتاحية تفيد التوكيد ـ و«لا» ناهية . والنون لتوكيد النهى . أى : لا يسفهن أحد علينا ويبدأنا بالشر ، ونجهل : نصب بأن مضمرة بعد فاء السببية لأنه بعد النهى . وسمى جزاء الجهل جهلا مشاكلة ، أى : فنجازيه فوق فعله بنا ، أو فوق جهل كل جاهل وزيادة عليه .

قَالُوا يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾

﴿جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته، كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ من العذاب المعجل.

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿إنما يأتيكم به الله﴾ أي ليس الإتيان بالعذاب إليّ إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه ﴿إن شاء﴾ يعني إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فأكثرت جدلنا. فإن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين؟ [1] قلت: قوله ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ جزاؤه مادلّ عليه قوله ﴿لا ينفعكم نصحي﴾ وهذا الدال في حكم ما دلّ عليه، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنني. فإن قلت: فما معنى قوله [2] (إن كان الله يريد أن يغويكم)؟ قلت: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمى ذلك إغواء وإضلالا، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوى فلطف به: سمى إرشاداً وهداية. وقيل (أن يغويكم) أن يهلككم من غوى الفصيل غوًى، إذا بشم فهلك [3]. ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله

---

(١) قال محمود: «إن قلت: ماوجه ترادف هذين الشرطين ... الخ» قال أحمد: ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء قول القائل: أنت طالق إن شربت إن أكلت. وهي المترجمة بمسئلة اعتراض الشرط على الشرط. والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت لم يحنث. وإن أكلت ثم شربت حنث. وهذا الفرق مبناه على جعل الجزاء للشرط الآخر، أي للذي يليه، ثم جعلهما معا جزاء للشرط المتوسط، ولذلك سر في العربية لانطول بذكره وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية كما رأيت، والله أعلم.

(٢) قوله «فإن قلت فما معنى ... الخ» السؤال وجوابه مبني على مذهب المعتزلة: أن الله لايخلق الشر. أما على مذهب أهل السنة فالاغواء على ظاهره: خلق الغي ـ أي الضلال ـ في القلب. (ع)

(٣) قوله «إذا بشم فهلك» في الصحاح «البشم» التخم. يقال: بشمت من الطعام ـ بالكسر. وبشم الفصيل من كثرة شرب اللبن. (ع)

ومواعظه وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحى؟ ﴿فعلىّ إجرامى﴾ وإجرامى بلفظ المصدر والجمع، كقوله: والله يعلم إسرارهم وأسرارهم. ونحو: جرم وأجرام قفل وأقفال. وينصر الجمع أن فسره الأولون بآثامى. والمعنى: إن صح وثبت أنى افتريته، فعلىّ عقوبة إجرامى أى افترائى. وكان حق حينئذ أن تعرضوا عنى وتتألبوا علىّ[1] ﴿وأنا برىء﴾ يعنى ولم يثبت ذلك وأنا برىء منه. ومعنى ﴿مما تجرمون﴾ من إجرامكم فى إسناد الافتراء إلىّ فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

﴿لن يؤمن﴾ إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذى لا تعلق به للتوقع ﴿إلا من قد آمن﴾ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن حزن بائس مستكين. قال:

مَا يَقْسِمُ اللهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ مِنْهُ وَاقْعُدْ كَرِيمًا نَاعِمَ الْبَالِ[2]

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم ﴿بأعيننا﴾ فى موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظا، وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن لله معه أعينا تكلؤه أن يزيغ فى صنعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه[3] وبين عمله أحد من أعدائه. ووحينا: وأنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع. عن ابن عباس رضى الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر ﴿ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا﴾ ولا تدعنى فى شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك وقضى به القضاء وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، كقوله:

---

(١) قوله «وتتألبوا علىّ» أى تتجمعوا. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) لحسان، يقال: ابتأس إذا حزن من كثرة وقوع البأس والمكاره به. والبال القلب أو الشأن. يقول: ما يقسمه الله لك من نعمة أو نقمة فاقبله حال كونك غير متحزن منه، أى مما قسمه الله لك. واقعد كريما غير مهان طيب الحال والشأن، أو مستريح القلب من نصب الدنيا. وروى: وأقعد بقطع الهمزة، من أقعد المتعدى، فكريما حال على الأول، ومفعول على الثانى، وفيه تجريد.

(٣) قوله «وأن لا يحول بينه» لعله: وأن يحول. (ع)

(يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود).

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩)

﴿ويصنع الفلك﴾ حكاية حال ماضية ﴿سخروا منه﴾ ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهماء[1] في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عزّ الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبيا ﴿فإنا نسخر منكم﴾ يعني في المستقبل ﴿كما تسخرون﴾ منا الساعة، أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا. أو إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم في استجهالكم، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق. وروى أنّ نوحا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضاً بين الرجال والنساء. وعن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة. وقيل: إنّ الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدّثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفا من ذلك التراب فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب بن حام. قال: فضرب الكثيب[2] بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام: هكذا أهلكت؟ قال لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت. قال: حدّثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير. ثم قال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد تراباً ﴿من يأتيه﴾ في محل النصب بتعلمون. أي:

(١) قوله «برية بهماء» أي لا يهتدى فيها الطريق. ويقال: المرء أبهم، وكذا الرجل الشجاع أبهم، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «قال فضرب الكثيب» أي راوي هذه القصة، لكنه غير معلوم. (ع)

فسوف تعلمون الذى يأتيه عذاب يخزيه، ويعنى به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا وهو الغرق ﴿ويحل عليه﴾ حلول الدين والحق اللازم الذى لا انفكاك له عنه ﴿عذاب مقيم﴾ وهو عذاب الآخرة.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿حتى﴾ هى التى يبتدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء. فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟ قلت: لقوله: ويصنع الفلك، أى: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد. فإن قلت: «فإذا اتصلت «حتى» بيصنع فما تصنع بما بينهما من الكلام؟ قلت: هو حال من يصنع، كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه. فإن قلت: فما جواب كلما؟ قلت: أنت بين أمرين: إما أن تجعل (سخروا) جواباً و (قال) استئنافا، على تقدير سؤال سائل. أو تجعل (سخروا) بدلا من (مر) أو صفة (لملأ) و (قال) جوابا. ﴿وأهلك﴾ عطف على اثنين، وكذلك ﴿ومن آمن﴾ يعنى: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه [1] وإرادته به ـ تعالى الله عن ذلك ـ قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته ﴿إلا قليل﴾ روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كانوا ثمانية: نوح وأهله، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم» [2] وعن محمد بن إسحق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة. وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة، وأولاد نوح: سام وحام ويافث، ونساؤهم. فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال ونصفهم نساء. ويجوز أن يكون كلاما واحداً وكلامين: فالكلام الواحد: أن يتصل (بسم الله) باركبوا حالا من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله. أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف. كقولهم خفوق النجم. ومقدم الحاج. ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما فى (بسم الله) من معنى الفعل، أو بما فيه

(١) قوله «يختار الكفر لا لتقديره عليه» هذا على مذهب المعتزلة من عدم سبق القضاء والقدر على الشر وعدم إرادته، ولكن مذهب أهل السنة أن كل ممكن مسبوق بالقضاء والقدر والارادة ولو شراً. (ع)

(٢) لم أره مرفوعا. وذكره الطبرى باسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم فى السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم. فجميعهم ثمانية.

من إرادة القول . والكلامان : أن يكون (بسم الله مجراها ومرساها) جملة من مبتدإ وخبر مقتضبة ، أى بسم الله إجراؤها وإرساؤها . روى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست . ويجوز أن يقحم الاسم[1] ، كقوله :

* ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا * [2]

ويراد : بالله إجراؤها وإرساؤها ، أى بقدرته وأمره . وقرئ (مجراها ومرساها) بفتح الميم ، من جرى ورسى ، إما مصدرين أو وقتين أو مكانين . وقرأ مجاهد : مجريها ومرسيها ، بلفظ اسم الفاعل ، مجرورى المحل ، صفتين لله . فإن قلت : ما معنى قولك : جملة مقتضبة ؟ قلت : معناه أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون فى موضع الحال كقوله :

* وَجَاؤُنَا بِهِمْ سَكَرٌ عَلَيْنَا * [3]

فلا تكون كلاما برأسه ، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأول ، وانتصاب هذه الحال عن

---

(١) قال محمود : «ويجوز أن يقحم الاسم ... الخ» قال أحمد : نفور من اعتقاد أن الاسم هو المسمى ، ولو اعتقد ذلك لما جعله مقحما ، والله أعلم .

(٢)
تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فإن حان يوما أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لاصديقه ... أمان ولاخان الأمين ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

للبيد بن ربيعة العامرى ، يوصى ابنتيه أسماء ويسرة . وتمنى : ماض ، أو مضارع حذف منه إحدى التاءين ، والاستفهام إنكارى وهو كناية عن تحتم الموت . ويوما : ظرف لحان . والمراد به : مطلق الزمن . وأن يموت : فاعل . وخمش وجهه خمشا : جرحه بأظفاره ، أى : لاتبالغا فى الجزع حتى تفعلا ذلك ، ووقف على شعر منصوب بصورة المرفوع على لغة ، نهاهما عن الجزع وأمرهما بعد مناقبه . وصديقه : مفعول مقدم ، وإلى الحول : متعلق بقولا ، ولفظ «اسم» مقحم بين ثم ولفظ السلام ، لأنه أراد تحيتهما بهذا اللفظ بخصوصه وإن أفاد غيره معناه . وقيل : أقحمه إشارة إلى أنه لاأمان لها بعد موته ، وفى «ثم» إيماء إلى أنه لم يسلم الآن ، وإنما ذلك بعد الحول ، والمراد أنه لايخطر ببالهما ولايحزنا عليه بعد ذلك ، فعبر عنه بسلام الموادعة الذى يلزمه الافتراق ، والافتراق يلزمه عدم التذكر عادة . ويحتمل أن المراد الدلالة على أن الوصية قد تمت ، ثم قال : ومن يبك مصابه حولا كاملا فقد أبلغ فى العذر ، كأنه يعتذر عن سكوته بأنه أدى ماعليه ، أى : وأنتما كذلك .

(٣)
وجاؤنا بهم سكر علينا ... فأجلى القوم والسكران صاحى

السكر والسكر : كالبعد والبعد ، و «بهم سكر» جملة حالية . و«علينا» متعلق بسكر : أى جاءنا القوم غضابا علينا ، فانكشفوا عن مكان الحرب ومضوا عنه . والحال أن السكران منهم مفلق من سكره . ويروى «فأجلى اليوم» أى زال ومضى ، أو انكشفت ظلمة الحرب فى ذلك اليوم : أى لم يلبثوا إلا هو والحال أن الذى كان سكران صاح من سكره ، لعلمه أنه ليس أهلا لذلك ، فأجلى هنا لازم .

ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله بمعنى التقدير، كقوله تعالى (ادخلوها خالدين). ﴿إن ربى لغفور رحيم﴾ لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله ﴿وهى تجرى بهم﴾؟ قلت: بمحذوف دل عليه (اركبوا فيها بسم الله) كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله، (وهى تجرى بهم) أى تجرى وهم فيها ﴿فى موج كالجبال﴾ يريد موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجبل فى تراكمها وارتفاعها. فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره [1] وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجرى فى جوف الماء كما تسبح السمكة، فما معنى جريها فى الموج؟ قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال. ألا ترى إلى قول ابنه: سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء. قيل: كان اسم ابنه: كنعان. وقيل: يام. وقرأ على رضى الله عنه: ابنها، والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن على وعروة بن الزبير: ابنه، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن. قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه. فقلت: إن الله حكى عنه إن ابنى من أهلى، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون فى أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل بقوله (من أهلى) ولم يقل: منى، ولنسبته إلى أمه وجهان، أحدهما: أن يكون ربيباً له، كعمر بن أبى سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام. وقرأ السدى: ونادى نوح ابناه، على الندبة والترثى. أى: قال يا ابناه. والمعزل: مفعل، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، يعنى: وكان فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين. وقيل: كان فى معزل عن دين أبيه ﴿يا بنى﴾ قرئ بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة فى قولك: يا بنيا، أو سقطت

(١) قوله «عند اضطرابه وزخيره» فى الصحاح «زخر الوادى» إذا امتد جداً وارتفع. ومنه يقال: بحر زاخر.

الياء والألف لالتقاء الساكنين ؛ لأنّ الراء بعدهما ساكنة ﴿إلا من رحم﴾ إلا الراحم وهو الله تعالى [1] ، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله . أى إلا مكان من رحم الله من المؤمنين ، وكان لهم غفورا رحيما فى قوله (إن ربى لغفور رحيم) وذلك أنه لما جعل الجبل عاصما من الماء قال له : لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعنى السفينة . وقيل لا عاصم ، بمعنى : لاذا عصمة إلا من رحمه الله ، كقوله (ماء دافق) و (عيشة راضية) وقيل : (إلا من رحم) استثناء منقطع ، كأنه قيل : ولكن من رحمه الله فهو المعصوم ، كقوله (مالهم به من علم إلا اتباع الظنّ) وقرئ (إلا من رُحِم) على البناء للمفعول .

وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز [2] على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله (يا أرض) ، (وياسماء) ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله (ابلعى ماءك) و(أقلعى) من الدلالة على الاقتدار العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور ، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له ، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته

---

(١) قال محمود : «المراد إلا الراحم وهو الله تعالى أو لاعاصم اليوم ... الخ» قال أحمد : والاحتمالات الممكنة أربعة : لاعاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولاعاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس . وزاد الزمخشرى خامسا ؛ وهو لاعاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف ، تقديره : لامكان عاصم إلا مكان مرحوم . والمارد بالنفى التعريض بعدم عصمة الجبل ، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة والكل جائز ، وبعضها أقرب من بعض ، والله أعلم .

(٢) قال محمود : «نداء الأرض والسماء بما ينادى به العاقل ... الخ» قال أحمد : ومن هذا النمط فى السكوت عن ذكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفراده بها السكوت عن ذكر الأوصاف أحيانا ، اكتفاء بذكر الموصوف لتبينه بها وتوحده فيها ، وأنه متى ذكر مكانها قد ذكرت بذكره فى مثل قوله (وهو الله فى السموات وفى الأرض) الآية . والمراد : وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها فى العالمين . ومنه :

• أنا أبو النجم وشعرى شعرى •

ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأذيال هذه المعانى اللطيفة ، فقال أبو الطيب يمدح عضد الدولة :

لاتحمدنها واحمدن هماما إذ لم يسم حامد سواكا

يعنى لاتمدح نفسك فانك المنفرد بالمادح ، حتى إذا ذكرت ولم يسم الممدوح بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك لتفردك بها .

على الفور من غير ريث، فكما رد عليهم أمره كان المأمور به مفعولا لا حبس ولا إبطاء. والبلع: عبارة عن النشف. والإقلاع: الإمساك. يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى ﴿وغيض الماء﴾ من غاضه إذا نقصه ﴿وقضى الأمر﴾ وأنجز ما وعد الله نوحا من هلاك قومه ﴿واستوت﴾ واستقرت السفينة ﴿على الجودى﴾ وهو جبل بالموصل ﴿وقيل بعدا﴾ يقال بعد بعدا وبعدا، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجىء أخباره على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك فى أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى، ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوى السفينة على متن الجودى وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعانى والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله (ابلعى) و(أقلعى) وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التى هى اللب وما عداها قشور. وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت فى الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودى شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء. وروى أنها مرت بالبيت فطافت به سبعا، وقد أعتقه الله من الغرق. وروى أن نوحا صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

نداؤه ربه: دعاؤه له، وهو قوله ﴿رب﴾ مع ما بعده من اقتضاء وعده فى تنجية أهله. فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله (رب) فكيف عطف (قال رب) على (نادى) بالفاء؟ قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أريد النداء نفسه لجاء، كما جاء قوله (إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب) بغير فاء ﴿إن ابنى من أهلى﴾ أى بعض أهلى، لأنه كان ابنه من صلبه، أو كان ربيبا له فهو بعض أهله ﴿وإن وعدك الحق﴾ وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذى لا شك فى إنجازه والوفاء به، وقد وعدتنى أن تنجى أهلى، فما بال ولدى؟ ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ أى أعلم الحكام وأعدلهم[1]؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل. ورب غريق فى الجهل

(١) قال محمود: «قال أى أعلم الحكام وأعدلهم، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم ... الخ» قال أحمد: =

والجور من متقلدى الحكومة فى زمانك قد لقب أقضى القضاة ، ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر . ويجوز أن يكون من الحكمة ، على أن يبنى من الحكمة حاكم بمعنى النسبة كما قيل دارع من الدرع ، وحائض وطالق على مذهب الخليل ﴿إنه عمل غير صالح﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله . وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأنّ نسيبك فى دينك ومعتقدك من الأباعد فى المنصب [1] وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك . ومن لم يكن على دينك ـ وإن كان أمس أقاربك رحماً ـ فهو أبعد بعيد منك ، وجعلت ذاته عملا غير صالح ، مبالغة فى ذمه ، كقولها :

* فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ * [2]

وقيل : الضمير لنداء نوح ، أى : إنّ نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك ـ فإن قلت : فهلا قيل : إنه عمل فاسد [3] ؟ قلت : لما نفاه عن أهله ، نفى عنه صفتهم بكلمة النفى التى يستبقى معها لفظ المنفى ، وآذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم ، لا لأنهم أهلك وأقاربك . وإنّ هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوّتك ، كقوله (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا) وقرئ : عمل غير صالح أى عمل عملا غير صالح . وقرئ : فلا تسئلنّ ، بكسر النون بغير ياء الإضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء ، يعنى فلا تلتمس منى ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ، حتى تقف على كنهه . وذكر المسألة

ــــ ثم حدث بعد الزمخشرى ترفع عن أقضى القضاة إلى قاضى القضاة ، والذى تلاحظوا به فى ارتفاع هذه الثانية على الأولى : أن الأولى تقتضى مشاركة القضاة لأقضاهم فى الوصف ، وأن يزاد عليهم ، فترفعوا أن يشركهم أحد فى وصفهم ممن دونهم فى المنصب ، فعدلوا عما يشاركه فيه إلى ماليس كذلك ، فأفردوا رئيسهم بتلقيبه بقاضى القضاة : أى هو الذى يقضى بين القضاة ولا يشاركهم منهم أحد فى وصفه ، وجعلوا الذى يليه فى الرتبة أقضى القضاة إلا أنهم إنما يعنون قاضى قضاة زمانه أو إقليمه . وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه أقضى قضاة الصحابة فى زمانه كما أطلقه عليه النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال «أقضاكم على» فدخل فى المخاطبين القضاة وغيرهم ، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على أعدل قضاة الزمان أو الاقليم وأعلمهم : قاضى القضاة ، وأقضى القضاة ، أى قضاة زمانه وبلده ، وكل قرن ناجم فى زمن فهو شبيه زمن فيه بدا هذا اللقب .

(١) قوله «من الأباعد فى المنصب» لعله تحريف ، وأصله فى النسب . (ع)

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢١٨ فراجعه إن شئت اهـ مصححه .

(٣) قال محمود : «فهلا قيل : إنه عمل فاسد قلت لما نفاه عن أهله نفى عنه ... الخ » قال أحمد : ولهذا المعنى والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام (وأنذر عشيرتك الأقربين) وإن كان مأموراً بالانذار على العموم ، ولكن لما كانت أهلية النبى عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال والفتور عن العمل ، خص أهله بالانذار إيذانا بذلك ، والله أعلم . ولهذا لما نزلت أنذرهم النبى صلى الله عليه وسلم وقال : إنى لاأملك لكم من الله شيئاً ، أوقال ذلك لكل واحد منهم بخصوصه .

دليل على أنّ النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه . فإن قلت : لم سمى نداؤه سؤالا ولا سؤال فيه ؟ قلت : قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به ، لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله فى وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز . وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلا وغباوة ، ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين . فإن قلت : قد وعده أن ينجى أهله ، وما كان عنده[1] أن ابنه ليس منهم ديناً ، فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الأمر ، لأن العدة قد سبقت له وقد عرف الله حكيما لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد ، فطلب إماطة الشبهة وطلبُ إماطة الشبهة واجب ، فلم زجر وسمى سؤاله جهلا ؟ قلت : إن الله عز وعلا قدم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم ، فكان عليه أن يعتقد أن فى جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح ، وأن كلهم ليسوا بناجين ، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق فى أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم ، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه .

قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

﴿أن أسألك﴾ من أن أطلب منك فى المستقبل ما لا علم لى بصحته ، تأدباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك ﴿وإلا تغفر لى﴾ ما فرط منى من ذلك ﴿وترحمنى﴾ بالتوبة علىّ ﴿أكن من الخاسرين﴾ أعمالا .

---

(١) قال محمود : «فإن قلت قد وعده الله أن ينجي أهله وما كان عنده ...الخ» قال أحمد : وفى كلام الزمخشرى مايدل على أنه يعتقد أن نوحا عليه السلام صدر منه ماأوجب نسبة الجهل إليه ومعاتبته على ذلك ، وليس الأمر كما تخيله الزمخشرى ، ونحن نوضح الحق فى الآية منزلا على أصلها مع تنزيه نوح عليه السلام عما توهم الزمخشرى نسبته إليه فنقول : لما وعد نوح أولا تنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفا لحال ابنه المذكور ولا مطلعاً على باطن أمره بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن ، بقى على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة ولم يعارضها يقين فى كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل فى المستثنين ، فسأل الله فيه بناء على ذلك ، فتبين له أنه فى علمه من المستثنين ، وأنه هو لا علم له بذلك ، فلذلك سأل فيه ، وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتباً ، فان نوحا عليه السلام لا يكلفه الله علما استأثر به غيبا . وأما قوله (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) فالمراد منه النهى عن وقوع السؤال فى المستقبل بعد أن أعلمه الله باطن أمره ، وأنه إن وقع فى المستقبل فى السؤال كان من الجاهلين . والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه عليه السلام على سمة العصمة ، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب ، بل المقصد منها أن لا يقع الذنب فى الاستقبال ، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك ، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهى عنه والله أعلم .

قِيلَ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

وقرئ : يانوح اهبط ، بضم الباء ﴿ بسلام منا ﴾ مسلماً محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكرماً ﴿ وبركات عليك ﴾ ومباركا عليك ، والبركات الخيرات النامية . وقرئ : وبركة ، على التوحيد ﴿ وعلى أمم ممن معك ﴾ يحتمل أن تكون من للبيان . فيراد الأمم الذين كانوا معه فى السفينة ؛ لأنهم كانوا جماعات . أو قيل لهم أمم ، لأنّ الأمم تتشعب منهم ، وأن تكون لابتداء الغاية أى : على أمم ناشئة ممن معك ، وهى الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه . وقوله ﴿ وأمم ﴾ رفع بالابتداء . و ﴿ سنمتعهم ﴾ صفة ، والخبر محذوف تقديره : وممن معك أمم سنمتعهم ، وإنما حذف لأنّ قوله (ممن معك) يدل عليه . والمعنى : أنّ السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك ، وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار ، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء ، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه فى السفينة . وعن كعب بن محمد القرظى : دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر. وعن ابن زيد : هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا ، منهم من رحم ومنهم من عذب . وقيل : المراد بالأمم الممتعة : قوم هود وصالح ولوط وشعيب .

تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام . ومحلها الرفع على الابتداء ، والجمل بعدها أخبار، أى تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك ، مجهولة عندك وعند قومك ﴿ من قبل هذا ﴾ من قبل إيحائى إليك وإخبارك بها . أو من قبل هذا العلم الذى كسبته بالوحى . أو من قبل هذا الوقت ﴿ فاصبر ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك ، كما صبر نوح وتوقع فى العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قيض لنوح ولقومه ﴿ إن العاقبة ﴾ فى الفوز والنصر والغلبة ﴿ للمتقين ﴾. وقوله (ولا قومك) معناه : إنّ قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه ، فكيف برجل منهم كما تقول لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ

أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿أخاهم﴾ واحداً منهم ، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحا . و ﴿هوداً﴾ عطف بيان . و ﴿غيره﴾ بالرفع : صفة على محل الجار والمجرور . وقرئ : غيره ، بالجر صفة على اللفظ ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء . ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول ، لأنّ شأنهم النصيحة ، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطامع ، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع ﴿أفلا تعقلون﴾ إذ تردّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله . وهو ثواب الآخرة ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك . قيل ﴿استغفروا ربكم﴾ آمنوا به ﴿ثم توبوا إليه﴾ من عبادة غيره ، لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان ، والمدرار : الكثير الدرور ، كالمغزار . وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة ؛ لأنّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات ، حراصاً عليها أشد الحرص ، فكانوا أحوج شيء إلى الماء . وكانوا مدلين [1] بما أوتوا من شدّة القوة والبطش والبأس والنجدة ، مستحرزين بها من العدوّ ، مهيبين في كل ناحية . وقيل : أراد القوة في المال . وقيل : القوة على النكاح وقيل : حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم . وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما أنه وفد على معاوية ، فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال : إني رجل ذو مال ولا يولد لي ، فعلمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولداً ، فقال : عليك بالاستغفار ، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة ، فولد له عشرة بنين ، فبلغ ذلك معاوية فقال : هلا سألته ممّ قال ذلك ، فوفد وفدة أخرى ، فسأله الرجل فقال : ألم تسمع قول هود عليه السلام (ويزدكم قوة إلى قوتكم) وقول نوح عليه السلام (ويمددكم بأموال وبنين) . ﴿ولا تتولوا﴾ ولا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه ﴿مجرمين﴾ مصرّين على إجرامكم وآثامكم .

قَالُوا يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

(١) قوله «وكانوا مدلين» من الدل . وفي الصحاح : الدل قريب من الهدى ، وهما من السكينة والوقار . (ع)

﴿ماجئتنا ببينة﴾ كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لولا أنزل عليه آية من ربه، مع فوت آياته الحصر ﴿عن قولك﴾ حال من الضمير فى تاركى آلهتنا، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه، إقناطاً له من الإجابة.

إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥)

﴿اعتراك﴾ مفعول نقول، وإلا لغو. والمعنى: مانقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أى خبلك ومسك بجنون لسبك إياها وصدك عنها وعداوتك لها. مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذى بهذيان المبرسمين [١]. وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خبلا وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك. وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنونا والمنيب إلى ربه مخبلا، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه فى أيام جاهليته من الموادّة، وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبى إلا أن ينبض، وضب من الزندقة [٢] أراد أن يطلع رأسه. وقد دلت أجوبتهم المتقدمة على أنّ القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت [٣] ولا يلتفتون إلى النصح. ولا تلين شكيمتهم للرشد. وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه. حيث اعتقدوا فى حجارة أنها تنتصر وتنتقم. ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلى إراقة دمه. يرمونه عن قوس واحدة، وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم. ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه (ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد على أنى لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أنى لا أفعله. فإن قلت: هلا قيل: إنى أشهد الله وأشهدكم؟ [٤] قلت: لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد

(١) قوله «المبرسمين» فى الصحاح «البرسام» علة معروفة. (ع)

(٢) قوله «وضب من الزندقة» فى الصحاح «الضب» الحقد. والضب: واحد ضباب النخل، وهو طلعه. (ع)

(٣) قوله «لايبالون بالبهت» وهى الشخص بما ليس فيه. (ع)

(٤) قال محمود: «إن قلت هلا قيل أشهد الله وأشهدكم... الخ» قال أحمد: وتلخيص ماقاله أن صيغة الخبر لاتحتمل سوى الاخبار بوقوع الاشهاد منه، فلما كان إشهاده لله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر. لأنه إشهاد صحيح ثابت، وعبر فى جانبهم بصيغة الأمر التى تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به، وهو مراده فى هذا المقام

صحيح ثابت فى معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده ، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه . اشهد على أنى لا أحبك ، تهكما به واستهانة بحاله ﴿مما تشركون من دونه﴾ من إشراككم آلهة من دونه ، أو مما تشركونه من آلهة من دونه ، أى أنتم تجعلونها شركاء له ، ولم يجعلها هو شركاء . ولم ينزل بذلك سلطانا ﴿فكيدونى جميعاً﴾ أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون ، من غير إنظار : فإنى لا أبالى بكم وبكيدكم ، ولا أخاف معرّتكم وإن تعاونتم علىّ وأنتم الأقوياء الشداد ، فكيف تضرنى آلهتكم ، وماهى إلا جماد لا تضر ولا تنفع ، وكيف تنتقم منى إذا نلت منها وصددت عن عبادتها ، بأن تخبلنى وتذهب بعقلى .

إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَامِنْ دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَاأُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)

ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم ، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم . من كون كل دابة فى قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه ، والأخذ بنواصيها ، تمثيل لذلك ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل فى ملكه ، لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به ﴿فإن تولوا﴾ فإن تتولوا . فإن قلت : الإبلاغ كان قبل التولى ، فكيف وقع جزاء للشرط ؟ قلت : معناه فإن تتولوا لم أعاتب على تفريط فى الإبلاغ ، وكنتم محجوجين بأنّ ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول ﴿ويستخلف﴾ كلام مستأنف ، يريد : ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم وأموالكم ﴿ولا تضرونه﴾ بتوليكم ﴿شيئاً﴾ من ضرر قط ، لأنه لا يجوز عليه المضارّ والمنافع ، وإنما تضرون أنفسكم . وفى قراءة عبد الله : ويستخلف ، بالجزم . وكذلك : ولا تضروه ، عطفاً على محل (فقد أبلغتكم) والمعنى : إن تتولوا يعذرنى ويستخلف قوماً غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم ﴿على كل شىء حفيظ﴾ أى رقيب عليه مهيمن ، فما تخفى

== معهم . ويحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة ، والغرض إقامة الحجة عليهم ، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر ؛ للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم ، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التى هى أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر ، والله الموفق للصواب .

عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم . أو من كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار ، لم يضر مثله مثلكم .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)

﴿والذين آمنوا معه﴾ قيل : كانوا أربعة آلاف . فإن قلت : مامعنى تكرير التنجية ؟ قلت : ذكر أولا أنه حين أهلك عدوهم نجاهم ثم قال ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ على معنى : وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ ، وذلك أنّ الله عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل فى أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضواً عضواً . وقيل : أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ، ولا عذاب أغلظ منه وأشد . وقوله : برحمة منا ، يريد : بسبب الإيمان الذى أنعمنا عليهم بالتوفيق له .

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

﴿وتلك عاد﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم ، كأنه قال : سيحوا فى الأرض فانظروا إليها واعتبروا ، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال ﴿جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ، (لا نفرق بين أحد من رسله) قيل لم يرسل إليهم إلا هود وحده ﴿كل جبار عنيد﴾ يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل . ومعنى اتباع أمرهم : طاعتهم . ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين تكبهم على وجوههم فى عذاب الله . و ﴿ألا﴾ وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم ، تهويل لأمرهم وتفظيع له ، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم . فإن قلت: ﴿بعداً﴾ دعاء بالهلاك ، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم ؟ قلت : معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له : ألا ترى إلى قوله :

إِخْوَتِى لَاتَبْعَدُوا أَبَدًا وَبَلَى وَاللهِ قَدْ بَعِدُوا [1]

---

(١) إخوتى لاتبعدوا أبدا وبلى والله قد بعدوا
ما أمرّ العيش بعدكم كل عيش بعدكم نكد
ليت شعرى كيف شربكم إن شربى بعدكم ثمد

﴿قوم هود﴾ عطف بيان لعاد : فإن قلت : ماالفائدة فى هذا البيان [١] والبيان حاصل بدونه ؟ قلت : الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسما ، وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه ، ولأن عاداً عادان : الأولى القديمة التى هى قوم هود والقصة فيهم ، والأخرى إرم .

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَايَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَاقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ

لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية . وتقول العرب : بعد بالضم فى ضد القرب ، وبالكسر فى الهلاك ، ومضارع الأول مضموم ، ومضارع الثانى مفتوح . وما فى البيت منه . وما أمر : تعجب ، وشبهت العيش وهو الحياة أوما يعاش به بشيء مر على طريق المكنية ، وإثبات المرارة تخييل ، أواستعارتها للنقص على طريق التصريحية . والنكد : العسر الضيق المنغص . والثمد : الماء القليل الذى لامادة له فينقطع سريعاً . ورجل مثمود ، إذا كثر عليه السؤال من العلم أو المال حتى نفد ماعنده . والمعنى : أن سرورى بعدكم منقطع كالماء القليل ، وعبرت بذلك لمشاكلة ماقبله . ويروى لها بعد البيت الأول :

لو تملتهـم عشيرتهم   لاقتناء العز أو ولدوا   هان من بعض الرزية أو
هان من بعض الذى أجد   كل ما حى وإن أمروا   واردو الحوض الذى وردوا

ومعنى تملتهم : عاشوا معهم مليا من الزمان ، وأقحمت «من» مع إغناء «بعض» عنها ، للدلالة على تبغيض البعض . و«ما» مقحمة ، بنى كل حى مبالغة فى العموم . وأمروا بالكسر : كثروا . والحوض : تمثيل للموت .

(١) قال محمود : «إن قلت ما الفائدة فى هذا البيان وجعل قوم هود عطف بيان على عاد ... الخ» قال أحمد: فيه أيضا فائدتان جليلتان ، إحداهما : النسبة بذكر هود الذى إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم ، وكأنه قيل : عاد قوم هود الذى كذبوه ، والأخرى تناسب الآى بذلك ، فإن قبلها (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) وقبل ذلك حفيظ وغليظ ، وغير ذلك مما هو على وزن فعيل المناسب لفعول فى القوافى ، والله أعلم .

مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾

﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ لم ينشئكم منها إلا هو ، ولم يستعمركم فيها غيره . وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب ﴿واستعمركم فيها﴾ وأمركم بالعمارة ، والعمارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه ، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار ، وعمروا الأعمار الطوال ، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا ، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم ، فأوحى إليه : إنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي . وعن معاوية بن أبى سفيان أنه أخذ فى إحياء الأرض فى آخر أمره ، فقيل له ، فقال : ما حملنى عليه إلا قول القائل :

لَيْسَ الفَتَى بِفَتًى لَا يُسْتَضَاءُ بِهِ وَلَا تَكُونُ لَهُ فِي الْأَرْضِ آثَارُ [1]

وقيل : استعمركم من العمر ، نحو استبقاكم من البقاء ، وقد جعل من العمرى . وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون استعمر فى معنى أعمر ، كقولك استهلكه فى معنى أهلكه . ومعناه : أعمركم فيها دياركم ، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم . والثانى أن يكون بمعنى جعلكم معمرين دياركم فيها ، لأن الرجل إذا ورث داره من بعده فكأنما أعمره إياها ، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره ﴿قريب﴾ دانى الرحمة سهل المطلب ﴿مجيب﴾ لمن دعاه وسأله ﴿فينا﴾ فيما بيننا ﴿مرجوا﴾ كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوك لننتفع بك ، وتكون مشاوراً فى الأمور ومسترشداً فى التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك . وعن ابن عباس : فاضلا خيرا نقدّمك على جميعنا . وقيل : كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿يعبد آباؤنا﴾ حكاية حال ماضية ﴿مريب﴾ من أرابه إذا أوقعه فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين . أو من «أراب الرجل» إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازى . قيل ﴿إن كنت على بينة من ربى﴾ بحرف الشك وكان على

(١) قوله «بفتى» خبر ليس . و«لا يستضاء به» صفته . ويجوز أنه حال من الفتى الأول ، شبهه فى حسن الرأى وهداية المستشير بسراج منير . ويمكن أن شبهه بكوكب فى السماء ، ليقابل الأرض بعده . والجامع ماهر . ويجوز أن الجامع أنه يكشف غمة الفقر ، كما أن المشبه به يكشف ظلمة الليل ، وعلى كل حال فالاستضاءة تخييل . روى أنه قيل لمعاوية : لم أكثرت من حفر الأنهار وغرس الأشجار وإحياء القفار ؟ فقال : ما حملنى عليه إلا هذا البيت ، فالآثار هى ما كان يفعله . ويحتمل أنها المكارم الموجبة للثناء بعد الفناء .

يقين أنه على بينة ، لأنّ خطابه للجاحدين ، فكأنه قال : قدروا أني على بينة من ربى ، وأني نبيّ على الحقيقة ، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربى فى أوامره ، فمن يمنعنى من عذاب الله ؟ ﴿فما تزيدوننى﴾ إذن حينئذ [(١)] ﴿غير تخسير﴾ يعنى تخسرون أعمالى وتبطلونها . أو فما تزيدوننى بما تقولون لى وتحملوننى عليه غير أن أخسركم ، أى أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم إنكم خاسرون ﴿آية﴾ نصب على الحال قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل . فإن قلت : فيم يتعلق ﴿لكم﴾ قلت : بآية حالا منها متقدمة ، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها ، فلما تقدمت انتصبت على الحال ﴿عذاب قريب﴾ عاجل لا يستأخر عن مسكم لها بسوء إلا يسيراً ، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم ﴿تمتعوا﴾ استمتعوا بالعيش ﴿فى داركم﴾ فى بلدكم . وتسمى البلاد الديار ؛ لأنه يدار فيها أى يتصرف . يقال : ديار بكر ، لبلادهم . وتقول العرب الذين حوالى مكة : نحن من عرب الدار ، يريدون من عرب البلد . وقيل : فى دار الدنيا . وقيل : عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت ﴿غير مكذوب﴾ غير مكذوب فيه ، فاتسع فى الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به ، كقولك : يوم مشهود ، من قوله :

* وَيَوْمَ شَهِدْنَاهُ ... ... * [(٢)]

أو على المجاز ، كأنه قيل للوعد : نفى بك ، فإذا وفى به فقد صدق ولم يكذب . أو وعد غير كذب ، على أنّ المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول ، وكالمصدوقة بمعنى الصدق ﴿ومن خزى يومئذ﴾ قرئ مفتوح الميم لأنه مضاف إلى إذ ، وهو غير متمكن ، كقوله :

* عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الَمشِيبَ عَلَى الصِّبَا * [(٣)]

---

(١) قوله «إذن حينئذ» لعل إحداهما مزيدة . (ع)

(٢) ويوم شهدناه سليما وعامرا قليل سوى الطعن النهال نوافله
يقول : ورب يوم شهدنا فيه ، فحذف الجار وأوصل الضمير بالفعل ، فصار الفعل كأنه متعد لمفعولين : الاول الضمير ، والثانى : سليما ، أى قبيلتيهما «قليل» صفة ليوم . و «نوافله» فاعل به ، وقلة الغنائم لأن قومه لاتراعى حيازتها . أو المعنى أن أعداءه لاينالون من قومه إلا الطعن ، تهكما بهم ، فالاستثناء متصل . ويجوز أنه منقطع . ووصف المفرد بالجمع باعتبار أنواعه أومراته ، فهو متعدد أيضا . والنهال : جمع ناهل ، أى ريان أوعطشان على التشبيه هنا ، فهو من الأضداد ، ووصف الطعن بأنه ناهل مجاز عقلى : لأن الذى يوصف به الرمح أو الفارس . والمعنى : أنهم يتشفون من غيظ قلوبهم بذلك الطعن .

(٣) على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما أصح والشيب وازع
للنابغة الذبيانى ، وبنى حين على الفتح لاضافته إلى مبنى ، وشبه المشيب بمن يصح معه العتاب على طريق المكنية والعتاب تخييل ، ويحتمل أن إيقاع العتاب على المشيب مجاز عقلى . والمعنى : عاتبت نفسى زمن الشيب على الصبا ، أى الميل إلى الهوى كما يفعل الشبان . وقوله «فقلت» بيان للعتاب ، أى : إلى الآن لم أفق من سكرة الصبا ، والحال =

فإن قلت : علام عطف ؟ قلت : على نجينا ، لأنّ تقديره ونجيناهم من خزى يومئذ ، كما قال (ونجيناهم من عذاب غليظ) على : وكانت التنجية من خزى يومئذ ، أى من ذله ومهانته وفضيحته ، ولا خزى أعظم من خزى من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه . ويجوز أن يريد بيومئذ يوم القيامة ، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة . وقرئ (ألا إن ثمود) و (لثمود) كلاهما بالصرف وامتناعه ، فالصرف للذهاب إلى الحىّ أو الأب الأكبر ، ومنعه للتعريف والتأنيث ، بمعنى القبيلة .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

﴿رسلنا﴾ يريد الملائكة . عن ابن عباس : جاءه جبريل عليه السلام وملكان معه . وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقيل : كانوا تسعة . وعن السدى : أحد عشر ﴿بالبشرى﴾ هى البشارة بالولد . وقيل : بهلاك قوم لوط . والظاهر الولد ﴿سلاما﴾ سلمنا عليك سلاما ﴿سلام﴾ أمركم سلام . وقرئ : فقالوا سلما قال سلم ، بمعنى السلام . وقيل : سلم وسلام ، كحرم وحرام ، وأنشد :

مَرَرْنَا فَقُلْنَا إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ كَمَا اكْتَلَّ بِالْبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ (١)

﴿فما لبث أن جاء﴾ فما لبث فى المجيء به ، بل عجل فيه . أو فما لبث مجيئه . والعجل : ولد البقرة ، ويسمى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة ، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ـــ أن الشيب زاجرا لى عن موجب العذاب ، والاستفهام توبيخى : أى لا ينبغى ذلك ، ووزعته فاتزع : كففته فامتنع ؛ فالوازع الذى يصلح الصف ويمنعه عن الاعوجاج ، وأوزعنى : ألهمنى ما يصلح شأنى .

(١) لذى الرمة غيلان بن عقبة ، يقول : مررنا بديار المحبوبة مىّ ، فقلنا إيه ، أى حدثى واستأنسى ، فأسرنا سلم ، أى سلامة وأنس ، فسلمت علينا ولمعت ثناياها وغابت بسرعة ، كما لمع الغمام بلمعان البرق وغاب البرق بسرعة . واكتل اكتلالا : لمع لمعانا واللوائح الظواهر : صفة للغمام ، لتعدده معنى .

البقر ﴿حنيذ﴾ مشوىّ بالرضف [١] فى أخدود . وقيل (حنيذ) يقطر دسمه ، من حنذت الفرس إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقا ، ويدل عليه (بعجل سمين) . يقال : نكره وأنكره واستنكره ، ومنكور قليل فى كلامهم ، وكذلك : أنا أنكرك ، ولكن منكر ومستنكر ، وأنكرك . قال الأعشى :

وَأَنكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِى نَكِرَتْ مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا [٢]

قيل : كان ينزل فى طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروها [٣] . وقيل : كانت عادتهم أنه إذا مسّ من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه ، والظاهر أنه أحسّ بأنهم ملائكة ، ونكرهم لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه ، ألا ترى إلى قولهم (لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط) وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا (فأوجس) فأضمر [٤] . وإنما قالوا (لا تخف) لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير فى وجهه . أو عرفوه بتعريف الله . أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف ، لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب ﴿وامرأته قائمة﴾ قيل : كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم . وقيل : كانت قائمة على رؤسهم تخدمهم . وفى مصحف عبد الله : وامرأته قائمة وهو قاعد ﴿فضحكت﴾ سروراً بزوال الخيفة [٥] أو بهلاك أهل الخبائث . أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد

---

(١) قوله «مشوى بالرضف» أى الحجارة المحماة ، كما فى الصحاح . (ع)

(٢) للأعشى . ويقال : أنكره ونكره : جهله ونفر منه : أى جهلتنى المحبوبة ، وما كان الذى أنكرته من الحوادث إلا الشيب والصلع وهو انحسار شعر الرأس . وقيل : إن أبا عبيدة سمع بشارا ينكر نسبة هذا البيت للأعشى ويقول : إنه مصنوع عليه لا يشبه كلامه ، فتعجب أبو عبيدة من فطنته ، كأنه صح عنده إنكاره .

(٣) قال محمود : «قيل إنه كان ينزل فى طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروها ... الخ» قال أحمد : وقد وردت قصة إبراهيم هذه فى ثلاثة مواضع : هذا أحدها ، وهو دال على أنه إنما أوجس منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة وعدم علمه فيم جاؤا . الثانى : فى الحجر قوله (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) إلى قوله (لا توجل إنا نبشرك) فلم يطمئنوا باعلامه أنهم ملائكة ، ولكن بأنهم يبشرون له . فدل على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاؤا فيه . الثالث : فى الذاريات (فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه) فهو أيضا كذلك . وأما لوط فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك . ألا ترى إلى قوله تعالى (قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) فأول ما أعلموا به أنهم رسل ، فالفرق بين هذه الآية وبين آية إبراهيم ، مصداق لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطا لم يعلم ذلك ، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يبعد على فراسته أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام .

(٤) عاد كلامه . قال : «ومعنى أوجس أضمر وإنما قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر الخوف ... الخ» قال أحمد : وهذا التأويل وهم فيه الزمخشرى والله أعلم ، لأنهم إنما علموا خوفه ووجله باخباره إياهم بذلك ، ويدل عليه قوله تعالى فى آية أخرى (قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل) والقصة واحدة . والله الموفق للصواب .

(٥) عاد كلامه . قال : «وضحك زوجته لأنها سرت بذهاب الخيفة ... الخ» قال أحمد : ويبعد هذا التأويل

أظلهم العذاب . وقيل : كانت تقول لإبراهيم : اضمم لوطاً ابن أخيك إليك فإنى أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب ، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ماتوهمت . وقيل ضحكت لحاضت . وقرأ محمد بن زياد الأعرابى (فضحكت) بفتح الحاء ﴿ يعقوب ﴾ رفع بالابتداء ، كأنه قيل : ومن وراء إسحق يعقوب مولود أو موجود ، أى من بعده . وقيل الوراء : ولد الولد . وعن الشعبى أنه قيل له : أهذا ابنك ؟ فقال نعم ، من الوراء ، وكان ولد ولده . وقرئ (يعقوب) بالنصب ، كأنه قيل . ووهبنا لها إسحق . ومن وراء إسحق يعقوب ، على طريقة قوله :

... ... لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلاَ نَاعِبٍ ... ... (١)

الألف فى ﴿ ياويلتا ﴾ مبدلة من ياء الإضافة . وكذلك فى « يالهفاً » و « ياعجباً » وقرأ الحسن : ياويلتى ، بالياء على الأصل . و ﴿ شيخاً ﴾ نصب بما دلّ عليه اسم الإشارة . وقرئ شيخ ، على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى : هذا بعلى هو شيخ . أو بعلى : بدل من المبتدأ ، وشيخ : خبر ، أو يكونان معاً خبرين . قيل : بشرت ولها ثمان وتسعون سنة ، ولإبراهيم مائة وعشرون سنة ﴿ إن هذا لشىء عجيب ﴾ أن يولد ولد من هرمين ، وهو استبعاد من حيث العادة التى أجراها الله . وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ف ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ لأنها كانت فى بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها [٢] مايزدهى سائر النساء الناشئآت فى غير بيوت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب ، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم فى قولهم ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به ياأهل بيت النبوّة ، فليست بمكان عجب . وأمر الله : قدرته وحكمته : وقوله ﴿ رحمت الله وبركاته عليكم ﴾ كلام مستأنف علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : إياك والتعجب ، فإنّ أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم . وقيل : الرحمة النبوة ، والبركات الأسباط من بنى إسرائيل ، لأنّ الأنبياء منهم ، وكلهم من ولد إبراهيم ﴿ حميد ﴾ فاعل مايستوجب به الحمد من عباده ﴿ مجيد ﴾ كريم كثير الإحسان إليهم . وأهل البيت : نصب على النداء أو على الاختصاص . لأن (أهل البيت) مدح لهم : إذ المراد : أهل بيت خليل الرحمن .

ـــ أنها قالت بعد (ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب) فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت ، إذ لاعجب فى حمل من تحيض ، والحيض فى العادة مهماز على إمكان الحمل ، والله الموفق .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٨١ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله « ولا يزدهيها » فى الصحاح : زهاه وازدهاه : استخفه وتهاون به . (ع)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾

(الروع) ماأوجس من الخيفة . حين نكر أضيافه . والمعنى : أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملئ سروراً بسبب البشرى بدل الغم ، فرغ للمجادلة ، فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : هو محذوف كما حذف قوله (فلما ذهبوا به وأجمعوا) وقوله ﴿يجادلنا﴾ كلام مستأنف دال على الجواب . وتقديره : اجترأ على خطابنا ، أو فطن لمجادلتنا ، أو قال : كيت وكيت : ثم ابتدأ فقال (يجادلنا فى قوم لوط) وقيل فى(يجادلنا) : هو جواب لما ، وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال : وقيل : إن « لما » ترد المضارع إلى معنى الماضى ، كما ترد « إن » الماضى إلى معنى الاستقبال ، وقيل : معناه أخذ يجادلنا ، وأقبل يجادلنا . والمعنى : يجادل رسلنا . ومجادلته إياهم أنهم قالوا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) فقال : أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون ؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا . حتى بلغ العشرة . قالوا : لا . قال : أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فعند ذلك قال (إن فيها لوطاً) (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله) . ﴿فى قوم لوط﴾ فى معناهم . وعن ابن عباس : قالوا له : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب . وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير [1] . وقيل : كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان ﴿إن إبراهيم لحليم﴾ غير عجول على كل من أساء إليه ﴿أواه﴾ كثير التأوه من الذنوب ﴿منيب﴾ تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى . وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة ، فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه .

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

﴿يا إبراهيم﴾ على إرادة القول : أى قالت له الملائكة ﴿أعرض عن هذا﴾ الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك ، فلا فائدة فيه ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ وهو قضاؤه وحكمه الذى لا يصدر إلا عن صواب وحكمة ، والعذاب نازل بالقوم لا محالة ، لا مرد له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك .

(١) قوله «عشرة فيهم خير» لعله عشرة يصلون . (ع)

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

كانت مساءة لوط وضيق ذرعه [1] لأنه حسب أنهم إنس ، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم . ووى أنّ الله تعالى قال لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم : أما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا : وما أمرهم ؟ قال : أشهد بالله إنها لشر قرية فى الأرض عملا ، يقول ذلك أربع مرات ، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد ، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها . يقال : يوم عصيب ، وعصوصب ، إذا كان شديداً من قولك : عصبه ، إذا شدّه .

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

﴿يهرعون﴾ يسرعون كأنما يدفعون دفعاً ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها ، فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها ، فلذلك جاؤا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء . وقيل معناه: وقد عرف لوط عادتهم فى عمل الفواحش قبل ذلك ﴿هؤلاء بناتى﴾ أراد أن يقى أضيافه ببناته ، وذلك غاية الكرم ، وأراد : هؤلاء بناتى فتزوجوهنّ وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً ، كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن وائل قبل الوحى وهما كافران [2]

(١) قوله «وضيق ذرعه» فى الصحاح : يقال ضقت بالأمر ذرعا ، إذا لم تطقه ولم تقو عليه . وأصل الذرع إنما هو بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدى إليه فلم تنله . (ع)

(٢) قلت : قوله «أبو العاص بن وائل» غلط فاحش وإنما هو أبو العاص بن الربيع ، ليس فى نسبته من اسمه وائل . وكأنه انتقل ذهنه إلى العاص بن وائل السهمى والد عمرو ، وليس له فى هذه القضية مدخل ، وأما قصة تزويج أبى العاص بن الربيع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذا عتبة بن أبى لهب فذكرها ابن إسحاق فى المغازى والطبرانى من طريقه قال : كان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة مالا وأمانة وكانت خديجة خالته . فسألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه بزينب وكان لايخالفها . وذلك قبل أن ينزل عليه فلما أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبوة آمنت خديجة وبناته وثبت أبو العاص على شركه . قال : وكان ـــ

وقيل كان لهم سيدان مطاعان ، فأراد أن يزوجهما ابنتيه : وقرأ ابن مروان : هنّ أطهر لكم ، بالنصب ، وضعفه سيبويه وقال : احتبي ابن مروان في لحنه . وعن أبى عمرو بن العلاء : من قرأ (هنّ أطهر) بالنصب فقد تربع فى لحنه ، وذلك أنّ انتصابه على أن يجعل حالا قد عمل فيها مافى هؤلاء من معنى الفعل ، كقوله (هذا بعلى شيخاً) أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر ، كأنه قيل : خذوا هؤلاء ، و بناتى : بدل ، ويعمل هذا المضمر فى الحال ، و(هنّ) فصل ، وهذا لا يجوز لأنّ الفصل مختص بالوقوع بين جزأى الجملة ، ولا يقع بين الحال وذى الحال ، وقد خرج له وجه لا يكون (هنّ) فيه فصلا ، وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ و (بناتى هنّ) جملة فى موضع خبر المبتدإ ، كقولك : هذا أخى هو ، ويكون (أطهر) حالا ﴿فاتقوا الله﴾ بإيثارهنّ عليهم ﴿ولا تخزونى﴾ ولا تهينونى ولا تفضحونى ، من الخزى . أو ولا تخجلونى ، من الخزاية وهى الحياء ﴿فى ضيفى﴾ فى حق ضيوفى فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل ، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ رجل واحد يهتدى إلى سبيل الحق وفعل الجميل ، والكف عن السوء . وقرئ : ولا تخزون ، بطرح الياء . ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة فى تواضعه لهم وإظهاراً لشدّة امتعاضه[1] مما أوردوا عليه ، طمعاً فى أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم ، ومن ثمّ ﴿قالوا لقد علمت﴾ مستشهدين بعلمه ﴿ما لنا فى بناتك من حق﴾ لأنك لا ترى مناكحتنا ، وما هو إلا عرض سابرى[2] . وقيل : لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً لتواطؤهم عليه ، كان عندهم أنه هو الحق ، وأنّ نكاح الإناث من الباطل ، فلذلك قالوا : مالنا فى بناتك من حق قط ، لأنّ نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذى نحن عليه . ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة ، والغرض نفى الشهوة ﴿لتعلم ما نريد﴾ عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة .

قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

= رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوج عتبة بن أبى لهب بنته رقية . فلما دعا قريشا إلى أمرين قال بعضهم لبعض : قد فرغتم محمدا من همه ببناته . فردوهن عليه فمشوا إلى أبى العاص . فأبى عليهم . ثم مشوا إلى عتبة بن أبى لهب . ففارق رقية . وزوجوه بنت سعيد بن العاص . فتزوجها بعده عثمان بن عفان . فذكر قصة أبى العاص وأسره ببدر» وروى البيهقى فى الدلائل من طريق قتادة «أن النبى صلى الله عليه وسلم زوج ابنته أم كلثوم فى الجاهلية عتبة ابن أبى لهب . ورقية أخاه . فلما جاء الاسلام أمر أبو لهب ولديه فطلقا البنتين .

(١) قوله «لشدة امتعاضه» امتعض من الأمر : غضب منه وشق عليه ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وماهو إلا عرض سابرى» عرض سابرى بفتح العين : نوع من الثياب رقيق ، منسوب إلى سابور من الأكاسرة ، كذا بهامش . وفى الصحاح : عرضت له الشيء . أى أظهرته له وأبرزته إليه . يقال : عرضت له ثوبا مكان حقه . وفى المثل : عرض سابرى ؛ لأنه ثوب جيد يشترى بأول عرض ولا يبالغ فيه . (ع)

جواب «لو» محذوف، كقوله تعالى (ولو أنّ قرآناً سيرت به الجبال) يعنى لو أنّ لى بكم قوة لفعلت بكم وصنعت. يقال: مالى به قوة، ومالى به طاقة. ونحوه (لا قبل لهم بها) ومالى به يدان؛ لأنه فى معنى لا أضطلع به ولا أستقلّ به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسى، أو أويت إلى قوىّ أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم. فشبه القوىّ العزيز بالركن من الجبل فى شدّته ومنعته، ولذلك قالت الملائكة ـ وقد وجدت عليه ـ: إنّ ركنك لشديد. وقال النبى صلى الله عليه وسلم «رحم الله أخى لوطاً، كان يأوى إلى ركن شديد»(١) وقرئ (أو آوى) بالنصب بإضمار «أن» كأنه قيل: لو أن لى بكم قوة أو أويا، كقولها:

* لَلبسُ عَباءَةٍ وتَقَرَّ عينى * (٢)

وقرئ (إلى ركن) بضمتين. وروى أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل يراذهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوّروا الجدار.

قَالُوا يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)

فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب قالوا: يالوط، إن ركنك لشديد ﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه فى عقوبتهم فأذن له، فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه ـ وله جناحان وعليه وشاح من درّ منظوم وهو براق الثنايا ـ فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله تعالى (فطمسنا أعينهم) فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإن فى بيت لوط قوماً سحرة (لن يصلوا إليك) جملة موضحة للتى قبلها؛ لأنهم إذا كانوا

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث.

(٢)
لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عينى ... أحب إلى من لبس الشفوف

لميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية، ضاق صدرها من عشرة معاوية فقال: أنت اليوم فى ملك لاتدرين قدره، وكنت قبله فى العباءة، فقالت ذلك، أى: لبيت من الشعر تضطرب الرياح فيه، أحب إلى من قصر عال مرتفع، من أناف إنافة: ارتفع. ومن العرب من يقول: أرياح فى جمع ريح، خوف الاشتباه بجمع روح، كأعياد فى عيد، خوف الاشتباه بالعود. ولبس: عطف على ما قبله. ورواية «للبس» على أنه هو المبتدأ تحريف وإن كثرت. ولبس عباءة خشنة من الصوف وقرة عينى مع ذلك وسرورى، أحب إلى من لبس الشفوف وسخونة عينى وحزنى. والشفوف ـ جمع شف ـ: الرقيق من الثياب، كأنه لايحجب ماوراءه. وشف يشف شفوفا. نحل جسمه. وشفه يشفه بالكسر شفا: نحله.

رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره. قرئ: ﴿فأسر﴾ بالقطع والوصل. و ﴿إلا امرأتك﴾ بالرفع والنصب. وروى أنه قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح. فقال: أريد أسرع من ذلك. فقالوا ﴿أليس الصبح بقريب﴾ وقرئ ﴿الصبح﴾ بضمتين. فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ (إلا امرأتك) بالنصب؟ قلت: استثناها من قوله (فأسر بأهلك) والدليل عليه قراءة عبد الله: فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك. ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت، على أصل الاستثناء. وإن كان الفصيح هو البدل، أعنى قراءة من قرأ بالرفع، فأبدلها عن أحد. وفى إخراجها مع أهله روايتان: روى أنه أخرجها معهم، وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هى، فلما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت: ياقوماه، فأدركها حجر فقتلها. وروى أنه أمر بأن يخلفها مع قومها. فإن هواها إليهم، فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ جعل جبريل جناحه فى أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم ﴿من سجيل﴾ قيل هى كلمة معربة من سنككل، بدليل قوله حجارة من طين. وقيل: هى من أسجله: إذا أرسله لأنها ترسل على الظالمين. ويدل عليه قوله (لنرسل عليهم حجارة) وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل، وسجل لفلان ﴿منضود﴾ [1] نضد فى السماء نضداً معداً للعذاب. وقيل يرسل بعضه فى أثر بعض متتابعاً ﴿مسومة﴾ معلمة للعذاب. وعن الحسن كانت معلمة ببياض وحمرة. وقيل عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض. وقيل: مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به ﴿وما هى﴾ من كل ظالم ببعيد. وفيه وعيد لأهل مكة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أنه سأل جبريل عليه السلام؟ فقال: يعنى ظالمى أمتك، مامن ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة [2]. وقيل الضمير للقرى، أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم ﴿ببعيد﴾ بشىء بعيد. ويجوز أن يراد: وما هى بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت فى السماء وهى مكان بعيد، إلا أنها إذا هوت منها فهى أسرع شىء لحوقا بالمرمى، فكأنها بمكان قريب منه.

---

(١) قوله «منضود» فى الصحاح: نضد متاعه ينضده بالكسر نضداً، أى: وضع بعضه فوق بعض. (ع)
(٢) ذكره الثعلبى عن أنس بغير سند.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)

﴿ إنى أراكم بخير ﴾ يريد : بثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف . أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون . أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه ، كقول مؤمن آل فرعون (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) ﴿ يوم محيط ﴾ مهلك من قوله (وأحيط بثمره) وأصله من إحاطة العدو . فإن قلت : وصف العذاب بالإحاطة أبلغ ، أم وصف اليوم بها ؟ قلت : بل وصف اليوم بها ، لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه . فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء [1] فما فائدة قوله أوفوا ؟ قلت : نهوا أولا عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأنّ فى التصريح بالقبيح نعياً على المنهى وتعييراً له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحاً بلفظه ، لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه ، وجىء به مقيداً بالقسط : أى ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب ، لأن ماجاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه . وفيه توقيف على أنّ الموفى عليه أن ينوى بالوفاء بالقسط ، لأنّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل ، فهذه ثلاث فوائد .

البخس : الهضم والنقص . ويقال للمكس : البخس . قال زهير :

---

(١) قال محمود : « إن قلت النهى عن النقصان أمر بالايفاء ... الخ » قال أحمد : ولمن قال إن الأمر بالشىء ليس نهيا عن ضده أن يستدل بهذه الآية ، فان الأمر لو كان عين النهى عن الضد ، لكان وروده عقيبه تكراراً . وفى كلام الزمخشرى مايدل على أنه وهم ، فاعتقد أن النهى فى الآية قبل الأمر ، وذلك سهو وغفلة ، وكل مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم : وأما قوله : إن الايفاء حسن فى العقول ، فتفريع على قاعدة التحسين والتقبيح ، وقد سبق بطلانها ، وبينا أن التحسين والتقبيح موظفان من الشرع ، ولا مجال للعقل فى حكم سمعى .

* وَفِى كُلِّ مَابَاعَ ٱمْرُؤٌ بَخْسُ دِرْهَمِ * [(١)]

وروى : مكس درهم ، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً ، كما تفعل السماسرة . أوكانوا يمكسون الناس . أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء . فنهوا عن ذلك . والعثى فى الأرض نحو السرقه والغارة وقطع السبيل . ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثيا منهم فى الأرض ﴿ بقيت الله ﴾ ما يبقى لكم من الحلال [(٢)] بعد التنزه عما هو حرام عليكم ﴿ خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ بشرط أن تؤمنوا ، وإنما خوطبوا بترك التطفيف والبخس والفساد فى الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان . فإن قلت : بقية الله خير للكفرة ، لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس [(٣)] والتطفيف ، فلم شرط الإيمان ؟ قلت : لظهور فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ، وخفاء فائدتها مع فقده لانغماس صاحبها فى غمرات الكفر . وفى ذلك استعظام للإيمان ، وتنبيه على جلالة شأنه . ويجوز أن يراد : إن كنتم مصدقين لى فيما أقول لكم وأنصح به إياكم . ويجوز أن يراد . ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير [(٤)] لكم ،

(١) أفى كل أسواق العراق إتاوة ... وما كل ما باع امرؤ مكس درهم
ألا تستحى منا ملوك وتتقى ... محارمنا لا تتقى الدم بالدم

لزهير . وقيل : لجابر بن حي التغلبي ، والاستفهام للتعجب أوللتوبيخ ، والاتاوة كالكتابة : الرشوة والجعالة : يقال : أتوته أتوا وإتاوة : أعطيته الخراج ، فهى فى الأصل مصدر . والمكس : مايأخذه العشار . وروى «بخس درهم» أى نقص درهم ، وكان أهل العراق يفعلون ذلك فى أسواقهم مع العرب وغيرهم ، فقال زهير : لاينبغى ذلك . و«ألا» فى الأصل مركبة من همزة الاستفهام التوبيخى ولا النافية ، فصارت أداة تحضيض . ويقال : استحيا واستحى كما هنا ، بنقل حركة الياء إلى الحاء وحذفها ، أى : لتستح منا الملوك ، وتتوق عقوبة التعرض لمحارمنا وأموالنا ، لئلا تتوق القتل منا لهم بقتلنا لبعضهم ، أى لئلا ترجع إلا بذلك ، أولئلا تتوق أخذ الدم بدل الدم . وروى «ألا يستحى منا المليك ويتقى» إلى آخره ، وهو لغة فى الملك ، والمراد به ملك العراق .

(٢) قال محمود : «بقية الله مايبقى لكم من الحلال ... الخ» قال أحمد : المنقول عن المعتزلة أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة ، لانهيا ولاأمراً ، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهى . وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون فى حال الكفر بشرط الايمان ، وقد قررها الزمخشرى على ذلك .

(٣) عاد كلامه . قال : «فان قلت بقية الله خير للكفرة لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من إقرار الزمخشرى للآية على ظاهرها ، ومعنى السؤال : أن الكفار إذا قدرنا خطابهم بالفروع ، انتفعوا باجتناب المنهيات فى الدار الآخرة ؛ لأن ثمرة الخلاف فى مسئلة خطاب الكفار إنما تظهر فى الدار الأخرة ، وإذا كانوا ينتفعون بذلك فلا معنى لاشتراط الايمان والحال مع وجوده وعدمه فى الانتفاع بالامتثال سواء . ومعنى الجواب : أن ظهور الانتفاع بالامتثال إنما يتحقق مع الايمان ، وأما مع الكفر فهم مخلدون فى العذاب ، فانما تظهر الفائدة على خفاء فى تحقيق مأمن العذاب ، والله الموفق .

(٤) عاد كلامه . قال : «ويجوز أن يراد مايبقى لكم من الطاعات عند الله ... الخ» قال أحمد : قد تقدم أن عقيدة أهل السنة : أن لاخالق ولا رازق إلا الله ، إيمانا بقوله (هل من خالق غير الله يرزقكم) وإذا كان الرزق عبارة عن كل مايقيم به الخلق بنيتهم ، لزم اندراج الحرام فى هذا الاطلاق عقداً وحقيقة . وأما إطلاق القول باضافته على الخصوص إلى الله تعالى ، فأمر خارج عن الاعتقاد راجع إلى الاتباع ، والله الموفق .

كقوله (والباقيات الصالحات خير عند ربك) وإضافة البقية إلى الله من حيث أنها رزقه الذى يجوز أن يضاف إليه . وأمّا الحرام فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً [1] ، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول : طاعة الله . وقرئ : تقية الله ، بالتاء . وهى تقواه ومراقبته التى تصرف عن المعاصى والقبائح ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها ، وإنما بعثت مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً ، وقد أعذرت حين أنذرت .

قَالُوا يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَانَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات ، وكان قومه إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدوا بقولهم ﴿أصلواتك تأمرك﴾ السخرية والهزء - والصلاة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز ، كما كانت ناهية فى قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وأن يقال : إنّ الصلاة تأمر بالجميل والمعروف ، كما يقال : تدعو إليه وتبعث عليه - إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز [2] وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته ، وأرادوا أنّ هذا الذى تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته ، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعى عقل ، ولا يأمرك به آمر فطنة ، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان ، وهو صلواتك التى تداوم عليها فى ليلك ونهارك ، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال . ومعنى تأمرك ﴿أن نترك﴾ تأمرك بتكليف أن نترك [3] ﴿ما يعبد آباؤنا﴾ لحذف المضاف الذى هو التكليف ، لأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره . وقرئ (أصلاتك) بالتوحيد . وقرأ ابن أبى عبلة : أو أن تفعل فى أموالنا ما تشاء ، بتاء الخطاب فيهما . وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس ، والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير .

---

(١) قوله «ولا يسمى رزقا» هذا مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فالرزق ماينتفع به ولو حراماً . (ع)

(٢) قوله «مساق الطنز» فى الصحاح : الطنز السخرية . وطنز يطنز فهو طناز ، وأظنه مولداً أو معربا اهـ . (ع)

(٣) قال محمود : «ومعناه تأمرك بتكليف أن نترك ما يعبد آباؤنا إلى قوله بتاء الخطاب فيهما» قال أحمد : فعلى هذه القراءة يكون (أن نفعل) معطوفا على أن نترك ، وعلى المشهور : لا يجوز ذلك والله أعلم لاستحالة المعنى ، فيتعين العطف فيها على (مايعبد) كأنهم قالوا : أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة آبائنا أو معبود آبائنا ، على أنها مصدرية أو موصولة ، ثم قالوا : أو أن نفعل ، أى أو أن نترك فعلنا فى أموالنا ما نشاء ، هذه لطيفة فتنبه لها ، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشرى لمضاف تقديره : تأمرك بتكليف أن نترك ، واحتجاجه لذلك بأن الانسان لا يؤمر بفعل غيره إذاً والمسئلة فرع من فروع خلق الأفعال ، ومع ذلك كله فتقدير المضاف فى الآية متوجه ليس بناء على القراءة المذكورة ، ولكن لأن عرف التخاطب فى مثله يقتضى ذلك ، والله أعلم .

وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم [١] والدنانير وتقطيعها. وأرادوا بقولهم ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ نسبته إلى غاية السفه والغىّ، فعكسوا ليتهكموا به، كما يتهكم بالشحيح الذى لا يبضّ حجره [٢] فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك. وقيل: معناه إنك المتواصف بالحلم والرشد فى قومك، يعنون أنّ ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

﴿ورزقنى منه﴾ أى من لدنه ﴿رزقا حسنا﴾ وهو ما رزقه من النبوّة والحكمة. وقيل (رزقا حسنا) حلالا طيباً من غير بخس ولا تطفيف. فإن قلت: أين جواب (أرأيتم) وما له لم يثبت كما أثبت فى قصة نوح ولوط؟. قلت: جوابه محذوف، وإنما لم يثبت لأنّ إثباته فى القصتين دلّ على مكانه، ومعنى الكلام ينادى عليه. والمعنى: أخبرونى إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربى وكنت نبياً على الحقيقة، أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصى؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟. يقال: خالفنى فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مولّ عنه، وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه؟ فيقول: خالفنى إلى الماء، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً. ومنه قوله تعالى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) يعنى أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها، لأستبد بها دونكم ﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهيى عن المنكر ﴿ما استطعت﴾ ظرف، أى: مدة استطاعتى [٣] للإصلاح،

---

(١) قوله «عن حذف الدراهم» الذى فى الصحاح: حذفت من شعرى ومن ذنب الدابة، أى: أخذت اه (ع)

(٢) قوله «لا يبض حجره» فى الصحاح: بض الماء بضيضاً: سال قليلا قليلا. وفى المثل: ما يبض حجره، أى ما تندى صفاته. (ع)

(٣) قال محمود: «ما استطعت ظرف أى مدة استطاعتى للاصلاح وما دمت متمكناً منه، ويجوز أن يكون على حذف مضاف تقديره إلا الاصلاح إصلاح ما استطعت، أو يكون مفعولا للمصدر كقوله: ضعيف النكاية أعداءه» قال أحمد: والظاهر أنه ظرف. كهو فى قوله (فاتقوا الله ما استطعتم) وأما جعله مفعولا للمصدر وقد عرف بالألف واللام فبعيد؛ لأن إعمال المصدر المعرف فى المفعول الصريح ليس بذاك. قالوا: ولم يوجد فى القرآن عاملا فى مفعول صريح ولا فى غيره إلا فى قوله (لا يحب الله الجهر بالسوء) فأعمله فى الجار والعدول عن إقفاء الاعراب إلى وجوهه وهي ممكنة عتيدة متعين خصوصا فى أفصح الكلام. والله أعلم.

ومادمت متمكنا منه لا آلو فيه جهداً . أو بدل من الإصلاح ، أى : المقدار الذى استطعته منه . ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك : إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت . أو مفعول له كقوله :

* ضَعِيفُ النِّـكَايَةِ أَعْدَاءَهُ * (١)

أى ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾ وما كونى موفقاً لإصابة الحق فيما آتى وأذر ، ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده . والمعنى : أنه استوفق ربه فى إمضاء الأمر على سننه ، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوه ، وفى ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه .

وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

« جرم » مثل كسب فى تعديه إلى مفعول واحد ، وإلى مفعولين تقول : جرم ذنباً وكسبه ، وجرمته ذنباً وكسبته إياه ، قال :

* جَرِمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا * (٢)

ومنه قوله تعالى ﴿لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم﴾ أى لا يكسبنكم شقاق إصابة العذاب . وقرأ ابن كثير بضم الياء ، من أجرمته ذنباً ، إذا جعلته جارما له ، أى كاسباً ، وهو منقول من جرم المتعدى إلى مفعول واحد ، كما نقل : أكسبه المال ، من كسب المال . وكما لا فرق بين كسبته مالا وأكسبته إياه ، فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه . والقراءتان مستويتان فى المعنى لا تفاوت بينهما . إلا أن المشهورة أفصح لفظاً ، كما إن كسبته مالا أفصح من أكسبته .

---

(١) ضعيف النكاية أعداءه يخال الفرار يراخى الأجل

نكأ القرح نكأ بالهمز : جرحه بعد اندماله ، ونكى العدو نكاية : قتله وجرحه . وأعداءه : مفعول النكاية . وعمل المصدر المقرون بأل كما هنا نادر . يخال : أى يظن الهرب من العدو يطيل الأجل من جبنه .

(٢) ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

لزيادة بن أسماء . ويقال : جرم ذنبا إذا اكتسبه . وجرم النخل : قطعه . وجرمته كذا : إذا أكسبته إياه أو حملته عليه . يقول : طعنت ذلك الرجل الفزارى طعنة قتلته . «جرمت فزارة» أى حق لها بعدها الغضب ، أو اكتسبت فزارة بعدها الغضب فقط ، واشتهر الرفع عنهم ؛ لكن قال الجوهرى «فزارة» مفعول أول ، أى : أحقتهم الغضب ، أو أكسبتهم إياه ، أو حملتهم على أن يغضبوا بعدها ، فهو على إسقاط الخافض .

والمراد بالفصاحة : أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، وهم له أكثر استعمالا . وقرأ أبو حيوة ، ورويت عن نافع : (مثلَ ما أصاب) ، بالفتح لإضافته إلى غير متمكن ، كقوله :

* لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ * [1]

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ يعنى أنهم أهلكوا فى عهد قريب من عهدكم ، فهم أقرب الهالكين منكم . أولا يبعدون منكم فى الكفر والمساوى وما يستحق به الهلاك . فإن قلت : ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه [2] ؟ قلت : إما أن يراد : وما إهلاكهم ببعيد ، أو ماهم بشىء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد . ويجوز أن يسوى فى قريب وبعيد ، وقليل وكثير ، بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما ﴿رحيم ودود﴾ عظيم الرحمة للتائبين ، فاعل بهم ما يفعل البليغ المودة بمن يوده ، من الإحسان والإجمال .

---

(١) ثم ارعويت وقد طال الوقوف بنا ... فيها فصرت إلى وجناء شملال
تعطيك مشيا وإرقالا ودأدأة ... إذا تسربلت الآكام بالآل
لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت ... حمامة فوق غصن ذات أوقال

لأبى قيس بن رفاعة يصف ناقته . وقوله «فيها» أى فى دار المحبوبة . والوجناء : الشديدة الصلبة . والشملال : الخفيفة السريعة . والإرقال والدأدأة : نوعان من السير ، وقد شبه استتار الآكام وهى الجبال الصغيرة بالآل ، وهو السراب الذى يرى فى الهاجرة أبيض يشبه الماء فى جريانه على وجه الأرض ، بالتسربل وهو لبس السرابيل : أى الثياب على طريق التصريحية ، ثم وصفها بحدة الفؤاد وهو محمود عندهم ، أو بحنينها إلى وطنها ، وعطفها لما سمعت صوت الحمامة . والشرب ـ بالكسر : ـ النصيب من الماء . وبالضم المصدر . والأوقال : جمع وقل كجبل وهى الحجارة ، أو البقايا التى بقيت فى جذع الشجرة بعد تقليم بعض أغصانها ، بارزة يمكن الارتقاء عليها . يقول : لم يمنع نصيبها من الماء عنها ، أو لم يمنعها من شربها الماء . ففيه قلب على الثانى وغير فاعل لأنه تضرع إليه العامل ، وبنى على الفتح لاضافته إلى مبنى ، واستعار النطق لتغريد الحمامة على سبيل التصريحية ، وكأنها كانت داخل الغصون فسمعت الناقة صوتها ولم ترها ففزعت . أو كانت على غصن من الشجرة فكان تغريدها مطربا لذيذا ، فحنت الناقة إلى وطنها . وذات أوقال : وصف لغصن ؛ لأنه جمع غصن كما قيل فى فلك ، المفرد والجمع باعتبار التغير التقديرى . ويجوز أن يقرأ باضافة غصن إلى ذات . والمعنى : غصن أرض أو شجرة ذات أوقال ، لكن الأول أحسن فى الوزن . وقد روى : فى غصون ذات أوقال ، أى : ذات قطع بارزة بعد التعليم ، فتكون مشوهة المنظر توجب النفرة والوحشة ، أو صاحبه أحجار ، فتكون أنضر حيث ترى مخضرة وسط أرض قفرة ، أو لتكون فى غير محلها فتوجب حنين الناقة إلى محلها أو فزعها لغرابة ذلك . وقيل : إنه جمع «وقل» بالسكون ، وهو شجر المقل . وقيل : يجوز أنه من وقل كوعد إذا صعد ، أى ذات ارتفاعات .

(٢) قوله «على مايقتضيه قوم من عمله» وذلك بأن يعامل معاملة المؤنث ، نحو (كذبت قوم نوح المرسلين) أو معاملة جمع الذكور ، نحو (إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) لأن الأول مقتضى حمله على لفظه ، كما سيأتى فى سورة الشعراء ، من أن القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة ، والثانى مقتضى حمله على معناه وهو ظاهر . (ع)

قَالُوا يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَـٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

﴿ما نفقه﴾ ما نفهم ﴿كثيراً مما تقول﴾ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له، كقوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه). أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكأنهم لم يفقهوه. وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدرى ما تقول. أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء. وقيل: كان ألثغ ﴿فينا ضعيفاً﴾ لا قوة لك ولا عز فيما بيننا [1]، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروها. وعن الحسن (ضعيفاً) مهيناً. وقيل (ضعيفا) أعمى. وحمير تسمى المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريراً، وليس بسديد؛ لأنّ (فينا) يأباه. ألا ترى أنه لو قيل إنا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاما؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم، ولذلك قللوا قومه حيث جعلوهم رهطا. والرهط: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل: إلى السبعة. وإنما قالوا: ولولاهم، احتراما لهم واعتدادا بهم؛ لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفا من شوكتهم وعزتهم ﴿لرجمناك﴾ لقتلناك شرّ قتلة ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أى لا تعزّ علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم. وإنما يعزّ علينا رهطك، لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفى على أنّ الكلام واقع

(١) قال محمود: «معنى قولهم ضعيفاً، أى: لاقوة لك ولاعز فيما بيننا،.. الخ» قال أحمد: وهذا من محاسن نكته الدالة على أنه كان مليا بالحذاقة في علم البيان والله المستعان.

فى الفاعل لا فى الفعل ، كأنه قيل : وما أنت علينا بعزيز ، بل رهطك هم الأعزة علينا ، ولذلك قال فى جوابهم ﴿أرهطى أعز عليكم من الله﴾ ولو قيل : وما عززت علينا ، لم يصح هذا الجواب . فإن قلت : فالكلام واقع فيه وفى رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله (أرهطى أعز عليكم من الله) قلت : تهاونهم به - وهو نبىّ الله - تهاون بالله . فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله . ألا ترى إلى قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، ﴿واتخذتموه وراءكم ظهريا﴾ ونسيتموه وجعلتموه كالشىء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به ، والظهرىّ : منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب . ونظيره قولهم فى النسبة إلى أمس : أمسىّ ﴿بما تعملون محيط﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً ، فلا يخفى عليه شىء منها ﴿على مكانتكم﴾ لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان ، يقال : مكان ومكانة ، ومقام ومقامة . أو تكون مصدراً من مكن مكانة فهو مكين . والمعنى : اعملوا قارّين على جهتكم التى أنتم عليها من الشرك والشنآن لى . أو اعملوا متمكنين من عداوتى مطيقين لها ﴿إنى عامل﴾ على حسب ما يؤتينى الله من النصرة والتأييد ويمكننى ﴿من يأتيه﴾ يجوز أن تكون (من) استفهامية ، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها ، كأنه قيل : سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه ، وأينا هو كاذب . وأن تكون موصولة قد عمل فيها ، كأنه قيل : سوف تعلمون الشقىّ الذى يأتيه عذاب يخزيه والذى هو كاذب . فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها فى (سوف تعلمون) ؟ قلت : إدخال الفاء : وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها : وصل خفى تقديرىّ بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف ، للتفنن فى البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه ﴿وارتقبوا﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم ﴿إنى معكم رقيب﴾ أى منتظر . والرقيب بمعنى الراقب ، من رقبه ، كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم . أو بمعنى المراقب ، كالعشير والنديم . أو بمعنى المرتقب ، كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع . فإن قلت : قد ذكر عملهم على مكانتهم [1] وعمله على مكانته ، ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم ،

(١) قال محمود : «إن قلت قد ذكر عملهم على مكانتهم ... الخ» قال أحمد : والظاهر - والله أعلم - أن الكلامين جميعا لهم ، فالأول وهو قوله (من يأتيه عذاب يخزيه) مضمن ذكر جرمهم الذى يجازون به وهو الكذب ، ويكون من باب عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد ، كما تقول لمن تهدده : ستعلم من يهان ومن يعاقب ، وإنما يعنى المخاطب فى الكلامين ، فاذا ثبت صرف الكلامين إليهم لم يخل ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو ، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلا فالآخر هو المحق قطعا ، فذكره لاحدى العاقبتين صريحا يفهم ذكر الآخرى تعريضا . ـــ

فكان القياس أن يقول : من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق . حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين ، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم . قلت : القياس ما ذكرت ، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال ﴿ومن هو كاذب﴾ يعنى فى زعمكم ودعواكم ، تجهيلا لهم . فإن قلت : ما بال ساقتى قصة [1] عاد وقصة مدين جاءتا بالواو ، والساقتان الوسطيان بالفاء ؟ قلت . قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد ، وذلك قوله (إن موعدهم الصبح) ، (ذلك وعد غير مكذوب) فجيء بالفاء الذى هو للتسبيب ، كما تقول : وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت . وأما الأخريان فلم تقعا بتلك المثابة . وإنما وقعتا مبتدأتين ، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة . الجاثم : اللازم لمكانه لا يريم ، كاللابد [2] يعنى أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصا [3] ﴿كأن لم يغنوا﴾ كأن لم يقيموا فى ديارهم أحياء متصرفين مترددين . البعد : بمعنى البعد وهو الهلاك ، كالرشد بمعنى الرشد . ألا ترى إلى قوله ﴿كما بعدت﴾ ؟ وقرأ السلمى : بعدت ، بضم العين ، والمعنى فى البناءين واحد ، وهو نقيض القرب ، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره ، فغيروا البناء كما فرقوا بين ضمانى الخير والشر فقالوا : وعد وأوعد ، وقراءة السلمى جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البعد من غير تخصيص ، كما يقال : ذهب فلان ومضى ، فى معنى الموت . وقيل : معناه بعداً لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

ـــ والتعريض كما علمت فى كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح ، وهذا منه ، والذى يدل على أن الكلامين لما وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر ، استغناء عنها بذكر عاقبتهم ، كما بيناه فى الآية التى فى أول هذه السورة ، وهي قوله تعالى (قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) ألا تراه كيف اكتفى بذلك عن أن يقول : ومن هو على خلاف ذلك ، وكذلك قوله فى سورة الأنعام (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) فذكر هناك أيضا إحدى العاقبتين ، لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير ، ومتى أطلقت فلا يعنى إلا ذلك ، كقوله (والعاقبة للمتقين) واستغنى عن ذكر مقابلتها ، والله أعلم . فتأمل هذا الفصل فانه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز ، وضم بعضها إلى بعض ، والله الموفق للصواب .

(١) قوله «ساقتى قصة» فى الصحاح : ساقة الجيش مؤخره اه . ومثله ساقة القصة هنا . (ع)

(٢) قوله «كاللابد» أى المتلبد اللاصق بالأرض ، أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «بحيث هو قعصا» فى الصحاح : يقال مات فلان قعصا ، إذا أصابته ضربة فات مكانه . (ع)

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾ فيه وجهان: أن يراد أنّ هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوّته، وأن يراد بالسلطان المبين: العصا؛ لأنها أبهرها ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل، وذلك أنه ادّعى الإلهية[1] وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالا، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتابعوا على طاعته. والأمر الرشيد: الذى فيه رشد. أى: وما فى أمره رشد إنما هو غىّ صريح وضلال ظاهر مكشوف، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم. وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين فى أمر موسى عليه السلام، وعلموا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس فى أمره رشد قط ﴿يقدم قومه﴾ أى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه. ويجوز أن يريد بقوله: (وما أمر فرعون برشيد) وما أمره بصالح حميد العاقبة. ويكون قوله (يقدم قومه) تفسيراً لذلك وإيضاحا. أى: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته. والرشد مستعمل فى كل ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغىّ فى كل ما يذم ويتسخط. ويقال: قدمه بمعنى تقدّمه. ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدّمه. ومنه مقدّمة الجيش. وأقدم بمعنى تقدّم. ومنه مقدّم العين. فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟ ولم جىء بلفظ الماضى؟ قلت: لأن الماضى يدل على أمر موجود مقطوع به، فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة. و﴿الورد﴾ المورود. و﴿المورود﴾ الذى وردوه. شبه بالفارط الذى يتقدّم الواردة إلى الماء. وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بئس الورد الذى يردونه النار؛ لأنّ الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضدّه ﴿وأتبعوا فى هذه﴾ فى هذه الدنيا ﴿لعنة﴾ أى يلعنون فى الدنيا، ويلعنون فى الآخرة ﴿بئس الرفد المرفود﴾ رفدهم. أى: بئس العون المعان. وذلك أنّ اللعنة فى الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة فى الآخرة. وقيل: بئس العطاء المعطى.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

﴿ذلك﴾ مبتدأ ﴿من أنباء القرى نقصه عليك﴾ خبر بعد خبر، أى: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك ﴿منها﴾ الضمير للقرى، أى: بعضها باق وبعضها عافى الأثر،

كالزرع القائم على ساقه والذى حصد . فإن قلت : ما محل هذه الجملة ؟ قلت : هى مستأنفة لا محل لها ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله ﴿ يدعون ﴾ يعبدون وهى حكاية حال ماضية . و ﴿ لما ﴾ منصوب بما أغنت ﴿ أمر ربك ﴾ عذابه ونقمته ﴿ تتبيب ﴾ تخسير . يقال تبّ إذا خسر . وتببه غيره ، إذا أوقعه فى الخسران .

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)

محل الكاف الرفع ، تقديره : ومثل ذلك الأخذ ﴿ أخذ ربك ﴾ والنصب فيمن قرأ : وكذلك أخذ ربك ، بلفظ الفعل . وقرئ : إذ أخذ القرى ﴿ وهى ظالمة ﴾ حال من القرى ﴿ أليم شديد ﴾ وجيع صعب على المأخوذ . وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها ، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه . فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد ، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣)

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم ﴿ لآية لمن خاف ﴾ لعبرة له ، لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين فى الدنيا ، وما هو إلا أنموذج مما أعدّ لهم فى الآخرة ، فإذا رأى عظمه وشدّته اعتبر به عظم العذاب الموعود ، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً فى زيادة التقوى والخشية من الله تعالى . ونحوه (إنّ فى ذلك لعبرة لمن يخشى) . ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى يوم القيامة ، لأنّ عذاب الآخرة دلّ عليه . و ﴿ الناس ﴾ رفع باسم المفعول الذى هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس . فإن قلت : لأى فائدة أوثر اسم المفعول على فعله ؟ [1] قلت : لما فى اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه يوم لا بدّ من أن يكون ميعاداً

(١) قال محمود : «إن قلت لم عدل عن الفعل إلى اسم المفعول ... الخ» قال أحمد : ولهذا السر ورد قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ، والطير محشورة) فاستعمل الفعل حيث يليق به ، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضا ... الخ

(٢) قوله «من دلالة» عبارة النسفى : دلالته . (ع)

مضروباً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه، ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس فى الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله (يوم يجمعكم ليوم الجمع) تعثر على صحة ما قلت لك. ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب ﴿ يوم مشهود ﴾ مشهود فيه، فاتسع فى الظرف [١] بإجرائه مجرى المفعول به، كقوله:

* وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا * [٢]

أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد. والمراد بالمشهود: الذى كثر شاهدوه. ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور. قال:

* فِي مَحْفِلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودِ * [٣]

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً فى نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه، كما قال الله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه)؟ قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً فى نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً فى نفسه؛ لأنّ سائر أيام الأسبوع مثله يشهدها كل من يشهده، وكذلك قوله: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولا به، وكذلك الضمير فى (فليصمه) والمعنى: فمن شهد منكم فى الشهر فليصم فيه. يعنى: فمن كان منكم مقيما حاضراً لوطنه فى شهر رمضان

---

(١) قال محمود: «المراد مشهود فيه فاتسع فى الظرف ... الخ» قال أحمد: يكون المشهود الذى هو المفعول به مسكوتا عنه مبهما، ومن الابهام ما يكون تفخيما، وهذا مكانه.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٤٠٨ فراجعه إن شئت اهـ مصححه.

(٣)
من للخصوم إذا جد الضجاج بهم ... بعد ابن سعد ومن للضمر القود
ومشهد قد كفيت الغائبين به ... فى محفل من نواصى القوم مشهود
فرجته بلسان غير ملتبس ... عند الحفاظ وقلب غير مزؤد

لأم قيس الضبية. وضج ضجيجاً وضجاجا: صاح. وضج البعير من الحمل: تعب من ثقله، والضمر بالتشديد: جمع ضامر. وفرس أقود: طويل العنق. ورجل أقود: يقبل بوجهه ولا ينثنى. والقود: جمعه. ومشهد: عطف على الخصوم. ويجوز جره برب، أى مجلس كفيت فيه الغائبين عنه بالتكلم عنهم بين محفل من رؤساء الناس وأشرافهم. فالنواصى: استعارة لهم. وفرجته، فككت كربته، وكشفت غمته بكلام واضح الدلالة صادر عن قلب مطمئن غير خائف عند الحفاظ، أي غيرة الخصوم ومحافظة كل منهم على رأيه أو المغاضبة. ويقال: أحفظه إحفاظاً إذا أغضبه.

فليصم فيه . ولو نصبته مفعولا فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر ، لا يشهده المقيم ، ويغيب عنه المسافر :

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤)

الأجل : يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها ، فيقولون : انتهى الأجل ، وبلغ الأجل آخره ، ويقولون : حل الأجل (فإذا جاء أجلهم) يراد آخر مدة التأجيل ، والعدّ إنما هو للمدّة لا لغايتها ومنتهاها ، فمعنى قوله ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف . وقرئ : وما يؤخره بالياء .

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)

قرئ ﴿يوم يأت﴾ بغير ياء . ونحوه قولهم : لا أدر ، حكاه الخليل وسيبويه . وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل . فإن قلت : فاعل يأتى ماهو ؟ قلت : الله عز وجل ، كقوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) ، (أو يأتى ربك) ، (وجاء ربك) وتعضده قراءة : وما يؤخره ، بالياء . وقوله ﴿بإذنه﴾ ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم ، كقوله تعالى (أن تأتيهم الساعة) . فإن قلت : بما انتصب الظرف ؟ قلت : إمّا أن ينتصب بلا تكلم . وإمّا بإضمار « اذكر » ، وإمّا بالانتهاء المحذوف فى قوله (إلا لأجل معدود) أى ينتهى الأجل يوم يأتى ، فإن قلت : فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم ، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحدّدت الشيء بنفسه قلت : المراد إتيان هوله وشدائده ﴿لا تكلم﴾ لا تتكلم ، وهو نظير قوله (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن) . فإن قلت : كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) وقوله تعالى (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) ، قلت : ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن ، ففى بعضها يجادلون عن أنفسهم ، وفى بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم ، وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفى بعضها : يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ﴿فمنهم﴾ الضمير لأهل الموقف ولم يذكروا ؛ لأنّ ذلك معلوم ، ولأنّ قوله (لا تكلم نفس) يدل عليه ، وقد مرّ ذكر الناس فى قوله (مجموع له الناس) والشقى الذى وجبت له النار لإساءته ، والسعيد الذى وجبت له الجنة لإحسانه .

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧)

قراءة العامة بفتح الشين . وعن الحسن (شقوا) بالضم ، كما قرئ (سعدوا) . والزفير : إخراج النفس . والشهيق : ردّه . قال الشماخ :

بَعِيدُ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ ... زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيقٌ مُحَشْرَجُ [1]

﴿مادامت السموات والأرض﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهى دائمة مخلوقة للأبد . والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وقوله . (وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء) ولأنه لابدّ لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم : إمّا سماء يخلقها الله ، أو يظلهم العرش ، وكل ماأظلك فهو سماء . والثانى أن يكون عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع ، كقول العرب : مادام تعار ، وما أقام ثبير ، وما لاح كوكب ، وغير ذلك من كلمات التأبيد . فإن قلت : فما معنى الاستثناء فى قوله ﴿إلا ماشاء ربك﴾ وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار فى الأبد من غير استثناء ؟ قلت : هو استثناء من الخلود فى عذاب النار ، ومن الخلود فى نعيم الجنة : وذلك أن أهل النار لا يخلدون فى عذاب النار وحده ، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار ، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ماهو أكبر منها وأجل موقعاً منهم ، وهو رضوان الله ، كما قال (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) ولهم مايتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهو المراد بالاستثناء . والدليل عليه قوله (عطاء غير مجذوذ) ومعنى قوله فى مقابلته ﴿إنّ ربك فعال لما يريد﴾ أنه يفعل بأهل النار مايريد من العذاب ، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذى لا انقطاع له ، فتأمّله فإنّ القرآن يفسر بعضه بعضا ، ولا يخدعنك عنه قول المجبرة [2] . إنّ المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة ، فإنّ الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم . وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت [3]

---

(١) للشماخ يصف حمار وحشى . والمدى : المسافة والغاية . والتطريب : ترديد الصوت وترجيعه . والزفير : إخراج النفس بشدة . والمحشرج اسم مفعول : الصوت الذى يردده فى حلقه وصدره .

(٢) قوله « ولا يخدعنك عنه قول المجبرة » يريد أهل السنة . أما المعتزلة فيقولون : فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر وخلوده فى النار أبدى ، وتحقيق بطلانه فى علم التوحيد . (ع)

(٣) قوله «لما روى لهم بعض النوابت» فى الصحاح : إن بنى فلان لنابتة شر . والنوابت من الأحداث الأغمار . (ع)

عن عبدالله بن عمرو بن العاص : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد[١] ؛ وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً ، وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث ، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار . وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين ، زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه ، وتنبيهاً على أن نعقل عنه ، ولئن صح هذا عن ابن العاص ، فمعناه أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير فذلك خلوّ جهنم وصفق أبوابها ، وأقول : ما كان لابن عمرو في سيفيه ، ومقاتلته بهما على بن أبي طالب رضي الله عنه ، ما يشغله عن عن تسيير هذا الحديث .

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

﴿غير مجذوذ﴾ غير مقطوع ، ولكنه ممتدّ إلى غير نهاية ، كقوله (لهم أجر غير ممنون) . لما قصّ قصص عبدة الأوثان ، وذكر ما أحلّ بهم من نقمه ، وما أعدّ لهم من عذابه قال : ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي : فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرّضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين ، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله ، وهو استئناف معناه تعليل النهى عن المرية . و « ما » في مما ، وكما : يجوز أن تكون مصدرية وموصولة ، أي : من عبادتهم ، وكعبادتهم . أو مما يعبدون من الأوثان ، ومثل ما يعبدون منها ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾ أي حظهم من العذاب[٢] كما وفينا آباءهم أنصباءهم . فإن قلت :

(١) الحديث أخرجه البزار قال : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال « يأتى على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد ، يعنى من الموحدين » كذا فيه ورجاله ثقات . والتفسير لا أدرى ممن هو ، وهو أولى من تفسير المصنف ، ويؤيده ما رواه ابن عدى عن أنس رضي الله عنه مرفوعا « ليأتين على جهنم يوم تصفق أبوابها ، ما فيها من أمة محمد أحد » وفي الباب عن أبي أمامة رفعه « يأتى على جهنم يوم ما فيها من بنى آدم أحد ، تخفق أبوابها ، يعنى من الموحدين » وأما الحديث الذى أخرجه الحارث بن أبي أمامة في مسنده من طريق الحسن عن عمرو رفعه « إن جهنم تخلو حتى ينبت فيها الجرجير ، فهو منقطع . ومراسيل الحسن عندهم واهية . لأنه كان يأخذ من كل أحد . فان كان محفوظا فعلى التأويل الأول ، والله أعلم .

(٢) قال محمود : « أى حظهم من العذاب ، وإنما نصب غير منقوص حالا من النصيب الموفى ، لأنه يجوز أن =

كيف نصب ﴿غير منقوص﴾ حالا عن النصيب الموفى ؟ قلت يجوز أن يوفى وهو ناقص، ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول. وفيته شطر حقه، وثلث حقه، وحقه كاملا وناقصاً،

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)

﴿فاختلف فيه﴾ آمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف فى القرآن ﴿ولولا كلمة﴾ يعنى كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ﴿لقضى بينهم﴾ بين قوم موسى أو قومك. وهذه من جملة التسلية أيضاً.

وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

﴿وإنّ كلا﴾ التنوين عوض من المضاف إليه. يعنى: وإنّ كلهم، وإنّ جميع المختلفين فيه ﴿ليوفينهم﴾ جواب قسم محذوف. واللام فى (لما) موطئة للقسم، و(ما) مزيدة. والمعنى: وإنّ جميعهم والله ليوفينهم ﴿ربك أعمالهم﴾ من حسن وقبيح وإيمان وجحود. وقرئ: وإن كلا بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة، اعتباراً لأصلها الذى هو التثقيل. وقرأ أبىّ: وإن كل لما ليوفينهم، على أنّ إن نافية. ولما بمعنى إلا. وقراءة عبد الله مفسرة لها. وإن كل إلا ليوفينهم، وقرأ الزهرى وسليمان بن أرقم: وإن كلا لمـا ليوفينهم، بالتنوين، كقوله (أكلا لما) والمعنى: وإن كلا ملمومين، بمعنى مجموعين، كأنه قيل: وإنّ كلا جميعاً، كقوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون).

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)

﴿فاستقم كما أمرت﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التى أمرت بها على جادة الحق، غير عادل عنها ﴿ومن تاب معك﴾ معطوف على المستتر فى استقم. وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. والمعنى: فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك ﴿ولا تطغوا﴾ ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ عالم فهو مجازيكم به، فاتقوه. وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع القرآن آية كانت

= يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه وحقه كاملا» قال أحمد: وهم والله أعلم، فان التوفية تستلزم عدم نقصان الموفى كاملا كان أو ناقصاً، فقولك: وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه، فما وجه انتصابه حالا عنه؟ والأوجه أن يقال: استعملت التوفية بمعنى الاعطاء، كما استعمل التوفى بمعنى الأخذ. ومن قال: أعطيت فلانا حقه. كان جديراً أن يؤكده بقوله «غير منقوص» والله أعلم

أشدّ ولا أشقّ عليه من هذه الآية . ولهذا قال : شيبتنى هود والواقعة وأخواتهما [١]. وروى أنّ أصحابه قالوا له : لقد أسرع فيك الشيب . فقال : شيبتنى هود . وعن بعضهم : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت له : روى عنك أنك قلت : شيبتنى هود . فقال : نعم . فقلت : ما الذى شيبك منها ؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ قال : لا ، ولكن قوله (فاستقم كما أمرت) . وعن جعفر الصادق رضى الله عنه (فاستقم كما أمرت) قال : افتقرْ إلى الله بصحة العزم .

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣)

قرئ : ولا تركنوا ، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء . وعن أبى عمرو : بكسر التاء وفتح الكاف ، على لغة تميم فى كسرهم حروف المضارعة إلا الياء فى كل ما كان من باب علم يعلم . ونحوه قراءة من قرأ (فتمسكم النار) بكسر التاء . وقرأ ابن أبى عبلة : ولا تركنوا ، على البناء للمفعول ، من أركنه إذا أماله ، والنهى متناول للانحطاط فى هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيى بزيهم ، ومدّ العين إلى زهرتهم . وذكرهم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله (ولا تركنوا) فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله ﴿إلى الذين ظلموا﴾ أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل إلى الظالمين . وحكى أنّ الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشى عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم . وعن الحسن رحمه الله : جعل الله الدين بين لاءين : (ولا تطغوا) ، (ولا تركنوا) ولما خالط الزهرى السلاطين كتب إليه أخ له فى الدين : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك : أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء ، قال الله سبحانه (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) واعلم أنّ أيسر ما ارتكبت وأخفّ

---

(١) وفى الترمذى من حديث شيبان عن أبى إسحاق عن عكرمه عن ابن عباس قال قال أبو بكر « يارسول الله قد شبت ، قال : قد شيبتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون . وإذا الشمس كورت» وقال حسن غريب . وأخرجه البزار من هذا الوجه . وقال : اختلف فيه على أبى إسحاق ، فقال شيبان كذا . وقال على بن صالح : عن أبى إسحاق عن أبى حجية قال : وقال زكريا عن أبى إسحاق عن مسروق أن أبا بكر قال . وأطال الدارقطنى فى ذكر علله ـ واختلاف طرقه فى أوائل كتاب العلل ـ ورواه البيهقى فى الدلائل من رواية عطية بن سعيد قال قال عمر ابن الخطاب : يارسول الله لقد أسرع إليك الشيب . فقال شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت ، وأخرجه ابن سعد وابن عدى من رواية يزيد الرقاشى عن أنس . وفيه «الواقعة والقارعة وسأل وإذا الشمس كورت» .

ما احتملت : أنك آنست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغى بدنوك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلا ، حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم ، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم ، يُدخلون الشكّ بك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك فى جنب ما أفسدوا عليك [1] من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً) فإنك تعامل من لا يجهل ، ويحفظ عليك من لا يغفل . فداو دينك فقد دخله سقم ، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد . وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء ، والسلام . وقال سفيان : فى جهنم واد لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك . وعن الأوزاعى : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا . وعن محمد ابن مسلمة : الذباب على العذرة ، أحسن من قارئ على باب هؤلاء . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه [2]» ، ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية ، هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، فقيل له : يموت ؟ فقال : دعه يموت . ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ حال من قوله (فتمسكم) أى : فتمسكم النار وأنتم على هذه الحال . ومعناه : وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه ، لا يقدر على منعكم منه غيره ﴿ثم لا تنصرون﴾ ثم لا ينصركم هو ، لأنه وجب فى حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم . فإن قلت : فما معنى ثم ؟ قلت : معناها الاستبعاد ، لأنّ النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له .

وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

﴿طرفى النهار﴾ غدوة وعشية ﴿وزلفا من الليل﴾ وساعات من الليل وهي ساعاته القريبة من آخر النهار ، من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه ، وصلاة الغدوة : الفجر . وصلاة العشية : الظهر والعصر ، لأنّ ما بعد الزوال عشيّ . وصلاة الزلف : المغرب والعشاء . وانتصاب طرفى النهار على الظرف ، لأنهما مضافان إلى الوقت ، كقولك : أقمت عنده جميع النهار ، وأتيته نصف النهار

(١) قوله «وما أكثر ما أخذوا منك فى جنب ما أفسدوا عليك» لعل هنا سقطاً تقديره : فى جنب ما أعطوك ، وما أقل ما أصلحوا لك فى جنب ما أفسدوا ... الخ . (ع)

(٢) قد رواه البيهقى فى السادس والستين من الشعب من رواية يونس بن عبد عن الحسن من قوله . وذكره أبو نعيم فى الحلية من قول سفيان الثورى .

وأوله وآخره ، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه . ونحوه (وأطراف النهار) وقرئ : وزلفا ، بضمتين . وزلفا ، بسكون اللام . وزلفى : بوزن قربى . فالزلف : جمع زلفة ، كظلم فى ظلمة . والزلف بالسكون : نحو بسرة وبسر . والزلف بضمتين نحو بسر فى بسر . والزلفى بمعنى الزلفة ، كما أن القربى بمعنى القربة : وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل . وقيل : وزلفا من الليل : وقربا من الليل ، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة ، أى : أقم الصلاة طرفى النهار ، وأقم زلفا من الليل ، على معنى : وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عز وجل فى بعض الليل ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفى الحديث : «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر[١]» . والثانى : إن الحسنات يذهبن السيئات ، بأن يكن لطفاً فى تركها ، كقوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقيل : نزلت فى أبى اليسر عمرو بن غزية الأنصارى ، كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته ، فقال لها : إن فى البيت أجود من هذا التمر ، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له : اتق الله ، فتركها وندم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنتظر أمر ربى ، فلما صلى صلاة العصر نزلت ، فقال : نعم ، اذهب فإنها كفارة لما عملت : وروى أنه أتى أبا بكر فأخبره فقال : استر على نفسك وتب إلى الله ، فأتى عمر رضى الله عنه فقال له مثل ذلك ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ، فقال عمر : أهذا له خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : بل للناس عامة . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : توضأ وضوءاً حسنا وصل ركعتين (إن الحسنات يذهبن السيئات)[٢] ﴿ذلك﴾ إشارة إلى قوله (فاستقم) فما بعده ﴿ذكرى للذاكرين﴾ عظة للمتعظين .

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة رفعه «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» .

(٢) كان فى الأصل أبو اليسر عمرو بن غزية وهو غلط . وإنما هو أبو اليسر كعب بن عمرو . وكذا هو فى كتب أسماء الصحابة . وإنما تبع المصنف الثعلبى فانه قال كذلك نزلت فى عمرو بن غزية الأنصارى . والحديث عند الترمذى والنسائى والبزار والطبرانى والطبرى من رواية عثمان بن عبدالله بن موهب عن موسى بن طلحة بن أبى اليسر ابن عمرو قال : أتتنى امرأة تبتاع تمراً ـ فقلت لها : فى البيت تمر أطيب من هذا فدخلت معى فى البيت . فأهويت إليها فقبلتها . فقالت : اتق الله . فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له : فقال استر على نفسك وتب . فأتيت عمر فقال مثل ذلك . فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأطرق طويلا حتى أوحى إليه (أقم الصلاة ... الآية) قال ابن أبى اليسر : أتيته فقرأها على . فقال أصحابه : يارسول الله ، ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : بل للناس عامة . وفى رواية لأحمد فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، أله وحده أم للناس كافة ؟» وللدارقطنى والحاكم والبيهقى من رواية عبدالرحمن بن أبى ليلى عن معاذ أنه كان قاعداً عند النبى صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال : يارسول الله ، ماتقول فى رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئا يأتيه الرجل من امرأته إلا أصاب منها غير أنه لم يجامعها . ـــ

وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

ثم كرّ إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله، كأنه قال: وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتهاء عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

﴿فلولا كان من القرون﴾ فهلا كان. وقد حكوا عن الخليل: كل «لولا» في القرآن فمعناها «هلا» إلا التي في الصافات، وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات (لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء)، (ولولا رجال مؤمنون)، (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم). ﴿أولو بقية﴾ أولو فضل وخير. وسمى الفضل والجودة بقية لأنّ الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلا في الجودة والفضل. ويقال: فلان من بقية القوم، أي من خيارهم. وبه فسر بيت الحماسة:

* إِنْ تُذْنِبُوا ثُمَّ يَأْتِينِي بَقِيَّتُكُمْ * (١)

= فقال له النبي صلى الله عليه وسلم توضأ وضوءاً حسنا ثم صل. فأنزل الله تعالى الآية. فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة. وأصل الحديث في الصحيحين عن ابن مسعود وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك ولم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فانطلق الرجل فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلا. فدعاه فتلا عليه (أقم الصلاة طرفي النهار ... الآية) فقال رجل من القوم: يا رسول الله أله خاصة أم للناس؟ فقال: بل للناس كافة».

(١)
يا أيها الراكب المزجي مطيته ... سائل بني أسد ما هذه الصوت
وقل لهم بادروا بالعذر والتمسوا ... قولا يبرئكم إني أنا الموت
إن تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم ... فما عليّ بذنب عندكم فوت

لرويشد بن كثير الطائي. وزجاه ـ بالتخفيف والتشديد ـ وأزجاه: ساقه. وأراد بالصوت: الصيحة أو القصة التي بلغته عنه، وأخبر عن نفسه بالموت مبالغة. وبقية القوم: خيارهم، وتأتي مصدراً بمعنى البقوى، كالتقية بمعنى التقوى. والمعنى على الأول. إن تذنبوا ثم يأتيني أماثلكم يعتذرون عنكم فلا فوت، ولا بأس عليّ بسبب ذنب غيركم. وعلى الثاني: ثم يأتيني منكم ذو الابقاء على أنفسهم، يقولون: لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، فكذلك. ويجوز أن المعنى: إن تجتمعوا على للمحاربة أو للاعتذار، فلا تفوتني مؤاخذتكم بل لابد منها. وإثبات الياء في «يأتيني» للاشباع، لكن الأخير غير مناسب لقوله «بادروا بالعذر».

ومنه قولهم : فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا . ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى ، كالتقية بمعنى التقوى ، أى : فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه . وقرئ : أولو بقية ، بوزن لقية ، من بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره ومنه : «بقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] » والبقية المرّة من مصدره . والمعنى : فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله ، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم ﴿إلا قليلا﴾ استثناء منقطع ، معناه : ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهى . و(من) فى ﴿ممن أنجينا﴾ حقها أن تكون للبيان لا للتبعيض ؛ لأن النجاة إنما هى للناهين وحدهم ، بدليل قوله تعالى (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا) . فإن قلت : هل لوقوع هذا الاستثناء متصلا وجه يحمل عليه ؟ قلت : إن جعلته متصلا على ما عليه ظاهر الكلام ، كان المعنى فاسداً ؛ لأنه يكون تحضيضاً لأولى البقية على النهى عن الفساد ، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول : هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم ، تريد استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت فى تحضيضهم على النهى عن الفساد معنى نفيه عنهم ، فكأنه قيل : ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا ، كان استثناء متصلا ومعنى صحيحاً ، وكان انتصابه على أصل الاستثناء ، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أراد بالذين ظلموا : تاركى النهى عن المنكرات ، أى : لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعقدوا هممهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترف ، من حب الرياسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنيء . ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم . وقرأ أبو عمرو فى رواية الجعفى ، واتبع الذين ظلموا ، يعنى : واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه . ويجوز أن يكون المعنى فى القراءة المشهورة : أنهم اتبعوا جزاء إترافهم . وهذا معنى قوىّ لتقدم الإنجاء ، كأنه قيل : إلا قليلا ممن أنجينا منهم وهلك السائر . فإن قلت : علام عطف قوله (واتبع الذين ظلموا) ؟ قلت : إن كان معناه : واتبعوا الشهوات ، كان معطوفاً على مضمر ، لأنّ المعنى إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ، واتبع الذين ظلموا شهواتهم ، فهو عطف على نهوا . وإن كان معناه واتبعوا جزاء الإتراف ، فالواو للحال ، كأنه قيل : أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم . فإن قلت : فقوله ﴿ وكانوا مجرمين ﴾؟ قلت : على أترفوا أى : اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين ؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام . أو أريد بالإجرام

(١) أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل قال « بقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاة العتمة ، فتأخر حتى ظن الظان أنه ليس بخارج ... الحديث » .

إغفالهم للشكر . أو على اتبعوا ، أى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك . ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكما عليهم بأنهم قوم مجرمون .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

﴿ كان ﴾ بمعنى صح واستقام . واللام لتأكيد النفى . و ﴿ بظلم ﴾ حال من الفاعل . والمعنى : واستحال فى الحكمة أن يهلك الله القرى ظالما لها ﴿ وأهلها ﴾ قوم ﴿ مصلحون ﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم ، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم . وقيل : الظلم الشرك ، ومعناه أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ يعنى لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة أى ملة واحدة وهى ملة الإسلام ، كقوله (إنّ هذه أمتكم أمة واحدة) وهذا الكلام يتضمن نفى الاضطرار ، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق ، ولكنه مكنهم من الاختيار الذى هو أساس التكليف ، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل ، فاختلفوا ، فلذلك قال ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم ، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه ، يعنى : ولذلك من التمكين والاختيار الذى كان عنه الاختلاف خلقهم ، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره ، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ وهى قوله للملائكة ﴿ لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل .

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿ وكلا ﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل . وكل نبأ ﴿ نقص عليك ﴾ و ﴿ من أنباء الرسل ﴾ بيان لكل . ﴿ وما نثبت به فؤادك ﴾ بدل من كلا . ويجوز أن يكون المعنى : كل واقتصاص

نقصّ عليك ، على معنى : وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقصّ عليك ، يعنى : على الأساليب المختلفة ، و (ما نثبت به) مفعول نقصّ . ومعنى تثبيت فؤاده : زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه ، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم ﴿وجاءك فى هذه الحق﴾ أى فى هذه السورة . أو فى هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿اعملوا﴾ على حالكم وجهتكم التى أنتم عليها ﴿إنا عاملون وانتظروا﴾ بنا الدوائر ﴿إنا منتظرون﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك ، فينتقم لك منهم ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فإنه كافيك وكافلك ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ وقرئ : تعملون ، بالتاء : أى أنت وهم على تغليب المخاطب .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة هود أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ومن كذب به ، وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك [1]

---

(١) تقدم إسناده فى آل عمران ويأتى فى آخر الكتاب .

سورة يوسف

مكية [إلا الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٧ فمدنية]

وهي مائة وإحدى عشرة آية [نزلت بعد سورة هود]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة . و ﴿الكتاب المبين﴾ السورة ، أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب وتبكيتهم . أوالتى تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر . أو الواضحة التى لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم . أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف . فقد روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن قصة يوسف ﴿أنزلناه﴾ أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه ﴿قرآناً عربيا﴾ وسمى بعض القرآن قرآناً ، لأنّ القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه ﴿لعلكم تعقلون﴾ إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم (ولو جعلناه قرآناً أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته) . ﴿القصص﴾ على وجهين : يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص ، تقول : قصّ الحديث يقصه قصصاً ، كقولك : شله يشله شللا ، إذا طرده . ويكون «فعلا» بمعنى «مفعول» كالنفض والحسب . ونحوه النبأ والخبر : فى معنى المنبأ به والمخبر به . ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر ، كالخلق والصيد . وإن أريد المصدر ، فمعناه : نحن نقص عليك أحسن القصص ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أى بإيحائنا إليك هذه السورة ، على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر ، لإضافته إليه ، ويكون المقصوص محذوفاً ، لأنّ قوله (بما أوحينا إليك هذا القرآن) مغن عنه . ويجوز أن

ينتصب هذا القرآن بنقص، كأنه قيل : نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك . والمراد بأحسن الاقتصاص : أنه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب . ألا ترى أن هذا الحديث مقتص فى كتب الأولين وفى كتب التواريخ ، ولا ترى اقتصاصه فى كتاب منها مقاربا لاقتصاصه فى القرآن . وإن أريد بالقصص المقصوص ، فمعناه : نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث ، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التى ليست فى غيرها [1] والظاهر أنه أحسن ما يقتص فى بابه ، كما يقال فى الرجل : هو أعلم الناس وأفضلهم ، يراد فى فنه . فإن قلت : مم اشتقاق القصص ؟ قلت : من قص أثره إذا اتبعه ، لأن الذى يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئا ، كما يقال : تلا القرآن ، إذا قرأه ، لأنه يتلو أى يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ﴿وإن كنت﴾ إن مخففة من الثقيلة . واللام هى التى تفرق بينها وبين النافية . والضمير فى ﴿قبله﴾ راجع إلى قوله : ما أوحينا . والمعنى : وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه ، أى : من الجاهلين به ، ما كان لك فيه علم قط ولا طرق سمعك طرف منه .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾

﴿إذ قال يوسف﴾ بدل من أحسن القصص ، وهو من بدل الاشتمال ، لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص ، فإذا قص وقته فقد قص . أو بإضمار «اذكر» ويوسف اسم عبرانى ، وقيل عربى وليس بصحيح : لأنه لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف . فإن قلت : فما تقول فيمن قرأ (يوسف) بكسر السين ، أو (يوسف) بفتحها ، هل يجوز على قراءته أن يقال «هو عربى» لأنه على وزن المضارع المبنى للفاعل أو المفعول من آسف . وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل ؟ قلت : لا ، لأن القراءة المشهورة قامت بالشهادة ، على أن الكلمة أعجمية ، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى ، ونحو يوسف : يونس ، رويت فيه هذه اللغات الثلاث ولا يقال هو عربى لأنه فى لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس . وعن النبى صلى الله عليه وسلم «إذا قيل : من الكريم ؟ فقولوا : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم [2]» ﴿يا أبت﴾

---

(١) قوله «ليست فى غيرها» لعله «فى غيره» كعبارة النسفى . (ع)

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم =

قرئ بالحركات الثلاث . فإن قلت : ماهذه التاء ؟ قلت : تاء تأنيث وقعت عوضاً من ياء الإضافة ، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء فى الوقف . فإن قلت : كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر ؟ قلت : كما جاز نحو قولك : حمامة ذكر ، وشاة ذكر ، ورجل ربعة ، وغلام يفعة . فإن قلت : فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة ؟ قلت : لأنّ التأنيث والإضافة يتناسبان فى أنّ كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم فى آخره . فإن قلت : فما هذه الكسرة ؟ قلت : هى الكسرة التى كانت قبل الياء فى قولك : ياأبى ، قد زحلقت إلى التاء ، لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ماقبلها مفتوحا : فإن قلت : فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التى اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة ؟ قلت : امتنع ذلك فيها ، لأنها اسم ، والأسماء حقها التحريك لأصالتها فى الإعراب ، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرك تخفيفاً ، لأنها حرف لين . وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير ، فلزم تحريكها . فإن قلت : يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوض منه ، لأنها فى حكم الياء ، إذا قلت : ياغلام ، فكما لا يجوز « ياأبتى » لا يجوز « ياأبت » . قلت الياء والكسرة قبلها شيآن والتاء عوض من أحد الشيئين ، وهو الياء والكسرة غير متعرض لها ، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه ، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير . ألا ترى إلى قولهم « ياأبتا » مع كون الألف فيه بدلا من التاء ، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء ، ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوض منه ، فالكسرة أبعد من ذلك . فإن قلت : فقد دلت الكسرة فى ياغلام على الإضافة ؛ لأنها قرينة الياء ولصيقتها . فإن دلت على مثل ذلك فى « ياأبت » فالتاء المعوّضة لغو : وجودها كعدمها . قلت : بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت ياأبى . فإن قلت : فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها ؟ قلت : أما من فتح فقد حذف الألف من « ياأبتا » واستبقى الفتحة قبلها ، كما فعل من حذف الياء فى « ياغلام » ويجوز أن يقال : حركها بحركة الياء المعوض منها فى قولك « ياأبى » . وأما من ضم فقد رأى اسماً فى آخره تاء تأنيث ، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال : « ياأبت » كما تقول « ياتبة » [1] من غير اعتبار لكونها عوضا من ياء الاضافة . وقرئ :

= « إن الكريم ابن الكريم إلى آخره » وفى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الكريم بن الكريم إلى آخره» وهو فى المتفق عليه عن أبى هريرة لكن بلفظ «سئل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم ؟ فقال أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : يارسول الله ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله» .

(١) قوله «كما تقول ياتبة» بكسر التاء وتشديد الباء : الحالة الشديدة . وفى نسخة : ياابنة ، كذا بهامش الأصل . (ع)

إنى رأيت ، بتحريك الياء . وأحد عشر : بسكون العين ، تخفيفا لتوالى المتحركات فيما هو فى حكم اسم واحد ، وكذا إلى تسعة عشر ، إلا اثنى عشر ، لئلا يلتقى ساكنان ، ورأيت من الرؤيا ، لامن الرؤية ، لأنّ ما ذكره معلوم أنه منام ؛ لأنّ الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف فى حال اليقظة ، لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ، ولما خفيت عليه وعلى الناس . فإن قلت : ما أسماء تلك الكواكب ؟ قلت : روى جابر أنّ يهوديا جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أخبرنى عن النجوم التى رآهنّ يوسف ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لليهودى « إن أخبرتك هل تسلم » ؟ قال : نعم . قال : « جريان ، والطارق ، والذيال ، وقابس ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح ، والفرغ . ووثاب ، وذو الكتفين . رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له [(١)] » فقال . اليهودى : إى والله ، إنها لأسماؤها . وقيل : الشمس والقمر أبواه . وقيل : أبوه وخالته : والكواكب . إخوته . وعن وهب أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الأرض كهيئة الدارة ، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها ، فوصف ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكر هذا لإخوتك ، ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له ، فقصها على أبيه فقال له : لا تقصها عليهم ، فيبغوا لك الغوائل . وقيل : كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة . وقيل : ثمانون . فإن قلت لم أخر الشمس والقمر ؟ قلت : أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص ، بياناً لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع ، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة ، ثم عطفهما عليها لذلك ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، أى : رأيت الكواكب مع الشمس والقمر . فإن قلت : مامعنى تكرار رأيت [(٢)] قلت : ليس بتكرار ، إنما هو كلام مستأنف

---

(١) أخرجه الحاكم من طريق أسباط عن السدى عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال « جاء بستان اليهودى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد ، هل تعرف النجوم التى رآها يوسف فسجدن له ؟ فسكت الحديث» ولم يذكر فيهن الشمس والقمر وقال : رآها يوسف محيطة بأكتاف السماء ساجدة له ، وزاد : فقصها على أبيه فقال له : إن هذا أمر قد تشتت وسيجمعه الله بعد » رواه أبو يعلى والبزار والبيهق وأبو نعيم فى الدلائل والطبرانى وأبو حاتم فى رواية الحاكم بن زهير عن السدى نحوه ، وذكره العقيلى من حديثه وقال : لايثبت . وقال البزار : لانعلم له طريقاً إلا هكذا . والحاكم ليس بقوى ، وكذا قال البيهق : إن الحاكم تفرد به . وغفل عن طريق شيخ الحاكم وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات . وأعله بالحاكم . وطريق الحاكم يدفع على الحكم وذكر ابن أبى حاتم فى العلل عن أبى زرعة أنه قال : حديث منكر .

(٢) قال محمود : « إن قلت مامعنى تكرار رأيت به . الخ » قال أحمد : وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل والحال ، فطرى ذكر الفعل لمناسبة الحال وهى المقصودة ، إذ الآية فى السجود كانت ، والله أعلم .

على تقدير سؤال وقع جواباً له ، كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله (إنى رأيت أحد عشر كوكبا) كيف رأيتها سائلا عن حال رؤيتها ؟ فقال (رأيتهم لى ساجدين) . فإن قلت . فلم أجريت مجرى العقلاء فى رأيتهم لى ساجدين ؟ قلت : لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود . أجرى عليها حكمهم ، كأنها عاقلة ، وهذا كثير شائع فى كلامهم ، أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه ، فيعطى حكما من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة .

قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوّة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، كما فعل بآبائه ، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم . والرؤيا بمعنى الرؤية ، إلا أنها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة ، فرق بينهما بحرفى التأنيث كما قيل : القربة والقربى . وقرئ : روياك ، بقلب الهمزة واواً . وسمع الكسائى : رُيَّاك ورِيَّاك ، بالإدغام وضم الراء وكسرها ، وهى ضعيفة ؛ لأنّ الواو فى تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام فى قولهم «اتزر» من الإزار ، و «اتجر» من الأجر ﴿فيكيدوا﴾ منصوب بإضمار «أن» والمعنى : إن قصصتها عليهم كادوك : فإن قلت : هلا قيل : فيكيدوك ، كما قيل : فكيدونى ؟ قلت : ضمن معنى فعل يتعدى باللام ، ليفيد معنى فعل الكيد ، مع إفادة معنى الفعل المضمن ، فيكون آكد وأبلغ فى التخويف ، وذلك نحو : فيحتالوا لك . ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر ﴿عدو مبين﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء ، ولقوله (لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شرّ ، ليورط من يحمله ، ولا يؤمن أن يحملهم على مثله ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك الاجتباء ﴿يجتبيك ربك﴾ يعنى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن ، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام . وقوله ﴿ويعلمك﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى حكم التشبيه ، كأنه قيل : وهو يعلمك ويتمّ نعمته عليك . والاجتباء . الاصطفاء ، افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك ، وجبيت الماء فى الحوض : جمعته . والأحاديث : الرؤيا : لأنّ الرؤيا إمّا حديث نفس أو ملك أو شيطان . وتأويلها . عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا ، وأصحهم

عبارة لها . ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معانى كتب الله وسنن الأنبياء ، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها . وسميت أحاديث ؛ لأنه يحدث بها عن الله ورسله ، فيقال : قال الله وقال الرسول كذا وكذا . ألا ترى إلى قوله تعالى (فبأى حديث بعده يؤمنون) ، (الله نزل أحسن الحديث) وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة . ومعنى إتمام النعمة عليهم أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ، بأن جعلهم أنبياء فى الدنيا وملوكا . ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا فى الجنة . وقيل : أتمها على إبراهيم بالخلة ، والإنجاء من النار ، ومن ذبح الولد . وعلى إسحق بإنجائه من الذبح ، وفدائه بذبح عظيم ، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه . وقيل: علم يعقوب أن يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب . فلذلك قال (وعلى آل يعقوب) وقيل : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا : ما رضى أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه . وقيل : كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ، ولما يرى فيه من المخايل . وكان إخوته يحسدونه ، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة ، فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه ، فتبالغ فيهم الحسد . وقيل : لما قص رؤياه على يعقوب قال : هذا أمر مشتت يجمع الله لك بعد دهر طويل . وآل يعقوب : أهله وهم نسله وغيرهم . وأصل آل : أهل ، بدليل تصغيره على أهيل ، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر . يقال : آل النبى ، وآل الملك . ولا يقال : آل الحائك ، ولا آل الحجام ، ولكن أهلهما . وأراد بالأبوين : الجد ، وأبا الجد ؛ لأنهما فى حكم الأب فى الأصالة . ومن ثم يقولون : ابن فلان ، وإن كان بينه وبين فلان عدّة . و ﴿إبراهيم وإسحق﴾ عطف بيان لأبويك ﴿إن ربك عليم﴾ يعلم من يحق له الاجتباء ﴿حكيم﴾ لا يتم نعمته إلا على من يستحقها .

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾

﴿فى يوسف وإخوته﴾ أى فى قصتهم وحديثهم ﴿آيات﴾ علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته فى كل شيء ﴿للسائلين﴾ لمن سأل عن قصتهم وعرفها . وقيل آيات على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها ، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب . وقرئ : آية ، وفى بعض المصاحف : عبرة . وقيل : إنما قص الله تعالى على النبى عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغى إخوته عليه ، لما رأى من بغى قومه عليه ليتأسى به . وقيل أساميهم : يهوذا ، وروبيل ، وشمعون ، ولاوى ، وربالون ، ويشجر ، ودينة ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر : السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب ، والأربعة الآخرون من سريتين : زلفة ، وبلهة :

فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل ، فولدت له بنيامين ويوسف .

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨)

﴿ليوسف﴾ اللام للابتداء . وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة . أرادوا أنّ زيادة محبته لهما أمر ثابت [1] لا شبهة فيه ﴿وأخوه﴾ هو بنيامين . وإنما قالوا أخوه وهم جميعاً إخوته ، لأنّ أمّهما كانت واحدة . وقيل ﴿أحب﴾ فى الاثنين ، لأن أفعل من لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه ، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه «من» ولا بد من الفرق مع لام التعريف ، وإذا أضيف جاز الأمران . والواو فى ﴿ونحن عصبة﴾ واو الحال . يعنى : أنه يفضلهما فى المحبة علينا ، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ، ونحن جماعة عشرة رجال كفأة نقوم بمرافقه ، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما ، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿إن أبانا لفى ضلال مبين﴾ أى فى ذهاب عن طريق الصواب فى ذلك . والعصبة والعصابة : العشرة فصاعداً . وقيل : إلى الأربعين ، سموا بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب . وروى النزال بن سبرة عن علىّ رضى الله عنه : ونحن عصبة ، بالنصب . وقيل : معناه ونحن نجتمع عصبة . وعن ابن الأنبارى هذا كما تقول العرب : إنما العامرى عمته ، أى يتعهد عمته .

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩)

---

(١) قال محمود : «اللام للتوكيد ، دخلت للاشعار بأن زيادة محبة أبيهم لهما أمر ثابت ...الخ» قال أحمد : وهذه تؤيد قراءة ابن مروان (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) بالنصب . وقد قال سيبويه فيها : احتبى ابن مروان فى لحنه ، أى تمكن . وحيث تأيدت بقراءة أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فلا بد من التماس المحمل الصحيح لها وليس ذلك يبعد إن شاء الله فنقول : لو قالوا «ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن نحن» على طريقة :

« أنا أبو النجم وشعرى شعرى »

ونحو : أنا أنا وأنت أنت . لم يكن فى فصاحته مقال : وقد علمت أن معنى أنا أنا : أى أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التى استغنى عن ذكرها ، فلا بعد والحالة هذه فى حذف الخبر ، لمساواته المبتدأ وعدم زيادته عليه لفظا ، وراحة من تكرار اللفظ بعينه ، والسياق يرشد إلى المحذوف ، وإذا كان كذلك فقول القائلين (ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن) معناه : ونحن نحن ، ولكن استغنوا عن الخبر للسر الذى ذكرناه ، فقولهم : (نحن) كلام تام بالتقدير المذكور ، فلا غرو فى وقوع الحال بعده ، وهذا بعينه يجرى فى قوله (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فقوله (هن) فى حكم الكلام التام . والمراد : هؤلاء بناتى هن المشهورات بالأوصاف الحميدة الظاهرة . وأصل الكلام : هن هن ، فوقع الحال بعد التمام ، والله أعلم .

﴿اقتلوا يوسف﴾ من جملة ما حكى بعد قوله : إذ قالوا ، كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ وقيل : الآمر بالقتل شمعون ، وقيل : دان ، والباقين كانوا راضين، فجعلوا آمرين ﴿أرضاً﴾ أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران ، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف ، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم . والمراد : سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها . فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ؛ لأنّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه . ويجوز أن يراد بالوجه الذات ، كما قال تعالى (ويبقى وجه ربك) وقيل (يخل لكم) يفرغ لكم من الشغل بيوسف ﴿من بعده﴾ من بعد يوسف ، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب ، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا ﴿قوما صالحين﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه . أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه . أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم . و﴿تكونوا﴾ إما مجزوم عطفاً على (يخل لكم) أو منصوب بإضمار «أن والواو» بمعنى مع ، كقوله (وتكتموا الحق) .

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

﴿قائل منهم﴾ هو يهوذا ، وكان أحسنهم فيه رأيا . وهو الذى قال : فلن أبرح الأرض . قال لهم : القتل عظيم ﴿ألقوه فى غيابة الجب﴾ وهى غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله . قال المنخل :

وَإِنْ أَنَا يَوْمًا غَيَّبَتْنِي غَيَابَتِي فَسِيرُوا بِسَيْرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ [1]

أراد غيابة حفرته التى يدفن فيها . وقرئ غيابات ، على الجمع . وغيّابات ، بالتشديد . وقرأ الجحدرى : غيبة . والجب : البئر لم تطو ، لأن الأرض تجبّ جباً لاغير ﴿يلتقطه﴾ يأخذه بعض السيارة بعض الأقوام الذين يسيرون فى الطريق . وقرئ : تلتقطه . بالتاء على المعنى ؛ لأنّ بعض السيارة سيارة ، كقوله :

* كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ * [2]

(١) المنخل . والغيابة : ماغاب عن الناظر من أسفل البئر ونحوه . يقول : وإن غيبتنى مقبرتى ، كناية عن موته ، فسيروا بسيرى ، أى فانعونى وسيروا بذكر خصالى ، على عادة العرب إذا مات منها رئيس . ويحتمل أنه يوصى أقاربه بالخير ، وأنهم يسيرون بمثل سيره ، ويفعلون كفعله فى جيرانه وقرابته .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٩٥ فراجعه إن شئت اه مصححه

ومنه : ذهبت بعض أصابعه ﴿إن كنتم فاعلين﴾ إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم ، فهذا هو الرأى .

قَالُوا يَـٰأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَـٰصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ (١٢)

﴿مالك لا تأمنا﴾ قرئ بإظهار النونين ، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام . و : تيمنا : بكسر التاء مع الإدغام . والمعنى : لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ وما وجد منا فى بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة [1] وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته فى حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه ﴿نرتع﴾ نتسع فى أكل الفواكه وغيرها . وأصل الرتعة : الخصب والسعة . وقرئ : نرتع ، من ارتعى يرتعى . وقرئ : يرتع ويلعب ، بالياء ، ويرتع ، من أرتع ماشيته . وقرأ العلاء بن سيابة : يرتع بكسر العين ، ويلعب ، بالرفع على الابتداء . فإن قلت : كيف استجاز لهم يعقوب عليه السلام اللعب ؟ قلت : كان لعبهم الاستباق والانتضال . ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدوّ لا للهو ، بدليل قوله (إنا ذهبنا نستبق) وإنما سموه لعباً لأنه فى صورته .

قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ (١٣)

﴿ليحزننى﴾ اللام لام الابتداء ، كقوله (إنّ ربك ليحكم بينهم) ودخولها أحد ما ذكره سيبويه من سببى المضارعة . اعتذر إليهم بشيئين ، أحدهما : أنّ ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة . والثانى : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه [2] برعيهم ولعبهم ، أو قلّ به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم . وقيل : رأى فى النوم أنّ الذئب قد شدّ على يوسف فكان يحذره ، فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة ، وفى أمثالهم : «البلاء موكل بالمنطق» . وقرئ (الذئب) بالهمزة على الأصل وبالتخفيف . وقيل : اشتقاقه من «تذاءبت الريح» إذا أتت من كل جهة .

(١) قوله «ومايدل على خلاف النصيحة والمقة» أى المحبة . وقد ومقه يمقه ، بالكسر فيهما : أى أحبه ، فهو وامق ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : «اعتذر لهم بأمرين : أحدهما حزنه لمفارقته ، والثانى خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه ... الخ» قال أحمد : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالما إليه عما قليل ، فأمر سهل ؛ فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه ، والله أعلم .

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤)

القسم محذوف تقديره : والله ﴿ لئن أكله الذئب ﴾ واللام موطئة للقسم . وقوله ﴿ إنا إذا لخاسرون ﴾ جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط ، والواو فى (ونحن عصبة) واو الحال : حلفوا له لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم - وحالهم أنهم عشرة رجال ، بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب - إنهم إذاً لقوم خاسرون ، أى هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً . أو مستحقون أن يهلكوا لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى فى حياتهم . أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار ، وأن يقال : خسرهم الله ودمرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون . وقيل : إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذاً وخسرناها . فإن قلت : قد اعتذر إليهم بعذرين ، فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟ قلت : هو الذى كان يغيظهم ويذيقهم الأمرين[1] فأعاروه آذاناً صما ولم يعبؤوا به .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)

﴿ أن يجعلوه ﴾ مفعول (أجمعوا) من قولك : أجمع الأمر وأزمعه (فأجمعوا أمركم) . وقرئ : فى غيابات الجب : قيل هو بئر بيت المقدس . وقيل : بأرض الأردن . وقيل : بين مصر ومدين . وقيل : على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب . وجواب «لما» محذوف . ومعناه : فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، فقد روى أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وأخذوا يهينونه ويضربونه ، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب ، حتى كادوا يقتلونه . فجعل يصيح: يا أبتاه، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء. فقال يهوذا :أما أعطيتمونى موثقاً ألا تقتلوه فلما أرادوا إلقاءه فى الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده ، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه . فقال : يا إخوتاه ، ردوا علىّ قميصى أتوارى به ، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك ، ودلوه فى البئر . فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان فى البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكى ، فنادوه فظنّ أنها رحمة أدركتهم ، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا ، وكان

(١) قوله «ويذيقهم الأمرين» الأمرين - بنون الجمع - : الدواهى ، كذا بهامش . وفى الصحاح : الأمران : الفقر والهرم . وفيه أيضاً : الأمر : المصارين يجتمع فيها الفرث . قال الشاعر :

فلا تهد الأمر وما يليه ولا تهدن معروق العظام

وقال أبو زيد : لقيت منه الأمرين ، بنون الجمع : وهى الدواهى اه (ع)

يهوذا يأتيه بالطعام . ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجرّد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحق ، وإسحق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب فى تميمة علقها فى عنق يوسف ، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه ﴿وأوحينا إليه﴾ قيل أوحى إليه فى الصغر كما أوحى إلى يحيى وعيسى : وقيل كان إذ ذاك مدركا . وعن الحسن : كان له سبع عشرة سنة ﴿لتنبئنهم بأمرهم هذا﴾ وإنما أوحى اليه ليؤنس فى الظلمة والوحشة ، ويبشر بما يؤول إليه أمره . ومعناه : لتتخلصن مما أنت فيه ، ولتحدّثن إخوتك بما فعلوا بك ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنك يوسف لعلوّ شأنك وكبرياء سلطانك ، وبعد حالك عن أوهامهم، ولطول العهد المبدّل للهيئات والأشكال ، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون ، دعا بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطنّ فقال : إنه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، وكان يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه فى غيابة الجب ، وقلتم لأبيكم : أكله الذئب ، وبعتموه بثمن بخس . ويجوز أن يتعلق (وهم لا يشعرون) بقوله (وأوحينا) على أنا آنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة ، وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له . وقرئ : لننبئنهم ، بالنون على أنه وعيد لهم . وقوله (وهم لا يشعرون) متعلق بأوحينا لا غير .

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

وعن الحسن : عشيا ، على تصغير عشىّ . يقال : لقيته عشيا وعشياناً،[1] وأصيلا وأصيلاناً ورواه ابن جنى : عشى ، بضم العين والقصر . وقال عشوا من البكاء . وروى أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبى : ياأبا أمية ، أما تراها تبكى ؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة : ولا ينبغى لأحد أن يقضى إلا بما أمر أن يقضى به من السنة المرضية . وروى أنه لما سمع صوتهم[2] فزع وقال : مالكم يابنىّ ؟ هل أصابكم فى غنمكم شىء ؟ قالوا : لا . قال : فمالكم وأين يوسف؟ ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ أى نتسابق ، والافتعال والتفاعل يشتركان

(١) قوله «يقال : لقيته عشياً وعشياناً» وهذا لو حذفت نونه صار عشيا ، كقراءة الحسن . (ع)

(٢) قال محمود : «روى أنه لما سمع أصواتهم قال : يابنى ، هل أصابكم فى غنمكم شىء ؟ قالوا لا ... الخ » قال أحمد : وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذى خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أولا ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم (وأخاف أن يأكله الذئب) وكثيرا ما تتلقف الأعذار الباطلة من قلق فى المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الانكار .

كالانتضال والتناضل : والارتماء والترامى ، وغيرذلك . والمعنى . نتسابق فى العدو أو فى الرمى. وجاء فى التفسير : ننتضل ﴿ بمؤمن لنا ﴾ بمصدق لنا ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة ، لشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيئ الظن بنا ، غير واثق بقولنا ؟

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)

﴿بدم كذب﴾ ذى كذب . أو وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه ، والزور بذاته . ونحوه :

* فَهُنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلُ *

وقرئ ، كذباً . نصباً على الحال ، بمعنى : جاءوا به كاذبين ، ويجوز أن يكون مفعولا له. وقرأت عائشة رضى الله عنها : كدب ، بالدال غير المعجمة ، أى كدر . وقيل : طرى ، وقال ابن جنى : أصله من الكذب ، وهو الفوف [1] البياض الذى يخرج على أظفار الأحداث . كأنه دم قد أثر فى قميصه . روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها ، وزل عنهم أن يمزقوه . وروى أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال : أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا ، أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه . وقيل كان فى قميص يوسف ثلاث آيات : كان دليلا ليعقوب على كذبهم ، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، ودليلا على براءة يوسف حين قد من دبر . فإن قلت: (على قميصه) ما محله ؟ قلت : محله النصب على الظرف ، كأنه قيل : وجاءوا فوق قميصه بدم كما تقول : جاء على جماله بأحمال . فإن قلت : هل يجوز أن تكون حالا متقدمة ؟ قلت : لا ، لأن حال المجرور لا تتقدم عليه ﴿ سوّلت ﴾ سهلت من السول وهو الاسترخاء، أى : سهلت ﴿ لكم أنفسكم أمراً ﴾ عظيما ارتكبتموه من يوسف وهوّنته فى أعينكم : استدل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص . أو أوحى إليه بأنهم قصدوه ﴿ فصبر جميل ﴾ خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفا أى فأمرى صبر جميل ، أو فصبر جميل أمثل . وفى قراءة أبىّ : فصبراً جميلا . والصبر الجميل جاء فى الحديث المرفوع « أنه الذى لا شكوى فيه إلى الخلق» [2] ألا ترى إلى قوله (إنما أشكوا بثى وحزنى

(١) قوله «وهو الفوف البياض» عبارة الصحاح : الفوف البياض الذى يكون فى أظفار الأحداث اه ، فجعل البياض خبرا عن الفوف وتفسيرا له ، فلعله هنا : أى البياض . (ع)

(٢) أخرجه الطبرى من طريق حيان بن أبى حبلة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (فصبر جميل) قال : «صبر لا شكوى فيه . من بث لم يصبر» هذا مرسل .

إلى الله) وقيل : لا أعايشكم على كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت . وقيل : سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصابة ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : طول الزمان وكثرة الأحزان . فأوحى الله تعالى إليه : يا يعقوب أتشكونى ؟ قال : يا رب . خطيئة فاغفرها لى ﴿ والله المستعان ﴾ أى أستعينه ﴿ على ﴾ احتمال ﴿ ماتصفون ﴾ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

﴿ وجاءت سيارة ﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر ، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف فى الجب ، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريباً منه ، وكان الجب فى قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة . وقيل : كان ماؤها ملحاً . فعذب حين ألقى فيه يوسف ﴿ فأرسلوا ﴾ رجلا يقال له مالك ابن ذعر الخزاعى ، ليطلب لهم الماء . والوارد : الذى يرد الماء ليستقى للقوم ﴿ يابشرى ﴾ نادى البشرى ، كأنه يقول : تعالى ، فهذا من آونتك . وقرئ : يابشراى ، على إضافتها إلى نفسه . وفى قراءة الحسن وغيره : يابشرى ، بالياء مكان الألف ، جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة ، وهى لغة للعرب مشهورة سمعت أهل السروات يقولون فى دعائهم : ياسيدى ومولىّ . وعن نافع : يابشراى بالسكون ، وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حده ، إلا أن يقصد الوقف . وقيل : لما أدلى دلوه أى أرسلها فى الجب تعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون ، فقال : يابشراى ﴿ هذا غلام ﴾ وقيل : ذهب به ، فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به ﴿ وأسرّوه ﴾ الضمير للوارد وأصحابه : أخفوه من الرفقة . وقيل : أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب ، وقالوا لهم : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر . وعن ابن عباس أنّ الضمير لإخوة يوسف ، وأنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه . و﴿ بضاعة ﴾ نصب على الحال ، أى : أخفوه متاعا للتجارة . والبضاعة : ما بضع من المال للتجارة ، أى قطع ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ لم يخف عليه أسرارهم ، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم . أو : والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع .

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

﴿ وشروه ﴾ وباعوه ﴿ بثمن بخس ﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً ، أو زيف

ناقص العيار ﴿دراهم﴾ لا دنانير ﴿معدودة﴾ قليلة [١] تعدّ عدّاً ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهى الأربعون ، ويعدّون ما دونها . وقيل للقليلة معدودة : لأنّ الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها . وعن ابن عباس : كانت عشرين درهماً . وعن السدى : اثنين وعشرين ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ ممن يرغب عما فى يده فيبيعه بما طف من الثمن [٢] لأنهم التقطوه ، والملتقط للشىء متهاون به لا يبالى بم باعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أوّل مساوم بأوكس الثمن . ويجوز أن يكون معنى (وشروه) واشتروه ، يعنى الرفقة من إخوته (وكانوا فيه من الزاهدين) لأنهم اعتقدوا أنه آبق فخافوا أن يخطروا بمالهم فيه . ويروى أنّ إخوته اتبعوهم يقولون لهم : استوثقوا منه لا يأبق . وقوله (فيه) ليس من صلة (الزاهدين) لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول . ألا تراك لا تقول : وكانوا زيدا من الضاربين ، وإنما هو بيان ، كأنه قيل : فى أى شىء زهدوا ؟ فقال : زهدوا فيه .

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)

﴿الذى اشتراه﴾ قيل هو قطفير أو أطفير، وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر، والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف . فملك بعده قابوس بن مصعب ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى ، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقام فى منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : كان الملك فى أيامه فرعون موسى ، عاش أربعمائة سنة بدليل قوله (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف . وقيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجى نعل وثوبين أبيضين . وقيل : أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه ، حتى بلغ ثمنه وزنه

---

(١) قال محمود : « المعدودة كناية عن القليلة ... الخ » قال أحمد : ومن التعبير عن القلة بالعدد : الدعوة المأثورة على الكفرة : « اللهم أحصهم عددا ، واستأصلهم بددا ولا تبق منهم أحداً » فالمدعو به وإن كان إحصاؤهم عدداً فى الظاهر ، إلا أن هذا ليس مرادا لأن الله تعالى أحصى كل شىء عددا وأحاط به علما ، فلابد من مقصود وراء ذلك وهو لازم العدد وذلك القلة ، فلما كان كل قليل معدودا وكل كثير غير معدود ، دعى عليهم بالقلة وعبر عنها بلازمها وهو الاحصاء . والله أعلم .

(٢) قوله « فيبيعه بما طف من الثمن » أى قل . وفى الصحاح : الطفيف القليل . (ع)

مسكا وورقا وحريراً ، فابتاعه قطفير بذلك المبلغ ﴿أكرمى مثواه﴾ اجعلى منزله ومقامه عندنا كريماً ، أى حسناً مرضياً ، بدليل قوله (إنه ربى أحسن مثواى) والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ، ساكنة فى كنفنا . ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد : هل تطيب نفسك بثوائك عنده ، وهل يراعى حق نزولك به . واللام فى (لامرأته) متعلقة بقال ، لا باشتراه ﴿عسى أن ينفعنا﴾ لعله إذا تدرّب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته . أو نتبناه ونقيمه مقام الولد ، وكان قطفير عقيما لا يولد له ، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك . وقيل : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف ، فقال لامرأته (أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا) والمرأة التى أتت موسى وقالت لأبيها (يا أبت استأجره) وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما . وروى أنه سأله عن نفسه ، فأخبره بنسبه فعرفه ﴿وكذلك﴾ الإشارة إلى ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه ، والكاف منصوب تقديره : ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مكنا﴾ له ، أى : كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز ، كذلك مكنا له فى أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين لأنّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل ﴿والله غالب على أمره﴾ على أمر نفسه : لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضى . أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الأمر كله بيد الله .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قيل فى الأشدّ : ثمانى عشرة ، وعشرون ، وثلاث وثلاثون ، وأربعون . وقيل : أقصاه ثنتان وستون ﴿حكما﴾ حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه . وقيل : حكما بين الناس وفقها ﴿وكذلك نجزى المحسنين﴾ تنبيه على أنه كان محسناً فى عمله ، متقياً فى عنفوان أمره ، وأنّ الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله .

وَرَٰوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

المراودة : مفاعلة ، من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى :

فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهى عبارة عن التحمل لمواقعته إياها ﴿وغلقت الأبواب﴾ قيل : كانت سبعة . وقرئ (هيت) بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء ، وبناؤه كبناء أين،وعيط . وهيت كجير وهيت كحيث . وهئت بمعنى تهيأت . يقال : هاء يهيء ، كجاء يجيء : إذا تهيأ . وهيئت لك . واللام من صلة الفعل . وأما فى الأصوات فللبيان [١] كأنه قيل:لك أقول هذا ، كما تقول : هلم لك ﴿معاذالله﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿إنه﴾ إن الشأن والحديث ﴿ربى﴾ سيدى ومالكى ، يريد قطفير ﴿أحسن مثواى﴾ حين قال لك أكرمى مثواه ، فما جزاؤه أن أخلفه فى أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ الذين يجازون الحسن بالسيئ . وقيل: أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم. وقيل : أراد الله تعالى ، لأنه مسبب الأسباب .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)

همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه . قال :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ... تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِى حَلَائِلُهْ [٢]

ومنه قولك : لا أفعل ذلك ولا كيداً ولا هما . أى ولا أكاد أن أفعله كيداً ، ولا أهم بفعله هماً ، حكاه سيبويه ، ومنه : الهمام وهو الذى إذا همّ بأمر أمضاه ولم ينكل عنه . وقوله ﴿ولقد همت به﴾ معناه . ولقد همت بمخالطته ﴿وهمّ بها﴾ وهمّ بمخالطتها ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف ، لأنّ قوله (وهمّ بها) يدل

(١) قوله «وأما فى الأصوات فللبيان» فى الصحاح : هيت به وهوت به ، أى صاح به ودعاه . وفيه أيضا قولهم «هيت لك» أى هلم لك وفيه . هلم يارجل - بفتح الميم - : بمعنى تعال . (ع)

(٢) لعمير بن ضابئ البرجمى ، دخل على عثمان وهو مقتول فوطئ بطنه وكسر ضلعه وقال : عزمت على قتل عثمان ولم أقتله ، وكدت أن أفعل وليتنى قتلته . وكنى عن ذلك بقوله : «تركت على عثمان تبكى حلائله» وهو من باب التنازع . وأصله : تركت على عثمان حلائله تبكى فجعل حلائله فاعلا . وحذف مفعول تركت الأول لعلمه من الكلام ، ولأنه فضلة وهى لاتضمر فى هذا الباب . والمعنى ليتنى قتلته فصيرت نساءه تبكى عليه ، ودخل هذا الرجل على الحجاج وقال : ياأمير المؤمنين : أنا شيخ ضعيف ، وخرج اسمى فى هذا البعث ، فاقبل ابنى بديلا عنى فقبله منه وخرج فقال عتبة بن سعيد : أيها الأمير ، هذا هو الذى فعل بعثمان كذا وكذا ، فقال : ردوه على ، فقال له : أيها الشيخ ، هلا بعثت إلى عثمان أمير المؤمنين بديلا يوم الدار ؟ إن فى قتلك صلاحا ، ياحرسى ، اضربا عنقه . أمر الحرسى بقتله وخاطبه خطاب المثنى على لغة الحرس الذين نسب الخاطب إليهم هذا . وقيل : إن القصة مع ضابئ نفسه ، وأن عثمان كان حبسه فى هجوه بنى نهشل ، فلما قتل عثمان أفلت وفعل به ذلك .

عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أنى خفت الله ، معناه لولا أنى خفت الله . فإن قلت : كيف جاز على نبىّ الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصدٌ إليها ؟ قلت : المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه[1] ميلا يشبه الهم به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر مابه ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هماً لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته . ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين . ويجوز أن يريد بقوله (وهم بها) وشارف أن يهم بها ، كما يقول الرجل : قتلته لو لم أخف الله ، يريد مشارفة القتل ومشافهته[2] . كأنه شرع فيه فإن قلت : قوله (وهم بها) داخل تحت حكم القسم فى قوله (ولقد همت به) أم هو خارج منه ؟ قلت : الأمران جائزان . ومن حق القارئ إذا قدّر خروجه من حكم القسم وجعله كلاما برأسه أن يقف على قوله (ولقد همت به) ويبتدئ قوله (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمين . فإن قلت : لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها ، وهلا جعلته هو الجواب مقدما ؟ قلت : لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها ، من قبل أنه فى حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام وهو مع مافى حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة ، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض . وأما حذف بعضها إذا دلّ الدليل عليه فجائز ، فإن قلت : فلم جعلت «لولا» متعلقة بهمّ بها وحده ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله (ولقد همت به وهمّ بها) لأن الهمّ لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعانى ، فلا بدّ من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معاً ، فكأنه قيل : ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما ؟ قلت : نعم ماقلت ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال (ولقد همت به وهم بها) فكان إغفاله إلغاء له ، فوجب أن يكون التقدير . ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، على أنّ المراد بالمخالطتين توصلها إلى ماهو حظها من قضاء شهوتها منه ، وتوصله إلى ماهو حظه من قضاء شهوته منها . لولا أن رأى برهان ربه ، فترك التوصل إلى حظه من الشهوة ؛ فلذلك كانت «لولا» حقيقة بأن تعلق بهمّ بها وحده ، وقد فسر همّ يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع ، وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهى مستلقية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً : إياك وإياها ، فلم يكترث له ، فسمعه ثانياً فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً : أعرضْ عنها ، فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب

---

(١) قوله «وقرمه» أى شدة شهوته ، أفاده الصحاح .

(٢) قوله «ومشافهته» لعله : ومشابهته .

عاضاً على أنملته . وقيل : ضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله . وقيل : كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين همّ . وقيل : صيح به : يا يوسف ، لا تكن كالطائر : كان له ريش ، فلما زنى قعد لا ريش له . وقيل : بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم ، مكتوب فيها (وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين) فلم ينصرف ، ثم رأى فيها (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) فلم ينته ، ثم رأى فيها (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) فلم ينجع فيه . فقال الله لجبريل عليه السلام : أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل وهو يقول : يا يوسف ، أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ؟ وقيل : رأى تمثال العزيز . وقيل : قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت : أستحيي منه أن يرانا . فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ، ولا أستحيي من السميع البصير ، العليم بذوات الصدور . وهذا ونحوه . مما يورده أهل الحشو والجبر [١] الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه ، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل ، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته ، وعلى داود ، وعلى نوح ، وعلى أيوب . وعلى ذى النون ، وذكرت توبتهم واستغفارهم ، كيف وقد أثنى عليه وسمى مخلصاً ، فعلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام الدحض ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، ناظراً فى دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ، ثم فى القرآن الذى هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها ، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق فى الآخرين ، كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر فى العفة وطيب الإزار والتثبت فى مواقف العثار ، فأخزى الله أولئك فى إيرادهم ما يؤدّى إلى أن يكون إنزال الله السورة التى هى أحسن القصص فى القرآن العربى المبين ليقتدى بنبى من أنبياء الله ، فى القعود بين شعب الزانية وفى حل تكته للوقوع عليها ، وفى أن ينهاه ربه بثلاث كرّات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذى سقط ريشه حين سفد غير أنثاه ، وهو جاثم فى مربضه لا يتحلحل ولا ينتهى ولا ينتبه ، حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره . ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأصلحهم وجهاً لقى بأدنى مالقى به

---

(١) قوله «مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى» يريد بهم أهل السنة . ويريد بأهل العدل المعتزلة . وبهت الشخص : نسبه إلى قبيح لم يفعله . ولولا أن ذلك دائر بين السلف لما أوردوه . (ع)

نبي الله مما ذكروا ، لما بقى له عرق ينبض ولا عضو يتحرك . فيا له من مذهب ما أفحشه ، ومن ضلال ما أبينه ﴿كذلك﴾ الكاف منصوب المحل ، أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه . أو مرفوعه ، أى الأمر مثل ذلك ﴿لنصرف عنه السوء﴾ من خيانة السيد ﴿والفحشاء﴾ من الزنا ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح . الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم . ويجوز أن يريد بالسوء . مقدمات الفاحشة ، من القبلة والنظر بشهوة ، ونحو ذلك . وقوله (من عبادنا) معناه بعض عبادنا ، أى : هو مخلص من جملة المخلصين . أو هو ناشئ منهم ، لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم (إنا أخلصناهم بخالصة) .

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

﴿واستبقا الباب﴾ وتسابقا إلى الباب على حذف الجار وإيصال الفعل ، كقوله (واختار موسى قومه) على تضمين «استبقا» معنى «ابتدرا» نفر منها يوسف ، فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج . فإن قلت : كيف وحد الباب ، وقد جمعه فى قوله (وغلقت الأبواب) ؟ قلت : أراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار . فقد روى كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل [1] يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿وقدت قميصه من دبر﴾ اجتذبته من خلفه فانقد ، أى انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه ﴿وألفيا سيدها﴾ وصادفا بعلها وهو قطفير . تقول المرأة لبعلها : سيدى . وقيل : إنما لم يقل سيدهما ، لأن ملك يوسف لم يصح ، فلم يكن سيداً له على الحقيقة . قيل : ألفياه مقبلا يريد أن يدخل . وقيل جالساً مع ابن عم للمرأة . لما اطلع منها زوجها على تلك

(١) قوله «فراشة القفل» هو ما ينشب فيه . يقال أقفل فأفرش . (ع)

الهيئة المريبة وهى مغتاظة على يوسف إذ لم يؤاتها [1] جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها : وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف ، وتخويفه طمعاً فى أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها ، وكرها لما أيست من مؤاتاته طوعا . ألا ترى إلى قولها (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن) و «ما» نافية ، أى : ليس جزاؤه إلا السجن . ويجوز أن تكون استفهامية ، بمعنى : أى شىء جزاؤه إلا السجن ، كما تقول : من فى الدار إلا زيد . فإن قلت : كيف لم تصرح فى قولها بذكر يوسف ، وإنه أراد بها سوءاً ؟ [2] قلت : قصدت العموم ، وأنّ كل من أراد بأهلك سوءاً حقه أن يسجن أو يعذب ، لأنّ ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف . وقيل : العذاب الأليم الضرب بالسياط . ولما أغرت به وعرّضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال : ﴿هى راودتنى عن نفسى﴾ ولولا ذلك لكتم عليها ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل كان ابن عمّ لها ، إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ؛ لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه . وقيل : هو الذى كان جالساً مع زوجها لدى الباب . وقيل كان حكيما يرجع إليه الملك ويستشيره . ويجوز أن يكون بعض أهلها كان فى الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق . وقيل : كان ابن خال لها صبيا فى المهد . وعن النبى صلى الله عليه وسلم «تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى» [3]

---

(١) قوله «إذ لم يؤاتها» فى الصحاح : وتقول آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة ، إذا وافقته وطاوعته . والعامة تقول : واتيته . (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت : لم قالت ماقالت غير مصرحة بذكر يوسف ... الخ» ؟ قال أحمد : أو أظهرت بهذا الاجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلها : هذا أراد بى سوءاً ولذلك أيضا كنت بالسوء عما أضمرته من الخناة مبالغة فى المكر والكيد ، وإبعاد للتهمة عنها بتوقى مايفصح منها بالتبرج والقحة ، وعلى الضد من مقصودها وإن وافق ملاحظتها بحشمة الاجمال : قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) ولم تقل : إنه قوى أمين ، حياء من التعيين وحشمة وخفراً ، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء ، وامرأة العزيز إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال لذلك الغرض الفاسد من المكر ، والله أعلم .

(٣) أخرجه الحاكم وابن حبان وأحمد وابن أبى شيبة والبزار وأبو يعلى . والطبرى والبيهقى فى السادس عشر من الشعب كلهم من رواية حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه «لما أسرى بى مرت رائحة طيبة ـ الحديث» فيه قصة الماشطة ، وفى آخره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تكلم فى المهد أربعة ، وهم صغار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم» وفى الحاكم أيضاً من رواية مسلم بن إبراهيم عن جريج بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رفعه «لم يتكلم فى المهد إلا أربعة وهم صغار : عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة فرعون» وذكره بلفظ ثلاثة . وذكر الثالث ابن المرأة التى ألقيت فى النار . فخشيت على ولدها فكلمها ، وفى الصحيحين من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا : =

فإن قلت: لم سمى قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ [١] قلت: لما أدى مؤدى الشهادة فى أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمى شهادة: فإن قلت: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ قلت: لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد فقال إن كان قميصه. فإن قلت: إن دل قدّ قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هى التى تبعته واجتبذت ثوبه إليها فقدّته، فمن أين دل قدّه من قبل على أنها صادقة، وأنه كان تابعها؟ قلت: من وجهين، أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهى دافعته عن نفسها قدت قميصه من قدّامه بالدفع. والثانى: أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر فى مقادم قميصه فيشقه [٢]. وقرئ: من قبل،

= «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وصبى كان يرضع فمر رجل راكب على دابة - الحديث» اقتصر الطيبى على هذا الأخذ فلم يصب، وبهذا الاعتبار صاروا خمسة. وروى الثعلبى عن الضحاك أنهم ستة زادهم يحيى بن زكريا.

(١) قال محمود: «إن قلت لم سمى قوله شهادة وماهو بلفظ الشهادة ... الخ» قال أحمد: مهما قدره من ذلك فى اتباعه لها، يحتمل مثله فى اتباعها له، فانها إنما تقد قميصه من قبل بتقدير أن يكون اجتذبها حتى صارا متقابلين فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هى التابعة أن تكون اجتذبته حتى صارا متقابلين، ثم جذبت قميصه إليها من قبل، بل ههنا أظهر؛ لأن الموجب لقد القميص غالبا الجذب لا الدفع.

(٢) عاد كلامه. قال: «والثانى أن يسرع خلفها ليلحقها فيعثر فى مقادم قميصه فينقد» قال أحمد: وهذا بعينه يحتمل لو كانت هي التابعة وهو فار منها فانقد قميصه فى إسراعه للفرار، والله أعلم. فليس كلام الزمخشرى فى هذا الفصل بذاك. والحق - والله ولى التوفيق - أن الشاهد المذكور إن كان صبيا فى المهد كما ورد فى بعض الحديث، فالآية فى مجرد كلامه قبل أوانه، حتى لو قال: صدق يوسف وكذبت، لكفى برهانا على صدقه عليه السلام، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام فى المهد برهانا على صدق مريم، فلا تبقى المناسبة بين الأمارة المنصوبة ومارتب عليها؛ لأن العمدة فى الدلالة نصها لامناسبتها، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان فى الدار فبصرها من حيث لاتشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له وإقامة الحق كما ذكر الزمخشرى. فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى فيصدق يوسف ويكذبها، ولكنه أراد أن لايكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر فنصبه أمارة لصدقه وكذبها، ثم ذكر القسم الآخر وهو قده من قبل، على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفى عن نفسه التهمة فى الشهادة وقصد الفضيحة، وينصفهما جميعا فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده، ومن ثم قدم أمارة صدقها على أمارة صدقه فى الذكر، إزاحة للتهمة ووثوقا بأن الأمارة الثانية هى الواقعة، فلا يضره تأخيرها. وهذه اللطيفة بعينها - والله أعلم - هو التى راعاها مؤمن آل فرعون فى قوله (وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التى خشى أن تنطرق إليه فى حق موسى عليه السلام، ووثوقا بأن القسم الثانى وهو صدقه هو الواقع. فلا يضره تأخيره فى الذكر لهذه الفائدة. ومن ثم قال (بعض الذى يعدكم) ولم يقل: كل ما يعدكم تعريضا بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخسه حقه، وبنحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه؛ لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذى أمر بوضع السقاية فيه، والله أعلم. فقصد هذا الشاهد الأمارة الآخرة فقط. والمناسبة فيها محققة. وأما الأمارة الأولى فليست مقصودة، وإنما ذكرها توطئة كما تقدم. فلم يلتمس لها مناسبة جلية صحيحة على اليقين، وإنما هي كالفرض والتقدير والله أعلم. وكأنه قال: إن كان قميصه قد من قبل فهى صادقة. =

ومن دبر ، بالضم على مذهب الغايات . والمعنى : من قبل القميص ومن دبره. وأما التنكير فمعناه من جهة يقال لها قبل ، ومن جهة يقال لها دبر . وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ : من قبل ومن دبر بالفتح ، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث . وقرئا [1] بسكون العين . فإن قلت : كيف جاز الجمع بين «إن» الذي هو للاستقبال وبين «كان» ؟ قلت : لأنّ المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قدّ ، ونحوه كقولك : إن أحسنت إلىّ فقد أحسنت إليك من قبل، لمن يمتن عليك بإحسانه ، تريد : إن تمتن علىّ أمتنّ عليك ﴿فلما رأى﴾ يعني قطفير وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿قال إنه﴾ إن قولك (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) [2] أو إنّ الأمر وهو طمعها في يوسف ﴿من كيدكن﴾ الخطاب لها ولأمتها . وإنما استعظم كيد النساء لأنه وإن كان في الرجال ، إلا أنّ النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة . ولهنّ في ذلك نيقة [3] ورفق، وبذلك يغلبن الرجال . ومنه قوله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) والقصريات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البواتق [4] وعن بعض العلماء : أنا أخاف من النساء أكثر ما أخاف من الشيطان ، لأنّ الله تعالى يقول (إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً) وقال للنساء (إنّ كيدكنّ عظيم) . ﴿يوسف﴾ حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله ﴿أعرض عن هذا﴾ الأمر واكتمه ولا تحدّث به ﴿واستغفري﴾ أنت ﴿لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب . يقال: خطئ ، إذا أذنب متعمداً ، وإنما قال (من الخاطئين) بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث ، وما كان العزيز إلا رجلا حليماً . وروى أنه كان قليل الغيرة .

--- لكنه يعلم انتفاء الأمارة المذكورة ، فعلق صدقها على محال وهو وجود قده من قبل حالة ، فهذا التقرير هو الصواب والحق اللباب ، والله الموفق . وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشيره كما ورد في بعض التفاسير ، فلا بد من التماس المناسبة في الطرفين لأنها عهدة الحكيم . وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من دبر دليل على إدباره عنها ، وقده من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه ، والله أعلم .

(١) قوله «وقرئا» أي : قبل ودبر ، وقوله «بسكون العين» : أي الباء . (ع)

(٢) قال محمود : «الضمير راجع إلى قولها ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً ... الخ» قال أحمد : وفيما قاله هذا العالم نظر ، لأن الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى غير محكي . وأما هذه الآية فكيد النساء فيها من قول العزيز ، ولكن حكاه الله تعالى عنه فيحتمل حكايته عنه أن يكون تصحيحا له ، ويحتمل أن لايكون المراد تصويبه ، وأيضا فان كيد الشيطان مذكور في الآية مقابلا لكيد الله تعالى ، فكان ضعيفا بالنسبة إليه . ألا ترى أول الآية (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) وأيضاً فان الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته وتسويله وشواهد الشرع قائمة على ذلك ، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيدهن أعظم من كيده ، والله أعلم .

(٣) قوله «نيقة» اسم للتأنق في الأمر . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله «مع غيرهن من البواتق» أي الدواهي . أفاده الصحاح . (ع)

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿وقال نسوة﴾ وقال جماعة من النساء وكن خمساً : امراة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب . والنسوة : اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيق كتأنيث اللمة ، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث . وفيه لغتان : كسر النون وضمها ﴿فى المدينة﴾ فى مصر ﴿امرأة العزيز﴾ يردن قطفير ، والعزيز : الملك بلسان العرب ﴿فتاها﴾ غلامها . يقال : فتاى وفتاتى ، أى غلامى وجاريتى ﴿شغفها﴾ خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب ، وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب. قال النابغة :

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ وَالِجٌ ... مَكَانَ الشِّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ [1]

---

(١) وقد حال هم دون ذلك والج ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبى قابوس فى غير كنهه ... أتانى ودونى راكش فالضواجع

للنابغة ، يعتذر إلى النعمان ملك العرب عما قذفه به الواشون ، أى وقد حال هم دون التغزل فى المحبوبة وغيره من اللذات «والج» داخل مكان الشغاف . ويروى «ولوج الشغاف» أى كولوجه ، والشغاف : داء فى القلب جهة اليمين تخرجه الأطباء بأصابعهم ، فتبتغيه الأصابع : من صفته على أنه حال منه . وقيل : حجاب القلب ، أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ، فتبتغيه : صفة للهم ، وشبه الأصابع بمن يصح منه الطلب على طريق المكنية والابتغاء تخييل ، ثم إنه شبه الهم المعقول بمحسوس وبالغ فى ذلك حتى ادعى أن الأصابع تفتش عليه فلا تجده لشدة ولوجه وكمونه فى القلب . أو تلمسه وتريد إخراجه . وبين الهم بقوله : وعيد النعمان أبى قابوس وتهديده حال كونه فى غير كنهه وحقيقته ، أى : لم يبلغنى بكماله . أو لأنه بلاسبب حصل منى ، بل افترى الوشاة على كذباً جاءنى . ودونى : أى أمامى هذين الموضعين وهما مسافة بعيدة ، ومع ذلك أدركنى الخوف أو بعد المسافة ، دلالة على غضب الملك عليه غضباً شديداً .

وقرئ: شعفها، بالعين، من شعف البعير إذا هنأه [١] فأحرقه بالقطران، قال:

* كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي * [٢]

و﴿حبا﴾ نصب على التمييز ﴿فى ضلال مبين﴾ فى خطإ وبعد عن طريق الصواب ﴿بمكرهن﴾ باغتيابهن وسوء قالتهن، وقولهن: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى ومقتها، وسمى الاغتياب مكراً لأنه فى خفية وحال غيبة، كما يخفى الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهن سرّها فأفشينه عليها ﴿أرسلت إليهن﴾ دعتهن. قيل: دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات ﴿وأعتدت لهن متكأ﴾ ما يتكئن عليه من نمارق، قصدت بتلك الهيئة وهى قعودهن متكئات والسكاكين فى أيديهن: أن يدهشن [٣] ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها، لأن المتكئ إذا بهت لشىء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهن، فتضع الخناجر فى أيديهن ليقطعن أيديهن، فتبكتهن بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات فى أيديهن الخناجر، وتوهمه أنهن يثبن عليه. وقيل: متكأ: مجلس طعام لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين، ولذلك «نهى أن يأكل الرجل متكئا» [٤] وآتتهن السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن. وقيل (متكأ) طعاما، من قولك اتكأنا عند فلان: طعمنا [٥]، على سبيل الكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له

---

(١) قوله «إذا هنأه» فى الصحاح «هنأت البعير» إذا طليته بالهناء. وهو القطران. (ع)

(٢)
أتقتلنى وقد شعفت فؤادها ... كما شعف المهنوءة الرجل الطالى

لامرئ القيس، والاستفهام للانكار والاستبعاد، أو للتعجب. وشعف الجمل: إذا أحرقه بالقطران المغلى على النار، وهنأه: دهنه بذلك القطران، فأطلق الشعف وأريد منه مطلق الاحراق، ثم أريد منه الاحراق بالعشق مجازاً مرسلا ليصح التشبيه فى قوله: كما أحرق الابل المدهونة الداهن لها. وإن كان شغفت بالغين المعجمة فالمعنى: أصبت شغاف قلبها بالحب، وهو حجاب القلب أولسانه أوحبة سوداء فى وسطه، كما شغف: أى أخاف الابل المدهونة وراع قلبها الرجل الداهن لها. لأنها تخافه فى الأول. وقيل: شبه حبها باستلذاذ الابل لذلك الطلى بعد دهنها به.

(٣) قوله «يدهشن» أى يتحيرن. أفاده الصحاح. (ع)

(٤) من رواية عبدالملك بن أبى سليمان عن ابن الزبير عن جابر قال «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل أحدنا بشماله وبأن يأكل متكئا» وفى الطبرى من حديث ابن مسعود «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صومين وصلاتين ولباسين ومطعمين وبيعتين» ومنكحين - إلى أن قال: وأما المطعمان فأن يأكل الرجل بشماله ويمينه صحيح. وأن يأكل متكئا، إسناده جيد. وله فى الأوسط وفى مسند الشاميين من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تأكل متكئاً. ولا تتخط رقاب الناس يوم الجمعة» وأعله ابن حبان فى الضعفاء بزريق بن عبدالله رواية عن عمرو بن الأسود عن أبى الدرداء. وفى الباب عن ابن أبى إهاب. أخرجه البزار بلفظ «نهى أن نأكل متكئين».

(٥) قوله «طعمنا» لعله «أى طعمنا». (ع)

تكأة يتكئ عليها . قال جميل :

فَظَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ وَاتَّكَأْنَا وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَلِهْ (١)

وعن مجاهد (متكأ) طعاما يحزّ حزّا ، كأن المعنى يعتمد بالسكين ؛ لأنّ القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين . وقرئ متكا بغير همز . وعن الحسن : متكاء بالمدّ ، كأنه مفتعال ، وذلك لإشباع فتحة الكاف ، كقوله «بِمُنْتَزَاحِ» (٢) بمعنى بمنتزح . ونحوه «يَنْبَاعُ» (٣) بمعنى ينبع . وقرئ : متكا وهو الأترج ، وأنشد :

فَأَهْدَتْ مُتْكَةً لِبَنِي أَبِيهَا تَخُبُّ بِهَا العَثَمْثَمَةُ الْوِقَاحُ (٤)

وكانت أهدت أترجة على ناقة . وكأنها الأترجة التي ذكرها أبو داود في سننه أنها شقت بنصفين ، وحملا كالعدلين على جمل . وقيل : الزماورد (٥) وعن وهب : أترجا وموزا وبطيخا . وقيل : أعتدت لهنّ ما يقطع ، من متك الشيء بمعنى بتكه إذا قطعه . وقرأ الأعرج : (متكأ) مفعلا ، من تكئ يتكأ ، إذا اتكأ ﴿أكبرنه﴾ أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق . قيل : كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء ، فقلت لجبريل : من هذا ؟ فقال يوسف» ، فقيل : يارسول الله ، كيف رأيته ؟ قال «كالقمر ليلة البدر (٦)» ، وقيل كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران ، كما يرى نور الشمس من الماء عليها .

---

(١) لحميد بن ثور . وقيل لجبل بن معمر . وظل يظل من باب علم . يقول : فظللنا في نعمة أو ملتبسين بنعمة . واتكأنا : أصله اوتكأنا فتاؤه الأولى واو : أي اتخذنا متكأ اضطجعنا عليه ، وشربنا الشراب الحلال يعني النبيذ ، من قلله : جمع قلة ، وهي الجرة العظيمة . ففي ذكر القلال دلالة على التوسع في الشرب وعدم التحجر فيه .

(٢) قوله «بمنتزاح» هو من قول الشاعر :

وأنت من الغوائل حين ترمى وعن ذم الرجال بمنتزاح

والبيت لابن هرمة يرثي ابنه . والغوائل : الحوادث التي تغتال النفوس وتهلكها . ونزح : إذا بعد ، والمنتزح : اسم لمكان البعد ، وأشبعت فتحته فتولدت منها الألف كقولهم : ينباع في ينبع ، وعقراب في عقرب .

(٣) قوله «ينباع» هو من قول الشاعر :

ينباع من ذفرى أسيل حرة زيافة مثل الفنيق المكدم

وقد مر شرح هذا البيت في سورة الأعراف بهذا الجزء صفحة ١٢٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٤) المتكة : الأترجة ، وكأنه التي ذكر أبو داود في سننه أنها شقت نصفين وحملت على ناقة . والخبب : نوع من السير . والعثمثمة : الصلبة . والوقاح - بالفتح - : شديدة وقع الخف على الأرض .

(٥) قوله «الزماورد» هو الرقاق المحشو باللحم . (ع)

(٦) أخرجه الثعلبي من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد . وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولا .

وقيل : ما كان أحد يستطيع وصف يوسف . وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه . وقيل : ورث الجمال من جدته سارة . وقيل : أكبرن بمعنى حضن ، والهاء للسكت . يقال : أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته : دخلت فى الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر ، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله :

خَفِ اللهَ وَٱسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ ... فَإِنْ لُحْتَ حَاضَتْ فِى الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ (١)

﴿ وقطعن أيديهن ﴾ جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدى ، تريد : جرحتها ﴿ حاشا ﴾ كلمة تفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء . تقول : أساء القوم حاشا زيد . قال :

حَاشَا أَبِى ثَوْبَانَ إِنَّ بِهِ ... ضَنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشَّتْمِ (٢)

وهى حرف من حروف الجر ، فوضعت موضع التنزيه والبراءة ، فمعنى «حاشا الله» براءة الله وتنزيه الله ، وهى قراءة ابن مسعود ، على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة . ومن قرأ : حاشا لله ، فنحو قولك : سقيا لك ؛ كأنه قال : براءة ، ثم قال : لله ، لبيان من يبرأ وينزه . والدليل على تنزيل «حاشا» منزلة المصدر : قراءة أبى السمال : (حاشاً لله) ، بالتنوين . وقراءة أبى عمرو (حاش لله) بحذف الألف الآخرة . وقراءة الأعمش (حشا لله) بحذف الألف الأولى . وقرئ (حاش لله) بسكون الشين ، على أن الفتحة تبعت الألف فى الإسقاط ، وهى ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حده . وقرئ : حاشا الإله . فإن قلت : فلم جاز فى حاشا لله أن لا ينون بعد إجرائه مجرى : براءة لله ؟ قلت : مراعاة لأصله الذى هو الحرفية . ألا ترى إلى

---

(١) لأبى الطيب ، يقول : اتق الله واستر هذا الجمال الذى فى وجهك ببرقع ، لأنك إن ظهرت حاضت العواتق ، أى خيار النساء وهن فى خدورهن ، لما ينظرن من جمالك . ولاح يلوح : ظهر يظهر .

(٢)
حاشا أبى ثوبان إن أبا ... ثوبان ليس ببكمة فدم
عمرو بن عبد الله إن به ... ضنا عن الملحاة والشتم

المنقذ بن الطماح وهو الجميح الأسدى . وحاشا : كلمة تبرئة وتنزيه واقعة موقع المصدر مضافة لما بعدها ، كسبحان الله . ويجوز أنها حاشا الاستثنائية ، وهى حرف جر عند الأكثر . ورواه الضبي : حاشا أبا ثوبان بالنصب ، فهو فعل ، واحتمال لغة القصر ضعيف لشهرة لغة الاعراب بالحروف . وعلى الأول فبناؤها لمشابهتها للحرفية لفظا ومعنى . وبكم الرجل ـ كتعب ـ : إذا عجز عن الكلام . وفدم كسهل وظرف ، إذا عجز عن الحجة كأن فمه مسدود . والضن ـ بالكسر ـ : البخل . والملحاة : مفعلة ، من لحاه إذا لامه . واللحاء ـ كالرداء ـ مفاعلة من اللحى والعذل ، من لحوت العود إذا قشرته . وتكرير أبى ثوبان لتعظيمه والتنويه باسمه ، ليس ببكمة بالضم ، أى ذى بكمة ، أى : ليس بأبكم ، ولا فدم : أى عاجز عن الكلام . وعمرو : قيل إنه بدل من أبى ثوبان ، فقوله : إن أبا ثوبان الخ : جملة اعتراضية مبينة لوجه التنزيه . وفى قوله : إن به ضنا ، بيان لوجه سكوته عن مؤاخذة اللئام . والمعنى : إن به امتناعا وتنزها عن اللؤم والشتم .

قولهم : جلست من عن يمينه ، كيف تركوا «عن» غير معرب على أصله ؟ وعلى[1] فى قوله «غدت من عليه» منقلب الألف إلى الياء مع الضمير ؟ والمعنى : تنزيه الله تعالى من صفات العجز ، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله . وأما قوله (حاشا لله ما علمنا عليه من سوء) فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ماهذا بشراً﴾ نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه[2] ، لما عليه محاسن الصور ، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم ، وذلك لأن الله عز وجل ركز فى الطباع أن لا أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه فى الحسن والقبح بهما ، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك ، كما ركز فى الطباع أن لا أدخل فى الشر من الشياطين ، ولا أجمع للخير من الملائكة ، إلا ما عليه الفئة الخاسئة[3] المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك ، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق ، وجحودهم للعلوم الضرورية ، ومكابرتهم فى كل باب ، وإعمال «ما» عمل «ليس» هى اللغة القدمى الحجازية[4] وبها ورد القرآن . ومنها قوله تعالى (ما هنّ أمهاتهم) ومن قرأ على سليقته من بنى تميم ، قرأ (بشر) بالرفع . وهى فى قراءة ابن مسعود . وقرئ : ما هذا بشرى ، أى ما هو بعبد مملوك لئيم ﴿إن هـذا إلا ملك كريم﴾ تقول هذا بشرى . أى حاصل بشرى ، بمعنى : هذا مشرى . وتقول ؛ هذا لك بشرى أم بكرى ؟ والقراءة هى الأولى ، لموافقتها المصحف ؛ ومطابقة بشر لملك ﴿قالت فذلكنّ﴾ ولم تقل فهذا وهو حاضر[5] ، رفعاً لمنزلته فى الحسن ، واستحقاق أن يحب ويفتتن به ، وربئاً بحاله واستبعاداً

---

(١) قوله «على أصله وعلى فى قوله» عطفه يحتاج إلى تكلف ، أى : وإلى قوله غدت من عليه بعد ماتم ظمؤها كيف ترك على فى قوله . ويمكن أن التقدير : ألا ترى إلى قولهم الخ وعلى فى قوله أى : وألا ترى على ... الخ . (ع)

(٢) قال محمود : «نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه ... الخ» قال أحمد : تقدم القول فى مسئلة التفضيل شافياً ، والزمخشرى لايدعه التعصب للمعتقد الفاسد أن يحمله على مثل هذه المشافهات ، يرمى بها أهل الحق فينسب إليهم الاجبار والخسار والمكابرة فى الضروريات وجحد الحقائق تعكيساً ، وهذا كله هم برآء منه ، وحسبه من المقابلة بذلك خطؤه فى اعتقاد أن تفضيل الملك عند قائله ليس ضروريا ولاعقلياً نظريا ، ولكن سمعياً ، وقد قنع فى الاستدلال على هذه العقيدة بالضرورة التى ادعى أنها مركوزة فى الطباع ، ثم حكم بأن كل مركوز فى الطباع حق ، وخصوصاً والكلام فى طباع النساء القائلات : ما هذا بشرا . وإذا كان كل مركوز فى الطباع حقاً ، فما ركز فيها حب الشهوات وإيثار العاجلة وجميع أمهات الذنوب مركوز فى الطباع ، أفيكون ذلك حقاً إلا عند ناظر بعين الهوى ، أعشى فى سبيل الهدى ، والله ولى التوفيق .

(٣) قوله «إلا ماعليه الفئة الخاسئة» يريد أهل السنة ، وقد أساء فى تعصبه للمعتزلة فعفا الله عنه . (ع)

(٤) قوله «ليس هى اللغة القدمى الحجازية» بمعنى القديمة ، لكن لم يذكرها فى الصحاح . (ع)

(٥) قال محمود : «ولم لم تقل فهذا وهو حاضر ... الخ» قال أحمد : وبهذا أجبت عما أورده من السؤال فى قوله تعالى أول البقرة (الم ذلك الكتاب) لما جعل الاشارة إلى الحروف المذكورة فقال : إن قلت كيف أشار إليها وهي قريبة كما يشار إلى البعيد ، وأجاب هو بأن كل متقض بعيد ، وأجبت أنا بأن الاشارة بذلك إلى بعد منزلة هذا الكتاب بالنسبة إلى كتب الله تعالى .

لمحله . ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنىّ بقولهنّ : عشقت عبدها الكنعانى . تقول : هو ذلك العبد الكنعانى الذى صوّرتن فى أنفسكنّ ، ثم لمتننى فيه . تعنى : أنكن لم تصوّرنه بحق صورته . ولو صوّرتنه بما عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به . الاستعصام : بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها . ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأى واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شىء أنور منه ، على أنه برىء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهمّ والبرهان . فإن قلت : الضمير فى ﴿آمره﴾ راجع إلى الموصول ، أم إلى يوسف ؟ قلت : بل إلى الموصول . والمعنى : ما آمر به ، فحذف الجار كما فى قولك : أمرتك الخير ، ويجوز أن تجعل «ما» مصدرية ، فيرجع إلى يوسف . ومعناه : ولئن لم يفعل أمرى إياه ، أى موجب أمرى ومقتضاه . قرئ (وليكونا) بالتشديد والتخفيف . والتخفيف أولى ، لأنّ النون كتبت فى المصحف ألفاً على حكم الوقف ، وذلك لا يكون إلا فى الخفيفة .

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

وقرئ (السجن) بالفتح ، على المصدر . وقال ﴿يدعوننى﴾ على إسناد الدعوة إليهن جميعاً ، لأنهنّ تنصحن له وزينّ له مطاوعتها ، وقلن له : إياك وإلقاء نفسك فى السجن والصغار ، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال : ربّ نزولُ السجن أحبّ إلىّ من ركوب المعصية . فإن قلت : نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه إليه لذة عظيمة ، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة ؟ قلت : كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظراً فى حسن الصبر على احتمالها لوجه الله ، وفى قبح المعصية ، وفى عاقبة كل واحدة منهما ، لا نظراً فى مشتهى النفس ومكروهها ﴿وإلا تصرف عنى كيدهنّ﴾ فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته ، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر ، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف والإلجاء إليه ﴿أصب إليهنّ﴾ أمل إليهنّ . والصبوة : الميل إلى الهوى . ومنها : الصبا ؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها . وقرئ : أصب إليهنّ ، من الصبابة ﴿من الجاهلين﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون . لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء . أو من السفهاء ، لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح . وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء ، لأنّ قوله (وإلا تصرف عنى)

فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ﴿السميع﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥)

﴿بدالهم﴾ فاعله مضمر، لدلالة ما يفسره عليه وهو: ليسجننه، والمعنى: بدالهم بداء، أى: ظهر لهم رأى ليسجننه، والضمير فى ﴿لهم﴾ للعزيز وأهله ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ وهى الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها. وفتلها منه فى الذروة والغارب[1] وكان مطواعة لها وجميلا ذلولا زمامه فى يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها فى سجنه وإلحاق الصغار به كما أوعدته به، وذلك لما أيست من طاعته لها، أو لطمعها فى أن يذلله السجن ويسخره لها. وفى قراءة الحسن: لتسجننه، بالتاء على الخطاب: خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم ﴿حتى حين﴾ إلى زمان، كأنها اقترحت أن يسجن زمانا حتى تبصر ما يكون منه. وفى قراءة ابن مسعود: عتى حين، وهى لغة هذيل. وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقرأ (عتى حين) فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود. فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربيا وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل، والسلام.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)

«مع» يدل على معنى الصحبة واستحداثها. تقول: خرجت مع الأمير، تريد مصاحبا له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿فتيان﴾ عبدان للملك: خبازه وشرابيه: رقى إليه أنهما يسمانه،[2] فأمر بهما إلى السجن، فأدخلا ساعة أدخل يوسف عليه السلام ﴿إنى أرانى﴾ يعنى فى المنام، وهى حكاية حال ماضية ﴿أعصر خمرا﴾ يعنى عنبا، تسمية للعنب بما يؤول إليه. وقيل: الخمر ـ بلغة عمان ـ: اسم للعنب. وفى قراءة ابن مسعود: أعصر عنبا ﴿من المحسنين﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، أى: يجيدونها، رأياه يقص عليه بعض أهل السجن

---

(١) قوله «وفتلها منه فى الذروة» أى دورانها من وراء خديعته. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «رقى إليه أنهما يسمانه» فى الصحاح: رقى إليه الكلام ترقية، أى: رفع إليه. (ع)

رؤياه فيؤولها له، فقالا له ذلك. أو من العلماء، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم. أو من المحسنين إلى أهل السجن. فأحسن إلينا بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد فى تأويل الرؤيا. روى أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاق وسع له، وإذا احتاج جمع له. وعن قتادة: كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا. اصبروا تؤجروا، إنّ لهذا لأجرا، فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك! لقد بورك لنا فى جوارك، فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفىّ الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خليت سبيلك، ولكنى أحسن جوارك، فكن فى أى بيوت السجن شئت. وروى أن الفتيين قالا له إنا لنحبك من حين رأيناك، فقال: أنشدكما بالله أن لا تحبانى، فوالله ما أحبنى أحد قط إلا دخل علىّ من حبه بلاء، لقد أحبتنى عمتى فدخل علىّ من حبها بلاء، ثم أحبنى أبى فدخل علىّ من حبه بلاء، ثم أحبتنى زوجة صاحبي فدخل علىّ من حبها بلاء، فلا تحبانى ـ بارك الله فيكما ـ وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابى: إنى أرانى فى بستان، فإذا بأصل حبلة [1] عليها ثلاثة عناقيد من عنب، فقطفتها وعصرتها فى كأس الملك، وسقيته. وقال الخباز: إنى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة، وإذا سباع الطير تنهش منها. فإن قلت: إلام يرجع الضمير فى قوله (نبئنا بتأويله)؟ قلت: إلى ما قصا عليه. والضمير يجرى مجرى اسم الإشارة فى نحوه كأنه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترص ذلك [2] فوصل به وصف نفسه بما هو فوق

(١) قوله «فإذا بأصل حبلة» فى الصحاح «الحبلة» بالضم: ثمر العضاه. وفيه «العضاه» كل شجر يعظم وله شوك والحبلة ـ بالتحريك ـ: القضيب من الكرم. وفيه أيضا: سلة الخبز معروفة. (ع)

(٢) قوله «افترص ذلك» أى اتخذه فرصة، أى نوبة وحظا ونصيبا، أفاده الصحاح. (ع)

علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام فى السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ، ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كما أخبرهما ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله ، وهذه طريقة على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة ، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولا ، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك ، وفيه أنّ العالم إذا جهلت منزلته فى العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ـ وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به فى الدين ـ لم يكن من باب التزكية ﴿ بتأويله ﴾ ببيان ماهيته وكيفيته : لأنّ ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿ ذلكما ﴾ إشارة لهما إلى التأويل ، أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿ مما علمنى ربى ﴾ وأوحى به إلىّ ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿ إنى تركت ﴾ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ ، وأن يكون تعليلا لما قبله . أى علمنى ذلك وأوحى إلىّ : لأنى رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهى الملة الحنيفية ، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون : أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم ، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة ، وأنّ غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها ، وهم الذين على ملة إبراهيم ، ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التى لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء . ويجوز أن يكون فيه تعريض بما منى به من جهتهم حين أودعوه السجن ، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته ، وأنّ ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوّة بعد أن عرّفهما أنه نبىّ يوحى إليه ، بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما فى الاستماع إليه واتباع قوله ﴿ ما كان لنا ﴾ ماصحّ لنا معشر الأنبياء ﴿ أن نشرك بالله ﴾ أى شىء كان من ملك أو جنىّ أو إنسىّ ، فضلا أن نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر ، ثم قال ﴿ ذلك ﴾ التوحيد ﴿ من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ أى على الرسل وعلى المرسل إليهم ؛ لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ المبعوث إليهم ﴿ لا يشكرون ﴾ فضل الله فيشركون ولا يتنبهون . وقيل : إنّ ذلك من فضل الله علينا لأنه نصب لنا الأدلة التى ننظر فيها ونستدلّ بها . وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعا لأهوائهم ، فيبقون كافرين غير شاكرين .

يَـٰصَـٰحِبَىِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

مَاتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّاأَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

سُلْطَـٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

﴿ياصاحبى السجن﴾ يريد ياصاحبىَّ فى السجن ، فأضافهما إلى السجن كما تقول : ياسارق الليلة ، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام ، ونحوه قولك لصاحبيك : ياصاحبى الصدق فتضيفهما إلى الصدق ، ولا تريد أنهما صحبا الصدق ، ولكن كما تقول رجلا صدق ، وسميتهما صاحبين لأنهما صحباك . ويجوز أن يريد : ياساكنى السجن ، كقوله (أصحاب النار وأصحاب الجنة) ﴿أأرباب متفرقون﴾ يريد التفرق فى العدد والتكاثر . يقول أأن تكون لكما أرباب شتى ، يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا ﴿خير﴾ لكما ﴿أم﴾ أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك فى الربوبية ، بل هو ﴿القهار﴾ الغالب ، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام ﴿ما تعبدون﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر ﴿إلا أسماء﴾ يعنى أنكم سميتم مالا يستحق الإلهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها . ومعنى ﴿سميتموها﴾ سميتم بها . يقال : سميته بزيد ، وسميته زيداً ﴿ماأنزل الله بها﴾ أى بتسميتها ﴿من سلطان﴾ من حجة ﴿إن الحكم﴾ فى أمر العبادة والدين ﴿إلا لله﴾ ثم بين ماحكم به فقال ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾ الثابت الذى دلت عليه البراهين .

يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

﴿أما أحدكما﴾ يريد الشرابى ﴿فيسقى ربه﴾ سيده . وقرأ عكرمة : فيسقى ربه ، أى يسقى مايروى به على البناء للمفعول . روى أنه قال للأول : مارأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده ؛ وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضى فى السجن ، ثم تخرج وتعود إلى ماكنت عليه ، وقال للثانى : مارأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ﴿قضى الأمر﴾ قطع وتم ما ﴿تستفتيان﴾ فيه من أمركما وشأنكما . فإن قلت : ما استفتيا فى أمر واحد ، بل فى أمرين مختلفين ، فما وجه التوحيد ؟ قلت : المراد بالأمر مااتهما به من سم الملك وما سجنا من أجله ، وظنا أن مارأياه فى معنى ما نزل بهما ، فكأنهما كانا يستفتيانه فى الأمر الذى نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك ، فقال لهما : قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، أى : مايجتر إليه من العاقبة ، وهى هلاك أحدهما ونجاة الآخر . وقيل : جحدا وقالا : مارأينا شيئاً ، على ماروى

أنهما تحالما له ، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما .

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

﴿ظنّ أنه ناج﴾ الظانّ هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد ، وإن كان بطريق الوحى فالظان هو الشرابى ، ويكون الظنّ بمعنى اليقين ﴿اذكرنى عند ربك﴾ صفنى عند الملك بصفتى ، وقص عليه قصتى لعله يرحمنى وينتاشنى من هذه الورطة ﴿فأنساه الشيطان﴾ فأنسى الشرابى ﴿ذكر ربه﴾ أن يذكره لربه . وقيل فأنسى يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره ﴿بضع سنين﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين . فإن قلت : كيف يقدر الشيطان على الإنسان ؟ قلت : يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشىء من أسباب النسيان ، حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره . وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل (ما ننسخ من آية أو ننسها) . فإن قلت : ماوجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك ؟ وما هى بإضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول ؟ قلت : قدلابسه فى قولك : فأنساه الشيطان ذكر ربه ، أو عند ربه فجازت إضافته إليه ، لأنّ الإضافة تكون بأدنى ملابسة . أو على تقدير : فأنساه الشيطان ذكر أخبار ربه ، فحذف المضاف الذى هو الإخبار . فإن قلت : لم أنكر على يوسف الاستغاثة بغير الله فى كشف ما كان فيه ، وقد قال الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وقال حكاية عن عيسى عليه السلام (من أنصارى إلى الله) وفى الحديث «والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه المسلم»[1] «من فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربة من كربات الآخرة» وعن عائشة رضى الله عنها : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذه النوم ليلة من الليالى ، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت غطيطه[2] . وهل ذلك إلا مثل التداوى بالأدوية والتقوّى بالأشربة والأطعمة . وإن كان ذلك لأنّ الملك كان كافراً ، فلا خلاف فى جواز أن يستعان بالكفار فى دفع الظلم والغرق والحرق ونحو ذلك من المضارّ ؟ قلت : كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خليقته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث .

(٢) متفق عليه من طريق عبد الله بن عامر بن ربيعة عنها بلفظ «أرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة . فقال : ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة . قال : وسمعت صوت السلاح فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال سعد بن أبى وقاص : يارسول الله جئت أحرسك . فقالت عائشة فنام حتى سمعت غطيطه» وغفل الحاكم فاستدركه .

والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلى ببلاء إلا إلى ربه ، ولا يعتضد إلا به ، خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً ؛ لئلا يشمت به الكفار ويقولوا لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا . وعن الحسن أنه كان يبكى إذا قرأها ويقول : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)

لما دنا فرج يوسف ، رأى ملك مصر «الريان بن الوليد» رؤيا عجيبة هالته : رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس . وسبع بقرات عجاف ، فابتلعت العجاف السمان . ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، فاستعبرها فلم يجد فى قومه من يحسن عبارتها ﴿سمان﴾ جمع سمين وسمينة ، وكذلك رجال ونسوة كرام . فإن قلت : هل من فرق بين إيقاع (سمان) صفة للمميز وهو (بقرات) دون المميز وهو (سبع) وأن يقال : سبع بقرات سمانا ؟ قلت : إذا أوقعتها صفة لبقرات . فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهى السمان منهنّ لا بجنسهنّ . ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن . فإن قلت : هلا قيل : سبع عجاف على الإضافة ؟ قلت ، التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده . فإن قلت : فقد يقولون : ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب . قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها : صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها مالم يجز فى غيرها . ألا تراك لا تقول : عندى ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ . فإن قلت : ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه . ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، لوقوع العلم بأنّ المراد البقرات ؟ قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ، وقد وقع الاستغناء بقولك (سبع عجاف) عما تقترحه من التمييز بالوصف . والعجف : الهزال الذى ليس بعده ، والسبب فى وقوع «عجاف» جمعا «لعجفاء» وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال : حمله على سمان ، لأنه نقيضه ، ومن دأبهم حمل النظير على النظير ، والنقيض على النقيض . فإن قلت : هل فى الآية دليل على أنّ السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر ؟ قلت : الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد

فى البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع ، ويكون قوله (وأخر يابسات) بمعنى وسبعاً أخر . فإن قلت : هل يجوز أن يعطف قوله (وأخر يابسات) على (سنبلات خضر) فيكون مجرور المحل ؟ قلت : يؤدى إلى تدافع ، وهو أن عطفها على (سنبلات خضر) يقتضى أن تدخل فى حكمها فتكون معها مميزاً للسبع المذكورة ، ولفظ الآخر يقتضى أن تكون غير السبع ، بيانه : أنك تقول : عندى سبعة رجال قيام وقعود ، بالجر ، فيصح ؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود ، على أنّ بعضهم قيام وبعضهم قعود ؛ فلو قلت : عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود ، تدافع ففسد ﴿ياأيها الملأ﴾ كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء . واللام فى قوله ﴿للرؤيا﴾ إما أن تكون للبيان ، كقوله (وكانوا فيه من الزاهدين) وإما أن تدخل ؛ لأنّ العامل إذا تقدّم عليه معموله لم يكن فى قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه ، فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل ، إذا قلت : هو عابر للرؤيا ، لانحطاطه عن الفعل فى القوة . ويجوز أن يكون الرؤيا خبر كان ، كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلا به متمكنا منه . و﴿تعبرون﴾ خبر آخر . أو حال ، وأن يضمن (تعبرون) معنى فعل يتعدى باللام ، كأنه قيل : إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا . وحقيقة «عبرت الرؤيا» ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، كما تقول : عبرت النهر ، إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره [1] . ونحوه : أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها . وعبرت الرؤيا ـ بالتخفيف ، هو الذى اعتمده الأثبات ، ورأيتهم ينكرون «عبرت» بالتشديد والتعبير والمعبر . وقد عثرت على بيت أنشده المبرد فى كتاب الكامل لبعض الأعراب :

رَأَيْتُ رُؤْيَا ثُمَّ عَبَرْتُهَا وَكُنْتُ لِلْأَحْلَامِ عَبَّارَا [2]

* * *

قَالُوا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿أضغاث أحلام﴾ تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان . وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، الواحد : ضغث ، فاستعيرت لذلك ،

(١) قوله «آخر عرضه وهو عبره» فى الصحاح : «عبر النهر ، وعبر شطره وجانبه . (ع)

(٢) أنشده المبرد فى كتابه . والرؤيا ـ بالألف : مصدر رأى المنامية ، ويقل مجيئه بالتاء . ومصدر البصرية بالعكس ، وعبرت الرؤيا ـ بالتخفيف وبالتضعيف كما هنا ـ : ذكرت عاقبتها وأدركت غايتها كأولتها ، إذا ذكرت مآلها ومرجعها . والأحلام : جمع حلم بالضم ، وهو مايراه النائم . والعبار : مبالغة فى المعبر أو فى العابر ، واللام تزاد فى المعمول لتقوية العامل إذا ضعف بالتأخر ، أو بكونه فرعا عن الفعل ، وقد اجتمع الأمران ههنا فزيدت اللام .

والإضافة بمعنى «من» أى أضغاث من أحلام. والمعنى: هى أضغاث أحلام. فإن قلت: ما هو إلا حلم واحد، فلم قالوا: أضغاث أحلام فجمعوا؟ قلت: هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة، تزيدا فى الوصف، فهؤلاء أيضاً تزيدوا فى وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه أضغاث أحلام. ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة [1] خاصة، فيقولوا: ليس لها عندنا تأويل، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا فى تأويل الأحلام بنحارير [2].

وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾

قرئ ﴿وادكر﴾ بالدال وهو الفصيح. وعن الحسن: واذكر، بالذال المعجمة. والأصل: تذكر، أى تذكر الذى نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه ﴿بعد أمة﴾ بعد مدة طويلة، وذلك أنه حين استفتى الملك فى رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها. تذكر الناجى يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك. وقرأ الأشهب العقيلى (بعد إمة) بكسر الهمزة، والإمة النعمة. قال عدى:

ثُمَّ بَعْدَ ٱلْفَلَاحِ وَٱلْمُلْكِ وَٱلْإِمَّـــةِ وَارَتْهُمْ هُنَـــاكَ ٱلْقُبُورُ [3]

---

(١) قال محمود: «يحتمل أن يكون مرادهم بالأحلام المنامات ... الخ» قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحمل الكلام على الأول يصيره من وادى:

«على لاحب لا يهتدى بمناره»

كأنهم قالوا: ولا تأويل للأحلام الباطلة فنكون به عالمين. وقول الملك لهم أولا (إن كنتم للرؤيا تعبرون) دليل على أنهم لم يكونوا فى علمه عالمين بها، لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقا لشك الملك الذى أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أولا. وقول الفتى: أنا أنبئكم بتأويله ـ إلى قوله ـ لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون: دليل أيضا على ذلك. والله أعلم.

(٢) قوله «بنحارير» جمع نحرير وهو العالم المتقن، كما فى الصحاح. (ع)

(٣)
أين كسرى كسرى الملوك أبوسا ـــ سان بل أين قبله سابور
ثم بعد الفلاح والملك والإمـــة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

لعدى بن زيد. وكسرى وساسان وسابور: أسماء ملوك وساسان: هو أبو الأكاسرة. ويروى: أنو شروان، بدل أبوساسان؛ فهو كلمة واحدة. وكسرى الثانى بدل من الأول، مضاف لما بعده؛ كما يقال: ملك الملوك، وهو فارسى معرب، وأصله خسرو، فغيرته العربية. وإن كان عربيا مأخوذا من الكسر؛ فالمعنى أنه كان يكسر شوكة الملوك، وما بعده عطف بيان له وقبله متعلق بمحذوف حال من سابور وفى «بل» دلالة على أن سابور أعظم منهما. وثم ـ بالفتح ـ ظرف خبر لمحذوف أى هم ثم. وإن ضمت فهى عاطفة على محذوف، أى أفلحوا ثم بعد الفلاح، أى البقاء أو الفوز والملك. ويروى =

أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة. وقرئ (بعد أمه) بعد نسيان [1]. يقال: أمه يأمه أمها، إذا نسي. ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ [2] ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ أنا أخبركم به عمن عنده علمه. وفى قراءة الحسن: أنا آتيكم بتأويله ﴿فأرسلون﴾ فابعثونى إليه لأسأله، ومرونى باستعباره. وعن ابن عباس: لم يكن السجن فى المدينة.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

المعنى فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه فقال ﴿يوسف أيها الصديق﴾ أيها البليغ فى الصدق، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول، ولذلك كلمه كلام محترز فقال ﴿لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ لأنه ليس على يقين من الرجوع، فربما اخترم دونه ولا من علمهم فربما لم يعلموا. أو معنى (لعلهم يعلمون) لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿تزرعون﴾ خبر فى معنى الأمر، كقوله: (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون) وإنما يخرج الأمر فى صورة الخبر للمبالغة فى إيجاب إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه. والدليل على كونه فى معنى الأمر قوله (فذروه فى سنبله). ﴿دأبا﴾ بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدرا: دأب فى العمل، وهو حال من المأمورين، أى دائبين: إمّا على تدأبون دأبا، وإمّا على إيقاع المصدر حالا، بمعنى: ذوى دأب ﴿فذروه فى سنبله﴾ لئلا يتسوس. و﴿يأكلن﴾

ـــــــــــــــــــ

= بدله «الرشد». والامة ـ بالكسر ـ: النعمة، وبالضم: الجيش العظيم. وارتهم: أى سترتهم قبورهم فى ذلك المكان، كناية عن موتهم، فيدفنون فى باطن الأرض بعد عظمتهم على وجهها، ثم شبههم بالورق الذى جف فاختلفت به الصبا والدبور، فهذه نظيرة كذا وهذه نظيرة كذا، فألوت بمعنى التوت، أو بمعنى: أوقعت به اللى، يعنى تطاول بهم الزمان حتى تفتتت عظامهم وصارت كذلك

(١) قوله «وقرئ بعد أمه بعد نسيان» لعله أى بعد. (ع)

(٢) قوله «ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ» بمعنى أثم من الخطأ بالكسر، وهو الاثم. أفاده الصحاح. (ع)

من الإسناد المجازى : جعل أكل أهلهن مسنداً إليهن ﴿ تحصنون ﴾ تحرزون وتخبؤن ﴿ يغاث الناس ﴾ من الغوث أو من الغيث . يقال: غيثت البلاد ، إذا مطرت . ومنه قول الأعرابية : غثنا ماشئنا . ﴿ يعصرون ﴾ بالياء والتاء : يعصرون العنب والزيتون والسمسم . وقيل : يحلبون الضروع . وقرئ : يعصرون ، على البناء للمفعول ، من عصره إذا أنجاه ، وهو مطابق للإغاثة . ويجوز أن يكون المبنى للفاعل بمعنى ينجون ، كأنه قيل : فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم ، أى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً وقيل (يعصرون) يمطرون ، من أعصرت السحابة . وفيه وجهان : إمّا أن يضمن أعصرت معنى مطرت ، فيعدّى تعديته . وإمّا أن يقال : الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل . تأوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنّ العام الثامن يجيء مباركا خصيباً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحى . وعن قتادة : زاده الله علم سنة . فإن قلت : معلوم أنّ السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب ، وإلا لم توصف بالانتهاء ، فلم قلت إنّ علم ذلك من جهة الوحى ؟ قلت: ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلا . وقوله (فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) تفصيل لحال العام ، وذلك لا يعلم إلا بالوحى .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

إنما تأنى وتثبت فى إجابة الملك ، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف[1] به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون[2] إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا ما خلد فى السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شرّه . وفيه دليل على أنّ الاجتهاد فى نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها ، قال عليه السلام :

(١) قال محمود : « إنما تأنى وتثبت فى إجابة الملك لتظهر براءة ساحته عما قرف به... الخ » قال أحمد : ولقد مدحه النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الأناة بقوله : ولو لبثت فى السجن بعض مالبث يوسف لأجبت الداعى ، وكان فى طيّ هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم من أنه هم بزليخا هما يؤاخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له أن لا يصبر فيه وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعى متوفرة على الخروج منه ، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم أولى وأجدر ، والله أعلم .

(٢) قوله « عما قرف به الخ » أى اتهم به . والتسلق : التوسل . (ع)

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم [١]» ومنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ للمارّين به في معتكفه وعنده بعض نسائه ـ «هي فلانة» [٢] اتقاء للتهمة، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ـ والله يغفر له ـ حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني. ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك. ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث، لأسرعت الإجابة [٣] وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر، إن كان لحليما ذا أناة». وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل سله أن يفتش عن شأنهن، لأنّ السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة وفصّ الحديث [٤] حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ (النسوة) بضم النون. ومن كرمه وحسن أدبه: أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهنّ ﴿إنّ ربي﴾ إنّ الله تعالى ﴿بكيدهنّ عليم﴾ أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله، لبعد غوره. أو استشهد بعلم الله على أنهنّ كدنه، وأنه بريء مما قرف به. أو أراد الوعيد لهنّ، أى: هو عليم بكيدهنّ فمجازيهنّ عليه ﴿ما خطبكنّ﴾ ما شأنكنّ ﴿إذ راودتنّ يوسف﴾ هل وجدتنّ منه ميلا إليكنّ ﴿قلن حاش لله﴾ تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها ﴿قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق﴾ أى ثبت واستقر. وقرئ (حصحص) على البناء للمفعول، وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثفناته [٥] للإناخة. قال

---

(١) يأتى فى الأحزاب.

(٢) متفق عليه من حديث على بن الحسين عن صفية بنت حيى قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف فأتيته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت فانقلبت فقام معى ليقلبنى. وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الانصار. فلما رأياه أسرعا. فقال: على رسلكما، إنها صفية ـ الحديث»

(٣) أخرجه عبد الرزاق والطبرى من طريقه عن ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة بهذا بدون قوله «إن كان لحليما ذا أناة» وصله إسحاق من رواية إبراهيم بن يزيد الجوزى عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس بمعناه وزاد: ولولا الكلمة التى قالها مالبث فى السجن حتى يبتغى الفرج من عند غير الله ـ يعنى قوله (اذكرنى عند ربك) وأخرجه الطبرانى وابن مردويه من طريق إسحاق. وأما قوله «إن كان لحليما ذا أناة» فأخرج الطبرى من رواية أبى إسحاق عن رجل لم يسم عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «يرحم الله يوسف، لوكنت أنا المحبوس ثم أرسل إلى لخرجت سريعا، إن كان لحليما ذا أناة» ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق عن عبد الله ابن أبى بكر عن الزهرى وعن الأعرج عن أبى هريرة.

(٤) قوله «وفص الحديث» فى الصحاح «فص الأمر» مفصله. (ع)

(٥) قوله «ألقى ثفناته للاناخة» هى مايقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما، كذا فى الصحاح. (ع)

فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثَفِنَاتِهِ   وَنَاءَ بِسَلْمَى نَوْءَةً ثُمَّ صَمَّمَا (١)

ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة (٢) واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به، لأنهنّ خصومه. وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل، لم يبق لأحد مقال. وقالت المجبرة والحشوية (٣) نحن قد بقي لنا مقال، ولا بدّ لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته.

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

﴿ذلك ليعلم﴾ من كلام يوسف، (٤) أي ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز ﴿أني لم أخنه﴾ بظهر الغيب في حرمته. ومحل ﴿بالغيب﴾ الحال (٥) من الفاعل أو المفعول، على معنى: وأنا غائب عنه خفي عن عينه أو وهو غائب عني خفي عن عيني. ويجوز أن يكون ظرفا، أي بمكان الغيب، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة ﴿و﴾ ليعلم ﴿أنّ الله لا يهدى كيد الخائنين﴾ لا ينفذه ولا يسدده، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها، وبه في خيانته أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه. ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سدده.

---

(١) لحميد بن ثور يصف بعيرا بأنه ألقى في الحجارة الصلبة أعضاءه التي يبرك عليها عند الاناخة، والصم جمع صماء أو أصم أي صلب. وناء: أي قام متثاقلا بسلمى محبوبتي نوأة ونهضة واحدة لم يتردد، ثم صمم وعزم على السير. وروى أن سمرة بن جندب أتي برجل عنين، فاشترى له جارية من بيت المال وأدخلها معه ليلة، فلما أصبح قال له: ماصنعت؟ قال: فعلت حتى حصحصت فيه، فسألها فقالت: لم يصنع شيئا. فقال: خل سبيلها.

(٢) قال محمود: «ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة واعترافهن على أنفسهن ... الخ» قال أحمد: الصحيح من مذاهب أهل السنة تنزيه الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعا، وتتبع الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل. وذهب منهم طائفة مع القدرية إلى تجويز الصغائر عليهم، بشرط أن لا تكون منفرة. والصحيح عندنا في قصة يوسف عليه السلام أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به، وإن الوقف عند قوله (همت به) ثم يبتدأ (وهم بها. لولا أن رأى برهان ربه) كما تقول. قتلت زيداً لولا أنني أخاف الله، فلا يكون الهم واقعا لوجود المانع منه، وهو رؤية البرهان. فان كان الزمخشري يعرض بأهل السنة فقد بينا معتقدهم، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة، فشأنه وإياهم.

(٣) قوله «وقالت المجبرة والحشوية نحن قد بقي لنا مقال ولابد لنا من أن ندق في فروة» يريد أهل السنة وقوله نحن قد بقي لنا الخ يعني أن ما لهم في تفسير الهم والبرهان يمثل بذلك. والفروة: جلدة الرأس. (ع)

(٤) عاد كلامه. قال: «وقوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) الخ: من كلام يوسف عليه السلام والمعنى أن ذلك الجد في ظهور البراءة ليعلم ... الخ» قال أحمد: وإرادته لعموم الأحوال أدخل في تنزيهه، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه والتبرى من تزكية النفس، فهو أدل على هذا المعنى من حمله على الحادثة الخاصة والله أعلم.

(٥) قوله «ومحل بالغيب الحال من الفاعل» لعله محل الحال أو النصب على الحال. (ع)

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكيا وبحالها فى الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» (١) وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال ﴿وما أبرئ نفسى﴾ من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها. ولا يخلو، إما أن يريد فى هذه الحادثة، لما ذكرنا من الهم الذى هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم. وإما أن يريد به عموم الأحوال ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ أراد الجنس، أى إن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات ﴿إلا ما رحم ربى﴾ إلا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة كالملائكة. ويجوز أن يكون (ما رحم) فى معنى الزمن، أى: إلا وقت رحمة ربى، يعنى أنها أمارة بالسوء فى كل وقت وأوان، إلا وقت العصمة. ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أى: ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الإساءة، كقوله (ولا هم ينقذون إلا رحمة) وقيل معناه: ذلك ليعلم أنى لم أخنه لأن المعصية خيانة. وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، (٢) أى ذلك الذى قلت ليعلم

(١) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة، دون قوله «ولا فخر» وذكره باثباتها أبو نعيم فى الدلائل، من رواية سهيل عن أبيه عنه فى أثناء حديث. ورواه ابن أبى عاصم فى الآداب له من حديث عائشة باثباتها. وأخرجه ابن حبان من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وواثلة وأبى بكر الصديق. ورواه الترمذى من رواية أبى نضرة عن أبى سعيد بلفظ «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» الحديث وقال: حسن. ورواه بعضهم عن أبى نضرة عن ابن عباس. وهو عند أحمد وأبى يعلى وأبى نعيم والبيهقى فى الدلائل. وهما من طريق أبى نضرة قال: خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فذكره. ولحديث ابن عباس طريق آخر أخرجها الدارقطنى فى الأفراد من رواية خارجة بن مصعب. وهو ضعيف عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وأخرى عن ابن مردويه فى أثناء حديث الاسراء باسناد واه. وفى الباب عن عبادة بن الصامت عند الحاكم وإسناده منقطع وعن أنس عن البزار. وفيه مبارك بن سحيمة. وهو متروك، وعند أبى يعلى وفيه زيادة بن ميمون البخترى وعن عبدالله بن سلام أخرجه أبو يعلى والطبرانى من رواية بشر بن شغاف عنه. وهو معلول. والمحفوظ عن بشر بن شغاف عن عبدالله بن عمرو. وعن جابر أخرجه الحاكم. وفيه القاسم بن محمد بن عبدالله بن عقيل. وهو متروك.

(٢) عاد كلامه. قال: «وقيل ذلك كله كلام امرأة العزيز أى ذلك الذى قلت ... الخ» قال أحمد: وإنما يجرى الكلام على هذا الوجه إذا ألجأ إليه محوج، كقوله (فماذا تأمرون) إذ لا يمكن جعله من قول الملأ بوجه، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون. وأما هذه الآية فهى تتلو قوله (وإنه لمن الصادقين) إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً، ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير فى (ليعلم) على العزيز وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، وذلك قوله (قالت امرأة العزيز) وفى سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها ويوسف عليه السلام بعد فى السجن لم يحضر إلى الملك، وأنه لما تحتمت براءته بقولها بعث يخرجه من السجن، فذلك قوله (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى).

يوسف أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه وما أبرئ نفسى مع ذلك من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قرفته (١) وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن ـ تريد الاعتذار مما كان منها ـ إنّ كل نفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى : إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿إنّ ربى غفور رحيم﴾ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت . فإن قلت : كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك ؟ قلت : كفى بالمعنى دليلا قائدا (٢) إلى أن يجعل من كلامه . ونحوه قوله (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) ثم قال (فماذا تأمرون) وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم . وعن ابن جريج : هذا من تقديم القرآن وتأخيره ، ذهب إلى أن (ذلك ليعلم) متصل بقوله (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ) ولقد لفقت المبطلة (٣) روايات مصنوعة ، (٤) فزعموا أن يوسف حين قال (أنى لم أخنه بالغيب) قال له جبريل : ولا حين هممت بها ، وقالت له امرأة العزيز : ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف ، وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله (٥) .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

يقال استخلصه واستخصه ، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به ﴿فلما كلمه﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قال﴾ أيها الصديق ﴿إنك اليوم لدينا مكين﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿أمين﴾ مؤتمن على كل شيء . روى أنّ الرسول جاءه فقال : أجب الملك ، فخرج من السجن ودعا لأهله : اللهم أعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعمّ عليهم الأخبار ، فهم أعلم الناس بالأخبار فى الواقعات . وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى (٦) وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة

---

(١) قوله «حين قرفته» أى اتهمته . (ع)

(٢) قوله «دليلا قائداً» أى مؤديا . (ع)

(٣) قوله « ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة » يريد أهل السنة الذين سماهم المجبرة فيما مر . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال : « ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة ... الخ» قال أحمد : ولقد صدق فى التوريك على نقله هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة ، كما لفقت القدرية على قصة موسى حين طلب الرؤية وخر صعقاً أن الملائكة جعلت تلكزه بأرجلها وتقول : يا ابن النساء الحيض طمعت فى رؤية رب العزة ، كل ذلك ليتم لهم غرضهم فى أنه طلب محالا فى المعقول على الله تعالى ، ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل ، والله الموفق .

(٥) قوله « وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله» أى اتهامهم بما لم يفعله . أفاده الصحاح . (ع)

(٦) قوله «البلوى» عبارة النسفى البلواء . (ع)

الأصدقاء ، ثم اغتسل و تنظف من درن السجن ، و لبس ثيابا جدداً [١] فلما دخل على الملك قال : اللهمّ إنى أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية ، فقال : ماهذا اللسان ؟ قال . لسان آبائى ، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فكلمه بها فأجابه بجميعها ، فتعجب منه وقال : أيها الصدّيق ، إنى أحب أن أسمع رؤياى منك . فقال : رأيت بقرات فوصف لونهنّ وأحوالهنّ ومكان خروجهنّ ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التى رآها الملك لا يخرم منها حرفا ، وقال له : من حقك أن تجمع الطعام فى الأهراء [٢] ، فيأتيك الخلق من النواحى يمتارون منك ، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك .

قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

﴿اجعلنى على خزائن الأرض﴾ ولنى خزائن أرضك ﴿إنى حفيظ عليم﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف ، وصفا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أنّ أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا . وعن النبى صلى الله عليه وسلم «رحم الله أخى يوسف ، لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض ، لاستعمله من ساعته ، ولكنه أخر ذلك سنة» [٣] فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملا من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته ؟ قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم : وعن قتادة . هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبى أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق . فله أن يستظهر به . وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم التابع له والمطيع .

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

(١) قوله «ولبس ثيابا جددا» فى الصحاح : جديد وجدد ، كسرير وسرر . (ع)

(٢) قوله «أن تجمع الطعام فى الأهراء» كذا عبارة النسفى أيضا ولكنه ليس فى الصحاح بل الذى فيه هرأه البرد يهرأه هرأ أى أشتد عليه حتى كاد يقتله وهرئ المال وهرئ القوم فهم مهرؤون اه فأصل الاهراء مواضع يشتد فيها البرد . (ع)

(٣) أخرجه الثعلبى عن ابن عباس من رواية إسحق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه ، وهذا إسناد ساقط

﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿مكنا ليوسف﴾ فى أرض مصر . روى أنها كانت أربعين فرسخا فى أربعين ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ قرئ بالنون والياء ، أى : كل مكان أراد أن يتخذه منزلا ومتبوأ له ، لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه . روى أنّ الملك توجه ، وختمه بخاتمه ، ورداه بسيفه . ووضع له سريراً من ذهب مكللا بالدرّ والياقوت . روى أنه قال له : أمّا السرير فأشدّ به ملكك . وأمّا الخاتم فأدبر به أمرك ، وأمّا التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى . فقال : قد وضعته إجلالا لك وإقراراً بفضلك . فجلس على السرير ودانت له الملوك ، وفوض الملك إليه أمره وعزل قطفير ، ثم مات بعده ، فزوّجه الملك امرأته زليخا ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيراً مما طلبت ؟ فوجدها عذراء ، فولدت له ولدين : إفرائيم وميشا ، وأقام العدل بمصر ، وأحبته الرجال والنساء ، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس ، وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدنانير والدراهم فى السنة الأولى حتى لم يبق معهم شىء منها ، ثم بالحلى والجواهر ، ثم بالدواب ، ثم بالضياع والعقار ، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ، فقالوا : والله مارأينا كاليوم ملكا أجلّ ولا أعظم منه ، فقال للملك : كيف رأيت صنع الله بى فيما خولنى فما ترى ؟ قال : الرأى رأيك : قال : فإنى أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم . ورددت عليهم أملاكهم ، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير ، تقسيطاً بين الناس . وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ماأصاب أرض مصر ، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين ﴿برحمتنا﴾ بعطائنا فى الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿من نشاء﴾ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ أن نأجرهم فى الدنيا .

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ولأجر الآخرة خير﴾ لهم . قال سفيان بن عيينة : المؤمن يثاب على حسناته فى الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الخير فى الدنيا ، وما له فى الاخرة من خلاق ، وتلا هذه الآية .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٥٨﴾

لم يعرفوه لطول العهد [1] ومفارقته إياهم فى سنّ الحداثة ، ولاعتقادهم أنه قد هلك ، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه ، ولبعدحاله التى بلغها من الملك والسلطان

(١) قال محمود : «إنما أنكروه لبعد العهد وتغيير الصورة ... الخ» قال أحمد : وتوارد القادمين فى دخولهم عليه ومعرفته لهم عند ذلك ، تدل على أن مجرد دخولهم عليه استعقبته المعرفة بلا مهلة ، والله أعلم .

عن حاله التى فارقوه عليها طريحاً فى البئر ، مشرياً بدراهم معدودة ، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ، ولأنّ الملك مما يبدّل الزىّ ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ماينكر له المعروف . وقيل : رأوه على زىّ فرعون [1] عليه ثياب الحرير جالساً على سرير فى عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج ، فما خطر ببالهم أنه هو . وقيل : مارأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب ، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج ، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ورأى زيهم قريبا من زيهم إذ ذاك ، ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم ، فكان يتأمّل ويتفطن . وعن الحسن : ما عرفهم حتى تعرّفوا له .

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠)

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أى أصلحهم بعدّتهم وهى عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاؤا من الميرة . وقرئ (بجهازهم) بكسر الجيم ﴿قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم﴾ لا بد من مقدمة سبقت له معهم ، حتى اجتر القول هذه المسئلة . روى أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : أخبرونى من أنتم وما شأنكم ؟ فإنى أنكركم . قالوا : نحن قوم من أهل الشام رعاة ، أصابنا الجهد فجئنا نمتار ، فقال : لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادى ؟ قالوا : معاذ الله ، نحن إخوة بنو أب واحد ، وهو شيخ صدّيق نبى من الأنبياء ، اسمه يعقوب . قال : كم أنتم ؟ قالوا كنا اثنى عشر ، فهلك منا واحد . قال : فكم أنتم ههنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الحادى عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك . قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأنّ الذى تقولون حق ؟ قالوا : إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا . قال : فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخيكم من أبيكم ، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم ، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون ـ وكان أحسنهم رأيا فى يوسف ـ فخلفوه عنده ، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿ولا تقربون﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون داخلا فى حكم الجزاء مجزوماً ، عطفا على محل قوله (فلا كيل لكم) كأنه قيل : فإن لم تأتونى به تحرموا ولا تقربوا ، وأن يكون بمعنى النهى .

---

(١) قوله «وقيل رأوه على زى فرعون» إن أريد فرعون موسى ، فلم يكن قد وجد . وعبارة الخازن : زى ملوك مصر عليه ثياب الخ . (ع)

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿سنراود عنه أباه﴾ سنخادعه عنه ، وسنجتهد ونحتال حتى ننتزعه من يده ﴿وإنا لفاعلون﴾ وإنا لقادرون على ذلك لا نتعايى به . أو وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى .

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

﴿لفتيته﴾ وقرئ (لفتيانه) وهما جمع فتى ، كإخوة وإخوان فى أخ ، و « فعلة » للقلة . و « فعلان » للكثرة ، أى لغلمانه الكيالين ﴿لعلهم يعرفونها﴾ لعلهم يعرفون حق ردها وحق التكرم بإعطاء البدلين ﴿إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا ، وكانت بضاعتهم النعال والأدم . وقيل : تخوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به . وقيل : لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً . وقيل : علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها . وقيل : معنى (لعلهم يرجعون) لعلهم يردّونها .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾

﴿منع منا الكيل﴾ يريدون قول يوسف فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ، لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل ﴿نكتل﴾ نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه . وقرئ (يكتل) بمعنى يكتل أخونا ، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا . أو يكن سبباً للاكتيال فإن امتناعه بسببه .

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿هل آمنكم عليه﴾ يريد أنكم قلتم فى يوسف (وإنا له لحافظون) كما تقولونه فى أخيه ، ثم خنتم بضمانكم ، فما يؤمنني من مثل ذلك . ثم قال ﴿فالله خير حافظاً﴾ فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم . و (حافظاً) تمييز ، كقولك : هو خيرهم رجلا . ولله درّه فارساً . ويجوز أن يكون حالا .

وقرئ (حفظاً) وقرأ الأعمش : فالله خير حافظ . وقرأ أبو هريرة : خير الحافظين ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ فأرجو أن ينعم علىّ بحفظه ولا يجمع علىّ مصيبتين .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

وقرئ (ردت إلينا) بالكسر ، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء ، كما فى : قيل وبيع . وحكى قطرب ضرب زيد . على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ﴿ ما نبغى ﴾ للنفى ، أى : ما نبغى فى القول ، وما نتزيد فيما وصفنالك من إحسان الملك وإكرامه ، وكانوا قالوا له : إنا قدمنا على خير رجل ، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته . أو ما نبتغى شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان . أو على الاستفهام ، بمعنى أى شىء نطلب وراء هذا ؟ وفى قراءة ابن مسعود . ما تبغى ، بالتاء على مخاطبة يعقوب ، معناه : أى شىء تطلب وراء هذا من الإحسان ، أو من الشاهد على صدقنا ؟ وقيل : معناه ما نريد منك بضاعة أخرى . وقوله ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله (ما نبغى) والجمل بعدها معطوفة عليها ، على معنى : إن بضاعتنا ردت إلينا ، فنستظهر بها ﴿ ونمير أهلنا ﴾ فى رجوعنا إلى الملك ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ فما يصيبه شىء مما تخافه ، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا ، فأى شىء نبتغى وراء هذه المباغى التى نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا : وإنما قالوا ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط . فإن قلت : هذا إذا فسرت البغى بالطلب ، فأما إذا فسرته بالكذب والتزيد فى القول ، كانت الجملة الأولى وهى قوله (هذه بضاعتنا ردت إلينا) بياناً لصدقهم وانتفاء التزيد عن قيلهم ، فما تصنع بالجمل البواقى ؟ قلت : أعطفها على قوله (ما نبغى) على معنى : لا نبغى فيما نقول (ونمير أهلنا) ونفعل كيت وكيت . ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ ، كقولك : وينبغى أن نمير أهلنا ، كما تقول : سعيت فى حاجة فلان ، واجتهدت فى تحصيل غرضه . ويجب أن أسعى ، وينبغى لى أن لا أقصر . ويجوز أن يراد : ما نبغى وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا ، ثم قالوا : هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع ، بياناً لأنهم لا يبغون فى رأيهم وأنهم مصيبون فيه ، وهو وجه حسن واضح ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أى ذلك مكيل قليل لا يكفينا ، يعنون : ما يكال لهم . فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم . أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير ، أى ذلك الكيل شىء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه ، أو سهل عليه

متيسر لا يتعاظمه . ويجوز أن يكون من كلام يعقوب ، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد ، كقوله (ذلك ليعلم)[1]

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

﴿ لن أرسله معكم ﴾ مناف لحالى[2] ـ وقد رأيت منكم ما رأيت ـ إرساله معكم ﴿ حتى تؤتون موثقاً من الله ﴾ حتى تعطونى ما أتوثق به من عند الله ، أراد أن يحلفوا له بالله : وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدد . وقد أذن الله فى ذلك فهو إذن منه ﴿ لتأتننى به ﴾ جواب اليمين ؛ لأن المعنى : حتى تحلفوا لتأتننى به ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ إلا أن تغلبوا[3] فلم تطيقوا الإتيان به . أو إلا أن تهلكوا . فإن قلت : أخبرنى عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال ؟ قلت : (أن يحاط بكم) مفعول له ، والكلام المثبت الذى هو قوله (لتأتننى به) فى تأويل النفى . معناه : لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم ، أى : لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة : وهى أن يحاط بكم ، فهو استثناء من أعم العام فى المفعول له ، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا فى النفى وحده ، فلا بد من تأويله بالنفى . ونظيره من الإثبات المتأول بمعنى النفى قولهم : أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت ، تريد : ما أطلب منك إلا الفعل ﴿ على ما نقول ﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿ وكيل ﴾ رقيب مطلع .

---

(١) قوله «كقوله ذلك ليعلم» هل المراد أن جواز كونه من كلام يعقوب ، لأن المعنى يؤدى إليه ، كما جاز فى قوله تعالى (ذلك ليعلم) كونه من كلام يوسف ؛ لأن المعنى يقود إليه ، فتدبر . (ع)

(٢) قال محمود : «معناه أن إرساله معكم مناف ... الخ» قال أحمد : لن للنفى المؤكد . وأما قول الزمخشرى فى المنافاة له ، فله وراء ذلك غرض إنما يطلع عليه من قتل كلامه علما ، وذلك أنه اعتمد فى إحالة الرؤية على الله تعالى ، على أن قوله تعالى (لن ترانى) معناه أن الرؤية منافية لحالى ، وجعل هذه المنافاة من مقتضى (لن) ثم التزم ذلك فى هذه اللفظة حيثما وقعت ، كل ذلك لتمرن الأذهان على أن هذا مقتضى (لن) وقد سبق وجه الرد عليه فى ذلك .

(٣) عاد كلامه . قال : «وقوله (لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) معناه إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الاتيان ... الخ» قال أحمد : وإنما اختص هذا النوع من الاستثناء بالنفى ، لأن المستثنى منه مسكوت عنه ، والنفى عام ، إذ يلزم من نفى الاتيان مثلا نفى جميع العوارض اللاحقة به ضرورة ، فكأنه لعمومه مقرون بذكر المستثنى منه ، ولا كذلك الاتيان ؛ فانه لاإشعار له بعموم الأحوال ؛ لأنه لايتوقف إلا على أحدها ، والله أعلم . ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر ، وهو قولهم «البلاء موكل بالمنطق» فان يعقوب عليه السلام قال أولا فى حق يوسف : وأخاف أن يأكله الذئب ، فابتلى من ناحية هذا القول . وقال ههنا ثانياً : إلا أن يحاط بكم ، أى تغلبوا عليه ، فابتلى أيضاً بذلك ، وأحيط بهم ، وغلبوا عليه .

وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد، لأنهم كانوا ذوى بهاء وشارة حسنة، [1] اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التى لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع. ويقال هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرمهم الملك وقربهم وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم فى الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم؛ ولذلك لم يوصهم بالتفرق فى الكرة الأولى، لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس. فإن قلت: هل للإصابة بالعين وجه تصح عليه؟ قلت: يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشىء والإعجاب به، نقصاناً فيه وخللا من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده، ليتميز المحققون من أهل الحشو[2] فيقول المحقق: هذا فعل الله، ويقول الحشوى: هو أثر العين، كما قال تعالى: (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) الآية. وعن النبى صلى الله عليه وسلم «أنه كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة» [3] ﴿وما أغنى عنكم من الله من شىء﴾ يعنى إن أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق، وهو مصيبكم لا محالة ﴿إن الحكم إلا لله﴾ ثم قال ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ أى متفرقين ﴿ما كان يغنى عنهم﴾ رأى يعقوب ودخولهم متفرقين شيئاً قط، حيث أصابهم ما ساءهم مع

---

(١) قوله «كانوا ذوى بهاء وشارة حسنة اشتهرهم» فى الصحاح: الشارة: اللباس والهيئة. وفيه. اشتهر الأمر، أى وضح. ولفلان فضيلة اشتهرها الناس. (ع)

(٢) قوله «ليتميز المحققون من أهل الحشو» إن كان مراده أهل السنة، فهم يقولون: تأثير العين من قبيل ربط الأسباب بالمسببات، كربط النار بالاحراق، فالسبب مؤثر فى الظاهر، والله هو الفاعل فى الحقيقة. قال النسفى: وأنكر الجبائى العين اه وهو من مشايخ المعتزلة. (ع)

(٣) أخرجه البخارى وأصحاب السنن من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس هذا وأتم منه.

تفرقهم ، من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك ، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع فى رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿ إلا حاجة ﴾ استثناء منقطع ، على معنى : ولكن حاجة ﴿ فى نفس يعقوب قضاها ﴾ وهى شفقته عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به ﴿ وإنه لذو علم ﴾ يعنى قوله (وما أغنى عنكم) وعلمه بأن القدر لا يغنى عنه الحذر .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ آوى إليه أخاه ﴾ ضم إليه بنيامين . وروى أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به ، فقال لهم : أحسنتم وأصبتم ، وستجدون ذلك عندى . فأنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة . فبقى بنيامين وحده فبكى وقال : لو كان أخى يوسف حياً لأجلسنى معه ، فقال يوسف : بقى أخوكم وحيداً ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يوا كله ، قال : أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً ، وهذا لا ثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح ، وسأله عن ولده فقال : لى عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هالك ، فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له ﴿ إنى أنا أخوك ﴾ يوسف ﴿ فلا تبتئس ﴾ فلا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ بنا فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ، ولا تعلمهم بما أعلمتك . وعن ابن عباس : تعرف إليه . وعن وهب : إنما قال له : أنا أخوك بدل أخيك المفقود ، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم . وروى أنه قال له : أنا لا أفارقك . قال : قد علمت اغتمام والدى بى ، فإذا حبستك ازداد غمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل . قال : لا أبالى فافعل ما بدا لك . قال : فإنى أدس صاعى فى رحلك ، ثم أنادى عليك بأنك قد سرقته ، ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم . قال : افعل .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

﴿ السقاية ﴾ مشربة يسقى بها وهى الصواع . قيل : كان يسقى بها الملك ، ثم جعلت صاعا يكال

به . وقيل : كانت الدواب تسق بها ويكال بها . وقيل : كانت إناء مستطيلا يشبه المكوك . وقيل : هى المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه تشرب به الأعاجم . وقيل : كانت من فضة مموّهة بالذهب ، وقيل كانت من ذهب . وقيل : كانت مرصعة بالجواهر ﴿ثم أذن مؤذن﴾ ثم نادى مناد . يقال : آذنه أعلمه . وأذن : أكثر الإعلام . ومنه المؤذن ، لكثرة ذلك منه . روى : أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ، ثم قيل لهم ذلك . والعير : الإبل التى عليها الأحمال ، لأنها تعير : أى تذهب وتجىء . وقيل : هى قافلة الحمير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير ، كأنها جمع عير ، وأصلها فعل كسقف وسقف ، فعل به ما فعل ببيض وعيد [1] ، والمراد أصحاب العير كقوله : ياخيل الله اركبى . وقرأ ابن مسعود : وجعل السقاية ، على حذف جواب لما ، كأنه قيل : فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية فى رحل أخيه ، أمهلهم حتى انطلقوا ، ثم أذن مؤذن . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى : تفقدون ، من أفقدته إذا وجدته فقيداً . وقرئ : صواع ، وصاع ، وصوع ، وصوع . بفتح الصاد وضمها ، والعين معجمة وغير معجمة ﴿وأنا به زعيم﴾ يقوله المؤذن ، يريد : وأنا بحمل البعير كفيل ، أؤدّيه إلى من جاء به ؛ وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله .

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾

﴿تالله﴾ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم . وإنما قالوا (لقد علمتم) فاستشهدوا بعلمهم . لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم فى كرتى مجيئهم ومداخلتهم للملك ، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحلهم مكعومة [2] ؛ لئلا تتناول زرعا أو طعاماً لأحد من أهل السوق . ولأنهم ردّوا بضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم ﴿وما كنا سارقين﴾ وما كنا قط نوصف بالسرقة وهى منافية لحالنا .

قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِنْ كُنْتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصواع ، أى ، فما جزاء سرقته ﴿إن كنتم كاذبين﴾ فى جحودكم

(١) قوله «ما فعل ببيض وعيد» لعله : وغيد ، بإعجام الغين ، وهو جمع غيداء أى ناعمة . أو أغيد ، بمعنى وسنان مائل العنق ، كذا فى الصحاح ، فليحرر لفظ المصنف . (ع)

(٢) قوله «وأفواه رواحلهم مكعومة» يقال : كعمت البعير ، إذا شددت فمه بالكعام ، وهو شىء يجعل فى فم البعير عند هياجه ، كذا فى الصحاح . (ع)

وادعائكم البراءة منه ﴿قالوا جزاؤه من وجد فى رحله﴾ أى جزاء سرقته أخذ من وجد فى رحله، وكان حكم السارق فى آل يعقوب أن يسترقّ سنة، فلذلك استفتوا فى جزائه. وقولهم ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم، أى: فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لاغير، كقولك: حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه، فذلك حقه، أى: فهو حقه لتقرّر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه [1] ويجوز أن يكون (جزاؤه) مبتدأ، والجملة الشرطية كما هى خبره، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر. والأصل: جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو. فوضع الجزاء موضع هو، كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه، فهو هو، يرجع الضمير الأوّل إلى من، والثانى إلى الأخ، ثم تقول «فهو أخوه» مقيما المظهر مقام المضمر. ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدإ محذوف، أى: المسؤل عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: من وجد فى رحله فهو جزاؤه، كما يقول: من يستفتى فى جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: (ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ماقتل من النعم).

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ قيل: قال لهم من وكل بهم: لا بدّ من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه. وقرأ الحسن: وعاء أخيه، بضم الواو، وهى لغة. وقرأ سعيد ابن جبير: إعاء أخيه، بقلب الواو همزة. فإن قلت: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنثه؟ قلت: قالوا رجع بالتأنيث على السقاية، أو أنث الصواع لأنه يذكر ويؤنث، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعا، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية، وفيما يتصل بهم منه صواعا ﴿كذلك كدنا﴾ مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ﴿ليوسف﴾ يعنى علمناه إياه وأوحينا به إليه ﴿ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك﴾ تفسير للكيد وبيان له، لأنه كان فى دين ملك مصر، وما كان يحكم به فى السارق أن يغرم مثلى ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد ﴿إلا أن يشاء الله﴾

---

(١) قوله «من استحقاقه وتلزمه. ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ» سيذكر أن حكم السارق فى دين ملك مصر: أن يغرم مثلى ما أخذ، لاأن يلزم ويستعبد. (ع)

أى ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ فى العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه . وقرئ : يرفع بالياء . ودرجات بالتنوين ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾ فوقه أرفع درجة منه فى علمه ، أو فوق العلماء كلهم عليم هم دونه فى العلم ، وهو الله عز وعلا . فإن قلت : ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسناً ، فمن أى وجه حسن هذا الكيد ؟ وما هو إلا بهتان ، وتسريق لمن لم يسرق ، وتكذيب لمن لم يكذب ، وهو قوله (إنكم لسارقون) ، (فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) ؟ قلت : هو فى صورة البهتان وليس ببهتان فى الحقيقة ؛ لأنّ قوله (إنكم لسارقون) تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف . وقيل : كان ذلك القول من المؤذن لامن يوسف ، وقوله (إن كنتم كاذبين) فرض لانتفاء براءتهم . وفرض التكذيب لا يكون تكذيباً ، على أنه لو صرّح لهم بالتكذيب كما صرّح لهم بالتسريق . لكان له وجه ؛ لأنهم كانوا كاذبين فى قولهم : (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التى يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية ، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام : (وخذ بيدك ضغثاً) ليتخلص من جلدها ولا يحنث ، وكقول إبراهيم عليه السلام : هى أختى ، لتسلم من يد الكافر . وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع فى المفاسد ، وقد علم الله تعالى فى هذه الحيلة التى لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلماً وذريعة إليها ، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا .

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

﴿أخ له﴾ أرادوا يوسف . روى أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء ، وأقبلوا عليه وقالوا له : ما الذى صنعت ؟ فضحتنا وسودت وجوهنا ، يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء ، متى أخذت هذا الصاع ؟ فقال : بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ، ذهبتم بأخى فأهلكتموه ، ووضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم . واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة ، فقيل : كان أخذ فى صباه صنما لجدّه أبى أمّه فكسره وألقاه بين الجيف فى الطريق . وقيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه . وقيل : كانت فى المنزل عناق أو دجاجة فأعطاها السائل . وقيل كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده ، فورثها إسحق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده ، فحضنت يوسف ـ وهى عمته ـ بعد وفاة أمّه وكانت لا تصبر عنه ، فلما شبّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها ، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت : فقدت منطقة إسحق ،

فانظروا من أخذها ، فوجدوها محزومة على يوسف ، فقالت : إنه لى سلم أفعل به ما شئت ، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت ﴿فأسرّها﴾ إضمار على شريطة التفسير ، تفسيره ﴿أنتم شرّ مكاناً﴾ وإنما أنث لأنّ قوله (أنتم شر مكاناً) جملة أو كلمة ، على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، كأنه قيل : فأسرّ الجملة أو الكلمة التى هى قوله (أنتم شر مكاناً) والمعنى : قال فى نفسه : أنتم شر مكاناً ؛ لأنّ قوله (قال أنتم شر مكاناً) بدل من أسرّها . وفى قراءة ابن مسعود : فأسرّه ، على التذكير ، يريد القول أو الكلام . ومعنى (شر مكاناً) أنتم شر منزلة فى السرق ؛ لأنكم سارقون بالصحة ، لسرقتكم أخاكم من أبيكم ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ يعلم أنه لم يصح لى ولا لأخى سرقة ، وليس الأمر كما تصفون .

قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

استعطفوه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب ، وأنه شيخ كبير السنّ أو كبير القدر ، وأنّ بنيامين أحب إليه منهم ، وكانوا قد أخبروه بأن ولداً له قد هلك وهو عليه ثكلان ،[1] وأنه مستأنس بأخيه ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ فخذه بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ إلينا فأتمم إحسانك . أو من عادتك الإحسان فأجر على عادتك ولا تغيرها :

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿معاذ الله﴾ هو كلام موجه ، ظاهره : أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع فى رحله واستعباده ، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً فى مذهبكم ، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ، وباطنه : إنّ الله أمرنى وأوحى إلىّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها فى ذلك ، فلو أخذت غير من أمرنى بأخذه كنت ظالماً وعاملا على خلاف الوحى . ومعنى (معاذ الله أن نأخذ) نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ . فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من . و ﴿إذا﴾ جواب لهم وجزاء ؛[2] لأن المعنى : إن أخذنا بدله ظلمنا .

فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ

(١) قوله «قد هلك وهو عليه ثكلان» أى حزين أسيف على فقد ولده . (ع)
(٢) قوله «وإذاً جواب لهم وجزاء» أى لقولهم (خذ أحدنا مكانه) . (ع)

عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَافَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿ استيأسوا ﴾ يئسوا . وزيادة السين والتاء فى المبالغة نحو ما مرّ فى استعصم . و « النجى » على معنيين : يكون بمعنى المناجى ، كالعشير والسمير بمعنى : المعاشر والمسامر ، ومنه قوله تعالى (وقربناه نجيا) : وبمعنى المصدر الذى هو التناجى ، كما قيل النجوى بمعناه . ومنه قيل : قوم نجى ، كما قيل (وإذ هم نجوى) تنزيلا للمصدر منزلة الأوصاف . ويجوز أن يقال : هم نجى ، كما قيل: هم صديق ، لأنه بزنة المصادر وجمع أنجية. قال :

* إنِّى إذَا مَاالْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَةْ *(1)

ومعنى ﴿خلصوا﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿ نجيا ﴾ ذوى نجوى ، أو فوجا نجياً ، أى مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً . وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجياً ؛ لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه بجد واهتمام ، كأنهم فى أنفسهم صورة التناجى وحقيقته ، وكان تناجيهم فى تدبير أمرهم ، على أىّ صفة يذهبون ؟ وماذا يقولون لأبيهم فى شأن أخيهم ؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور ﴿ كبيرهم ﴾ فى السنّ وهو روبيل . وقيل: رئيسهم وهو شمعون : وقيل : كبيرهم فى العقل والرأى وهو يهوذا ﴿ ما فرّطتم فى يوسف ﴾ فيه وجوه : أن تكون « ما » صلة ، أى : ومن قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم. وأن تكون مصدرية ، على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف ، وهو (من قبل)

---

(1) إنى إذا ما القوم كانوا أنجيه ... واضطرب القوم اضطراب الأرشيه
وشد فوق بعضهم بالأرويه ... هناك أوصينى ولا توصى بيه

من أبيات الحماسة . و «ما» زائدة . والأنجية . جمع نجى بمعنى المناجى ، كالسمير والجليس والعشير ، بمعنى المفاعل . أو النجي : مصدر كالدوى والأزيز والنشيج والنئيج والصهيل ، كلها أنواع من الصوت ، فيكون على حد «زيد عدل» ولو قلت : إنه جمع نجاء مصدر ناجاه ، كقتال مصدر قاتله لجاز ، وكان كالأرشية جمع رشاء وهو حبل الاستقاء ، والأروية جمع رواء وهو حبل الارتواء والاستقاء أيضا ، أى : كانوا فرقا متناجين ومتشاورين فيما نزل بهم واضطربوا قياما وقعوداً وذهابا وإيابا ، كاضطراب الأرشية على الماء . ويروى : واضطربت أعناقهم كالأرشية . وشد : مبنى للمجهول ، أى : شد بعضهم بعضا وشمره وحزمه بحبال الاستقاء ، كناية عن استعدادهم للحرب . ويبعد كونه كناية عن الإستعداد للاستقاء فى الزمن الجدب هناك ، أى : فى ذلك الزمان أو المكان . قيل : أوفيهما أكون شجاعا صبوراً ، فأوصينى بغيرى ولا توصى غيرى بيه . وظاهر البيت جواز الاخبار عن اسم إن بجملة إنشائية وليس كذلك ، بل هو على التأويل كما ترى . والخطاب لمؤنثة . ويجوز : أنه لمذكر . وثبوت الياء فى الفعلين للاشباع . والهاء فى «بيه» للسكت . فهذا كناية عن شجاعته وتجلده . أو كناية عن كرمه على البعد .

ومعناه : ووقع من قبل تفريطكم فى يوسف . أو النصب عطفاً على مفعول (ألم تعلموا) وهو (أن أباكم) كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل فى يوسف ، وأن تكون موصولة بمعنى : ومن قبل هذا ما فرطتموه ، أى قدمتموه فى حق يوسف من الجناية العظيمة . ومحله الرفع أو النصب على الوجهين ﴿فلن أبرح الأرض﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حتى يأذن لى أبى﴾ فى الانصراف إليه ﴿أو يحكم الله لى﴾ بالخروج منها ، أو بالانتصاف ممن أخذ أخى ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق .

ٱرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَـٰأَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ (٨١)

وقرئ (سُرِّق) أى نسب إلى السرقة ﴿وما شهدنا﴾ عليه بالسرقة ﴿إلا بما علمنا﴾ من سرقته [1] وتيقناه ، لأن الصواع استخرج من وعائه ولا شىء أبين من هذا ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق . [2] أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف . ومن قرأ (سرِّق) فمعناه : وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التسريق ، وما كنا للغيب : للأمر الخفى حافظين ، أسرق بالصحة أم دسّ الصاع فى رحله ولم يشعر .

وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٨٣)

---

(١) قال : محمود « معناه وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من سرقته ... الخ » قال أحمد : إما أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ أن مجرد وجود الشىء بيد المدعى عليه بعد إنكاره يوجب له أحكام السارق فيكون العلم على ظاهره إذاً . وإما أن لا يكون كذلك ، فهذا القدر من مجرد وجوده فى رحله لا يوجب علم كونه سارقا . وغايته أن يفيد ظناً بيناً ، فيكون المراد بالعلم ههنا الظن . وقد ورد مثله ، ويكون قولهم (وما كنا للغيب حافظين) تنبيها على أن مستندهم فيما قالوه ظن بمقتضى ظاهر الحال . وأما كشف باطن الأمر الموجب للعلم فليسوا يدعونه عليه .

(٢) عاد كلامه . قال : « وقولهم (وما كنا للغيب حافظين) معناه : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق... الخ » قال أحمد : وإنما تلتئم القراءتان على التأويل الذى ذكرته ، وهو أنهم إنما أضافوا إليه السرقة ظنا بمقتضى ظاهر الحال ، واحترزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة فقالوا : وما كنا للغيب حافظين فالقراءتان على التأويل المذكور يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه . وأما على غيره من التأويلات المذكورة فلا تنتظم القراءتان لأن مقتضى الأولى الجزم عليه بالسرقة علما . ومقتضى الثانية التبرى من الجزم ، والله أعلم .

﴿القرية التي كنا فيها﴾ هي مصر ، أي أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ وأصحاب العير ، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب . وقيل من أهل صنعاء ، معناه : فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم فـ ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ أردتموه[1] وإلا فما أدرى ذلك الرجل أنّ السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم ﴿بهم جميعاً﴾ بيوسف وأخيه وروبيل أو غيره ﴿إنه هو العليم﴾ بحالى فى الحزن والأسف ﴿الحكيم﴾ الذى لم يبتلنى بذلك إلا لحكمة ومصلحة .

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

﴿وتولى عنهم﴾ وأعرض عنهم كراهة لما جاؤا به ﴿ياأسفى﴾ أضاف الأسف وهو أشدّ الحزن والحسرة إلى نفسه ، والألف بدل من ياء الإضافة ، والتجانس بين لفظى الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع ، ونحوه (اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم) . (وهم ينهون عنه وينأون عنه) . (يحسبون أنهم يحسنون) ، (من سبإ بنبإ) وعن النبى صلى الله عليه وسلم «لم تعط أمة من الأمم ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ عند المصيبة إلا أمة محمد صلى الله

---

(١) قال محمود : «إن هذا شىء أردتموه ... الخ» قال أحمد : وهذا من الزمخشرى إسلاف جواب عن سؤال ، كأن قائلا يقول : هم فى الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء ، وأما فى هذه الوقعة الثانية فلم يتعمدوا فى حق بنيامين سوءا ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) كما قال لهم أولا ، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير فلا بد من زيد بسط فى الجواب فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قمن باتهامه لما أسلفوه فى حق يوسف عليه السلام وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها ، وهى أخذ الملك له فى السرقة ، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده لا من دين غيره من الناس ولا من عادتهم ، وإلى ذلك وقعت الاشارة بقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) تنبيها من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم ، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمدا ليتخلف أخوهم ، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة ، فذكروا ما عندهم ، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة اليه لا حرج فيه ، وخصوصا فيما يرجع إلى الوالد من الولد . ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون الوجه الذى سوغ له هذا القول فى حقهم أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع فى رحل من يوجد فى رحله سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقا بوجه معلوم ، وهذا فى شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعيت عليه ، فان كان شرعهم مثل شرعنا فى ذلك ففتواهم إذاً غير محررة ، وهو إشعار بأنهم كانوا حراصا على ثبوت السرقة عليه ، ويؤكد ذلك قولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه ، والله أعلم . وقولهم (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) واقع بمكانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضى ذلك مخالفا لشرعنا ، فالعمدة على الجواب الأول ، والله المستعان .

عليه وسلم [١] . ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ماأصابه لم يسترجع . وإنما قال يا أسفى » فإن قلت : كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث ، والرزء الأحدث أشدّ على النفس وأظهر أثراً ؟ قلت : هو دليل على تمادى أسفه على يوسف ، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه ، وأنّ الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طريا .

* وَلَمْ تُنْسِنِي أَوْفَى الْمُصِيبَاتِ بَعْدَهُ * [٢]

ولأنّ الرزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا فى ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به ﴿وابيضت عيناه﴾ إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر . قيل : قد عمى بصره . وقيل : كان يدرك إدراكا ضعيفاً . قرئ من الحزن . ومن الحزن ، الحزن كان سبب البكاء الذى حدث منه البياض . فكأنه حدث من الحزن . قيل ماجفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما ، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام : ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف [٣] ؟ قال : وجد سبعين ثكلى . قال : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة قط . فإن قلت : كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟ قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى مالا يحسن ، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده

---

(١) أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادى عن إسحاق بن الربيع بن سفيان بن زياد المعصفرى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا مرفوعا وأخرجه الطبرانى فى الدعاء من وجه آخر عن سفيان بن زياد . ورواه ، عبدالرزاق من طريق الطبرى عن الثورى عن سفيان عن زياد المعصفرى عن سعيد بن جبير أقول وكذا رواه البيهقى فى الشعب من رواية أبى عامر عن الثورى قال : ورفعه بعض الضعفاء وليس بشىء .

(٢)
تعزيت عن أوفى بغيلان بعده ... عزاء وجفن العين ملآن مترع
فلم تنسنى أوفى المصيبات بعده ... ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

لهشام بن عقبة العذرى ، يرثى أخاه ذى الرمة ، واسمه غيلان بن عقبة . ويرثى أوفى بن دلهم . وقيل : يرثى أخويه . يقول : تعزيت أى تسليت عن أوفى بموت غيلان بعده ، أى نابنى مايوجب النسيان الأول ولم أنسه . والحال أن جفن عينى ممتلئ بالدموع . أوالمعنى : تكلفت التسلى فلم أقدر . ويقال : أترع الحوض إذا ملأه بالماء فى المترع توكيد . ويجوز تشبيه الجفن بالحوض على طريق المكنية والاتراع تخييل ، فلم تنسنى أوفى المصيبات التى أصابتنى بعده موت أخى غيلان ، ولكن زادتنى حزنا على حزنى . والقرح : الجرح إذا اندمل ويبست جلبته . والنكاء : كشط تلك الجلبة . ويروى : ولكن نكأ بتشديد النون . والنكأ : التى منها وزن الضرب ، فشبه حال مصيبته الأولى التى طرأ عليها غيرها فزادها بحال ذلك الجرح على سبيل التمثيلية ، أى : ولكن نكأ القرح أوجع به من الحالة الأولى . وأظهر محل المضمر لاظهار التوجع والتفجع . أوالمعنى : ولكن نكأ القرح الاول بقرح غيره أوجع بالانسان مما كان ، فبالقرح متعلق بأوجع ، أو بنكاء .

(٣) لم أجده مرفوعا ، وأخرجه الطبرى من رواية عيسى بن يزيد عن الحسن البصرى أنه قيل له : مابلغ ... فذكره .

إبراهيم وقال : «القلب يجزع ، والعين تدمع ، ولا نقول مايسخط الرب ، وإنا عليك ياإبراهيم لمحزونون»[١] ، وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ، ولطم الصدور والوجوه ، وتمزيق الثياب . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه ، فقيل : يارسول الله ، تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ؟ فقال : مانهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين : صوت عند الفرح ، وصوت عند الترح[٢] : وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره ، فقيل له فى ذلك ، فقال : مارأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب ﴿فهو كظيم﴾ فهو مملوء من الغيظ[٣] على أولاده ولا يظهر مايسوؤهم ، فعيل بمعنى مفعول ، بدليل قوله (وهو مكظوم) من كظم السقاء إذا شدّه على ملئه ، والكظم بفتح الظاء : مخرج النفس . يقال : أخذ بأكظامه .

قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

﴿تفتؤ﴾ أراد : لا تفتؤ ، فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس بالإثبات ، لأنه لو كان إثباتا لم يكن بدّ من اللام والنون . ونحوه :

* فَقُلْتُ يَمِينَ ٱللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا *[٤]

---

(١) متفق عليه من حديث أنس .

(٢) قال المخرج : عزاه الطيبي إلى الصحيحين فلم يصب . ولم يردهذا فى ولدبعض بناته وإنما ورد فى ولده إبراهيم كاأخرجه الترمذي وابن أبي شيبة وإسحاق وعبد بن حميد وغيرهما من حديث جابر . وأخرجه الحاكم من حديث عبدالرحمن ابن عوف نحوه . والذي ورد فى بعض بناته متفق عليه من حديث أسامة وفيه «ففاضت عيناه فقال له سعد : ماهذا يارسول الله ؟ قال هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده» قلت والأول إنما هو بلفظ «قال عبد الرحمن بن عوف : أتبكى ، أو لم تكن نهيت عن البكاء ؟ قال : لا ، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين : صوت عند مصيبة ، وخمش وجوه ، ورنة شيطان ، وشق جيوب . وصوت نغمة لعب ولهو ومزامير شيطان» .

(٣) قوله «فهو مملوء من الغيظ» أى الغضب الكامن . أفاده الصحاح . قوله «ولايظهر مايسوؤهم» أى لما صنعوا بيوسف وأخيه . (ع)

(٤)
سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالا على حال
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولوقطعوا رأسى لديك وأوصالى

لامرئ القيس . يقول : سموت إلى محبوبتى سلمى بعد نوم أهلها ، ولم يسمع لى أحد صوتا ، ولم تشعر بى هى إلاوأنا عندها ، كسمو حباب الماء فوقه بسهولة . وحباب الماء ـ بالضم : اسم لثعبان الماء . وحباب الماء ـ بالفتح ـ : فقاقعه التي تعلوه . وقوله : «حالا على حال» واقع موقع الحال المؤكدة للتشبيه ، أى : حالا منطبقا على حال ومساويا له ، كقولك «سواء بسواء» وههنا حذف ، أى : تخوفنى بالقوم ، فقلت : يمين الله أبرح ، أى : لا أبرح قاعدا . وحذف «لا» النافية للمضارع بعد القسم كثير لأمن اللبس ، ولأنه لولا تقديرها لوجب اقتران الفعل بلام جواب القسم أو بنون التوكيد أوبهما . ويمين : نصب بمحذوف ، أى أحلف يمين الله ، فهو كالمصدر النائب عن فعله . وبقية القصة تقدمت .

ومعنى (لا تفتؤ) لا تزال . وعن مجاهد : لا تفتر من حبه ، كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين .
يقال : ما فتئ يفعل . قال أوس :

فَمَا فَتِئَتْ خَيْلٌ تَثُوبُ وَتَدَّعِي وَيَلْحَقُ مِنهَا لَاحِقٌ وَتَقَطَّعُ (١)

﴿حرضاً﴾ مشفياً على الهلاك مرضاً ، وأحرضه المرض ، ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، لأنه مصدر . والصفة : حَرِض ، بكسر الراء . ونحوهما : دنف ودنف ، وجاءت القراءة بهما جميعاً . وقرأ الحسن : حرضاً ، بضمتين ، ونحوه في الصفات : رجل جنب وغرب .

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

البث : أصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه ، فيبثه إلى الناس أى ينشره . ومنه : باثه أمره ، وأبثه إياه . ومعنى ﴿إنما أشكو﴾ إنى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له وملتجئاً إليه ، فخلونى وشكايتى . وهذا معنى توليه عنهم ، أى فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه . وقيل : دخل على يعقوب جارٌ له فقال : يا يعقوب ، قد تهشمت وفنيت وبلغت من السن ما بلغ أبوك ! فقال : هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من همّ يوسف ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكونى إلى خلقى ؟ قال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لى ، فغفر له ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله . وروى أنه أوحى إلى يعقوب : إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه ، وإن أحب خلقى إلىّ الانبياء ، ثم المساكين ، فاصنع طعاما وادع عليه المساكين . وقيل : اشترى جارية مع ولدها ، فباع ولدها فبكت حتى عميت ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أى أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظنى به أنه يأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب . وروى أنه رأى ملك الموت فى منامه فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ فقال ، لا والله هو حىّ فاطلبه . وقرأ الحسن : وحزنى ، بفتحتين . وحزنى ، بضمتين : قتادة .

يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

---

(١) لأوس بن حجر ، وكنى بالخيل عن أصحابها . ويقال : ثاب وثوب ، إذا لوح بطرف ثوبه عند النداء من بعيد . وتدعى : تفتعل من الدعاء أى يدعو بعضهم بعضا . ويحتمل أن تثوب بمعنى ترجع ، أى تذهب وترجع . ومعنى «تدعى» تلاحق وينتسب بعضها إلى بعض مجازاً ، فيجوز أن الخيل حقيقة . أو شبه الخيل بالناس على طريق المكنية ، والادعاء بمعنى التنادى تخييل ، وهذان الوجهان أنسب بقوله «ويلحق» أى يسبق منها سابق . وتقطع : أى تتقطع وينقطع بعضها عن بعض قطعا قطعا ، فهى تجتمع وتفترق : صور الحرب من أولها إلى آخرها فى هذا البيت ، أى : فما زالت الخيل تفعل كذلك حتى انتهت الحرب .

﴿فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما. وقرئ بالجيم، كما قرئ بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو المعرفة (فلما أحس عيسى منهم الكفر) ومن الجس، وهو الطلب. ومنه قالوا لمشاعر الإنسان: الحواس، والجواس ﴿من روح الله﴾ من فرجه وتنفيسه. وقرأ الحسن وقتادة: من روح الله، بالضم: أى من رحمته التى يحيا بها العباد.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

﴿الضر﴾ الهزال من الشدّة والجوع ﴿مزجاة﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها، من أزجيته إذا دفعته وطردته، والريح تزجى السحاب، قيل: كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمناً. وقيل: الصنوبر وحبة الخضراء. وقيل: سويق المقل والأقط. وقيل: دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة ﴿فأوف لنا الكيل﴾ الذى هو حقنا ﴿وتصدّق علينا﴾ وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة، أو زدنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة، لأنّ الصدقات محظورة على الأنبياء. وقيل كانت تحل لغير نبينا. وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال: ألم تسمع (وتصدّق علينا) أراد أنها كانت حلالا لهم. والظاهر أنهم تمسكنوا له وطلبوا إليه أن يتصدّق عليهم، ومن ثم رق لهم وملكته الرحمة عليهم، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه. وقوله ﴿إنّ الله يجزى المتصدّقين﴾ شاهد لذلك لذكر الله وجزائه، والصدقة: العطية التى تبتغى بها المثوبة من الله: ومنه قول الحسن ـ لمن سمعه يقول: اللهمّ تصدق علىّ: ـ إن الله تعالى لا يتصدق؛ إنما يتصدق الذى يبتغى الثواب. قل: اللهم أعطنى، أو تفضل علىّ، أو ارحمنى.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾

﴿قال هل علمتم﴾ أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقاً، [1] فكلمهم مستفهماً عن وجه القبح الذى يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح ﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم

---

(١) قال محمود: «أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا، فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح ... الخ» قال أحمد: ومن تلطفه بهم قوله (إذ أنتم جاهلون) كالاعتذار عنهم، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا فى طرق الاعتذار لم يلفوا عذرا كهذا، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال: فعلتها إذاً وأنا من الضالين.

جاهلون﴾ لا تعلمون قبحه، فلذلك أقدمتم عليه. يعنى: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجرّ إلى التوبة. فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحاً لهم في الدين، لا معاتبة وتثريباً: إيثاراً لحق الله على حق نفسه، في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، [1] ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها [2] ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها. وقيل: لم يرد نفى العلم عنهم، لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل [3]، سماهم جاهلين. وقيل: معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة. روى أنهم لما قالوا: مسنا وأهلنا الضر، وتضرعوا إليه: ارفضت عيناه، ثم قال هذا القول. وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر. أما بعد، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء: أما جدّى، فشدّت يداه ورجلاه ورمى به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله. وأما أنا فكان لى ابن وكان أحبّ أولادى إلىّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب، فذهبت عيناى من بكائى عليه، ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق، وأنك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته علىّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره، فقال لهم ذلك. وروى أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا. فإن قلت: ما فعلهم بأخيه؟ قلت: تعريضهم إياه للغم والثكل [4] بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ

(١) قوله «وينفث المصدور ... الخ» المصدور: الذى يشتكى صدره. والمحنق: المغيظ. والموتور: الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «ما أوطأها وأسجحها» أى ما أسهلها وما أرفقها، أفاده الصحاح. وفيه: فلان ذو حصاة، أى ذو عقل ولب. لحصا عقولهم: إضافة بيانية. (ع)

(٣) قوله «ولا يقدم عليه إلا جاهل» لعله عطف على المنفى لأن قوله «لم يفعلوا ... الخ» بمعنى فعلوا مالا يقتضيه العلم. (ع)

(٤) والثكل: فقدان المرأة ولدها، كما في الصحاح. والمراد هنا الحزن. (ع)

مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

قرئ (أئنك) على الاستفهام. وأنك، على الإيجاب. وفي قراءة أبيّ: أئنك أو أنت يوسف، على معنى أئنك يوسف أو أنت يوسف، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع، فهو يكرر الاستثبات. فإن قلت: كيف عرفوه؟ قلت: رأوا في روائه[1] وشمائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأنّ ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم، لا عن بعض أعزاء مصر. وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم. وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها، تشبه الشامة البيضاء. فإن قلت: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ على أن أخاه كان معلوماً لهم. قلت: لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿من يتق﴾ من يخف الله وعقابه ﴿ويصبر﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات ﴿فإن الله لا يضيع﴾ أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين ﴿لقد آثرك الله علينا﴾ أي فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وإنّ شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم، لم نتق ولم نصبر، لا جرم أنّ الله أعزّك بالملك وأذلنا بالتمكن بين يديك ﴿لا تثريب عليكم﴾ لا تأنيب عليكم ولا عتب. وأصل التثريب من الثّرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش. ومعناه: إزالة الثّرب، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع[2]، لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده، فضرب مثلا للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه. فإن قلت: بم تعلق اليوم؟[3] قلت: بالتثريب، أو بالمقدر في (عليكم)

(١) قوله «قلت رأوا في روائه» بالضم، أي منظره. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «والقرع» في الصحاح «القرع» بالتحريك: بثر أبيض، يخرج بالنصال. والتقريع: معالجة الفصيل من القرع، بنزع ذلك منه. (ع)

(٣) قال: «فان قلت بم تعلق اليوم في قوله (لا تثريب عليكم اليوم) ... الخ»؟ قال أحمد: وهذا المعنى إنما يتوجه على الاعراب الأول وهو الأوجه. ألا ترى إلى قولهم بعد ذلك (ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) وقوله (سوف أستغفر لكم ربي) دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب، ولو كان متعلقا بيغفر للزم أن يقطعوا بغفران ذنبهم حينئذ باخبار النبي الصديق. ويحتمل أن يقال: إنما أراد مغفرة مايرجع إلى حقه دون حق أبيه، إذ الاثم كان مشتركا بينهما، والله أعلم.

من معنى الاستقرار . أو بيغفر . والمعنى : لا أثربكم اليوم ، وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ، ثم ابتدأ فقال ﴿ يغفر الله لكم ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم . يقال: غفر الله لك ، ويغفر الله لك ، على لفظ الماضى والمضارع جميعاً . ومنه قول المشمت « يهديكم الله ويصلح بالكم » و (اليوم يغفر الله لكم) بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدّد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتى باب الكعبة يوم الفتح ، فقال لقريش : ما ترونى فاعلا بكم ؟ قالوا : نظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ؛ وقد قدرت . فقال : أقول ما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم[1] . وروى أنّ أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس : إذا أتيت الرسول فاتل عليه (لا تثريب عليكم) ففعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك ولمن علمك .[2] ويروى أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه: إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية ، ونحن نستحيي منك لما فرط منا فيك ، فقال يوسف : إنّ أهل مصر وإن ملكت فيهم ، فإنهم ينظرون إلىّ بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم إخوتى ، وأنى من حفدة إبراهيم ﴿ اذهبوا بقميصى هذا ﴾ قيل هو القميص المتوارث الذى كان فى تعويذ يوسف وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإنّ فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفى ﴿ يأت بصيراً ﴾ يصر بصيراً ، كقولك : جاء البناء محكما ، بمعنى صار . ويشهد له (فارتد بصيراً) أو يأت إلىّ وهو بصير . وينصره قوله ﴿ وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ أى يأتى أبى ، ويأتنى آله جميعاً وقيل : يهوذا هو الحامل ، قال : أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخاً بالدم إليه ، فأفرحه كما أحزنته . وقيل : حمله وهو حاف حاسر[3] من مصر إلى كنعان ، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً .

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

(١) أخرجه النسائى والبيهقى من رواية ثابت عن عبد الرحمن بن رباح عن أبى هريرة بمعناه وأتم منه . وأخرجه الثعلبى من رواية سمعان عن عطاء عن ابن عباس بهذا اللفظ وأتم منه . وكذا ذكره ابن إسحاق عن بعض أهل العلم وقال فيه « قدرت فاسمح » وكذا أخرجه الواقدى فى المغازى من حديث برة بنت تجراة . ورواه أبو عبيد فى الأموال عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين .

(٢) لم أجده

(٣) قوله «وهو حاف حاسر» أى لامغفر له ولا درع ، أفاده الصحاح . (ع)

﴿ فصلت العير ﴾ خرجت من عريش مصر . يقال : فصل من البلد فصولا ، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه . وقرأ ابن عباس : فلما انفصل العير ﴿ قال ﴾ لولد ولده ومن حوله من قومه : ﴿ إنى لأجد ريح يوسف ﴾ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان . والتفنيد : النسبة إلى الفند ، وهو الخرف وإنكار العقل من هرم . يقال : شيخ مفند . ولا يقال عجوز مفندة ؛ لأنها لم تكن فى شبيبتها ذات رأى فتفند فى كبرها . والمعنى : لولا تفنيدكم إياى لصدقتمونى ﴿ لفى ضلالك القديم ﴾ لفى ذهابك عن الصواب قدما فى إفراط محبتك ليوسف ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه قد مات ﴿ ألقاه ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب . أو ألقاه يعقوب ﴿ فارتد بصيراً ﴾ فرجع بصيراً . يقال : ردّه فارتد ، وارتده إذا ارتجعه ﴿ ألم أقل لكم ﴾ يعنى قوله (إنى لأجد ريح يوسف) أو قوله (ولا تيأسوا من روح الله) وقوله ﴿ إنى أعلم ﴾ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول ، ولك أن توقعه عليه وتريد قوله (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون) وروى : أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ فقال : هو ملك مصر : فقال : ما أصنع بالملك ؟ على أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام . قال : الآن تمت النعمة .

قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

﴿ سوف أستغفر لكم ﴾ قيل : أخر الاستغفار إلى وقت السحر . وقيل : إلى ليلة الجمعة ليتعمد به وقت الإجابة . وقيل : ليتعرف حالهم فى صدق التوبة وإخلاصها . وقيل : أراد الدوام على الاستغفار لهم . فقد روى أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة . وقيل : قام إلى الصلاة فى وقت السحر ، فلما فرغ رفع يديه وقال : اللهمّ اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه ، واغفر لولدى ما أتوا إلى أخيهم ، فأوحى إليه : إنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين . وروى أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة : ما يغنى عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا ، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرت لنا عين أبداً ، فاستقبل الشيخ القبلة قائما يدعو ، وقام يوسف خلفه يؤمّن ، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال : إن الله قد أجاب دعوتك فى ولدك ، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة ، وقد اختلف فى استنبائهم .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا

تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ قيل وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتى راحلة ليتجهز إليه بمن معه . وخرج يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم ، فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا ، فنظر إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا ، أهذا فرعون مصر ؟ قال لا ، هذا ولدك ، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام : السلام عليك يا مذهب الأحزان . وقيل إن يوسف قال له لما التقيا : يا أبت ، بكيت علىّ حتى ذهب بصرك ، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ فقال : بلى ، ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بينى وبينك ، وقيل : إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ، ما بين رجل وامرأة ، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف ﴿آوى إليه أبويه﴾ ضمهما إليه واعتنقهما . قال ابن أبى إسحق : كانت أمه تحى . وقيل : هما أبوه وخالته . ماتت أمه فتزوجها وجعلها أحد الأبوين ؛ لأنّ الرابة تدعى أمّاً ، لقيامها مقام الأم ، أو لأنّ الخالة أم كما أنّ العم أب . ومنه قوله (وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق) فإن قلت : ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر ؟ قلت : كأنه حين استقبلهم نزل لهم فى مضرب [1] أو بيت ثم ، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه ، ثم قال لهم ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ ولما دخل مصر وجلس فى مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا إليه ، أكرم أبويه فرفعهما على السرير ﴿وخرّوا له﴾ يعنى الإخوة الأحد عشر والأبوين ﴿سجداً﴾ ويجوز أن يكون قد خرج فى قبة من قباب الملوك التى تحمل على البغال ، فأمر أن يرفع إليه أبواه ، فدخلا عليه القبة . فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه . وقال بعد ذلك : ادخلوا مصر . فإن قلت : بم تعلقت المشيئة ؟ قلت : بالدخول مكيفاً بالأمن ، لأنّ القصد إلى اتصافهم بالأمن فى دخولهم . فكأنه قيل لهم : اسلموا وأمنوا فى دخولكم إن شاء الله . ونظيره قولك للغازى : ارجع سالما غانما إن شاء الله . فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقا ، ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة مكيفا بهما . والتقدير : ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين ، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه ، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذى الحال . ومن بدع التفاسير أن قوله

(١) قوله «فى مضرب» عبارة النسفى : مضرب خيمة . (ع)

(إن شاء الله) من باب التقديم والتأخير ، وأن موضعها ما بعد قوله (سوف أستغفر لكم ربى) فى كلام يعقوب ، وماأدرى ماأقول فيه وفى نظائره . فإن قلت : كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله ؟ قلت : كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة ، كالقيام ، والمصافحة وتقبيل اليد . ونحوها مما جرت عليه عادة الناس ، من أفعال شهرت فى التعظيم والتوقير . وقيل : ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه ، وخرورهم سجداً يأباه . وقيل : معناه وخروا لأجل يوسف سجداً لله شكراً . وهذا أيضا فيه نبوة . يقال : أحسن إليه و به ، وكذلك أساء إليه وبه . قال :

* أَسِيئِى بِنَا أَوْ أَحْسِنِى لَا مَلُومَةً *[1]

﴿من البدو﴾ من البادية ؛ لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون فى المياه والمناجع ﴿نزغ﴾ أفسد بيننا وأغرى ، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجرى . يقال : نزغه ونسغه ، إذا نخسه ﴿لطيف لما يشاء﴾ لطيف التدبير لأجله ، رفيق حتى يجىء على وجه الحكمة والصواب . وروى أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به فى خزائنه ، فأدخله خزائن الورق والذهب ، وخزائن الحلى ، وخزائن الثياب ، وخزائن السلاح وغير ذلك ، فلما أدخله خزانة القراطيس قال : يا بنى ، ما أعقك : عندك هذه القراطيس وما كتبت إلىّ على ثمان مراحل ؟ قال : أمرنى جبريل . قال أو ماتسأله ؟ قال : أنت أبسط إليه منى فسله . قال جبريل عليه السلام : الله تعالى أمرنى بذلك لقولك (وأخاف أن يأكله الذئب) قال : فهلا خفتنى ؟ وروى أن يعقوب أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات . وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق . فمضى بنفسه ودفنه ثمة ، ثم عاد إلى مصر ، وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة ، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له ، طلبت نفسه الملك الدائم الخالد ، فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت . وقيل : ماتمناه نبى قبله ولا بعده ، فتوفاه الله طيبا طاهراً ، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا فى دفنه : كل يحب أن يدفن فى محلتهم حتى هموا بالقتال ، فرأوا من الرأى أن عملوا له صندوقا من مرمر وجعلوه فيه ، ودفنوه فى النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعا واحداً [2] ، وولد له : إفرائيم وميشا ، وولد لإفرائيم نون ؛ ولنون يوشع فتى موسى ، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر ، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه . إلى أن بعث الله موسى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مر شرح هذا الشاهد صفحة ٢٧٩ من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله « ليكونوا كلهم فيه شرعا واحداً » فى الصحاح : الناس فى هذا الأمر شرع . أى سواء . يحرك ويسكن . (ع)

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ (١٠١)

«من» فى ﴿من الملك﴾ و ﴿من تأويل الأحاديث﴾ للتبعيض، لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا، أو بعض ملك مصر وبعض التأويل ﴿أنت وليى﴾ أنت الذى تتولانى بالنعمة فى الدارين، وبوصل الملك الفانى بالملك الباقى ﴿توفنى مسلماً﴾ طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسنى، كما قال يعقوب لولده (ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون) ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ماقيل ﴿وألحقنى بالصالحين﴾ من آبائى أو على العموم. وعن عمر ابن عبد العزيز: أنّ ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت، فقال له: صنع الله على يديك خيراً كثيراً: أحييت سننا وأمت بدعا وفى حياتك خير وراحة للمسلمين، فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقرّ الله عينه وجمع له أمره قال: توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين. فإن قلت: علام انتصب فاطر السموات؟ قلت على أنه وصف لقوله (رب) كقولك أخا زيد حسن الوجه. أو على النداء.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ماسبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحله الابتداء. وقوله ﴿من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ خبر إنّ. ويجوز أن يكون اسماً موصولا بمعنى الذى، و(من أنباء الغيب) صلته و(نوحيه) الخبر. والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحى، لأنك لم تحضر بنى يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو إلقاؤهم أخاهم فى البئر، كقوله (وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب)، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه: لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقى فيها أحداً ولا سمع منه. ولم يكن من علم قومه. فإذا أخبر به وقصّ هذا القصص العجيب الذى أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة فى أنه ليس منه وأنه من جهة الوحى، فاذا أنكروه تهكم بهم. وقيل لهم: قد علمتم يامكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية: ونحوه: (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر)، ﴿وهم يمكرون﴾ بيوسف ويبغون له الغوائل.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَٰلَمِينَ (١٠٤)

﴿وما أكثر الناس﴾ يريد العموم ، كقوله (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) وعن ابن عباس رضى الله عنه . أراد أهل مكة ، أى وماهم بمؤمنين ﴿ولو حرصت﴾ وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم ﴿وما تسألهم﴾ على ماتحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى ، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار ﴿إن هو إلا ذكر﴾ عظة من الله ﴿للعالمين﴾ عامة ، وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله .

وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿من آية﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿يمرون عليها﴾ ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها . وقرئ (والأرض) بالرفع على الابتداء ، ويمرون عليها : خبره . وقرأ السدى (والأرض) بالنصب على : ويطؤن الأرض يمرون عليها . وفى مصحف عبد الله : والأرض يمشون عليها ، برفع الأرض . والمراد مايرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر .

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿وما يؤمن أكثرهم﴾ فى إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض ، إلا وهو مشرك بعبادته الوثن ، وعن الحسن : هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هم الذين يشبهون الله بخلقه .

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

﴿غاشية﴾ نقمة تغشاهم . وقيل : مايغمرهم من العذاب ويجللهم . وقيل : الصواعق .

قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَـٰنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿هذه سبيلى﴾ هذه السبيل التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلى . والسبيل والطريق : يذكران ويؤنثان ، ثم فسر سبيله بقوله ﴿أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ أى أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء . و﴿أنا﴾ تأكيد للمستتر فى (أدعو) . ﴿ومن اتبعنى﴾ عطف عليه . يريد : أدعو إليها أنا ، ويدعو إليها من اتبعنى . ويجوز أن يكون (أنا) مبتدأ ، و (على بصيرة) خبراً مقدّما ، و(من اتبعنى) عطفاً على (أنا) إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة

وبرهان ، لا على هوى . ويجوز أن يكون (على بصيرة) حالا من (أدعو) عاملة الرفع فى (أنا ومن اتبعنى) ، ﴿وسبحان الله﴾ وأنزهه من الشركاء [1] .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿إلا رجالا﴾ لا ملائكة ؛ لأنهم كانوا يقولون (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يريد ليست فيهم امرأة . وقيل : فى سجاح المتنبئة

* وَلَمْ تَزَلْ أَنْبِيَاءُ اللهِ ذُكْرَانَا * [2]

وقرئ : نوحى إليهم ، بالنون [3] . ﴿من أهل القرى﴾ لأنهم أعلم وأحلم ، وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿ولدار الآخرة﴾ ولدار الساعة ، أو الحال الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه . وقرئ : أفلا تعقلون ، بالتاء والياء .

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

---

(١) قوله « وأنزهه من الشركاء » لعله « عن » . (ع)

(٢) أضحت نبيتنا أنثى نساء بها ... ولم تزل أنبياء الله ذكرانا
فلعنة الله والأقوام كلهم ... على سجاح ومن بالافك أغرانا
أعنى مسيلمة الكذاب لاسقيت ... أصداؤه ماء مزن حيثما كانا

لقيس بن عاصم . ويروى : نطيف بها ، بدل نساء بها . وطاف به يطوف : دار حوله . وطاف به يطيف : أتى عليه ونزل به . وهذا مبنى للمجهول منه ، عطف على أضحت . ويروى بدل الشطر الأول ، فما سمعت بأنثى قط أرسلها ، فالفاعل ضمير الله وإن لم يتقدم له مرجع لظهوره . ويروى بدل الثانى : وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا . وسجاح : علم امرأة من سجح إذا سمح وعفا ، وهى بنت المنذر ، كانت شريفة فى قومها بنى حنيفة ، فادعت النبوة ، ثم تزوجت بمسيلمة الكذاب فاتبعه قومها ، ثم حاربه أبو بكر رضى الله عنه فقتل على يدى وحشى قاتل حمزة ، فأسلمت بعده وحسن إسلامها . ويروى «باللؤم» بدل الافك . ولاسقيت : جملة دعائية . والأصداء : جمع صدى ، وهو ذكر البوم : كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة تزقو وتصيح : أدركونى أدركونى ، حتى يؤخذ بثأره ، وهى هنا مجاز عن جثته كلها . والمزن واحده مزنة وهو السحاب ، أى : اللهم اجعل قبره حارا عليه لايناله غيث .

(٣) قوله « وقرئ (نوحى إليهم) بالنون مبنيا للمعلوم ؛ فتكون القراءة الأصلية بالياء ، مبنيا للمجهول . (ع)

﴿حتى﴾ متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام، كأنه قيل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا﴾ فتراخى نصرهم حتى استيأسوا عن النصر ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ أى كذبتهم أنفسهم[1] حين حدّثتهم بأنهم ينصرون، أو رجاؤهم لقولهم: رجاء صادق. ورجاء كاذب. والمعنى أنّ مدّة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم فى الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر[2] وقال: كانوا بشراً، وتلا قوله (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فإن صح هذا عن ابن عباس، فقد أراد بالظنّ: ما يخطر بالبال ويهجس فى القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية. وأمّا الظن الذى هو ترجح أحد الجائزين على الآخر، فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم، وأنه متعال عن خلف الميعاد، منزه عن كل قبيح؟ وقيل: وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا، أى: أخلفوا. أو: وظنّ المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل، أى: كذبتهم الرسل فى أنهم ينصرون عليهم ولم يصدّقوهم فيه. وقرئ: كذبوا، بالتشديد على: وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم. وقرأ مجاهد: كذبوا، بالتخفيف، على البناء للفاعل، على: وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة، إمّا على تأويل ابن عباس، وإمّا على أنّ قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم: إنكم قد كذبتمونا فيكونون كاذبين عند قومهم. أو وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا. ولو قرئ بهذا مشدّداً، لكان معناه: وظنّ الرسل أن قومهم كذبوهم فى موعدهم. قرئ: فننجى، بالتخفيف والتشديد، من أنجاه ونجاه. وفنجى، على لفظ الماضى المبنى للمفعول. وقرأ ابن محيصن: فنجا. والمراد بـ﴿من نشاء﴾ المؤمنون، لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم. وقد بين ذلك بقوله ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾

لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(١) قال محمود: «معناه يئسوا من النصر وظنوا أن أنفسهم كذبتهم ... الخ» قال أحمد: ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر فى الدنيا، بل كانوا يظنون ذلك ويرجونه لا عن إخبار ووحى،

(٢) عاد كلامه. قال: «ونقل عن ابن عباس أنه قال: فظنوا حين ضعفوا وغلبوا ... الخ» قال أحمد: وهذا أيضا تأويل حسن ينظم بين القراءتين؛ لأن ظن الأمم كذب رسلهم تكذيب لهم، فيؤدى مؤدى قراءة التشديد.

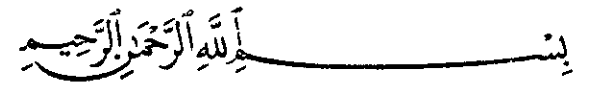
الضمير فى ﴿ قصصهم ﴾ للرسل ، وينصره قراءة من قرأ (فى قصصهم) بكسر القاف . وقيل : هو راجع إلى يوسف وإخوته . فإن قلت : فإلام يرجع الضمير فى ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ فيمن قرأ بالكسر ؟ قلت : إلى القرآن . أى : ما كان القرآن حديثاً يفترى ﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديق الذى بين يديه ﴾ أى قبله من الكتب السماوية ﴿ وتفصيل كل شىء ﴾ يحتاج إليه فى الدين ، لأنه القانون الذى يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل . وانتصاب ما نصب بعد (لكن) للعطف على خبر كان . وقرئ (ذلك) بالرفع على : ولكن هو تصديق الذى بين يديه .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : علموا أرقاءكم سورة يوسف ، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكرات الموت ، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً [١] .

سورة الرعد

[مدنية ، وقيل] مختلف فيها

وهى ثلاث وأربعون آية [نزلت بعد سورة محمد]



الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى آيات السورة . والمراد بالكتاب السورة ، أى : تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة فى بابها ، ثم قال ﴿ والذى أنزل إليك ﴾ من القرآن كله هو ﴿ الحق ﴾ الذى لا مزيد عليه ، لا هذه السورة وحدها ، وفى أسلوب هذا الكلام قول الأنمارية : هم كالحلقة [٢] المفرغة ، لا يدرى أين طرفاها ؟ تريد الكملة .

---

(١) تقدم إسناده فى تفسير آل عمران وهو فى آخر آل عمران ، وفى آخر الكتاب أيضا .

(٢) قوله «الأنمارية هم كالحلقة» أى فى أولادها . (ع)

اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)

﴿ الله ﴾ مبتدأ . و ﴿ والذى ﴾ خبره ، بدليل قوله (وهو الذى مدّ الأرض) ويجوز أن يكون صفة . وقوله (يدبر الأمر يفصل الآيات) خبر بعد خبر . وينصره ما تقدمه من ذكر الآيات ﴿ رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ كلام مستأنف استشهاد برؤيتهم لها كذلك . وقيل هى صفة لعمد . ويعضده قراءة أبىّ . ترونه . وقرئ : عمد ، بضمتين ﴿ يدبر الأمر ﴾ يدبر أمر ملكوته وربوبيته ﴿ يفصل ﴾ آياته فى كتبه المنزلة ﴿ لعلكم ـ توقنون ﴾ بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه . وقرأ الحسن : ندبر . بالنون ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدّها ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت . وقيل: أراد بالزوجين : الأسود والأبيض ، والحلو والحامض ، والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ يلبسه مكانه ، فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً . وقرئ : يغشى ، بالتشديد .

وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

﴿ قطع متجاورات ﴾ بقاع مختلفة ، مع كونها متجاورة متلاصقة : طيبة إلى سبخة ، وكريمة إلى زهيدة ، [١] وصلبة إلى رخوة ، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها ، مع انتظامها جميعاً فى جنس الأرضية . وذلك دليل على قادر مريد ، موقع لأفعاله على وجه دون وجه . وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة فى هـذه القطع ، مختلفة الأجناس والأنواع ، وهى تسقى بماء واحد ، وتراها متغايرة الثمر فى الأشكال والألوان والطعوم والروائح ، متفاضلة فيها .

(١) قوله «زهيدة» فى الصحاح : واد زهيد قليل الأخذ للماء ، وأرض زهاد : أى لا تسيل إلا عن مطر كثير . (ع)

وفى بعض المصاحف: قطعاً متجاورات على: وجعل. وقرئ: وجنات، بالنصب للعطف على زوجين. أو بالجر على كل الثمرات. وقرئ: وزرع ونخيل، بالجر عطفاً على أعناب أو جنات والصنوان: جمع صنو، وهى النخلة لها رأسان، وأصلهما واحد. وقرئ بالضم. والكسر: لغة أهل الحجاز، والضم: لغة بنى تميم وقيس ﴿تسقى﴾ بالتاء والياء ﴿ونفضل﴾ بالنون. وبالياء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً ﴿فى الأكل﴾ بضم الكاف وسكونها.

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

﴿وإن تعجب﴾ يا محمد من قولهم فى إنكار البعث، فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعى بخلقهن، كانت الإعادة أهون شىء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب ﴿أئذا كنا﴾ إلى آخر قولهم: يجوز أن يكون فى محل الرفع بدلا من قولهم، وأن يكون منصوباً بالقول. وإذا نصب بما دل عليه قوله (أئنا لفى خلق جديد). ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾ أولئك الكاملون المتمادون فى كفرهم ﴿وأولئك الأغلال فى أعناقهم﴾ وصف بالإصرار، كقوله (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا). ونحوه:

* لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ * [1]

أو هو من جملة الوعيد

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

﴿بالسيئة قبل الحسنة﴾ بالنقمة قبل العافية، والإحسان إليهم بالإمهال. وذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ أى عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزءوا. والمثلة:

(١) ضلوا وإن سبيل الغى مقصدهم لهم عن الرشد أغلال وأقياد

سبيل الغى: مجاز عما هم عليه من الأحوال الخبيثة. والغل: ما تشد به اليد إلى العنق والقيد للرجلين، وهما مجاز عن الغفلة واتباع رأى النفس. يقول: سلكوا طريق الهوى وتركوا طريق الهدى.

العقوبة، بوزن السمرة. والمثلة لما بين[1] العقاب والمعاقب عليه من المماثلة، (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ويقال: أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه. والمثال: القصاص. وقرئ (المثلات) بضمتين لإتباع الفاء العين. والمثلات، بفتح الميم وسكون الثاء، كما يقال: السمرة[2]. والمثلات بضم الميم وسكون الثاء، تخفيف المثلات بضمتين. والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات[3] ﴿ لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحله الحال، بمعنى ظالمين لأنفسهم[4] وفيه أوجه. أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر. أو الكبائر بشرط التوبة. أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال. وروى أنها لما نزلت قال النبى عليه الصلاة والسلام «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»[5]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)

﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عناداً، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت رجل أرسلت منذراً ومخوفاً لهم من سوء العاقبة، وناصحاً كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت، والآيات كلها سواء فى حصول صحة الدعوة بها لا تفاوت بينها، والذى عنده كل شيء بمقدار يعطى كل نبى آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ من الأنبياء يهديهم إلى الدين، ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية، وبآية خص بها، ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً[6] فى آيات مخصوصة. ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى أنهم

---

(١) قوله «المثلة لما بين» عبارة النسفى «والمثلة العقوبة لما بين ... الخ». (ع)

(٢) قوله «كما يقال السمرة» لعله السمرة والسمرات. (ع)

(٣) قوله «كركبة وركبات» فى الصحاح الركبة معروفة وجمع القلة ركبات وركبات وركبات. وفى هامشه عن مرتضى: أى بسكون الكاف وضمها وفتحها، والراء مضمومة فيهن. (ع)

(٤) قال محمود: «ومحل على ظلمهم الحال بمعنى ظالمين لأنفسهم ... الخ» قال أحمد: والوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه إلا حيث دل الدليل على التقييد فى غير الموحد، فان ظلمه أعنى شركه لا يغفر وماعدا الشرك فغفرانه فى المشيئة. والزمخشرى يبنى على عقيدته التى وضح فسادها، فى استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحدا إلا بالتوبة، فيقيد مطلقا، ويحجر واسعا، والله الموفق.

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم والثعلبى من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب: لما نزلت (وإن ربك لذو مغفرة) الآية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره.

(٦) قوله «ولم يجعل الأنبياء شرعا واحدا» أى سواء، كذا فى الصحاح. (ع)

يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون، فلا يهمنك ذلك، إنما أنت منذر، فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان فى صدورهم، ولست بقادر عليه، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلجاء، وهو الله تعالى. ولقد دل بما أردفه من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضاء حكمته أن إعطاءه كل منذر آيات خلاف آيات غيره: أمر مدبر بالعلم النافذ مقدّر بالحكمة الربانية، ولو علم فى إجابتهم إلى مقترحهم خيراً ومصلحة، لأجابهم إليه. وأما على الوجه الثانى، فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه، هو القادر وحده على هدايتهم، العالم بأى طريق يهديهم، ولا سبيل إلى ذلك لغيره.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

﴿الله يعلم﴾ يحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً، وأن يكون المعنى: هو الله، تفسيراً لهاد على الوجه الأخير، ثم ابتدئ فقيل ﴿يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ «وما» فى (ماتحمل)، (وما تغيض)، (وما تزداد). إما موصولة، وإما مصدرية. فإن كانت موصولة، فالمعنى: أنه يعلم ما تحمله من الولد على أى حال هو. من ذكورة وأنوثة، وتمام وخداج [1]، وحسن وقبح، وطول وقصر، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة، ويعلم ما تغيضه الأرحام: أى تنقصه. يقال: غاض الماء وغضته أنا. ومنه قوله تعالى (وغيض الماء) وما تزداده: أى تأخذه زائداً، تقول: أخذت منه حقى، وازددت منه كذا. ومنه قوله تعالى (وازدادوا تسعاً) ويقال: زدته فزاد بنفسه وازداد، ومما تنقصه الرحم وتزداده عدد الولد، فإنها تشتمل على واحد، وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة. ويروى أن شريكا كان رابع أربعة فى بطن أمه. ومنه جسد الولد، فإنه يكون تاما ومخدجا. ومنه مدة ولادته، فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبى حنيفة، وإلى أربع عند الشافعى، وإلى خمس عند مالك. وقيل: إنّ الضحاك ولد لسنتين، وهرم بن حيان بقى فى بطن أمّه أربع سنين، ولذلك سمى هرما. ومنه الدم، فإنه يقل ويكثر. وإن كانت مصدرية، فالمعنى أنه يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام وازديادها، لا يخفى عليه شىء من ذلك، ومن أوقاته وأحواله. ويجوز أن يراد غيوض مافى الأرحام وزيادته، فأسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها، على أنّ الفعلين غير متعدّيين، ويعضده قول الحسن: الغيضوضة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك، والازدياد أن تزيد

(١) قوله «وخداج» فى الصحاح: خدجت الناقة خداجا: ألقت ولدها قبل تمام الأيام، فهى خادج، وهو خديج، وأخدجت: إذا جاءت به ناقص الخلق، فهو مخدج، وهو مخدج اهـ. (ع)

على تسعة أشهر . وعنه . الغيض الذي يكون سقطاً لغير تمام ، والازدياد ماولد لتمام ﴿بمقدار﴾ بقدر وحد لايجاوزه ولا ينقص عنه ، كقوله (إنا كل شيء خلقناه بقدر) . ﴿الكبير﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ﴿المتعال﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته ، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها .

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)

﴿سارب﴾ ذاهب في سربه - بالفتح - أي في طريقه ووجهه . يقال : سرب في الأرض سروبا . والمعنى : سواء عنده من استخفى : أي طلب الخفاء في مختبإ بالليل في ظلمته ، ومن يضطرب في الطرقات ظاهراً بالنهار يبصره كل أحد . فإن قلت : كان حق العبارة أن يقال : ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار [١] ، حتى يتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب ؛ وإلا فقد تناول واحداً هو مستخف وسارب . قلت : فيه وجهان : أحدهما أن قوله (وسارب) عطف على من هو مستخف ، لا على مستخف ، والثاني أنه عطف على مستخف ؛ إلا أن (من) في معنى الاثنين ، كقوله :

* نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ * [٢]

---

(١) قال محمود : «إن قلت كان من حق الكلام أن يقال : ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار.. الخ » قال أحمد : فمقتضى السؤال الذي أورده الزمخشري أن تكون الواو عاطفة لاحدى الصفتين على الأخرى ، ومقتضى ما أجاب به أن يعطف أحد الموصوفين على الآخر ، وتحتمل الآية وجها آخر : وهو أن يكون الموصول محذوفا وصلته باقية . والمعنى : ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار ، وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع ، وخصوصا وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثا ، ومنه قوله تعالى (وما أدري مايفعل بي ولا بكم) والأصل : ولا مايفعل بكم ، وإلا كان حرف النفي دخيلا في غير موضعه ؛ لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنفي موقع ، وإنما صحب في الأول الموصول لا الصلة . ومنه :

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

أي ومن يمدحه وينصره ، والله أعلم .

(٢)
فبت أقد الزاد بيني وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكا ... وقائم سيفي من يدي بمكان
تعال فان عاهدتني لاتخونني ... نكن مثل من ياذئب يصطحبان
أأنت امرؤ ياذئب والغدر كنتما ... أخيين كانا أرضعا بلبان

=

كأنه قيل: سواء منكم اثنان: مستخف بالليل، وسارب بالنهار. والضمير فى ﴿له﴾ مردود على (من) كأنه قيل: لمن أسرّ ومن جهر، ومن استخفى ومن سرب ﴿معقبات﴾ جماعات من الملائكة تعتقب فى حفظه وكلاءته، والأصل: معتقبات، فأدغمت التاء فى القاف، كقوله (وجاء المعذرون) بمعنى المعتذرون. ويجوز معقبات، بكسر العين ولم يقرأ به. أوهو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه، كما يقال: قفاه، لأنّ بعضهم يعقب بعضاً. أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ هما صفتان جميعاً، [1] وليس (من أمر الله) بصلة للحفظ، كأنه قيل: له معقبات من أمر الله. أو يحفظونه من أجل أمر الله، أى: من أجل أنّ الله أمرهم بحفظه. والدليل عليه قراءة على رضى الله عنه وابن عباس وزيد بن على وجعفر بن محمد وعكرمة: يحفظونه بأمر الله. أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب، بدعائهم له ومسئلتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب، كقوله (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) وقيل: المعقبات الحرس والجلاوزة [2] حول السلطان، يحفظونه فى توهمه وتقديره من أمر الله أى من قضاياه ونوازله، أو على التهكم به، وقرئ له معاقيب جمع معقب أو معقبة. والياء عوض من حذف إحدى القافين فى التكسير ﴿إنّ الله لا يغير ما بقوم﴾ من العافية والنعمة ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصى ﴿من وال﴾ ممن يلى أمرهم ويدفع عنهم.

هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾

= للفرزدق، يصف ذئبا أتاه فى مفازة فبات يقطع الزاد ويقسمه بينه وبينه، حال كونهما مشرفين على ضوء نار تارة وعلى دخانها أخرى، دلالة على تكرر إيقادها. وتكشر: أبدى أنيابه كالضاحك. وقائم سيفى: أى والحال أن مقبض سيفى بمكان عظيم من يدى، دلالة على الحرص والجراءة. تعال: أى أقبل إلى نتعاهد. ويروى تعش أى كل العشاء، فان عاهدتنى بعد ذلك والتزمت أنك لا تخوننى: نكن مثل من يصطحبان ياذئب. ومعنى «من» مثنى، فعاد عليه الرابط كذلك. والنداء. اعتراض بين الصلة والموصول. وأأنت: استفهام توبيخى. وتكرير النداء فيه نوع توبيخ أيضا. وأخيين: مصغر أخوين. واللبان: لبن المرأة خاصة. شبه الذئب والغدر بتوأمين نشآمعا من صغرهما ترضعهما أم واحدة، دلالة على كمال التلازم والتآلف. وتسمية الذئب امرأ، مبنية على تنزيله منزلة العاقل المصحح لخطابه. وشبههما بالأخوين من نوع الانسان، كما دل على ذلك لفظ اللبان؛ لأن التآلف فيه أكمل وأظهر منه فى غيره.

(١) عاد كلامه. قال: ومعنى قوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) هما صفتان جميعا وليس من أمر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له ... الخ» قال أحمد: وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذى علم الله أنه يدفعه عنه بسبب دعائهم. ولولا هذا السبب لكان فى علم الله أن النقمة تحل عليه؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وسع ربنا كل شىء علما.

(٢) قوله «والجلاوزة» فى الصحاح «الجلواز» الشرطى، والجمع الجلاوزة. (ع)

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

﴿خوفاً وطمعاً﴾ لا يصح أن يكونا مفعولا لهما [1] لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف، أى: إرادة خوف وطمع. أو على معنى إخافة وإطماعاً. ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق، كأنه فى نفسه خوف وطمع. أو على: ذا خوف وذا طمع. أو من المخاطبين، أى: خائفين وطامعين. ومعنى الخوف والطمع: أنّ وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق، ويطمع فى الغيث. قال أبو الطيب:

فَتًى كَالسَّحَابِ الْجُونِ تُخْشَى وَتُرْتَجَى يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ [2]

وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر، كالمسافر، ومن له فى جرينه التمر والزبيب، ومن له بيت يكف [3]، ومن البلاد مالا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر، ويطمع فيه من له فيه نفع، ويحيا به ﴿السحاب﴾ اسم الجنس، والواحدة سحابة. و﴿الثقال﴾ جمع ثقيلة: لأنك تقول سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة ونساء كرام، وهى الثقال بالماء ﴿ويسبح الرعد بحمده﴾ ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له. أى يضجون بسبحان الله والحمد لله. وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول «سبحان من يسبح الرعد بحمده» [4] وعن على رضى الله عنه: سبحان من سبحت له. وإذا اشتدّ الرعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهمّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك» [5] وعن ابن عباس أنّ اليهود سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد ماهو؟ فقال: «ملك من

---

(١) قال محمود: «خوفا وطمعا لايصح أن يكون مفعولا لهما لأنهما ليسا بفعل ... الخ» قال أحمد: أومفعولا لهما، على أن المفعول له فى مثل هذا الفعل فاعل فى المعنى، لأنه إذا أراهم فقد رأوا، والأصل: وهو الذى يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً، أى: ترقبونه وتتراءونه، تارة لأجل الخوف وتارة لأجل الطمع، والله أعلم.

(٢) يقول: هو فتى شجاع جواد، يخشى شره، ويرجى خيره، فهو كالسحاب الأسود. والجون: الأسود، ويطلق على الأبيض. ورواه ابن جنى بالضم ليكون جمعا، أى السود المظلمات؛ لأن السحاب جمع فى المعنى. يرتجى الحياء: أى المطر، منها. وتخشى صواعقها، وهى قطع النار التى تنزل منها.

(٣) قوله «ومن له بيت يكف» وكف البيت يكف: قطر يقطر، كذا فى الصحاح. (ع)

(٤) أخرجه الطبرى من رواية اسرائيل عن ليث عن رجل عن أبى هريرة رفعه «أنه كان إذا سمع الرعد قال سبحان من يسبح الرعد بحمده» ورواه البخارى فى الأدب المفرد، موقوفا على كعب بن مالك.

(٥) أخرجه الترمذى والنسائى وأحمد وأبو يعلى والحاكم من رواية الحجاج بن أرطاة عن أبى مطر عن سالم ابن عبد الله عن أبيه قال الترمذى: غريب.

الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق [١] من نار يسوق بها السحاب» [٢] وعن الحسن: خلق من خلق الله ليس بملك. ومن بدع المتصوّفة. الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم ﴿والملائكة من خيفته﴾ ويسبح الملائكة من هيبته وإجلاله. ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده، وما دلّ على قدرته الباهرة ووحدانيته ثم قال ﴿وهم﴾ يعني الذين كفروا وكذّبوا رسول الله وأنكروا آياته ﴿يجادلون في الله﴾ حيث ينكرون على رسوله مايصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم (من يحيي العظام وهي رميم) ويردّون الوحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد، ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم (الملائكة بنات الله) فهذا جدالهم بالباطل، كقولهم (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) وقيل: الواو للحال. أي: فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم. وذلك أنّ أربد أخا لبيد ابن ربيعة العامري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامراً بغدّة كغدّة البعير [٣] وموت في بيت سلولية، وأرسل على أربد صاعقة فقتلته ـ أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد؟ [٤] ﴿المحال﴾ المماحلة، وهي شدّة المماكرة والمكايدة. ومنه: تمحل لكذا، إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه. ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان. ومنه الحديث: «ولا تجعله علينا ماحلا [٥] مصدّقا» وقال الأعشى:

---

(١) قوله «معه مخاريق من نار» في الصحاح المخراق: منديل يلف ليضرب به. (ع)

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد من رواية بكر بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال «أقبلت يهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا: أخبرنا يا أبا القاسم عن الرعد. فذكره ـ وزاد: قالوا: فما هذا الصوت قال: زجره للسحاب قالوا: صدقت» وفي الطبراني والأوسط من رواية أبي عمران الكوفي عن ابن جريج وعن عطاء عن جابر أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصاري «سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد. فقال: هو ملك بيده مخراق إذا رفع برق وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت».

(٣) قوله «بغدة كغدة البعير» في الصحاح: غدة البعير: طاعونه. (ع)

(٤) أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجه الطبراني وابن مردويه عنه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء عنه «أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة. فذكر الحديث مطولا» وأخرجه النسائي والطبري والعقيلي وأبو يعلى من رواية علي بن أبي سارة عن ثابت عن أنس قال «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا إلى رجل من خزاعة العرب فقال: ادعه قال: يارسول الله هو أخي من ذلك. قال: اذهب فادعه. فأتاه. فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك. قال: وما الله؟ أمن ذهب هو أو من فضة، أم من نحاس ـ الحديث. وفيه: فأنزل الله تعالى (ويرسل الصواعق... الآية) قال العقيلي: لا مانع على حديثه إلا من هو دونه. وقد رواه البزار والبيهقي في الدلائل من رواية ديلم بن غزوان عن ثابت نحوه.

(٥) قلت: الذي في الحديث والقرآن شافع مشفع وماحل مصدق، أخرجه ابن حبان من رواية أبي سفيان عن جابر والحاكم من حديث معقل بن يسار، والطبراني من حديث ابن مسعود عن أنس. أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن.

فَرْعُ نَبْعٍ يَهَشُّ فِى غُصْنِ الْمَجْـ ... ـدِ غَزِيرُ النَّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ [١]

والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه ، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون . وقرأ الأعرج بفتح الميم ، على أنه مفعل ، من حال يحول محالا إذا احتال . ومنه : أحول من ذئب ، أى أشدّ حيلة . ويجوز أن يكون المعنى : شديد الفقار [٢] ، ويكون مثلا فى القوة والقدرة كما جاء : فساعد الله أشدّ ، وموساه أحدّ ؛ لأن الحيوان إذا اشتدّ محاله ، كان منعوتاً بشدّة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره . ألا ترى إلى قولهم : فقرته الفواقر ؟ وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه .

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ ﴿١٤﴾

﴿دعوة الحق﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أن تضاف الدعوة إلى الحق [٣] الذى هو نقيض الباطل ، كما تضاف الكلمة إليه فى قولك : كلمة الحق ، للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به ، وأنها بمعزل من الباطل . والمعنى أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ، ويعطى الداعى سؤاله إن كان مصلحة له ، فكانت دعوة ملابسة للحق ، لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء ، لما فى دعوته من الجدوى والنفع ، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدى دعاؤه . والثانى : أن

---

(١) فرع كل شىء أعلاه . والنبع : شجر تتخذ منه القسى . والهش من كل شىء : مافيه رخاوة وليونة . وهش إليه ، من باب تعب وضرب : ضحك وانبسط إليه ، أى هو كفرع النبع فى العلو والصلابة فى الحروب . وشبه المجد بشجرة طيبة على طريق المكنية ، فاضافة الغصن إليه تخييل لذلك . ويحتمل أنه شبه قومه بأغصان الشجرة المثمرة على طريق التصريحية ، وإضافتها للمجد قرينة على ذلك . وفيها دلالة على أن المجد منهم كالثمر من الأغصان ، غزير الندى كثير العطاء . شديد المحال ، أى المماحلة والمكايدة ، وهو كالتفسير للتشبيه الأول ، وغزير الندى كالتفسير الثانى ، وهو من بديع الكلام .

(٢) قوله «ويجوز أن يكون المعنى شديد الفقار» فى الصحاح : والمحالة أيضا : الفقارة ، وفيه «الفقارة» واحدة فقار الظهر . (ع)

(٣) قال محمود : «وفيه وجهان : أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق ... الخ» قال أحمد : دس تحت تأويل الأول نبذة من الاعتزال على وجه الاختزال . فجر واسعاً من لطف الله واستجابته أدعية عباده ، وحتم رعاية المصالح ، وجعل معنى إضافة الدعوة إلى الحق التباسها بالمصلحة ، وقد انكشف الغطاء وتبين أن الله تعالى لا تعلل أفعاله ولا تقف استجابته على الشرط المذكور ، وغرضنا إيقاظ المطالع لهذه المواضع من غفلة يتحيز بها إلى بدعة وضلالة ، والله الموفق .

تضاف إلى الحق الذى هو الله عز وعلا ، على معنى : دعوة المدعو الحق الذى يسمع فيجيب . وعن الحسن : الحق هو الله ، وكل دعاء إليه دعوة الحق . فإن قلت : ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله[1] ؟ قلت . أما على قصة أربد فظاهر ؛ لأن إصابته بالصاعقة محال من الله ومكر به من حيث لم يشعر . وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله : اللهم اخسفهما بما شئت ، فأجيب فيهما[2] ، فكانت الدعوة دعوة حق . وأما على الأول فوعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله بحلول محاله بهم ، وإجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دعا عليهم فيهم ﴿ والذين يدعون ﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿ من ﴾ دون الله ﴿ لا يستجيبون لهم بشىء ﴾ من طلباتهم ﴿ إلا كباسط كفيه ﴾ إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه ، أى كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم . وقيل : شبهوا فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه ، فبسطهما ناشراً أصابعه ، فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه . وقرئ : تدعون ، بالتاء . كباسط كفيه ، بالتنوين ﴿ إلا فى ضلال ﴾ إلا فى ضياع لا منفعة فيه ؛ لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم ، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)

﴿ ولله يسجد ﴾ أى ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله ، شاؤا أو أبوا . لا يقدرون أن يمتنعوا عليه ، وتنقاد له ﴿ ظلالهم ﴾ أيضاً ، حيث تتصرف على مشيئته فى الامتداد والتقلص ، والفىء والزوال . وقرئ : بالغدو والإيصال ، من آصلوا : إذا دخلوا فى الأصيل .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَـٰتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)

(١) قوله «اتصال هذين الوصفين بما قبله» عبارة النسفى : واتصال (شديد المحال) و (له دعوة الحق) بما قبله . (ع)

(٢) ذكره الواحدى فى الأسباب عن ابن عباس فى القصة المذكورة . ولم أره فيها فى الطريقين المتقدمين من رواية الكلبى وغيره .

﴿ قل الله ﴾ حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم ؛ لأنه إذا قال لهم : من رب السموات والأرض ، لم يكن لهم بد من أن يقولوا الله . كقوله (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله) وهذا كما يقول المناظر لصاحبه : أهذا قولك . فإذا قال : هذا قولى قال : هذا قولك . فيحكى إقراره تقريراً له عليه واستيثاقا منه ، ثم يقول له : فيلزمك على هذا القول كيت وكيت . ويجوز أن يكون تلقيناً ، أى : إن كعوا عن الجواب [1] فلقنهم ، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه ﴿ أفاتخذتم من دونه أولياء ﴾ أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء ، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك ﴿ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا ﴾ لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضررا ، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب ، فما أبين ضلالتكم ! ﴿ أم جعلوا ﴾ بل أجعلوا . ومعنى الهمزة الإنكار [2] و﴿ خلقوا ﴾ صفة لشركاء ، يعنى أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله ﴿ فتشابه ﴾ عليهم خلق الله وخلقهم ، حتى يقولوا : قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه ، فاستحقوا العبادة ، فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ، إذ لا فرق بين خالق وخالق ؛ ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلا أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾ لا خالق غير الله ، ولا يستقيم أن يكون له شريك فى الخلق ، فلا يكون له شريك فى العبادة ﴿ وهو الواحد ﴾ المتوحد بالربوبية ﴿ القهار ﴾ لا يغالب ، وما عداه مربوب ومقهور .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا

---

(١) قوله «أى إن كعوا عن الجواب» أى امتنعوا جبناً أو احتبسوا . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : «أم مقدرة ببل والهمزة ومعناها ههنا الانكار ... الخ» قال أحمد : وفى قوله تعالى (خلقوا كخلقه) فى سياق الانكار تهكم بهم ؛ لأن غير الله لا يخلق خلقا البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله ـ تقدس عن التشبيه ـ ولا بطريق الانحطاط والقصور ، فقد كان يكفى فى الانكار عليهم أن الشركاء التى اتخذوها لا تخلق مطلقا ، ولكن جاء فى قوله تعالى (كخلقه) تهكم يزيد الانكار تأكيداً . والزمخشرى لا يطيق التنبيه على هذه النكتة مع كونه أفطن من أن تستتر عنه ؛ لأن معتقده أن غير الله يخلق وهم العبيد يخلقون أفعالهم على زعمه ، ولكن لا يخلقون كخلق الله ؛ لأن الله تعالى يخلق الجواهر والأعراض ، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم لا غير . وفى قوله عز من قائل (الله خالق كل شيء) إلقام لأفواه المشركين الأولين ، ثم لأفواه التابعة لهم فى هذه الضلالة كالقدرية ، فان الله تعالى بت هذه البتة أن كل شيء يصدق عليه أنه مخلوق جوهراً كان أو عرضا ، فعلا لعبيده أو غيره . فالله خالقه ، فلا يبقى بقية يحتمل معها الاشتراك إلا عند كل أثيم أفاك ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم ، فلأمر ما تقاصر لسان الزمخشرى عند هذه الآية وقرن شقاشقه ، والله الموفق .

يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذى ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذى ينتفعون به [١] فى صوغ الحلىّ منه واتخاذ الأوانى والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذى فيه البأس الشديد لكفى به، وأن ذلك ماكث فى الأرض باق بقاء ظاهراً، يثبت الماء فى منافعه. وتبقى آثاره فى العيون والبثار والجبوب، والثمار التى تنبت به مما يدّخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل الذى يرمى به، وبزبد الفلز الذى يطفو فوقه إذا أذيب. فإن قلت: لم نكرت الأودية؟ قلت: لأن المطر لا يأتى إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض. فإن قلت: فما معنى قوله ﴿بقدرها﴾؟ قلت: بمقدارها الذى عرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار. ألا ترى إلى قوله (وأما ما ينفع الناس) لأنه ضرب المطر مثلا للحق، فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً من المضرة، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف [٢]. فإن قلت: فما فائدة قوله ﴿ابتغاء حلية أو متاع؟ قلت. الفائدة فيه كالفائدة فى قوله (بقدرها) لأنه جمع الماء والفلز فى النفع فى قوله (وأمّا ما ينفع الناس) لأنّ المعنى: وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منه ويذاب، وهو الحلية والمتاع. وقوله (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع) عبارة جامعة لأنواع الفلز، مع إظهار الكبرياء فى ذكره على وجه التهاون به كما هو هجيرى الملوك، نحو ما جاء فى ذكر الآجر (أوقد لى يا هامان على الطين) و «من» لابتداء الغاية. أى: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء. أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبداً رابياً منتفخاً مرتفعاً على وجه السيل، أى يرمى به. وجفأت القدر بزبدها، وأجفأ السيل وأجفل. وفى قراءة رؤبة ابن العجاج: جفالا. وعن أبى حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤبة، لأنه كان يأكل الفأر. وقرئ: يوقدون، بالياء: أى يوقد الناس.

---

(١) قوله «وبالفلز الذى ينتفعون به» فى الصحاح «الفلز» بالكسر وتشديد الزاى: ماينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض اه فليحرر، ولعله مايبقيه الكير ...الخ. (ع)

(٢) قوله «السيول الجواحف» فى الصحاح «سيل جحاف» بالضم: إذا جرف كل شىء وذهب به. (ع)

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَافِى الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

﴿ للذين استجابوا ﴾ اللام متعلقة بيضرب . أى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا ، وللكافرين الذين لم يستجيبوا ، أى : هما مثلا الفريقين . و ﴿ الحسنى ﴾ صفة لمصدر استجابوا ، أى : استجابوا الاستجابة الحسنى . وقوله ﴿ لو أن لهم ﴾ كلام مبتدأ فى ذكر ما أعد لغير المستجيبين . وقيل : قد تم الكلام عند قوله (كذلك يضرب الله الأمثال) وما بعده كلام مستأنف . والحسنى : مبتدأ ، خبره (للذين استجابوا) والمعنى : لهم المثوبة الحسنى ، وهى الجنة (والذين لم يستجيبوا) مبتدأ خبره . «لو» مع ما فى حيزه و ﴿ سوء الحساب ﴾ المناقشة فيه . وعن النخعى : أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شىء

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

دخلت همزة الإنكار على الفاء فى قوله ﴿ أفمن يعلم ﴾ لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل فى أنّ حال من علم ﴿ أنما أنزل إليك من ربك الحق ﴾ فاستجاب ، بمعزل من حال الجاهل الذى لم يستبصر فيستجيب : كبعد ما بين الزبد والماء ، والخبث والإبريز ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أى الذين عملوا على قضيات عقولهم ، فنظروا واستبصروا .

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَاأَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

﴿ والذين يوفون بعهد الله﴾ مبتدأ . و (أولئك لهم عقبى الدار) خبره كقوله : والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة . ويجوز أن يكون صفة لأولى الألباب ، والأوّل أوجه . وعهد الله : ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) . ﴿ ولا ينقضون الميثاق﴾ ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه : من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد ، تعميم بعد تخصيص ﴿ ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الأرحام والقرابات ، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان (إنما المؤمنون إخوة) بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ، ونصرتهم ، والذب عنهم ، والشفقة عليهم ، والنصيحة لهم ، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم ، وإفشاء السلام عليهم ، وعيادة مرضاهم ، وشهود جنائزهم . ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ، وكل ما تعلق منهم بسبب ، حتى الهرة والدجاجة . وعن الفضيل بن عياض أنّ جماعة دخلوا عليه بمكة فقال : من أين أنتم ؟ قالوا : من أهل خراسان . قال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أنّ العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين ﴿ ويخشون ربهم ﴾ أي يخشون وعيده كله ﴿ ويخافون﴾ خصوصاً ﴿ سوء الحساب﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ﴿ صبروا ﴾ مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف ﴿ ابتغاء وجه ﴾ الله ، لا ليقال : ما أصبره وأحمله للنوازل ، وأوقره عند الزلازل ، ولا لئلا يعاب بالجزع ولئلا يشمت به الأعداء كقوله :

* وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ * (١)

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ولا مردّ فيه للفائت ، كقوله :

مَا إِنْ جَزِعْتُ وَلاَ هَلَعْـ ـتُ وَلاَ يَرُدُّ بُكَاىَ زَنْدَا (٢)

(١) وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

لأبي ذؤيب خويلد بن خالد المخزومي ، يرثى بنيه . روى أن معاوية مرض ، فعاده الحسن بن على رضى الله عنهما فقال : كحلوني وألبسوني عمامتي ، وأظهر القوة وأنشد له البيت الثاني ، فأجابه الحسن بغتة بالأول . وشبه المنية بالسبع على طريق المكنية . وإنشاب الأظفار : تخييل . ومنى له : قدر له . والمنية : الموت لأنه مقدر . والانشاب : الغرز والتعليق . ألفيت : أي وجدت كل تميمة لا تنفع ، وهى ما يعلق على الولدان خوف الجن والحسد . وتجلدى : أي تصبرى وتصلبي . مبتدأ . وأريهم : خبره ، أي أظهر لهم به أني لا أتضعضع وأتخشع وأضعف لأجل ريب الدهر ، أي حدثانه الطارئ من حيث لا أشعر .

(٢) ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا

=

وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما به كان حسناً عند الله ، وإلا لم يستحق به ثواباً ، وكان فعلا كلا فعل ﴿مما رزقناهم﴾ من الحلال : لأن الحرام لا يكون رزقا[1] ولا يسند إلى الله [2] ﴿سرًّا وعلانية﴾ يتناول النوافل ، لأنها فى السر أفضل . والفرائض ، لوجوب المجاهرة بها نفياً للتهمة ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ ويدفعونها . عن ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم . وعن الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا . وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا . وقيل : إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره ﴿عقبى الدار﴾ عاقبة الدنيا وهى الجنة ، لأنها التى أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها .[3] و ﴿جنات عدن﴾ بدل من عقبى الدار . وقرئ : فنعم ، بفتح النون .

أعددت للحدثان سا ... بغة وعداء علندى
نهداً وذا شطب يقد ... البيض والأبدان قدا
كم من أخ لى صالح ... بوأته بيدى لحدا
ما إن هلعت ولا جز ... عت ولا يرد بكاى زندا

لعمرو بن معديكرب . يقول : ليس الجمال بفاخر الثياب . وفاعلم : اعتراض . والخطاب لغير معين ، أى ليس كذلك وإن ألبستها والبرد ، ثوب سابغ يرتدى به إن الجمال خصال حميدة أكسبت أصحابها الشرف . والحدثان : مكروه الدهر المنقلب . والسابغة الدرع ، وكانت له درع من ذهب . والعداء : الفرس الكثير العدو . والعلندى ـ بالفتح ـ : الغليظ الشديد السريع . وشىء علند : صلب ـ واعلندى البعير : اشتد . والنهد : الضخم الطويل . والشطب ـ بالضم ـ : طرائق السيف . والأبدان : الدروع القصيرة ، وإذا قطع البيضة والبدن مع أنهما من الحديد ، قطع غيرهما بالأولى : مدح نفسه بالشجاعة ، ثم بالصبر فقال : كثير من إخوانى أنزلتهم اللحود بيدى ، ومع ذلك ما جزعت لا قليلا ولا كثيراً فان زائدة . والهلع : شدة الجزع . وفى الحديث «من شر ما أوتى العبد : شح هالع ، وجبن خالع» أى يهلع فيه وكأنه يخلع فؤاده . وتزند فلان . ضاق بالجواب وغضب . والمزند : مثل فى الشىء . ويقال للحقير : زندان فى مرقعة ، فالزند : الشىء الحقير . ويروى : زيداً ، بالياء ، على أنه زيد بن الخطاب أخو عمر رضى الله عنه ، كان صديقا له فى الجاهلية . ويروى : وهل يرد بكائى ؟ أى : لم أجزع ، لعلمى أنه لا ينفع .

(١) قوله «لأن الحرام لا يكون رزقا» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فيكون رزقا كالحلال . (ع)

(٢) قال محمود : «المراد مما رزقناهم من الحلال ، لأن الحرام لا يكون رزقا ولا يسند إلى الله تعالى» قال أحمد : الحق أن لا رازق إلا الله (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) كما أنه لا خالق إلا الله (هل من خالق غير الله) فاذا اقتضى العقل والسمع جميعاً أن لا رازق إلا الله فأى مقال بعد ذلك يبقى للقدرى الزاعم أن أكثر العبيد يرزقون أنفسهم لأن الغالب الحرام وهو مع ذلك مصمم على معتقده الفاسد لا يدعه ولا تكفه القوارع السمعية والعقلية ولا تردعه فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون .

(٣) قال محمود : «والمراد عاقبة الدنيا ومرجع أهلها ... الخ» قال أحمد : قد تكرر مجىء العاقبة المطلقة مثل (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) ، (من تكون له عاقبة الدار) . (والعاقبة للمتقين) والمراد فى جميع ذلك : عقبى الخير والسعادة ، والزمخشرى يستنبط من تكرار مجىء العاقبة المطلقة والمراد عاقبة الخير أنها هى التى أرادها الله فهى الأصل والعاقبة الأخرى لما لم تكن مرادة بل عارضة على خلاف المراد والأصل لم يكن من حقها أن يعبر عنها إلا بتقييد يفهمها كقوله (وعقبى الكافرين النار) كل ذلك من الزمخشرى تهالك على أن ينسب إلى الله إرادة ما لم يقع =

والأصل: نعم . فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها ، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل وقرئ: (يدخلونها) على البناء للمفعول . وقرأ ابن أبي عبلة (صلح) بضم اللام ، والفتح أفصح ، أعلم أن الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة . وآباؤهم جمع أبوى كل واحد منهم ، فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم ﴿ سلام عليكم ﴾ فى موضع الحال ، لأن المعنى : قائلين سلام عليكم ، أو مسلمين . فإن قلت : بم تعلق قوله ﴿ بما صبرتم ﴾ ؟ قلت : بمحذوف تقديره : هذا بما صبرتم ، يعنون هذا الثواب بسبب صبركم ، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملاذ والنعم . والمعنى : لئن تعبتم فى الدنيا لقد استرحتم الساعة ، كقوله :

* بِمَا قَدْ أَرَى فِيهَا أَوَانِسَ بُدَّنَا * (١)

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول « السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (٢) ويجوز أن يتعلق بسلام ، أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَـئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

﴿ من بعد ميثاقه ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول ﴿ سوء الدار ﴾ يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا ، لأنه فى مقابلة عقبى الدار . ويجوز أن يراد بالدار جهنم ، وبسوئها عذابها .

اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ (٢٦)

﴿ الله يبسط الرزق ﴾ أى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره ، وهو الذى بسط

= ومشيئة مالم يكن مصادمة لما أنطق الله به ألسنة حملة الشريعة ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وليس فى مجيء ذلك على الاطلاق مايعين أنه الأصل باعتبار الارادة ، ففعله الاصل باعتبار الأمر ، ونحن نقول : إن المؤدى إلى حمد العاقبة مأمور به ، والمؤدى إلى سوئها منهى عنه ، فمن ثم كانت عاقبة الخير هى الأصل ، والله الموفق .

(١) أرى الوحش ترعي اليوم فى ساحة الحما بما قد أرى فيها أوانس بدنا

يقول : أرى الوحش ترعى فى ساحة الحما فى هذا الزمان ، بدل ما كنت أرى فيها الأحبة ، فقد أرى : حكاية حال ماضية ، وقد لتقريبها . والأوانس : جمع آنسة . والبدن : جمع بادنة ، أى سمينة البدن .

(٢) أخرجه عبدالرزاق والطبرى من رواية سهيل بن أبي صالح عن محمد بن إبراهيم التيمى قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم - فذكره » وزاد « وكان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك » .

رزق أهل مكة ووسعه عليهم ﴿وفرحوا﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لافرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم ، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة ، وخفى عليهم أن نعيم الدنيا فى جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرا يتمتع به كعجالة الراكب ، وهو مايتعجله من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك .

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

فإن قلت : كيف طابق قولهم ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ قوله ﴿قل إن الله يضل من يشاء﴾ ؟ قلت : هو كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التى أوتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤتها نبى قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعاً للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ماأعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم : إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة فى الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿ويهدى إليه من﴾ كان على خلاف صفتكم ﴿أناب﴾ أقبل إلى الحق ، وحقيقته دخل فى نوبة الخير ، و﴿الذين آمنوا﴾ بدل من (من أناب) . ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته ، كقوله (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أو تطمئن بذكر دلائله الدالة على وحدانيته ، أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها ﴿الذين آمنوا﴾ مبتدأ ، و﴿طوبى لهم﴾ خبره . ويجوز أن يكون بدلا من القلوب ، على تقدير حذف المضاف ، أى : تطمئن القلوب قلوب الذين آمنوا ، وطوبى مصدر من طاب ، كبشرى وزلفى . ومعنى « طوبى لك » أصبت خيراً وطيبا ، ومحلها النصب أو الرفع ، كقولك : طيبا لك ، وطيب لك ، وسلاما لك ، وسلام لك . والقراءة فى قوله (وحسن مآب) بالرفع والنصب ، تدلك على محليها . واللام فى (لهم) للبيان مثلها فى سقيالك ، والواو فى طوبى منقلبة عن ياء لضمة ماقبلها ، كموقن وموسر . وقرأ مكوزة الأعرابى : طيبى لهم ، فكسر الطاء لتسلم الياء ، كما قيل : بيض ومعيشة .

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)

﴿ كذلك أرسلناك ﴾ مثل ذلك الإرسال أرسلناك ، يعنى : أرسلناك إرسالا له شأن وفضل على سائر الإرسالات ، ثم فسر كيف أرسله فقال ﴿ فى أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ أى أرسلناك فى أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهى آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء ﴿ لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذى أوحينا إليك ﴿ وهم يكفرون ﴾ وحال هؤلاء أنهم يكفرون ﴿ بالرحمن ﴾ بالبليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شىء ، وما بهم من نعمة فمنه، فكفروا بنعمته فى إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم ﴿ قل هو ربى ﴾ الواحد المتعالى عن الشركاء ﴿ عليه توكلت ﴾ فى نصرتى عليكم ﴿ وإليه متاب ﴾ فيثيبنى على مصابرتكم ومجاهدتكم .

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)

﴿ ولو أن قرآنا ﴾ جوابه محذوف ، كما تقول لغلامك : لو أنى قمت إليك ، وتترك الجواب والمعنى : ولو أن قرآنا ﴿ سيرت به الجبال ﴾ عن مقارها ، وزعزعت عن مضاجعها ﴿ أو قطعت به الأرض ﴾ حتى تتصدع وتتزايل قطعاً ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ فتسمع وتجيب ، لكان هذا القرآن لكونه غاية فى التذكير ونهاية فى الإنذار والتخويف ، كما قال (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله) هذا يعضد مافسرت به قوله (لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك) من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن . وقيل : معناه ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيههم ، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) الآية . وقيل : إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع ،

كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبياً كما تزعم ، فلست بأهون على الله من داود . وسخر لنا به الريح لنركبها و نتجر إلى الشام ثم نرجع فى يومنا ، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام . أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا : منهم قصى بن كلاب[1] فنزلت . ومعنى تقطيع الأرض على هذا : قطعها بالسير ومجاوزتها . وعن الفراء : هو متعلق بما قبله . والمعنى : وهم يكفرون بالرحمن (ولو أنّ قرآنا سيرت به الجبال) وما بينهما اعتراض ، وليس ببعيد من السداد . وقيل (قطعت به الأرض) شققت فجعلت أنهارا وعيونا ﴿ بل لله الأمر جميعا ﴾ على معنيين ، أحدهما : بل لله القدرة على كل شيء ، وهو قادر على الآيات التى اقترحوها ؛ إلا أنّ علمه بأنّ إظهارها مفسدة يصرفه . والثانى : بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان ، وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار . ويعضده قوله ﴿ أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله ﴾ يعنى مشيئة الإلجاء والقسر[2] ﴿ لهدى الناس جميعا ﴾ ومعنى (أفلم ييئس) أفلم يعلم . قيل : هى لغة قوم من النخع . وقيل : إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه ؛ لأنّ اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون ، كما استعمل الرجاء فى معنى الخوف ، والنسيان فى معنى الترك لتضمن ذلك . قال سحيم بن وثيل الرياحى :

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِي ... أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّى ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ[3]

ويدل عليه أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤا : أفلم يتبين ، وهو تفسير (أفلم ييئس) وقيل : إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات ، وهذا ونحوه مما لا يصدق

---

(١) لم أجده بهذا السياق ، وقد روى ابن ربيعة عن أبى أسامة عن مجالد عن الشعبى قال قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم «إن كنت نبياً كما تزعم فباعد بين جبلى مكة ـ أخشبيها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة حتى نزرع فيها ونرعى ، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرون أنك نبى ، أو احملنا إلى الشام ، أو إلى اليمن ، أو إلى الحيرة ، حتى نذهب ونجيء فى ليلة كما زعمت أنك فعلت . فأنزل الله تعالى (ولو أن قرآنا ـ الآية) وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق عطية بن أبى سعيد قال قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : «لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه الريح» وروى أبو يعلى من حديث الزبير بن العوام يقول «لما نزلت : وأنذر عشيرتك الأقربين صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا آل قريش ، فجاءته قريش . فحذرهم وأنذرهم فقالوا : تزعم أنك نبى وأن سليمان سخر له الريح والجبال ، وأن موسى سخر له البحر ، وأن عيسى كان يحيى الموتى . فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال وتفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث فنزرع ونأكل أو ادع الله أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا أو ادع الله أن يصير هذه الصخرة التى بجنبك ذهبا فننحت منها ويغنينا قال : فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحى . فلما سرى عنه قال : والذى نفسى بيده ، لقد أعطانى ما سألتم ولو شئت كان ولكن أخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم يعذبكم . فنزلت» .

(٢) قوله «أن لو يشاء الله يعنى مشيئة الالجاء» هذا عند المعتزلة دون أهل السنة . (ع)

(٣) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٦١ فراجعه إن شئت اه مصححه .

فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف يخفى مثل هـذا حتى يبقى ثابتا بين دفتى الإمام . وكان متقلبا فى أيدى أولئك الأعلام المحتاطين فى دين الله المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصا عن القانون الذى إليه المرجع ، والقاعدة التى عليها البناء ، وهذه والله فرية مافيها مرية . ويجوز أن يتعلق (أن لو يشاء) بآمنوا ، على : أولم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولهداهم ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿قارعة﴾ داهية تقرعهم بما يحل الله بهم فى كل وقت من صنوف البلايا والمصائب فى نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿أو تحل﴾ القارعة ﴿قريبا﴾ منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شرارها ، ويتعدى إليهم شرورها ﴿حتى يأتى وعد الله﴾ وهو موتهم ، أو القيامة . وقيل : ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة ؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يزال يبعث السرايا [1] فتغير حول مكة وتختطف منهم ، وتصيب من مواشيهم . أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك ، كما حل بالحديبية ، حتى يأتى وعد الله وهو فتح مكة ، وكان الله قد وعده ذلك

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

الإملاء : الإمهال ، وأن يترك ملاوة من الزمان فى خفض وأمن ، كالبهيمة يملى لها فى المرعى وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم . استهزاء به وتسلية له .

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

﴿أفمن هو قائم﴾ احتجاج عليهم فى إشراكهم بالله ، يعنى أفالله الذى هو قائم رقيب ﴿على كل نفس﴾ صالحة أو طالحة ﴿بما كسبت﴾ يعلم خيره وشره ، ويعدّ لكل جزاءه ،

(١) قلت : هو موجود فى المغازى لابن اسحق . والواقدى ، وطبقات ابن سعد فى عدة سرايا منها سرية زيد ابن حارثة ليلقى عير قريش ، وسرية على الحر بن سعد بن بكر وغيرهما .

كمن ليس كذلك . ويجوز أن يقدّر مايقع خبراً للمبتدإ ويعطف عليه وجعلوا ، وتمثيله : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ﴿وجعلوا﴾ له وهو الله الذى يستحق العبادة وحده ﴿شركاء قل سموهم﴾ أى جعلتم له شركاء فسموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم ، ثم قال : ﴿أم تنبؤونه﴾ على أم المنقطعة ، كقولك للرجل : قل لى من زيد أم هو أقل من أن يعرف ، ومعناه : بل أتنبؤونه بشركاء [1] لا يعلمهم فى الأرض وهو العالم بما فى السموات والأرض ، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم ، والمراد نفى أن يكون له شركاء . ونحوه : (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) ، ﴿أم بظاهر من القول﴾ بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كقوله (ذلك قولهم بأفواههم) ، (ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها) وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة [2] التى ورد عليها منادعلى نفسه بلسان طلق ذلق : أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وقرئ (أتنبئونه) بالتخفيف ﴿مكرهم﴾ كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وصدّوا﴾ قرئ بالحركات الثلاث . وقرأ ابن أبى إسحاق : وصدٌ بالتنوين ﴿ومن يضلل الله﴾ ومن يخذله لعلمه أنه لا يهتدى ﴿فما له من هاد﴾ فما له من أحد يقدر على هدايته ﴿لهم عذاب فى الحياة الدنيا﴾ وهو ماينالهم من القتل والأسر وسائر المحن ، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر ، ولذلك سماه عذابا ﴿وما لهم من الله من واق﴾ وما لهم من حافظ من عذابه . أو مالهم من جهته واق من رحمته .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾

﴿مثل الجنة﴾ صفتها التى هى فى غرابة المثل ، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف على مذهب سيبويه . أى فيما قصصناه عليكم مثل الجنة . وقال غيره : الخبر ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ كما تقول : صفة زيد أسمر . وقال الزجاج : معناه مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار ، على حذف الموصوف تمثيلا لما غاب عنا بما نشاهد . وقرأ على رضى الله عنه : أمثال الجنة ، على

(١) قال محمود : «معناه بل أتنبئونه بشركاء ... الخ» قال أحمد : وحقيقة هذا النفى أنهم ليسوا بشركاء ، وأن الله لا يعلمهم كذلك ، لأنهم ليسوا كذلك وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله ، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة ، ولكن مجيء النفى على هذا السنن المتلو بديع ، لاتكنه بلاغته وبراعته ، ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التعريف البديع لكان : وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء ، فلم يكن بهذا الموقع التى اقتضته التلاوة .

(٢) عاد كلامه . قال : «وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التى ورد عليها ... الخ» قال أحمد : هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلا ، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن فتنبه لها ، وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه وهو غافل عما تحته ، لولا هذا التنبيه والايقاظ ، والله أعلم .

الجمع. أى صفاتها ﴿أكلها دائم﴾ كقوله (لا مقطوعة ولا ممنوعة) ﴿وظلها﴾ دائم لا ينسخ، كما ينسخ فى الدنيا بالشمس.

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ يريد من أسلم من اليهود، كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن، هؤلاء ﴿يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب﴾ يعنى ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف وأصحابه، والسيد والعاقب أسقفى نجران وأشياعهما ﴿من ينكر بعضه﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعانى هو ثابت فى كتبهم غير محرف، وكانوا ينكرون ماهو نعت الإسلام ونعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما حرّفوه وبدّلوه من الشرائع. فإن قلت: كيف اتصل قوله ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله﴾ بما قبله؟ قلت: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إلىّ بأن أعبد الله ولا أشرك به. فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا) وقرأ نافع فى رواية أبى خليد: ولا أشرك بالرفع على الاستئناف كأنه قال: وأنا أشرك به ويجوز أن يكون فى موضع الحال على معنى: أمرت أن أعبد الله غير مشرك به. ﴿إليه أدعو﴾ خصوصاً لا أدعو إلى غيره ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره مرجعى، وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

﴿وكذلك أنزلناه﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه، والإنذار بدار الجزاء ﴿حكماً عربياً﴾ حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصابه على الحال. كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلى إلى قبلتهم بعد ما حوّله الله عنها، فقيل له: لئن تابعتهم على دين ماهو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة، خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك

فلا يقيك منه واق . وهذا من باب الإلهاب والتهييج ، والبعث للسامعين على الثبات فى الدين والتصلب فيه ، وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدّة الشكيمة بمكان .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)

كانوا يعيبونه بالزواج والولاد ، كما كانوا يقولون : مالهذا الرسول يأكل الطعام ، وكانوا يقترحون عليه الآيات ، وينكرون النسخ . فقيل : كان الرسل قبله بشراً مثله ذوى أزواج وذرية . وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم ولا يأتون بما يقترح عليهم ، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات ؛ فلكل وقت حكم يكتب على العباد . أى : يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم ﴿يمحو الله مايشاء﴾ ينسخ مايستصوب نسخه ، ويثبت بدله مايرى المصلحة فى إثباته ، أو يتركه غير منسوخ ، وقيل : يمحو من ديوان الحفظة ماليس بحسنة ولا سيئة ؛ لأنهم مأمورون بكتبة كل قول وفعل ﴿ويثبت﴾ غيره . وقيل . يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ، ويثبت إيمانهم وطاعتهم . وقيل : يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسى وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها . والكلام فى نحو هذا واسع المجال ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ ، لأنّ كل كائن مكتوب فيه . وقرئ : ويثبت .

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)

﴿وإن مانرينك﴾ وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم . أو توفيناك قبل ذلك ، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب ، وعلينا لاعليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم ، فلا يهمنك إعراضهم ، ولا تستعجل بعذابهم .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)

﴿أو لم يروا أنا نأتى الأرض﴾ أرض الكفر ﴿ننقصها من أطرافها﴾ بما نفتح على

المسلمين من بلادهم ، فننقص دار الحرب ونزيد فى دار الإسلام ، وذلك من آيات النصرة والغلبة ونحوه (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) ، (أفهم الغالبون) ، (سنريهم آياتنا فى الآفاق) والمعنى : عليك بالبلاغ الذى حملته ، ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ماوعدناك من الظفر ، ولا يضجرك تأخره ؛ فإن ذلك لما نعلم من المصالح التى لاتعلمها ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تباشير الظفر . وقرئ : ننقصها ، بالتشديد ﴿لامعقب لحكمه﴾ لاراد لحكمه . والمعقب : الذى يكر على الشىء فيبطله . وحقيقته : الذى يعقبه أى يقفيه بالرد والإبطال . ومنه قيل لصاحب الحق : معقب ؛ لأنه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب . قال لبيد :

* طَلَبَ الْمُعَقِّبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ * (١)

والمعنى : أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس ﴿وهو سريع الحساب﴾ فعما قليل يحاسبهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا . فإن قلت : ما محل قوله لامعقب لحكمه ؟ قلت : هو جملة محلها النصب على الحال ، كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه ، كما تقول جاءنى زيد لاعمامة على رأسه ولا قلنسوة ، تريد حاسراً .

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)

﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ وصفهم بالمكر ، ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال ﴿فلله المكر جميعا﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿يعلم ماتكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾ لأن من علم ماتكسب كل نفس ، وأعد لها جزاءها فهو المكر كله ؛ لأنه يأتيهم من حيث لايعلمون . وهم فى غفلة عما يراد بهم . وقرئ : الكفار . والكافرون . والذين كفروا . والكفر : أى أهله . والمراد بالكافر الجنس : وقرأ جناح بن حبيش ، وسيعلم الكافر ، من أعلمه أى سيخبر :

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

---

(١) حتى تهجر فى الرواح وهاجها طلب المعقب حقه المظلوم

للبيد بن ربيعة ، يصف حمار وحش خرج فى الهاجرة وراء أتانه ، وهاجها : أى بعثها على السير ونشطها لسرعة سيره فى طلبها ، كما يطلب المعقب المظلوم حقه ودينه ممن هو عليه ، فالمظلوم بالرفع صفة للمعقب ، لأنه فاعل فى المعنى . ومعناه الذى رجع إلى حقه الذى كان أعطاه للمدين ، فكأنه رجع على عقبه ، أو لأنه يعقب المدين ويتبعه

﴿كفى بالله شهيداً﴾ لما أظهر من الأدلة على رسالتى ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ والذى عنده علم القرآن [1] وما ألف عليه من النظم المعجز الفائت لقوى البشر . وقيل : ومن هو من علماء أهل الكتاب[2] الذين أسلموا . لأنهم يشهدون بنعته فى كتبهم : وقيل هو الله عز وعلا[3] والكتاب : اللوح المحفوظ . وعن الحسن : لاوالله مايعنى إلا الله . والمعنى : كفى بالذى يستحق العبادة وبالذى لايعلم علم مافى اللوح إلا هو ، شهيداً بينى وبينكم . وتعضده قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب ، على من الجارة ، أى . ومن لدنه علم الكتاب ، لأن علم من علمه من فضله ولطفه . وقرئ : ومن عنده علم الكتاب على من الجارة . وعلم ، على البناء للمفعول . وقرئ : وبمن عنده علم الكتاب . فان قلت : بم ارتفع علم الكتاب ؟ قلت: فى القراءة التى وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدر فى الظرف ، فيكون فاعلا ؛ لأنّ الظرف إذا وقع صلة أوغل فى شبه الفعل لاعتماده على الموصول ، فعمل عمل الفعل ، كقولك : مررت بالذى فى الدار أخوه. فأخوه فاعل ، كما تقول : بالذى استقرّ فى الدار أخوه . وفى القراءة التى لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالابتداء .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الرعد أعطى من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة ، وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله[4]

---

(١) قال محمود : «المراد والذى عنده علم القرآن ... الخ» قال أحمد : فيكون المراد حينئذ : جنس المؤمنين .

(٢) قال محمود : « وقيل ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته فى كتبهم » قال أحمد : فالكتاب على التأويل الأول مراد به القرآن خاصة ، وعلى الثانى جنس الكتب المتقدمة عليه .

(٣) قال محمود : « وقيل هو الله عز وجل ، والكتاب ، اللوح المحفوظ . وعن الحسن : لاوالله مايعنى إلا الله والمعنى : كفى بالذى يستحق العبادة وبالذى لايعلم مافى اللوح المحفوظ إلا هو ، شهيداً بينى وبينكم . وتعضده قراءة من قرأ (ومن عنده علم الكتاب) على من الجارة » قال أحمد : وإنما قدر الزمخشرى فى المعطوف عليه اسم الله بالذى يستحق العبادة ، حذراً من عطف الصفة على الموصوف ، وعدولا إلى أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى تقديراً وإنما أخذ الحصر حيث يقول : ومن لايعلم علم الكتاب إلا هو من أنه قدم الخبر الذى هو عنده على مبتدئه ، وشأن الزمخشرى أخذ الحصر من التقديم ، والله الموفق للصواب .

(٤) تقدم إسناده فى آل عمران .

سورة إبراهيم

مكية ، [إلا آيتى ٢٨ و ٢٩ فمدنيتان]

وآياتها ٥٢ [نزلت بعد سورة نوح]

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ (٣)

﴿ كتاب ﴾ هو كتاب ، يعنى السورة . وقرئ : ليخرج الناس . والظلمات والنور : استعارتان للضلال والهدى ﴿ بإذن ربهم ﴾ بتسهيله وتيسيره ، مستعار من الإذن الذى هو تسهيل للحجاب ، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل ، كقوله (للذين استضعفوا لمن آمن منهم) ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف ، كأنه قيل : إلى أى نور ؟ فقيل : إلى صراط العزيز الحميد . وقوله ﴿ الله ﴾ عطف بيان للعزيز الحميد ، لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذى تحق له العبادة كما غلب النجم فى الثريا . وقرئ بالرفع على : هو الله . الويل : نقيض الوأل ، وهو النجاة اسم معنى ، كالهلاك ؛ إلا أنه لا يشتق منه فعل ، إنما يقال : ويلا له ؛ فينصب نصب المصادر ، ثم يرفع رفعها لإفادة معنى الثبات ، فيقال : ويل له ، كقوله سلام عليك . ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل . فإن قلت : ما وجه اتصال قوله ﴿ من عذاب شديد ﴾ بالويل ؟ قلت : لأن المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد ، ويضجون منه ، ويقولون : ياويلاه ، كقوله (دعوا هنالك ثبوراً) ﴿ الذين يستحبون ﴾ مبتدأ خبره : أولئك فى ضلال بعيد ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين ، ومنصوبا على الذم ، أو مرفوعا على أعنى الذين يستحبون أو هم الذين يستحبون . والاستحباب : الإيثار والاختيار ، وهو استفعال من المحبة ؛ لأن المؤثر

للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن: ويصدّون، بضم الياء وكسر الصاد. يقال: صدّه عن كذا، وأصدّه. قال:

* أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمُ * [1]

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدوداً، لتنقله من غير التعدي إلى التعدي. وأما صدّه، فموضوع على التعدية كمنعه، وليست بفصيحة كأوقفه؛ لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة ﴿ويبغونها عوجاً﴾ ويطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً، وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، والأصل: ويبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل ﴿في ضلال بعيد﴾ أي ضلوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل. فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعد. قلت: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضالّ؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه. ويجوز أن يراد: في ضلال ذي بعد. أو فيه بعد: لأنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

﴿إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله[2]

(١) أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السواقي في أنوف الحوائم

لذي الرمة، أنشده عنه الفراء، يقال: صده عن كذا، ولغة كلب: أصده عنه إذا منعه، فوضع الصدود موضع الأصداد. والسوافي ـ بالفاء ـ: الرياح، لأنها تسفو التراب. وقيل: هي بالقاف جمع ساق أو ساقية، وهي فوق الجدول. والحوائم: الجمال العطاش؛ لأنها تحوم حول الماء جمع حائم، ويطلق على طير إذا اشتد عطشه حام حول الماء، فإذا ناله سقط ريشه فيغرق فيه. وجمعه حوائم أيضا. ويجوز أن يرادهنا. أو الجبال لأنها لارتفاعها تشرف من بعد كأنها حائمة، أو لأن الطير يحوم فوقها فنسبة الفعل إليها مجاز لأنها محله، يقول: قوم منعوا الناس عن أنفسهم بالسيف لمنع الرياح وضربها في أنوف الجمال، أو في أعالي الجبال، أو كمنع السقاة إبل غيرهم عن إبلهم في السقي، أو كمنع الأنهار لبعد مائها الابل العطاش أو الطيور العطاش عن الشرب، لأن الطيور تخاف الغرق فيه. ويروى: عن أنوف الحوائم. وفيه تشبيه الأعداء بالعطاش وأصحاب السيوف، أو السيوف بالرياح ضمنا.

(٢) قال محمود: «أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة ... الخ» قال أحمد: جميع الفصل مرضي، لكن في هذه الخاتمة نظر، لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة يتقاصر عن إعجازه، لو قدر منزلا بكل لسان، حتى إنه لو ينزل بجميع اللغات لبلغ من الوضوح إلى حد يكاد أن يكون الجاء إلى الايمان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يفيد العلم بصدق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح، فلو نزل القرآن بجميع اللغات، لكان العلم الحاصل منه وقد نزل بلغة واحدة، هو العلم الحاصل منه لو نزل بالجميع، لا تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، هذا هو التحقيق، والله أعلم. والزمخشري =

ولا يقولوا : لم نفهم ما خوطبنا به ، كما قال (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته) .
فإن قلت : لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) بل إلى الثقلين ، وهم على ألسنة مختلفة ، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية ، لم تكن للعرب حجة أيضاً . قلت : لا يخلو إمّا أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة ، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ، فبقى أن ينزل بلسان واحد ، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ؛ لأنهم أقرب إليه ، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر . قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمّة من أمم العجم ، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة ، والأقطار المتنازحة ،[1] والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة ، على كتاب واحد ، واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكد القرائح فيه ، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها ـ مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلا بصفة الإعجاز فى كل واحد منها ، وكلم الرسول العربىّ كل أمّة بلسانها كما كلم أمّته التى هو منها يتلوه عليهم معجزاً ـ لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء . ومعنى (بلسان قومه) بلغة قومه . وقرئ: بلسن قومه . واللسن واللسان : كالريش والرياش ، بمعنى اللغة . وقرئ : بلسن قومه بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة ، وهو جمع لسان . كعماد وعمد وعمد على التخفيف . وقيل : الضمير فى قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ورووه عن الضحاك . وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ، ثم أدّاها كل نبىّ بلغة قومه ، وليس بصحيح ؛ لأنّ قوله ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب ، فيؤدّى إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب ، وهذا معنى فاسد ﴿فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء﴾ كقوله (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) لأنّ الله لا يضلّ إلا من يعلم أنه لن يؤمن . ولا يهدى إلا من يعلم أنه يؤمن . والمراد بالإضلال : التخلية ومنع الألطاف[2] ، وبالهداية : التوفيق واللطف ، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان ﴿وهو العزيز﴾ فلا يغلب على مشيئته ﴿الحكيم﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان ، ولا يلطف إلا بأهل اللطف

ـــ يبنى فى كثير من كلامه على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلى وأجلى ، وهو من الحق بمعزل ، وإنما ظن ذلك طائفة ظاهرية ، والله الموفق .

(١) قوله «والأقطار المتنازحة» أى المتباعدة جداً . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «والمراد بالاضلال التخلية ومنع الألطاف» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فخلق الضلال فى القلب ، لأن الله لايخلق الشر عند المعتزلة ، ويخلقه كالخير عند أهل السنة . (ع)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)

﴿أن أخرج﴾ بمعنى أى أخرج ؛ لأنّ الإرسال فيه معنى القول ، كأنه قيل : أرسلناه وقلنا له أخرج . ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل ، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر، لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه فى تأويل المصدر وهو الفعل والأمر ، وغيره سواء فى الفعلية . والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل : قولهم أوعز إليه بأن افعل ، فأدخلوا عليها حرف الجر . وكذلك التقدير بأن أخرج قومك ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ وأنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم : قوم نوح وعاد وثمود . ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها ، كيوم ذى قار ، ويوم الفجار ، ويوم قضة وغيرها ، وهو الظاهر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : نعماؤه وبلاؤه . فأمّا نعماؤه ، فإنه ظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، وفلق لهم البحر . وأمّا بلاؤه فإهلاك القرون ﴿لكل صبار شكور﴾ يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه ، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم . تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر. وقيل : أراد لكل مؤمن ، لأنّ الشكر والصبر من سجاياهم ، تنبيهاً عليهم .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)

﴿إذ أنجاكم﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام ، أى إنعامه عليكم ذلك الوقت . فإن قلت : هل يجوز أن ينتصب بعليكم ؟ قلت : لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام ، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية . فإذا كان صلة لم يعمل فيه ، وإذا كان غير صلة بمعنى اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم عمل فيه ، ويتبين [1] الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت : نعمة الله عليكم ، فإن جعلته صلة لم يكن كلاما حتى تقول فائضة أو نحوها ، وإلا كان كلاما . ويجوز أن يكون «إذ» بدلا من نعمة الله ، أى : اذكروا وقت إنجائكم ، وهو من بدل الاشتمال . فإن قلت : فى سورة البقرة (يذبحون) وفى الأعراف (يقتلون) وههنا ﴿ويذبحون﴾ مع الواو ، فما الفرق؟ قلت : الفرق أنّ التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له ، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على

(١) قوله «ويتبين» لعله : وتبيين . (ع)

جنس العذاب ، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر . فإن قلت : كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم ؟ قلت : تمكينهم وإمهالهم ، حتى فعلوا مافعلوا ابتلاء من الله . ووجه آخر وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم ، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ، قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال زهير :

* فَأَبْلاَهُمَا خَيرَ البَلاَءِ الذى يَبْلُوا * [1]

* * *

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)

﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ من جملة ما قال موسى لقومه ، وانتصابه للعطف على قوله (نعمة الله عليكم) كأنه قيل : وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، واذكروا حين تأذن ربكم . ومعنى تأذن ربكم : أذن ربكم . ونظير تأذن وأذن : توعد وأوعد ، تفضل وأفضل . ولا بدّ فى تفعل من زيادة معنى ليس فى أفعل ، كأنه قيل : وإذ أذن ربكم إيذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبه . والمعنى : وإذ تأذن ربكم فقال ﴿ لئن شكرتم ﴾ أو أجرى (تأذن) مجرى ، قال؛ لأنه ضرب من القول . وفى قراءة ابن مسعود : وإذ قال ربكم لئن شكرتم ، أى لئن شكرتم يا بنى إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿ لأزيدنكم ﴾ نعمة إلى نعمة ، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم ﴿ ولئن كفرتم ﴾ وغمطتم [2] ما أنعمت به عليكم ﴿ إنّ عذابى لشديد ﴾ لمن كفر نعمتى .

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)

﴿ وقال موسى ﴾ إن كفرتم أنتم يا بنى اسرائيل والناس كلهم، فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذى لا بدّ لكم منه وأنتم إليه محاويج ، والله غنى عن شكركم ﴿ حميد ﴾ مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه ، وإن لم يحمده الحامدون .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٢٠٨ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله « وغمطتم ما أنعمت به عليكم » فى الصحاح «غمط الشىء» بطره وحقره . (ع)

﴿ والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله ﴾ جملة من مبتدإ وخبر ، وقعت اعتراضا : أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح . و (لايعلمهم إلا الله) اعتراض . والمعنى : أنهم من الكثرة بحيث لايعلم عددهم إلا الله . وعن ابن عباس رضى الله عنه : بين عدنان وإسمعيل ثلاثون أبا لايعرفون ، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسابون . يعنى أنهم يدعون علم الأنساب ، وقد نفى الله علمها عن العباد ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾ فعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل [1] ، كقوله (عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) أو ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه . أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أى هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره ، إقناطاً لهم من التصديق . ألا ترى إلى قوله (فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) وهذا قول قوى . أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء : أطبقوا أفواهكم واسكتوا . أو ردوها فى أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت . أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون . وقيل : الأيدى ، جمع يد وهى النعمة بمعنى الأيادى ، أى : ردوا نعم الأنبياء التى هى أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات فى أفواههم ، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها ، فكأنهم ردوها فى أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل ﴿ مما تدعوننا إليه ﴾ من الإيمان بالله . وقرئ : تدعونا ، بإدغام النون ﴿ مريب ﴾ موقع فى الريبة أو ذى ريبة ، من أرابه ، وأراب [2] الرجل ، وهى قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر .

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾

﴿ أفى الله شك ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف ، لأن الكلام ليس فى الشك ، إنما هو فى المشكوك فيه ، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه ﴿ يدعوكم ليغفر لكم من

---

(١) قال محمود : «معناه عضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل ... الخ» قال أحمد : وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذى نبه المصنف على اختصاصه بالقوة ، وإنما كان كذلك لأن إقناطهم الرسل من الإيمان قولا وفعلا بوضع اليد فى الفم ، هو المناسب لحسدهم فى الكفر . وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك مبالغة فى التأكيد وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيظ ولا لتصميت الرسل كمناسبته لإقناطهم من القبول . ألا ترى أنهم لما أعادوا للرسل القول ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة ، دل على أنهم لم يسكتوهم أولا ، ولا كان غرضهم ذلك ، والله أعلم .

(٢) قوله «وأراب الرجل» لعله : أو أراب . (ع)

ذنوبكم ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة كقوله : دعوته لينصرنى ، ودعوته ليأكل معى ، وقال :

دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِي مِسْوَرًا فَلَبَّى فَلَبَّيْ يَدَيْ مِسْوَرِ [1]

فإن قلت : مامعنى التبعيض فى قوله : من ذنوبكم ؟ قلت : ماعلمته جاء هكذا إلا فى خطاب الكافرين ، كقوله (واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم) ، (ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم) وقال فى خطاب المؤمنين : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) إلى أن قال (يغفر لكم ذنوبكم) وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد . وقيل : أريد أنه يغفر لهم مابينهم وبين الله ، بخلاف مابينهم وبين العباد من المظالم ونحوها ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره ، يبلغكموه إن آمنتم ، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ﴿ إن أنتم ﴾ ماأنتم ﴿ إلا بشر مثلنا ﴾ لافضل بيننا وبينكم ، ولا فضل لكم علينا ، فلم تخصون بالنبوة [2] دوننا ، ولو أرسل الله إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة [3] ﴿ بسلطان مبين ﴾ بحجة بينة ، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج ، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجا .

---

(١) لأعرابى من بنى أسد . ولبى : بمعنى أجاب ، ورسمه ابن حبيب بالألف وإن كان يائيا للفرق بينه وبين المثنى بعده . ولبى من الأسماء اللازمة للاضافة إلى الضمير ، وشذ إضافته للظاهر كما هنا ، من لب بالمكان لبا أقام به والمراد ملازمة إجابته إجابة بعد إجابة لااثنين فقط ، وهو منصوب على المصدرية بفعل محذوف . هذا مذهب سيبويه . وزعم يونس أنه مفرد مقصور ، قلبت ألفه مع الضمير ياء كلدى وعلى ، فرد عليه سيبويه بأنه لو كان كذلك لم تنقلب ألفه مع الظاهر ياء كلدى وعلى ، لكنهم لما أضافوه للظاهر قلبوها ياء كما فى البيت . يقول : دعوت مسورا لما أصابنى ، فأجابنى فلبى يديه ، أى أجاب الله دعاءه إجابة بعد إجابة ، وأقحم اليدين لأنهما يرفعان عند الدعاء ، فكأنهما المجابتان ؛ أو لأن نصره حصل بهما ، ففيه إشارة إلى أنه أنقذه . وقيل : إنه دعاه ليغرم عنه الدية ، فأجابه ، فذكر يديه لأنه بذل بهما . قيل : وكانت عادة العرب ذلك فنهى عنه . روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال . إذا دعا أحدكم أخاه فقال : لبيك ، فلا يقولن لبى يديك ، وليقل أجابك الله بما تحب .

(٢) عاد كلامه . قال : «وقولهم إن أنتم إلا بشر مثلنا : معناه فلم تخصون بالنبوة دوننا ؟ ولو أرسل الله إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» ؟ قال أحمد : ومن تهالكه على الانتصار لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر ، يستعين حتى بحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون كمعتقد القدرية فى تفضيل الملك على الرسول ، لأنه يدعى ذلك أمراً مركوزاً فى الطباع معلوما ضرورة ، والله الموفق .

(٣) قوله «لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» هذا على مذهب المعتزلة ، أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل . (ع)

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم. يعنون أنهم مثلهم فى البشرية وحدها. فأما ماوراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم، واقتصروا على قولهم (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بالنبوّة، لأنه قد علم أنه لايختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم ﴿إلا بإذن الله﴾ أرادوا أن الإتيان بالآية التى اقترحتموها ليس إلينا ولا فى استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوليا وأمروها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله فى الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجرى علينا منكم. ألا ترى إلى قوله ﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله﴾ ومعناه: وأىّ عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه ﴿وقد هدانا﴾ وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذى يجب عليه سلوكه فى الدين. فإن قلت: كيف كرّر الأمر بالتوكل[1]؟ قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ معناه فليثبت المتوكلون على مااستحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ماتقدم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)

﴿لنخرجنكم﴾، ﴿أو لتعودن﴾ ليكونن أحد الأمرين لامحالة، إما إخراجكم وإما عودكم حالفين[2] على ذلك. فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها. قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير فى كلام العرب كثرة فاشية لاتكاد تسمعهم يستعملون

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف كرر ذلك بعد قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ... الخ» قال أحمد: وبهذا يخرج عن وادى «من قتل قتيلا فله سلبه» والله أعلم.

(٢) قوله «حالفين» حال من فاعل قال. وعبارة النسفى «وحلفوا». (ع)

صار ، ولكن عاد ، ماعدت أراه عاد لايكلمنى ، ماعاد لفلان مال . أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به ، فغلبوا فى الخطاب الجماعة على الواحد ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ حكاية تقتضى إضمار القول ، أو إجراء الإيحاء مجرى القول ، لأنه ضرب منه . وقرأ أبو حيوة : ليهلكن ، وليسكننكم : بالياء اعتباراً لأوحى ، وأن لفظه لفظ الغيبة ، ونحوه قولك : أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن . والمراد بالأرض . أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) ، (وأورثكم أرضهم وديارهم) . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من آذى جاره ورثه الله داره [١] » ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة : كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا منها ويؤذينى فيه . فمات ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته ، فنظرت يوما إلى أبناء خالى يترددون فيها ويدخلون فى دورها ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحدثتهم به ، وسجدنا شكراً لله ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ماقضى به الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم ، أى ذلك الأمر حق ﴿ لمن خاف مقامى ﴾ موقفى وهو موقف الحساب ، لأنه موقف الله الذى يقف [٢] فيه عباده يوم القيامة ، أو على إقحام المقام . وقيل : خاف قيامى عليه وحفظى لأعماله . والمعنى أنّ ذلك حق للمتقين ، كقوله (والعاقبة للمتقين) .

وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

﴿ واستفتحوا ﴾ واستنصروا الله على أعدائهم (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أو استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهى الحكومة ، كقوله تعالى (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) وهو معطوف على (أوحى إليهم) وقرئ : واستفتحوا ، بلفظ الأمر . وعطفه على (لنهلكن) أى : أوحى إليهم ربهم وقال لهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا ، وخاب كل جبار عنيد ، وهم قومهم . وقيل : واستفتح الكفار على الرسل ، ظنا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل ، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه ﴿ من ورائه ﴾ من بين يديه . قال :

(١) لم أجده .

(٢) قوله «يقف فيه عباده» فى الصحاح : يتعدى ولايتعدى . (ع)

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِى أَمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ [(١)]

وهذا وصف حاله وهو فى الدنيا ، لأنه مرصد لجهنم ، فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله فى الآخرة حين يبعث ويوقف . فان قلت : علام عطف ﴿ ويسقى ﴾ ؟ قلت : على محذوف تقديره : من ورائه جهنم يلقى فيها مايلقى ويسقى من ماء صديد ، كأنه أشد عذابها فخصص بالذكر مع قوله (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) . فإن قلت : ماوجه قوله تعالى ﴿ من ماء صديد ﴾ ؟ قلت : صديد عطف بيان لماء . قال (ويسقى من ماء) فأبهمه إبهاما ثم بينه بقوله (صديد) وهو مايسيل من جلود أهل النار ﴿ يتجرعه ﴾ يتكلف جرعه ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ دخل كاد للمبالغة . يعنى : ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون الإساغة ، كقوله (لم يكد يراها) أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ كأنّ أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه [(٢)] وأحاطت به من جميع الجهات ، تفظيعا لما يصيبه من الآلام . وقيل (من كل مكان) من جسده حتى من إبهام رجله . وقيل : من أصل كل شعرة ﴿ ومن ورائه ﴾ ومن بين يديه ﴿ عذاب غليظ ﴾ أى فى كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله وأغلظ . وعن الفضيل : هو قطع الأنفاس وحبسها فى الأجساد . ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أى استمطروا ـ والفتح المطر ـ فى سنى القحط التى أرسلت عليهم بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسقوا ، فذكر سبحانه ذلك ، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى فى جهنم بدل سقياه ماء آخر ، وهو صديد أهل النار . واستفتحوا ـ على هذا التفسير ـ :

---

(١)
يؤرقنى اكتئاب أبى نمير فقلبى من كآبته كئيب
فقلت له هداك الله مهلا وخير القول ذو اللب المصيب
عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

لهدبة بن خشرم العذرى . ويروى : خرشم . وكان مسجونا للقتل . والتأريق : التسهير ، والاكتئاب : الانكسار وتغير اللون من الحزن ، والكآبة كذلك . وأبو نمير كان صديقا له ، فزاره لك السجن وحزن عليه . ومهلا : مصدر بدل من اللفظ بفعله . وخير القول : جملة اعتراضية فى أثناء مقول القول . واللب : العقل . وعسى الكرب : تتمة مقول القول . ويروى : أمسيت ، بالضم والفتح . وقال الجوهرى «وراء» يأتى بمعنى خلف ، وقد يأتى بمعنى قدام ، فهو من الأضداد اه ؛ لأنه ماوراء الشخص بجرمه عن نفسه أو عن غيره ، وموارانه عن نفسه لا يمكن إلا فى الخلف ، فكثر فيه . أو هو مكان المواراة مطلقا ، وهو فى الخلف أكثر . واسم «يكون» ضمير الكرب ، ووراءه متعلق بمحذوف خبر ليكون ، و«فرج» فاعل بالظرف . ويجوز أن «فرج» مبتدأ و«وراءه» متعلق بمحذوف خبر له ، والجملة خبر ليكون ، ويجب كون المحذوف كونا تاما لا ناقصا ؛ لئلا يحتاج إلى تقدير محذوف أيضا ، فيتسلسل التقدير ، ولم يجعل «فرج» مرفوع بيكون ؛ لأن خبر أفعال المقاربة لا يرفع الأجنبى عن أسمائها . وجملة «يكون» خبر ليس ، وتجريد خبرها من «أن» قليل أى عسى أن يحصل الفرج بعد الكرب .

(٢) قوله «قد تألبت عليه» أى تجمعت . أفاده الصحاح . (ع)

كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه، تقديره: وفيما يقص عليك ﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله ﴿أعمالهم كرماد﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد. ويجوز أن يكون المعنى: مثل أعمال الذين كفروا بربهم. أو هذه الجملة خبرا للمبتدإ، أى صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول، أو يكون أعمالهم بدلا من (مثل الذين كفروا) على تقدير: مثل أعمالهم، وكرماد: الخبر. وقرئ: الرياح ﴿فى يوم عاصف﴾ جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح أو الرياح، كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة. وإنما السكور لريحها[1] وقرئ: فى يوم عاصف، بالإضافة. وأعمال الكفرة المكارم التى كانت لهم، من صلة الأرحام وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجازة، وغير ذلك من صنائعهم، شبهها فى حبوطها وذهابها هباء منثورا لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به، وكونها لوجهه: برماد طيرته الريح العاصف ﴿لا يقدرون﴾ يوم القيامة ﴿مما كسبوا﴾ من أعمالهم ﴿على شيء﴾ أى لا يرون له أثرا من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير فى الريح على شيء ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب ﴿بالحق﴾ بالحكمة والغرض الصحيح[2] والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثا ولا شهوة

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

وقرئ: خالق السموات والأرض ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أى هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلاما منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ بمتعذر،

(١) قوله «وإنما السكور لريحها» فى الصحاح: سكرت الريح، تسكر سكورا: سكنت بعد الهبوب. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه خلقها بالحكمة والغرض الصحيح ... الخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفى وقد تقدمت أمثاله.

بل هو هين عليه يسير [1]، لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعى إلى شيء وانتفى الصارف، تكون من غير توقف: كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف. وهذه الآيات بيان لإبعادهم فى الضلال وعظيم خطئهم فى الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة وأنه هو الحقيق بأن يعبد، ويخاف عقابه ويرجى ثوابه فى دار الجزاء.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)

﴿وبرزوا لله﴾ ويبرزون يوم القيامة. وإنما جيء به بلفظ الماضى، لأنّ ما أخبر به عزّ وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد، ونحوه (ونادى أصحاب الجنة)، (ونادى أصحاب النار) ونظائر له. ومعنى بروزهم لله ـ والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له ـ أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنون أن ذلك خاف على الله،، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أنّ الله لا يخفى عليه خافية. أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه. فإن قلت: لم كتب ﴿الضعفؤا﴾ بواو قبل الهمزة؟ قلت: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو. ونظيره (علمؤا بنى إسرائيل) والضعفاء: الأتباع والعوام. والذين استكبروا: ساداتهم وكبراؤهم، الذين استتبعوهم واستغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم ﴿تبعا﴾ تابعين: جمع تابع على تبع، كقولهم: خادم وخدم وغائب وغيب [2] أو ذوى تبع. والتبع: الأتباع، يقال: تبعه تبعا. فان قلت: أى فرق بين من فى ﴿من عذاب الله﴾ وبينه فى ﴿من شيء﴾؟ قلت: الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذى هو عذابُ الله. ويجوز أن تكونا للتبعيض معا، بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، أى: بعض بعض عذاب الله

---

(١) عاد كلامه. قال: معناه وماذلك على الله بعزيز، أى: هين عليه، لأنه قادر بالذات الخ... قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع فى إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جل جلاله، خلص له الداعى وأمضى الصارف، وما أنباه عن سمع المحققين العارفين بآداب الله تعالى وبما يجب فى حق جلاله، وقد تقدم مافيه كفاية.

(٢) قوله «خادم وخدم وغائب وغيب» فى الصحاح: وإنما ثبتت فيه الياء فى التحريك، لأنه شبه بصيد وإن كان جمعا، وصيد مصدر قولك «بعير أصيد» لأنه يجوز أن ينوى به المصدر. (ع)

فإن قلت : فما معنى قوله ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ ؟ قلت الذى قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم[1] وعتابا على استتباعهم واستغوائهم . وقولهم (فهل أنتم مغنون عنا) من باب التبكيت ؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ، فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم : بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلوهم ، إما موركين الذنب[2] فى ضلالهم وإضلالهم على الله ، كما حكى الله عنهم وقالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) ، (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء) يقولون ذلك فى الآخرة كما كانوا يقولونه فى الدنيا . ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء) . وإما أن يكون المعنى : لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان . وقيل : معناه لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم ، أى : لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر . والهمزة وأم للتسوية . ونحوه : (اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم) وروى أنهم يقولون : تعالوا نجزع ، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم ، فيقولون : تعالوا نصبر ، فيصبرون كذلك ثم يقولون : سواء علينا . فإن قلت : كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله ؟ قلت : اتصاله به من حيث أنّ عتابهم لهم كان جزعا مما هم فيه ، فقالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، يريدون أنفسهم وإياهم ، لاجتماعهم فى عقاب الضلالة التى كانوا مجتمعين فيها ، يقولون : ما هذا الجزع والتوبيخ ، ولا فائدة فى الجزع كما لا فائدة فى الصبر والأمرَ من ذلك أطمّ . أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم ، أتبعوه الإقناط من النجاة فقالوا ﴿ما لنا من محيص﴾ أى منجى ومهرب ، جزعنا أم صبرنا . ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً ، كأنه قيل : قالوا جميعا سواء علينا ، كقوله (ذلك ليعلم أنى لم

---

(١) قال محمود : «والذى قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم ... الخ» قال أحمد : لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة المشتملة على أن الله تعالى مهما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن هداية المشركين مما لم يشأه ، ولو شاءها لاهتدوا . وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار فى دار الحق حين حقت لهم الحقائق وانكشف الغطاء . والمقصود من اقتصاصه : إنذار أمثالهم فى الدنيا ، وتحذيرهم من الحسرة والندم فى الآخرة إذا حق عليهم العذاب واعترفوا بالحق وقالوا القول المذكور ، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى ، فلما فطن الزمخشرى لذلك شرع فى تقرير تخطئتهم فى هذا القول فى الآخرة كما خطأهم فى الدنيا ، ليتم له اعتقاد أن الله يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء . ومن ذلك هداية الكفار فان الله تعالى يشاؤها فى الدنيا ، لكنها لم تكن . وأنى له ذلك ، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور وينذر الغافلين عنه فى الدنيا ، ويحذرهم من التورط فيما يؤدى إلى هذا الندم ، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة ، إذ لا ينجع ، كما أورد كلام الشيطان عقيب ذلك حين يعترف بالحق فى دار الحق ، وحيث لا ينفعه إيمانه ، فيقول : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ... الخ . وإنما سيق تحذيراً وإنذاراً اتفاقا ، والله الموفق

(٢) قوله «موركين الذنب» فى الصحاح : ورك فلان ذنبه على غيره ، أى : قرفه به اه ، أى : اتهمه به . (ع)

أخته) والمحيص يكون مصدراً ، كالمغيب والمشيب . ومكانا ، كالمبيت والمصيف . ويقال : حاص عنه وجاض ، بمعنى واحد .

وَقَالَ الشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَـٰنٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

﴿لما قضى الأمر﴾ لما قطع الأمر وفرغ منه ، وهو الحساب ، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار . وروى أنّ الشيطان يقوم عندذلك خطيباً[1] فى الأشقياء من الجنّ والإنس فيقول ذلك ﴿ إنّ الله وعدكم وعد الحق ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿ووعدتكم﴾ خلاف ذلك ﴿فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان﴾ من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصى وألجئكم إليها ﴿إلا أن دعوتكم﴾ إلا دعائى إياكم إلى الضلالة بوسوستى وتزيينى ، وليس الدعاء من جنس السلطان ، ولكنه كقولك : ما تحيتهم إلا الضرب . ﴿فلا تلومونى ولوموا أنفسكم﴾ حيث اغتررتم بى وأطعتمونى إذ دعوتكم ، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم . وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذى يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه ،[2] وليس من الله إلا التمكين ، ولا من الشيطان إلا التزيين . ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال : فلا تلومونى ولا أنفسكم ، فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه . فإن قلت :

(١) قال محمود : «روى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا ... الخ» قال أحمد : قد حمل قول الكفار فى الآية الأولى على إبطال الانتحال ، لأنه لايلائم معتقده ، واستشهد على أن الكذب حينئذ غير ممتنع ولا متعذر بقوله تعالى (فيحلفون له كما يحلفون لكم) ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده ، اجتهد فى الاستدلال على تصويبه وتصحيحه وإن كان قائله الشيطان ، كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه وأية سلك . ونحن معاشر أهل السنة الملقبين عنده بالمجبرة نقول : إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راد له ، ولامخطىء فيه الشيطان ، كما اقتص كلام الكفار فى الآية الأولى كذلك . ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف وأما الله تعالى فمقدس عن ذلك . وحجته البالغة ، وقضاؤه الحق . وذلك أنا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبد من الاختيار الذى يجده من نفسه عند تجاذب طرفى الأفعال الارادية ضرورة ، وبذلك قامت الحجة له على خلقه ، وإن سلبنا عن قدرة الخلق تأثيرها فى الفعل ، فلاتناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف ، والله الموفق .

(٢) قوله «يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه» هذا مذهب المعتزلة ، وقوله «المجبرة» يعنى أهل السنة ، ومذهبهم أن الله هو الخالق لأسباب السعادة وأسباب الشقاوة ، لكن العبد له فيها الكسب . ومن هذا يتوجه عليه اللوم ، خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن العبد هو الخالق لها ، وهو الذى يحصل لنفسه . وتحقيقه فى علم التوحيد . (ع)

قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به . قلت : لو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره ، على أنه لا طائل له فى النطق بالباطل فى ذلك المقام : ألا ترى إلى قوله (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم) كيف أتى فيه بالحق والصدق ، وفى قوله (وما كان لى عليكم من سلطان) وهو مثل قول الله تعالى : (إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) ، ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ ﴾ لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه . والإصراخ : الإغاثة . وقرئ : بمصرخى ، بكسر الياء وهى ضعيفة ، واستشهدوا لها ببيت مجهول :

قَالَ لَهَا هَلْ لَكِ يَاتَا فِيِّ قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالْمَرْضِى (١)

وكأنه قدر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة ؛ فحركها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ، ولكنه غير صحيح ، لأنّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة ، حيث قبلها ألف فى نحو عصاى ، فما بالها وقبلها ياء ؟ فإن قلت : جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام ، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن ، فحركت بالكسر على الأصل . قلت : هذا قياس حسن ، ولكن الاستعمال المستفيض الذى هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات . « ما » فى ﴿ بما أشركتمونى ﴾ مصدرية ، و ﴿ من قبل ﴾ متعلقة بأشركتمونى ، يعنى : كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم ، أى فى الدنيا ، كقوله تعالى (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) ومعنى كفره بإشراكهم إياه : تبرؤه منه واستنكاره له ، كقوله تعالى (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم) وقيل : (من قبل) يتعلق بكفرت . وما موصولة ، أى : كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله عز وجل ، تقول : شركت زيداً ، فإذا نقلت بالهمزة قلت : أشركنيه فلان . أى : جعلنى له شريكا . ونحو « ما » هذه « ما » فى قولهم : سبحان ما سخركنّ لنا . ومعنى إشراكهم الشيطان بالله : طاعتهم

---

(١) قال لها هل لك ياتا فىّ قالت له ما أنت بالمرضى

• ماض إذا ماهم بالمضى •

قائله مجهول . وتا : اسم إشارة ، أى : هل لك ياهذه المرأة رغبة فى . وأصل ياء المتكلم السكون ، فان حركت فبالفتح ، لكن لما التقت هنا ساكنة مع الياء قبلها ساغ كسرها ، على الأصل فى التخلص من التقاء الساكنين . وقالت : استئناف ، كأنه قيل له : فما ذا قالت ؟ فقال : قالت له لست مرضيا ، فانك رجل ماض فى كل أمرتهمّ فيه ، فماض : خبر لمبتدإ محذوف . والجملة : استئناف جواب للسؤال عن علة عدم الرضا . وعبر بضمير الغيبة فى قوله : هم نظراء للخير . ويجوز تقدير المبتدأ لفظ « هو » فيكون التفاتا من الخطاب إلى الغيبة ، دلالة على الاعراض عنه ، وذكر السبب لغيره .

له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها ، وهذا آخر قول إبليس . وقوله ﴿إن الظالمين﴾ قول الله عزّ وجلّ . ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس ، وإنما حكى الله عزّ وعلا ما سيقوله فى ذلك الوقت ، ليكون لطفا للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه ، وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم . وقرئ : فلا يلومونى ، بالياء على طريقة الالتفات ، كقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) .

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : وأدخل الذين آمنوا ،[١] على فعل المتكلم ، بمعنى : وأدخل أنا وهذا دليل على أنه من قول الله ، لا من قول إبليس ﴿بإذن ربهم﴾ متعلق بأدخل ، أى : أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.. فإن قلت : فيم يتعلق فى القراءة الأخرى ، وقولك : وأدخلهم أنا بإذن ربهم ، كلام غير ملتئم ؟ قلت : الوجه فى هذه القراءة أن يتعلق قوله : (بإذن ربهم) بما بعده ، أى ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ بإذن ربهم ، يعنى : أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

قرئ ﴿ألم تر﴾ ساكنة الراء ، كما قرئ : من يتق ، وفيه ضعف ﴿ضرب الله مثلا﴾ اعتمد مثلا ووضعه . و ﴿كلمة طيبة﴾ نصب بمضمر ، أى : جعل كلمة طيبة ﴿كشجرة طيبة﴾ وهو

---

(١) قال محمود : «وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : وأدخل الذين آمنوا على فعل المتكلم ... الخ» قال أحمد : فان قلت : ما الذى صرف الزمخشرى عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، وألجأه إلى تعليقه بما بعده ، وقد كانت له فى ذلك مندوحة ، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض . ألا ترى إلى قوله تعالى (طه ما أنزلنا عليك لتشقى) ثم قال (تنزيلا ممن خلق الأرض) ولم يقل تنزيلا منا . قلت : لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه ، وهو أن ظاهر (أدخل) بلفظ المتكلم ، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة ، بل من الله تعالى مباشرة ، وظاهر الاذن يشعر باضافة الدخول إلى الواسطة ، فبينهما تنافر ، ولكن يحسن عندى أن يعلق بخالدين ، والخلود غير الدخول ، فلا تنافر ، والله أعلم .

تفسير لقوله (ضرب الله مثلا) كقولك : شرّف الأمير زيداً : كساه حلة ، وحمله على فرس . ويجوز أن ينتصب (مثلا) و (كلمة) بضرب ، أى : ضرب كلمة طيبة مثلا ، بمعنى : جعلها مثلا ثم قال (كشجرة طيبة) على أنها خبر مبتدأ محذوف ، بمعنى هى كشجرة طيبة ﴿أصلها ثابت﴾ يعنى فى الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿وفرعها﴾ وأعلاها ورأسها ﴿فى السماء﴾ ويجوز أن يريد : وفروعها ، على الاكتفاء بلفظ الجنس . وقرأ أنس بن مالك : كشجرة طيبة ثابت أصلها فإن قلت : أىّ فرق بين القراءتين ؟ قلت : قراءة الجماعة أقوى معنى ؛ لأنّ فى قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة ، وإذا قلت : مررت برجل أبوه قائم ، فهو أقوى معنى من قولك : مررت برجل قائم أبوه : لأنّ المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل . والكلمة الطيبة : كلمة التوحيد . وقيل: كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة . وعن ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله . وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار ، كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك . وعن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : « إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبرونى ما هى » [1] فوقع الناس فى شجر البوادى ، وكنت صبيا ، فوقع فى قلبى أنها النخلة ، فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم . وروى : فمنعنى مكان عمر واستحييت ، فقال لى عمر : يا بنىّ لو كنت قلتها لكانت أحبّ إلىّ من حمر النعم ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إنها النخلة » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : شجرة فى الجنة وقوله (فى السماء) معناه فى جهة العلوّ والصعود ، ولم يرد المظلة ، كقولك فى الجبل : طويل فى السماء تريد ارتفاعه وشموخه ﴿تؤتى أكلها كل حين﴾ تعطى ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها ﴿بإذن ربها﴾ بتيسير خالقها وتكوينه ﴿لعلهم يتذكرون﴾ لأن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعانى .

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

﴿كشجرة خبيثة﴾ كمثل شجرة خبيثة ، أى : صفتها كصفتها . وقرئ : ومثل كلمة بالنصب ، عطفا على كلمة طيبة . والكلمة الخبيثة : كلمة الشرك . وقيل : كل كلمة قبيحة . وأمّا الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوث [2] ونحو ذلك . وقوله ﴿اجتثت من فوق الأرض﴾ فى مقابلة قوله (أصلها ثابت) ومعنى (اجتثت) استؤصلت . وحقيقة الاجتثاث

(١) متفق عليه وله ألفاظ .

(٢) قوله « والكشوث » فى الصحاح الكشوث نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق فى الأرض . قال الشاعر : هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)

أخذ الجثة كلها ﴿مالها من قرار﴾ أى استقرار . يقال : قرّ الشيء قراراً ، كقولك : ثبت ثباتا ، شبه بها القول الذى لم يعضد بحجة ، فهو داحض غير ثابت والذى لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه ، من قولهم : الباطل لجلج [1] . وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء . ماتقول فى كلمة خبيثة ؟ فقال : ماأعلم لها فى الأرض مستقراً ، ولا فى السماء مصعداً ، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها القيامة .

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

﴿القول الثابت﴾ الذى ثبت بالحجة [2] والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه . وتثبيتهم به فى الدنيا : أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يزلوا ، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود ، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما . وتثبيتهم فى الآخرة . أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم ، لم يتلعثموا ولم يبهتوا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل معناه الثبات عند سؤال القبر . وعن البراء ابن عازب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال«ثم يعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره ويقولان له : من ربك ؟ ومادينك؟ ومن نبيك ؟ فيقول : ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبيي محمد ، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فذلك قوله : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت» [3] ﴿ويضل الله الظالمين﴾ الذين لم يتمسكوا بحجة فى دينهم ، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم ، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة) وإضلالهم فى الدنيا أنهم لا يثبتون فى مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء ، وهم فى الآخرة أضل وأذل ﴿ويفعل الله مايشاء﴾ أى ماتوجبه الحكمة ، لأن مشيئة الله تابعة

---

(١) قوله «من قولهم الباطل لجلج » فى الصحاح : الحق أبلج ، والباطل لجلج ، أى : يردد من غير أن ينفذ . (ع)

(٢) قوله « القول الثابت الذى ثبت بالحجة» لما فسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد والخبيثة بكلمة الشرك ، فالمتجه تفسير القول الثابت بقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وإضلال الظالمين بابقائهم على كلمة الشرك ، (إن الشرك لظلم عظيم) وأما التمسك بالحجة وتقليد الشيوخ فبعيد عن السياق . وفيه رد على أهل السنة المكتفين بالتقليد فى تحقق الايمان . (ع)

(٣) هذا طرف من حديث له طويل أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبى شيبة وأبو يعلى من رواية سعد بن عبيدة عند البخارى مرفوعا فى قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) قال : نزلت فى عذاب القبر . يقال له : من ربك وما دينك ؟ فيقول : ربى الله . ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم . وذلك قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا ... الآية) .

للحكمة ، من تثبيت المؤمنين وتأييدهم ، وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم ، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم ، والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)

﴿ بدلوا نعمة الله ﴾ أى شكر نعمة الله ﴿ كفراً ﴾ لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلا، ونحوه (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه . ووجه آخر : وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفراً على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبى النعمة موصوفين بالكفر ، حاصلا لهم الكفر بدل النعمة . وهم أهل مكة : أسكنهم الله حرمه ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فكفروا نعمة الله بدل مالزمهم من الشكر العظيم . أو أصابهم الله بالنعمة فى الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضربهم بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقدذهبت عنهم النعمة وبقى الكفر طوقا فى أعناقهم . وعن عمر رضى الله عنه : هم الأفجران من قريش : بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر . وأما بنو أمية فتمتعوا حتى حين . وقيل : هم متنصرة العرب : جبلة بن الأيهم وأصحابه ﴿ وأحلوا قومهم ﴾ ممن تابعهم على الكفر ﴿ دار البوار ﴾ دار الهلاك . وعطف ﴿ جهنم ﴾ على دار البوار عطف بيان . قرئ (ليضلوا) بفتح الياء وضمها . فإن قلت : الضلال والإضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد ، فما معنى اللام ؟ قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد ، كما كان الإكرام فى قولك : جئتك لتكرمنى ، نتيجة المجىء ، دخلته اللام وإن لم يكن غرضا ، على طريق التشبيه والتقريب ﴿ تمتعوا ﴾ إيذان بأنهم لانغماسهم فى التمتع بالحاضر ، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه ، مأمورون به ، قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه ، وهو أمر الشهوة . والمعنى : إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه (قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) .

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١)

المقول محذوف ،[1] لأن جواب (قل) يدل عليه ، وتقديره ﴿قل لعبادى الذين آمنوا﴾ أقيموا الصلاة وأنفقوا ﴿يقيموا الصلاة وينفقوا﴾ وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا ، بمعنى : ليقيموا ولينفقوا ، ويكون هذا هو المقول ، قالوا : وإنما جاز حذف اللام ، لأنّ الأمر الذى هو (قل) عوض منه ، ولو قيل : يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام ، لم يجز. فإن قلت : علام انتصب ﴿سرا وعلانية﴾ ؟ قلت : على الحال ، أى : ذوى سرّ وعلانية، بمعنى: مسرين ومعلنين . أو على الظرف ، أى وقتى سر وعلانية ، أو على المصدر ، أى : إنفاق سر وإنفاق علانية ، المعنى : إخفاء المتطوع به من الصدقات والاعلان بالواجب : والخلال : المخالة. فإن قلت : كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾؟[2] قلت: من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم فى عقود المعاوضات ، فيعطون بدلا ليأخذوا مثله ، وفى المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها . وأمّا الإنفاق لوجه الله خالصاً كقوله (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص ، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله فى يوم لا بيع فيه ولا خلال ، أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة ، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله . وقرئ : لا بيع فيه ولا خلال ، بالرفع .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)﴾

---

(١) قال محمود : «المقول محذوف ... الخ» قال أحمد : وفى هذا الاعراب نظر ، لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من الله تعالى ، بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا ، لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم ، وخبر الله تعالى يجل عن الخلف ، وهذه النكتة هى الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الاعراب مع تبادره فيما ذكر بادى الرأى ، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق ، ويقوى بوجهين لطيفين ، أحدهما : أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالايمان الحق المنوه بإيمانه عند الأمر ، كهذه الآية وكقوله (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) ، (وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) ، (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) الثانى : تكرر مجيئه للموصوفين بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله ، وقد قالوا إن لفظ العباد لم يرد فى الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين ، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف ، فالحاصل من ذلك أن المأمور فى هذه الآى من هو بصدد الامتثال وفى حيز المسارعة للطاعة ، فالخبر فى أمثالهم حق وصدق ، إما على العموم إن أريد ، أو على الغالب ، والله أعلم .

(٢) قوله «بأنه لا بيع فيه ولا خلال» هذه القراءة بالبناء على الفتح . (ع)

وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

﴿الله﴾ مبتدأ، و﴿الذى خلق﴾ خبره، و﴿من الثمرات﴾ بيان للرزق، أى: أخرج به رزقا هو ثمرات. ويجوز أن يكون (من الثمرات) مفعول أخرج، و﴿رزقا﴾ حالا من المفعول، أو نصباً على المصدر من أخرج، لأنه فى معنى رزق ﴿بأمره﴾ بقوله كن ﴿دائبين﴾ يدأبان فى سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم[1] ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ من للتبعيض، أى آتاكم بعض جميع ما سألتموه. نظراً فى مصالحكم. وقرئ من كلٍّ بالتنوين، وما سألتموه نفى ومحله النصب على الحال أى: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون (ما) موصولة، على: وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال ﴿لا تحصوها﴾ لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال. وأمّا التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله ﴿لظلوم﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿كفار﴾ شديد الكفران لها. وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع، كفار فى النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦)

﴿هذا البلد﴾ يعنى البلد الحرام، زاده الله أمناً، وكفاه كل باغ وظالم، وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام ﴿آمناً﴾ ذا أمن. فإن قلت: أى فرق بين قوله (اجعل هذا بلداً آمناً) وبين قوله (اجعل هذا البلد آمناً)؟ قلت: قد سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون، وفى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً ﴿واجنبنى﴾ وقرئ: وأجنبنى، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه، فأهل الحجاز يقولون: جنبنى شره بالتشديد، وأهل نجد

(١) قوله «وسباتكم» فى الصحاح: السبات النوم، وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتا). (ع)

جنبني وأجنبني ، والمعنى : ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها ﴿ وبنىّ ﴾ أراد بنيه من صلبه . وسئل ابن عيينة : كيف عبدت العرب الأصنام ؟ فقال : ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنما ، واحتج بقوله (واجنبنى وبنىّ) ﴿ أن نعبد الأصنام ﴾ إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم ، قالوا : البيت حجر ، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت ، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار ، فاستحب أن يقال : طاف بالبيت ، ولا يقال : دار بالبيت ﴿ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس ﴾ فأعوذ بك أن تعصمنى[1] وبنىّ من ذلك ، وإنما جعلن مضلات : لأنّ الناس ضلوا بسببهنّ ، فكأنهنّ أضللنهم ، كما تقول : فتنتهم الدنيا وغرّتهم ، أى افتتنوا بها واغتروا بسببها ﴿ فمن تبعنى ﴾ على ملتى وكان حنيفا مسلما مثلى ﴿ فإنه منى ﴾ أى هو بعضى لفرط اختصاصه بى وملابسته لى ، وكذلك قوله « من غشنا فليس منا »[2] أى ليس بعض المؤمنين ، على أنّ الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم ﴿ ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ تغفر له ما سلف منه من عصيانى إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لى . وقيل : معناه ومن عصانى فيما دون الشرك .

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)

﴿ من ذرّيتى ﴾ بعض أولادى وهم إسماعيل ومن ولد منه ﴿ بواد ﴾ هو وادى مكة ﴿ غير ذى زرع ﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قط ، كقوله (قرآناً عربيا غير ذى عوج) بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج ، ما فيه إلا الاستقامة لا غير . وقيل للبيت المحرم ، لأنّ الله حرم التعرض له والتهاون به ، وجعل ما حوله حرما لمكانه ، أو لأنه لم يزل ممنعا عزيزا يهابه كل جبار ، كالشيء المحرم الذى حقه أن يجتنب ، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه ، أو لأنه حرّم على الطوفان أى منع منه ، كما سمى عتيقا لأنه أعتق منه فلم يستول عليه ﴿ ليقيموا الصلاة ﴾ اللام متعلقة بأسكنت ، أى : ما أسكنتهم هذا الوادى الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق ، إلا ليقيموا

---

(١) قوله « فأعوذ بك أن تعصمنى » لعله أن لا تعصمنى . (ع)

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وابن حبان من حديث ابن مسعود وإسحاق والبزار من حديث ابن عمر . والبخارى فى التاريخ . والطبرانى فى الأوسط من حديث البراء . والبزار من حديث عائشة . وابن أبى شيبة من حديث أبى الحمراء . والحاكم من رواية عمير بن سعيد النخعى وابن أبى شيبة من رواية جميع بن عمير عن خالد بن برزة والطبرانى من حديث أبى موسى والبيهقى فى الشعب من طريق حسين بن عبد الله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، كذلك أخرجه البيهقى فى الشعب ، وأخرجه الطبرانى من هذا الوجه . فلم يذكر عليا . وأخرجه أبو نعيم عن أنس وعن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن أبى ربيعة عن جده به .

الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك ، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع ، مستسعدين بجوارك الكريم ، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك ، والطواف به ، والركوع والسجود حوله ، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك ﴿ أفئدة من الناس ﴾ أفئدة من أفئدة الناس ، ومن للتبعيض ، ويدل عليه ما روى عن مجاهد : لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم ، وقيل : لو لم يقل (من) لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند . ويجوز أن يكون (من) للابتداء ، كقولك : القلب منى سقيم ، تريد قلبي ، فكأنه قيل : أفئدة ناس ، وإنما نكرت المضاف إليه فى هذا التمثيل لتنكير أفئدة ، لأنها فى الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة . وقرئ : آفدة ، بوزن عاقدة . وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من القلب كقولك : آدر ، فى أدؤر . والثانى : أن يكون اسم فاعلة من أفدت الرحلة إذا عجلت ، أى : جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم . وقرئ : أفدة ، وفيه وجهان : أن تطرح الهمزة للتخفيف ، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين . وأن يكون من أفد ﴿تهوى إليهم﴾ تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقا ونزاعا من قوله :

* يَهْوِى مَخَارِمَهَا هُوِىَّ الأَجْدَلِ * (١)

وقرئ : تهوى إليهم ، على البناء للمفعول ، من هوى إليه وأهواه غيره . وتهوى إليهم ، من هوى يهوى إذا أحب ، ضمن معنى تنزع فعدى تعديته ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ مع سكناهم

(١)
فاذا نبذت له الحصاة رأيته ... ينزو لوقعتها طمور الأخيل
وإذا يهب من المنام رأيته ... كرتوب كعب الساق ليس بزمل
وإذا رميت به الفجاج رأيته ... يهوى مخارمها هوى الأجدل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

لأبى كبير الهذلى ، يصف تأبط شراً بالتيقظ والشجاعة ، يقول : إذا رميت له الحصاة مجرباً له هل هو نائم أو صاح ، ينزو : أى يثب بسرعة ، طمور الأخيل : أى وثوب الأخيل ، أى ينهض كنهوضه : وهو طاير تتشاءم منه العرب ، وأصله من التخيل ، وقيل من الخيلاء . ورتب رتوباً : انتصب انتصاباً وارتفع ارتفاعاً ، أى : رأيته يرتفع عن الأرض كارتفاع كعب الساق . والزمل والزمال والزميل - بتشديد الميم فيها - : هو الضعيف الملتف بثيابه ، ثم قال : وإذا قذفته فى نواحى الأمكنة المتسعة ، رأيته يهوى مخارمها ، أى : يسرع فى سلوك مسالكها الضيقة ، كهوى الأجدل وهو الصقر ، أى كاسراعه فى الطيران . ويروى : الجندل وهو الحجر . والأسرة : خطوط الجبهة جمع سرار . والعارض : السحاب المعترض فى الأفق . والمتهلل : اللامع ، أو المرتفع الذى سيمطر . وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت قاعدة أغزل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخصف نعله ، فتحضر جبينه عرقا ، فتولد فى عينى نوراً ، فجعلت أنظر إليه فقال : ماتنظرين ؟ فقلت له ذلك ، وقلت : أما والله لو رآك الهذلى لعلم أنك أحق بشعره ، فقال : وماقال ؟ قلت : وإذا نظرت... البيت . فوضع ما فى يده وقام فقبل ما بين عينى وقال : جزاك الله خيرا ، ماسررت كسرورى بكلامك .

واديا ما فيه شيء منها ، بأن تجلب إليهم من البلاد ﴿لعلهم يشكرون﴾ النعمة فى أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة فى واد يباب ليس فيه نجم[1] ولا شجر ولا ماء . لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته فجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنه ، ثم فضله فى وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا ، وفى أى بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التى يريكها الله بواد غير ذى زرع ، وهى اجتماع البواكير والفواكه[2] المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد ، وليس ذلك من آياته بعجيب ، متعنا الله بسكنى حرمه ، ووفقنا لشكر نعمه ، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام ، ورزقنا طرفا من سلامة ذلك القلب السليم .

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى ﴿إنك تعلم ما نخفى وما نعلن﴾ تعلم السر كما تعلم العلن علما لا تفاوت فيه ، لأن غيبا من الغيوب لا يحتجب عنك . والمعنى : أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا ، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها ، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب ، وإنما ندعوك إظهارا للعبودية لك ، وتخشعا لعظمتك ، وتذللا لعزتك ، وافتقارا إلى ما عندك ، واستعجالا لنيل أياديك ، وولها إلى رحمتك ، وكما يتملق العبد بين يدى سيده ، رغبة فى إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة . وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح ، فأراد أن يذكره فقال : مثلك لا يذكر استقصارا ولا توهما للغفلة عن حوائج السائلين ، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها . وقيل : ما نخفى من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة ، وما نعلن من البكاء والدعاء . وقيل: ما نخفى من كآبة الافتراق ، وما نعلن: يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع : إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله أكلكم . قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا نخشى ، تركتنا إلى كاف ﴿وما يخفى على الله من شيء﴾ من كلام الله عز وجل تصديقا لإبراهيم عليه السلام ، كقوله (وكذلك يفعلون) أو من كلام إبراهيم ، يعنى : وما يخفى على الله الذى هو عالم الغيب من شيء فى كل مكان . «ومن» للاستغراق ، كأنه قيل: وما يخفى عليه

(١) قوله «فى واد يباب ليس فيه نجم» أى خراب . والنجم : نبات لا ساق له ، كذا فى الصحاح . (ع)
(٢) قوله «وهى اجتماع البواكير والفواكه» الباكورة : أول الفاكهة ، كما فى الصحاح . (ع)

شيء ما. (على) في قوله ﴿على الكبر﴾ بمعنى مع، كقوله:

إِنِّى عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِى أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ [1]

وهو في موضع الحال، معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر. روى أنّ إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روى أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين. وإسحق لتسعين. وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر حال الكبر لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة. والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إنّ ربي لسميع الدعاء﴾ كان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر لله ما أكرمه به من إجابته فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء، أجابه أو لم يجبه. قلت: هو من قولك: سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله. ومنه: سمع الله لمن حمده. وفي الحديث [2] «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن[3]» فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟ قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله لسميع الدعاء. وقد ذكر سيبويه فعيلا في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، كقولك: هذا ضروب زيداً، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أموراً، ورحيم أباه ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعا على الإسناد المجازي. والمراد سماع الله.

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

﴿ومن ذرّيتي﴾ وبعض ذرّيتي، عطفا على المنصوب في اجعلني، وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذرّيته كفار، وذلك قوله (لا ينال عهدي الظالمين). ﴿وتقبل دعائي﴾ أي

(١) ترين: أصله ترأيين كتفعلين، نقلت فتحة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت وحذفت الياء الأولى بعد قلبها ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها. يقول. إني مع ما تنظرينه من كبرى وهرمى الموجب للخرف عادة، عارف بالأمور متيقظ لها. وكنى عن ذلك بقوله: أعرف من أين تؤكل الكتف، أي: أعرف جواب هذا الاستفهام، ويروى: من حيث، فلعل من زائدة. قال بعضهم: تؤكل الكتف من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها، وهو مثل يضرب للجرب المتفطن للأمور.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قوله «كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن» في الصحاح: كإذنه لمن يتغنى... الخ. (ع)

عبادتى (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) فى قراءة أبىّ : ولأبوىّ . وقرأ سعيد بن جبير : ولوالدى ، على الإفراد ، يعنى أباه . وقرأ الحسن بن على رضى الله عنهما : ولولدىّ ، يعنى إسماعيل وإسحق . وقرئ : لولدى ، بضم الواو . والولد بمعنى الولد ، كالعدم والعدم . وقيل : جمع ولد ، كأسد فى أسد . وفى بعض المصاحف : ولذريتى . فإن قلت : كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟ قلت : هو من مجوزات العقل[٣] لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف . وقيل : أراد بوالديه آدم وحواء . وقيل : بشرط الإسلام . ويأباه قوله (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحا لا مقال فيه ، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أى يثبت ، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل ، والدليل عليه قولهم : قامت الحرب على ساقها . ونحوه قولهم : ترجلت الشمس : إذا أشرقت وثبت ضوؤها ، كأنها قامت على رجل . ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازيا ، أو يكون مثل (واسئل القرية) وعن مجاهد : قد استجاب الله له فيما سأل ، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته ، وجعل البلد آمنا ، ورزق أهله من الثمرات . وجعله إماما ، وجعل فى ذريته من يقيم الصلاة ، وأراه مناسكه ، وتاب عليه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كانت الطائف من أرض فلسطين ، فلما قال إبراهيم (ربنا إنى أسكنت) الآية ، رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم .

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾

فإن قلت : يتعالى الله عن السهو والغفلة ، فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الناس به غافلا حتى قيل ﴿ولا تحسبن الله غافلا﴾ ؟ قلت : إن كان خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان . أحدهما التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا ، كقوله (ولا تكونن من المشركين) ، (ولا تدع مع الله إلها آخر ، كما جاء فى الأمر (يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) والثانى : أنّ المراد بالنهى عن حسبانه غافلا ، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون ، لا يخفى عليه منه شىء ، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله : (والله بما تعملون عليم) يريد الوعيد . ويجوز أن يراد : ولا تحسبنه يعاملهم معاملة

---

(٣) قوله «هو من مجوزات العقل» يعنى على مذهب المعتزلة أن العقل قد يدرك الحكم بدون شرع ، ومذهب أهل السنة أن لا حكم قبل الشرع حتى يدرك بدونه ، فافهم . (ع)

الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النقير والقطمير، وإن كان خطابا لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلا، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه. وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له. من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه. وقرئ: يؤخرهم، بالنون والياء ﴿تشخص فيه الأبصار﴾ أى أبصارهم لاتقرّ فى أماكنها من هول ماترى ﴿مهطعين﴾ مسرعين إلى الداعى. وقيل: الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئى تديم النظر إليه لاتطرف ﴿مقنعى رؤوسهم﴾ رافعيها ﴿لايرتد إليهم طرفهم﴾ لايرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم، أى: لايطرفون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان. أو لايرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. الهواء: الخلاء الذى لم تشغله الأجرام، فوصف به فقيل: قلب فلان هواء إذا كان جبانا لاقوة فى قلبه ولا جرأة. ويقال للأحمق أيضا: قلبه هواء. قال زهير:

* مِنَ الظُّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ * (١)

لأنّ النعام مثل فى الجبن والحمق. وقال حسان:

* فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ * (٢)

---

(١) كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء
أصك مصلم الأذنين أجنى له بالسن تنوم وآء

لزهير بن أبى سلمى يصف ناقته. والصعل: المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس. والظلمان: جمع ظليم وهو ولد النعام، والجؤجؤ: الصدر. والهواء: الخالى الفارغ، وجعل صدره فارغا ليكون أسرع فى السير إلى طعامه. والأصك: الذى تصطك ركبتاه عند المشى لطول رجليه. وصلمه: قطعه. والتصليم: مبالغة. ويقال: أجنى الثمر إذا أدرك، وأجنت الأرض: كثر كلؤها وخصبها. والسن، المكان المستوى واسم موضع بعينه. والتنوم - وزن تنور -: شجر تنفلق كامه عن حب صغير تأكله أهل البادية، يغلب على لونه السواد. قيل: وهو شجر الشهدانج. والآء: جنس من الشجر واحده آءة. وقيل: ثمر ذلك الشجر يطلق على نوع من الصوت: والتنوم: فاعل أجنى، أى كثر له فى ذلك المكان هذان النوعان.

(٢) ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركت عبيداً وعبد الدار سادتها الاماء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

لحسان يهجو أبا سفيان قبل إسلامه. وألا للتنبيه، والمأمور بالابلاغ غير معين، وكان الظن أن يقول: فانه، أى: أبا سفيان، لكن خاطبه بالذم لأنه أغيظ. ويجوز أن المأمور أبو سفيان، فهو منادى بحذف حرف النداء. والمجوف والنخب والهواء: خالى الجوف، أو فارغ القلب من العقل والشجاعة. وروى بدل هذا الشطر «مغلغلة فقد برح الخفاء» والمغلغلة: الحارة من الغلة بالضم، وهى شدة العطش والحرارة. وقيل. المنقولة من مكان لآخر، =

وعن ابن جريج (أفئدتهم هواء) صفر من الخير خاوية منه . وقال أبو عبيدة : جوف لاعقول لهم .

وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧)

﴿ يوم يأتيهم العذاب ﴾ مفعول ثان لأنذر وهو يوم القيامة . ومعنى ﴿ أخرنا إلى أجل قريب ﴾ ردّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب ، نتدارك مافرطنا فيه من إجابة

= وبرح كسمع : ذهب وزال . وقيل : ظهر واتضح من براح الأرض وهو البارز منها . فالخفا بمعنى التستر أو السر . وإسناد الترك للسيوف مجاز عقلي ، لأنها آلة للفعل . وعبيد بالتصغير قبيلة . وكذلك عبدالدار ، وسادتها مبتدأ . والاماء خبره . والجملة فى محل المفعول الثانى لتركت ، أى صيرت عبيداً لاسادة لها إلاالنساء ، وصيرت عبدالدار كذلك ، يعنى : أننا أفنينا رجالها الرؤساء الأشراف ، فأشرافهما النساء لاغير ، بل يجوز أنهم سواء الحرائر أيضاً ، فلم يبق إلا الرقائق . وأتهجوه : استفهام توبيخى ، والواو بعده للحال ، أى : لاينبغى ذلك شر وخير ، من قبيل أفعل التفضيل . واختصا بحذف همزتهما تخفيفاً لكثرة استعمالها ، لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبوسفيان ، والجملة دعائية ، دعا عليه بأن يكون فداءا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبرزه فى صورة الابهام لأجل الانصاف فى الكلام ، ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا : هذا نصف بيت قالته العرب ، فعليك بالانصاف وأمن يهجو : استفهام إنكارى . أى ليس من يهجوه منكم ومن يمدحه وينصره منا مستويين . ويحتمل أن الهمزة للتنبيه . أو للنداء ، والمنادى محذوف ، أى : ياقوم أبى سفيان إن الذى يهجو رسول الله منكم والذى يمدحه وينصره منكم مستويان فى عدم الاكتراث بهما وروى : فمن ، ولابد من تقدير ، أى : من يهجوه ويخذله منكم ليقابل الخذلان النصر كالهجو والمدح ، ثم إن فى هذا دليلا على جواز حذف الموصول ، وقد أجازه الكوفيون والأخفش ، وتبعهم أبو مالك ، وشرط كونه معطوفا على موصول آخر كما هنا . وقوله : ووالده ، أى والد أبى . ويروى : ووالدى . والوقاء : مايتوقى به المكروه . كالترس وزن الحزام والرباط المفعول به الفعل ، فهو إما بمعنى اسم مفعول أو اسم الآلة . ورأيت فى كلام الزمخشرى مايفيد تسمية هذا الوزن باسم المفعول . وفى الهمع مايفيد أنه جاء شاذاً من أوزان الآلة ، كأراث لما تورث به النار ، أى تضرم به ، وسراد لما يسرد به ، أى يخرز به . ولما سمع صلى الله عليه وسلم قوله «وعند الله فى ذلك الجزاء» قال : جزاك الله الجنة باحسان . ولما سمع قوله «فان أبى» قال : وقاك الله حر النار باحسان . وتقريره صلى الله عليه وسلم على المكافأة بالذم ، يدل على الجواز .

دعوتك واتباع رسلك. أو أريد باليوم: يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب، كقوله (لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق). ﴿أو لم تكونوا أقسمتم﴾ على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطرًا وأشرا، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً. و﴿مالكم﴾ جواب القسم. وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله (أقسمتم) ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: مالنا ﴿من زوال﴾ والمعنى أقسمتم أنكم باقون فى الدنيا لاتزالون بالموت والفناء. وقيل. لاتنتقلون إلى دار أخرى يعنى كفرهم بالبعث، كقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) يقال: سكن الدار وسكن فيها. ومنه قوله تعالى ﴿وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ لأن السكنى من السكون الذى هو اللبث، والأصل تعديه بفى، كقولك: قرّ فى الدار وغنى فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوأها وأوطنها. ويجوز أن يكون: سكنوا [1]، من السكون، أى: قرّوا فيها واطمأنوا طيبى النفوس، سائرين سيرة من قبلهم فى الظلم والفساد، لايحدثونها بما لقى الأوّلون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا ﴿وتبين لكم﴾ بالإخبار والمشاهدة ﴿كيف﴾ أهلكناهم وانتقمنا منهم. وقرئ: ونبين لكم، بالنون ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أى صفات مافعلوا وما فعل بهم، وهى فى الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم ﴿وقد مكروا مكرهم﴾ أى مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم ﴿وعند الله مكرهم﴾ لايخلوا إمّا أن يكون مضافا إلى الفاعل كالأوّل، على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافا إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذى يمكرهم [2] به، وهو عذابهم الذى يستحقونه يأتيهم به من حيث لايشعرون ولا يحتسبون ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ وإن عظم مكرهم وتبالغ فى الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلا لتفاقمه وشدته، أى: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال. معداً لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها، كقوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم. على أنّ الجبال مثل لآيات الله وشرائعه، لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً. وتنصره قراءة ابن

(١) قوله «ويجوز أن يكون سكنوا» لعله: سكنتم. (ع)

(٢) قوله «وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به» الذى فى الصحاح المكر: الاحتيال والخديعة، وقد مكر به. والمكر أيضاً: المغرة، وقد مكره فامتكر، أي خضبه فاختضب اه، وهو يفيد أن المكر بمعنى الاحتيال لايتعدى بنفسه، فتدبر. (ع)

مسعود: وما كان مكرهم. وقرئ: لتزول، بلام الابتداء، على: وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها. وقرأ على وعمر رضى الله عنهما: وإن كاد مكرهم ﴿مخلف وعده رسله﴾ يعنى قوله (إنا لننصر رسلنا)، (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى). فإن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثانى على الأول[1]؟ قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لايخلف الوعد أصلا، كقوله (إن الله لايخلف الميعاد) ثم قال (رسله) ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً - وليس من شأنه إخلاف المواعيد - كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟ وقرئ: مخلف وعده رسله، بجر الرسل ونصب الوعد. وهذه فى الضعف كمن قرأ (قتل أولادهم شركائهم). ﴿عزيز﴾ غالب لايماكر ﴿ذو انتقام﴾ لأوليائه من أعدائه.

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)

﴿يوم تبدل الأرض﴾ انتصابه على البدل من يوم يأتيهم. أو على الظرف للانتقام. والمعنى: يوم تبدل هذه الأرض التى تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة، وكذلك السموات. والتبديل: التغيير، وقد يكون فى الذوات كقولك: بدلت الدراهم دنانير. ومنه (بدلناهم جلوداً غيرها) و (بدلناهم بجنتيهم جنتين) وفى الأوصاف، كقولك: بدلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل. ومنه قوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) واختلف فى تبديل الأرض والسموات، فقيل: تبدل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها. وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت. وعن ابن عباس: هى تلك الأرض وإنما تغير، وأنشد:

---

(١) قال محمود: «وإن قلت لم قدم المفعول الثانى على الأول ... الخ» ؟ قال أحمد: وفيما قاله نظر؛ لأن الفعل متى تقيد بمفعول انقطع إطلاقه، فليس تقديم الوعد فى الآية دليلا على إطلاق الفعل باعتبار الموعود، حتى يكون ذكر الرسل بائناً كالأجنبي من الاطلاق الأول، ولافرق فى المعنى الذى ذكره بين تقديم ذكر الرسل وتأخيره ولايفيد تقديم المفعول الثانى إلا الايذان بالعناية فى مقصود المتكلم والأمر بهذه المثابة فى الآية، لأنها وردت فى سياق الانذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله تعالى به على ألسنة الرسل، فالمهم فى التهديد ذكر الوعيد. وأما كونه على ألسنة الرسل فذلك أمر لايقف التخويف عليه ولابد، حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه حسبياً كافياً، والله أعلم.

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتَهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ [١]

وتبدّل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبوابا. وقيل: يخلق بدلها أرض وسموات أخر. وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة. وعن على رضى الله عنه: تبدّل أرضا من فضة، وسموات من ذهب. وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف. وقرئ: يوم نبدّل الأرض، بالنون. [٢] فإن قلت: كيف قال ﴿الواحد القهار﴾؟ قلت: هو كقوله (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) لأنّ الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعازّ فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، كان الأمر في غاية الصعوبة والشدّة ﴿مقرّنين﴾ قرن بعضهم مع بعض. أو مع الشياطين. أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين. وقوله ﴿فى الأصفاد﴾ إمّا أن يتعلق بمقرّنين، أى: يقرنون فى الأصفاد. وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى: مقرّنين مصفدين. والأصفاد: القيود: وقيل الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لَاقَى صِفَادًا يَعَضُّ بِسَاعِدٍ وَبِعَظْمِ سَاقِ [٣]

القطران: فيه ثلاثة لغات: قطران، وقطران، وقطران: بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهى القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران. وحرقته، وإسراع النار فى جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعد به فى الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره. وكأنهما عندنا منه إلا الأسامى والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه. وقرئ: من قطر آن، والقطر: النحاس أو الصفر المذاب. والآنى: المتناهى حرّه ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ كقوله تعالى (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب)، (يوم يسحبون فى النار على

(١) يقول: ليس الناس اليوم هم الناس الذين عهدتهم سابقا، لفناء الأحياء من بينهم، وليست الدار اليوم هى الدار التى كنت تعلمها، لتبدل أحوالها وتغير أوصافها.

(٢) قوله «وقرئ نبدل الأرض بالنون» لعله ونصب الأرض والسموات، فلتحرر القراءة. (ع)

(٣) لسلامة بن جندل. وزيد الخيل: هو الذى سماه النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير. قد لاقى: أى نال من أعدائه صفادا، أى قيدا وغلا. واستعار العض لقرص الصفاد اليابس الصلب على طريق التصريحية. والباء للالصاق، وأقحم لفظ العظم للمبالغة فى العض حتى وصل العظم.

وجوههم) لأن الوجه أعز موضع فى ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب فى باطنه ، ولذلك قال (تطلع على الأفئدة) وقرئ : وتغشى وجوههم ، بمعنى تتغشى : أى يفعل بالمجرمين ما يفعل ﴿ ليجزى الله كل نفس ﴾ مجرمة ﴿ ما كسبت ﴾ أو كل نفس من مجرمة ومطيعة لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم .

هَـٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ كفاية فى التذكير والموعظة . يعنى بهذا ما وصفه من قوله (ولا تحسبن) إلى قوله (سريع الحساب) . ﴿ ولينذروا ﴾ معطوف على محذوف ، أى لينصحوا ولينذروا ﴿ به ﴾ بهذا البلاغ . وقرئ : ولينذروا ، بفتح الياء . من نذر به إذا علمه[1] واستعدّ له ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به ، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد ، لأنّ الخشية أم الخير كله .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة إبراهيم أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد »[2]

---

(١) قوله « من نذر به إذا علمه » فى الصحاح : نذر القوم بالعدو ـ بكسر الذال ـ إذا علموا . (ع)

(٢) يأتى إسناده فى آخر الكتاب .

سورة الحجر

مكية [إلا آية ٨٧ فمدنية]

وهى تسع وتسعون آية [نزلت بعد سورة يوسف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١)

﴿تلك﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات . والكتاب . والقرآن المبين : السورة . وتنكير القرآن للتفخيم . والمعنى : تلك آيات الكتاب الكامل فى كونه كتاباً وأى قرآن مبين ، كأنه قيل : الكتاب الجامع للكمال والغرابة فى البيان .

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)

قرئ : ربما ، وربّما . بالتشديد . وربما ، وربما : بالضم والفتح مع التخفيف . فإن قلت : لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضى ؟ قلت : لأن المترقب فى إخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه . فكأنه قيل : ربما ودّ . فإن قلت : متى تكون ودادتهم ؟ قلت: عند الموت ، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين . وقيل : إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار ، وهذا أيضاً باب من الودادة . فإن قلت : فما معنى التقليل؟[1] قلت : هو وارد على

(١) قال محمود : «إن قلت : مامعنى تقليل ودادتهم ... الخ» ؟ قال أحمد : لاشك أن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدى عكس مقصوده كثيراً ، ومنه قوله :

* قد أترك القرن مصفراً أنامله *

وإنما يمتدح بالاكثار من ذلك ، وقد عبر بقد المفيدة للتقليل ، ومنه والله أعلم . (وقد تعلمون أنى رسول الله) والمقصود توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام على توفر علمهم برسالته ومناصحته لهم ، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك ، فنهم من وجهه بما ذكره الزمخشرى آنفا من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، ومنهم من وجهه بأن المقصود فى ذلك الايذان بأن المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى الند ، وذلك شأن كل ماانتهى لنهايته أن يعود إلى عكسه . وقد أفصح أبوالطيب ذلك بقوله :

مذهب العرب فى قولهم : لعلك ستندم على فعلك ، وربما ندم الإنسان على ما فعل ، ولا يشكون فى تندمه ، ولا يقصدون تقليله ، ولكنهم أرادوا : لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل ، لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون ، كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه ، كما من الكثير ، وكذلك المعنى فى الآية : لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة، فبالحرى أن يسارعوا إليه . فكيف وهم يودونه فى كل ساعة ﴿لو كانوا مسلمين﴾ حكاية ودادتهم، وإنما جىء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم ، كقولك : حلف بالله ليفعلن . ولو قيل: حلف بالله لأفعلن ، ولو كنا مسلمين ، لكان حسناً سديداً . وقيل : تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين ، فإن حانت منهم إفاقة فى بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا ، فلذلك قلل ﴿ذرهم﴾ يعنى اقطع طمعك من ارعوائهم ، ودعهم عن النهى عما هم عليه والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة ، وخلهم ﴿يأكلوا ويتمتعوا﴾ بدنياهم [1] وتنفيذ شهواتهم ، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال ، وأن لا يلقوا فى العاقبة إلا خيراً ﴿فسوف يعلمون﴾ سوء صنيعهم. والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان ، وأنهم لا يجىء منهم إلا ما هم فيه ، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته ، وأن يبالغ فى تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندما فى العاقبة . وفيه إلزام للحجة ومبالغة فى الإنذار وإعذار فيه . وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدّى إليه طول الأمل . وهذه هجيرى أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين . وعن بعضهم : التمرغ فى الدنيا من أخلاق الهالكين .

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾

﴿ولها كتاب﴾ جملة واقعة صفة لقرية ، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما فى قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، كما يقال فى الحال : جاءنى زيد عليه ثوب ، وجاءنى وعليه ثوب . كتاب ﴿معلوم﴾ مكتوب معلوم ،

= وجدت حتى كدت تنحل حائلا للمنتهى ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الايقاظ إليها ، والعمدة فى ذلك على سياق الكلام ، لأنه إذا اقتضى مثلا تكثيراً ، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل استيقظ السامع بأن المراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين ، والله أعلم .

(١) قوله « ويتمتعوا بدنياهم » فى الصحاح : سميت الدنيا لدنوها ، والجمع دنى ، مثل الكبرى والكبر ، والصغرى والصغر . (ع)

وهو أجلها الذى كتب فى اللوح وبين ، ألا ترى إلى قوله ﴿ماتسبق من أمة أجلها﴾ فى موضع كتابها ، وأنث الأمة أولا ثم ذكرها آخرا ، حملا على اللفظ والمعنى : وقال ﴿ومايستأخرون﴾ بحذف «عنه» لأنه معلوم .

وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

قرأ الأعمش : يا أيها الذى ألقى عليه الذكر ، [١] وكأن هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء ، كما قال فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون . والتعكيس فى كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع . وقد جاء فى كتاب الله فى مواضع ، منها (فبشرهم بعذاب أليم) ، (إنك لأنت الحليم الرشيد) وقد يوجد كثيراً فى كلام العجم ، والمعنى : إنك لتقول قول المجانين حين تدعى أن الله نزل عليك الذكر .

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَـٰئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾

«لو» ركبت مع «لا» و«ما» لمعنيين : معنى امتناع الشيء لوجود غيره ، ومعنى التحضيض ، وأما «هل» فلم تركب إلا مع «لا» وحدها للتحضيض : قال ابن مقبل :

لَوْمَا الْحَيَاءُ وَلَوْمَا الدِّينُ عِبْتُكُمَا   بِبَعْضِ مَافِيكُمَا إِذْ عِبْتُمَا عَوَرِى [٢]

والمعنى : هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك ، كقوله تعالى (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً) أو : هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقا كما كانت تاتى الأمم المكذبة برسلها ؟ .

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَـٰئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾

قرئ : تنزل ، بمعنى تتنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل ، وننزل الملائكة : بالنون ونصب الملائكة ﴿إلا بالحق﴾ إلا تنزلا ملتبساً بالحكمة والمصلحة ، ولا حكمة فى أن تأتيكم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار . ومثله قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وقيل : الحق

(١) قوله «الذى ألقى عليه الذكر» لعله : إليه . (ع)

(٢) لابن مقبل ، ولولا ولوما : أصلهما «لو» التى تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره ، فركبت مع «لا» و«ما» النافيتين . فأفادت معهما امتناع الشيء لوجود غيره ، لأن نفى النفى إثبات ، فان لم يكن لها جواب أفادت معهما فى المضارع التحضيض ، وفى غيره التنديم أو التوبيخ ، يقول : لولا الحياء موجود ، ولوما الدين موجود لعبتكما ببعض مافيكما من العيوب ، لأنكما عبتمانى بعورى ، أو عددتموه عيبا .

الوحى أو العذاب . و﴿إذا﴾ جواب وجزاء ، لأنه جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره : ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ رد لإنكارهم واستهزائهم[1] فى قولهم (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) ولذلك قال : إنا نحن ، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذى بعث به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وبين يديه ومن خلفه رصد ، حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين وهو حافظه فى كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل . بخلاف الكتب المتقدمة ؛ فإنه لم يتول حفظها . وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف ولم يكل القرآن إلى غير حفظه . فإن قلت : فحين كان قوله (إنا نحن نزلنا الذكر) رداً لإنكارهم واستهزائهم ، فكيف اتصل به قوله ﴿وإنا له لحافظون﴾ ؟ قلت : قد جعل ذلك دليلا على أنه منزل من عنده آية ؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه . وقيل : الضمير فى (له) لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى (والله يعصمك) .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

﴿فى شيع الأولين﴾ فى فرقهم وطوائفهم . والشيعة : الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة . ومعنى ارسلناه فيهم : نبأناه فيهم وجعلناه رسولا فيما بينهم ﴿وما يأتيهم﴾ حكاية حال ماضية ، لأن «ما» لا تدخل على مضارع إلا وهو فى معنى الحال . ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال .

كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

يقال : سلكت الخيط فى الإبرة ، وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته . وقرئ : نسلكه .

---

(١) قال محمود : «هذا رد لانكارهم واستهزائهم ... الخ» قال أحمد : ويحتمل أن يراد حفظه مما يشينه من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفترى ، وذلك أيضا من الدليل على أنه من عند الله ، كما قال تعالى فى آية أخرى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) .

الذكر ، أى : مثل ذلك السلك ، ونحوه : نسلك الذكر فى ﴿ قلوب المجرمين ﴾ على معنى أنه يلقيه فى قلوبهم [١] مكذباً مستهزءاً به غير مقبول ، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللئام ، تعنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . ومحل قوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ النصب على الحال ، أى غير مؤمن به . أو هو بيان لقوله (كذلك نسلكه) . ﴿ سنة الأولين ﴾ طريقتهم التى سنها الله فى إهلاكهم حين كذبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم .

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

قرئ ﴿ يعرجون ﴾ بالضم والكسر . و ﴿ سكرت ﴾ حيرت أو حبست من الإبصار ، من السكر أو السكر . وقرئ : سكرت بالتخفيف [٢] أى حبست كما يحبس النهر من الجرى . وقرئ: سكرت من السكر ، أى حارت كما يحار السكران . والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم فى العناد : أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ، ورأوا من العيان ما رأوا : لقالوا : هو شىء نتخايله لا حقيقة له ، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك . وقيل : الضمير للملائكة ، أى : لو أريناهم الملائكة يصعدون فى السماء عياناً لقالوا ذلك . وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون . وقال : إنما ، ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار .

(١) قال محمود : «معناه يلقيه فى قلوبهم مكذبا به ... الخ» قال أحمد : والمراد والله أعلم إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن فى قلوبهم وأدخله فى سويدائها ، كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء كل على علم وفهم ، (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة) ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الاعجاز كما فهمها من آمن ، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم فى مهلة وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم . ولذلك عقبه الله تعالى بقوله (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) أى هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه ، وولج ذلك فى قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وشيمتهم اللدد ، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاها إلى الايمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يفتح لهم بابا فى السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منه نهارا . وإلى ذلك الاشارة بقوله (فظلوا) لأن الظلول إنما يكون نهارا ، لقالوا بعد هذا الايضاح العظيم المكشوف : إنما سكرت أبصارنا وسحرنا محمد ، وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها ، فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم فى التكذيب من عدم سماع ووعى ووصول إلى القلوب ، وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين لأن ذلك كله حاصل لهم وإنما بهم العناد واللدد والاصرار لا غير والله أعلم .

(٢) قوله : وقرئ (سكرت) بالتخفيف : لعل هذا من السكر بالفتح كما أن ما يأتى من السكر بالضم . (ع)

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

﴿من استرق﴾ فى محل النصب على الاستثناء. وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات. فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها ﴿شهاب مبين﴾ ظاهر للمبصرين ﴿موزون﴾ وزن بميزان الحكمة، وقدر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو له وزن وقدر فى أبواب النعمة والمنفعة. وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها ﴿معايش﴾ بياء صريحة. بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما، فإن تصريح الياء فيها خطأ، والصواب الهمزة، أو إخراج الياء بين بين. وقد قرئ: معائش، بالهمزة على التشبيه ﴿ومن لستم له برازقين﴾ عطف على معايش، أو على محل لكم، كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو: وجعلنا لكم معايش ولمن لستم له برازقين. وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإنّ الله هو الرزاق، يرزقهم وإياهم، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة، مما الله رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون. ولا يجوز أن يكون مجرورا عطفاً على الضمير المجرور فى (لكم) لأنه لا يعطف على الضمير المجرور.

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾

ذكر الخزائن تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور.

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾

﴿لواقح﴾ فيه قولان، أحدهما: أنّ الريح لاقح إذا جاءت بخير، من إنشاء سحاب ماطر كما قيل للتى لا تأتى بخير: ريح عقيم. والثانى: أن اللواقح بمعنى الملاقح، كما قال:

* وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ * [1]

يريد المطاوح جمع مطيحة. وقرئ: وأرسلنا الريح، على تأويل الجنس ﴿فأسقيناكموه﴾ فجعلناه لكم سقيا ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ نفى عنهم ما أثبته لنفسه فى قوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) كأنه قال: نحن الخازنون للماء، على معنى: نحن القادرون على خلقه فى السماء وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين: دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم.

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿ونحن الوارثون﴾ أى الباقون بعد هلاك الخلق كله. وقيل للباقى «وارث» استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فنائه. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى دعائه «واجعله الوارث منا» [2] ﴿ولقد علمنا﴾ من استقدم ولادة وموتاً، ومن تأخر من الأولين والآخرين. أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد. أو من تقدم فى الاسلام وسبق إلى الطاعة

---

(١) ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

لضرار بن نهشل يرثى أخاه يزيد بن نهشل. وقيل غير ذلك. وليبك: مبنى للمفعول، واللام للطلب، ويزيد نائب الفاعل، وضارع فاعل لفعل محذوف، وفى الكلام سؤال مقدر. كأنه قيل: من يبكيه؟ فقيل يبكيه ضارع وهو الدليل، ومختبط وهو السائل، كأنه يختبط أبواب المسئولين. وما مصدرية، وتطيح تهلك. وقال الجوهرى: طوحته الطوائح قذفته القواذف، ولا يقال: المطوحات، وهو من النوادر، والقياس المطيحات من أطاح. أو المطوحات من طوح. وقال الأصمعى: هو جمع طائحة. يقال: ذهبت طائحة من العرب أى طائفة منها. أى: يبكيه المختبط من أجل إهلاك الطوائح ماله، فمما متعلق بمختبط. وقيل: يجوز تعلقه بالفعل المقدر، كقوله لخصومة. ونقل العصام عن العارف الروى: أن يزيد منادى، وحرف النداء محذوف، وضارع نائب الفاعل؛ لأن الضارع والمختبط أحق بالبكاء عليهما بعد يزيد الذى كان يغيثهما. وروى ليبك يزيد بالبناء للفاعل ونصب يزيد، فضارع فاعل للفعل المذكور، ولو ضم يزيد على النداء لجاز هنا أيضا، أى: ليبك عليك يا يزيد ضارع ومختبط.

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى والبزار. والحاكم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال «قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات: اللهم اقسم لنا من خشيتك ـ الحديث» وفيه «واجعله الوارث منا» قال الترمذى: حديث حسن وقال البزار: تفرد به عبدالله بن رواحة. وهو واهى الحديث، وأخرج من رواية حبيب بن أبى ثابت عن عروة عن عائشة «أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللهم عافنى فى جسدى، وعافنى فى بصرى، واجعله الوارث منى» وأخرجه أبو يعلى أيضا. وفى الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة قال «كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم: اللهم متعنى بسمعى وبصرى واجعلهما الوارث منى» وفى الطبرانى والأوسط عن على رضى الله عنه قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ـ فذكر مثله.

ومن تأخر. وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمستأخرين. وروى أن امرأة حسناء كانت فى المصليات خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان بعض القوم يستقدم لئلا ينظر إليها، وبعض يستأخر ليبصرها فنزلت [١] ﴿هو يحشرهم﴾ أى هو وحده القادر على حشرهم، والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم ﴿إنه حكيم عليم﴾ باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علماً بكل شيء.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)

الصلصال: الطين اليابس الذى يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار. قالوا: إذا توهمت فى صوته مدًّا فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة. وقيل: هو تضعيف «صل» إذا أنتن. والحمأ: الطين الأسود المتغير. والمسنون: المصوّر، من سنة الوجه [٢]، وقيل: المصبوب المفرغ، أى: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة فى أمثلتها. وقيل: المنتن، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، فالذى يسيل بينهما سنين، ولا يكون إلا منتنا ﴿من حمأ﴾ صفة لصلصال، أى: خلقه من صلصال كائن من حمأ وحق ﴿مسنون﴾ بمعنى مصور، أن يكون صفة لصلصال. كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر ﴿والجانّ﴾ للجن كآدم للناس. وقيل: هو إبليس. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: والجأن، بالهمز ﴿من نار السموم﴾ من نار الحرّ الشديد النافذ فى المسام. قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التى خلق الله منها الجانّ.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ

---

(١) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وأبو يعلى وأحمد والبزار والطبرى وابن أبى حاتم من رواية أبى الجوزاء أوس بن عبدالله عن ابن عباس. قال وكانت امرأة حسناء من أحسن الناس تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لأن لا يراها أو يستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف الآخر. فاذا ركع نظر من تحت إبطه. فأنزل الله هذه الآية. قال البزار: لانعلم رواه ابن عباس ولاله طريق إلا هذه. وقال الترمذى: روى عن أبى الجوزاء مرسلا، وهو أشبه اهـ

(٢) قوله «من سنة الوجه» فى الصحاح: سنة الوجه صورته. (ع)

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)

﴿ وإذ قال ربك ﴾ واذكر وقت قوله ﴿ سويته ﴾ عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها . ومعنى ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ وأحييته . وليس ثمة نفخ ولا منفوخ ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه . واستثنى إبليس من الملائكة ؛ لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود ، فغلب اسم الملائكة ، ثم استثنى بعد التغليب كقولك : رأيتهم إلا هنداً . و ﴿ أبى ﴾ استئناف على تقدير قول قائل يقول : هلا سجد ؟ فقيل : أبى ذلك واستكبر عنه . وقيل : معناه ولكن إبليس أبى . حرف الجر مع «أن» محذوف . وتقديره ﴿ مالك ﴾ فى ﴿ ألا تكون مع الساجدين ﴾ بمعنى أى غرض لك فى إبائك السجود . وأى داع لك إليه . اللام فى ﴿ لأسجد ﴾ لتأكيد النفى . ومعناه : لا يصح منى وينافى حالى . ويستحيل أن أسجد لبشر ﴿ رجيم ﴾ شيطان من الذين يرجمون بالشهب ، أو مطرود من رحمة الله ؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة . ومعناه : ملعون ؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها . والضمير فى (منها) راجع إلى الجنة أو السماء ، أو إلى جملة الملائكة . وضرب يوم الدين حداً للعنة . إما لأنه غاية يضربها الناس فى كلامهم ، كقوله (مادامت السموات والأرض) فى التأبيد . وإما أن يراد أنك مذموم مدعو عليك باللعن فى السموات والأرض إلى يوم الدين ، من غير أن تعذب ، فاذا جاء ذلك اليوم عذبت

بما ينسى اللعن معه . و (يوم الدين) و (يوم يبعثون) و (يوم الوقت المعلوم) فى معنى واحد ، ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة . وقيل : إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذى فيه يبعثون لئلا يموت ؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد ، فلم يجب إلى ذلك ، وأُنظر إلى آخر أيام التكليف ﴿بما أغويتنى﴾ الباء للقسم . و «ما» مصدرية وجواب القسم ﴿لأزينن﴾ المعنى : أقسم بإغوائك إياى لأزينن لهم . ومعنى إغوائه إياه : تسبيبه لغيه . بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام ، فأفضى ذلك إلى غيه . وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله ، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك ، والله تعالى برىء من غيه [1] ومن إرادته والرضا به ، ونحو قوله (بما أغويتنى لأزينن لهم) : قوله (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) فى أنه إقسام ، إلا أن أحدهما إقسام بصفته والثانى إقسام بفعله ، وقد فرق الفقهاء بينهما . ويجوز أن لا يكون قسما ، ويقدر قسم محذوف ، ويكون المعنى : بسبب تسبيبك لإغوائى أقسم لأفعلن بهم نحو ما فعلت بى من التسبيب لإغوائهم ، بأن أزين لهم المعاصى وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم ﴿فى الأرض﴾ فى الدنيا التى هى دار الغرور ، كقوله تعالى (أخلد إلى الأرض واتبع هواه) أو أراد أنى أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو فى السماء ، فأنا علىّ التزيين لأولاده فى الأرض أقدر . أو أراد : لأجعلنّ مكان التزيين عندهم الأرض ، ولأوقعن تزيينى فيها ، أى : لأزيننها فى أعينهم ولأحدثنهم بأنّ الزينة فى الدنيا وحدها ، حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها . ونحوه :

* ... ... يَجْرَحْ فِى عَرَاقِيبِهَا نَصْلِى * [2]

---

(١) قوله «والله تعالى برىء من غيه» هذا على مذهب المعتزلة : أن الله لا يريد الشر ولا يخلقه . ومذهب أهل السنة : أن كل كائن فهو بخلقه تعالى وإرادته ، خيراً كان أو شراً . وإن كان لا يرضى الشر من العبد . وتفصيله فى التوحيد . (ع)

(٢)
وما لام من يوم أخ وهو صادق ... إخائى ولا اعتلت على ضيفها إبلى
إذا كان فيها الرسل لم تأت دونه ... فصالى ولو كانت عجافا ولا أهلى
وإن تعتذر بالمحل عن ذى ضروعها ... إلى الضيف يجرح فى عراقيبها نصلى

لذى الرمة يمدح نفسه ، والإخاء مصدر آخاه ، كالوفاق مصدر وافقه ، والصحاب مصدر صاحبه ، وزنا ومعنى . يقول : وما لام أخ من يوم أى فى يوم . وعبر بمن لإشعارها بالاستغراق . أى : لم يلم ، والحال أنه صادق فى لومه ، أو فى أخوته مصاحبة لى معه ، وقصر الإخاء للوزن ، وضمن لام معنى عاب ؛ فعداه إليه . ويجوز أن إيقاع اللوم عليه مجاز عقلى ؛ لأن الإخاء كأنه محل اللوم ، ولا اعتلت أى أبدت لضيفها علة فى التأخر عن قراه ، وإسناد الفعل للإبل وإضافة الضيف إليها لأنها محل قراه ، وذلك كناية عن غاية كرمه ، ويجوز أن إسناد الفعل إليها مجاز عقلى ، لأنها سبب فى اعتلال صاحبها للضيف عنها إذا كان بخيلا ، وإضافة الضيف إليها ترشيح لذلك . ويحتمل أنه شبه الإبل بالكرماء على طريق المكنية ، فذلك تخييل ، وبين عدم الاعتلال ==

استثنى المخلصين؛ لأنه علم أنّ كيده لايعمل فيهم ولا يقبلون منه. أى ﴿هذا﴾ طريق حق ﴿علىّ﴾ أن أراعيه، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادى، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته: وقرئ علىّ، وهو من علو الشرف والفضل ﴿لموعدهم﴾ الضمير للغاوين. وقيل: أبواب النار أطباقها وأدراكها، فأعلاها للموحدين، والثانى لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين. وعن ابن عباس رضى الله عنه: إن جهنم لمن ادعى الربوبية، ولظى لعبدة النار، والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحدين. وقرئ: جزء، بالتخفيف والتثقيل. وقرأ الزهرى: جزّ، بالتشديد؛ كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاى، كقولك: خبّ فى خبء، ثم وقف عليه بالتشديد، كقولهم: الرجل، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَافِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

المتقى على الإطلاق: من يتقى مايجب اتقاؤه مما نهى عنه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: اتقوا الكفر والفواحش، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها ﴿ادخلوها﴾ على إرادة القول. وقرأ الحسن: أدخلوها ﴿بسلام﴾ سالمين أو مسلما عليكم: تسلم عليكم الملائكة. الغل: الحقد الكامن فى القلب، من انغل فى جوفه وتغلغل، أى: إن كان لأحدهم فى الدنيا غلّ على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم. وعن علىّ رضى الله عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. وعن الحرث الأعور: كنت جالساً عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له علىّ:

═ بقوله «إذا كان نيها الرسل» وهو اللبن القليل، ويطلق على الجمل السهل، لم تأت دونه: أى قريبا من اللبن. فصالى: جمع فصيل، وهو ولد الناقة. ونفى قربها كناية عن نفى ارتضاعها له، ولو كانت عجافا: أى مهازيل، ولا أهلى: ولا جياعا، وإن تعتذر الابل بالمحل والجدب، عن ذى ضروعها: كناية عن اللبن، لأنه ملازم للضروع يجرح نصلى: أى سيفى أو سهمى فى عراقيبها، وهى بمنزلة الركب للانسان، وإسناد الاعتذار إليها مجاز، وكذلك إسناد الجرح للنصل، لأنه آلته. ومعنى الجرح فى العراقيب: أنه يجعلها مكانا معدا له، ولو قال: يجرح عراقيبها، لفات ذلك المعنى. وقيل: ضمنه معنى يعثو أى يفسد، وكانت عادة العرب أن يفصدوا الابل ويجمعوا دماءها ويضعوها على النار فتصير كالكبد، ويقرون بها الضيفان فى الجدب، لحرمه الله: ويجوز أنه كناية عن نحرها، لأنهم كانوا يعقرون الجمل الصعب قبل نحره ليسهل عليهم، وهذا هو الذى يقتضيه مقام المدح.

مرحبا بك يا ابن أخى . أما والله إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى (ونزعنا مافى صدورهم من غلّ) فقال له قائل : كلا ، الله أعدل من أن يجمعك وطلحة فى مكان واحد ، فقال : فلمن هذه الآية لا أمّ لك [١] ؟ وقيل : معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ، ونزع منها كل غل ، وألقى فيها التوادّ والتحاب . و ﴿إخوانا﴾ نصب على الحال . و ﴿على سرر متقابلين﴾ كذلك . وعن مجاهد . تدور بهم الأسرة حيثما داروا ، فيكونون فى جميع أحوالهم متقابلين .

نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

لما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه ﴿نبئ عبادى﴾ تقريراً لما ذكر وتمكيناً له فى النفوس . وعن ابن عباس رضى الله عنه : غفور لمن تاب ، وعذابه لمن لم يتب . وعطف ﴿ونبئهم﴾ على نبئ عبادى ، ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أنّ عذابه هو العذاب الأليم .

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَنْ مَسَّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

﴿سلاماً﴾ أى نسلم عليك سلاماً ، أو سلمت سلاماً ﴿وجلون﴾ خائفون ، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل . وقيل : لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت . وقرأ الحسن : لا توجل ، بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه . وقرئ : لا تأجل . ولا تواجل ، من واجله بمعنى أوجله . وقرئ (نبشرك) بفتح النون والتخفيف ﴿إنا نبشرك﴾ استئناف فى معنى التعليل للنهى عن

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط والعقيلى وابن سعد من طريق الحارث الأعور قال : كنت عند على بن أبى طالب إذ جاءه عمران بن طلحة فذكره ـ وفيه «فقال الحرث ـ يعنى الراوى ـ : الله أجل وأعدل من ذلك» وله طريق أخرى أخرجها الحاكم من طريق ربعى بن خراش قال «إنى لعند على جالس إذ جاءه ابن طلحة ، فسلم عليه فرحب به ، فقال : ترحب بى يا أمير المؤمنين ، وقد قتلت والدى ، وأخذت مالى ؟ قال : أما مالك فهو معزول فى بيت المال ، اعد إليه فخذه . وأما أبوك فانى أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل - الآية) فقال رجل من همدان ، فذكره . ورواه الحاكم أيضا والطبرى من طريق أبى حبيبة مولى طلحة قال : دخل عمران بن طلحة على على رضى الله عنه . وذكر نحوه .

الوجل : أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل . يعنى ﴿ أبشرتمونى ﴾ مع مس الكبر ، بأن يولد لى . أى : أن الولادة أمر عجيب مستنكر فى العادة مع الكبر ﴿ فبم تبشرون ﴾ هى ما الاستفهامية ، دخلها معنى التعجب ، كأنه قال : فبأى أعجوبة تبشرونى . أو أراد : أنكم تبشرونى بما هو غير متصوّر فى العادة ، فبأى شىء تبشرون ، يعنى : لا تبشرونى فى الحقيقة بشىء ؛ لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شىء . ويجوز أن لا يكون صلة لبشر ، ويكون سؤالا عن الوجه والطريقة يعنى : بأى طريقة تبشرونى بالولد ، والبشارة به لا طريقة لها فى العادة . وقوله ﴿ بشرناك بالحق ﴾ يحتمل أن تكون الباء فيه صلة ، أى : بشرناك باليقين الذى لا لبس فيه ، أو بشرناك بطريقة هى حق وهى قول الله ووعده ، وأنه قادر على أن يوجد ولدا من غير أبوين ، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر . وقرئ : تبشرون ، بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع ، والأصل تبشّرونن ، وتبشرونّ [١] بإدغام نون الجمع فى نون العماد . وقرئ : من القنطين ، من قنط يقنط . وقرئ : ومن يقنط ، بالحركات الثلاث فى النون ، أراد : ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون ، كقوله (لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون) يعنى : لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ، ولكن استبعاداً له فى العادة التى أجراها الله .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)

فإن قلت قوله تعالى : ﴿ إلا آل لوط ﴾ استثناء متصل أو منقطع ؟ [٢] . قلت ، لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم ، فيكون منقطعاً ؛ لأنّ القوم موصوفون بالإجرام ، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير فى مجرمين ، فيكون متصلا ، كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، كما قال (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) . فإن قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين ؟ قلت : نعم ، وذلك أنّ آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الإرسال ، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلا . ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين ، كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمىّ . فى أنه فى معنى التعذيب

(١) قوله «وتبشرون» بكسر النون والتشديد . قاله النسفى . (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت هل الاستثناء الأول متصل ...الخ» قال أحمد : وجعله الأول منقطعاً أولى وأمكن ، وذلك أن فى استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكرين بعداً ، من حيث أن موقع الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل المستثنى فى حكم الأول ، وهذا الدخول متعذر من التنكير . ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى منها إلا فى سياق نفى ، لأنها حينئذ أعم ، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء ، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زيداً وحسن ما رأيت أحداً إلا زيداً ، والله أعلم .

والإهلاك ، كأنه قيل : إنا أهلكنا قوما مجرمين ، ولكن آل لوط أنجيناهم . وأمّا فى المتصل فهم داخلون فى حكم الإرسال ، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء ، فلا يكون الإرسال مخلصاً [1] بمعنى الإهلاك والتعذيب كما فى الوجه الأول . فإن قلت : فقوله ﴿ إنا لمنجوهم ﴾ بم يتعلق على الوجهين ؟ قلت : إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر « لكنّ » فى الاتصال بآل لوط ، لأنّ المعنى . لكن آل لوط منجون ، وإذا اتصل كان كلاما مستأنفاً ، كأنّ إبراهيم عليه السلام قال لهم : فما حال آل لوط ، فقالوا : إنا لمنجوهم . فإن قلت : فقوله ﴿ إلا امرأته ﴾ ممّ استثنى ؛ وهل هو استثناء من استثناء ؟ قلت : استثنى من الضمير المجرور فى قوله (لمنجوهم) وليس من الاستثناء من الاستثناء فى شيء ؛ لأنّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه ، وأن يقال : أهلكناهم إلا آل لوط ، إلا امرأته ، كما اتحد الحكم فى قول المطلق : أنت طالق ثلاثاً ، إلا اثنتين ، إلا واحدة . وفى قول المقرّ : لفلان علىّ عشرة دراهم ، إلا ثلاثة ، إلا درهما . فأمّا فى الآية فقد اختلف الحكمان ، لأنّ (إلا آل لوط) متعلق بأرسلنا ، أو بمجرمين . و (إلا امرأته) قد تعلق بمنجوهم ، فأنى يكون استثناء من استثناء . وقرئ (لمنجوهم) بالتخفيف والتثقيل . فإن قلت : لم جاز تعليق فعل التقدير فى قوله ﴿ قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ [2] والتعليق من خصائص أفعال القلوب ؟ قلت : لتضمن فعل التقدير معنى العلم ، ولذلك فسر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم . فإن قلت : فلم أسند الملائكة فعل التقدير ـ وهو لله وحده ـ إلى أنفسهم ، ولم يقولوا : قدر الله ؟ قلت : لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذى ليس لأحد غيرهم ، كما

(١) قوله «فلا يكون الارسال مخلصا» لعله : مختصا . (ع)

(٢) عاد كلامه . قال محمود : «فان قلت لم جاز تعليق فعل التقدير فى قوله (قدرنا إنها لمن الغابرين) الخ» قال أحمد : وهذه أيضاً من دفائنه الاعتزالية فى جحد القضاء والقدر ، واعتقاد أن الأمر أنف ، لأنهم لا يعتقدون أن الله تعالى مريد لأكثر أفعال عبيده من معصية ومباح ونحوهما ولا مقدر لها على العبيد ، بمعنى أنه مريد ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته . فالتقدير عندهم هو العلم لا الارادة ، ثم استدل على أن التقدير هو العلم بتقدير فعله عن العمل ، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته ، فانظر إلى بعد غوره ودقة فطنته فى ابتغاء آية يلفقها ويعاند بها البراهين الواضح فلقها ، وفى كلامه شاهد على رده ، فان التقدير عنده مضمن معنى العلم ، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر : أن يبقى على معناه الأصلى ، مضافا إليه المعنى الطارئ فيفيدهما جميعاً ، فالتقدير إذاً كما أفاد العلم الطارئ يفيد الارادة أصلا ووضعاً . والله أعلم ؛ على أن من الناس من جعل قوله تعالى (قدرنا إنها لمن الغابرين) من كلامه تعالى غير محكى عن الملائكة ، وهو الظاهر ؛ فان الذى يجعله من قول الملائكة يحتاج فى نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل ، ويجعله من باب قول خواص الملك : دبرنا كذا ، وأمرنا بكذا ، وإنما يعنون دبر الملك وأمر ، وبذلك أوله الزمخشرى . وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل ، لأنه إذا جعل قدرنا بمعنى علمنا إنها لمن الغابرين ، فلا غرو فى علم الملائكة ذلك باخبار الله تعالى إياهم به ، وإنما يحتاج إلى التأويل : من جعل قدرنا بمعنى أردنا وقضينا وجعله من قول الملائكة ، والله أعلم .

يقول خاصة الملك : دبرنا كذا وأمرنا بكذا ، والمدبر والآمر هو الملك لا هم ، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه . وقرئ : قدرنا ، بالتخفيف .

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦)

﴿ منكرون ﴾ أى تنكركم نفسى وتنفر منكم ، فأخاف أن تطرقونى بشر ، بدليل قوله ﴿ بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ أى ما جئناك بما تنكرنا لأجله ، بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوك ، وهو العذاب الذى كنت توعدهم بنزوله ، فيمترون فيه ويكذبونك ﴿ بالحق ﴾ باليقين من عذابهم ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فى الإخبار بنزوله بهم . وقرئ : فأسر ، بقطع الهمزة ووصلها ، من أسرى وسرى . وروى صاحب الإقليد : فسر ، من السير والقطع فى آخر الليل . قال :

افْتَحِى الْبَابَ وَانْظُرِى فِى النُّجُومِ كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ [١]

وقيل : هو بعد ما يمضى شىء صالح من الليل . فإن قلت : ما معنى أمره باتباع أدبارهم [٢] ونهيهم عن الالتفات ؟ قلت قد بعث الله الهلاك على قومه ، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم ، وخرج مهاجراً فلم يكن له بد من الاجتهاد فى شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك . فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات فى تلك الحال المهولة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم

---

(١) يقول لصاحبته وكان يحب طول الليل ويدعيه : افتحى باب البيت وانظرى وتأملى فى النجوم ، أمالت جهة الغرب أم لا ؟ وكم : يحتمل أنها خبرية للتكثير ، ويحتمل أنها استفهامية ، ثم يحتمل أنها مستأنفة . ويحتمل أن الفعل قبلها معلق عن العمل فى لفظها لأن لها الصدارة . والمراد من هذا الأمر طلب إخباره بما تعلمه بعد النظر من جواب الاستفهام المذكور . وقطع الليل : ظلمته . وقال فى الصحاح : ظلمة آخره ، والمراد به هنا جزء الليل . والبهيم : شديد الظلام لانبهام الأشياء فيه ، ووصفه بذلك ملائم للمقام .

(٢) قال محمود : «إن قلت : مامعنى أمره باتباع أدبارهم ... الخ» قال أحمد : ولبعض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام حيث تقدم قومه فقال (وما أعجلك عن قومك ياموسى) والله أعلم .

أحد لغرض له فيصيبه العذاب ، وليكون مسيره مسير الهارب الذى يقدم سربه ويفوت به، ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب [١] فيرقوا لهم . وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة [٢] ويطيبوها عن مساكنهم ، ويمضوا قدماً [٣] غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذى يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوى إليه أخادعه ، كما قال :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَىِّ حَتَّى وَجَدْتُنِى وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتًا وَأَخْدَعَا [٤]

أوجعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التوانى والتوقف . لأنّ من يلتفت لابدّ له فى ذلك من أدنى وقفة ﴿حيث تؤمرون﴾ قيل : هو مصر ، وعدّى (وامضوا) إلى (حيث) تعديته إلى الظرف المبهم ، لأن (حيث) مبهم فى الأمكنة ، وكذلك الضمير فى (تؤمرون) وعدى (قضينا) بإلى لأنه ضمن معنى : أوحينا ، كأنه قيل : وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً . وفسر ﴿ذلك الأمر﴾ بقوله ﴿أنّ دابر هؤلاء مقطوع﴾ وفى إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له . وقرأ الأعمش : إن . بالكسر على الاستئناف ، كأن قائلا قال : أخبرنا عن ذلك

(١) عاد كلامه . قال : «وإنما نهوا عن الالتفات لئلا يروا ماينزل بقومهم من العذاب ... الخ» قال أحمد : ولقد شملت هذه الآية على وجازتها آداب المسافرين لمهم دينى أودنيوى ، من الآمر والمأمور والتابع والمتبوع (مافرطنا فى الكتاب من شىء) .

(٢) قوله «وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ويطيبوها عن مساكنهم» لعل فيه تقديما ، والأصل : على المهاجرة عن مساكنهم ويطيبوها ، فليحرر . (ع)

(٣) قوله «ويمضوا قدما» فى الصحاح «مضى قدما» بضم الدال : لم يعرج ولم ينثن . (ع)

(٤)
ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنن نزعا
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

للصمة بن عبدالله بن طفيل بن الحرث ، والبشر : السرور وما به السرور ، وأعرض : ظهر أمامنا ، وحالت - بالمهملة - أى صارت حائلا بيننا وبين البشر ومنعتنا عنه ، وبكت : جواب لما ، وخص اليسرى أولا ؛ لأنه كان أعور . ويروى : جالت ، بالجيم أى حامت خواطر القلب الناشئة من الشوق فى قلبى ، حال كونها تحن إلى المحبوبة ، نازعات شائقات إليها ، يقال : نزع نزوعا إذا مال قلبه واشتاق إلى حبيبه . والنزع : جمع نازع ، فشبه الخواطر بالبنات على طريق التصريحية ، لتولدها من الشوق وإثبات الجولان والحنين ، والنزوع ترشيح ؛ لأن الأول خاص بالمحسوس ، والأخيران بالمدرك . وإسناد الحنين والنزوع إليها مجاز عقلى ؛ لأنهما فى الحقيقة لمحلها وهو القلب ، بل للشخص وهو سببها . والجهل ضد الحلم . أسبلتا : سالت دموعهما ، وإسناد البكاء للعين مجازاً ، ومعناه دمعت عينى ، فيجوز تشبيهها بالانسان على طريق المكنية ، وزجرها ترشيح ، وجهلها وحلمها تخييل ، وتلفت : أى أكثرت الالتفات جهة الحى ، حتى وجع ليتى وأخدعى . يقال : وجع وجعا كتعب تعبا . والليت - بالكسر - : صفحة العنق . والأخدع : عرق فيها ، وهما تمييزان محولان عن الفاعل ، وذلك مبالغة فى كثرة التلفت .

الأمر، فقال: إنّ دابر هؤلاء. وفى قراءة ابن مسعود: وقلنا إنّ دابر هؤلاء. ودابرهم: آخرهم، يعنى: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

﴿أهل المدينة﴾ أهل سدوم التى ضرب بقاضيها المثل فى الجور، مستبشرين بالملائكة ﴿لا تفضحون﴾ بفضيحة ضيفى، لأنّ من أسىء إلى ضيفه أو جاره فقد أسىء إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم ﴿ولا تخزون﴾ ولا تذلون بإذلال ضيفى، من الخزى وهو الهوان. أو ولا تشوّروا[1] بى، من الخزاية وهى الحياء ﴿عن العالمين﴾ عن أن تجير منهم أحداً، أو تدفع عنهم، أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرّضون لكل أحد، وكان يقوم صلى الله عليه وسلم بالنهى عن المنكر. والحجر بينهم وبين المتعرّض له، فأوعدوه وقالوا: لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين. وقيل: عن ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا نهوه أن يضيف أحداً قط ﴿هؤلاء بناتى﴾ إشارة إلى النساء؛ لأنّ كل أمّة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته، فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتى فانكحوهنّ. وخلوا بنىّ فلا تتعرضوا لهم ﴿إن كنتم فاعلين﴾ شك فى قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرّم ﴿لعمرك﴾ على إرادة القول، أى قالت الملائكة للوط عليه السلام: لعمرك ﴿إنهم لفى سكرتهم﴾ أى غوايتهم التى أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطإ الذى هم عليه وبين الصواب الذى تشير به عليهم، من ترك البنين إلى البنات ﴿يعمهون﴾

---

(١) قوله «ولا تشوروا بى» فى الصحاح «الشوار» فرج المرأة والرجل. ومنه قيل: شور به، أى كأنه أبدى عورته (ع)

يتحيرون ، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك . وقيل : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له ، والعمرو العمر واحد ، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه ، وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم ، ولذلك حذفوا الخبر ، وتقديره : لعمرك مما أقسم به ، كما حذفوا الفعل فى قولك : بالله . وقرئ : فى سكرهم وفى سكراتهم ﴿ الصيحة ﴾ صيحة جبريل عليه السلام ﴿ مشرقين ﴾ داخلين فى الشروق وهو بزوغ الشمس ﴿ من سجيل ﴾ قيل : من طين ، عليه كتاب من السجل . ودليله قوله تعالى : (حجارة من طين مسومة عند ربك) أى معلمة بكتاب ﴿ للمتوسمين ﴾ للمتفرسين المتأملين . وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشىء . يقال : توسمت فى فلان كذا ، أى عرفت وسمه فيه . والضمير فى (عاليها سافلها) لقرى قوم لوط ﴿ وإنها ﴾ وإن هذه القرى يعنى آثارها ﴿ لبسبيل مقيم ﴾ ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد ، وهم يبصرون تلك الآثار ، وهو تنبيه لقريش كقوله (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين) .

وَإِنْ كَانَ أَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴿٧٩﴾

﴿ أصحاب الأيكة ﴾ قوم شعيب ﴿ وإنهما ﴾ يعنى قرى قوم لوط والأيكة . وقيل : الضمير للأيكة ومدين ، لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما ﴿ لبإمام مبين ﴾ لبطريق واضح ، والإمام اسم لما يؤتم به ، فسمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذى يكتب فيه ، لأنها مما يؤتم به .

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

﴿ أصحاب الحجر ﴾ ثمود ، والحجر واديهم ، وهو بين المدينة والشأم ﴿ المرسلين ﴾ يعنى بتكذيبهم صالحاً ، لأن من كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً ، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين ، كما قيل : الخبيبون فى ابن الزبير وأصحابه . وعن جابر : مررنا مع النبى صلى الله عليه وسلم[1] على الحجر

(١) لم أجده من حديث جابر ، وهو فى الصحيح من حديث ابن عمر بهذا اللفظ دون قوله «ناقته» وفى رواية : أن ذلك كان فى غزوة تبوك .

فقال لنا «لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ، حذرا أن يصيبكم مثل ماأصاب هؤلاء» ثم زجر النبي صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها ﴿ آمنين ﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تتهدم ويتداعى بنيانها ، ومن نقب اللصوص ومن الأعداء وحوادث الدهر . أو آمنين من عذاب الله يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

﴿ إلا بالحق ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة ، لا باطلا وعبثاً . أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿ وإنّ الساعة لآتية ﴾ وإنّ الله ينتقم لك فيها من أعدائك ، ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيآتهم ؛ فإنه ماخلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك ﴿ فاصفح ﴾ فأعرض عنهم واحتمل ماتلقى منهم إعراضاً جميلا بحلم وإغضاء . وقيل : هو منسوخ بآية السيف . ويجوز أن يراد به المخالقة [1] فلا يكون منسوخاً .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

﴿ إن ربك هو الخلاق ﴾ الذى خلقك وخلقهم ، وهو ﴿ العليم ﴾ بحالك وحالهم ، فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم وهو يحكم بينكم . أو إن ربك هو الذى خلقكم وعلم ماهو الأصلح لكم ، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح . وفى مصحف أبىّ وعثمان : إن ربك هو الخالق وهو يصلح للقليل والكثير ، والخلاق للكثير لاغير ، كقولك : قطع الثياب ، وقطع الثوب والثياب .

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

﴿ سبعاً ﴾ سبع آيات وهى الفاتحة . أو سبع سور وهى الطوال ، واختلف فى السابعة فقيل : الأنفال وبراءة ، لأنهما فى حكم سورة واحدة ، ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية . وقيل سورة يونس . وقيل : هى آل حم ، أو سبع صحائف وهى الأسباع . و ﴿ المثانى ﴾ من التثنية وهى التكرير ؛ لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها فى الصلاة وغيرها ، أو من الثناء لاشتمالها على ماهو ثناء على الله ، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية . وأمّا السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير

(١) قوله «يراد به المخالقة» أى المعاملة بحسن الخلق . وفى الصحاح : يقال خالص المؤمن ، وخالق الفاجر اه (ع)

القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ، ولما فيها من الثناء ، كأنها تثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى . و «من» إما للبيان أو للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الأسباع . ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثانى ، لأنها تثنى عليه ، ولما فيها من المواعظ المكررة ، ويكون القرآن بعضها . فإن قلت : كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع ، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه ؟ قلت : إذا عنى بالسبع الفاتحة أو الطوال ، فما وراءهنّ ينطلق عليه اسم القرآن ، لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل . ألا ترى إلى قوله (بما أوحينا إليك هذا القرآن) يعنى سورة يوسف ؛ وإذا عنيت الأسباع فالمعنى : ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم ، أى : الجامع لهذين النعتين ، وهو الثناء أو التثنية والعظم .

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾

أى : لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمنّ له ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ أصنافاً من الكفار . فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله ؟ [1] قلت : يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وإن عظمت فهى إليها حقيرة ضئيلة ، وهى القرآن العظيم ؛ فعليك أن تستغنى به ، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا . ومنه الحديث « ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن » [2] وحديث أبى بكر « من أوتى القران فرأى أن أحداً أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيما وعظم صغيراً [3] » وقيل : وافت من بصرى وأذرعات : سبع قوافل ليهود

(١) قال محمود : « إن قلت كيف وصل هذا بما قبله ... الخ » ؟ قال أحمد : وهذا هو الصواب فى معنى الحديث ، وقد حمله كثير من العلماء على الغناء ، وادعى هؤلاء أن «تغنى» إنما يبنى من الغناء الممدود لا من الغنى المقصور ، وأن فعله استغنى خاصة ، وقد وجدت بناء تغنى من الغنى المقصور فى الحديث الصحيح فى الخيل . وأما التى هى ستر فرجل ربطها تغنيا وتعففا ، وإنما هذا من الغنى المقصور قطعا واتفاقا ، وهو مصدر تغنى ، فدل ذلك على أنه مستعمل من البناءين جميعاً على خلاف دعوى المخالف ، والله الموفق .

(٢) أخرجه البخارى من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة وفى الباب عن سعد وأبى لبابة عند أبى داود . قال المخرج ذهل النووى وقبله المنذرى ، ثم الطيبى فعزوه لأبى داود ولم يعزوه للبخارى وأخطأ القرطبى فعزاه لمسلم لا للبخارى ، ولم يذكره صاحب جامع الأصول ، وعزاه الحاكم للشيخين والذى فى الصحيحين حديث أبى هريرة « ما أذن الله لشيء كاذنه لنبى يتغنى بالقرآن يجهر به » .

﴿ فائدة ﴾ قال البيهقى فى السنن فى كتاب الشهادات ، أخبرنا الحاكم عن أبى الأصم سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعى يقول : ليس منا من لم يتغن بالقرآن . فقال له رجل : يستغن ؟ قال : ليس هذا معناه ، أى معناه يقرأه تحزينا .

(٣) لم أجده عن أبى بكر ، وأخرجه ابن عدي فى ترجمة حمزة النصيبى عن زيد بن رفيع عن أبى عبيدة عن ابن =

بنى قريظة والنضير، فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها فى سبيل الله، فقال لهم الله عز وعلا: لقد أعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه القوافل السبع ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أى لا تتمنّ أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوّى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء ﴿وقل﴾ لهم ﴿إنى أنا النذير المبين﴾ أنذركم ببيان وبرهان أنّ عذاب الله نازل بكم.

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١)

فإن قلت: بم تعلق قوله ﴿كما أنزلنا﴾؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يتعلق بقوله: (ولقد آتيناك) أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتسموه إلى حق وباطل، وعضوه [1]. وقيل: كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم: سورة البقرة لى، ويقول الآخر: سورة آل عمران لى. ويجوز أن يراد بالقرآن: ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأنّ اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم، وقولهم سحر وشعر وأساطير، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم. والثانى أن يتعلق بقوله: (وقل إنى أنا النذير المبين) أى: وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعنى اليهود، وهو ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان. ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير، أى: أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن إلى سحر وشعر وأساطير، مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعدوا فى كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر. ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر وقبله بآفات، كالوليد بن المغيرة،

ـــ مسعود رفعه «من تعلم القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد حقر عظيما وعظم صغيراً» وحمزة اتهموه بالوضع. وأخرجه إسحاق والطبرى من حديث عبدالله بن عمر بلفظ «من أعطى القرآن فرأى أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظم الله ـ الحديث»

(١) قوله «وعضوه» فى الصحاح: عضيت الشاة تعضية، إذا جزأتها أعضاء. وعضيت الشىء تعضية، إذا فرقته. (ع)

والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب وغيرهم ، أو مثل ماأنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه السلام ، والاقتسام بمعنى التقاسم . فإن قلت : إذا علقت قوله : (كما أنزلنا) بقوله : (ولقد آتيناك) فما معنى توسط (لاتمدّنّ) إلى آخره بينهما ؟ قلت : لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم ، اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية . من النهى عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين (عضين) أجزاء ، جمع عضة ، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء . قال رؤبة :

* وَلَيْسَ دِينُ اللهِ بِالْمُعَضِّى *

وقيل : هى فعلة ، من عضهته إذا بهته [1] . وعن عكرمة : العضة السحر ، بلغة قريش ، يقولون للساحر عاضهة . ولعن النبي صلى الله عليه وسلم العاضهة [2] والمستعضهة ، نقصانها على الأول واو ، وعلى الثانى هاء .

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)

﴿لنسألنهم﴾ عبارة عن الوعيد . وقيل . يسألهم سؤال تقريع . وعن أبي العالية : يسأل العباد عن خلتين: عما كانوا يعبدون ، وماذا أجابوا المرسلين .

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)

﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فاجهر به وأظهره . يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، كقولك : صرح بها ، من الصديع وهو الفجر ، والصدع فى الزجاجة : الإبانة . وقيل : (فاصدع) فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر ، والمعنى : بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار ، كقوله :

* أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَاأُمِرْتَ بِهِ * [3]

---

(١) قوله «إذا بهته» أى اتهمته . (ع)

(٢) أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث ابن عباس . وفى إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام . وهما ضعيفان . وله شاهد عند عبدالرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء .

(٣) فقال لى قول ذى رأى ومقدرة ... مجرد نزه خال من الريب
أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ... فقد تركتك ذا مال وذا نشب

لخفاف بن ندبة ، وقيل : لعباس بن مرداس . وقيل : لعمرو بن معديكرب . وقيل : لاياس بن موسى ، والمقدرة : مثلث الدال : القوة ، والمحرر النزه ـ كحذر ـ : الخالص من الغش . والريب ، أى الشبه ، وهو نعت لذى رأى . ولو جعلته نعتا للرأى لكان فيه الفصل بين النعت والمنعوت بالعطف . ويجوز رفعه على أنه نعت مقطوع للقول .

ويجوز أن تكون (ما) مصدرية ، أى بأمرك مصدر من المبنى للمفعول .

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

عن عروة بن الزبير فى المستهزئين : هم خمسة نفر ذوو أسنان وشرف : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحرث بن الطلاطلة . وعن ابن عباس رضى الله عنه : ماتوا كلهم قبل بدر . قال جبريل عليه السلام للنبى صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أكفيكهم ، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم ، فلم ينعطف تعظماً لأخذه ، فأصاب عرقاً فى عقبه فقطعه فمات ، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل ، فدخلت فيها شوكة ، فقال : لدغت لدغت وانتفخت رجله ، حتى صارت كالرحى ومات ، وأشار إلى عينى الأسود بن المطلب ، فعمى وأشار إلى أنف الحرث بن قيس ، فامتخط قيحاً فمات ، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (١) .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

﴿ بما يقولون ﴾ من أقاويل الطاعنين فيك وفى القرآن ﴿ فسبح ﴾ فافزع فيما نابك إلى الله . والفزع إلى الله : هو الذكر الدائم وكثرة السجود ، يكفك ويكشف عنك الغم . ودم

= والنشب : المال الأصل صامتا أو ناطقا ، فهو من عطف الخاص على العام . ويروى : ذا نسب ، بالمهملة : أى نسب عظيم ، وأمر : يتعدى للثانى بالباء . ويقال : أمرتك الخير على التوسع ، أو تضمين التكليف ، وجمعهما الشاعر فى البيت .

(١) لم أجده بهذا السياق . وأخرجه الطبرانى فى معجميه . وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل لها . وابن مردويه كلهم من طريق جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس فى قوله تعالى (إنا كفيناك المستهزئين) قال : هم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وأبو زمعة والحرث بن عيطل السهمى قال أتاه جبريل فشكاهم إليه . فأراه الوليد بن المغيرة فأومأ جبريل إلى أكحله . فقال : ما صنعت ؟ قال : كفيته . فساق الحديث . قال : فأما الوليد بن المغيرة فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلا له فأصاب أكحله فقطعها . وأما الأسود ابن المطلب فعمى . وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج فى رأسه قروح فمات منها ، وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف فربط به حماره على شبرقة يعنى شوكة . فدخلت فى أخمص قدمه فقتلته . وأما الحرث بن عيطل فأخذه الماء الأصفر فى بطنه حتى خرج خرءه من فيه فمات منها،

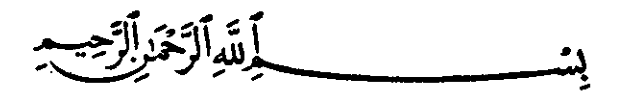
على عبادة ربك ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ أى الموت، أى مادمت حياً فلا تخل بالعبادة. وعن النبى صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة [١].

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار، والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم» [٢]

سورة النحل

مكية، غير ثلاث آيات فى آخرها

وتسمى سورة النعم، وهى مائة وثمان وعشرون آية [نزلت بعد سورة الكهف]



أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء وتكذيباً بالوعد، فقيل لهم ﴿أتى أمر الله﴾ الذى هو بمنزلة الآتى الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه ﴿فلا تستعجلوه﴾ روى أنه لما نزلت (اقتربت الساعة) قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً، فنزلت (اقترب للناس حسابهم) فأشفقوا وانتظروا قربها، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فنزلت (أتى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت (فلا تستعجلوه) فاطمأنوا وقرئ: تستعجلوه، بالتاء والياء. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ تبرأ عز وجل عن أن يكون له شريك، وأن تكون آلهتهم له شركاء. أو عن إشراكهم، على أن «ما» موصولة أو مصدرية. فإن قلت: كيف اتصل

(١) تقدم فى البقرة.

(٢) رواه الثعلبى من طريق أبى الخليل عن على بن زيد عن زر بن حبيش عن أبى بن كعب. وقد تقدمت أسانيده فى آخر آل عمران.

هذا باستعجالهم ؟ قلت : لأنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك . وقرئ: تشركون ، بالتاء والياء .

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

قرئ (ينزل) بالتخفيف والتشديد . وقرئ (تنزل الملائكة) أى تتنزل ﴿ بالروح من أمره ﴾ بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه ، أو بما يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد ، و ﴿ أن أنذروا ﴾ بدل من الروح ، أى ينزلهم بأن أنذروا . وتقديره : بأنه أنذروا ، أى : بأن الشأن أقول لكم أنذروا . أو تكون « أن » مفسرة ؛ لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول . ومعنى أنذروا ﴿ أنه لا إله إلا أنا ﴾ أعلموا بأنّ الأمر ذلك ، من نذرت بكذا إذا علمته . والمعنى : يقول لهم أعلموا الناس قولى لا إله إلا أنا ﴿ فاتقون ﴾ .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾

ثم دلّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر ، مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وما يصلحه ، وما لا بدّ له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجرّ أثقاله وسائر حاجاته ، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه . ومثله متعال عن أن يشرك به غيره . وقرئ : تشركون ، بالتاء والياء ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ فيه معنيان ، أحدهما : فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة ، بعد ما كان نطفة من منيّ جماداً لا حس به ولا حركة ، دلالة على قدرته . والثانى : فإذا هو خصيم لربه ، منكر على خالقه ، قائل : من يحيي العظام وهى رميم . وصفاً للإنسان بالإفراط فى الوقاحة والجهل ، والتمادى فى كفران النعمة . وقيل نزلت فى أبيّ بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أترى الله يحيي هذا بعدما قد رم؟[١]

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

﴿ الأنعام ﴾ الأزواج الثمانية ، وأكثر ما تقع على الإبل ، وانتصابها بمضمر يفسره

(١) يأتى فى سورة يس .

الظاهر، كقوله (والقمر قدّرناه) ويجوز أن يعطف على الإنسان، أى: خلق الإنسان والأنعام، ثم قال ﴿خلقها لكم﴾ أى ماخلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان. والدفء: اسم مايدفأ به، كما أنّ الملء اسم ما يملأ به، وهو الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر. وقرئ: دفٌ، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء ﴿ومنافع﴾ هى نسلها ودرّها وغير ذلك. فإن قلت: تقديم الظرف فى قوله ﴿ومنها تأكلون﴾ مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها. قلت: الأكل منها هو الأصل [1] الذى يعتمده الناس فى معايشهم. وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجارى مجرى التفكه. ويحتمل أن طعمتكم منها، لأنكم تحرثون بالبقر فالحبّ والثمار التى تأكلونها منها وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها.

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها، لأنه من أغراض أصحاب المواشى، بل هو من معاظمها؛ لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشى وسرحوها بالغداة - فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء [2] - أنست أهلها وفرحت أربابها، وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس. ونحوه (لتركبوها وزينة)، (يوارى سوآتكم وريشا). فإن قلت: لم قدمت الإراحة على التسريح؟ قلت: لأنّ الجمال فى الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرأ عكرمة: حينا تريحون وحينا تسرحون، على أن (تريحون وتسرحون) وصف للحين. والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه، كقوله تعالى (يوما لايجزى والد).

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

قرئ: بشق الأنفس، بكسر الشين وفتحها. وقيل: هما لغتان فى معنى المشقة، وبينهما فرق: وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقا، وحقيقته راجعة إلى الشق الذى هو الصدع.

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم قدم المجرور وأجاب بأن الأكل منها هو الأصل ... الخ»؟ قال أحمد: ومدار هذا التقرير على أن تقديم معمول الفعل يوجب حصره فيه فكأنه قال وإنما تأكلون منها.

(٢) قوله «وتجاوب فيها الثغاء والرغاء» الثغاء صوت الشاء والمعز وماشاكلهما. والرغاء صوت ذوات الخف، كذا فى الصحاح.

وأما الشق فالنصف ، كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد . فإن قلت : مامعنى قوله : ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ كأنهم كانوا زمانا يتحملون المشاق فى بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم . قلت : معناه وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه فى التقدير لولم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم ، لأنهم لم يكونوا بالغيه فى الحقيقة . فإن قلت : كيف طابق قوله : (لم تكونوا بالغيه) قوله : (وتحمل أثقالكم) وهلا قيل : لم تكونوا حامليها إليه [1] ؟ قلت : طباقه من حيث أن معناه : وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لاتبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة ، فضلا أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم . ويجوز أن يكون المعنى : لم تكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس . وقيل : أثقالكم أجرامكم . وعن عكرمة : البلد مكة ﴿ لرؤف رحيم ﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح .

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

﴿ والخيل والبغال والحمير ﴾ عطف على الأنعام ، أى : وخلق هؤلاء للركوب والزينة ، وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة ، ولم يذكر الأكل بعد ماذكره فى الأنعام . فإن قلت : لم انتصب ﴿ وزينة ﴾ ؟ قلت : لأنه مفعول له ، وهو معطوف على محل لتركبوها . فإن قلت : فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد [2] ؟ قلت : لأن الركوب فعل المخاطبين ، وأما الزينة ففعل الزائن وهو الخالق . وقرئ : لتركبوها زينة ، بغير واو ، أى : وخلقها زينة لتركبوها . أو تجعل زينة حالا منها ، أى : وخلقها لتركبوها وهى زينة وجمال ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ يجوز أن يريد به : مايخلق فينا ولنا مما لانعلم كنهه وتفاصيله ويمن علينا بذكره كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته . ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق مالاعلم لنا به ، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك ، وإن طوى عنا علمه لحكمة

---

(١) قال محمود : «إن قلت كيف طابق قوله لم تكونوا بالغيه قوله وتحمل أثقالكم ... الخ» ؟ قال أحمد : ويحتمل أن يكون المراد تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس واستغنى بذكر البلوغ عن ذكر حملها لأن العادة أن المسافر لايستغنى عن أثقال يستصحبها والمعنى الأول أعلى ، والله أعلم .

(٢) قال محمود : «إن قلت هلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد ... الخ» ؟ قال أحمد : يعنى لجاز أن ينتصب مجرداً من لام التعليل لأنه فعل فاعل الفعل الأول ، ويعينه اقتران الركوب باللام لأنه فعل المخاطبين ، ومتى لم يتحد الفاعل تعين لحاق اللام ، وفى هذا الجواب نظر ، فان لقائل أن يقول : كان من الممكن مجيئهما معا باللام فيأتيان على سنن واحد . ولاغرو فى ذلك فالسؤال قائم ، والجواب العتيد عنه : أن المقصود المعتبر الأصلى فى هذه الأصناف هو الركوب . وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب ، فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل ، تنبيها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين وتجرد التزين منها تنبيها على تبعيته أوقصوره عن الركوب ، والله أعلم

له فى طيه ، وقد حمل على ما خلق فى الجنة والنار ، مما لم يبلغه وهم أحد ، ولا خطر على قلبه .

وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

المراد بالسبيل : الجنس ، ولذلك أضاف إليها القصد وقال (ومنها جائر) . والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد . يقال : سبيل قصد وقاصد ، أى : مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه . ومعنى قوله ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أن هداية الطريق الموصل [1] إلى الحق واجبة عليه ، [2] كقوله (إن علينا للهدى) . فإن قلت : لم غير أسلوب الكلام فى قوله ﴿ومنها جائر﴾ ؟ قلت : ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة [3] لقيل : وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر . وقرأ عبد الله : ومنكم جائر ، يعنى : ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره ، والله برىء منه ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ قسراً وإلجاء [4] .

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾

(١) قال محمود : «ومعناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة ... الخ» قال أحمد : أين يذهب به عن تتمة الآية . وذلك قوله تعالى (ولو شاء لهداكم أجمعين) ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام : وقد هداكم أجمعين . وما كأنهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فان ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والالجاء ، فما كأنهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه . وأما المخالفة بين الأسلوبين ، فلأن سياق الكلام لاقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بين السبيل القاصد والجائر ، وهدى قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم . وقد تقدم فى غير ما موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران ، هو من حيث كونه موجوداً مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقترنا باختيار العبد له وبتأتيه له وتيسره عليه يضاف إلى العبد ، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت فى كل فعل ، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له ، والحاصل أنه ذكر فى كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة فى الآخر ، ليناسب ذلك إقامة الحجة (ألا لله الحجة البالغة) والله الموفق للصواب .

(٢) قوله «والطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه» هذا مذهب المعتزلة ولا وجوب عليه تعالى عند أهل السنة ، بل ذلك فضل منه تعالى ؛ لكن الكريم يبرز الوعد بالخير فى صورة الواجب . (ع)

(٣) قوله «ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل : وعلى الله قصد السبيل» يعنى أهل السنة من أنه تعالى يخلق الشر كالخير . وقوله «لقيل» الخ : الملازمة ممنوعة لأن الكريم يحب الخير دون الشر ، وإن كان كل منهما من عنده (قل كل من عند الله) . (ع)

(٤) قوله «ولو شاء لهداكم أجمعين قسراً وإلجاء» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فانه لو شاء لهدى الكل اختياراً ، وذلك أن المعتزلة أوجبوا على الله الصلاح ، وهداية الكل صلاح ؛ فظاهر الآية يخالف مذهبهم . ولذا قالوا : إنه أراد هداية الكل ، لكن إرادة لا تنافى تخيير العبد ، لئلا يبطل تكليفه . وهذه الارادة لا تستلزم وقوع المراد . وأهل السنة لم يوجبوا على الله تعالى شيئا ، وكل ما أراده الله لا بد من وقوعه . وهذه الارادة لا تنافى اختيار العبد عندهم لما تقرر له من الكسب ، كما بين فى علم التوحيد . (ع)

يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)

﴿ لكم ﴾ متعلق بأنزل ، أو بشراب ، خبراً له . والشراب ما يشرب ﴿شجر﴾ يعني الشجر الذي ترعاه المواشي . وفي حديث عكرمة : لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت .[١] يعني الكلأ ﴿تسيمون﴾ من سامت الماشية إذا رعت ، فهي سائمة ، وأسامها صاحبها ، وهو من السومة وهي العلامة ، لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض . وقرئ : ينبت ، بالياء والنون . فإن قلت : لم قيل ﴿ومن كل الثمرات﴾ ؟ قلت : لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة ، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة ﴿ يتفكرون ﴾ ينظرون فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته . والآية : الدلالة الواضحة . وعن بعضهم : ينبت ، بالتشديد . وقرأ أبيّ بن كعب : ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، بالرفع .

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)

قرئت كلها بالنصب على : وجعل النجوم مسخرات . أو على أنّ معنى تسخيرها للناس : تصييرها نافعة لهم ، حيث يسكنون بالليل ، ويبتغون من فضله بالنهار ، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر ، ويهتدون بالنجوم . فكأنه قيل : ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره . ويجوز أن يكون المعنى : أنه سخرها أنواعا من التسخير جمع مسخر ، بمعنى تسخير ، من قولك : سخره الله مسخراً ، كقولك : سرحه مسرحاً ، كأنه قيل : وسخرها لكم تسخيرات بأمره . وقرئ بنصب الليل والنهار وحدهما ، ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر . وقرئ : والنجوم مسخرات ، بالرفع . وما قبله بالنصب ، وقال ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ لجمع الآية . وذكر العقل ؛ لأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة .

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الأحوال عنه موقوفا . وزاد نحوه . وروى عبدالرزاق من طريق وهب بن منبه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اتقوا السحت قالوا : وما السحت ؟ قال : بيع الشجر ، وثمن الخمر ، وإجارة الأمة المساحقة .

﴿وما ذرأ لكم﴾ معطوف على الليل والنهار. يعنى: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيآت والمناظر.

وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

﴿لحماً طريا﴾ هو السمك، ووصفه بالطراءة؛[1] لأنّ الفساد يسرع إليه،[2] فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه. فإن قلت: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحماً، فأكل سمكا، لم يحنث. والله تعالى سماه لحماً كما ترى؟ قلت: مبنى الإيمان على العادة، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك، كان حقيقاً بالإنكار. ومثاله أن الله تعالى سمى الكافر دابة فى قوله: إنّ شرّ الدواب عند الله الذين كفروا. فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث. ﴿حلية﴾ هى اللؤلؤ والمرجان.[3] والمراد بلبسهم: لبس نسائهم، لأنهنّ من جملتهم، ولأنهنّ إنما يتزين بها من أجلهم، فكأنها زينتهم ولباسهم. المخر: شق الماء بحيزومها. وعن الفراء: هو صوت جرى الفلك بالرياح. وابتغاء الفضل: التجارة.

وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

﴿أن تميد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب. والمائد: الذى يدار به إذا ركب البحر. قيل: خلق الله الأرض فجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هى بمقرّ أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال. لم تدر الملائكة ممّ خلقت ﴿وأنهاراً﴾ وجعل فيها أنهاراً، لأن (ألقى) فيه معنى: جعل. ألا ترى إلى قوله (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً). ﴿وعلامات﴾

(١) قوله «بالطراءة» فى الصحاح: طرو اللحم، وطرى طراوة وطراء وطراة. (ع)

(٢) عاد كلامه. قال: «هو السمك، ووصفه بالطراءة لأن الفساد يسرع إليه ... الخ» قال أحمد: فكأن ذلك تعليم لأكله وإرشاد إلى أنه لا ينبغى أن يتناول إلا طريا. والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون، والله أعلم.

(٣) قال محمود: «الحلية هى اللؤلؤ والمرجان ... الخ» قال أحمد: ولله در مالك رضى الله عنه حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن، حتى جعل المرأة من مالها وزينتها حلية له، فعبر عن حظه فى لبسها بلبسه، كما يعبر عن حظها سواء، مؤيدا بالحديث المروى فى الباب، والله أعلم.

هى معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك . والمراد بالنجم : الجنس، كقولك . كثر الدرهم فى أيدى الناس . وعن السدى : هو الثريا ، والفرقدان ؛ وبنات نعش ، والجدى . وقرأ الحسن : وبالنجم ، بضمتين ، وبضمة وسكون ، وهو جمع نجم ، كرهن ورهن ، والسكون تخفيف . وقيل حذف الواو من النجوم تخفيفاً . فإن قلت : قوله ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ مخرج عن سنن الخطاب ، مقدم فيه (النجم) ، مقحم فيه (هم) ، كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون ، فمن المراد بـ (هم) ؟ قلت : كأنه أراد قريشاً : كان لهم اهتداء بالنجوم فى مسايرهم ، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم ، والاعتبار ألزم لهم ، فخصصوا

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

فإن قلت : (من لا يخلق) أريد به الأصنام ، [1] فلم جيء بمن الذى هو لأولى العلم ؟ قلت : فيه أوجه ، أحدها : أنهم سموها آلهة وعبدوها ، فأجروها مجرى أولى العلم . ألا ترى إلى قوله على أثره (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) والثانى : المشاكلة بينه وبين من يخلق . والثالث : أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بما لا علم عنده ، كقوله (ألهم أرجل يمشون بها) يعنى أنّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب ، لأنّ هؤلاء أحياء وهم أموات ، فكيف تصح لهم العبادة ؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصحّ أن يعبدوا . فإن قلت : هو إلزام للذين عبدوا الأوثان [2] وسموها آلهة تشبيهاً بالله ، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فكان حق الإلزام أن يقال لهم : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟ قلت : حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه والعبادة له وسوّوا بينه وبينه ، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهاً بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق)

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

(١) قال محمود : «إن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام ... الخ» قال أحمد : هو تحوم على أن العباد يخلقون أفعالهم ، وأن المراد إظهار التفاوت بين من يخلق منهم ومن لا يخلق كالعاجزين والزمنى ، حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم وبين الأصنام بطريق الأولى . ولقد تمكن منه الطمع حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتنزيله الآية على هذ التأويل ، ويتمنى لو تم له ذلك .

* وما كل ما يتمنى المرء يدركه *

(٢) عاد كلامه . قال : «فإن قلت هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله تعالى وكان من حق الالزام ... الخ» قال أحمد : وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قوله تعالى (وليس الذكر كالأنثى) فجدد بها عهدا .

﴿لا تحصوها﴾ لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم ، فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر ، أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهاً على أنّ وراءها مالا ينحصر ولا ينعدّ ﴿إنّ الله لغفور رحيم﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم فى أداء شكر النعمة ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم ، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ من أعمالكم ، وهو وعيد .

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)

﴿والذين يدعون﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿من دون الله﴾ وقرئ بالتاء . وقرئ : يدعون ، على البناء للمفعول . نفى عنهم خصائص الإلهية بنفى كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث . وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب . ومعنى ﴿أموات غير أحياء﴾ أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات ، أى غير جائز عليها الموت كالحىّ الذى لا يموت وأمرهم على العكس من ذلك . والضمير فى (يبعثون) للداعين ، أى لا يشعرون متى تبعث عبدتهم . وفيه تهكم بالمشركين وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم . وفيه دلالة على أنه لا بدّ من البعث وأنه من لوازم التكليف . ووجه آخر : وهو أن يكون المعنى أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير ، وهم لا يقدرون على نحو ذلك ، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها ، غير أحياء يعنى أنّ من الأموات ما يعقب موته حياة ، كالنطف التى ينشئها الله حيواناً ، وأجساد الحيوان التى تبعث بعد موتها . وأمّا الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة ، وذلك أعرق فى موتها ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أى وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكما بحالها ، لأنّ شعور الجماد محال ، [1] فكيف بشعور مالا يعلمه حىّ إلا الحىّ القيوم سبحانه . ووجه ثالث : وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة ، وكان ناس منهم يعبدونهم ، وأنهم أموات : أى لا بدّ لهم من الموت ، غير أحياء : غير باقية حياتهم . وما يشعرون : ولا علم لهم بوقت بعثهم . وقرئ : إيان ، بكسر الهمزة .

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ

---

(١) قوله «لأن شعور الجماد محال» أى شعوره بما يشعر به الحيوان محال ، فكيف بشعوره بما لا يعلمه حيوان وإنما يعلمه الحي القيوم ، وهو وقت البعث . ولعل فى عبارة المصنف سقطاً تقديره : شعور الجماد بما يشعر به الحيوان . (ع)

مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَاجَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

﴿ إلهكم إله واحد ﴾ يعنى أنه قد ثبت بما تقدم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره . وأنها له وحده لا شريك له فيها ، فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها : استمرارهم على شركهم ، وأنّ قلوبهم منكرة للوحدانية ، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها ﴿ لا جرم ﴾ حقا ﴿ أنّ الله يعلم ﴾ سرّهم وعلانيتهم فيجازيهم ، وهو وعيد ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعنى المشركين . ويجوز أن يعمّ كل مستكبر . ويدخل هؤلاء تحت عمومه .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)

﴿ ماذا ﴾ منصوب بأنزل ، بمعنى : أى شيء ﴿ أنزل ربكم ﴾ أو مرفوع بالابتداء ، بمعنى : أىّ شيء أنزله ربكم ، فإذا نصبت فمعنى ﴿ أساطير الأولين ﴾ ما يدّعون نزوله أساطير الأوّلين ، وإذا رفعته فالمعنى : المنزل أساطير الأوّلين ، كقوله (ماذا ينفقون قل العفو) فيمن رفع . فإن قلت : هو كلام متناقض ، لأنه لا يكون منزل ربهم وأساطير ؟ قلت : هو على السخرية كقوله : إنّ رسولكم (١) وهو كلام بعضهم لبعض ، أو قول المسلمين لهم . وقيل : هو قول المقتسمين : الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا أحاديث الأوّلين وأباطيلهم ﴿ ليحملوا أوزارهم ﴾ أى قالوا ذلك إضلالا للناس وصدّا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحملوا أوزار ضلالهم ﴿ كاملة ﴾ وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم . وهو وزر الإضلال ، لأن المضلّ والضال شريكان : هذا يضله ، وهذا يطاوعه على إضلاله ، فيتحاملان الوزر . ومعنى اللام التعليل من غير أن يكون غرضاً ، كقولك : خرجت من البلد مخافة الشر ﴿ بغير علم ﴾ حال من المفعول أى يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل .

---

(٢) قوله «على السخرية كقوله إن رسولكم» لعله : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . (ع)

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)

القواعد: أساطين البناء التي تعمده. وقيل: الأساس. وهذا تمثيل، يعني: أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا [1] بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت، فسقط عليهم السقف وهلكوا. ونحوه: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا. وقيل: هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع. وقيل فرسخان، فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره ﴿من القواعد﴾ من جهة القواعد ﴿من حيث لا يشعرون﴾ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ: فأتى الله بيتهم. فخر عليهم السقف، بضمتين ﴿يخزيهم﴾ يذلهم بعذاب الخزي (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) يعني هذا لهم في الدنيا، ثم العذاب في الآخرة ﴿شركائي﴾ على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم، ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿تشاقون فيهم﴾ تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم. وقرئ: تشاقون، بكسر النون، بمعنى: تشاقونني؛ لأنّ مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه. وقيل: هم الملائكة. وقرئ: تتوفاهم، بالتاء والياء. وقرئ: الذين توفاهم، بإدغام التاء في التاء ﴿فألقوا السلم﴾ فسالموا وأخبتوا، وجاءوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر، وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فردّ عليهم أولو العلم ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضاً من الشماتة وكذلك ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾.

---

(١) قوله «ليمكروا بها الله ورسوله» لعل تعدية فعل المكر إلى مفعول لتضمنه معنى الخديعة. (ع)

وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

﴿خيراً﴾ أنزل خيراً . فإن قلت : لم نصب هذا ورفع الأول ؟ قلت : فصلا بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال ، فقالوا خيراً : أى أنزل خيراً ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين . وليس من الإنزال فى شىء . وروى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا : إن لم تلقه كان خيراً لك ، فيقول : أنا شرّ وافد إن رجعت إلى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه ، فيلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه ، وأنه نبىّ مبعوث . فهم الذين قالوا خيراً . وقوله ﴿للذين أحسنوا﴾ وما بعده بدل من خيراً . حكاية لقوله الذين اتقوا . أى : قالوا هذا القول ، فقدم عليه تسميته خيراً ثم حكاه . ويجوز أن يكون كلاما مبتدأ عدة للقائلين . ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحمدوا عليه ﴿حسنة﴾ مكافأة فى الدنيا بإحسانهم ، ولهم فى الآخرة ماهو خير منها ، كقوله (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) . ﴿ولنعم دار المتقين﴾ دار الآخرة ، فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره . و ﴿جنات عدن﴾ خبر مبتدإ محذوف . ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح ﴿طيبين﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصى . لأنه فى مقابلة ظالمى أنفسهم ﴿يقولون سلام عليكم﴾ قيل : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك ياولىّ الله ، الله يقرأ عليك السلام ، وبشره بالجنة

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)

﴿تأتيهم الملائكة﴾ قرئ بالتاء والياء . يعنى : أن تأتيهم لقبض الأرواح . و ﴿أمر ربك﴾

العذاب المستأصل ، أو القيامة ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿ فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ﴾ بتدميرهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير ﴿ سيئات ما عملوا ﴾ جزاء سيئات أعمالهم . أو هو كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْشَاءَ ٱللَّهُ مَاعَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم ، من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله ، استهزاء منهم به وتكذيبهم الرسول ، وشقاقهم ، واستكبارهم عن قبول الحق ، يعنى : أنهم أشركوا بالله وحرموا ما أحل الله ، من البحيرة والسائبة وغيرهما ، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا : لو شاء لم نفعل ، وهذا مذهب المجبرة بعينه [1] ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أى أشركوا وحرموا حلال الله [2] ، فلما نبهوا على قبح فعلهم

(١) قوله «وقالوا لو شاء الله لم نفعل ، وهذا مذهب المجبرة بعينه» يعنى أهل السنة ، وليس كما قال ، بل قاله المشركون استهزاء ، وأهل السنة اعتقادا ، كما أفاده النسفى . وكل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، شرا كان أو خيرا . وكل أمر بقضائه تعالى وقدره ، شرا كان أو خيراً . وهو الخالق لأفعال العباد وإن كانت بكسبهم واختيارهم ، خلافا للمعتزلة فى جميع ذلك ، كما أطال به فيما سيأتى هنا انتصارا للمعتزلة . (ع)

(٢) قال محمود : «يعنى أنهم أشركوا بالله وحرموا ما أحل الله ... الخ» قال أحمد : قد تكرر منه مثل هذا الفصل فى أخت الآية المتقدمة فى سورة الأنعام ، وقد قدمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء الله ، والذى زاده هنا يثبت معتقده على زعمه بقوله تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ووجه تمسكه به أن الله تعالى قسم العبادة إلى قسمين : مأمور به ومنهى عنه . والأمر والنهى عند المصنف راجعان إلى المشيئة بناء على زعم القدرية فى إنكار كلام النفس وحمل الاقتضاء على الارادة ، فالحاصل حينئذ من هذه التتمة أن الله شاء عبادة الخلق له وشاء اجتنابهم عبادة الطاغوت ، ولم يشأ منهم أن يشركوا به ، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمة من الأمم ، فجاءت التتمة مترجمة عن معنى صدر الآية ، مؤكدة بمقتضاها . هذا هو الذى زاده المصنف ههنا ، وقد بينا أن مبناه على إنكار كلام النفس الثابت قطعا ، فهو باطل جزما . والعجب أن الله تعالى أوضح فى الآيتين جميعاً أن الذى أنكره من القائلين (لو شاء الله ما أشركنا) إنما هو احتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التى لا حجة لهم فيها ، مع ما خلق لهم من الاختيار بقوله ههنا (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وبقوله فى آخر آية الأنعام (فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) فتبين فيهما أنه هو الذى شاء منهم الاشراك والضلالة ، ولو شاء هدايتهم أجمعين لاهتدوا عن آخرهم . وحصل من هذا البيان : صرف الانكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة لله تعالى ، وذلك هو الذى قدمناه فى إقامتهم الحجة على الله بمشيئته مع أن حجتهم فى ذلك داحضة ، ولله عليهم الحجة البالغة الواضحة ، والله الموفق .

وركوه على ربهم [1] ﴿فهل على الرسل﴾ إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لايشاء الشرك والمعاصى بالبيان والبرهان. ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة الله تعالى من أفعال العباد، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم. والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

ولقد أمدّ إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه مامن أمة إلا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذى هو الإيمان وعبادة الله. وباجتناب الشر الذى هو طاعة الطاغوت ﴿فمنهم من هدى الله﴾ أى لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ أى ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف. لأنه عرفه مصمما على الكفر لايأتى منه خير ﴿فسيروا فى الأرض فانظروا﴾ مافعلت بالمكذبين حتى لايبقى لكم شبهة فى أنى لاأقدر الشر ولا أشاؤه، حيث أفعل ماأفعل بالأشرار.

إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيمانهم، وعرّفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة، وأنه ﴿لايهدى من يضل﴾ أى لايلطف بمن يخذل، لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث؛ لأنه من قبيل القبائح التى لاتجوز عليه. وقرئ: لايُهدَى [2]، أى: لاتقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله. وقوله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ دليل على أنّ المراد بالإضلال: الخذلان الذى هو نقيض النصرة. ويجوز أن يكون (لايهدى) بمعنى لايهتدى. يقال: هداه الله فهدى. وفى قراءة أبىّ: فإنّ الله لاهادى لمن يضل، ولمن أضلّ [3]، وهى معاضدة لمن قرأ ﴿لايهدى﴾ على البناء للمفعول. وفى قراءة عبد الله: يهدى، بإدغام تاء يهتدى، وهى معاضدة الأولى. وقرئ (يضل) بالفتح. وقرأ النخعى: إن تحرص، بفتح الراء، وهى لغية.

---

(١) قوله «وركوه على ربهم» أى اتهموه به. (ع)

(٢) قوله «وقرئ لايهدى» أى بالبناء المجهول، كما أفاده النسفى. (ع)

(٣) قوله «وفى قراءة أبى: فإن الله لاهادى لمن يضل ولمن أضل» ظاهره أن هذه قراءة أخرى لأبى، فليحرر. (ع)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)

﴿وأقسموا بالله﴾ معطوف على (وقال الذين أشركوا) إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان، حقيقتان بأن تحكيا وتدونا: توريك ذنوبهم على مشيئة[1] الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه. و﴿بلى﴾ إثبات لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم. ووعد الله: مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى. لأن يبعث موعد من الله. وبين أنّ الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنهم يبعثون أو أنه وعد واجب[2] على الله؛ لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل ولا غيره من مواجب الحكمة ﴿ليبين لهم﴾ متعلق بما دل عليه «بلى» أي يبعثهم ليبين لهم. والضمير لمن يموت. وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذى اختلفوا فيه هو الحق ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم﴾ كذبوا في قولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، وفي قولهم: لا يبعث الله من يموت. وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) أي بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وأنهم كانوا على الضلالة قبله، مفترين على الله الكذب.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)

﴿قولنا﴾ مبتدأ، و﴿أن نقول﴾ خبره. ﴿كن فيكون﴾ من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل لأنّ مراداً لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل، ولا قول ثم. والمعنى: أنّ إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات. وقرئ: فيكون، عطفاً على (نقول).

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

---

(١) قوله «توريك ذنوبهم على مشيئة الله» أي نسبة ذنوبهم إلى مشيئته تعالى واتهامها بها. (ع)

(٢) قوله «أو أنه وعد واجب على الله ... الخ» الكلام في الكفار. وعرض فيه المصنف بأهل السنة تعصبا للمعتزلة في قولهم بوجوب الصلاح عليه تعالى فافهم. (ع)

﴿والذين هاجروا﴾ هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله ، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين . ومنهم من هاجر إلى المدينة . وقيل : هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم : منهم بلال ، وصهيب ، وخباب ، وعمار . وعن صهيب أنه قال لهم : أنا رجل كبير ، إن كنت معكم لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم لم أضركم ، فافتدى منهم بماله وهاجر ، فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال له : ربح البيع ياصهيب . وقال له عمر : نعم الرجل صهيب ، لولم يخف الله لم يعصه ، وهو ثناء عظيم : يريد لولم يخلق الله ناراً لأطاعه [1] ، فكيف ﴿فى الله﴾ فى حقه ولوجهه ﴿حسنة﴾ صفة للمصدر ، أى لنبوأنهم تبوئة حسنة . وفى قراءة على رضى الله عنه : لنثوينهم . ومعناه : أثواءة حسنة . وقيل : لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة ، وهى الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم ، وعلى العرب قاطبة ، وعلى أهل المشرق والمغرب . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ماوعدك ربك فى الدنيا ، وما ذخر لك فى الآخرة أكثر . وقيل : لنبوأنهم مباءة حسنة وهى المدينة ، حيث آواهم أهلها ونصروهم ﴿لوكانوا يعلمون﴾ الضمير للكفار ، أى : لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين فى أيديهم الدنيا والآخرة ، لرغبوا فى دينهم . ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين ، أى : لوكانوا يعلمون ذلك لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم ﴿الذين صبروا﴾ على : هم الذين صبروا . أو أعنى الذين صبروا . وكلاهما مدح ، أى : صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله المحبوب فى كل قلب . فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم ، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح فى سبيل الله .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قالت قريش : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فقيل ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم﴾ على ألسنة الملائكة ﴿فاسئلوا أهل الذكر﴾ وهم أهل الكتاب ، ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً . فإن قلت : بم تعلق قوله ﴿بالبينات﴾ ؟ قلت : له متعلقات شتى ، فاما أن يتعلق بما أرسلنا داخلا تحت حكم الاستثناء مع رجالا أى : وما أرسلنا

(١) قوله «لو لم يخلق الله ناراً لأطاعه فكيف» أى فكيف لايطيعه . وقد خلقها لمن عصى . (ع)

إلا رجالا بالبينات ، كقولك : ماضربت إلا زيداً بالسوط ؛ لأن أصله : ضربت زيداً بالسوط وإما برجالا ، صفة له : أى رجالا ملتبسين بالبينات . وإما بأرسلنا مضمراً . كأنما قيل : بم أرسلوا ؟ فقلت بالبينات ، فهو على كلامين ، والأول على كلام واحد . وإما بيوحى ، أى : يوحى إليهم بالبينات . وإما بلا تعلمون ، على أن الشرط فى معنى التبكيت والإلزام ، كقول الأجير : إن كنت عملت لك فأعطنى حقى . وقوله (فاسئلوا أهل الذكر) اعتراض على الوجوه المتقدمة ، وأهل الذكر : أهل الكتاب . وقيل للكتاب الذكر ؛ لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ﴿ مانزل إليهم ﴾ يعنى ما نزل الله إليهم فى الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا .

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)

﴿ مكروا السيئات ﴾ أى المكرات السيئات ، وهم أهل مكة ، وما مكروا به رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] ﴿ فى تقلبهم ﴾ متقلبين فى مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم ﴿ على تخوف ﴾ متخوفين ، وهو أن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون ، وهو خلاف قوله (من حيث لا يشعرون) وقيل : هو من قولك : تخوفته وتخونته ، إذا تنقصته : قال زهير :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[٢]

أى يأخذهم على أن يتنقصهم شيئاً بعد شىء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا . وعن عمر رضى الله عنه . أنه قال على المنبر : ماتقولون فيها ؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا : التخوف

(١) قوله «ومامكروا به رسول الله صلى الله عليه وسلم» ضمن المكر معنى الخدع ، فعدى إلى المفعول . (ع)

(٢) لأبى كبير الهذلى . وقيل لزهير . والتخوف : التنقص شيئا فشيئا . والتامك : السنام المرتفع . والقرد : الذى أكله القراد من كثرة أسفارها . أو الذى تنقب وفسد من الرحل فى السفر . والنبعة : واحدة النبع ، وهو شجر تتخذ منه القسى . ويروى : ظهر النبعة . والسفن : المبرد الحديد الذى ينحت به الخشب ، يقول : تنقص رحلها سنامها المرتفع الذى تنقب من كثرة السفر ، كما تنقص المبرد عود النبعة . وفيه تشبيهها فى الصلابة . وروى أن عمر قال على المنبر : ماتقولون فى قوله تعالى (أو يأخذكم على تخوف) فسكتوا ، فقال شيخ من هذيل : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص ، وأنشد البيت ، فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فان فيه تفسير كتابكم .

التنقص . قال : فهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال : نعم ، قال شاعرنا . وأنشد البيت . فقال عمر : أيها الناس ، عليكم بديوانكم لا يضل . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ﴿فإن ربكم لرؤف رحيم﴾ حيث يحلم عنكم ، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم .

أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾

قرئ : أولم يروا . ويتفيؤا ، بالياء والتاء . و(ما) موصولة بخلق الله ، وهو مبهم بيانه ﴿من شيء يتفيؤا ظلاله﴾ . واليمين ، بمعنى الأيمان . و﴿سجدا﴾ حال من الظلال . ﴿وهم داخرون﴾ حال من الضمير فى ظلاله ، لأنه فى معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل ، وجمع بالواو ، لأن الدخور من أوصاف العقلاء ، أو لأن فى جملة ذلك من يعقل فغلب . والمعنى : أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التى لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها ، أى عن جانبى كل واحد منها . وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبى الشيء ، أى : ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ ، والأجرام فى أنفسها داخرة أيضاً ، صاغرة منقادة لأفعال الله فيها ، لا تمتنع .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿من دابة﴾ يجوز أن يكون بيانا لما فى السموات وما فى الأرض جميعا ، على أن فى السموات خلقا لله يدبون فيها كما يدب الأناسى فى الأرض ، وأن يكون بيانا لما فى الأرض وحده ، ويراد بما فى السموات : الخلق الذى يقال له الروح ، وأن يكون بيانا لما فى الأرض وحده ، ويراد بما فى السموات : الملائكة . وكرر ذكرهم على معنى : والملائكة خصوصا من بين الساجدين ؛ لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم . ويجوز أن يراد بما فى السموات : ملائكتهن . وبقوله والملائكة : ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم . فإن قلت : سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم ، [1] فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد ؟ قلت : المراد بسجود

(١) قال محمود : «إن قلت سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم ، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد ... الخ» ؟ قال أحمد : وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد لحقيقته ومجازه شمولا ولم يرد ذلك متناقضا ، فان السجود يتناول هل المكلف حقيقة يتناول حال غير المكلف بطريق مجاز التشبيه ، وقد أريد جميعا من الآية ، والزمخشرى ينكر ذلك فى مواضع مررت عليها من كتابه ، هذا وظاهر مراده ههنا أن السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف وحال غير المكلف ، وهو عدم الامتناع عند القدرية ، وغرضه من =

المكلفين : طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم : انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها ، وكلا السجودين يجمعها معنى الانقياد فلم يختلفا . فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد . فإن قلت : فهلا جيء بمن دون «ما» تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم ؟ قلت : لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب ، فكان متناولا للعقلاء خاصة . فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ، إرادة العموم ﴿يخافون﴾ يجوز أن يكون حالا من الضمير [1] فى (لايستكبرون) أى : لا يستكبرون خائفين ، وأن يكون بيانا لنفى الاستكبار وتأكيداً له ؛ لأنّ من خاف الله لم يستكبر عن عبادته ﴿من فوقهم﴾ إن علقته بيخافون ، فمعناه : يخافونه أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم . وإن علقته بربهم حالا منه فمعناه : يخافون ربهم عاليا لهم قاهرا ، كقوله (وهو القاهر فوق عباده) ، (وإنا فوقهم قاهرون) وفيه دليل على أنّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهى والوعد والوعيد كسائر المكلفين ، وأنهم بين الخوف والرجاء .

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾

فإن قلت : إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين ، فقالوا عندى رجال ثلاثة وأفراس أربعة ؛ لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص . وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان ، فمعدودان فيهما دلالة على العدد . فلا حاجة إلى أن يقال : رجل واحد ورجلان اثنان ، فما وجه قوله إلهين اثنين [2] ؟ قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص . فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنىّ به منهما ، والذى يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد إليه والعناية به . ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ، ولم تؤكده بواحد : لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية ﴿فإياى فارهبون﴾ نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم ، وجاز لأنّ الغالب هو المتكلم . وهو من طريقة الالتفات ، وهو أبلغ فى الترهيب من قوله : وإياه فارهبوه ، ومن أن يجىء ما قبله على لفظ المتكلم .

ـــ ذلك أن يكون اللفظ متواطئا فيهما جميعا ، ليسلم من الجمع بين الحقيقة والمجاز ، لأنه يأبى ذلك ، ولا يتم له هذا المقصد فى الآية ـ والله أعلم ـ لأن كونها آية سجدة يدل على أن المراد من السجود المذكور فيها منسوبا المكلفين هو الفعل الخاص المتعارف شرعا ، الذى يكون ذكره سببا لفعلة سببية معتادة فى عزائم السجود . لا القدر الأعم المشترك ، والله أعلم .

(١) قال محمود : «يجوز أن يكون حالا من الضمير ... الخ» قال أحمد : هذا الثانى هو الوجه ليس الأول . وأما الحال فيعطى انتقالا ، ويوهم تقييد العدم استكبارهم ، مع أن الواقع أن عدم استكبارهم مطلق غير مقيد بحال . والله الموفق .

(٢) قال محمود : «إن قلت ما فائدة قوله اثنين مع إغناء التثنية عن ذلك ... الخ» قال أحمد : وهذا الفصل من حسناته التى لا يدافع عنها ، والله الموفق .

وَلَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)

﴿الدين﴾ الطاعة ﴿واصبا﴾ حال عمل فيه الظرف. والواصب: الواجب الثابت؛ لأنّ كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه. ويجوز أن يكون من الوصب، أى: وله الدين ذا كلفة ومشقة، ولذلك سمى تكليفا. أو: وله الجزاء ثابتا دائما سرمدا لا يزول، يعنى الثواب والعقاب.

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

﴿وما بكم من نعمة﴾ وأىّ شىء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة، فهو من الله ﴿فإليه تجأرون﴾ فما تتضرعون إلا إليه. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة. قال الأعشى يصف راهبا:

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيـــكِ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارَا (١)

وقرئ: تجرون، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم. وقرأ قتادة: كاشف الضرّ على: فاعل بمعنى فعل، وهو أقوى من كشف؛ لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة. فإن قلت: فما معنى قوله ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾؟ قلت: يجوز أن يكون الخطاب فى قوله (وما بكم من نعمة فمن الله) عاما، ويريد بالفريق: فريق الكفرة وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان، لا للتبعيض. كأنه قال فإذا فريق كافر، وهم أنتم. ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد)، ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عنهم،

---

(١) وما آبلى على هيكل بناه وصلب فيه وصارا
يراوح من صلوات المليـ ـك طورا سجودا وطورا جؤارا
بأعظم منك تقى فى الحساب إذا النسمات نفضن الغبارا

للأعشى. والآبلى: الراهب، نسبة إلى آبل وهو قيم البيعة. والهيكل: بيت الصنم. وصلب: أى صور الصليب. وألف صارا للاطلاق. ويراوح: خبره، وإن لزم عليه التضمين مراعاة لجزالة المعنى، والمراوحة فى العمل: الانتقال من حالة إلى أخرى. والصلوات: الدعوات. والسجود: الانخفاض والخشوع. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء. وبأعظم: خبر آبلى. وتقى: تمييز. يقول: ليس الراهب العاكف على هيكله الذى صور فيه الصليب، وصار يتابع ويتنقل من بعض دعوات الله الى بعض، فتارة يسجد سجوداً، وتارة يجأر جؤارا، تقاه أعظم من تقاك يوم الحساب إذا قام الناس من قبورهم، فنفضهم الغبار: كناية عن ذلك.

كأنهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ تخلية ووعيد . وقرئ : فيمتعوا ، بالياء مبنيا للمفعول ، عطفا على (ليكفروا) ويجوز أن يكون : ليكفروا فيمتعوا ، من الامر الوارد فى معنى الخذلان والتخلية ، واللام لام الأمر .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿لما لا يعلمون﴾ أى لآلهتهم . ومعنى لا يعلمونها : أنهم يسمونها آلهة ، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله ، وليس كذلك . وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع ، فهم إذاً جاهلون بها . وقيل : الضمير فى (لا يعلمون) للآلهة . أى : لأشياء غير موصوفة بالعلم ، ولا تشعر أجعلوا لها نصيباً فى أنعامهم وزروعهم أم لا ؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا إليهم ﴿لتسئلن﴾ وعيد ﴿عما كنتم تفترون﴾ من الإفك فى زعمكم أنها آلهة ، وأنها أهل للتقرب إليها .

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

كانت خزاعة وكنانة تقول : الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه لذاته من نسبة الوالد إليه . أو تعجب من قولهم ﴿ولهم ما يشتهون﴾ يعنى البنين . ويجوز فى (ما يشتهون) الرفع على الابتداء ، والنصب على أن يكون معطوفا على البنات ، أى : وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور . و﴿ظل﴾ بمعنى صار[1] كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى الصيرورة . ويجوز أن يجىء ظل ؛ لأن أكثر الوضع يتفق بالليل ، فيظل نهاره مغتما مربد الوجه[2] من الكآبة والحياء من الناس ﴿وهو كظيم﴾ مملوء حنقاً على المرأة ﴿يتوارى من القوم﴾ يستخفى منهم ﴿من﴾ أجل ﴿سوء﴾ المبشر به ، ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بشر به ﴿على هون﴾

---

(١) قال محمود : «ظل بمعنى صار» قال أحمد : وجاز أن يراد الظلول نهاراً لقصد المبالغة فى وصفهم بالعناد والاصرار وأنهم لو عرجوا نهارا فى الوقت الذى لا يتغابى على البصر فيه شىء إلى السماء لتمادوا على كفرهم وتكذيبهم ، والله أعلم .

(٢) قوله «ويجوز أن يجىء ظل ... الخ» أى يرد ويستعمل فى الآية بمعناه الأصلى ، وهو اتصاف الشىء بصفة نهاراً فقط ، لأن أكثر الوضع ... الخ . ومربد الوجه : متغيره من الغضب ، كما يفيده الصحاح . (ع)

على هوان وذل ﴿أم يدسه فى التراب﴾ أم يئده [1] . وقرئ : أيمسكها على هون أم يدسها ، على التأنيث . وقرئ : على هوان ﴿ألا ساء مايحكمون﴾ حيث يجعلون الولد الذى هذا محله عندهم لله ، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف .

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿مثل السوء﴾ صفة السوء : وهى الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق ، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ ﴿ولله المثل الأعلى﴾ وهو الغنى عن العالمين ، والنزاهة عن صفات المخلوقين وهو الجواد الكريم .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

﴿بظلمهم﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ماترك عليها﴾ أى على الأرض ﴿من دابة﴾ قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين . وعن أبى هريرة : أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لايضرّ إلا نفسه ، فقال : بلى والله ، حتى أنّ الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم [2] . وعن ابن مسعود : كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم [3] . أو من دابة ظالمة . وعن ابن عباس (من دابة) من مشرك يدب عليها . وقيل : لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء .

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ لأنفسهم من البنات ومن شركاء فى رياستهم ، ومن الاستخفاف برسلهم [4]

---

(١) قوله «أم يئده» أى يدفنه فى القبر حيا . (ع)

(٢) أخرجه الطبرى والبيهقى فى الشعب التاسع والأربعين . وفى إسناده محمد بن جابر اليمامى . وهو متروك .

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة والحاكم والطبرانى من طريق أبى الأحوص قال : قرأ ابن مسعود (ولو يؤاخذ الله الناس ـ الآية) قال : كاد الجعل يعذب فى جحره بذنب ابن آدم» .

(٤) قال محمود : «المراد بما يكرهونه البنات ، وشركاء فى رياستهم ، واستخفاف برسلهم ... الخ » قال أحمد : ونقيض هؤلاء من إذا أعجبه شىء من ماله جعله لله ، بل إذا أحب أمة له أعتقها ، وإذا اشتهى طعاما قدم إليه تصدق به على حبه ، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة ، كابن عمر ونظرائه ومن تابعهم فيها ، ويجعلون لله ما يشتهون . اللهم إن لم ننل رتبة أوليائك فأنلنا محبتهم ، فمن أحب قوما حشر معهم .

والتهاون برسالاتهم . ويجعلون له أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها ﴿وتصف ألسنتهم﴾ مع ذلك ﴿أن لهم الحسنى﴾ عند الله كقوله (ولئن رجعت إلى ربى إنّ لى عنده للحسنى) . وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوى اليسار : كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى : هاتوا مادفع إلى السلاطين وأعوانهم ، فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة . وإذا قال : هاتوا مادفع إلىّ فيؤتى بالكسر والخرق ومالا يؤبه له ، أماتستحي من ذلك الموقف ؟ وقرأ هذه الآية . وعن مجاهد : أنّ لهم الحسنى ، هوقول قريش : لنا البنون ، وأن لهم الحسنى : بدل من الكذب . وقرئ (الكذب) جمع كذوب . صفة الألسنة ﴿مفرطون﴾ قرئ مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشدداً ، فالمفتوح بمعنى مقدمون إلى النار معجلون إليها ، من أفرطت فلانا ، وفرطته فى طلب الماء ، إذا قدمته . وقيل . منسيون متروكون ، من أفرطت فلانا خلفى إذا خلفته ونسيته . والمكسور المخفف ، من الإفراط فى المعاصى . والمشدّد ، من التفريط فى الطاعات وما يلزمهم .

تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية الحال الماضية التى كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها . أو فهو وليهم فى الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا . ومعنى (وليهم) قرينهم وبئس القرين . أو يجعل (فهو وليهم اليوم) حكاية للحال الآتية ، وهى حال كونهم معذبين فى النار ، أى فهو ناصرهم اليوم لاناصر لهم غيره ، نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه . ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركى قريش ، أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم ، فهو ولى وهؤلاء ؛ لأنهم منهم . ويجوز أن يكون على حذف المضاف ، أى : فهو ولى أمثالهم اليوم .

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

﴿وهدى رحمة﴾ معطوفان على محل (لتبين) إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما ؛ لأنهما فعلا الذى أنزل الكتاب . ودخل اللام على لتبين : لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل . وإنما ينتصب مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل . والذى اختلفوا فيه : البعث ؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به ، ومنهم عبد المطلب ، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار ﴿لقوم

يسمعون﴾ سماع إنصاف وتدبر ؛ لأنّ من لم يسمع بقلبه ، فكأنه أصم لا يسمع .

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾

ذكر سيبويه الأنعام فى باب ما لا ينصرف فى الأسماء المفردة الواردة على أفعال ، كقولهم : ثوب أكياش ؛ ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً . وأمّا (فى بطونها) فى سورة المؤمنين : فلأنّ معناه الجمع . ويجوز أن يقال فى الأنعام وجهان ، أحدهما : أن يكون تكثير نعم [1] كأجبال فى جبل ، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم ، فإذا ذكر فكما يذكر «نعم» فى قوله :

فِي كُلِّ عَامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَهُ ... يُلْقِحُهُ قَوْمٌ وَتَنْتِجُونَهُ [2]

وإذا أنث ففيه وجهان : أنه تكسير نعم . وأنه فى معنى الجمع . وقرئ ﴿نسقيكم﴾ بالفتح والضم ، وهو استئناف ، كأنه قيل : كيف العبرة ، فقيل نسقيكم ﴿من بين فرث ودم﴾ أى يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله . قيل : إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ فى كرشها طبخته ، فكان أسفله فرثا ، وأوسطه لبنا ، وأعلاه دما . والكبد مسلطة على هذه الأصناف

---

(١) قوله «أن يكون تكثير نعم» لعله «تكسير» بالسين . (ع)

(٢)
في كل عام نعم تحوونه ... يلقحه قوم وتنتجونه
أربابه نوكى فلا يحمونه ... ولا يلاقون طعانا دونه
أنعم الأبناء تحسبونه ... هيهات هيهات لما ترجونه

لصبي من بنى أسد اسمه قيس بن الحصين الحارثى . والنعم : اسم جمع يعامل معاملة المفرد . وقد يراعى معناه فيعامل كالجمع . والأنعام عده سيبويه من المفردات المبنية على أفعال ، كأخلاق وأمشاج ، فيعامل بالتذكير تارة اعتباراً بلفظه ، وبالتأنيث أخرى اعتباراً بمعناه . وقيل : هو جمع نعم كأسباب وسبب ، والكلام تحسر وتحزن فى صورة الاخبار . ويحتمل تقدير همزة الاستفهام التوبيخى أو التعجبى قبل فى ، أى : أفى كل عام تفعلون ذلك . وروى : أكل عام ، بالاستفهام . وكل : نصب على الظرفية . وفيه الاخبار بالزمان عن اسم العين وهو نعم . إما لأنه يشبه المعنى لتجدده كل عام كما قاله ابن مالك وغيره فى مثله . أو على تقدير مضاف كما ذهب إليه جمهور البصريين ، أى : نهب نعم . وجملة تحوونه : صفة نعم ، ويجوز أنها خبره ، وكل عام : ظرف لتحوونه ، وقدم لأنه محط الاستفهام . وعليه فالمسوغ للابتداء بنعم وقوعه فى حيز الاستفهام . أو تقديم معمول الخبر عليه لأنه كتقديم الخبر . يلقحه قوم أى يطلقون فحوله على إناثه فتحمل عندهم . وتنتجونه أنتم : أى تستولدونه عندكم ، كناية عن نهبه منهم . والأرباب الأصحاب . والنوكى : جمع أنوك كحمق جمع أحمق وزنا ومعنى . والطعان : المطاعنة بالرماح ، أى : لا يحاربون أمامه ويصبرون للحرب . وقوله أنعم : استفهام إنكارى توبيخى ، أى : لا تحسبوا نعمنا نعم أولئك الحمق الضعاف . وهيهات بمعنى بعد ، وكرره للتوكيد وقطع الأطماع . وقوله «لما ترجونه» متعلق بمحذوف ، أى : أقول ذلك لما ترجونه ، واللام فيه لتبيين الفاعل . ويجوز أنها زائدة فيه ، والرجا : الطمع ، ويجوز أنه الظن .

الثلاثة تقسمها ، فتجرى الدم فى العروق ، واللبن فى الضرع ، وتبقى الفرث فى الكرش . فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل . وسئل شقيق عن الإخلاص فقال : تمييز العمل من العيوب ، كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿سائغاً﴾ سهل المرور فى الحلق . ويقال : لم يغص أحد باللبن قط . وقرئ : سيغاً ، بالتشديد . وسيغاً ، بالتخفيف . كهين ولين . فإن قلت : أى فرق بين «من» الأولى والثانية ؟ قلت : الأولى للتبعيض ؛ لأن اللبن بعض ما فى بطونها ، كقولك : أخذت من مال زيد ثوباً . والثانية لابتداء الغاية ؛ لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذى منه يبتدأ ، فهو صلة لنسقيكم ، كقولك : سقيته من الحوض ، ويجوز أن يكون حالا من قوله (لبنا) مقدماً عليه ، فيتعلق بمحذوف ؛ أى : كائناً من بين فرث ودم . ألا ترى أنه لو تأخر فقيل : لبناً من بين فرث ودم كان صفة له ، وإنما قدم لأنه موضع العبرة ، فهو قمن بالتقديم . وقد احتج بعض من يرى أن المنى طاهر على من جعله نجساً ، لجريه فى مسلك البول بهذه الآية ، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر ، كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً .

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)

فإن قلت : بم تعلق قوله ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب﴾ ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب ، أى : من عصيرها ، وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه ، وقوله ﴿تتخذون منه سكرا﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء . أو يتعلق بتتخذون ، ومنه من تكرير الظرف للتوكيد ، كقولك : زيد فى الدار فيها . ويجوز أن يكون (تتخذون) صفة موصوف محذوف ، كقوله :

* ... بِكَفَّىْ كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرْ *[1]

---

(١) مالك عندى غير سوط وحجر وغير كبداء شديدة الوتر
* جادت بكفى كان من أرمى البشر *

السوط : آلة للضرب ، معمولة من الجلد . وكبداء صفة لمحذوف ، أى قوس كبداء غليظة الكبد ، أى المقبض . وقيل : واسعته . والوتر : حبل تشد به القوس . وجادت : صارت جيدة . ويروى بدله : ترمى . وشبه الرمى لها مجاز عقلى . وكفى مضاف لمحذوف قامت صفته فى اللفظ مقامه ، وهى جملة «كان» وحذف المنعوت الأول مطرد ، والثانى ضرورة ؛ لأنه لا يجوز حذف المنعوت إلا إذا كان بعض اسم مجرور بمن أو «فى» ، أو صلح نعته لمباشرة العامل . و «كان» هنا ليس للمضى ، بل لمجرد الثبوت والدوام ، أى : بكفى رجل متصف بأنه دائما من أشد الناس =

تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ورزقا حسناً، لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر. فإن قلت: فإلام يرجع الضمير فى منه إذا جعلته ظرفا مكرراً؟ قلت: إلى المضاف المحذوف الذى هو العصير كما رجع فى قوله تعالى (أو هم قائلون) إلى الأهل المحذوف. والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً. نحو رشد رشداً ورشداً. قال:

وَجَاءُونَا بِهِمْ سَكَرٌ عَلَيْنَا فَأَجْلَى اليَوْمُ وَالسَّكْرَانُ صَاحِى [1]

وفيه وجهان: أحدهما أن تكون منسوخة. وممن قال بنسخها: الشعبي والنخعى. والثانى أن يجمع بين العتاب والمنة. وقيل: السكر النبيذ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه، ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبى حنيفة إلى حد السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب» [2] وبأخبار جمة. ولقد صنف شيخنا أبو على الجبائى قدس الله روحه غير كتاب فى تحليل النبيذ. فلما شيخ [3] وأخذت منه السن العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به، فأبى. فقيل له: فقد صنفت فى تحليله، فقال: تناولته الدعارة [4] فسمج فى المروءة. وقيل: السكر الطعم [5] وأنشد:

* جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الكِرَامِ سَكَرَا *

أى تنقلت بأعراضهم [6]. وقيل هو من الخمر، وإنه إذا ابترك [7] فى أعراض الناس، فكأنه تخمر بها. والرزق الحسن: الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك. ويجوز أن يجعل السكر رزقاً حسناً، كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

ـــ رميا، يعنى نفسه. ففيه تجريد. يقول لعدوه: ليس لك عندى غير هذه الأشياء، وهو ضرب من التهديد والتقريع: هدده بالسوط عند القرب، وبالحجر عند المفارقة، وبالسهم عند البعد: ويروى «سهم» بدل سوط، فيضيع الترتيب.

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء ص ٣٩٥ فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٢) أخرجه النسائى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا. ورواه العقيلى من وجه آخر عن على مرفوعا. وفيه محمد بن الفرات الكوفى، وهو منكر الحديث.

(٣) قوله «فلما شيخ وأخذت منه السن العالية» فى الصحاح: شاخ الرجل يشيخ شيخا بالتحريك، وشيخ تشييخا: أى شاخ. (ع)

(٤) قوله «فقال تناولته الدعارة» فى الصحاح: الدعارة الفسق والخبث. (ع)

(٥) قوله «وقيل السكر الطعم» فى الصحاح: الطعم بالضم: الطعام. (ع)

(٦) قوله «أى تنقلت بأعراضهم» فى الصحاح: النقل بالضم ما ينتقل به على الشراب. (ع)

(٧) قوله «وإنه إذا ابترك» فى الصحاح: ابترك، أى أسرع فى العدو وجد. (ع)

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

الإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف فى قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به ، لاسبيل لأحد إلى الوقوف عليه ، وإلا فنيقتها[1] فى صنعتها ، ولطفها فى تدبير أمرها ، وإصابتها فيما يصلحها، دلائل بينة شاهدة على أنّ الله أودعها علماً بذلك وفطنها ، كما أولى أولى العقول عقولهم . وقرأ يحيى بن وثاب (إلى النحل) بفتحتين . وهو مذكر كالنخل . وتأنيثه على المعنى ﴿أن اتخذى﴾ هى أن المفسرة ؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول . وقرئ : ﴿بيوتاً﴾ بكسر الباء لأجل الياء . و﴿يعرشون﴾ بكسر الراء وضمها : يرفعون من سقوف البيوت . وقيل : ما يبنون للنحل فى الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التى تتعسل فيها . والضمير فى (يعرشون) للناس . فإن قلت : ما معنى « من » فى قوله (أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون) وهلا قيل فى الجبال وفى الشجر ؟ قلت : أريد معنى البعضية ، وأن لا تبنى بيوتها[2] فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا فى كل مكان منها ﴿من كل الثمرات﴾ إحاطة بالثمرات التى تجرسها النحل[3] وتعتاد أكلها ، أى ابنى البيوت ، ثم كلى من كل ثمرة تشتهيها ، فإذا أكلتها ﴿فاسلكى سبل ربك﴾ أى الطرق التى ألهمك وأفهمك فى عمل العسل . أو فاسلكى ما أكلت فى سبل ربك ، أى فى مسالكه التى يحيل فيها بقدرته النور المرّ عسلا من أجوافك ومنافذ مآكلك . أو إذا أكلت الثمار فى المواضع البعيدة من بيوتك ، فاسلكى إلى بيوتك راجعة سبل ربك ، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها ،

(1) قوله « وإلا فنيقتها » أى تأنقها . أفاده الصحاح . (ع)

(2) قال محمود : « قلت أريد معنى البعضية وأن لاتبنى بيوتها ... الخ » قال أحمد : ويبرز هذا المعنى الذى نبه عليه الزمخشرى فى تبعيض « من » المتعلقة باتخاذ البيوت باطلاق الأكل ، كأنه تعالى وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم يحجر عليها فيه وإن حجر عليها فى البيوت وأمرت باتخاذها فى بعض المواضع دون بعض ؛ لأن مصلحة الأكل على الاطلاق باستمراء مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها فى كل موضع . ولهذا المعنى دخلت ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها فى اتخاذ البيوت والاطلاق لها فى تناول الثمرات ، كما تقول : راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أى شيء شئت ، فتوسط ثم لتفاوت الحجر والاطلاق ، فسبحان اللطيف الخبير .

(3) قوله « بالثمرات التى تجرسها النحل » فى الصحاح « الجرس » الصوت الخفى ، وجرست النحل العرفط إذا أكلته . وفيه أيضا « العرفط » شجر من العضاه . وفيه « العضاه » كل شجر يعظم وله شوك . (ع)

فقد بلغني أنها ربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة . أو أراد بقوله (ثم كلى) ثم اقصدى أكل الثمرات فاسلكى فى طلبها فى مظانها سبل ربك ﴿ ذللا ﴾ جمع ذلول ، وهى حال من السبل ؛ لأن الله ذللها لها ووطأها وسهلها ، كقوله (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا) أو من الضمير فى (فاسلكى) أى : وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ﴿ شراب ﴾ يريد العسل ، لأنه مما يشرب ﴿ مختلف ألوانه ﴾ منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة ، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل ، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض ، كما أن كل دواء كذلك. وتنكيره إما لتعظيم الشفاء الذى فيه ، أو لأن فيه بعض الشفاء ، وكلاهما محتمل . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا جاء إليه فقال : إن أخى يشتكى بطنه ، فقال : « اذهب واسقه العسل » فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فما نفع ، فقال : « اذهب واسقه عسلا » فقد صدق الله وكذب بطن أخيك ، فسقاه فشفاه الله فبرأ ، كأنما أنشط من عقال .[1] وعن عبد الله بن مسعود : العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما فى الصدور ، فعليكم بالشفاءين : القرآن والعسل.[2] ومن بدع تأويلات الرافضة : أن المراد بالنحل على وقومه : وعن بعضهم أنه قال عند المهدى : إنما النحل بنو هاشم ، يخرج من بطونهم العلم ، فقال له رجل : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدى وحدث به المنصور ، فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)

﴿ إلى أرذل العمر ﴾ إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة عن على رضى الله عنه . وتسعون سنة عن قتادة : لأنه لا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة فى النسيان ، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع فى نسيانه فلا يعلمه إن

---

(١) متفق عليه من حديث أبى سعيد وغفل الحاكم فاستدركه .

(٢) لم أره هكذا . وفى الكامل لابن عدى من رواية لابن إسحاق عن أبى الأحوص عن عبدالله رفعه «عليكم بالشفاءين : العسل : شفاء من كل داء . والقرآن شفاء لما فى الصدور» وقال : لم يرفعه عن وكيع عن الثورى إلا سفيان بن وكيع . قال ورواه زيد بن الحباب عن الثورى أيضا مرفوعا اه وأخرجه ابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من رواية زيد بن الحباب بهذا الاسناد مرفوعا بلفظ «عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن» وابن أبى شيبة عن وكيع مرفوعا ولفظه «العسل شفاء من كل داء. والقرآن شفاء لما فى الصدور» ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم والثعلبى أيضا . قال ابن أبى شيبة : وحدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حيية عن الأسود عن عبدالله قال «عليكم بالشفاءين القرآن والعسل» .

سئل عنه . وقيل : لئلا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئاً : وقيل : لئلا يعلم زيادة علم على علمه .

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

أي : جعلكم متفاوتين فى الرزق ، فرزقكم أفضل مما رزق ممال يككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم فكان ينبغى أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم ، حتى تتساووا فى الملبس والمطعم ، كما يحكى عن أبى ذرّ أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إنما هم إخوانكم ، فاكسوهم مما تلبسون ، وأطعموهم مما تطعمون [١] فما رؤى عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت [٢] ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ فجعل ذلك من جملة جحود النعمة . وقيل : هو مثل ضربه الله الذين جعلوا له شركاء ، فقال لهم : أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ، ولا تجعلونهم فيه شركاء ، ولا ترضون ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء . وقيل المعنى أنّ الموالى والمماليك أنا رازقهم جميعاً ، فهم فى رزقى سواء ، فلا تحسبن الموالى أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق . فإنما ذلك رزقى أجريه إليهم على أيديهم . وقرئ : يجحدون ، بالتاء والياء .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

﴿ من أنفسكم ﴾ من جنسكم . وقيل : هو خلق حواء من ضلع آدم . والحفدة : جمع حافد ، وهو الذى يحفد ، أى يسرع فى الطاعة والخدمة . ومنه قول القانت . وإليك نسعى ونحفد وقال :

حَفَدَ الْوَلَائِدُ بَيْنَهُنَّ وَأُسْلِمَتْ ... بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّةَ الْأَجْمَالِ [٣]

واختلف فيهم فقيل : هم الأختان على البنات [٤] وقيل : أولاد الأولاد . وقيل : أولاد المرأة

---

(١) متفق عليه . وأخرجه أصحاب السنن .

(٢) لم أره .

(٣) يقول ، حفد من باب ضرب ، أى أسرع . الولائد : جمع وليدة وهى البنت الصغيرة ، بينهن : أى بين النساء الظاعنات . وأسلمت : مبنى للمجهول ، أى تركت فى أكف الظعائن والولائد . أزمة الأجمال : جمع زمام ، وذلك دليل على حفظهن وصونهن ، حتى لا يتخلل ركبهن إلا الولائد .

(٤) قوله «فقيل هم الأختان على البنات» فى الصحاح : الحفدة الأعوان والخدم . وفيه أيضا : الختن بالتحريك كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ ، وهم الأختان ، كذا عند العرب وأما عند العامة فختن الرجل زوج ابنته اه فلعله أيضا ضمن الأختان معنى الأعوان أو الخلفاء فعداه بعلى . وفى الخازن عن ابن مسعود : الحفدة أختان الرجل على بناته . (ع)

من الزوج الأول . وقيل : المعنى وجعل لكم حفدة ، أى خدما يحفدون فى مصالحكم ويعينونكم ويجوز أن يراد بالحفدة : البنون أنفسهم ؛ كقوله (سكراً ورزقاً حسناً) كأنه قيل : وجعل لكم منهن أولاداً هم بنون وهم حافدون ، أى جامعون بين الأمرين ﴿ من الطيبات ﴾ يريد بعضها ؛ لأنّ كل الطيبات فى الجنة ، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها ، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة ، فليس لهم إيمان إلا به ، كأنه شيء معلوم مستيقن . ونعمة الله المشاهدة المعاينة التى لا شبهة فيها لذى عقل وتمييز : هم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذى لا يتصوره العقول . وقيل : الباطل ما يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما . ونعمة الله : ما أحل لهم .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾

الرزق يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى ما يرزق ، فإن أردت المصدر نصبت به ﴿ شيئاً ﴾ كقوله (أو إطعام .... يتيما) على : لا يملك أن يرزق شيئاً . وإن أردت المرزوق كان شيئا بدلا منه بمعنى قليلا . ويجوز أن يكون تأكيداً للا يملك : أى لا يملك شيئاً من الملك . و (من السموات والأرض) : صلة للرزق إن كان مصدراً بمعنى : لا يرزق من السموات مطرا ، ولا من الأرض نباتاً . أو صفة إن كان اسما لما يرزق . والضمير فى ﴿ ولا يستطيعون ﴾ لما ؛ لأنه فى معنى الآلهة ، بعد ما قيل (لا يملك) على اللفظ . ويجوز أن يكون للكفار ، يعنى : ولا يستطيع هؤلاء ـ مع أنهم أحياء متصرفون أولو ألباب ـ من ذلك شيئاً ، فكيف بالجماد الذى لا حس به . فإن قلت : ما معنى قوله (ولا يستطيعون) بعد قوله (لا يملك) ؟ وهل هما إلا شيء واحد ؟ قلت : ليس فى (لا يستطيعون) تقدير راجع ، وإنما المعنى : لا يملكون أن يرزقوا ، والاستطاعة منفية عنهم أصلا ؛ لأنهم موات ، إلا أن يقدر الراجع ويراد بالجمع بين نفى الملك والاستطاعة للتوكيد أو يراد : أنهم لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم .

فَلاَ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به [1] ؛ لأنّ من يضرب الأمثال

(١) قال محمود : «تمثيل للاشراك بالله والتشبيه به ... الخ» قال أحمد : فعلى تفسيره الأول يكون قوله (لله) متعلقا بالأمثال ، كأنه قيل : فلا تمثلوا الله ولا تشبهوه . وعلى الثانى يكون متعلقا بالفعل الذى هو تضربوا ، كأنه قيل : فلا تمثلوا لله الأمثال ، فان ضرب المثل إنما يستعمل من العالم لغير العالم ، ليبين له ما خفى عنه ، والله تعالى هو العالم وأنتم لا تعلمون ، فتمثيل غير العالم للعالم عكس للحقيقة ، والله أعلم .

مشبه حالا بحال وقصة بقصة ﴿إنّ الله يعلم﴾ كنه ماتفعلون وعظمه ، وهو معاقبكم عليه بما يوازيه فى العظم ؛ لأنّ العقاب على مقدار الإثم ﴿وأنتم لاتعلمون﴾ كنهه وكنه عقابه ، فذاك هو الذى جرّكم إليه وجرأكم عليه ، فهو تعليل للنهى عن الشرك . ويجوز أن يراد : فلا تضربوا لله الأمثال ، إنّ الله يعلم كيف يضرب الأمثال ، وأنتم لاتعلمون .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

ثم علمهم كيف تضرب فقال : مثلكم فى إشراككم بالله الأوثان : مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء . فإن قلت : لم قال ﴿مملوكا لايقدر على شىء﴾ [1] وكل عبد مملوك ، وغير قادر على التصرف ؟ قلت : أما ذكر المملوك فليميز من الحرّ ؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعا ، لأنهما من عباد الله . وأما (لايقدر على شىء) فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له ؛ لأنهما يقدران على التصرف .

---

(١) عاد كلامه . قال : «فإن قلت لم قال مملوكا لايقدر على شىء ... الخ» قال أحمد : والقول بصحة ملكه هو مذهب الامام مالك رضى الله عنه . وفى هذه الآية له معتصم ، لأن الله تعالى مثل بالمملوك لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالبا ، ثم أفصح عن المعنى المقصود : وهو أن هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده فملك وقدر ، بل هو على الأصل المعهود فى المماليك عاجز غير قادر ، ولولم يكن ملك العبد متصورا ومعهودا شرعا وعرفا ، لكان قوله تعالى (لايقدر على شىء) كالتكرار لما فهم من قوله (عبدا مملوكا) وقول القائل يقول إنه احتراز من المكاتب ، بعيد من فصاحة القرآن : فانه لو كان العبد لايصح منه ملك البتة إلا فى حال الكتابة ، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ ، كالألغاز الذى لايعهد مثله فى بيان القرآن واستيلائه على صنوف البلاغة . ومثل هذا أنكره الامام أبو المعالى على من حمل قوله عليه السلام : «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها» على المكاتبة لبعد القصد إليها على شذوذها . وأما الاحتراز به عن المأذون له فينبنى على القول بأن المراد بعدم القدرة عدم المكنة من التصرف ، وإن لم يكن المأذون له مالكا عند هذا القائل . وهذا بعيد عن مطابقة قوله (ومن رزقناه منا رزقا حسنا) فانها توجب أن يكون المراد بقوله (لايقدر على شىء) لايملك شيئاً من الرزق ، كما تقول فى الحر المفلس : فلان لا يقدر على شىء ، أى لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه . فتلخص من هذا البحث أن فى الآية مجالا لنصرة مذهب مالك ، وإن كان لقائل أن يقول : هذه الصفة لازمة كالايضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك ، كأنه قيل : وإنما ضربنا المثل بالمملوك ؛ لأن صفته اللازمة له وسمته المعروفة به ، أنه لايقدر على شىء . أى لايصح منه ملك ، وكثيراً مايجىء الحال والصفة لايقصد بواحد منهما تقييد ولا تخصيص ، ولكن إيضاح وتفسير . ومن ذلك قوله تعالى (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به) فقوله لابرهان له به . لايقصد به تمييز له سوى (الله) من (إله) لأن كل مدعو إلها غير الله تعالى ، لا برهان به . وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى ، فهذا أقصى مايمكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد . ولنا أن نقول فى دفعه أن الأصل فى الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقييد . وأما الوارد من ذلك لازما فنادر على خلاف الأصل ، والله الموفق .

واختلفوا فى العبد هل يصح له ملك ؟ والمذهب الظاهر أنه لايصحّ له . فإن قلت : (من) فى قوله ﴿ومن رزقناه﴾ ماهى ؟ قلت : الظاهر أنها موصوفة ، كأنه قيل : وحراً رزقناه ، ليطابق عبداً . ولايمتنع أن تكون موصولة . فإن قلت : لم قيل ﴿يستوون﴾ على الجمع ؟ قلت : معناه : هل يستوى الأحرار والعبيد ؟

وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَيَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَيَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

الأبكم الذى ولد أخرس ، فلا يَفهم ولا يُفهم ﴿وهو كلّ على مولاه﴾ أى ثقل وعيال على من يلى أمره ويعوله ﴿أينما يوجهه﴾ حيثما يرسله ويصرفه فى مطلب حاجة أو كفاية مهم ، لم ينفع ولم يأت بنجح ﴿هل يستوى هو ومن﴾ هو سليم الحواس نفاعا ذو كفايات ، مع رشد وديانة ، فهو ﴿يأمر﴾ الناس ﴿بالعدل﴾ والخير ﴿وهو﴾ فى نفسه ﴿على صراط مستقيم﴾ على سيرة صالحة ودين قويم . وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التى هى أموات لاتضر ولا تنفع وقرئ : أينما يوجه ، بمعنى أينما يتوجه ، من قولهم : أينما أوجه ألق سعداً : وقرأ ابن مسعود : أينما يوجه ، على البناء للمفعول .

وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أى يختصّ به علم ماغاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه . أو أراد بغيب السموات والأرض : يوم القيامة ، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم ﴿إلا كلمح البصر أو هوأقرب﴾ أى هو عند الله وإن تراخى ، كما تقولون أنتم فى الشيء الذى تستقربونه : هو كلمح البصر أو هو أقرب ، إذا بالغتم فى استقرابه . ونحوه قوله : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) أى هو عنده دان وهو عندكم بعيد . وقيل : المعنى أن إقامة الساعة وإماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين ، يكون فى أقرب وقت وأوحاه [1] ، ﴿إن الله على

(١) قوله «وأوحاه» أى : وأسرعه . أفاده الصحاح . (ع)

كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق ، لأنه بعض المقدورات . ثم دل على قدرته بما بعده .

وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَـٰرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

قرئ ﴿أمهاتكم﴾ بضم الهمزة وكسرها . والهاء مزيدة فى أمات ، كما زيدت فى أراق ، فقيل : أهراق . وشذت زيادتها فى الواحدة قال :

* أُمَّهَتِي خِنْدِفُ وَإِلْيَاسُ أَبِي * [1]

﴿لا تعلمون شيئاً﴾ فى موضع الحال . ومعناه : غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذى خلقكم فى البطون ، وسواكم وصوركم ، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة . وقوله ﴿وجعل لكم﴾ معناه : وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذى ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به ، من شكر المنعم وعبادته ، والقيام بحقوقه ، والترقى إلى مايسعدكم . والأفئدة فى فؤاد ، كالأغربة فى غراب ، وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة . والقلة إذا لم يرد فى السماع غيرها ، كما جاء شسوع فى جمع شسع لاغير ، فجرت ذلك المجرى .

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

قرئ : ألم يروا . بالتاء والياء (مسخرات) مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية [2] لذلك . والجو : الهواء المتباعد من الأرض فى سمت العلو والسكاك [3]

---

(١) إنى لدى الحرب رخى اللبب معتزم الصـولة عالى النسب
أمهتى خندف وإلياس أبى

لقصى بن كلاب بن مرة جد النبى صلى الله عليه وسلم . ورخى اللبب . رحب الصدر واسع البال . واللبب فى الأصل جبل فى صدر المطية يمنع الرحلة من الاستئخار ، أطلق على ذلك للمجاورة . ومعتزم : مصمم . والصولة : تجشم المكروه واقتحامه . وزيادة الهاء فى أمهة شاذ . وخندف ، بكسر الخاء والدال : امرأة إلياس بن مضر ، وهذا لقبها ، واسمها ليلى . والخندفة : مشية كالهرولة . وإطلاق الأم والأب على الجدة والجد : مجاز لمطلق الأصالة .

(٢) قوله « والأسباب المواتية لذلك » فى الصحاح آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة إذا وافقته والعامة تقول : واتيته . (ع)

(٣) قوله « والسكاك أبعد منه » فى الصحاح السكاك والسكاكة الهواء الذى يلاق أعنان السماء وفيه أيضاً أعنان السماء صفائحها وماعترض من أقطارها . والعنان بالفتح السحاب . (ع)

أبعد منه ، واللوح مثله ﴿مايمسكهن﴾ فى قبضهن و بسطهن ووقوفهن ﴿إلا الله﴾ بقدرته .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾

﴿من بيوتكم﴾ التى تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها . والسكن : فعل بمعنى مفعول ، وهو مايسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف ﴿بيوتا﴾ هى القباب والأبنية من الأدم والأنطاع ﴿تستخفونها﴾ ترونها خفيفة المحمل فى الضرب والنقض والنقل ﴿يوم ظعنكم ويوم إقامتكم﴾ أى يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها [١] ، ويوم تنزلون وتقيمون فى مكان لم يثقل عليكم ضربها . أو هى خفيفة عليكم فى أوقات السفر والحضر جميعاً ، على أنّ اليوم بمعنى الوقت ﴿ومتاعا﴾ وشيئاً ينتفع به ﴿إلى حين﴾ إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى ويفنى ، أو إلى أن تموتوا . وقرئ : يوم ظعنكم ، بالسكون .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

﴿مما خلق﴾ من الشجر وسائر المستظلات ﴿أكنانا﴾ جمع كنّ ، وهو مايستكنّ به من البيوت المنحوتة فى الجبال والغيران والكهوف ﴿سرابيل﴾ هى القمصان والثياب من الصوف والكتان [٢] والقطن وغيرها ﴿تقيكم الحرّ﴾ لم يذكر البرد : لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم ، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيراً محتملا . وقيل : مايقى من الحرّ يقى من البرد [٣] فدل ذكر الحرّ

(١) قال محمود : «والمراد يخف عليكم حملها ونقلها ... الخ» قال أحمد : والتفسير الأول أولى ؛ لأن ظهور المنة فى خفتها إنما يتحقق فى حال السفر . وأما المستوطن فغير مثقل ، وما أحسن قول الزمخشرى فى يوم إقامتكم : أن المراد خفة ضربها وسهولة ذلك عليهم ، والله أعلم .

(٢) قال محمود : «هي القمصان والثياب من الصوف والكتان وغيرها ... الخ» قال أحمد : يعنى عند العرب وخصوصا قطان الحجاز ، وهم الأصل فى هذا الخطاب .

(٣) عاد كلامه . قال : «وقيل إن مايقى الحر يقى البرد فدل ذكره عليه» قال أحمد : والأول أظهر . ألا ترى إلى تقديم المنة بالظلال التى تقى من الضحا ، فى قوله تعالى (جعل لكم مما خلق ظلالا) فدل على أن الأهم عند المخاطبين وقاية الحر ، فامتنّ الله عليهم بأعظم نعمه موقعا عندهم . وقول القائل «إن مايقى الحر يقى البرد» مشهود عليه بالعرف ،

على البرد ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ يريد الدروع والجواشن [١] والسربال عام يقع على كل ما كان من حديد وغيره ﴿لعلكم تسلمون﴾ أى تنظرون فى نعمه الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له . وقرئ : تسلمون ، من السلامة : أى تشكرون فتسلمون من العذاب . أو تسلم قلوبكم من الشرك . وقيل : تسلمون من الجراح بلبس الدروع .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

﴿فإن تولوا﴾ فلم يقبلوا منك فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ماوجب عليك من التبليغ ، فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب ﴿يعرفون نعمت الله﴾ التى عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله ﴿ثم ينكرونها﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم : هى من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا . وقيل : إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا . وقيل : قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله . وإنما لايجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً فى نيلها ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ أى الجاحدون غير المعترفين . وقيل (نعمة الله) نبوة محمد عليه السلام ، كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً ، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم . فإن قلت : مامعنى ثم؟ قلت : الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة ؛ لأنّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥)

﴿شهيداً﴾ نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق ، والكفر والتكذيب ﴿ثم لايؤذن للذين كفروا﴾ فى الاعتذار . والمعنى . لاحجة لهم ، فدل بترك الإذن على أن لاحجة لهم ولا عذر ، وكذا عن الحسن ﴿ولاهم يستعتبون﴾ ولاهم يسترضون ، أى : لايقال لهم أرضوا ربكم : لأن الآخرة ليست بدار عمل . فإن قلت : فما معنى ثم هذه؟ قلت : معناها أنهم يمنون [٢] بعد

ـــــــــــــــ

= قال الذى يتقى به الحر من القمصان رقيقها ورفيعها ، وليس ذلك من لبوس البرد . بل لو لبس الانسان فى كل واحد من الفصلين ـ القيظ والبرد ـ لباس الآخر ، يعد من الثقلاء .

(١) قوله «والجواشن» فى الصحاح : الجوشن الصدر . والجوشن الدرع . (ع)

(٢) قوله «يمنون» فى الصحاح : منوته ومنيته إذا ابتليته . (ع)

شهادة الأنبياء بما هو أطم منها ، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة . وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره : واذكر يوم نبعث ، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه ، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم ﴿فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ كقوله (بل تأتيهم بغتة فتبهتهم .. الآية)

وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم ، فمعنى ﴿شركاؤنا﴾ آلهتنا التى دعوناها شركاء . وإن أرادوا الشياطين ، فلأنهم شركاؤهم فى الكفر وقرناؤهم فى الغىّ : و﴿ندعو﴾ بمعنى نعبد . فإن قلت : لم قالوا ﴿إنكم لكاذبون﴾ وكانوا يعبدونهم على الصحة ؟ قلت : لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة . والدليل عليه قول الملائكة (كانوا يعبدون الجنّ) يعنون أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لا نحن ، فهم المعبودون دوننا . أو كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله من الشريك . وإن أريد بالشركاء الشياطين ، جاز أن يكون «كاذبين» فى قولهم (إنكم لكاذبون) كما يقول الشيطان : إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل ﴿وألقوا﴾ يعنى الذين ظلموا . وإلقاء السلم : الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار فى الدنيا ﴿وضل عنهم﴾ وبطل عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ من أن لله شركاء ، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم .

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

﴿الذين كفروا﴾ فى أنفسهم ، وحملوا غيرهم على الكفر : يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم . وقيل فى زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها [1] أربعين خريفا . وقيل : يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار ﴿بما كانوا يفسدون﴾ بكونهم مفسدين الناس بصدّهم عن سبيل الله .

---

(١) قوله «حمتها» حمة العقرب بالتخفيف ، والهاء عوض عن اللام وهى سمها . وأما حمة الحر ، فبالتشديد ، وهى معظمه ، أفاده الصحاح . (ع)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

﴿شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ يعنى نبيهم ؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿وجئنا بك﴾ يا محمد ﴿شهيداً على هؤلاء﴾ على أمتك ﴿تبيانا﴾ بيانا بليغاً ونظير «تبيان» «تلقاء» فى كسر أوله ، وقد جوز الزجاج فتحه فى غير القرآن . فإن قلت : كيف كان القرآن تبيانا ﴿لكل شىء﴾ ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شىء من أمور الدين ، حيث كان نصا على بعضها وإحالة على السنة ، حيث أمر فيه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته . وقيل : وما ينطق عن الهوى . وحثاً على الإجماع فى قوله (ويتبع غير سبيل المؤمنين) وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته اتباع أصحابه ، والاقتداء بآثارهم فى قوله صلى الله عليه وسلم «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» [1] وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد ، مستندة إلى تبيان الكتاب ، فمن ثم كان تبيانا لكل شىء .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

العدل هو الواجب ؛ [2] لأن الله تعالى عدل فيه على عباده [3] فجعل ما فرضه عليهم واقعاً

---

(١) أخرجه الدارقطنى فى المؤتلف من رواية سلام بن سليم عن الحرث بن غصن عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر مرفوعا . وسلام ضعيف . وأخرجه فى غرائب مالك من طريق حميد بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر فى أثناء حديث : وفيه «فبأى قول أصحابى أخذتم اهتديتم ، إنما مثل أصحابى مثل النجم من أخذ بنجم منها اهتدى» وقال : لا يثبت عن مالك . ورواته دون مالك مجهولون . ورواه عبد بن حميد والدارقطنى فى الفضائل من حديث حمزة الجزرى عن نافع عن ابن عمر . وحمزة اتهموه بالوضع . ورواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث أبى هريرة وفيه جعفر بن عبد الواحد الهاشمى وقد كذبوه . ورواه ابن طاهر من رواية بشر بن الحسين عن الزبير بن عدى عن أنس . وبشر كان متهما أيضاً . وأخرجه البيهقى فى المدخل من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس وجويبر متروك . ومن رواية جويبر أيضا عن حواب بن عبد الله مرفوعا وهو مرسل ، قال البيهقى هذا المتن مشهور وأسانيده كلها ضعيفة . وروى فى المدخل أيضا عن عمر ورفعه «سألت ربى فيما يختلف فيه أصحابى من بعدى . فأوحى إلى : يا محمد إن أصحابك عندى بمنزلة النجوم فى السماء ، بعضها أضوأ من بعض فمن أخذ بشىء مما هو عليه من اختلافهم فهو عندى على هدى» وفى إسناده عبد الرحيم بن زيد العمى ، وهو متروك .

(٢) قال محمود : «العدل : الواجب . والإحسان : الندب» قال أحمد : وفى جمعهما تحت الأمر ما يدل لمن قال إن صيغة الأمر ـ أعنى هذه المبنية من الهمزة والميم والراء لا صيغة أفعل ـ تتناول القبيلين بطريق التواطؤ وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب والله أعلم .

(٣) عاد كلامه . قال : «وإنما كان الواجب عدلا لأن الله تعالى عدل فيه على عباده ... الخ» قال أحمد : =

تحت طاقتهم ﴿والإحسان﴾ الندب ؛ وإنما علق أمره بهما جميعاً ؛ لأنّ الفرض لابدّ من أن يقع فيه تفريط [١] فيجبره الندب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لمن علمه الفرائض فقال : والله لازدت فيها ولانقصت ـ : « أفلح إن صدق » [٢] فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط وقال صلى الله عليه وسلم « استقيموا ولن تحصوا » [٣] فما ينبغي أن يترك مايجبر كسر التفريط من النوافل . والفواحش : ماجاوز حدود الله ﴿والمنكر﴾ ماتنكره العقول [٤] ﴿والبغى﴾ طلب التطاول بالظلم ،[٥] وحين أسقطت من الخطب [٦] لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه ، أقيمت هذه الآية مقامها . ولعمرى إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً ، ضاعف الله لمن سنها غضباً ونكالا وخزيا ، إجابة لدعوة نبيه :

ـــ وهذه وليجة من الاعتزال . ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لايطاق لأنه ظلم وجور ، وذلك على الله محال . والحق والسنة أن كل قضاء الله عدل ، وأن تكليف ما لايطاق جائز عليه وعدل منه (لايسئل عما يفعل وهم يسئلون) بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة ، على مقتضى توحيد أهل السنة ، المعتقدين أن كل موجود بقدرة الله تعالى حدث ووجد ، لاشريك له فى ملكه ، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً فى قبضة ملكه ، هذا هو التوحيد المحض . وإذا كان العبد مكلفا بما هو من فعل الله ، فهذا عين التكليف بما لايطاق ، ولكن ذلك عدل من الله تعالى ، وحجته البالغة قائمة على المكلف بما خلقه له من التأتى والتيسر فى الأفعال الاختيارية التى هى محال التكاليف ،

(١) عاد كلامه . قال : « وإنما قرنهما فى الأمر ، لأن الفرض لايخلو من خلل وتفريط يجبره الندب ... الخ » قال أحمد : وهذه نكتة حسنة يجاب بها عن قول القائل : لم حكم عليه الصلاة والسلام بفلاح المصر على ترك السنن ، فيقال : المحكوم بفلاحه لأجله إنما هو الصدق فى سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة ، والله أعلم .

(٢) متفق عليه من رواية طلحة بن عبيدالله أحد العشرة رضى الله عنهم .

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة والدارمى وأبو يعلى من رواية سالم بن أبى الجعد عن ثوبان . وهو منقطع . ورواه ابن حبان والطبرانى من وجه آخر عن ثوبان . ورواه الحاكم من رواية الأعمش عن أبى سفيان عن جابر . ورواه الطبرانى والعقيلى من حديث سلمة بن الأكوع وفيه الواقدى . وأخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق والبزار والطبرانى عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن عبدالله بن عمرو . وليث ضعيف . وأشار البزار إلى أنه تفرد به .

(٤) عاد كلامه . قال : « والفواحش ماجاوز حدود الله ، والمنكر ماتنكره العقول » قال أحمد : وهذه أيضا لفتة إلى الاعتزال ، ولو قال : والمنكر ما أنكره الشرع لوافق الحق ، ولكنه لايدع بدعة المعتزلة فى التحسين والتقبيح بالعقل ، والله الموفق .

(٥) عاد كلامه . قال : « والبغى طلب التطاول بالظلم » قال أحمد : وأصل موضوعه الطلب ، ومنه ابتغاء وجه الله ، ابتغاء مرضاة الله ، ولكن صار مطلقه خاصا بطلب الظلم عرفا .

(٦) عاد كلامه . قال : « وحين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي بن أبى طالب كرم الله وجهه .. الخ » قال أحمد : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة ، لاحظ التطبيق بين ذكر النهى عن البغى فيها ، وبين الحديث الوارد : فى أن المناصب لعلى باغ ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب على : تقتلك الفئة الباغية ، والله أعلم ، فقتل مع علي يوم صفين .

«وعاد من عاداه»[1] وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)

عهد الله: هى البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله). ﴿ولا تنقضوا﴾ أيمان البيعة ﴿بعد توكيدها﴾ أى بعد توثيقها باسم الله. وأكد ووكد: لغتان فصيحتان، والأصل الواو، والهمزة بدل ﴿كفيلا﴾ شاهداً ورقيباً؛ لأن الكفيل

(١) هذا طرف من حديث غدير خم الوارد فى فضل على بن أبى طالب رضى الله عنه. وقد أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم من رواية الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت عن الطفيل عن زيد بن أرقم. وفيه هذا اللفظ. ورواه النسائى أيضا من رواية شريك: قلت لأبى إسحاق: أسمعت البراء يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال يوم غدير خم «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» قال: نعم. وأخرجه ابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار من وجه آخر عن شريك عن إدريس بن يزيد الأشددى عن أبيه عن أبى هريرة وتابعه عكرمة بن إبراهيم عن إدريس عند الطبرانى، ورواه الطبرى أيضا من طريق سليمان بن قرم عن أبى إسحاق عن حبشى بن جنادة. وأخرجه النسائى أيضا من طريق مهاجر بن مسمار عن عائشة بنت سعد عن أبيها أن النبى صلى الله عليه وسلم «أخذ بيد على يوم غدير خم فقال: من كنت وليه فهذا وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وأخرجه الحاكم من رواية مسلم الملائى عن خيثمة بن عبد الرحمن عن سعد بن مالك نحوه وفى الباب عن ابن عمر أخرجه الطبرانى من طريق عطية عنه والبزار من طريق جميل بن عمارة عن سالم عن أبيه وعن أنس وغيره أخرجه الطبرانى فى الصغير من رواية طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد قال: شهدت علياً على المنبر ناشد الصحابة: من سمعه يقول يوم غدير خم ماقال؟ فقام اثنا عشرة، منهم أبو هريرة وأبو سعيد وأنس، وعن جرير أخرجه الطبرانى مطولا: وعن طلحة أخرجه الحاكم من رواية رفاعة بن إياس العمى عن أبيه عن جده قال «كنا مع على يوم الجمل فبعث إلى طلحة فقال لهء نشدتك الله، ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ـ فذكره، فقال: نعم. قال: فلم تقاتلنى؟ قال: لم أذكره وانصرف طلحة» وعن جابر أخرجه أبو يعلى، والطبرانى فى مسند الشاميين من طريق ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن قبيصة بن ذؤيب وأبى سلمة عن جابر، وعن حذيفة بن أسيد أخرجه الطبرانى وجمع ابن عقدة طرف حديث غدير خم. فأخرجه من رواية جماعة آخرين من الصحابة مع هؤلاء: منهم عمار بن ياسر، والعباس وابنه، والحسن بن على والحسين بن على، وعبد الله بن جعفر، وسلمان الفارسى، وسمرة بن جندب، وسلمة بن الأكوع، وزيد بن حارثة. وأبو رافع، وزيد بن ثابت الأنصارى، ويعلى بن مرة وآخرون.

مراع لحال المكفول به مهيمن عليه ﴿ولا تكونوا﴾ فى نقض الأيمان كالمرأة التى أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته ﴿أنكاثا﴾ جمع نكث وهو ما ينكث فتله . قيل : هى ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء ، اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهنّ فينقضن ماغزلن ﴿تتخذون﴾ حال و ﴿دخلا﴾ أحد مفعولى اتخذ . يعنى : ولاتنقضوا أيمانكم متخذيها دخلا ﴿بينكم﴾ أى مفسدة ودغلا [1] ﴿أن تكون أمة﴾ بسبب أن تكون أمة يعنى جماعة قريش ﴿هى أربى من أمة﴾ هى أزيد عدداً وأوفر مالا . من أمة من جماعة المؤمنين ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ الضمير لقوله : أن تكون أمة ؛ لأنه فى معنى المصدر ، أى : إنما يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم ؟ ﴿وليبينن لكم﴾ إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار ، [2] وهو قادر على ذلك ﴿ولكن﴾ الحكمة اقتضت أن يضلّ ﴿من يشاء﴾ وهو أن يخذل من علم أنه يختار [3] الكفر ويصمم عليه ﴿ويهدى من يشاء﴾ وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان . يعنى : أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان ، والثواب والعقاب ، ولم يبنه على الإجبار الذى لا يستحق به شىء من ذلك ، وحققه بقوله ﴿ولتسئلن عما كنتم

(١) قوله «ودغلا» فى الصحاح «الدغل» بالتحريك : الفساد ، مثل الدخل (ع)

(٢) قال محمود : «معناه على طريقة الالجاء والقسر» قال أحمد : وهذا تفسير اعتزالى قد قدم أمثاله فى أخوات هذه الآية ، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليق المشيئة بلو ، الدالة على أن مشيئة الله تعالى لايمان الخلق كلهم ماوقعت ، وأنه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف ، فايمان وكفر ، وتصدق وتكذيب كما وقع منهم ، ولو شاء شمولهم بالايمان لوقع ، فيصادم الزمخشرى هذا النص ويقول : قد شاء جعلهم أمة واحدة حنيفة مسلمة ، ولكن لم يقع مراده . فاذا قيل له : فعلام تحمل المشيئة فى الآية ؟ قال : على مشيئة إيمانهم قسراً لا اختياراً ، وهذه المشيئة لم تقع اتفاقا .

(٣) قوله «وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة ، فالاضلال : خلق الضلال فى القلب ؛ لأنه يجوز على الله خلق الشر عندهم دون المعتزلة ، كما بين فى محله . (ع)

تعملون ﴾ ولو كان هو المضطر إلى الضلال[1] والاهتداء، لما أثبت لهم عملا يسئلون عنه[2].

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

ثم كرر النهى عن اتخاذ الأيمان دخلا بينهم، تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم ماركب منه ﴿فتزلّ قدم بعد ثبوتها﴾ فتزلّ أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها ﴿وتذوقوا السوء﴾ فى الدنيا بصدودكم ﴿عن سبيل الله﴾ وخروجكم من الدين. أو بصدّكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا، لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ فى الآخرة.

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾

كان قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان ـ لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين، وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد ـ أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فثبتهم الله. ﴿ولا تشتروا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بعهد الله﴾ وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ثمناً قليلا﴾ عرضاً من الدنيا يسيراً، وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا ﴿إنما عند الله﴾ من إظهاركم وتغنيمكم، ومن ثواب الآخرة ﴿خيرٌ لكم﴾.

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿ما عندكم﴾ من أعراض الدنيا ﴿ينفد وما عند الله﴾ من خزائن رحمته ﴿باق﴾ لا ينفد. وقرئ ﴿لنجزينّ﴾ بالنون والياء ﴿الذين صبروا﴾ على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام. فإن

---

(١) قوله «ولو كان هو المضطر إلى الضلال» على معنى اسم الفاعل، أى الذى يضطر العباد ويلجئهم. وقوله «لما أثبت ... الخ» مسلم، ولكنه لم يضطرهم ولم يلجئهم ولو كان هو الخالق لأعمالهم فى الحقيقة، لما لهم فيها من الكسب كما قرره أهل السنة فى علم التوحيد، فلينظر. (ع)

(٢) عاد كلامه. قال محمود: ومما يدل على أن الله لم يبن الأمر على الاجبار وإنما بناه على الاختيار قوله تعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) ولو كان هو المضطر للهداية والضلال لما أثبت لهم مايسألون عنه. قال أحمد: أما أهل السنة الذين يسميهم المصنف مجبرة فهم من الاجبار بمعزل، لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختياراً وأفعالا، وهم مع ذلك يوحدون الله حق توحيده، فيجعلون قدرته تعالى هى الموجدة والمؤثرة، وقدرة العبد مقارنة فحسب، تمييزاً بين الاختيارى والقسرى وتقوم بها حجة الله على عبده، والله الموفق.

قلت : لم وحدت القدم ونكرت ؟ [١] قلت : لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام كثيرة ؟

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

فإن قلت : ﴿ من ﴾ متناول فى نفسه للذكر والأنثى ، فما معنى تبيينه بهما ؟ قلت : هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور ، فقيل ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ على التبيين ، ليعمّ الموعد النوعين جميعاً ﴿ حياة طيبة ﴾ يعنى فى الدنيا وهو الظاهر ، لقوله ﴿ ولنجزينهم ﴾ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة ، كقوله (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) وذلك أنّ المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً ، فلا مقال فيه . وإن كان معسراً ، فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله . وأمّا الفاجر فأمره على العكس : إن كان معسراً فلا إشكال فى أمره ، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه . وعن ابن عباس رضى الله عنه : الحياة الطيبة : الرزق الحلال . وعن الحسن : القناعة . وعن قتادة : يعنى فى الجنة . وقيل : هى حلاوة الطاعة والتوفيق فى قلبه .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه ، وصل به قوله ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ إيذاناً بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التى يجزل الله عليها الثواب . والمعنى : فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ كقوله (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) وكقولك : إذا أكلت فسمّ الله . فإن قلت : لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل ؟ قلت : لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه ، فكان منه بسبب قوىّ وملابسة ظاهرة . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ،

(١) قال محمود : «إن قلت لم وحدت القدم ونكرت ... الخ» قال أحمد : ومن جنس إفادة التنكير ههنا للتقليل : إفادته له فى قوله تعالى (وتعيها أذن واعية) وفى قوله عز وجل (اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد) فنكر الأذن والنفس تقليلا للواعى من الناس لما يقضى بسداده ، وللناظر من الخلق فى أمر معاده ، والله الموفق .

فقال لى : «يا ابن أمّ عبد . قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ،هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ»[1] ﴿ليس له سلطان﴾ أى تسلط وولاية على أولياء الله ، يعنى : أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته ﴿إنما سلطانه﴾على من يتولاه ويطيعه ﴿به مشركون﴾ الضمير يرجع إلى ربهم . ويجوز أن يرجع إلى الشيطان ، على معنى : بسببه وغروره ووسوسته .

وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

تبديل الآية مكان الآية : هو النسخ . والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح ، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم ، وخلافه مصلحة . والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته . وهذا معنى قوله ﴿والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ وجدوا مدخلا للطعن فطعنوا ، وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون : إن محمدا يسخر من أصحابه : يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، فيأتيهم بما هو أهون ؛ ولقد افتروا ، فقدكان ينسخ الأشق بالأهون ، والأهون بالأشق ، والأهون بالأهون ، والأشق بالأشق ، لأنّ الغرض المصلحة ، لا الهوان والمشقة . فإن قلت : هل فى ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ، ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟ قلت : فيه أن قرآنا ينسخ بمثله وليس فيه نفى نسخه بغيره ، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن فى إيجاب العلم ، فنسخه بها كنسخه بمثله ، وأمّا الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها .

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

فى (ينزل) و﴿نزله﴾ ومافيهما من التنزيل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح : إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل ، وأن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة فى خروجه عن الحكمة . و ﴿روح القدس﴾ جبريل عليه السلام ، أضيف إلى القدس وهو الطهر ، كما يقال : حاتم الجود وزيد الخير ، والمراد الروح المقدس ، وحاتم الجواد ، وزيد الخير ، والمقدس: المطهر

(١) رواه الثعلبى مسلسلا عن شيخه أبى الفضل محمد بن جعفر الخزاعى إلى ابن مسعود . ورواه الواحدى فى الوسيط عن الثعلبى .

من المآثم. وقرئ: بضم الدال وسكونها ﴿ بالحق ﴾ في موضع الحال، أي نزله ملتبساً بالحكمة، يعني أن النسخ من جملة الحق ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ ليبلوهم بالنسخ، حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا والحكمة، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿ وهدى وبشرى ﴾ مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت. والتقدير: تثبيتا لهم وإرشادا وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم. وقرئ: ليثبت، بالتخفيف.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)

أرادوا بالبشر: غلاما كان لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب. وقيل: هو جبر، غلام رومى كان لعامر بن الحضرمى. وقيل عبدان: جبر ويسار، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرّ وقف عليهما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه. فقيل لأحدهما، فقال: بل هو يعلمنى. وقيل: هو سلمان الفارسى. واللسان: اللغة. ويقال: ألحد القبر ولحده، وهو ملحد وملحود، إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر فى شق منه ثم استعير لكل إمالة عن استقامة، فقالوا: ألحد فلان فى قوله، وألحد فى دينه. ومنه الملحد؛ لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها، لم يمله عن دين إلى دين. والمعنى: لسان الرجل الذى يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان ﴿ أعجمى ﴾ غير بين ﴿ وهذا ﴾ القرآن ﴿ لسان عربى مبين ﴾ ذو بيان وفصاحة ردّا لقولهم وإبطالا لطعنهم. وقرئ (يلحدون) بفتح الياء والحاء. وفى قراءة الحسن: اللسان الذى يلحدون إليه بتعريف اللسان.

فإن قلت: الجملة التى هى قوله (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى) ما محلها؟ قلت: لا محل لها؛ لأنها مستأنفة جواب لقولهم. ومثله قوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) بعد قوله (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله).

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

﴿ إنّ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ أى يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿ لا يهديهم الله ﴾ لا يلطف بهم؛ لأنهم من أهل الخذلان فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، لا من أهل اللطف والثواب ﴿ إنما يفترى الكذب ﴾ ردّ لقولهم (إنما أنت مفتر) يعنى: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن، لأنه لا يترقب عقاباً عليه ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى قريش ﴿ هم الكاذبون ﴾ أى هم

الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون. أو إلى الذين لا يؤمنون. أى أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون فى الكذب؛ لأنّ تكذيب آيات الله أعظم الكذب: أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به فى كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين. أو أولئك هم الكاذبون فى قولهم (إنما أنت مفتر).

مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ (١٠٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ (١٠٩)

﴿من كفر﴾ بدل من الذين لا يؤمنون بآيات الله، على أن يجعل (وأولئك هم الكاذبون) اعتراضاً بين البدل والمبدل منه. والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه. واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ أى طاب به نفسا واعتقده ﴿فعليهم غضب من الله﴾ ويجوز أن يكون بدلا من المبتدإ الذى هو (أولئك) على: ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون. أو من الخبر الذى هو الكاذبون، على: وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه. ويجوز أن ينتصب على الذم. وقد جوّزوا أن يكون (من كفر بالله) شرطاً مبتدأ، ويحذف جوابه: لأنّ جواب (من شرح) دال عليه. كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب، إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب. روى أنّ ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار، وأبواه ـ ياسر وسمية ـ وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: عذبوا. فأمّا سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجئ فى قبلها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر وهما أول قتيلين فى الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها. فقيل يارسول الله، إن عماراً كفر. فقال: «كلا. إنّ عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه». فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال: «مالك! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»، ومنهم جبر مولى الحضرمى، أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه

وأسلم ، وحسن إسلامهما ، وهاجرا [١] . فإن قلت : أى الأمرين أفضل ، أفعل عمار أم فعل أبويه ؟ قلت : بل فعل أبويه ؛ لأنّ فى ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام . وقد روى أنّ مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما : ماتقول فى محمد ؟ قال : رسول الله . قال : فماتقول فىّ ؟ قال أنت أيضاً ، فخلاه . وقال للآخر : ماتقول فى محمد؟ قال : رسول الله . قال : فما تقول فىّ ؟ قال أنا أصمّ . فأعاد عليه ثلاثاً ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما الأول فقد أخذ برخصة الله . وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئاً له [٢] » ، ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الوعيد ، وأنّ الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة ، واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ الكاملون فى الغفلة ، الذين لا أحد أغفل منهم ؛ لأنّ الغفلة عن تدبر العواقب هى غاية الغفلة ومنتهاها .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

﴿ثم إن ربك﴾ دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه . ومعنى : إنّ ربك لهم ، أنه لهم لاعليهم ، بمعنى أنه وليهم وناصرهم لاعدوّهم وخاذلهم ، كما يكون الملك للرجل لاعليه ، فيكون محمياً منفوعا غير مضرور ﴿من بعد مافتنوا﴾ بالعذاب والإكراه على

(١) هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند . وروى الحاكم من حديث زر عن ابن مسعود قال : «أول من أظهر إسلامه سبعة : فذكرهم إلى أن قال : فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد ـ الحديث» ورواه ابن سعد من طريق منصور عن مجاهد قال «أول من أظهر فذكر مثله ـ وزاد فجاء أبو جهل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها . فهى أول شهيد فى الاسلام. قلت قوله صلى الله عليه وسلم «إن عماراً ملئ إيمانا» رواه (*) وقوله «اختلط الايمان بلحمه ودمه» رواه (*) وقوله «إن عادوا لك فعدلهم» رواه (*)

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة قال : حدثنا إسماعيل بن علية عن يونس عن الحسن «أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه وقال : إنى أصم ، فأعاد عليه ، فقال مثله ، فأمر بقتله . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم، فأرسله . فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هلكت . فقال : وماشأنك ؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه فقال أما صاحبك فمضى على إيمانه . وأما أنت فأخذت بالرخصة . وأخرجه عبدالرزاق فى التفسير عن معمر قال : سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين فذكره بنحوه . وذكر الواحدى فى المغازى أن اسم المقتول : حبيب بن زيد عم عباد بن تميم ، واسم الآخر : عبدالله بن وهب الأسلمي . قال : وكان فى الساقة . وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار .

(*) بياض فى الأصلين

الكفر . وقرئ (فتنوا) على البناء للفاعل ، أى : بعد ماعذبوا المؤمنين كالحضرمى وأشباهه ﴿من بعـدها﴾ من بعـد هذه الأفعال وهى الهجرة والجهاد والصبر ﴿يوم تأتى﴾ منصوب برحيم . أو بإضمار اذكر . فإن قلت : مامعنى النفس المضافة إلى النفس ؟ قلت : يقال لعين الشىء وذاته نفسه ، وفى نقيضه غيره ، والنفس الجملة كما هى ، فالنفس الأولى هى الجملة ، والثانية عينها وذاتها ، فكأنه قيل : يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته لايهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسى نفسى . ومعنى المجادلة عنها : الاعتذار عنها كقوله (هؤلاء أضلونا) ، (ما كنا مشركين) ونحو ذلك .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

﴿وضرب الله مثلا قرية﴾ أى جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا ، فأنزل الله بهم نقمته . فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضربها الله مثلا لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها ﴿مطمئنة﴾ لايزعجها خوف ، لأن الطمأنينة مع الأمن ، والانزعاج والقلق مع الخوف ﴿رغدا﴾ واسعاً . والأنعم : جمع نعمة ، على ترك الاعتداد بالتاء ، كدرع وأدرع . أو جمع نعم ، كبؤس وأبؤس . وفى الحديث . نادى منادى النبى صلى الله عليه وسلم بالموسم بمنى : « إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا [١] » . فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان ، فما وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه [٢] ؟ قلت :

---

(١) لم أجده هكذا .

(٢) قال محمود : «إن قلت الاذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحة إيقاع الاذاقة على اللباس ... الخ» ؟ قال أحمد : وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالحبر ، وقد نظر إليهما جميعاً فى قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى ، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها ، ثم جاء ملاحظا للشراء المستعار قوله (فما ربحت تجارتهم) فاستعمل التجارة والربح ليناسب ذلك لاستعارة الشراء ، ثم جاء ملاحظا للحقيقة الأصلية المستعار لها قوله (وما كانوا مهتدين) فانه مجرد عن الاستعارة ، إذ لو قيل أولئك الذين ضلوا وما كانوا مهتدين ، لكان الكلام حقيقة معرى عن ثوب الاستعارة والنظر إلى المستعار فى بابه ، كترشيح المجاز فى بابه . ومنه : =

أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب : شبه مايدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع [1] . وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس : ماغشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث . وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل : فأذاقه ماغشيهم من الجوع والخوف ، ولهم فى نحو هذا طريقان لابد من الإحاطة بهما ، فإن الاستنكار لايقع إلا لمن فقدهما ، أحدهما : أن ينظروا فيه إلى المستعار له ، كما نظر إليه ههنا . ونحوه قول كثير :

غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ [2]

استعارة الرداء للمعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه . ووصفه بالغمر الذى هو وصف المعروف [3] والنوال ، لا صفة الرداء ، نظر إلى المستعار له . والثانى : أن ينظروا فيه إلى المستعار ، كقوله :

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو رُوَيْدَكَ يَاأَخَا عَمْرِو بْنِ بَكْرِ
لِيَ الشَّطْرُ الَّذِى مَلَكَتْ يَمِينِي وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ [4]

= إذا الشيطان قصع فى قفاها تنفقناه بالحبل التوام

فجعل الشيطان فى قفاها قاصعاً ثم نافقاً ، ثم جعله مستخرجا بالحبل المحكم المثنى كما يستخرج الحيوان من جحره ، والشوط فى هذا الفن البديع فطين ، والله الموفق .

(١) قوله «بما يدرك من الطعم المر والبشع» عبارة غيره : طعم المر والبشع ، ولعله المر البشع بدون واو . (ع)

(٢) لكثير . والغمر : الكثير . وشبه العطاء بالرداء ، لأنه يصون عرض صاحبه أو يستر فقر السائل ، فاستعاره له على سبيل التصريحية وإضافة الغمر إليه تجريد ، لأنه يلائم المشبه . هذا وقد يقال الغمر ، يطلق على الماء الذى يغمر قامة المنغمس فيه ، فيجوز أنه يشبه العطاء من حيث صونه عرض صاحبه بالرداء ، فيكون استعارة مصرحة ، وتكون إضافة الغمر إليه من إضافة المشبه به للمشبه ، بجامع عموم كل ونفعه ، والقرينة على كل ذلك قوله : إذا تبسم . شارعا فى الضحك . غلقت لضحكته رقاب المال : يقال : غلق الرجل إذا ضجر وغضب ، وغلق الرهن إذا ملكه المرتهن ولم يقدر صاحبه على فكه ، وكانت تلك عادتهم . فالمعنى : إذا ضحك غضبت الأموال لعلها أنها ستؤخذ ويملكها غيره ، أو ثبتت فى أيدى السائلين وملكوها . ورقاب المال : مجاز مرسل ، أى أعيانه .

(٣) قوله «ووصفه بالغمر الذى هو وصف المعروف» فى الصحاح الغمر الماء الكثير . وفيه «الاعتجار» لف العمامة على الرأس ، وفيه «الضافى» السابغ . (ع)

(٤) استعار المنازعة لتنبيه فى امتداد السيف إليه حتى توسط بينهما ، كالشىء يتجاذبه اثنان . واستعار الرداء للسيف بجامع حفظ كل لصاحبه وعدم الاستغناء عنه . والاعتجار ترشيح ، ومعناه : التعمم أو التلفع ، فهو ملائم للرداء . ويحتمل أن التركيب كله من باب التمثيل . وعبد عمرو : فاعل . ورويدك : اسم فعل ، بمعنى أمهل ، والكاف حرف خطاب ، قاله الجوهرى . وبالنظر لأصله فهو مصدر ، والكاف مضاف إليه ، وفيه التفات . وبكر : =

أراد بردائه سيفه ، ثم قال : فاعتجر منه بشطر ، فنظر إلى المستعار فى لفظ الاعتجار ، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل : فكساهم لباس الجوع والخوف . ولقال كثير : ضافى الرداء إذا تبسم ضاحكا ﴿وهم ظالمون﴾ فى حال التباسهم بالظلم ، كقوله (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة . وقرئ (والخوف) عطفاً على اللباس ، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . أصله : ولباس الخوف . وقرئ : لباس الخوف والجوع .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها وسوء صنيعها ، وصل بذلك بالفاء فى قوله ﴿فكلوا﴾ صدّهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة التى كانوا عليها ، بأن أمرهم بأكل مارزقهم الله من الحلال الطيب ، وشكر إنعامه بذلك ، وقال ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ يعنى تطيعون . أو إن صح زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة ، لأنها شفعاؤكم عنده . ثم عدد عليهم محرمات الله ، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم ، دون اتباع ماشرع الله على لسان أنبيائه .

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

وانتصاب ﴿الكذب﴾ بلا تقولوا ، على : ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم (مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله أو إلى قياس مستند إليه . واللام مثلها فى قولك : ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام . وقوله ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بدل من الكذب . ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول ، أى : ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم ،

ـــــ أبو قبيلة . والشطر الذى ملكته يمينه : هو مقبض السيف . ودونك : اسم فعل بمعنى خذ ، أى خذه فتلفع منه بالشطر الآخر وهو صدره ، والأمر للاباحة ، وفيه نوع تهكم .

فتقول هذا حلال وهذا حرام . ولك أن تنصب الكذب بتصف ، وتجعل « ما » مصدرية ، وتعلق (هذا حلال وهذا حرام) بلا تقولوا ، على : ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب ، أى : لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول فى أفواهكم ، لا لأجل حجة وبينة ، ولكن قول ساذج ودعوى فارغة . فإن قلت : مامعنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت : هو من فصيح الكلام وبليغه ، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه . فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته . كقولهم : وجهها يصف الجمال . وعينها تصف السحر . وقرئ (الكذب) بالجر صفة لما المصدرية ، كأنه قيل : لوصفها الكذب . بمعنى الكاذب ، كقوله تعالى (بدم كذب) والمراد بالوصف : وصفها البهائم بالحل والحرمة . وقرئ (الكذب) جمع كذوب بالرفع ، صفة للألسنة . وبالنصب على الشتم . أو بمعنى : الكلم الكواذب . أو هو جمع الكذاب من قولك : كذب كذابا ، ذكره ابن جنى . واللام فى ﴿لتفتروا﴾ من التعليل الذى لا يتضمن معنى الغرض ﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَاقَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)

﴿ماقصصنا عليك﴾ يعنى فى سورة الأنعام .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

﴿بجهالة﴾ فى موضع الحال ، أى : عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه ، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ﴿من بعدها﴾ من بعد التوبة .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢)

﴿كان أمة﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم [1] لكماله فى جميع صفات

(١) قال محمود : « فى قوله أمة وجهان ، أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم ... الخ » قال أحمد : ويقوى =

الخير ، كقوله :

وَلَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ [(١)]

وعن مجاهد : كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار . والثانى : أن يكون أمّة بمعنى مأموم ، أى : يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير . أو بمعنى مؤتم به كالرحلة [(٢)] والنخبة . وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول ، فيكون مثل قوله (قال إنى جاعلك للناس إماما) وروى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعى عن ابن مسعود أنه قال : إنّ معاذاً كان أمّة قانتاً لله ، فقلت : غلطت ، إنما هو إبراهيم . فقال : الأمّة : الذى يعلم الخير . والقانت المطيع لله ورسوله [(٣)] . وكان معاذ كذلك . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال ـ حين قيل له : ألا تستخلف ؟ ـ : لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته ؛ ولو كان معاذ حيا لاستخلفته . ولو كان سالم حيا لاستخلفته فإنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول : «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة ، ومعاذ أمّة قانت لله . ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون ، وسالم شديد الحب لله . لو كان لايخاف الله لم يعصه [(٤)] . وهو ذلك المعنى ، أى : كان إماما فى الدين ؛ لأنّ الأئمة معلمو الخير .

= هذا الثانى قوله تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) أى كان أمة تؤمه الناس ليقتبسوا منه الخيرات ويقتفوا بآثاره المباركات ، حتى أنت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته ووافق سيرته . والله أعلم .

(١)
قولا لهرون إمام الهدى ... عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على مابك من قدرة ... فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

لأبى نواس يعطف هرون الرشيد على الفضل البرمكى حين توعده بالقتل ، غيرة منه لما سمع من نهايته فى الكرم ، وخاطب الاثنين تأسيا بعادة العرب ، والاحتفال : الاجتماع . والحاشد الجامع ، وعلى بمعنى مع ، أى : أنت مع كونك فى غاية الاقتدار لست واجداً مثل الفضل فى العالم كله ، ودخلت الفاء فى خبر المبتدأ لما فيه خبره من رائحة الشرط ، أى : وإن كنت قادراً ، ودخلت الباء فى خبر ليس لتوكيد النفى ، واستدل على ذلك بقوله : ليس مستنكراً على الله جمعه خصال العالم كلها فى رجل واحد كالفضل ، هذا مايتبادر منه ظاهر النظم ، لكنه خلاف مقتضى مقام الاستعطاف ، فالمعنى ؛ لا يكن منك غيرة من الفضل ، فان كرمه بعض صفاتك ، فان الله قادر على جمع صفات العالم كلها فيك ، وقد فعل . ويروى : من الله بدل على الله . ويروى : بمستبدع ، بدل بمستنكر .

(٢) قوله «كالرحلة» فى الصحاح «الرحلة» بالضم : الوجه الذى تريده ، وبالكسر : الارتحال . (ع)

(٣) أخرجه الطبرانى والحاكم وأبو نعيم فى الحلية . من رواية علية عن منصور عن عبدالرحمن عن الشعبى حدثنى فروة بن نوفل الأشجعى قال قال ابن مسعود . فذكره . لكن ليس فيه : فقلت له « غلطت » بل فيه فقيل له : إن ابراهيم . وفيه «وكان معاذ بن جبل يعلم الناس الخير . وكان مطيعا لله ورسوله» ورواه الحاكم أيضاً من رواية شعبة عن فراس عن الشعبى عن مسروق عن عبدالله قال «إن معاذاً كان أمة قانتاً لله» فقال رجل من أشجع يقال له : فروة ابن نوفل : إنما ذاك ابراهيم . فقال عبدالله : إنا كنا نشبهه بابراهيم ـ الحديث» وأخرجه عبدالرزاق . ومن طريق الحاكم قال أخبرنا الثورى عن فراس نحوه .

(٤) لم أجده

والقانت: القائم بما أمره الله. والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش فى زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم ﴿شاكراً لأنعمه﴾ روى أنه كان لايتغدّى إلا مع ضيف. فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة فى صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذاماً؟ فقال: الآن وجبت موا كلتكم شكراً لله على أنه عافانى وابتلاكم ﴿اجتباه﴾ اختصه واصطفاه للنبوة ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ إلى ملة الإسلام ﴿حسنة﴾ عن قتادة: هى تنويه الله بذكره، حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه. وقيل: الأموال والأولاد. وقيل: قول المصلى منا: كما صليت على إبراهيم ﴿لمن الصالحين﴾ لمن أهل الجنة.

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿ثم أوحينا إليك﴾ فى «ثم» هذه مافيها من تعظيم منزلة رسول الله [1] صلى الله عليه وسلم، وإجلال محله، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلّ ماأولى من النعمة: اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته. من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها.

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿السبت﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها. والمعنى: إنما جعل وبال السبت وهو المسخ ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا فى تحريمه على كلمة واحدة بعد ماحتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه. والمعنى فى ذكر ذلك، نحو المعنى فى ضرب القرية التى كفرت بأنعم الله مثلا، وغير ماذكر، وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته. فإن قلت: مامعنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرّمين؟ قلت: معناه أنه يجازيهم جزاء اختلاف

---

(١) عاد كلامه. قال محمود: «وفى ثم هذه مافيها من تعظيم منزلة محمد صلى الله عليه وسلم ... الخ» قال أحمد: وإنما تفيد ذلك ثم لأنها فى أصل وضعها لتراخى المعطوف عليه فى الزمان، ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى: وههنا ماهو أعلى من ذلك كله قدراً وأرفع رتبة وأبعد رفعة، وهو أن النبى الأمى الذى هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحى، متلو أمره بذلك فى القرآن العظيم. ففى ذلك تعظيم لهما جميعا، لكن نصيب النبي صلى الله عليه وسلم من هذا التعظيم أوفر وأكبر على مامهدناه، والله الموفق الصواب.

فعلهم فى كونهم محلين تارة ومحرمين أخرى ووجه آخر : وهو أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا فى الأسبوع يوما للعبادة وأن يكون يوم الجمعة ، فأبوا عليه وقالوا : نريد اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت ، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة ، فهذا اختلافهم فى السبت لأن بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة ، فأذن الله لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة ، فكانوا لا يصيدون فيه ، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك ، وهو يحكم ﴿ بينهم يوم القيامة ﴾ فيجازى كل واحد من الفريقين بما يستوجبه . ومعنى جعل السبت : فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه . وقرئ : إنما جعل السبت ، على البناء للفاعل . وقرأ عبد الله : إنا أنزلنا السبت .

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١٢٥)

﴿ إلى سبيل ربك ﴾ إلى الإسلام ﴿ بالحكمة ﴾ بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وهى الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ وهى التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها . ويجوز أن يريد القرآن ، أى : ادعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين ، من غير فظاظة ولا تعنيف ﴿ إن ربك هو أعلم ﴾ بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة ، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل ، وكأنك تضرب منه فى حديد بارد .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ (١٢٦) وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)

سمى الفعل الأول باسم الثانى للمزاوجة . والمعنى : إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه ، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه . وقرئ : وإن عقبتم فعقبوا ، أى : وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم . روى أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد : بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ، ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة وقد مثل به ، وروى :

فرآه مبقور البطن فقال : «أما والذى أحلف به . لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك [١]» فنزلت ، فكفر عن يمينه وكفّ عما أراده ، ولا خلاف فى تحريم المثلة . وقد وردت الأخبار بالنهى عنها [٢] حتى بالكلب العقور . إما أن رجع الضمير فى ﴿لهو﴾ إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم . ويراد بالصابرين : المخاطبون ، أى : ولئن صبرتم لصبركم خير لكم ، فوضع الصابرون موضع الضمير ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد . أو وصفهم بالصفة التى تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة . وإما أن يرجع إلى جنس الصبر ـ وقد دل عليه صبرتم ـ ويراد بالصابرين جنسهم ، كأنه قيل : وللصبر خير للصابرين . ونحوه قوله تعالى (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) . (وأن تعفوا أقرب للتقوى) ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿واصبر﴾ أنت فعزم عليه بالصبر ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ أى بتوفيقه وتثبيته وربطه على قلبك ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أى على الكافرين . كقوله (فلا تأس على القوم الكافرين) أو على المؤمنين وما فعل بهم الكافرون ﴿ولا تك فى ضيق﴾ وقرئ : ولا تكن فى ضيق ، أى : ولا يضيقن صدرك من مكرهم . والضيق : تخفيف الضيق ، أى فى أمر ضيق . ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين ، كالقيل والقول ﴿إنّ الله مع الذين اتقوا﴾ أى هو ولىّ الذين اجتنبوا المعاصى ﴿و﴾ ولى ﴿الذين هم محسنون﴾ فى أعمالهم . وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر : أوص . فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لى ، وأوصيكم بخواتم سورة النحل .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بما أنعم عليه فى دار الدنيا وإن مات فى يوم تلاها أو ليلته ، كان له من الأجر كالذى مات وأحسن الوصية» [٣]

---

(١) أخرجه الثعلبي بغير سند . وقصة حمزة أخرجها البزار والطبرانى من رواية سليمان التيمى عن ابن عثمان عن أبى هريرة «أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر يوم أحد إلى حمزة وقد قتل ومثل به . فرأى منظراً لم ير قط أوجع لقلبه منه . وذكر باقى الحديث أتم مما ذكره هنا ورواية صالح سهو عن سليمان . وصالح ضعيف . وله طريق أخرى أخرجها الدارقطنى من رواية إسماعيل بن عباس قال «لما انصرف المشركون عن قتلى أحد فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمه حمزة منظراً أساءه ، وقد شق بطنه واصطلم أنفه ـ فذكر القصة » وفيها : لأمثلن مكانه بسبعين رجلا . وذكر الصلاة عليه وعلى القتلى . قال : فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة ـ الآية) فصبر ولم يمثل بأحد ، قال الدارقطنى : تفرد به إسماعيل وهو ضعيف عن غير الشاميين . قلت : وأما أول الكلام فذكره .

(٢) قلت روى ذلك عن جماعة من الصحابة .

(٣) رواه الثعلبي وابن مردويه . وقد تقدم سنده فى آل عمران .

سورة الإسراء

مكية [إلا الآيات ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ ، ومن آية ٧٣ إلى غاية آية ٨٠ فمدنية]

وآياتها ١١١ [نزلت بعد القصص]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

﴿سبحان﴾ علم للتسبيح كعثمان للرجل ، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره ، تقديره : أسبح الله سبحان ، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده . ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله.[1] و﴿أسرى﴾ وسرى لغتان . و﴿ليلا﴾ نصب على الظرف . فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل ، فما معنى ذكر الليل ؟[2] قلت : أراد بقوله (ليلا) بلفظ التنكير : تقليل مدّة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشأم مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية . ويشهد لذلك قراءة عبد الله

---

(١) قوله «القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله» يريد بهم أهل السنة القائلين بأنه تعالى هو الخالق لجميع الحوادث من أفعال العباد وغيرها ، خيراً كانت أو شراً ، خلافاً للمعتزلة في قولهم : إن العبد هو الخالق لفعل نفسه حتى يكون مقدوراً له ، فيصح تكليفه به ، ولكن استند أهل السنة لمثل قوله تعالى (الله خالق كل شيء) (والله خلقكم وما تعملون) وهذا لا ينافي اختيار العباد في أفعالهم ، لأنهم أثبتوا لهم الكسب فيها ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : «فإن قلت : الاسراء لا يكون إلا بالليل ، فما معنى ذكر الليل ... الخ» ؟ قال أحمد وقد قرن الاسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا ، كقوله (فأسر بأهلك بقطع من الليل) وكقوله تعالى (فأسر بعبادي ليلا) فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن الغرض من ذكر الليل وإن كان الاسراء يفيده تصوير السير بصورته في ذهن السامع ، وكأن الاسراء لما دل على أمرين ، أحدهما : السير ، والآخر : كونه ليلا . أريد إفراد أحدهما بالذكر تثبيتا في نفس المخاطب ، وتنبيها على أنه مقصود بالذكر . ونظيره في إفراد أحد ما دل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره قوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد) فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد ، فأريد التنبيه لأن أحد المعنيين وهو التثنية مراد مقصود ، وكذلك أريد الايقاظ ؛ لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله (إنما هو إله واحد) ولو اقتصر على قوله (إنما هو إله) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له ، والغرض من الكلام ليس إلا الاثبات للوحدانية ، والله أعلم .

وحذيفة : من الليل ، أى : بعض الليل ، كقوله (ومن الليل فتهجد به نافلة) يعنى الأمر بالقيام فى بعض الليل . واختلف فى المكان الذى أسرى منه فقيل : هو المسجد الحرام بعينه ، وهو الظاهر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل عليه السلام بالبراق[١] » وقيل : أسرى به من دار أم هانئ بنت أبى طالب والمراد بالمسجد الحرام : الحرم ، لإحاطته بالمسجد والتباسه به . وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد . وروى أنه كان نائماً فى بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به[٢] ورجع من ليلته ، وقص القصة على أم هانئ . وقال : مثل لى النبيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال : مالك ؟ قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم ، قال : وإن كذبونى ، فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء ، فقال أبو جهل : يا معشر بنى كعب بن لؤى ، هلم فحدثهم ، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً . وارتد ناس ممن كان قد آمن به ، وسعى رجال إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أتصدقه على ذلك ؟ قال : إنى لأصدقه على أبعد من ذلك ، فسمى الصديق . وفيهم من سافر إلى ماثم ، فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أمّا النعت فقد أصاب ، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ، وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس ، يقدمها جمل أورق ، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ، فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد شرقت ، فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ، ثم لم يؤمنوا وقالوا : ما هذا إلا سحر مبين ، وقد عرج به إلى السماء فى تلك الليلة ، وكان العروج به من بيت المقدس وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى فى السماء من العجائب وأنه لقى الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى واختلفوا فى وقت الإسراء فقيل كان قبل الهجرة بسنة . وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعث واختلف فى أنه كان فى اليقظة أم فى المنام فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه »[٣] وعن معاوية : إنما عرج بروحه . وعن الحسن . كان فى المنام رؤيا رآها . وأكثر

(١) متفق عليه من حديث مالك بن صعصعة مطولا .

(٢) ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند . وكأنه من رواية الكلبي عن أبى صالح عنه . ثم رأيته من رواية جريبر عن الضحاك عن ابن عباس . أخرجه الحاكم والبيهقي عنه . لكن لم يسبق لفظه . وقد رواه النسائي باختصار عن هذا من رواية عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس . وأورده ابن سعد وأبو يعلى والطبراني من حديث أم هانئ مطولا .

(٣) قال ابن إسحاق فى المغازى : حدثنى بعض آل أبى بكر عن عائشة بهذا « لكن أسرى » بدل « عرج » قال ابن إسحاق : وحدثنى يعقوب بن عتبة عن ابن معاوية قال : كانت رؤيا من الله صادقة .

الأقاويل بخلاف ذلك . والمسجد الأقصى : بيت المقدس ، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿ باركنا حوله ﴾ يريد بركات الدين والدنيا ، لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحى ، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة . وقرأ الحسن : ليريه بالياء ، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم ، فقيل : أسرى ثم باركنا ثم ليريه . على قراءة الحسن ، ثم من آياتنا ، ثم إنه هو ، وهى طريقة الالتفات التى هى من طرق البلاغة ﴿ إنه هو السميع ﴾ لأقوال محمد ﴿ البصير ﴾ بأفعاله ، العالم بتهذيبها وخلوصها ، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك .

وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَاءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

﴿ ألا تتخذوا ﴾ قرئ بالياء على : لئلا يتخذوا . وبالتاء على : أى لا تتخذوا ، كقولك : كتبت إليه أن أفعل كذا ﴿ وكيلا ﴾ ربا تكلون إليه أموركم ﴿ ذرية من حملنا ﴾ نصب على الاختصاص . وقيل : على النداء فيمن قرأ (لا تتخذوا) بالتاء على النهى ، يعنى : قلنا لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا يا ذرية من حملنا ﴿ مع نوح ﴾ وقد يجعل (وكيلا ذرية من حملنا) مفعولى تتخذوا ، أى لا تجعلوهم أربابا كقوله (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام . وقرئ (ذرية من حملنا) بالرفع بدلا من واو (تتخذوا) وقرأ زيد بن ثابت : ذرية ، بكسر الذال . وروى عنه أنه قد فسرها بولد الولد ، ذكرهم الله النعمة فى إنجاء آبائهم من الغرق ﴿ إنه ﴾ إن نوحا ﴿ كان عبدا شكورا ﴾ قيل : كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ، ولو شاء أجاعنى . وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ، ولو شاء أظمأنى . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ، ولو شاء أعرانى . وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ، ولو شاء أحفانى . وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية ، ولو شاء حبسه . وروى أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به ، فإن وجده محتاجا آثره به . فإن قلت : قوله إنه كان عبدا شكورا ما وجه ملاءمته لما قبله ؟ قلت : كأنه قيل : لا تتخذوا من دونى وكيلا ، ولا تشركوا بى ، لأن نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا ، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه ، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم . ويجوز أن يكون تعليلا لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح ، فهم متصلون به ، فاستأهلوا لذلك الاختصاص . ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد .

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

﴿وقضينا إلى بنى إسرائل﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضيا ، أى مقطوعا مبتوتاً بأنهم يفسدون فى الأرض لا محالة ، ويعلون . أى : يتعظمون ويبغون ﴿فى الكتاب﴾ فى التوراة ، و﴿لتفسدنّ﴾ جواب قسم محذوف . ويجوز أن يجرى القضاء المبتوت مجرى القسم ، فيكون (لتفسدن) جوابا له ، كأنه قال : وأقسمنا لتفسدن . وقرئ : لتفسدنّ ، على البناء للمفعول . ولتفسدن ، بفتح التاء من فسد ﴿مرتين﴾ أولاهما : قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله ، والآخرة : قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم ﴿عباداً لنا﴾ وقرئ عبيداً لنا . وأكثر ما يقال : عباد الله وعبيد الناس : سنحاريب وجنوده[1] وقيل بختنصر . وعن ابن عباس : جالوت . قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة . وخربوا المسجد . وسبوا منهم سبعين ألفاً . فإن قلت : كيف جاز أن يبعث الله الكفرة[2] على ذلك ويسلطهم عليه[3] . قلت : معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم ، على أنّ الله عزّ وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه ، فهو كقوله تعالى (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) وكقول الداعى . وخالف بين كلمهم . وأسند الجوس وهو التردّد خلال الديار بالفساد إليهم . فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم . وقرأ طلحة (فحاسوا) بالحاء . وقرئ : فجوّسوا . وخلل الديار . فإن قلت : ما معنى ﴿وعد أولاهما﴾ ؟ قلت : معناه وعد عقاب أولاهما ﴿وكان وعدا مفعولا﴾ يعنى : وكان وعد العقاب وعدا لا بد أن يفعل ﴿ثم رددنا لكم الكرة﴾ أى الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو . قيل : هى قتل بختنصر واستنقاذ بنى إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم . وقيل : هى قتل داود جالوت ﴿أكثر نفيرا﴾ مما كنتم .

---

(١) قوله «سنحاريب وجنوده» كان ملك بابل ، وبختنصر هو ابن ابنه . وكان من كتابه . كذا فى الخازن . (ع)

(٢) قوله «فان قلت كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك» مبنى على أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة كل كائن فهو فعله ومراده ولو شراً ، فلا سؤال . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت كيف جاز أن يبعث الله الكفرة ... الخ» قال أحمد : هذا السؤال إنما يتوجه على قدرى يوجب على الله تعالى بزعمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة . وأما السنى إذا سئل هذا السؤال أجاب عنه بقوله (لا يسئل عما يفعل) والله الموفق .

والنفير ، من ينفر مع الرجل من قومه ، وقيل : جمع نفر كالعبيد والمعيز .

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)

أى الإحسان والإساءة : كلاهما مختص بأنفسكم ، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم . وعن علىّ رضى الله عنه : ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه ، وتلاها ﴿فإذا جاء وعد﴾ المرّة ﴿الآخرة﴾ بعثناهم[1] ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ حذف لدلالة ذكره أوّلا عليه . ومعنى (ليسوءوا وجوهكم) ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها ، كقوله (سيئت وجوه الذين كفروا) وقرئ : ليسوء والضمير لله تعالى ، أو للوعد ، أو للبعث . ولنسوء : بالنون . وفى قراءة علىّ : لنسوأنّ وليسوأنّ وقرئ لنسوأن ، بالنون الخفيفة . واللام فى ﴿ليدخلوا﴾ على هذا متعلق بمحذوف وهو : وبعثناهم ليدخلوا . ولنسوأن : جواب إذا جاء ﴿ماعلوا﴾ مفعول ليتبروا ، أى ليهلكوا كل شىء غلبوه واستولوا عليه . أو بمعنى : مدة علوّهم .

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد المرّة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصى ﴿وإن عدتم﴾ مرة ثالثة ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم وقد عادوا . فأعاد الله إليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الأتاوة عليهم . وعن الحسن : عادوا فبعث الله محمدا ، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون . وعن قتادة : ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحىّ من العرب ، فهم منهم فى عذاب إلى يوم القيامة ﴿حصيرا﴾ محبسا يقال للسجن محصر وحصير . وعن الحسن : بساطا كما يبسط الحصير المرمول[2]

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

---

(١) قوله : (فاذا جاء وعد) المرة (الآخرة) بعثناهم : أى عبادنا وهم فى هذه المرة : الفرس والروم ، بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له خروش ، حتى دخل الشام بجنود فقتل وسبى ، حتى كاد يفنى بنى إسرائيل ، وبقى منهم بقايا حتى كثروا ، وكانت لهم الرياسة فى بيت المقدس إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم طاطوس بن أسبيانوس الرومى فخرب بلادهم وطردهم عنها ، وبقى بيت المقدس خرابا إلى خلافة عمر بن الخطاب ، فعمره المسلمون بأمره . اه من الخازن . (ع)

(٢) قوله «كما يبسط الحصير المرمول» أي المنسوج ، أفاده الصحاح . (ع)

الصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْـرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

﴿للتى هى أقوم﴾ للحالة التى هى أقوم الحالات وأسدها . أو للملة . أو للطريقة . وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف ، لما فى إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه . وقرئ : ويبشر ، بالتخفيف ، فإن قلت : كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة ؟ قلت : كان الناس حينئذ إما مؤمن تقى ، وإما مشرك ، وإنما حدث أصحاب المنزلة [1] بين المنزلتين بعد ذلك . فإن قلت : علام عطف ﴿وأن الذين لا يؤمنون﴾ ؟ قلت : على (أن لهم أجراً كبيراً) على معنى : أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين : بثوابهم ، وبعقاب أعدائهم ويجوز أن يراد : ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون .

وَيَدْعُ الْإِنسَـٰنُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

أى : ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله ، كما يدعوه لهم بالخير ، كقوله (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) . ﴿وكان الإنسان عجولا﴾ يتسرع إلى طلب كل مايقع فى قلبه ويخطر بباله . لا يتأنى فيه تأنى المتبصر . وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرا ، فأقبل يئن بالليل ، فقالت له : مالك تئن ؟ فشكا ألم [2] القد ، فأرخت من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب . فلما أصبح النبى صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه ، فقال صلى الله عليه وسلم «اللهم اقطع يديها» فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة ، وأن يقطع الله يديها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «إنى سألت الله أن يجعل لعنتى ودعائى على من لا يستحق من أهلى رحمة لأنى بشر أغضب كما يغضب البشر فلترد سودة يديها [3] » ، ويجوز أن يريد بالانسان الكافر ، وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به ، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة . وكان

(١) قوله «وإنما حدث أصحاب المنزلة» يعنى الفسقة . وإثبات الواسطة مذهب المعتزلة دون أهل السنة ، فان الفسق لا يزيل الايمان عندهم . (ع)

(٢) قوله «فشكا ألم القد» فى الصحاح «القد» بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ . (ع)

(٣) لم أجده من هذه الجهة . وقد أخرجه الواقدى فى المغازى من رواية ذكوان عن عائشة «أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها بأسير ، وقال لها : احتفظى به . قالت : فلهوت مع امرأة فخرج ولم أشعر . فدخل يسأل عنه فقلت والله ما أدرى . فقال : قطع الله يدك ، فذكر نحو ما تقدم . ورويناه فى الجزء التاسع من حديث المخلص تخريج البقال . قال : حدثنا ابن أبى داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن أبى فديك عن ابن أبى ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا .

الإنسان عجولا : يعنى أن العذاب آتيه لامحالة ، فما هذا الاستعجال ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو النضر بن الحرث قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية ، فأجيب له ، فضربت عنقه صبرا .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾

فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد أن الليل والنهار آيتان فى أنفسهما ، فتكون الإضافة فى آية الليل وآية النهار للتبيين ، كإضافة العدد إلى المعدود ، أى : فمحونا الآية التى هى الليل وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة . والثانى : أن يراد : وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين ، يريد الشمس والقمر . فمحونا آية الليل : أى جعلنا الليل ممحوّ الضوء مطموسه مظلما ، لايستبان فيه شىء كما لايستبان ما فى اللوح الممحوّ . وجعلنا النهار مبصرا أى تبصر فيه الأشياء وتستبان . أو فمحونا آية الليل التى هى القمر حيث لم يخلق لها شعاعا كشعاع الشمس ، فترى به الأشياء رؤية بينة ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شىء ﴿لتبتغوا فضلا من ربكم﴾ لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف فى معايشكم ﴿ولتعلموا﴾ باختلاف الجديدين ﴿عدد السنين و﴾ جنس ﴿الحساب﴾ وماتحتاجون إليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات ، ولتعطلت الأمور ﴿وكل شىء﴾ مما تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم ﴿فصلناه﴾ بيناه بيانا غير ملتبس ، فأزحنا عللكم ، وماتركنا لكم حجة علينا .

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

﴿طائره﴾ عمله وقد حققنا القول فيه فى سورة النمل . وعن ابن عيينة : هو من قولك : طار له سهم ، إذا خرج ، يعنى : ألزمناه ماطار من عمله . والمعنى أنّ عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل لايفك عنه ، ومنه مثل العرب : تقلدها طوق الحمامة . وقولهم : الموت فى الرقاب . وهذا ربقة فى رقبته . عن الحسن : ياابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها فى عنقك : وقرئ ﴿فى عنقه﴾ بسكون النون . وقرئ ﴿نخرج﴾ بالنون . ويخرج ، بالياء ، والضمير لله عز وجل . ويخرج ، على البناء للمفعول . ويخرج من خرج ، والضمير للطائر . أى : يخرج الطائر كتابا ، وانتصاب ﴿كتابا﴾ على الحال . وقرئ : يلقاه ، بالتشديد مبنيا للمفعول . و ﴿يلقاه منشورا﴾

صفتان للكتاب . أو (يلقاه) صفة و (منشورا) حال من يلقاه ﴿اقرأ﴾ على إرادة القول . وعن قتادة : يقرأ ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قارئا . و ﴿بنفسك﴾ فاعل كفى . و ﴿حسيبا﴾ تميز وهو بمعنى حاسب كضريب القداح بمعنى ضاربها، وصريم بمعنى صارم ذكرهما سيبويه . وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا . ويجوز أن يكون بمعنى الكافى ووضع موضع الشهيد فعدّى بعلى لأنّ الشاهد يكفى المدّعى ما أهمه . فإن قلت : لم ذكر حسيبا ؟ قلت : لأنه بمنزلة الشهيد والقاضى والأمير ؛ لأنّ الغالب أنّ هذه الأمور يتولاها الرجال ، فكأنه قيل : كفى بنفسك رجلا حسيبا . ويجوز أن يتأوّل النفس بالشخص ، كما يقال : ثلاثة أنفس . وكان الحسن إذا قرأها قال : يا ابن آدم ، أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك .

مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

أى : كل نفس حاملة وزرا ، فإنما تحمل وزرها لاوزر نفس أخرى ﴿وما كنا معذبين﴾ وماصحّ منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب[2] قوما إلا بعد أن ﴿نبعث﴾ إليهم ﴿رسولا﴾ فتلزمهم الحجة . فإن قلت : الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل ، لأنّ معهم أدلة العقل التى بها يعرف الله ، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه ، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم ، وكفرهم لذلك ، لا لإغفال الشرائع التى لاسبيل إليها إلا بالتوقيف ، والعمل بها لا يصح إلا بعد الايمان . قلت : بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة ، لئلا يقولوا : كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر فى أدلة العقل .

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

---

(١) قال محمود : «معناه وماصح منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوما حتى تلزمهم الحجة ببعث الرسول... الخ» قال أحمد : وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدرى يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر وإلى كثير من أحكام الله تعالى ، وإن لم يبعث رسول فيكلف بعقله ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب ، إذ العقل كاف عندهم فى إيجاب المعرفة بل فى جميع الأحكام ، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين . وأما السنى فلا يتوجه عليه هذا السؤال ، فان العقل عنده شرط فى وجوب عموم الأحكام ، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع وبعث الأنبياء ، وحينئذ يثبت الحكم وتقوم الحجة ، كما أنبأت عنه هذه الآية التى يروم الزمخشرى تحريفها فتمتاص عليه وتسد طرق الحيل بين يديه ، لأنه الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نعم العقل عمدة فى حصول المعرفة لا فى وجوبها ، وبين الحصول والوجوب بون بعيد ، والله الموفق .

﴿وإذا أردنا﴾ وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل ، أمرناهم [١] ﴿ففسقوا﴾ أي أمرناهم بالفسق ففعلوا ، والأمر مجاز : لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : افسقوا ، وهذا لا يكون فبقي أن يكون مجازاً [٢] . ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً ، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبرّ ، كما خلقهم أصحاء أقوياء ، وأقدرهم على الخير والشرّ ، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق ، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمّرهم . فإن قلت : هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت : لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز ، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه ، وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه ، وهو كلام مستفيض . يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة ، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب ، ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته فعصاني ، أو فلم يمتثل أمري . لأنّ ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالا أن يقصد أصلا حتى يجعل دالا على المأمور به . فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوى : لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوى لأمره مأموراً به ، وكأنه يقول : كان منى أمر فلم تكن منه طاعة ، كما أن من يقول : فلان يعطى ويمنع ، ويأمر وينهى ، غير قاصد إلى مفعول . فإن قلت : هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير ، دليلا على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا ؟ قلت : لا يصحّ ذلك ؛ لأن قوله (ففسقوا) يدافعه ، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعى إضمار خلافه ، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه ، ونظير (أمر) شاء : في أن مفعوله استفاض فيه الحذف ، لدلالة ما بعده عليه ، تقول : لو شاء لأحسن إليك ، ولو شاء لأساء إليك . تريد : لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة ، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت ـ وقلت : قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الاساءة ، فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة ـ لم تكن على سداد . وقد فسر بعضهم (أمرنا) بكثرنا ، وجعل أمرته فأمر من باب فعلته

(١) قوله «أمرناهم ففسقوا» في الصحاح : أمرنا مترفيها : متنعميها وجبابرتها . (ع)

(٢) قال محمود : «حقيقة أمرهم أن يقول لهم : افسقوا . ولا يكون هذا ، فبقى أن يكون مجازا ... الخ» قال أحمد : نص حسن إلا قوله أنهم خولوا النعم ليشكروا ، فانه فرعه ، على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة . والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر ، ففسقوا وكفروا على خلاف الأمر ، والأمر غير الارادة على قاعدة أهل الحق ، والله الموفق .

ففعل. كثبرته فثبر. وفى الحديث: «خير المال سكة[1] مأبورة ومهرة مأمورة[2]»، أى كثيرة النتاج. وروى أن رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أرى أمرك هذا حقيراً. فقال صلى الله عليه وسلم: إنه سيأمر[3]. أى سيكثر وسيكبر.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

وقرئ: آمرنا من أمر وأمره غيره. وأمّرنا بمعنى أمرنا. أو من أمر إمارة، وأمره الله. أى: جعلناهم أمراء وسلطناهم ﴿كم﴾ مفعول ﴿أهلكنا﴾ و ﴿من القرون﴾ بيان لكم وتمييز له، كما يميز العدد بالجنس. يعنى عادا وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرا. ونبه بقوله ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾ على أن الذنوب، هى أسباب الهلكة لاغير، وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَانَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة[4]. تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقييدين. أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته. والثانى: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال: ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون مايتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأمّا

(١) قوله «كثبرته فثبر، وفى الحديث خير المال سكة مأبورة» فى الصحاح «ثبرته» أى حبسته. وفيه «السكة» الطريقة من النخل. وفيه «أبرنخله» أى لقحه وأصلحه. (ع)

(٢) أخرجه حميد وإسحاق وابن أبى شيبة والحرث والطبرانى وأبوعبيد من رواية مسلم بن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «خير مال المرء ميرة مأمورة أو سكة مأبورة». قال ابن إسحاق ومعه النضر بن شميل وغيره يرفعه.

(٣) لم أجده.

(٤) قال محمود: «أى من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة ... الخ» قال أحمد: ومثل ذلك التقييد ورد فى الآية الأخرى، وهو قوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه. ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) فأدخل «من» المبعضة على حرث الدنيا. وجعل الطالب حرث الآخرة مراده، وزاد عليه.

المؤمن التق فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة ، فما يبالى : أوتى حظا من الدنيا أو لم يؤت فإن أوتى فيها وإلا فربما كان الفقر خيرا له وأعون على مراده . وقوله ﴿لمن نريد﴾ بدل من له ، وهو بدل البعض من الكل : لأن الضمير يرجع إلى « من » وهو فى معنى الكثرة . وقرئ : يشاء . وقيل : الضمير لله تعالى ، فلا فرق إذاً بين القراءتين فى المعنى ويجوز أن يكون للعبد ، على أنّ للعبد مايشاء من الدنيا ، وأن ذلك لواحد من الدهماء[1] يريد به الله ذلك . وقيل : هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة ، كالمنافق ، والمرائى ، والمهاجر للدنيا ، والمجاهد للغنيمة والذكر ، كما قال صلى الله عليه وسلم « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه »[2] ، ﴿مدحورا﴾ مطرودا من رحمة الله ﴿سعيها﴾ حقها من السعى وكفاءها من الأعمال الصالحة . اشترط ثلاث شرائط فى كون السعى مشكورا : إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور ، والسعى فيما كلف من الفعل والترك ، والإيمان الصحيح الثابت . وعن بعض المتقدمين : من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب . وتلا هذه الآية . وشكر الله : الثواب على الطاعة .

كُلاًّ نُمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

﴿كلا﴾ كل واحد من الفريقين ، والتنوين عوض من المضاف إليه ﴿نمد﴾ هم : نزيدهم من عطائنا ، ونجعل الآنف منه مددا للسالف لانقطعه . فنرزق المطيع والعاصى جميعا على وجه التفضل ﴿وما كان عطاء ربك﴾ وفضله ﴿محظورا﴾ أى ممنوعا ، لايمنعه من عاص لعصيانه

ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾

﴿انظر﴾ بعين الاعتبار ﴿كيف﴾ جعلناهم متفاوتين فى التفضل . وفى الآخرة التفاوت أكبر ، لأنها ثواب وأعواض وتفضل ، وكلها متفاوتة . وروى أن قوما من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضى الله عنه ، فخرج الإذن لبلال وصهيب ، فشق على أبى سفيان ، فقال سهيل بن عمرو : إنما أُتينا من قبلنا ، إنهم دعوا ودعينا يعنى إلى الاسلام ، فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت فى الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر

(١) قوله «لواحد من الدهماء» فى الصحاح «دهماء الناس» جماعتهم . (ع)
(٢) متفق عليه من حديث عمر .

لما أعدّ الله لهم فى الجنة أكثر . وقرئ : وأكثر تفضيلا . وعن بعضهم : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا ، أما ترغب فى المباهاة بالرفع فى مجالس الآخرة وهى أكبر وأفضل ؟

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢)

﴿فتقعد﴾ من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت ، كأنها حربة بمعنى صارت . يعنى : فتصير جامعا على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك ، والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكا له .

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)

﴿وقضى ربك﴾ وأمر أمرا مقطوعا به ﴿ألا تعبدوا﴾ أن مفسرة ولا تعبدوا نهى . أو بأن لا تعبدوا ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ وأحسنوا بالوالدين إحسانا . أو بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا وقرئ : وأوصى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ووصى . وعن بعض ولد معاذ بن جبل : وقضاء ربك . ولا يجوز أن يتعلق الباء فى بالوالدين بالإحسان ؛ لأن المصدر لا يتقدّم عليه صلته ﴿إما﴾ هى «إن» الشرطية زيدت عليها «ما» تأكيدا لها ، ولذلك دخلت النون المؤكدة فى الفعل ، ولو أفردت «إن» لم يصح دخولها ، لا تقول : إن تكرمن زيدا يكرمك ، ولكن إما تكرمنه . و ﴿أحدهما﴾ فاعل يبلغنّ ، وهو فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين . و ﴿كلاهما﴾ عطف على أحدهما فاعلا وبدلا . فإن قلت : لو قيل إما يبلغان كلاهما ، كان كلاهما توكيدا لا بدلا . فما لك زعمت أنه بدل ؟ قلت : لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدا للاثنين ، فانتظم فى حكمه ، فوجب أن يكون مثله . فإن قلت : ما ضرّك لو جعلته توكيدا مع كون المعطوف عليه بدلا ، وعطفت التوكيد على البدل ؟ قلت : لو أريد توكيد التثنية لقيل : كلاهما ، فحسب ، فلما قيل : أحدهما أو كلاهما ، علم أنّ التوكيد غير مراد ، فكان بدلا مثل الأول ﴿أف﴾ صوت يدل على تضجر . وقرئ : أف . بالحركات الثلاث منونا وغير منون : الكسر على أصل البناء ، والفتح تخفيف للضمة والتشديد كثم ، والضم إتباع كمنذ . فإن قلت : ما معنى عندك ؟ قلت : هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه ، وذلك أشق عليه وأشدّ احتمالا وصبرا ، وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه فى حال الطفولة ، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال ، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما أو يستثقل من مؤنهما : أف ، فضلا عما يزيد عليه . ولقد بالغ سبحانه فى التوصية

بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا، ثم ضيق الأمر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته، ومع أحوال لايكاد يدخل صبر الانسان معها فى استطاعة ﴿ولا تنهرهما﴾ ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لايعجبك. والنهى والنهر والنهم: أخوات ﴿وقل لهما﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قولا كريما﴾ جميلا، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة. وقيل: هو أن يقول: ياأبتاه، ياأماه، كما قال إبراهيم لأبيه: ياأبت، مع كفره، ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب وعادة الدعار [1]. قالوا: ولا بأس به فى غير وجهه، كما قالت عائشة رضى الله عنها: نحلنى أبو بكر كذا [2]. وقرئ: جناح الذل، والذل: بالضم والكسر. فإن قلت: مامعنى قوله ﴿جناح الذل﴾؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك كما قال (واخفض جناحك للمؤمنين) فأضافه إلى الذل أو الذل، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول. والثانى: أن تجعل لذله أو لذله لهما جناحا خفيضا، كما جعل لبيد للشمال [3] يدا، وللقوة زماما، مبالغة فى التذلل والتواضع لهما ﴿من الرحمة﴾ من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما، لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس. ولا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك. فان قلت: الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين. قلت: وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الايمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية والارشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزا ثم نسخ. وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال: كل ذلك واصل إليه، ولا شىء أنفع له من الاستغفار. ولو كان شىء أفضل منه لأمركم به فى الأبوين. ولقد كرر الله سبحانه فى كتابه الوصية بالوالدين. وعن النبى صلى الله عليه وسلم «رضا الله فى رضا الوالدين، وسخطه فى سخطهما [4]» وروى «يفعل البار مايشاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل

---

(١) قوله «وسوء الأدب وعادة الدعار» من الدعارة وهى الفسق والخبث والفساد. كذا فى الصحاح. (ع)

(٢) أخرجه فى الموطأ عن الزهرى عن عائشة قالت «إن أبا بكر كان نحلنى جداد عشرين وسقا من ماله بالعالية. فلما حضرته الوفاة. قال: مامن الناس أحب إلى منك».

(٣) قوله «كما جعل لبيد للشمال يدا» فى قوله:

وغداة ريح قد كشفت وقرة ... إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (ع)

(٤) أخرجه الترمذى عن عبدالله بن عمرو قال: روى موقوفا. ورواه البزار وقال: لانعلم أحدا أسنده إلا خالد بن الحرث. وفيه نظر، لأن الحاكم أخرجه من طريق عبدالرحمن بن مهدى عن شعبة مرفوعا وكذا أخرجه الطبرانى والبيهقى من رواية القاسم بن سليم عن شعبة مرفوعا. وللبيهقى أيضا من رواية الحسين بن الوليد

العاق مايشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة [١] ، وروى سعيد بن المسيب : إنّ البارّ لايموت ميتة سوء . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ أبويّ بلغا من الكبر أنى ألى منهما ماوليا منى فى الصغر ، فهل قضيتهما ؟ قال : لا ، فإنهما كان يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك ، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما [٢] . وشكا رجل إلى رسول الله أباه وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا شيخ يتوكأ على عصا ، فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوى ، وفقيراً وأنا غنىّ ، فكنت لاأمنعه شيئاً من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، وأنا فقير وهو غنىّ ، ويبخل علىّ بماله ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : مامن حجر ولامدر يسمع هذا إلا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك ، أنت ومالك لأبيك [٣] . وشكا إليه آخر سوء خلق أمه فقال [٤] : لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين ؟ قال إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها ؟ قال : لقد جازيتها . قال : مافعلت ؟ قال : حججت بها على عاتقى . قال : ماجزيتها ولو طلقة [٥] وعن ابن عمر أنه رأى رجلا فى الطواف يحمل أمّه ويقول :

إِنِّى لَهَا مَطِيَّــةٌ لاَتُذْعَرُ   إِذَا الرِّكَابُ نَفَرَتْ لاَتَنْفِرُ

مَاحَمَلَتْ وَأَرْضَعَتْنِى أَكْثَرُ   اللهُ رَبِّى ذُو الجَلاَلِ الأَكْبَرُ [٦]

═ عن شعبة مرفوعا . قال : وروينا أيضا من رواية أبى إسحاق الفزارى وزيد بن أبى الرها وغيرهم مرفوعا . ورواية أبى إسحاق عند أبى يعلى . وقال البخارى . فى الأدب المفرد : حدثنا آدم بن أبى إياس حدثنا شعبة فذكره موقوفا وفى الباب عن ابن عمر أخرجه البزار وقال : تفرد به عصمة بن محمد الأنصارى عن يحيى بن سعيد .

(١) أخرجه الثعلبى من طريق محمد بن السماك عن عابد بن شريح عن عطاء عن عائشة . وفيه أحمد بن محمد بن غالب غلام الخليل . وهو كذاب ، لكن رواه أبو نعيم فى الحلية من وجه آخر عن سحنون السماك بلفظ «فانى سأغفر لك» وبلفظ «فانى لاأغفر لك» .

(٢) لم أجده .

(٣) لم أجده . قلت أخرجه فى معجم الصحابة من طريق .

(٤) لم أجده .

(٥) قوله «قال ماجزيتها ولوطلقة» فى الصحاح الطلق وجع الولادة اه فالطلقة المرة منه . (ع)

(٦) أنشده ابن عمر عن رجل يحمل أمه فى الحج : شبه نفسه بالمطية تشبيهاً بليغا ، و «إذا الركاب نفرت» صفة لها ، يعنى أنه خافض لها جناح الذل من الرحمة ، ولايسأم منها كغيره ، فان حملها إياه وإرضاعها إياه أكثر من بره بها ، وذعر يذعر كتعب يتعب : خاف وفزع ، والمراد لازم الفزع والنفرة وهو الجزع والضجر وعدم إقراره على ظهره ، ثم كبر لأنه شعار الحج من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق .

تظننى جازيتها ياابن عمر (١) ؟ قال : لاولو زفرة واحدة (٢) . وعنه عليه الصلاة والسلام « إياكم وعقوق الوالدين ، فإنّ الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام (٣) ، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جارّ إزاره خيلاء ، إنّ الكبرياء لله رب العالمين » وقال الفقهاء : لايذهب بأبيه إلى البيعة (٤) ، وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل ، ولا يناوله الخمر . ويأخذ الإناء منه إذا شربها . وعن أبى يوسف : إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد . وعن حذيفة أنه استأذن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قتل أبيه وهو فى صف المشركين ، فقال : دعه يليه غيرك (٥) . وسئل الفضيل بن عياض عن برّ الوالدين فقال : أن لاتقوم إلى خدمتهما عن كسل . وسئل بعضهم فقال : أن لاترفع صوتك عليهما ، ولا تنظر شزراً إليهما (٦) ، ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن ، وأن تترحم عليهما ماعاشا ، وتدعو لهما إذا ماتا ، وتقوم بخدمة أوِدّائهما من بعدهما . فعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنّ من أبر البرّ أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه (٧) » .

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

﴿بمـا فى نفوسكم﴾ بما فى ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد مايجب لهما من التوقير ﴿إن تكونوا صالحين﴾ قاصدين الصلاح والبر ، ثم فرطت منكم ـ فى حال الغضب ، وعند حرج الصدر وما لايخلو منه البشر ، أو لحمية الاسلام ـ هنة تؤدى إلى أذاهما ، ثم أنبتم إلى الله واستغفرتم منها ، فإن الله غفور ﴿للأوابين﴾ للتوابين . وعن سعيد بن جبير : هى فى البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لايريد بذلك إلا الخير . وعن سعيد بن المسيب : الأوّاب الرجل

(١) قوله «تظننى جازيتها ياابن عمر» لعله ثم قال تظننى . (ع)

(٢) أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة : أخبرنا سعيد بن سعيد بن أبى بردة عن أبيه قال كان ابن عمر يطوف بالبيت فرأى رجلا ـ فذكره . وهذا إسناد صحيح وأخرجه البيهقى فى الشعب فى الخامس والخمسين وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد عن آدم عن سعيد مختصرا .

(٣) أخرجه ابن عدى من رواية محمد بن الفرات عن أبى إسحاق عن الحرث عن على بهذا وأتم منه . وفيه مسيرة خمسمائة بدل ألف . ورواه الطبرانى فى الأوسط من طريق جعبر الجعفى عن أبى جعفر عن جابر بن عبدالله فذكره بلفظ « ألف عام » وجابر ومحمد بن الفرات متروكان .

(٤) قوله «لايذهب بأبيه إلى البيعة» فى الصحاح : البيعة بالكسر للنصارى . (ع)

(٥) لم أجده : ولايصح عن والد حذيفة أنه كان فى صف المشركين : فانه استشهد بأحد مع المسلمين بأيدى المسلمين خطأ . وهم يحسبونه من الكفار ، كما فى صحيح البخارى لكن نحو القصة المذكورة وردت لأبى عبيدة ابن الجراح .

(٦) قوله «ولاتنظر شزرا إليهما» هو نظر الغضبان بمؤخر العين ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٧) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر مرفوعا وفيه قصة .

كلما أذنب بادر بالتوبة . ويجوز أن يكون هذا عاماً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ، ويندرج تحته الجانى على أبويه التائب من جنايته . لوروده على أثره .

وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

﴿وآت ذا القربى حقه﴾ وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما ، وأن يؤتوا حقهم : وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد ، وفقراء عاجزين عن الكسب ، وكان الرجل موسراً : أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة . والشافعى لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب . وإن كانوا مياسير ، أو لم يكونوا محارم : كأبناء العمّ ، فحقهم صلتهم بالمودّة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ يعنى وآت هؤلاء حقهم من الزكاة . وهذا دليل على أن المراد بما يؤتى ذوى القرابة من الحق : هو تعهدهم بالمال . وقيل : أراد بذى القربى أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

التبذير . تفريق المال فيما لا ينبغى . وإنفاقه على وجه الإسراف . وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها ، فأمر الله بالنفقة فى وجوهها مما يقرب منه ويزلف . وعن عبد الله : هو إنفاق المال فى غير حقه . وعن مجاهد : لو أنفق مدّا فى باطل كان تبذيرا وقد أنفق بعضهم نفقة فى خير فأكثر ، فقال له صاحبه : لا خير فى السرف . فقال : لا سرف فى الخير . وعن عبد الله بن عمرو : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال : ماهذا السرف يا سعد ؟ قال : أو فى الوضوء سرف ؟ قال . نعم وإن كنت على نهر جار [1] ﴿إخوان الشياطين﴾ أمثالهم فى الشرارة وهى غاية المذمّة : لأنه لا شرّ من الشيطان . أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف . أو هم قرناؤهم فى النار على سبيل الوعيد ﴿وكان الشيطان لربه كفورا﴾ فما ينبغى أن يطاع ، فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله . وقرأ الحسن : إخوان الشيطان .

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾

وإن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد ﴿فقل لهم قولا ميسوراً﴾ فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك . وكان النبي صلى الله عليه وسلم [2] إذا سئل شيئاً وليس عنده

(١) أخرجه ابن ماجه وأحمد وأبو يعلى والبيهقى من حديثه . وفى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .
(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم عن أنس : قال كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يسأل شيئا إلا أعطاه أو سكت =

أعرض عن السائل وسكت حياء . قوله (ابتغاء رحمة من ربك) إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدما عليه ، أي : فقل لهم قولا سهلا ليناً وعدهم وعداً جميلا ، رحمة لهم وتطييباً لقلوبهم ، ابتغاء رحمة من ربك ، أي : ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم . وإما أن يتعلق بالشرط ، أي : وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك ، فسمى الرزق رحمة ، فردّهم رداً جميلا ، فوضع الابتغاء موضع الفقد ؛ لأنّ فاقد الرزق مبتغ له . فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه ، فوضع المسبب موضع السبب . ويجوز أن يكون معنى (وإما تعرضنّ عنهم) وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة . ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك ، لأن من أبى أن يعطى : أعرض بوجهه . يقال : يسر الأمر وعسر ، مثل سعد الرجل ونحس [1] فهو مفعول . وقيل معناه : فقل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله ، على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم ، كأن معناه : قولا ذا ميسور ، وهو اليسر [2] ، أي : دعاء فيه يسر .

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف ، وأمر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير ﴿فتقعد ملوما﴾ فتصير ملوما عند الله . لأنّ المسرف غير مرضى عنده وعند الناس ، يقول المحتاج : أعطى فلاناً وحرمني . ويقول المستغنى : مايحسن تدبير أمر المعيشة . وعند نفسك : إذا احتجت فندمت على ما فعلت ﴿محسوراً﴾ منقطعاً بك لاشيء عندك ، من حسره السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة . وعن جابر : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبى فقال : إنّ أمى تستكسيك درعا ، فقال من ساعة إلى ساعة يظهر ، فعد إلينا ، فذهب إلى أمّه فقالت له قل له : إن أمى تستكسيك الدرع الذى عليك ، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً ، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة [3] . وقيل أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن [4] ، فجاء عباس بن مرداس ، وأنشأ يقول :

ـــ وفيه قصة : وفى الطبرانى الأوسط عن على رضى الله عنه «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا فأراد أن يفعله قال : نعم . وإذا أراد أن لايفعل سكت ولم يقل قط لشيء : لا . فذكر قصة . وإسناده ضعيف .

(١) قوله «مثل سعد الرجل ونحس» فى الصحاح : سعد الرجل بالكسر فهو سعيد : مثل سلم فهو سليم . وسعد بالضم فهو مسعود . (ع)

(٢) قوله «قولا ذا ميسور وهو اليسر» فى الصحاح : المعسور ضد الميسور . وهما مصدران . وقال سيبويه : هما صفتان . (ع)

(٣) لم أجده

(٤) قوله «مائة من الابل وعيينة بن حصن» لعل بعده سقطا تقديره : مائة .

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيـــدِ بَيْنَ عُيَيْنَـــةَ وَالأَقْرَعِ
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلاَ حَابِسٌ يَفُوقَانِ جَدِّى فِي مَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لاَ يُرْفَعِ [1]

فقال : ياأبا بكر ، اقطع لسانه عنى ، أعطه مائة من الإبل [2] فنزلت .

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهقه من الإضافة ، بأنّ ذلك ليس لهوان منك عليه ، ولا لبخل به عليك ولكن لأنّ مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها[3] تابعة للحكمة والمصلحة . ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذى الخزائن في يده ، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا . ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض ، فإنه يراعى أوسط الحالين ، لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ، ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه ، فاستنوا بسنته .

وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

(١) للعباس بن مرداس رضى الله عنه يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، روى أنه أعطى كلا من الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مائة من الابل تأليفا لقلوبهما ، فأنشأ العباس ذلك ، فرفعه أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقطعوا عنى لسانه ، ففزع وفزع أناس ، وإنما أراد إعطاءه تأليفا لقلبه أيضا . والاستفهام للتعجب . ويحتمل أنه للانكار ، لكنه بعيد من الصحابى ، أى : أتقسم نهبي ونهب العبيد فرسى بين هذين ، والحال أن أبويهما ما كانا يفوقان أبى مرداس بمنع الصرف للضرورة . وقد يروى «العبيد» مصغرا . ويروى بدله «جدى» ويروى «شيخي فى مجمع» من مجامع الحرب ، وأنا لست أقل من واحد منهما ، فنحن سواء أصلا وفرعا ، فكيف تفاوت بيننا الآن ؟ مع أن من تخفض قدره لا يرتفع عمره . وروى «منهمو» أى من الأربعة . وروى «ومن يخفض» مبنيا للمجهول . وفى ذكر حصن وحابس بعد عيينة والأقرع : لف ونشر مرتب .

(٢) أخرجه مسلم من رواية عتبة بن رفاعة بن رافع عن رافع بن خديج قال «أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الابل . وأعطي عباس بن مرداس دون ذلك . فقال عباس ـ فذكر الشعر . قال : فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة» وأخرجه ابن إسحاق فى المغازى حدثنى عبدالله بن أبى بكر بن حزم وغيره ـ فذكر القصة وقال فى آخرها : اذهبوا فاقطعوا لسانه . فزادوه حتى رضى» وكذا ذكره موسى بن عقبة والواقدى وابن سعد وليس فى شيء من طرقهم أن المخاطب بذلك كان أبا بكر

(٣) قوله «فى بسط الأرزاق وقدرها» أي تضييقها . أفاده الصحاح . (ع)

قتلهم أولادهم : هو وأدهم بناتهم [١] ، كانوا يئدونهنّ خشية الفاقة وهى الاملاق ، فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم . وقرئ (خشية) بكسر الخاء . وقرئ (خطأ) وهو الإثم ، يقال : خطئ خطأ ، كأثم إثماً ، وخطأ وهو ضدّ الصواب ؛ اسم من أخطأ . وقيل : هو والخطء كالحذر والحذر ، وخطاء بالكسر والمد . وخطاء بالفتح والمد . وخطأ بالفتح والسكون . وعن الحسن : خطا بالفتح وحذف الهمزة كالخب . وعن أبى رجاء : بكسر الخاء غير مهموز .

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

﴿فاحشة﴾ قبيحة زائدة على حد القبح ﴿وساء سبيلا﴾ وبئس طريقا طريقه ، وهو أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب ، والسبب ممكن وهو الصهر الذى شرعه الله [٢] .

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾

﴿إلا بالحق﴾ إلا بإحدى ثلاث : إلا بأن تكفر ، أو تقتل مؤمناً عمداً ، أو تزنى بعد إحصان . ﴿مظلوما﴾ غير راكب واحدة منهنّ ﴿لوليه﴾ الذى بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه ، فإن لم يكن له ولى فالسلطان وليه ﴿سلطانا﴾ تسلطا على القاتل فى الاقتصاص منه . أو حجة يثبت بها عليه ﴿فلا يسرف﴾ الضمير للولى . أى : فلا يقتل غير القاتل ، ولا اثنين والقاتل واحد ، كعادة الجاهلية : كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة ، حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحارث بن عباد : بؤ بشسع نعل كليب [٣] . وقال :

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كُلَيْبٍ غُرَّهْ حَتَّى يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ مُرَّهْ [٤]

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء . وقيل : الإسراف المثلة . وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة : فلا يسرف ، بالرفع على أنه خبر فى معنى الأمر . وفيه مبالغة ليست فى الأمر . وعن

---

(١) قوله «هو وأدهم بناتهم» وأد البنت : دفنها فى القبر وهى حية ، كما فى الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وهو الصهر الذى شرعه الله» أى التزوج . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «بؤ بشسع نعل كليب» فى الصحاح يقال بؤ به أى كن ممن يقتل به وفيه البواء : السواء . وفيه الشسع : واحد شسوع النعل التى تشد إلى زمامها . وفيه الغرة : العبد أو الأمة . (ع)

(٤) الغرة : الرقيق ، يعنى : كل قتيل قتلناه فى هذه القبيلة ليس كفؤا لمن قتلوه منا ، حتى يصل قتلنا آل مرة فهم كفؤه .

مجاهد : أنّ الضمير للقاتل الأوّل . وقرئ : فلاتسرف ، على خطاب الولى أو قاتل المظلوم . وفى قراءة أبىّ : فلا تسرفوا ، ردّه على : ولا تقتلوا ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ الضمير إمّا للولى ، يعنى حسبه أنّ الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك ، و بأنّ الله قد نصره [1] بمعونة السلطان و بإظهار المؤمنين على استيفاء الحق ، فلا يبغ ماوراء حقه . وإمّا للمظلوم ؛ لأنّ الله ناصره وحيث أوجب القصاص بقتله ، وينصره فى الآخرة بالثواب . وإما للذى يقتله الولى بغير حق ويسرف فى قتله ، فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا ﴿٣٤﴾

﴿ بالتى هى أحسن ﴾ بالخصلة أو الطريقة التى هى أحسن ، وهى حفظه عليه وتثميره ﴿ إنّ العهد كان مسئولا ﴾ أى مطلوبا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفى به [2] . ويجوز أن يكون تخييلا ، كأنه يقال للعهد : لم نكثت ؟ وهلا وفى بك ؟ تبكيتاً للناكث ، كما يقال للموؤدة : بأى ذنب قتلت ؟ ويجوز أن يراد أنّ صاحب العهد كان مسئولا .

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

وقرئ ﴿ بالقسطاس ﴾ بالضم والكسر ، وهو القرسطون [3] . وقيل : كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها ﴿ وأحسن تأويلا ﴾ وأحسن عاقبة ، وهو تفعيل ، من آل إذا رجع ، وهو مايؤول إليه .

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا ﴿٣٦﴾

---

(١) قوله «وبأن الله قد نصره» لعله أو أن . (ع)

(٢) قال محمود : «أى يطلب من المعاهد أن يفى به ولا ينكثه ... الخ» قال أحمد ، كلام حسن إلا لفظة التخييل فقد تقدم إنكارها عليه ، وينبغى أن يعوض بالتمثيل . والظاهر التأويل الأول ، ويكون المجرور الذى هو «عنه» حذف تخفيفاً ، وقد ذكر فى بقية الآى (كل أولئك كان عنه مسؤلا) والله أعلم . ويعضد تأويل سؤال العهد نفسه على وجه التمثيل وقوف الرحم بين يدى الله وسؤالها فيمن وصلها وقطعها . وقد ورد ذلك فى الحديث الصحيح ، والله الموفق .

(٣) قوله «بالقسطاس بالضم والكسر وهو القرسطون» أى القبان ، كذا فى النسفي . (ع)

﴿ولا تقف﴾ ولا تتبع . وقرئ : ولا تقف ، يقال : قفا أثره وقافه ، ومنه : القافة ، يعنى : ولا تكن فى اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال . والمراد : النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم ، ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولا ظاهراً . لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده . وعن ابن الحنفية : شهادة الزور وعن الحسن : لا تقف أخاك المسلم إذا مرّ بك ، فتقول : هذا يفعل كذا ، ورأيته يفعل ، وسمعته ، ولم تر ولم تسمع . وقيل : القفو شبيه بالعضيهة [1] . ومنه الحديث « من قفى مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله فى ردغة الخبال [2] حتى يأتى بالمخرج [3] » ، وأنشد :

وَمِثْلُ الدُّمَى شُمُّ الْعَرَانِينِ سَاكِنٌ ... بِهِنَّ الحَيَاءُ لَا يُشِعْنَ التَّقَافِيَا [4]

أى التقاذف . وقال الكميت :

وَلَا أَرْمِي البَرِيَّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ... وَلَا أَقْفُو الحَوَاصِنَ إِنْ قُفِينَا [5]

---

(١) قوله «وقيل القفو شبيه بالعضيهة» فى الصحاح العضيهة البهتة ، وهى الافك والبهتان . (ع)

(٢) قوله « حبسه الله فى ردغة الخبال » فى الصحاح الردغة ـ بالتحريك ـ : الماء والطين والوحل الشديد وكذلك الردغة بالتسكين . وفيه الخبال : العناء والفساد وأما الذى فى الحديث من قفا مؤمنا بما ليس فيه وقفه الله تعالى فى ردغة الخبال حتى يجىء بالمخرج منه ، فيقال : هو صديد أهل النار .

(٣) لم أره بهذا اللفظ مرفوعا . وإنما ذكره أبو عبيد فى الغريب من قول حسان بن عطية . فقال : حدثنا محمد بن كثير عن الاوزاعي عنه بهذا . وروى أحمد والطبرانى من رواية معاذ بن أنس ـ رفعه «من قفا مؤمنا بما ليس فيه يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» وفى مسند الشاميين للطبرانى من طريق مطر الوراق عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر «من قذف مؤمنا أو مؤمنة حبس فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج ، وهو عند أبى داود من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ «من قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج . وهو يخرج مما قال» وأخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رفعه «من قال فى مؤمن ما ليس فيه حبسه الله فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج» .

(٤) يصف نساء بأنهن جميلات مثل الدمى ، جمع دمية بالضم ، وهو الصنم والصورة من العاج المرصعة بالجواهر والشم ؛ جمع شماء كحمر وحمراء ، والعرانين : الأنوف ، أى مرتفعات الأنوف كناية عن شرفهن وارتفاع قدرهن . أو كناية عن كونهن كرائم حرائر ؛ لأن انخفاض الأنف خاص بالعبيد والاماء . وشبههن بالبيوت . وشبه الحياء بقوم يسكنونها على طريق المكنية والسكنى تخييل لذلك ، وهو كناية ومبالغة وملازمة الحياء لهن . لا يشعن : أى لا يظهرن التقافى ، أى المتابعة بالقذف ، من قفوته إذا أتبعته بالغيبة . و فى إشاعته : كناية عن نفيه ، لأنها لازمة له ، حيث أنه لا يكون إلا بين اثنين فأكثر .

(٥) يقال : حصنت المرأة بالضم حصانة ، فهى حاصن وحصناء وحصان . والحواصن : جمع حاصن : أى عفت فهى عفيفة ، يقول : لا أتهم البرىء بشىء زور ، بل بذنب محقق . والظاهر أن هذا فى معنى الاستثناء المنقطع ؛ لأن البرىء ما دام بريئا لا ذنب له ، ولا أتبع العفائف وأتكلم فيهن بفحش ما دمن عفائف إن قفاهن الناس ، فتكلموا فيهن فكيف إذا لم يتكلم فيهن أحد ؟

وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح ؛ لأنّ ذلك نوع من العلم ، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم ، وأمر بالعمل به ﴿أولئك﴾ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد ، كقوله :

* وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَـٰئِكَ الْأَيَّامِ * [1]

و﴿عنه﴾ فى موضع الرفع بالفاعلية ، أى : كل واحد منها كان مسئولا عنه ، فمسئول : مسند إلى الجار والمجرور ، كالمغضوب فى قوله (غير المغضوب عليهم) يقال للإنسان : لم سمعت ما لم يحل لك سماعه ، ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه ، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه ؟ وقرئ (والفواد) بفتح الفاء والواو ، قلبت الهمزة واوا بعد الضمة فى الفؤاد ، ثم استصحب القلب مع الفتح .

وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

﴿مرحا﴾ حال ، أى : ذا مرح . وقرئ (مرحا) وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد ﴿لن تخرق الأرض﴾ لن تجعل فيها خرقا [2] بدوسك لها وشدّة وطأتك .

---

(١) لولا مراقبة العيون أريننا مقل المها وسوالف الآرام
هل ينهينك أن قتلن مرقشاً أو مافعلن بعروة بن حزام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

لجرير بن عطية يخاطب نفسه على طريق التجريد ، يقول : لولا مراقبة النساء للعيون ، أى الرقباء المتطلعين علينا ، لبرزن لنا وأريننا عيونهن التى هى كعيون بقر الوحش ، فمقل المها : استعارة مصرحة ، وكذلك سوالف الآرام . والسالفة : مقدم العنق وصفحته . والآرام : جمع رئم بالكسر والهمز ، وهو الغزال الأبيض ، وأصله «أرآم» بهمز ممدود بعد الراء وزن أحمال ، فقلب إلى ما قبلها . ويجوز أنه جمع ريم بالفتح وهو الغزال الأبيض ، فهمز وقلب . وهل بمعنى قد . أو للتقرير . أى : أنه ينهاك عنهن مقتلهن مرقشاً العاشق المشهور . أو فعلهن بعروة العاشق أيضا . وذم : فعل أمر ، كأنه تذكر محبوبته فى تلك الديار وتلك الأيام ، فقال : ذم المنازل كلها حال كونها بعد ، أى : غير منزلة اللوى . أو بعد مجاوزتك منزلة اللوى بلازم . واللوى : موضع بعينه من الرمل الملتوى ، وذم الحياة كلها بعد حياتنا فى تلك الأيام ، أو ذم مدة الحياة كلها بعد تلك الأيام السابقة ، وأشار لها بما للعقلاء لعظمتها عنده ، ولأن تخصصه بالعقلاء طارئ فى الاستعمال كما قيل ويجوز أن بعد ظرف المنازل والعيش وبعض النحاة جعل «ذم» مبنيا للمجهول ، ومابعده مرفوع به على النيابة .

(٢) قال محمود : «معناه لن تجعل فيها خرقا ... الخ» قال أحمد : وفى هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية كفاية فى الانزجار عنها ، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية ، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا ، بينا أحدهم قد عرف مسئلتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدا طرفا من رياسة الدنيا ، إذ هو يتبختر فى مشيه ويترجح ، ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك يافوخه عنان السماء ، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يقرأ عليه ، وقلبه عن تدبره على مراحل ، والله ولى التوفيق .

وقرئ. لن تخرق، بضم الراء ﴿ولن تبلغ الجبال طولا﴾ بتطاولك. وهو تهكم بالمختال. قرئ سيئة وسيئه، على إضافة سيئ إلى ضمير كل، وسيئا فى بعض المصاحف. وسيئات. وفى قراءة أبى بكر الصديق رضى الله عنه: كان شأنه. فإن قلت: كيف قيل سيئه مع قوله مكروها؟ قلت: السيئة فى حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات، فلا اعتبار بتأنيثه. ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيئا. ألا تراك تقول: الزنا سيئة، كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث. فإن قلت: فما ذكر من الخصال بعضها سيئ وبعضها حسن، ولذلك قرأ من قرأ (سيئه) بالإضافة. فما وجه من قرأ سيئة؟ قلت: كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة.

ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله (لا تجعل مع الله إلها آخر) إلى هذه الغاية. وسماه حكمة لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه. وعن ابن عباس: هذه الثمانى عشرة آية كانت فى ألواح موسى، أولها: لا تجعل مع الله إلها آخر، قال الله تعالى (وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة) وهى عشر آيات فى التوراة. ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهى عن الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماء [1] وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضل من النعم.

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠)

﴿أفأصفاكم﴾ خطاب للذين قالوا (الملائكة بنات الله) والهمزة للإنكار. يعنى: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيبا لنفسه. واتخذ أدونهم وهى البنات؟ وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب، ويكون أردأها وأدونها للسادات ﴿إنكم لتقولون قولا عظيما﴾ بإضافتكم إليه الأولاد وهى خاصة بالأجسام، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم [2] أدون

(١) قوله «وإن بذ فيها الحكماء» فى الصحاح «بذه» غلبه وفاقه. (ع)
(٢) قوله «وهم أعلى خلق الله وأشرفهم» هذا على مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل من الملائك (ع)

خلق الله وهم الإناث .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ﴿٤١﴾

﴿ولقد صرفنا فى هذا القرآن﴾ يجوز أن يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات ؛ لأنه مما صرفه وكرّر ذكره ، والمعنى : ولقد صرفنا القول فى هذا المعنى . أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكانا للتكرير . ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد . ولقد صرفناه ، يعنى هذا المعنى فى مواضع من التنزيل ، فترك الضمير لأنه معلوم . وقرىء : صرفنا بالتخفيف وكذلك ﴿ليذكروا﴾ قرئ مشدّدا ومخففاً . أى : كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى مايحتج به عليهم ﴿فما يزيدهم إلا نفورا﴾ عن الحق وقلة طمأنينة إليه . وعن سفيان : كان إذا قرأها قال . زادنى لك خضوعا مازاد أعداءك نفورا .

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَـةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

قرئ : كما تقولون ، بالتاء والياء . و ﴿إذا﴾ دالة على أن مابعدها وهو (لابتغوا) جواب عن مقالة المشركين وجزاء ﻟ«لو» . ومعنى ﴿لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا﴾ لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، كقوله (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقيل : لتقربوا إليه ، كقوله (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) . ﴿علوا﴾ فى معنى تعالياً . والمراد البراءة عن ذلك والنزاهة . ومعنى وصف العلو بالكبر : المبالغة فى معنى البراءة والبعد مما وصفوه به .

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال[1] ، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته ، فكأنها

(١) قال محمود : «والمراد تسبيحها بلسان الحال من حيث تدل على الصانع ... الخ» قال أحمد : ولقائل أن يقول : فما يصنع بقوله (كان حليما غفورا) وهو لايغفر للمشركين ولايتجاوز عن جهلهم وكفرهم وإشراكهم ، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنون ، والظاهر أن المخاطب المؤمنون . وأما عدم فقهنا للتسبيح الصادر من الجمادات ، فكأنه ـ والله أعلم ـ من عدم العمل بمقتضى ذلك ، فان الانسان لو يقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من ذرات الكون تسبح الله وتنزهه وتشهد بجلاله وكبريائه وقهره ، وعمر خاطره بهذا الفهم ، لكان ذلك يشغله عن القوت فضلا عن فضول الكلام والأفعال ، والعاكف على الغيبة التى هى فاكهتنا فى زماننا هذا ، =

تنطلق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجلّ مما لايجوز عليه من الشركاء وغيرها. فإن قلت: فما تصنع بقوله ﴿ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾ وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ قلت: الخطاب للمشركين، وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض قالوا: الله، إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم، فكأنهم لم ينظروا ولم يقرّوا؛ لأنّ نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ماكانوا عليه، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق. فإن قلت: من فيهنّ يسبحون على الحقيقة وهم الملائكة[1] والثقلان، وقد عطفوا على السموات والأرض، فما وجهه؟ قلت: التسبيح المجازى حاصل فى الجميع فوجب الحمل عليه، وإلا كانت الكلمة الواحدة فى حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز ﴿إنه كان حليما غفورا﴾ حين لايعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

﴿حجابا مستورا﴾ ذا ستر كقولهم. سيل مفعم ذو إفعام. وقيل: هو حجاب لايرى فهو مستور. ويجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب، فهو مستور بغيره. أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه (وقالوا قلوبنا فى

= لواستشعر حال إفاضته فيها أن كل ذرة وجوهر من ذرات لسانه الذى يلقلقه فى سخط الله تعالى عليه، مشغولة مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته، وتيقظ لذلك حق التيقظ، لكاد أن لايتكلم بقية عمره، فالظاهر والله أعلم أن الآية إنما وردت خطابا على الغالب فى أحوال الغافلين وإن كانوا مؤمنين، والله الموفق، فالحمد لله الذى كان حليما غفورا.

(١) عاد كلامه. قال: إن قلت «من فيهن يسبحون حقيقة وهم الملائكة ... الخ» قال أحمد: وقد تقدم نقل عنه أنه يأبى حمل اللفظ على حقيقته ومجازه دفعة واحدة عند آية السجدة فى النحل، ولكن ظهر من كلامه ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد وعدم الامتناع على القدرة، ليكون متناولا للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ، وقد يكون أراد ثم المجاز، والله الموفق.

أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) كأنه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم «أن يفقهوه» كراهة أن يفقهوه. أو لأن قوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة) فيه معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه. يقال: وحد يحد وحدا وحدة، نحو وعد يعدو عدا وعدة، و «وحده» من باب رجع عوده على بدئه، وافعله جهدك وطاقتك فى أنه مصدر ساد مسد الحال، أصله: يحد وحده بمعنى واحدا، وحده. والنفور: مصدر بمعنى التولية. أو جمع نافر كقاعد وقعود، أى: يحبون أن تذكر معه آلهتهم لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا «بما يستمعون به» من الهزؤ بك وبالقرآن، ومن اللغو: كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار. و (به) فى موضع الحال كما تقول يستمعون بالهزؤ، أى هازئين. و «إذ يستمعون» نصب بأعلم، أى: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون «وإذ هم نجوى» وبما يتناجون به، إذ هم ذوو نجوى «إذ يقول» بدل من إذ هم «مسحورا» سحر فجن. وقيل: هو من السحر وهو الرئة، أى: هو بشر مثلكم «ضربوا لك الأمثال» مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون «فضلوا» فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى التيه طريقا يسلكه فلا يقدر عليه، فهو متحير فى أمره لا يدرى ما يصنع.

وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾

لما قالوا: أئذا كنا عظاماً قيل لهم «كونوا حجارة أو حديداً» فرد قوله: كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاما، فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحى وغضاضته بعد ما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحى، بل هى عمود خلقه الذى يبنى عليه سائره، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الاولى، ولكن لو كنتم أبعد شىء من الحياة ورطوبة الحى ومن جنس ما ركب منه البشر ـ وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً مع أن طباعها الجسارة والصلابة ـ لكان قادرا على أن يردكم إلى حال الحياة «أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم» يعنى أو خلقاً مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم فى زعمكم على الخالق إحياؤه فإنه يحييه. وقيل: ما يكبر فى صدورهم الموت. وقيل: السموات والأرض «فسينغضون»

فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاء:

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز. والمعنى: يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون. وقوله ﴿ بحمده ﴾ حال منهم. أى حامدين، وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشقّ عليه فيتأبى ويتمنع، ستركبه وأنت حامد شاكر، يعنى: أنك تحمل عليه وتقسر قسراً حتى أنك تلين لين المسمح[1] الراغب فيه الحامد عليه. وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك ﴿ وتظنون ﴾ وترون الهول، فعنده تستقصرون مدة لبثكم فى الدنيا، وتحسبونها يوماً أو بعض يوم. وعن قتادة: تحاقرت الدنيا فى أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

﴿ وقل لعبادى ﴾ وقل للمؤمنين ﴿ يقولوا ﴾ للمشركين الكلمة ﴿ التى هى أحسن ﴾ وألين ولا يخاشنوهم، كقوله: وجادلهم بالتى هى أحسن. وفسر التى هى أحسن بقوله ﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ يعنى يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر. وقوله ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ اعتراض، يعنى يلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارّة والمشاقة ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ أى ربا موكولا إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف. وقيل: نزلت فى عمر رضى الله عنه: شتمه رجل فأمره الله بالعفو. وقيل: أفرط إيذاء المشركين للسلمين، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت. وقيل: الكلمة التى هى أحسن: أن يقولوا يهديكم الله، يرحمكم الله. وقرأ طلحة: ينزغ، بالكسر وهما لغتان، نحو يعرشون ويعرشون.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

---

(١) قوله «المسمح» فى الصحاح «أسمحت قرونته» أى ذلت نفسه وتابعته على الأمر. (ع)

هو ردّ على أهل مكة فى إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبى طالب نبيا، وأن تكون العراة الجوّع أصحابه، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم، دون أن يكون ذلك فى بعض أكابرهم وصناديدهم، يعنى: وربك أعلم بمن فى السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم. وقوله ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله ﴿وآتينا داود زبورا﴾ دلالة على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم؛ لأنّ ذلك مكتوب فى زبور داود. قال الله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) وهم محمد وأمته. فإن قلت: هلا عرّف الزبور كما عرّف فى قوله (ولقد كتبنا فى الزبور)؟ قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس، والفضل وفضل، وأن يريد: وآتينا داود بعض الزبر وهى الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزبور، فسمى ذلك زبورا، لأنه بعض الزبور، كما سمى بعض القرآن قرآناً.

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

هم الملائكة. وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير. وقيل نفر من الجن، عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا. أى: ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه. و﴿أولئك﴾ مبتدأ، و﴿الذين يدعون﴾ صفته، و﴿يبتغون﴾ خبره، يعنى: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهى القربة إلى الله تعالى. و﴿أيهم﴾ بدل من واو يبتغون، وأى موصولة، أى: يبتغى من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله. وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح، ويرجون، ويخافون، كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إنّ عذاب ربك كان﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرّب ونبىّ مرسل، فضلا عن غيرهم.

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

﴿نحن مهلكوها﴾ بالموت والاستئصال ﴿أو معذبوها﴾ بالقتل وأنواع العذاب. وقيل: الهلاك للصالحة، والعذاب للطالحة. وعن مقاتل: وجدت فى كتب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها: أما مكة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف. وأما خراسان فعذابها ضروب، ثم ذكرها بلداً بلداً ﴿فى الكتاب﴾ فى اللوح المحفوظ.

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَٰتِ إِلَّآ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة. و«أن» الأولى منصوبة والثانية مرفوعة، تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين. والمراد: الآيات التى اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن إحياء الموتى وغير ذلك: وعادة الله فى الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا هذا سحر مبين كما يقولون فى غيرها، واستوجبوا العذاب المستأصل. وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة. ثم ذكر من تلك الآيات ـ التى اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا ـ واحدة: وهى ناقة صالح؛ لأن آثار هلاكهم فى بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ﴿مبصرة﴾ بينة. وقرئ: مبصرة، بفتح الميم ﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بها ﴿وما نرسل بالآيات﴾ إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها ﴿إلا تخويفاً﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش، يعنى: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم. وذلك قوله (سيهزم الجمع ويولون الدبر)، (قل

الذين كفروا ستغلبون وتحشرون) وغيرذلك ، فجعله كأن قد كان ووجد ، فقال : أحاط بالناس على عادته فى إخباره ، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبى صلى الله عليه وسلم فى العريش مع أبى بكر رضى الله عنه كان يدعو ويقول : « اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك » ثم خرج وعليه الدرع يحرض النـاس ويقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر »[1] ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم فى منامه ، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر « والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم »[2] وهو يومئ إلى الأرض ويقول : هذا مصرع فلان . هذا مصرع فلان ، فتسامعت قريش بما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر يوم بدر وما أرى فى منامه من مصارعهم . فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء وحين سمعوا بقوله : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم »[3] جعلوها سخرية وقالوا : إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر . وما قدر الله حق قدره من قال ذلك . وما أنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار ! فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل ، إذا اتسخت طرحت فى النار فذهب الوسخ وبقى المنديل سالماً لا تعمل فيه النار . وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها ، ثم أقرب من ذلك أنه خلق فى كل شجرة ناراً فلا تحرقها . فما أنكروا أن يخلق[4] فى النار شجرة لا تحرقها . والمعنى : أنّ الآيات إنما يرسل بها تخويفاً للعباد ، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر . فما كان ما ﴿أريناك﴾ منه فى منامك بعد الوحى إليك ﴿إلا فتنة﴾ لهم حيث اتخذوه سخريا وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم ، ثم قال فيهم ﴿ونخوفهم﴾ أى نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغيانا كبيراً﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات . وقيل : الرؤيا هى الإسراء[5] ، وبه تعلق من يقول : كان الإسراء فى

---

(١) لم أجده هكذا فأما أوله فنى البخارى عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قبته يوم بدر : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك . اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد بعد اليوم . فأخذ أبوبكر بيده وقال : حسبه . فخرج وهو يقوله : سيهزم الجمع ويولون الدبر»

(٢) أخرجه مسلم من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا مصرع فلان ويضع يده على الأرض ههنا . قال : فما ماط أحد عن موضع يده »

(٣) قال محمود : «وافتتانهم بالشجرة أنهم حين سمعوا بقوله : إن شجرة الزقوم ... الخ» قال أحمد : والعمدة فى ذلك أن النار لاتؤثر إحراقا فى شىء ، ولكن الله تعالى أجرى العادة أنه يخلق الحرق عند ملاقاة جسم النار لبعض الأجسام ، فاذا كان ذلك من فعل الله لا من فعل النار فلله تعالى أن لا يفعل الحرق فى الشجرة التى فى أصل الجحيم .

(٤) قوله «فما أنكروا أن يخلق» عبارة النسفى : لجاز أن يخلق . (ع)

(٥) عاد كلامه . قال : «وأما الرؤيا فقيل الاسراء ، وتعلق من جعله مناما بهذه الآية . وقيل : إنما سماها =

المنام ، ومن قال : كان في اليقظة ، فسر الرؤيا بالرؤية . وقيل : إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له : لعلها رؤيا رأيتها ، وخيال خيل إليك ، استبعاداً منهم . كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة . نحو قوله : (فراغ إلى آلهتهم) ، (أين شركائى) ، (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وقيل : هى رؤياه أنه سيدخل مكة . وقيل : رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة . فإن قلت : أين لعنت شجرة الزقوم فى القرآن ؟ قلت : لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة : لأنّ الشجرة لاذنب لها حتى تلعن على الحقيقة ، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز . وقيل : وصفها الله باللعن ، لأن اللعن الإبعاد من الرحمة ، وهى فى أصل الجحيم فى أبعد مكان من الرحمة . وقيل تقول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون ، وسألت بعضهم فقال : نعم الطعام الملعون القشب الممحوق [1] . وعن ابن عباس : هى الكشوث التى تتلوى بالشجر يجعل فى الشراب . وقيل : أبو جهل . وقرئ : والشجرة الملعونة بالرفع ، على أنها مبتدأ محذوف الخبر ، كأنه قيل : والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)

(طيناً) حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد ، على : أأسجد له وهو طين ، أى أصله طين .

= رؤيا على زعم المكذبين ... الخ » قال أحمد : ويبعد ذلك قوله تعالى (طلعها كأنه رءوس الشياطين) وقوله (فإنهم لآكلون منها) والله أعلم .

(١) قوله «الطعام الملعون القشب الممحوق» الخلط الضار يمزج بالطعام أو الشراب كالسم . والممحوق المذاب حتى يذهب عينه . أفاده الصحاح . وفيه «الكشوث» نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق فى الأرض ، قال الشاعر :

هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)

أو من الراجع إليه من الصلة على: أأسجد لمن كان في وقت خلقه طينا ﴿أرأيتك﴾ الكاف للخطاب. و﴿هذا﴾ مفعول به. والمعنى: أخبرني عن هذا ﴿الذي كرمت﴾ه ﴿عليّ﴾ أى فضلته، لم كرمته عليّ وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك، ثم ابتدأ فقال ﴿لئن أخرتني﴾ واللام موطئة للقسم المحذوف ﴿لأحتنكن ذريته﴾ لأستأصلنهم بالإغواء. من احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلا. وهو من الحنك. ومنه ماذكر سيبويه من قولهم: أحنك الشاتين أى آكلهما. فإن قلت: من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب؟ قلت: إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به. أو خرجه من قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، أو نظر إليه فتوسم فى مخايله أنه خلق شهوانى. وقيل: قال ذلك لما عملت وسوسته فى آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة ﴿اذهب﴾ ليس من الذهاب الذى هو نقيض المجىء، إنما معناه: امض لشأنك الذى اخترته خذلانا وتخلية، وعقبه بذكر ما جره سوء اختياره فى قوله ﴿فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ كما قال موسى عليه السلام للسامرى (فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس). فإن قلت: أما كان من حق الضمير فى الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟ قلت: بلى، ولكن التقدير: فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جزاؤكم. ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات. وانتصب ﴿جزاء موفورا﴾ بما فى (فإن جهنم جزاؤكم) من معنى تجازون. أو بإضمار تجازون. أو على الحال؛ لأن الجزاء موصوف بالموفور، والموفور الموفر. يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.

استفزه: استخفه. والفز: الخفيف ﴿وأجلب﴾ من الجلبة وهى الصياح[1]. والخيل: الخيالة. ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم: «ياخيل الله اركبى»[2]. والرجل اسم جمع للراجل. ونظيره:

(١) قوله «من الجلبة وهى الصياح» فى الصحاح: جلب على فرسه وأجلب عليه: صاح به من خلفه واستحثه للسبق اه (ع)

(٢) أخرجه أبو الشيخ فى الناسخ والمنسوخ من طريق أبى حمزة السكرى عن عبد الكريم: حدثنى سعيد بن جبير عن قصة المحاربين قال «كان ناس أتوا النبى صلى الله عليه وسلم. فقالوا: نبايعك على الاسلام - وذكر القصة وفيها فأمر النبى صلى الله عليه وسلم فنودى فى الناس: ياخيل الله اركبى: فركبوا لاينتظر فارس فارسا. وروى ابن عائذ فى المغازى عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعنى يوم قريظة يوم الأحزاب مناديا ينادى: ياخيل الله اركبى» وعزا السهيلى فى الروض فى غزوة حنين هذه اللفظة فى صحيح مسلم. فينظر فيه. وقال أبو داود فى السنن: باب النداء عند النفير: ياخيل الله اركبى وساق فى الباب حديث سمرة بن جندب «أن النبى صلى الله عليه وسلم سمى خيلنا خيل الله» قلت أشكل هذا على المخرج فقال: فيه نظر لمن تأمله. فكأنه لم يتجه له مطابقة الحديث للترجمة. وهو ظاهر لأن المراد صحة هذه الاضافة. وقد وردت عن على وخالد بن الوليد. ففى المستدرك للحاكم فى قصة أويس من حديث أبى نضرة عن أسيد بن جابر فذكر القصة. فقال فى آخرها فنادى على: ياخيل الله اركبى» وفى الردة للواقدى من رواية عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة «ياخيل الله اركبى فركبوا وساروا إلى بنى حنيفة.

الركب والصحب. وقرئ: ورجلك، على أن فعلا بمعنى فاعل، نحو: تعب وتاعب. ومعناه: وجمعك الرجل، وتضم جيمه أيضا، فيكون مثل حدث وحدث، وندس وندس [1]، وأخوات لهما. يقال: رجل رجل. وقرئ: ورجالك ورجالك. فإن قلت: مامعنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثلت حاله فى تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوّت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم. وقيل: بصوته، بدعائه إلى الشر. وخيله ورجله: كلّ راكب وماش من أهل العيث [2]. وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال. وأما المشاركة فى الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها فى بابهما، كالربا والمكاسب المحرّمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق فى الفسوق، والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة، وغير ذلك ﴿وعدهم﴾ المواعيد الكاذبة [3]، من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وتسويف التوبة ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة، وشفاعة الرسول فى الكبائر والخروج من النار بعد أن يصيروا حمما [4]، وإيثار العاجل على الآجل ﴿إنّ عبادى﴾ يريد الصالحين ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ أى لاتقدر أن تغويهم ﴿وكفى بربك وكيلا﴾ لهم يتوكلون به فى الاستعاذة منك، ونحوه قوله (إلا عبادك منهم المخلصين) فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغويا مضلا، داعياً إلى الشر، صادّا عن الخير؟ قلت: هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية، كما قال للعصاة: اعملوا ماشئتم.

---

(١) قوله «مثل حدث وحدث، وندس وندس» فى الصحاح: رجل حدث وحدث، بضم الدال وكسرها أى حسن الحديث. وفيه: رجل ندس وندس، أى: فهم. (ع)

(٢) قوله «العيث» فى الصحاح «العيث» الافساد. (ع)

(٣) قال محمود: «المراد بوعدهم المواعيد الكاذبة ... الخ» قال أحمد: وهذا من تجرى المصنف على السنة ومتبعها، فانه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة وإن لم تكن توبة المؤمنين من مواعيد الشيطان، مع العلم بأنها ثابتة بقواطع القرآن وعداً من الرحمن، وكذلك الشفاعة المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة التى وعد بها الصادق المصدوق، وميزه الله تعالى بها على كل مخلوق، من مواعيد الشيطان الباطلة وأمانيه الماحلة. اللهم ارزقنا الشفاعة، واحشرنا فى زمرة السنة والجماعة.

(٤) قوله «بعد أن يصيروا حمما» فى الصحاح: الحمم: الرماد والفحم: الواحدة حممة، ثم ماأفاده من توقف المغفرة على التوبة وعدم الشفاعة فى الكبائر، وعدم خروج أهلها من النار بعد احتراقهم هو مذهب المعتزلة. وأهل السنة على خلاف ذلك، كما تقرر فى علم التوحيد. (ع)

رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَٰنُ كَفُوراً ﴿٦٧﴾

﴿يزجى﴾ يجرى ويسير. والضرّ: خوف الغرق ﴿ضلّ من تدعون إلا إياه﴾ ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلّ من تدعونه فى حوادثكم إلا إياه وحده، فإنكم لاتذكرون سواه، ولاتدعونه فى ذلك الوقت ولاتعقدون برحمته رجاءكم، ولاتخطرون ببالكم أنّ غيره يقدر على إغاثتكم، أولم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوين. ويجوز أن يراد: ضلّ من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكنّ الله وحده هو الذى ترجونه وحده [1] على الاستثناء المنقطع.

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴿٦٩﴾

﴿أفأمنتم﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم، فحملكم ذلك على الإعراض. فإن قلت: بم انتصب ﴿جانب البر﴾؟ قلت: بيخسف مفعولا به، كالأرض فى قوله (فخسفنا به وبداره الأرض). و (بكم) حال. والمعنى: أن يخسف جانب البر، أى يقلبه وأنتم عليه. فإن قلت. فما معنى ذكر الجانب؟ قلت: معناه أنّ الجوانب والجهات كلها فى قدرته سواء، وله فى كل جانب براً كان أو بحراً سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك؛ بل إن كان الغرق فى جانب البحر، ففى جانب البر ماهو مثله وهو الخسف؛ لأنه تغييب تحت التراب كما أنّ الغرق تغييب تحت الماء، فالبرّ والبحر عنده سيان يقدر فى البر على نحو مايقدر عليه فى البحر، فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله فى جميع الجوانب وحيث كان ﴿أو يرسل عليكم حاصباً﴾ وهى الريح التى تحصب أى ترمى بالحصباء، يعنى: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها، فيكون أشد عليكم من الغرق فى البحر ﴿وكيلا﴾ من يتوكل بصرف ذلك عنكم ﴿أم أمنتم﴾ أن يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا

(١) قوله «ولكن الله وحده هو الذى ترجونه وحده» كأنه تكرار، وأسقطه الخازن فى عبارته. (ع)

فتركبوا البحر الذى نجاكم منه فأعرضتم، فينتقم منكم بأن يرسل ﴿عليكم قاصفا﴾ وهى الريح التى لها قصيف وهو الصوت الشديد، كأنها تتقصف أى تتكسر. وقيل: التى لا تمر بشىء إلا قصفته ﴿فيغرقكم﴾ وقرئ بالتاء. أى الريح. وبالنون. وكذلك: نخسف، ونرسل. ونعيدكم. قرئت بالياء والنون. التبيع: المطالب، من قوله (فاتباع بالمعروف) أى مطالبة. قال الشماخ:

* كَمَا لَاذَ الْغَرِيمُ مِنَ التَّبِيعِ *[1]

يقال: فلان على فلان تبيع بحقه. أى مصيطر عليه مطالب له بحقه. والمعنى: أنا نفعل ما نفعل بهم، ثم لا تجد أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا. وهذا نحو قوله (ولا يخاف عقباها). ﴿بما كفرتم﴾ بكفرانكم النعمة، يريد: إعراضهم حين نجاهم.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾

قيل فى تكرمة ابن آدم: كرمه الله بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد. وقيل بتسليطهم على ما فى الأرض وتسخيره لهم. وقيل: كل شىء يأكل بفيه إلا ابن آدم. وعن الرشيد: أنه أحضر طعاما فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف، فقال له: جاء فى تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) جعلنا لهم أصابع يأكلون بها، فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ هو ما سوى الملائكة،[2] وحسب بنى آدم تفضيلا أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم

---

(١) يلوذ ثعالب الشرفين منها كما لاذ الغريم من التبيع
للشماخ، يصف عقابا تهرب منها ثعالب الشرفين، وهو اسم موضع. أوجهة الجنوب وجهة الشمال، كالمشرقين، كما لاذ: أى هرب والتجأ، الغريم: أى المدين، من التبيع: أى الدائن المطالب.

(٢) قال محمود: «المراد فضلناهم على ماسوى الملائكة ... الخ» قال أحمد: وقد بلغ إلى حد من السفه يوجب الحد، ولسنا لمساجلته إلا من حيث العلم، لا من حيث السفه. والقدر الذى تختص به هذه الآية أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر. ألا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم. والزمخشرى يختار ذلك فى قوله تعالى (فقليلا ما يؤمنون) وأشباهه كثير. وقد لمح الشاعر ذلك فى قوله

* قليل بها الأصوات إلا بغامها *

أى لا أصوات بها، ولنا أن نبقيه على ماهو عليه، ونقول: إن المخلوق قسمان: بنو آدم أحدهما وغيرهم من جميع المخلوقين القسم الآخر. ولا شك أن غيرهم أكثر منهم وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيراً، فمعنى قوله (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا) أى على غيرهم من جميع المخلوقين، وتلك الأغيار كثير بلا مراء، وذلك مرادف لقولك: وفضلناهم على جميع من عداهم ممن خلقنا، فظاهر الآية إذاً مع الأشعرية الذين سماهم مجبرة، وتشدق فى سبهم وشقشق العبارات فى ثلبهم، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. والله ولى التوفيق والتسديد.

ومنزلتهم عند الله منزلتهم . والعجب من المجبرة كيف عكسوا [١] فى كل شيء وكابروا ، حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التى هى تفضيل الإنسان على الملك ، وذلك بعد ماسمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم ، وعلموا أين أسكنهم ، وأنى قربهم ، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أممهم ، ثم جرهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالا وأخباراً منها : قالت الملائكة [٢] : ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك ، فأعطناه فى الآخرة . فقال : وعزتى وجلالى ، لاأجعل ذرّية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان [٣] . ورووا عن أبى هريرة أنه قال : لمؤمن [٤] أكرم على الله من الملائكة الذين عنده . ومن ارتكابهم أنهم فسروا (كثيراً) بمعنى « جميع » فى هذه الآية ، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم : وفضلناهم على جميع ممن خلقنا ، على أن معنى قولهم « على

(٤) قوله « والعجب من المجبرة كيف عكسوا » يعنى أهل السنة . وقوله « تفضيل الانسان » يعنون المؤمن . ويدل لمذهبهم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) وأما الذين كفروا فهم شر البرية ، ودعوى العكس من فرط التعصب للمعتزلة . (ع)

(١) قوله « قالت الملائكة ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا » صدره كما فى الخازن : لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة ، وقوله « خلقت بيدى » فى الخازن : ونفخت فيه من روحى . (ع)

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط من طريق محمد بن ماهان حدثنا طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبدالله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الملائكة قالت رب أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون : ونحن نسبح بحمدك لانأكل ولا نشرب ولا نلهو . فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة . قال : لاأجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له . كن فكان » قال : لم يروه عن صفوان إلا طلحة وأبو غسان تفرد به طلحة محمد بن ماهان . وعن أبى غسان حجاج الأعور أخرج طريق حجاج فى المعجم الكبير ورجاله ثقات . وله شاهد عند عبدالرزاق فى تفسيره عن معمر عن زيد بن أسلم قال قالت الملائكة فذكر نحوه موقوفا عليه . وقال الدارقطنى فى العلل : روى عبدالمجيد بن أبى داود عن معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر . فذكر نحوه قال : ورواه شريح بن يونس عن عبدالمجيد موقوفا . وهو أصح . وله شاهد آخر أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين والبيهق فى الأسماء والصفات من رواية عبدربه بن صالح عن عروة بن رويم أنه سمعه يحدث عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة . فقال تعالى لاأجعل من خلقت بيدى كمن قلت له : كن فكان » ومنها مارواه عن أبى هريرة رضى الله عنه أ » قال « لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده » البيهق فى الشعب من رواية حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة موقوفا . وأخرجه ابن ماجه من هذه الطريق موقوفا . وأبو المهزم متروك : وله شاهد أخرجه الطبرانى والبيهق فى الشعب من رواية عبيدالله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماشىء أكرم على الله يوم القيامة من بنى آدم . قيل : ولا الملائكة . قال : ولاالملائكة . الملائكة مجبورون كالشمس والقمر » قال البيهقى : تفرد به عبيدالله بن تمام يروى أحاديث معاوية وهو ضعيف .

(٣) قوله « قال لمؤمن أكرم على من الملائكة » فى الخازن : المؤمن . (ع)

جميع بمن خلقنا ، أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم ، ولكنهم لايشعرون . فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة فى عداوة الملأ الأعلى ، كأنّ جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط . فتلك السخيمة لاتنحل عن قلوبهم [1]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَـٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾

قرئ : يدعو ، بالياء والنون . ويدعى كل أناس ، على البناء للمفعول . وقرأ الحسن : يدعوا كل أناس ، على قلب الألف واواً فى لغة من يقول : افعوا . والظرف نصب بإضمار اذكر . ويجوز أن يقال : إنها علامة الجمع ، كما فى (وأسروا النجوى الذين ظلموا) والرفع مقدّر كما فى : يدعى ، ولم يؤت بالنون ، قلة مبالاة بها ، لأنها غير ضمير ، ليست إلا علامة ﴿ بإمامهم ﴾ بمن ائتموا به من نبىّ أو مقدّم فى الدين ، أو كتاب ، أو دين [2] ، فيقال : ياأتباع فلان ، ياأهل دين كذا وكتاب كذا . وقيل : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ، وياأصحاب كتاب الشرّ . وفى قراءة الحسن : بكتابهم . ومن بدع التفاسير : أن الإمام جمع أمّ ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن الحكمة فى الدعاء بالأمهات دون الاباء رعاية حق عيسى عليه السلام ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وأن لا يفتضح أولاد الزنا . وليت شعرى أيهما أبدع ؟ أصحة لفظه أم بهاء حكمته ؟ ﴿فمن أوتى﴾ من هؤلاء المدعوين ﴿ كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم﴾ قيل أولئك ، لأن من أوتى فى معنى الجمع . فإن قلت : لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم ؟ كأن أصحاب الشمال لايقرؤن كتابهم . قلت : بلى ، ولكن إذا اطلعوا على مافى كتابهم ، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته ، والاعتراف بمساويه ، أمام التنكيل به والانتقام منه ، من الحياء والخجل والانخزال ، وحبسة اللسان ، والتتعتع ، والعجز عن إقامة حروف الكلام ، والذهاب عن تسوية القول : فكأن قراءتهم كلا قراءة . وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك ، لاجرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها ، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر : (هاؤم

---

(١) قوله «فتلك السخيمة لاتنحل عن قلوبهم» فى الصحاح «السخيمة» الضغينة والموجدة فى النفس . (ع)

(٢) قال محمود : «بإمامهم معناه بمن ائتموا به من نبى أوكتاب أودين ... الخ» قال أحمد : ولقداستبدع بدعا لفظا ومعنى ، فان جمع الأم المعروف أمهات ، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلائق ليذكر بأمه ، فيستدعى أن خلق عيسى من غير أب غميزة فى منصبه ، وذلك عكس الحقيقة ، فان خلقه من غير أب كان آية له ، وشرفا فى حقه ، والله أعلم .

اقرؤا كتابيه). ﴿ولا يظلمون فتيلا﴾ ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء، كقوله (ولا يظلمون شيئاً)، (فلا يخاف ظلماً ولا هضما).

وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

معناه: ومن كان فى الدنيا أعمى، فهو فى الآخرة أعمى كذلك ﴿وأضل سبيلا﴾ من الأعمى: والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدى إلى طريق النجاة: أما فى الدنيا فلفقد النظر. وأما فى الآخرة، فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه، وقد جوزوا أن يكون الثانى بمعنى التفضيل [1]. ومن ثم قرأ أبو عمرو الأوّل ممالا، والثانى مفخما [2]، لأن أفعل التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه فى حكم الواقعة فى وسط الكلام [3]، كقولك: أعمالكم وأما الأوّل فلم يتعلق به شيء، فكانت ألفه واقعة فى الطرف معرضة للإمالة.

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

روى أنّ ثقيفا قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: لا ندخل فى أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب: لا نعشر: ولا نحشر، ولا نجبي [4] فى صلاتنا، وكل ربا لنا فهو لنا، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول، وأن تمنع من قصد وادينا وجّ فعضد شجره، فاذا سألتك العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرنى

(١) عاد كلامه. قال: «وقد جوزوا أن يكون الثانى بمعنى التفضيل ... الخ» قال أحمد: أى لأنه من عمى القلب لا من عمى البصر، فجاز أن ينبنى منه أفعل.

(٢) عاد كلامه. قال: «ومن ثم أمال أبو عمرو الاولى وفخم الثانية ... الخ» قال أحمد: يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الاولى، أى: فمن أوتى كتابه بيمينه فهو الذى يبصره ويقرؤه، ومن كان فى الدنيا أعمى غير مبصر فى نفسه ولا ناظر فى معاده، فهو فى الآخرة كذلك غير مبصر فى كتابه، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان فى الدنيا على اختلاف التأويلين، والله أعلم.

(٣) قوله «الواقعة فى وسط الكلام» لعله الكلمة، كعبارة النسفى. (ع)

(٤) قوله «لا نعشر ولا نحشر ولا نجبى» فى الصحاح «التجبية» أن يقوم الانسان قيام الراكع. وقال أبو عبيدة: تكون فى حالين، أحدهما: أن يضع يديه على ركبتيه، والآخر ينكب على وجهه باركا وهو السجود. وفيه «وجّ» بلد الطائف؛ وفيه أيضا: عضدت الشجر، أى قطعته. (ع)

به، وجاؤا بكتابهم فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف : لا يعشرون ولا يحشرون ، فقالوا : ولا يجبون . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قالوا للكاتب : اكتب : ولا يجبون ، والكاتب ينظر إلى رسول الله ، فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسل سيفه وقال : أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر الله قلوبكم نارا ، فقالوا : لسنا نكلم إياك ، إنما نكلم محمدا [1] . فنزلت . وروى أن قريشا قالوا له : اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة ، حتى نؤمن بك . فنزلت ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ إن مخففة من الثقيلة، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية . والمعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين ﴿عن الذى أوحينا إليك﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا ﴿لتفترى علينا﴾ لتقول علينا ما لم نقل ، يعنى ما أرادوه عليه من تبديل الوعد وعيدا والوعيد وعدا .وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزله عليه ﴿وإذا لاتخذوك﴾ أى ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك ﴿خليلا﴾ ولكنت لهم وليا وخرجت من ولايتى ﴿ولولا أن ثبتناك﴾ ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا ﴿لقد كدت تركن إليهم﴾ لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم ، وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت ، وفى ذلك لطف للمؤمنين ﴿إذا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أى لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين . فإن قلت : كيف حقيقة هذا الكلام ؟ قلت : أصله لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات ، لأن العذاب عذابان : عذاب فى الممات وهو عذاب القبر ، وعذاب فى حياة الآخرة وهو عذاب النار . والضعف يوصف به ، نحو قوله (فآتهم عذابا ضعفا من النار) بمعنى مضاعفا . فكان أصل الكلام : لأذقناك عذابا ضعفا فى الحياة ، وعذابا ضعفا فى الممات [2] . ثم حذف الموصوف

---

(١) لم أجده . وذكره الثعلبى عن ابن عباس من غير سند .

(٢) قال محمود : «المراد ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ... الخ» قال أحمد : أما تقليل الكيدودة فالذى ينبغى أن يحمل عليه كونه الواقع فى علم الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فعلم تعالى أن الركون الذى كاد يحصل منه عليه السلام وإن كان ما حصل أمر قليل وخطب يسير . فذلك إخبار من الله تعالى عن الواقع فى علمه تقديرا ، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتنبيه . فان ذلك لا يكون فى الاخبار . ألا ترى أنه لو كان الواقع كيدودة ركون كثير . لكان تقليله خافا فى الخبر ، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله على ما ورد : حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأما نقل الزمخشرى عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبائح إلى الله عز وجل ، فلقد استعظموا عظيما حق على كل مسلم أن يستعظمه ، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفا ذاتيا للقبيح ، فلزمهم على ذلك أن كل فعل لستقبح من العبد استقبح من الله تعالى ، وهم غالطون فى ذلك ، فمعنى كون الفعل قبيحا أن الله تعالى نهى عنه عبده ، وإن كان لله تعالى أن يفعله ، وهو حسن بالنسبة إليه (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسى الملك ، ونهاه عن ذلك ، ولا يستقبح =

وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف . ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل : ضعف الحياة وضعف الممات . كما لو قيل : لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات . ويجوز أن يراد بضعف الحياة : عذاب الحياة الدنيا . وبضعف الممات : ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار . والمعنى : لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا ، وما نؤخره لما بعد الموت . وفي ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين ـ دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته ، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد [١] رضوان الله عليهم نسبة المجبرة القبائح إلى الله ـ تعالى عن ذلك علواً كبيرا ـ وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها ، فهي جديرة بالتدبر ، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت كان يقول : « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين » [٢]

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

﴿وإن كادوا﴾ وإن كاد أهل مكة ﴿ليستفزونك﴾ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ من أرض مكة ﴿وإذاً لا يلبثون﴾ لا يبقون بعد إخراجك ﴿إلا﴾ زمانا ﴿قليلا﴾ فإن الله مهلكهم وكان كما قال ، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل . وقيل : معناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم . ولم يخرجوه ، بل هاجر بأمر ربه . وقيل : من أرض العرب . وقيل : من أرض المدينة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم ، فاجتمعوا إليه وقالوا : يا أبا القاسم ، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مهاجر إبراهيم ، فلو خرجت إلى الشام لآمنا بك واتبعناك ، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم ، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم ، فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذي الحليفة ، حتى يجتمع إليه

ـــــــ

= ذلك من نفسه ، بل هو منه حسن جميل . ولقد كان لمشايخه شغل باستعظام مالزمهم من الاشراك ، عن استعظام غيره مما هو توحيد محض وإيمان صرف ، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم فرأوه حسنا ، والله الموفق .

(١) قوله « ومن ثم استعظم مشايخ العدل » يعني المعتزلة . ويريد بالمجبرة : أهل السنة . حيث قالوا : إن الخير والشر كلاهما من عند الله بخلقه وإرادته ، ولو كان من فعل العبد ظاهراً . (ع)

(٢) لم أجده ، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلا

أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس فى دين[١] الله ، فنزلت ، فرجع . وقرئ : لا يلبثون . وفى قراءة أبىّ : لا يلبثوا على إعمال « إذا » . فإن قلت : ما وجه القراءتين ؟ قلت : أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل . وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد ، والفعل فى خبر كاد واقع موقع الاسم . وأما قراءة أبىّ ففيها الجملة برأسها التى هى إذاً لا يلبثوا ، عطف على جملة قوله (وإن كادوا ليستفزونك) . وقرئ : خلافك[٢] . قال :

عَفَتِ الدِّيَارُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا ... بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرَا[٣]

أى بعدهم ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ، فسنة الله أن يهلكهم ، ونصبت نصب المصدر المؤكد ، أى : سن الله ذلك سنة .

أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

دلكت الشمس : غربت . وقيل : زالت . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم[٤] : أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس ، فصلى بى الظهر . واشتقاقه من الدلك ، لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها ، فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس ، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر . والغسق : الظلمة ، وهو وقت صلاة العشاء ﴿وقرآن الفجر﴾ صلاة الفجر ، سميت قرآنا وهو القراءة ، لأنها ركن ، كما سميت ركوعا وسجودا

---

(١) لم أجده . وذكره السهيلى فى الروض عن عبد المجيد بن بهرام بن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم « أن اليهود أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقا أنك نبى فالحق بالشام ـ فذكر نحوه ، لكن قال : فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام . فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى ـ فذكره ـ وزاد : وأمره بالرجوع وقال : فيها محياك ومماتك ومنها تبعث » .

(٢) قوله « وقرئ خلافك » كانت القراءة التى سبق تفسيرها : خلفك . (ع)

(٣) عفت : درست وهلكت ، خلافهم : أى بعدهم . والشواطب : النساء يشققن شطب النخل : أى سعفه الأخضر ، يعملنه حصيرا : يصف ديارهم بعدهم بدروسها وكثرة قامتها لعدم كنسها

(٤) أخرجه البيهقى من طريق أيوب بن عتبة عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عروة عن ابن مسعود قال « جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم حين دلكت الشمس ـ يعنى حين زالت ـ فقال : قم فصل : فقام فصلى الظهر » قال إسحاق فى مسنده : حدثنا بشر بن عمر حدثنا سليمان بن بلال حدثنا يحيى بن سعيد حدثنى أبو بكر بن حزم عن ابن مسعود قال جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : قم فصل . وذلك لدلوك الشمس حين مالت . فقام فصلى الظهر أربعا ومن هذا الوجه أخرجه ابن مردويه . وهذا منقطع .

وقنوتا . وهى حجة على ابن علية والأصم فى زعمهما أن القراءة ليست بركن ﴿مشهودا﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار، ينزل هؤلاء، ويصعد هؤلاء، فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة . أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة . ويجوز أن يكون (وقرآن الفجر) حثاً على طول القراءة فى صلاة الفجر، لكونها مكثوراً عليها، ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب؛ ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة ﴿ومن الليل﴾ وعليك بعض الليل ﴿فتهجد به﴾ والتهجد ترك الهجود للصلاة، ونحوه التأثم والتحرج . ويقال أيضاً فى النوم : تهجد ﴿نافلة لك﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس . وضع نافلة موضع تهجداً؛ لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك، لأنه تطوع لهم ﴿مقاما محمودا﴾ نصب على الظرف، أى : عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاما محموداً . أو ضمن يبعثك معنى يقيمك . ويجوز أن يكون حالا بمعنى أن يبعثك ذا مقام محمود. ومعنى المقام المحمود : المقام الذى يحمده القائم فيه، وكل من رآه وعرفه وهو مطلق فى كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات . وقيل : المراد الشفاعة، وهى نوع واحد مما يتناوله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : مقام يحمدك فيه الأولون والآخرون، وتشرف فيه على جميع الخلائق : تسأل فتعطى، وتشفع فتشفع، ليس أحد إلا تحت لوائك . وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى [1] . وعن حذيفة يجمع الناس فى صعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأوّل مدعوّ محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : « لبيك وسعديك والشرّ ليس إليك، والمهدىّ من هديت، وعبدك بين يديك وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت » قال : فهذا قوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) [2].

---

(١) أخرجه أحمد وابن أبى شيبة والترمذى من طريق داود بن يزيد الأودى عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وسئل عنه فقال : هى الشفاعة، وفى الباب عن أنس عند البخارى فى التوحيد وعن ابن عمر عنده فى الزكاة . وعن ابن مسعود عند النسائى والحاكم وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولا . وعن كعب بن مالك عند الحاكم . وأصله عند مسلم وعن جابر عند أحمد والحاكم واختلف فى وصله وإرساله على الزهرى . عن على بن الحسين . وعن أبى سعيد عند الترمذى وابن ماجه وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه مطولا . وعن سعد بن أبى وقاص عند ابن مردويه من رواية محمد بن الحسن عن أبى حنيفة عن عبد العزيز بن ربيع عن مصعب بن سعد عن أبيه قال «سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود فقال : هو الشفاعة»

(٢) أخرجه النسائى والحاكم وابن أبى شيبة والطبرى وأبو يعلى والبزار وأبو نعيم فى ترجمة حذيفة فى الحلية كلهم من طريق شعبة وإسرائيل كلاهما عن أبى إسحاق سمعت عتبة بن زفر يقول سمعت حذيفة يقول «يجمع الناس» فذكره .

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾

قرئ: مدخل ومخرج بالضم والفتح: بمعنى المصدر. ومعنى الفتح: أدخلني فأدخل مدخل صدق، أي: أدخلني القبر مدخل صدق: إدخالا مرضياً على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجا مرضياً، ملقى بالكرامة، آمنا من السخط، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث. وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة. وقيل: إدخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح، وإخراجه منها آمناً من المشركين. وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالما. وقيل إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر ـ وهو النبوة ـ وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط. وقيل: الطاعة. وقيل: هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان ﴿سلطاناً﴾ حجة تنصرني على من خالفني. أو ملكا وعزا قويا ناصراً للإسلام على الكفر مظهراً له عليه، فأجيبت دعوته بقوله (والله يعصمك من الناس). (فإن حزب الله هم الغالبون)، (ليظهره على الدين كله)، (ليستخلفهم في الأرض) ووعده لينزعن ملك فارس والروم، فيجعله له. وعنه صلى الله عليه وسلم: أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال «انطلق فقد استعملتك على أهل الله» فكان شديدا على المريب، ليناً على المؤمن وقال: لا والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق. فقال أهل مكة: يارسول الله، لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً، فقال صلى الله عليه وسلم: «إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة، فأخذ بحلقة الباب [1] فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها. فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير».

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها. فشكا البيت إلى الله عز وجل فقال: أي رب، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك، فأوحى الله إلى البيت: إني سأحدث لك

(١) أخرجه الثعلبي باسناده عن الكلبي. قال (سلطانا نصيرا) عتاب بن أسيد. استعمله رسول الله صلى عليه وسلم على أهل مكة، فذكره سواء. وأخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن خليفة الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس. دون الحديث الذي في آخره.

نوبة جديدة . فأملأك خدوداً سجدا . يدفون إليك دفيف النسور [(١)] ، يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها . لهم عجيج حولك بالتلبية . ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ مخصرتك ثم ألقها ، فجعل يأتى صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة فى عينه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً ، وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال : ياعلى ، ارم به ، فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون : مارأينا رجلا أسحر من محمد [(٢)] صلى الله عليه وسلم . وشكاية البيت والوحى إليه : تمثيل وتخييل ﴿ وزهق الباطل ﴾ ذهب وهلك ، من قولهم : زهقت نفسه ، إذا خرجت . والحق : الإسلام . والباطل : الشرك ﴿ كان زهوقا ﴾ كان مضمحلا غير ثابت فى كل وقت .

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

﴿ وننزل ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد ﴿ من القرآن ﴾ من للتبيين ، كقوله : من الأوثان . أو للتبعيض ، أى : كل شىء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين ، يزدادون به إيمانا ، ويستصلحون به دينهم . فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله [(٣)] » ، ولا يزداد به الكافرون ﴿ إلا خساراً ﴾ أى نقصاناً لتكذيبهم به وكفرهم ، كقوله تعالى : (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ بالصحة والسعة ﴿ أعرض ﴾ عن ذكر الله ، كأنه مستغن عنه

---

(١) قوله «يدفون إليك دفيف النسور» فى الصحاح «الدفيف» الدبيب . وهو السير اللين ، وفيه «العج» رفع الصوت ، وقد عج يعج عجيجا . (ع)

(٢) قال : لم أجده . وروى النسائى والحاكم من طريق ابن أبى مريم عن على . قال «انطلقت مع النبى صلى الله عليه وسلم حتى أتينا الكعبة فقال لى اجلس فجلست . وصعد على منكبي فنهضت به . فذكر الحديث» وليس فيه أن ذلك كان فى فتح مكة . ولا تلاوة الآية . وروى النسائى (*)

(٣) أخرجه الثعلبي من طريق أحمد بن الحرث الغسانى . حدثنا ساكنة بنت الجعد ، قالت : سمعت رجاء الغنوى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكره .

(*) كذا بالأصلين اه مصححه

مستبد بنفسه ﴿ونأى بجانبه﴾ تأكيد الإعراض ؛ لأنّ الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه . والنأي بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره ، وأراد الاستكبار ؛ لأنّ ذلك من عادة المستكبرين ﴿وإذا مسه الشرّ﴾ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل ﴿كان يؤساً﴾ شديد اليأس من روح الله (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) . وقرئ : وناء بجانبه ، بتقديم اللام على العين ، كقولهم « راء » فى « رأى » ويجوز أن يكون من « ناء » بمعنى « نهض » ﴿قل كل﴾ أحد ﴿يعمل على شاكلته﴾ أى على مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة ، من قولهم « طريق ذو شواكل » وهى الطرق التى تتشعب منه ، والدليل عليه قوله ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا﴾ أى أسدّ مذهباً وطريقة .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

الأكثر على أنه الروح الذى فى الحيوان . سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله ، أى مما استأثر بعلمه . وعن ابن أبى بريدة . لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح [١] . وقيل : هو خلق عظيم روحانى أعظم من الملك . وقيل : جبريل عليه السلام . وقيل : القرآن . و ﴿من أمر ربى﴾ أى من وحيه وكلامه ، ليس من كلام البشر ، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ؛ فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبى ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبىّ ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة ، فندموا على سؤالهم [٢] ﴿وما أوتيتم﴾ الخطاب عام . وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا : نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه ؟ فقال : بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلا ، فقالوا : ما أعجب شأنك : ساعة تقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وساعة تقول هذا [٣] . فنزلت : (ولو أنّ ما فى الأرض من شجرة

---

(١) ذكره الواحدى فى الوسيط عن عبدالله بن بريدة بهذا فى حديث لم يسبق إسناده

(٢) لم أجده هكذا . وذكره ابن هشام فى السيرة عن زياد عن أبى إسحاق . وكذا أخرجه البيهقى فى الدلائل من طريقه وأن أهل مكة بعثوا رهطا منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا لهم سلوه عن ثلاث . فإذا عرفها فهو نبى : سلوه عن أقوام ذهبوا فى الأرض فلم يدر ما صنعوا ... القصة بطولها .

(٣) ذكره الثعلبى فى تفسير لقمان بغير سند ولا راو . وروى ابن مردويه من طريق على بن عاصم عن داود ابن أبى هند عن عكرمة . لا أعلمه إلا عن ابن عباس . قال ولما نزلت هذه الآية (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قالت اليهود : أوتينا علما كثيرا . أوتينا التوراة ومن يؤت التوراة فقد أوتى خيراً كثيرا . فأنزل الله تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر) .

أقلام) وليس ماقالوه بلازم ؛ لأن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة ، فيوصف الشيء بالقلة مضافا إلى مافوقه ، وبالكثرة مضافا إلى ماتحته . فالحكمة التى أوتيها العبد خير كثير فى نفسها ؛ إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهى قليلة . وقيل : هو خطاب لليهود خاصة ؛ لأنهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة ، وقد تلوت (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) فقيل لهم : إن علم التوراة قليل فى جنب علم الله.

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

﴿لنذهبن﴾ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط . واللام الداخلة على إن موطئة للقسم . والمعنى : إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً وبقيت كما كنت لاتدرى ما الكتاب ﴿ثم لاتجد لك﴾ بعد الذهاب ﴿به﴾ من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مستوراً ﴿إلا رحمة من ربك﴾ إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك ، كأن رحمته تتوكل عليه بالرد ، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى : ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به ، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه ، فعلى كل ذى علم أن لايغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما ، وهما منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه فى صدره ، ومنته عليه فى بقاء المحفوظ . وعن ابن مسعود : إن أول ماتفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ماتفقدون الصلاة ، وليصلين قوم ولا دين لهم ، وإن هذا القرآن تصبحون يوما ومافيكم منه شيء . فقال رجل : كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم ؟ فقال : يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع مافى القلوب [1] .

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

﴿لايأتون﴾ جواب قسم محذوف ، ولولا اللام الموطئة ، لجاز أن يكون جواباً للشرط ، كقوله :

(١) أخرجه عبدالرزاق ومن طريقه الطبرانى ، وأخرجه ابن أبى شيبة وابن مردويه كلهم من طريق شداد بن معقل عن عبدالله بن مسعود وزاد فى آخره ثم قرأ عبدالله (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) .

* يَقُولُ لَاغَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ * [١]

لأن الشرط وقع ماضيا ، أى : لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى بلاغته وحسن نظمه وتأليفه ، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله . والعجب من النوابت [٢] ومن زعمهم أن القرآن قديم [٣] مع اعترافهم بأنه معجز [٤] ، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة ، فيقال : الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه . وأما المحال الذى لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثانى القديم ، فلا يقال للفاعل : قد عجز عنه ، ولا هو معجز . ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز ، لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال ، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال ، فإن رأس مالهم [٥] المكابرة وقلب الحقائق .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

﴿ ولقد صرفنا ﴾ رددنا وكررنا ﴿ من كل مثل ﴾ من كل معنى هو كالمثل فى غرابته وحسنه . والكفور : الجحود . فإن قلت : كيف جاز ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ ولم يجز ضربت إلا زيدا ؟ قلت : لأن أبى متأول بالنفى ، كأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفورا .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٥٣٧ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله «النوابت» فى الصحاح «النوابت من الأحداث» الأغمار . وفيه : رجل غمر : لم يجرب . (ع)

(٣) قال محمود : «والعجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز ... الخ» قال أحمد : ومما يدلك على حيد المصنف عن سنن المنصف أنه تدلس على الضعفة فى مثل هذه المسألة التى طبقت طبق الأرض ظهوراً وشيوعا ، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم ، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات البارى تعالى ، يطلق عليها قرآن ، ويطلق أيضا على أدلتها وهى هذه الكلمات الفصيحة والآى الكريمة قرآن ، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول ، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين ، أحدهما : أنه إطلاق موهم . والثانى : أن السلف الصالح كفوا عنه فاقتفوا آثارهم واقتبسوا أنوارهم . وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده ، فلا ربط بين الاعتقاد والاطلاق ، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بإلزامه ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

(٤) قوله «ومن زعمهم أن القرآن قديم» يريد بهم أهل السنة حيث يقولون : إن القرآن قديم ، لكن لا بمعنى اللفظ الذى يسمعه بعضنا من بعض ، فان هذا حادث بل بمعنى كلام الله الذى هو صفة له قائمة بذاته تعالى ، فهذا هو القديم ، كعلمه تعالى وإرادته . (ع)

(٥) قوله «فان رأس مالهم المكابرة» ليس كما قال غفر الله له ، بل رأس مالهم التمسك بالكتاب والسنة ، وتحرى الحقائق . (ع)

لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَـٰرَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً ﴿٩٣﴾

لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينـات ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات: فعل المبهوت المحجوج المتعثر فى أذيال الحيرة، فقالوا: لن نؤمن لك حتى ... وحتى ﴿تفجر﴾ تفتح. وقرئ: تفجر، بالتخفيف ﴿من الأرض﴾ يعنون أرض مكة ﴿ينبوعا﴾ عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع: «يفعول» من نبع الماء، كيعبوب من عب الماء ﴿كما زعمت﴾ يعنون قول الله تعالى (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء). قرئ: كسفا، بسكون السين جمع كسفة، كسدرة وسدر. وبفتحه ﴿قبيلا﴾ كفيلا بما تقول شاهداً بصحته. والمعنى: أو تأتى بالله قبيلا، وبالملائكة قبيلا، كقوله:

... ... كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيًّا ... ...[1]

* * *

* فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ *[1]

أو مقابلا، كالعشير بمعنى المعاشر، ونحوه (لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) أو جماعة حالا من الملائكة ﴿من زخرف﴾ من ذهب ﴿فى السماء﴾ فى معارج السماء، فحذف المضاف. يقال: رقى فى السلم وفى الدرجة ﴿ولن نؤمن لرقيك﴾ ولن نؤمن لأجل رقيك ﴿حتى تنزل

(١) رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريا ومن جول الطوى رمانى

للفرزدق. يقول: قذفنى بأمر أنا برىء منه ووالدى، فكان: مجردة عن المضى، وحذف خبر الوالد للدلالة عليه، والعطف من عطف الجمل. وبريا: فى نية التقديم، فلم يلزم تقدم شىء من المعطوف عليه على المعطوف: هذا رأى الجمهور. وأجاز بعضهم أن «والدى» عطف على اسم كان، فيكون «بريا» خبره، وخبر اسمها محذوفا أو بالعكس، والعطف من عطف المفردات. ويجوز أن «بريا» خبر عنهما؛ لأن فعيلا يقال للواحد والمتعدد، لموازنته المصدر: كصهيل وضجيج ونحيب ونسيب، وإن كان استعماله كذلك بمعنى فاعل قليلا. وجول الطوى ـ بالضم ـ: جانب البئر المطوى. والمعنى: أنه رمانى بأمر يرجع عليه هو، كأنه رمانى وهو فى أسفل البئر بحجر فيرجع عليه، كناية عن مكافأته بأمر أعظم مما رماه به. ويجوز أن الأمر الذى رماه به متصف به الرامى، وهو أنسب بالتشبيه. ويروى ومن أجل الطوى. فليحرر.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٦٢٩ فراجعه إن شئت اهـ مصححه

علينا كتابا﴾ من السماء فيه تصديقك . عن ابن عباس رضى الله عنهما : قال عبد الله بن أبى أمية : لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلما . ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك منشور ، معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج ، ولو جاءتهم كل آية لقالوا : هذا سحر . كما قال عز وجل (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس) ، (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون) وحين أنكروا الآية الباقية التى هى القرآن وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه - بل هى أعظم - لم يكن إلى تبصرتهم سبيل ﴿قل سبحان ربى﴾ وقرئ : قال سبحان ربى ، أى قال الرسول . و(سبحان ربى) تعجب من اقتراحاتهم عليه ﴿هل كنت إلا﴾ رسولا كسائر الرسل ﴿بشرا﴾ مثلهم ، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، فليس أمر الآيات إلىّ ، إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها علىّ .

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾

﴿أنْ﴾ الأولى نصب مفعول ثان لمنع . والثانية رفع فاعل له . و﴿الهدى﴾ الوحى ، أى : وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا شبهة تلجلجت فى صدورهم ، وهى إنكارهم أن يرسل الله البشر . والهمزة فى ﴿أبعث الله﴾ للإنكار ، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله ، لأن قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحى إلا إلى أمثاله ، أو إلى الأنبياء ، ثم قرر ذلك بأنه ﴿لو كان فى الأرض ملائكة يمشون﴾ على أقدامهم كما يمشى الإنس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء[1] فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿مطمئنين﴾ ساكنين فى الأرض قارين ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المراشد . فأما الإنس فما هم بهذه المثابة ، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة ، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم . فإن قلت : هل يجوز أن يكون بشرا وملكا ، منصوبين على الحال من رسولا ؟ قلت : وجه حسن ، والمعنى له أجوب .

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

(١) قال محمود : «معناه لو كانوا يمشون مشى الانس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء ... الخ» قال أحمد : وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدر ، وهو قول القائل : إن مجرد وجود الملائكة فى الأرض يناسب إرسال الملك إليهم ، فما فائدة هذه الزيادة ؟ فيكون جوابه ما تقدم ، والله الموفق .

﴿ شهيداً بيني وبينكم ﴾ على أني بلغت ماأرسلت به إليكم ، وأنكم كذبتم وعاندتم ﴿ إنه كان بعباده ﴾ المنذرين والمنذرين ﴿ خبيرا ﴾ عالما بأحوالهم ، فهو مجازيهم . وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفرة . وشهيداً : تمييز أو حال .

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

﴿ ومن يهد الله ﴾ ومن يوفقه ويلطف به ﴿ فهو المهتدى ﴾ لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه ﴿ ومن يضلل ﴾ ومن يخذل ﴿ فلن تجد لهم أولياء ﴾ أنصارا . ﴿ على وجوههم ﴾ كقوله : (يوم يسحبون فى النار على وجوههم) وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يمشون على وجوههم قال : « إن الذى أمشاهم على أقدامهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم[1] » ﴿ عميا وبكما وصما ﴾ كما كانوا فى الدنيا ، لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامون عن استماعه . فهم فى الآخرة كذلك : لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم[2] ولا ينطقون بما يقبل منهم . ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى . ويجوز أن يحشروا مؤفى الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب ، فقد أخبر عنهم فى موضع آخر أنهم يقرؤن ويتكلمون ﴿ كلما خبت ﴾ كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها ، بدلوا غيرها ، فرجعت ملتهبة مستعرة . كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها ، لا يزالون على الإفناء والإعادة ، ليزيد ذلك فى تحسرهم على تكذيبهم البعث ؛ ولأنه أدخل فى الانتقام من الجاحد ، وقد دل على ذلك بقوله ﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ إلى قوله ﴿ أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ

(١) أخرجه الترمذى وأحمد وإسحاق والبزار من حديث أبى هريرة بهذا فى حديث . وفيه على بن مرثد وهو ضعيف . قال البزار لانعلمه من حديث أبى هريرة إلا بهذا الاسناد . ورواه ابن مردويه من رواية أبى داود نفيع عن أنس مثله . وأصله فى الصحيحين عن أنس أن رجلا قال : يارسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال : « أليس الذى أمشاه على رجليه فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » ؟ .

(٢) قوله « ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم » الذى فى الصحاح : لذذت الشىء ـ بالكسر ـ : وجدته لذيذا . (ع)

مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

فإن قلت : علام عطف قوله (وجعل لهم أجلا) ؟ قلت : على قوله ﴿ أو لم يروا ﴾ لأن المعنى قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس ، لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهن كما قال : أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴿ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ﴾ وهو الموت أو القيامة ، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحودا .

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

(لو) حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء ، فلا بد من فعل بعدها فى ﴿ لو أنتم تملكون ﴾ وتقديره لو تملكون تملكون ، فأضمر تملك إضمارا على شريطة التفسير ، وأبدل من الضمير المتصل الذى هو الواو ضمير منفصل ، وهو أنتم ، لسقوط ما يتصل به من اللفظ ، فأنتم : فاعل الفعل المضمر . وتملكون : تفسيره ! وهذا هو الوجه الذى يقتضيه علم الإعراب . فأمّا ما يقتضيه علم البيان ، فهو : أنّ أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص ؛ وأنّ الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ، ونحوه قول حاتم : * لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي *

وقول المتلمس : * وَلَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي *[1]

وذلك لأنّ الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر ، برز الكلام فى صورة المبتدإ والخبر . ورحمة الله : رزقه وسائر نعمه على خلقه ، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التى لا يبلغها الوهم . وقيل : هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها ، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها ﴿ قتورا ﴾ ضيقا بخيلا . فإن قلت : هل يقدر (لأمسكتم) مفعول ؟ قلت : لا ، لأن معناه : لبخلتم ، من قولك للبخيل : ممسك .

---

(١) ولو غير إخوانى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وهل كنت إلا مثل قاطع كفه بكف له أخرى عليه تقدما

للمتلمس خال طرفة بن العبد ، و«لو» من حروف الشرط ، فمتى كان فى حيزها فعل فهى أحق به ، فغير إخوانى فاعل لمحذوف يفسره المذكور ، أى : ولو أراد غير إخوانى . ويروى : أخوالى ، نقيصتى : أى ظلمى ، لوسمتهم بالذل وسما ظاهراً ، كأنه فوق الأنوف ، وخصها لأنها لا تخفى . والميسم : آلة الوسم بالنار ، والمراد أثره وهو السمة . وهل : استفهام إنكارى ، أى : لو كافأت إخوانى لأكون إلا مثل من قطع كفه بكفه الأخرى ، والكف يذكر ويؤنث ؛ فلذلك وصفه بأنه تقدم على الكف الآخر واعتدى عليه ووصفه بأخرى . والمقابلة بين الكفين تؤيد رواية إخوانى بالنون .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْأَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١)

عن ابن عباس رضى الله عنهما : هى العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والحجر ، والبحر . والطور الذى نتقه على بنى إسرائيل . وعن الحسن : الطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات : مكان الحجر ، والبحر ، والطور . وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل محمد بن كعب فذكر اللسان والطمس [١] . فقال له عمر : كيف يكون الفقيه إلا هكذا ، أخرج ياغلام ذلك الجراب . فأخرجه فنفضه ، فإذا بيض مكسور بنصفين ، وجوز مكسور ، وفوم [٢] وحمص وعدس ، كلها حجارة . وعن صفوان بن عسال أنّ بعض اليهود سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : أوحى الله إلى موسى : أن قل لبنى إسرائيل : لاتشركوا بالله شيئا ، ولاتسرقوا ، ولا تزنوا ، ولاتقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، ولاتسحروا ، ولاتأكلوا الربا ، ولاتمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولاتقذفوا محصنة . ولا تفرّوا من الزحف ، وأنتم يا يهود خاصة لاتعدوا فى السبت [٣] ﴿فاسأل بنى إسرائيل﴾ فقلنا له : سل بنى إسرائيل ، أى : سلهم من فرعون [٤] وقل له : أرسل معى بنى إسرائيل . أو سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم . أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك . وتدلّ عليه قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فسال بنى إسرائيل ، على لفظ الماضى بغير همز ، وهى لغة قريش . وقيل : فسل يارسول الله المؤمنين من بنى إسرائيل ، وهم عبدالله بن سلام وأصحابه عن الآيات ليزدادوا يقيناً وطمأنينة قلب ؛ لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت ، كقول إبراهيم (ولكن ليطمئنّ قلبى) . فإن قلت : بم تعلق ﴿إذ جاءهم﴾ ؟ قلت : أمّا على الوجه الأول فبالقول المحذوف ، أى فقلنا لهم سلهم حين جاءهم ، أو بسأل فى القراءة الثانية . وأمّا على الأخير فبآتينا . أو بإضمار

(١) قوله «فذكر اللسان والطمس» لعله العقدة التى كانت بلسانه لحلها كما عده الخازن . وأما الطمس : فهو إجابة دعائه فى قوله (ربنا اطمس على أموالهم) ويشير إلى ذلك ذكر مافى الجواب . (ع)

(٢) قوله «وفوم» فى الصحاح «الفوم» الثوم . ويقال له : الحنطة . (ع)

(٣) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم . وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبرانى : كلهم من رواية عبدالله بن سلام عن صفوان بن عسال أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبى نسأله : فقال لاتقل له نبى فإن سمعك صارت له أربعة أعين . فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فسألاه . فذكر الحديث . ولم يقل أحدمنهم «أوحى إلى موسى أن قل لبنى إسرائيل» والباقى سواء . عبدالله بن سلام كبر فساء حفظه وكان المسؤل عنه العشر كلمات ، لأن عددها عشرة لاالتسع آيات . لأن العشر وصايا كهذه ، والتسع حجج على فرعون وقومه

(٤) قوله «سلهم من فرعون» يعنى اطلبهم منه . (ع)

اذكر، أو يخبروك. ومعنى (إذ جاءهم) إذ جاء آباءهم ﴿مسحوراً﴾ سحرت فخولط عقلك.

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَاأَنْزَلَ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْـدِهِ لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

﴿لقد علمت﴾ يافرعون ﴿ما أنزل هؤلاء﴾ الآيات إلا الله عز وجل ﴿بصائر﴾ بينات مكشوفات، ولكنك معاند مكابر: ونحوه: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) وقرئ (علمت) بالضم، على معنى: إنى لست بمسحور كما وصفتني، بل أنا عالم بصحة الأمر. وأنّ هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض. ثم قارع ظنه بظنه، كأنه قال: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك ﴿مثبوراً﴾ هالكا، وظني أصح من ظنك؛ لأن له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها. وأما ظنك فكذب بحت؛ لأن قولك مع علمك بصحة أمرى، إنى لأظنك مسحوراً قول كذاب. وقال الفراء: (مثبوراً) مصروفاً عن الخير مطبوعا على قلبك، من قولهم: ماثبرك عن هذا؟ أى: مامنعك وصرفك؟ وقرأ أبيّ بن كعب: وإن إخالك يافرعون لمثبوراً. على: إن المخففة واللام الفارقة ﴿فأراد﴾ فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبطه ﴿اسكنوا الأرض﴾ التى أراد فرعون أن يستفزكم منها ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ يعنى قيام الساعة ﴿جئنا بكم لفيفاً﴾ جمعاً مختلطين إياكم وإياهم، ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم: واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير. أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين ﴿وما أرسلناك﴾ إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء، من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾

﴿وقرآنا﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿فرقناه﴾ وقرأه أبىّ : فرّقناه ، بالتشديد ، أى : جعلنا نزوله مفرّقا منجما . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قرأ مشدّداً وقال : لم ينزل فى يومين أو ثلاثة ، بل كان بين أوّله وآخره عشرون سنة ، يعنى : أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب ﴿على مكث﴾ بالفتح والضم : على مهل وتؤدة وتثبت ﴿ونزلناه تنزيلا﴾ على حسب الحوادث

قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والإزدراء بشأنهم ، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه ، وأنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل ـ وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع ـ قد آمنوا به وصدّقوه ، وثبت عندهم أنه النبي العربىّ الموعود فى كتبهم ، فإذا تلى عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيما لأمره ولإنجازه ما وعد فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد فى قوله ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولا ... ... ويزيدهم خشوعا﴾ أى يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين . فإن قلت : (إن الذين أوتوا العلم من قبله) تعليل لماذا ؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلا لقوله ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ وأن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتطييب نفسه ، كأنه قيل : تسلّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء . وعلى الأوّل : إن لم تؤمنوا به لقد آمن [1] به من هو خير منكم . فإن قلت : مامعنى الخرور للذقن ؟ قلت : السقوط على الوجه ، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين ، لأنّ الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن . فإن قلت : حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام فى خرّ لذقنه ولوجهه ؟ قال :

* فَخَرَّ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ * [2]

---

(١) قوله «لقد آمن» لعله «فقد» . (ع)

(٢) فيوم الكلاب قد أزالت رماحنا ... شرحبيل إذ آلى آلية مقسم
لينتزعن أرماحنا فأزاله ... أبو حنش عن ظهر شنقاء صلدم
تناوله بالرمح ثم انثنى له ... فخر صريعاً لليدين وللفم
لجابر الثعلبي . وقيل : البيت الثالث لشريح العبسى . وقيل : لزهير . والكلاب بالضم اسم موضع الواقعة . وآلى : =

قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به ؛ لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لم كرر يخرون للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين ، وخرورهم فى حال كونهم باكين .

﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

عن ابن عباس رضى الله عنهما سمعه أبو جهل يقول : يا ألله يا رحمن ، فقال : إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت . والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء ، وهو يتعدى إلى مفعولين ، تقول : دعوته زيداً ، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال : دعوت زيداً . والله والرحمن ، المراد بهما الاسم لا المسمى . وأو للتخيير ، فمعنى ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ سموا بهذا الاسم أو بهذا ، واذكروا إما هذا وإما هذا . والتنوين فى ﴿أيا﴾ عوض من المضاف إليه . و﴿ما﴾ صلة للإبهام المؤكد لما فى أى . أى : أىّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ والضمير فى (فله) ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ، ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى ؛ لأن التسمية للذات لا للاسم . والمعنى : أيا ما تدعوا فهو حسن . فوضع موضعه قوله (فله الأسماء الحسنى) لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان : لأنهما منها ، ومعنى كونهما أحسن الأسماء . أنها مستقلة بمعانى التحميد والتقديس والتعظيم ﴿بصلوتك﴾ بقراءة صلاتك على حذف المضاف ؛ لأنه لا يلبس . من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير ، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بقراءته . فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا ، فأمر بأن يخفض من صوته . والمعنى : ولا تجهر حتى تسمع المشركين ﴿ولا تخافت﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين﴾ الجهر المخافتة ﴿سبيلا﴾ وسطاً . وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفى صوته بالقراءة فى صلاته ويقول :

= أى حلف . والشنقاء : الطويلة من الخيل . والصلدم - بكسر المهملتين - : القوية . ويروى : ثم اثنى له . وأصله : انثنى ، فأدغمت النون بعد قلبها ثاء فى الثاء . ولو قرئ : ثم اتنى ، من أتنى وتمهل لجاز . ويروى : دلفت له بالرمح من تحت بزه . ويروى : شققت له بالرمح جيب قميصه . ولعل اختلاف الروايات لاختلاف القائل . والتناول : الأخذ ، فالمعنى : لحقه فطعنه بالرمح ، كأنه أخذه ، ثم اثنى له : أى طعنه مرة أخرى . فسقط مطروحا ، وجعل ذلك لیدیه وفمه ؛ لأنها التى يستقبل بها الأرض أولا حين سقوطه على وجهه ، واللام هنا بمعنى على كما ذكره النحاة ، وإن أنكره النحاس . ودلف دلفاً كتعب تعباً : إذا تقدم بسرعة وقارب بين خطاه . وجيب قميصه : كناية عن صدره ؛ لأنه إذا شق طوق القميص بالرمح فقد شق الصدر .

أناجى ربى وقد علم حاجتى ، وكان عمر رضى الله عنه يرفع صوته ويقول : أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان ، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض [١] قليلا . وقيل : معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ، وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار . وقيل (بصلاتك) بدعائك . وذهب قوم إلى أن الآية منسوخة بقوله (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) وابتغاء السبيل : مثل لانتحاء الوجه الوسط فى القراءة ﴿ولىّ من الذل﴾ ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به ، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته .

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

فإن قلت : كيف لاق وصفه بنفى الولد والشريك والذل بكلمة التحميد [٢] ؟ قلت : لأنّ من هذا وصفه هو الذى يقدر على إيلاء كل نعمة ، فهو الذى يستحق جنس الحمد ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية [٣] .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة بنى إسرائيل فرقّ قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة ، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية » . رزقنا الله بفضله العميم وإحسانه الجسيم .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان والحاكم من رواية يحيى بن إسحاق السليحينى عن حماد عن ثابت عن عبدالله بن رباح عن أبى قتادة بمعناه . وليس فيه قوله « وقد علم حاجتى » وفيه أن كلام كل منهما كان لما سأله النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك . قال الترمذى . رواه أكثر الناس فلم يذكروا أبا قتادة . وقال ابن أبى حاتم عن أبيه لفظا فيه يحيى بن إسحاق والصواب مرسلا ، وفى الباب عن على أخرجه البيهقى فى الشعب . وعن أبى هريرة أخرجه أبو داود من رواية محمد بن عمر . وعن أبى سلمة عنه مختصراً . وأخرجه الطبرى من رواية محمد بن سيرين قال « نبئت أن أبا بكر فذكره » وقال فيه : أناجى ربى وقد علم حاجتى »

(٢) قال محمود : « إن قلت : كيف لاق وصفه بنفى الولد والشريك ... الخ » قال أحمد : وقد لاحظ الزمخشرى ههنا ما أغفله عند قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم ، بأن هذه الجملة لايليق اقترانها بكلمة التحميد ولاتناسبها ، فانك لو قلت ابتداء : الحمد لله الذى الذين كفروا به يعدلون ، لم يكن مناسبا ، والله أعلم .

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة وعبدالرزاق . قالا أخبرنا ابن عيينة عن عبدالكريم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

سورة الكهف

مكية [إلا آية ٣٨ ومن آية ٨٣ إلى غاية آية ١٠١ فمدنية]

وآياتها ١١٠ [نزلت بعد الغاشية]

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)

لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهى نعمة الإسلام ، وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم وفوزهم ﴿ولم يجعل له عوجا﴾ ولم يجعل له شيئاً من العوج قط . والعوج فى المعانى كالعوج فى الأعيان ، والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه ، وخروج شىء منه من الحكمة والإصابة فيه . فإن قلت : بم انتصب ﴿قيما﴾ ؟ قلت : الأحسن أن ينتصب بمضمر ولا يجعل حالا من الكتاب ؛ لأنّ قوله (ولم يجعل) معطوف على أنزل ، فهو داخل فى حيز الصلة ، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة ، وتقديره : ولم يجعل له عوجاً جعله قيما ؛ لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة . فإن قلت : مافائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة ، وفى أحدهما غنى عن الآخر ؟ قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح . وقيل : قيما على سائر الكتب مصدقا لها ، شاهداً بصحتها . وقيل : قيما بمصالح العباد وما لابد لهم منه من الشرائع . وقرئ قيما . « أنذر » متعدّ إلى مفعولين ، كقوله (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) فاقتصر على أحدهما ، وأصله

﴿لينذر﴾ الذين كفروا ﴿بأساً شديداً﴾ والبأس من قوله (بعذاب بئيس) وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأساً وبآسة ﴿من لدنه﴾ صادرا من عنده. وقرئ: من لدنه، بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون ﴿ويبشر﴾ بالتخفيف والتثقيل. فإن قلت: لم اقتصر على أحد مفعولى أنذر؟ قلت: قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه، فوجب الاقتصار عليه. والدليل عليه تكرير الإنذار فى قوله ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ متعلقاً بالمنذرين من غير ذكر المنذر به، كما ذكر المبشر به فى قوله (أنّ لهم أجراً حسنا) استغناء بتقدم ذكره. والأجر الحسن: الجنة ﴿مالهم به من علم﴾ أى بالولد أو باتخاذه، يعنى أنّ قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء، وقد اشتملته [١] آباؤهم من الشيطان وتسويله. فإن قلت: اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال، فكيف قيل: مالهم به من علم [٢]؟ قلت: معناه مالهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وانتفاء العلم بالشىء إمّا للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه فى نفسه محال لايستقيم تعلق العلم به. قرئ: كبرت كلمة، وكلمة: بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ. وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: ماأكبرها كلمة. و﴿تخرج من أفواههم﴾ صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم. فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس ويحدّثون به أنفسهم من المنكرات لايتمالكون أن يتفوهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشورا [٣] من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ كبرت بسكون الباء مع إشمام الضمة. فإن قلت: إلام يرجع الضمير فى كبرت؟ قلت: إلى قولهم (اتخذ الله ولدا) وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفاً

---

(١) قوله «وقد اشتملته» لعله: استملته، بإهمال السين وسكون الميم. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال فكيف قيل لهم ... الخ» قال أحمد: قد مضى له فى قوله تعالى (وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) أن ذلك وارد على سبيل التهكم، وإلا فلا سلطان على الشرك حتى ينزل. ونظيره:

ولا يرى الضب بها ينجحر

وقد قدمت حينئذ أن الكلام وارد على سبيل الحقيقة والأصل، وأن نفى إنزال السلطان تارة يكون لاستحالة إنزاله ووجوده، وتارة يكون، لأنه لم يقع وإن كان ممكنا، والله أعلم.

(٣) قوله «تشورا من إظهاره» أى تباعدا من إظهاره، كأنه عورة. وفى الصحاح «الشوار» الفرج. ومنه قيل: شور به، كأنه أبدى عورته. (ع)

على فراقهم . وقرئ : باخع نفسك ، على الأصل ، وعلى الإضافة : أى قاتلها ومهلكها ، وهو للاستقبال فيمن قرأ : إن لم يؤمنوا . وللمضى فيمن قرأ : أن لم يؤمنوا ، بمعنى : لأن لم يؤمنوا ﴿بهذا الحديث﴾ بالقرآن ﴿أسفاً﴾ مفعول له ، أى : لفرط الحزن . ويجوز أن يكون حالا . والأسف : المبالغة فى الحزن والغضب . يقال : رجل أسف وأسيف .

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

﴿ما على الأرض﴾ يعنى ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ وحسن العمل : الزهد فيها وترك الاغترار بها ، ثم زهد فى الميل إليها بقوله ﴿وإنا لجاعلون ما عليها﴾ من هذه الزينة ﴿صعيداً جرزاً﴾ يعنى مثل أرض بيضاء لا نبات فيها ، بعد أن كانت خضراء معشبة ، فى إزالة بهجته ، وإماطة حسنه ، وإبطال ما به كان زينة : من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار ، ونحو ذلك ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض بما خلق [١] فوقها من الأجناس التى لا حصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن ، ثم قال ﴿أم حسبت﴾ يعنى أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة . والكهف : الغار الواسع فى الجبل ﴿والرقيم﴾ اسم كلبهم . قال أمية ابن أبى الصلت :

وَلَيْسَ بِهَا إلاَّ الرَّقِيمُ مُجَاوِرًا ... وَصِيدَهُمْ وَالْقَوْمُ فِى الْكَهْفِ هُمَّدُ [٢]

وقيل : هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف . وقيل : إن الناس رقموا حديثهم نقرا فى الجبل . وقيل : هو الوادى الذى فيه الكهف . وقيل : الجبل . وقيل :

---

(١) قوله «بما خلق» لعله «بما خلق» . (ع)

(٢) لأمية بن أبى الصلت ، والرقيم : كلب أصحاب الكهف . والوصيد : فناء البيت وبابه وعتبته ، والبيت يحتملها . والهمد : جمع هامد ، أى : راقد . والقوم : عطف على الرقيم . يقول : ليس فى تلك الصحراء إلا الكلب حال كونه مجاورا لفناء غارهم ، وإلا القوم حال كونهم رقودا فى الكهف : أى الغار .

قريتهم . وقيل : مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين ﴿كانوا﴾ آية ﴿عجبا﴾ من آياتنا وصفا بالمصدر ، أو على : ذات عجب ﴿من لدنك رحمة﴾ أي رحمة من خزائن رحمتك ، وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿وهيئ لنا من أمرنا﴾ الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رشداً﴾ حتى نكون بسببه راشدين مهتدين ، أو اجعل أمرنا رشداً كله . كقولك : رأيت منك أسداً ﴿فضربنا على آذانهم﴾ أي ضربنا عليها حجاباً من أن تسمع ، يعني : أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات ، كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه ، فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال : بنى على امرأته ، يريدون : بنى عليها القبة ﴿سنين عددا﴾ ذوات عدد ؛ فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة ؛ لأن الكثير قليل عنده . كقوله : (لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) . وقال الزجاج : إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعدّ ، وإذا كثر احتاج إلى أن يعد

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

﴿أي﴾ يتضمن معنى الاستفهام ، فعلق عنه ﴿لنعلم﴾ فلم يعمل فيه . وقرئ : ليعلم ، وهو معلق عنه أيضاً ؛ لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد «يعلم» إليه . وفاعل «يعلم» مضمون الجملة ، كما أنه مفعول «نعلم» ﴿أي الحزبين﴾ المختلفين منهم في مدة لبثهم : لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك ، وذلك قوله (قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم : هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول . أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم ، و﴿أحصى﴾ فعل ماض أي أيهم ضبط [1] ﴿أمدا﴾ لأوقات لبثهم . فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل ؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس . ونحو «أعدى من الجرب» ، و«أفلس من ابن المذلق» شاذ . والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع ، فكيف به ؟ ولأن (أمدا) لا يخلو : إما أن ينتصب بأفعل [2] فأفعل لا يعمل . وإما أن ينتصب بلبثوا ، فلا يسد عليه المعنى . فإن زعمت أني

---

(١) قال محمود «أحصى فعل ماض ، أي : لنعلم أيهم ضبط أمدا ... الخ» قال أحمد : وقد جعل بعض النحاة بناء أفعل من المزيد فيه الهمز قياساً ، وادعى ذلك مذهبا لسيبويه ، وعلله بأن بناءه منه لا يغير نظم الكلمة ، وإنما هو تعويض همزة بهمزة .

(٢) عاد كلامه . قال : وأيضاً فلو كان للتفضيل لم يخل انتصاب أمدا إما بأفعل ... الخ» قال أحمد : ولقائل أن ينصبه على التمييز ، كانتصاب العدد تمييزاً في قوله تعالى (أحصى كل شيء عددا) ويعضد حمله على أفعل التفضيل وروده في نظير الواقعة واختلاف الأحزاب في مقدار اللبث ، وذلك في قوله تعالى (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) فأمثلهم طريقة : هو أحصاهم لما لبثوا عددا . وكلا الوجهين جائز ، والله أعلم .

أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى ، كما أضمر فى قوله :

* وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ القَوَانِسَا * (١)

على : نضرب القوانس ، فقد أبعدت المتناول وهو قريب ، حيث أبيت أن يكون أحصى فعلا ، ثم رجعت مضطرا إلى تقديره وإضماره . فإن قلت : كيف جعل الله تعالى العلم بإحصائهم المدّة غرضاً فى الضرب على آذانهم ؟ قلت : الله عز وجل لم يزل عالما بذلك ، وإنما أراد ماتعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ، ليزدادوا إيمانا واعتبارا ، ويكون لطفاً لمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفاره .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥)

---

(١)
فلم أر مثل الحى حيا مصبحا ... ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكر وأحمى للحقيقة منهم ... وأضرب منا بالسيوف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا ... صدور المذاكى والرماح المداعسا
إذا الخيل حالت عن صريع نكرها ... عليهم فما يرجعن إلا عوابسا

للعباس بن مرداس السلمى ، والحى بنو زبيد من اليمن . وأكر : أشد كرا . وأحمى : أشد حماية . والحقيقة : مايستحق الذب عنه من عرض ومال . والقوانس : جمع قونس ، وهو أعلى بيضة الفارس وأعلى رأس الفرس . والمذاكى : الخيل العتاق العتاق التى أتى عليها بعد قروحها سنة ، جمع المذاكى اسم مفعول . والمداعس : الرماح الصم التى يطعن بها . والدعس بالتحريك الأثر ، والمداعسة المطاعنة . والمدعس : الرمح الأصم الذى يطعن به . ويروى : جالت ، بدل حالت أى : مالت إلى جول بالجيم أى ناحية . وأما الحول بالحاء فهو التحول . والصريع : الطريح على الأرض ، ونكرها : نرجعها . والعوابس : كالحات الوجوه من الجرى فى الغبار . وحيا مصبحا ، أى : مأتيا فى الصباح مفعول . ومثل الحى : حال ، على أن رأى بصرية . أومفعول ثان ، على أنها علمية ، وأكر : بدل من حيا ، ولايصح جعله صفة أو مفعول ثان ؛ لأنك لوقلت : مارأيت مثل زيد رجلا أفضل منه لم يستقم المعنى إلا على البدلية ؛ لأن المماثلة تنافى المفاضلة ، إلا أن تكون المماثلة فى صفة والمفاضلة فى أخرى ، فلا مانع منه حينئذ . وأضرب : أفعل تفضيل ، بدل من فوارس على ماتقدم ، فهو لف ونشر مرتب . وأفعل التفضيل لا يعمل النصب فى المفعول به ، بل حكى الاجماع على ذلك ، فالقوانس نصب بمحذوف ، أى : يضرب القوانس أى الرءوس ، لكن قال محمد بن مسعود فى كتابه البديع : غلط من قال : إن اسم التفضيل لاينصب المفعول به ، واستشهد بهذا البيت وغيره . وبين مدح الفريقين بقوله : إذا شددنا عليهم مرة قابلونا بالخيل العتاق والرماح الجيدة ، فهم شجعان . وبقوله : إذا مالت خيلنا أوتحولت عن قتيل منا ، نرجعها عليهم لأجل الثأر ، فما ترجع إلا كوالح ، فنحن أشجع منهم .

﴿وزدناهم هدى﴾ بالتوفيق والتثبيت ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام ﴿إذ قاموا﴾ بين يدي الجبار وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم ﴿فقالوا ربنا رب السموات والأرض ... ... شططا﴾ قولاذا شطط، وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط: إذا بعد. ومنه: أشط في السوم وفي غيره ﴿هؤلاء﴾ مبتدأ، و﴿قومنا﴾ عطف بيان ﴿واتخذوا﴾ خبر وهو إخبار في معنى إنكار ﴿لو لا يأتون عليهم﴾ هلا يأتون على عبادتهم، فحذف المضاف ﴿بسلطان بين﴾ وهو تبكيت؛ لأنّ الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد، وأنه لابد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت ﴿افترى على الله كذبا﴾ بنسبة الشريك إليه.

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾

﴿وإذ اعتزلتموهم﴾ خطاب من بعضهم لبعض، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم ﴿ومايعبدون﴾ نصب، عطف على الضمير، يعني: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم ﴿إلا الله﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلا، على ماروى: أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة. وأن يكون منقطعاً. وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله ﴿مرفقاً﴾ قرئ بفتح الميم وكسرها، وهو مايرتفق به: أي ينتفع. إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم. وإما أن يخبرهم به نبيّ في عصرهم، وإما أن يكون بعضهم نبيا.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿تزاور﴾ أي تمايل. أصله: تتزاور، فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها. وقد قرئ بهما. وقرئ: تزورّ. وتزوارّ: بوزن تحمرّ وتحمارّ، وكلها من الزور وهو الميل. ومنه زاره إذا مال إليه. والزور: الميل عن الصدق ﴿ذات اليمين﴾ جهة اليمين. وحقيقتها. الجهة المسماة باليمين ﴿تقرضهم﴾ تقطعهم لاتقربهم من معنى القطيعة والصرم. قال ذو الرمة:

إِلَى ظُعُنٍ يَقْرِضْنَ أَقْوَازَ مُشْرِفٍ ... شِمَالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْفَوَارِسُ (١)

﴿وهم فى فجوة منه﴾ وهم فى متسع من الكهف . والمعنى أنهم فى ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولا غروبها ، مع أنهم فى مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أنّ الله يحجبها عنهم . وقيل : فى متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار ﴿ذلك من آيات الله﴾ أى ماصنعه الله بهم ـ من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة ـ آية من آياته ، يعنى : أنّ ما كان فى ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم . اختصاصاً لهم بالكرامة . وقيل : باب الكهف شمالى مستقبل لبنات نعش ، فهم فى مقنأة (٢) أبدا . ومعنى (ذلك من آيات الله) أنّ شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ ثناء عليهم بأنهم جاهدوا فى الله وأسلموا له وجوههم ، فلطف بهم وأعانهم . وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة ، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذى أصاب الفلاح ، واهتدى إلى السعادة ، ومن تعرض للخذلان ، فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله .

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)

﴿وتحسبهم﴾ بكسر السين وفتحها : خطاب لكل أحد . والأيقاظ : جمع يقظ ، كأنكاد فى نكد . قيل : عيونهم مفتحة وهم نيام ، فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظا . وقيل : لكثرة تقلبهم

(١) نظرت بجرعاء السبيبة نظرة ... ضحى وسواد العين فى الماء شامس
إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف ... شمالا وعن أيمانهن الفوارس

لذى الرمة . وجرعاء السبية : اسم موضع ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الفاعل . وضحى : ظرف ، وسواد العين ... الخ . جملة حالية ، فى الماء ، أى : الدمع شامس ، أى كثير الحركة والاضطراب . يقال : شمس الفرس والرجل شموسا ، إذا ساء خلقه ، والظعينة : المرأة فى الهودج أو المطية عليها امرأة أولا ، أو الهودج فيه امرأة أولا . والجمع ظعن وظعن وأظعان وظعائن ويقرضن أى يقطعن . وأقواز مشرف : أعالى جبل مشرف . ويروى أجواز جمع جوز بمعنى المجاز والطريق ، أى : يفصلنه عنهن ، وشمالا : جهة الشمال ، والفوارس : اسم موضع ، وجعله جمع فارس ، كما قيل : تبعده المقابلة .

(٢) قوله «فهم فى مقنأة» فى الصحاح : قال أبو عمرو «المقنأة ، والمقنؤة» الذى لا تطلع عليه الشمس . وقال : غير مقناة . ومقنوة . بغير همز : نقيض المضحاة . (ع)

وقيل : لهم تقلبتان فى السنة . وقيل : تقلبة واحدة فى يوم عاشوراء . وقرئ : ويقلبهم . بالياء والضمير لله تعالى . وقرئ : وتقلبهم ، على المصدر منصوباً ، وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه (وتحسبهم أيقاظاً) كأنه قيل : وترى وتشاهد تقلبهم . وقرأ جعفر الصادق : وكالبهم أى وصاحب كلبهم ﴿باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية ؛ لأنّ اسم الفاعل لا يعمل إذا كان فى معنى المضى ، وإضافته إذا أضيف حقيقية معرفة ، كغلام زيد ، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية . والوصيد : الفناء ، وقيل : العتبة . وقيل : الباب . وأنشد :

بِأَرْضٍ فَضَاءٍ لَا يُسَدُّ وَصِيدُهَا عَلَيَّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرِ (١)

وقرئ : ولملئت ، بتشديد اللام للمبالغة . وقرئ بتخفيف الهمزة وقلبها ياء . و﴿رعبا﴾ بالتخفيف والتثقيل ، وهو الخوف الذى يرعب الصدر أى يملؤه ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة . وقيل : لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم . وقيل : لوحشة مكانهم . وعن معاوية أنه غزا الروم فمرّ بالكهف فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال له ابن عباس رضى الله عنه : ليس لك ذلك ، قد منع الله تعالى منه من هو خير منك فقال : (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً) فقال معاوية ، لا أنتهى حتى أعلم علمهم ، فبعث ناساً وقال لهم : اذهبوا فانظروا ، ففعلوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأحرقتهم .(٢) وقرئ : لو اطلعت ، بضم الواو .

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

﴿وكذلك بعثناهم﴾ وكما أنمناهم تلك النومة كذلك بعثناهم ، إذكارا بقدرته على الإنامة والبعث

(١) لزهير . والوصيد : الفناء والباب والعتبة . يقول : نزلت فى أرض خالية من البناء ، تصلى فيها الضيفان والقفاة ، ليس فيها بناء له وصيد . فيسد على فتحتجب عن الضيفان كأهل الحضر ، فنفى السد كناية عن نفى الوصيد من أصله ، وإحسانى بها معروف لا ينكره أحد من الناس .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم وعبيد بن محمد وأبو بكر بن أبى شيبة من رواية يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وإسناده صحيح .

جميعاً . ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به ﴿قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ جواب مبنى على غالب الظن . وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب ، وأنه لا يكون كذبا وإن جاز أن يكون خطأ ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ إنكار عليهم من بعضهم ، وأن الله أعلم بمدّة لبثهم ، كأنّ هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله أنّ المدة متطاولة ، وأنّ مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله . وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال ، فظنوا أنهم فى يومهم . فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك . فإن قلت : كيف وصلوا قولهم ﴿فابعثوا﴾ بتذاكر حديث المدة ؟ قلت : كأنهم قالوا : ربكم أعلم بذلك ، لا طريق لكم إلى علمه ، فخذوا فى شيء آخر مما يهمكم . والورق : الفضة ، مضروبة كانت أو غير مضروبة . ومنه الحديث أنّ عرفجة أصيب أنفه يوم الكلاب [1] فاتخذ أنفاً من ورق فأنتن ، فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتخذ أنفاً من ذهب . [2] وقرىء : بورقكم ، بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة . وقرأ ابن كثير : بورقكم ، بكسر الراء وإدغام القاف فى الكاف . وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم . وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين لا على حده . وقيل : المدينة طرسوس . قالوا : وتزودهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم : دليل على أنّ حمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأى المتوكلين على الله ، دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما فى أوعية القوم من النفقات . ومنه قول عائشة رضى الله عنها ـ لمن سألها عن محرم يشدّ عليه هميانه ـ : أوثق عليك نفقتك . [3] وما حكى عن بعض صعاليك العلماء [4] أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت الله ، وتعولم منه ذلك ، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبذلوا له أن يحجوا به وألحوا عليه ، فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلهم ، فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده : ما لهذا السفر إلا شيآن : شدّ الهميان ، والتوكل على الرحمن ﴿أيها﴾ أىّ أهلها ، فحذف الأهل كما فى قوله (واسئل القرية) ، ﴿أزكى طعاماً﴾ أحلّ وأطيب وأكثر وأرخص ﴿وليتلطف﴾ وليتكلف اللطف والنيقة [5] فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن . أو فى أمر التخفى حتى لا يعرف ﴿ولا يشعرنّ بكم أحداً﴾

(١) قوله «يوم الكلاب» فى وقعة الكلاب ، وهو بالضم : اسم ماء كانت عنده الوقعة ، أفاده الصحاح ، (ع)
(٢) أخرجه أصحاب السنن من رواية عبد الرحمن بن طرفة . عن عرفجة . وفى رواية بعضهم «أن عرفجة» .
(٣) أخرجه ابن أبى شيبة بسند صحيح عنها بذلك .
(٤) قوله «عن بعض صعاليك العلماء» أى فقرائهم . (ع)
(٥) قوله «والنيقة» أى : الاتقان . (ع)

يعنى : ولا يفعلنّ مايؤدى من غير قصد منه إلى الشعور بنا ، فسمى ذلك إشعارا منه بهم ؛ لأنه سبب فيه. الضمير فى ﴿إنهم﴾ راجع إلى الأهل المقدر فى (أيها) . ﴿يرجموكم﴾ يقتلوكم أخبث القتلة وهى الرجم ، وكانت عادتهم ﴿أو يعيدوكم﴾ أو يدخلوكم ﴿فى ملتهم﴾ بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها . والعود فى معنى الصيرورة أكثر شىء فى كلامهم ، يقولون : ما عدت أفعل كذا . يريدون ابتداء الفعل ﴿ولن تفلحوا إذا أبدا﴾ إن دخلتم فى دينهم .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (٢١)

﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم ، لما فى ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم ، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أن وعد الله حق﴾ وهو البعث ؛ لأن حالهم فى نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث . و﴿إذ يتنازعون﴾ متعلق بأعثرنا . أى : أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون فى حقيقة البعث ، فكان بعضهم يقول : تبعث الأرواح دون الأجساد . وبعضهم يقول : تبعث الأجساد مع الأرواح ، ليرتفع الخلاف ، وليتبين أنّ الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت ﴿فقالوا﴾ حين توفى الله أصحاب الكهف ﴿ابنوا عليهم بنيانا﴾ أى على باب كهفهم . لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم ﴿لنتخذنّ﴾ على باب الكهف ﴿مسجدا﴾ يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم . وقيل : إذ يتنازعون بينهم أمرهم أى : يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف ، ويتكلمون فى قصتهم وما أظهر الله من الآية فيهم . أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا ، كيف يخفون مكانهم ؟ وكيف يسدّون الطريق إليهم ؟ فقالوا : ابنوا على باب كهفهم بنيانا . روى أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها ، وممن شدد فى ذلك دقيانوس ، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل ، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه ، ثم هربوا إلى الكهف ومرّوا بكلب فتبعهم فطردوه ، فأنطقه الله فقال : ماتريدون منى ، أنا أحب أحباء الله ، فناموا وأنا أحرسكم . وقيل : مرّوا براع معه كلب فتبعهم[1]

(١) قوله «وقيل : مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم» لعل بعده سقطا تقديره : وتبعهم الكلب ، كما فى الخازن . (ع)

على دينهم ، ودخلوا الكهف فكانوا يعبدون الله فيه ، ثم ضرب الله على آذانهم ، وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن . وقد اختلف أهل مملكته فى البعث معترفين وجاحدين ، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد . وسأل ربه أن يبين لهم الحق ، فألقى الله فى نفس رجل من رعيانهم فهدم ماسدّ به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس : اتهموه بأنه وجد كنزا . فذهبوا به إلى الملك فقصّ عليه القصة . فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم ، وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث ، ثم قالت الفتية للملك : نستودعك الله ونعيذك به من شرّ الجنّ والإنس ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم ، فألقى الملك عليهم ثيابه ، وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب ، فرآهم فى المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج ، وبنى على باب الكهف مسجدا . (ربهم أعلم بهم) من كلام المتنازعين . كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام فى أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم ، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا : ربهم أعلم بهم . أو هو من كلام الله عزوجل ردّ لقول الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين ، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب .

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)

﴿ سيقولون ﴾ الضمير لمن خاض فى قصتهم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمؤمنين ، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم ، فنزلت إخباراً بما سيجرى بينهم من اختلافهم فى عددهم ، وأنّ المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم . قال ابن عباس رضى الله عنه : أنا من أولئك القليل . روى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فجرى ذكر أصحاب الكهف ، فقال السيد وكان يعقوبيا : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقال العاقب وكان نسطوريا : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، فحقق الله قول المسلمين . وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لسان جبريل عليه السلام . وعن علىّ رضى الله عنه : هم سبعة نفر أسماؤهم : يمليخا ، ومكشليتيا ، ومشلينيا : هؤلاء أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوش ، ودبرنوش ، وشاذنوش . وكان يستشير هؤلاء الستة فى أمره .

والسابع : الراعى الذى وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس . واسم مدينتهم : أفسوس . واسم كلبهم : قطمير . فإن قلت : لم جاء بسين الاستقبال فى الأوّل دون الآخرين ؟ قلت : فيه وجهان : أن تدخل الآخرين فى حكم السين ، كما تقول : قد أكرم وأنعم ، تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعاً ، وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له ﴿رجماً بالغيب﴾ رمياً بالخبر الخفى وإتيانا به كقوله (ويقذفون بالغيب) أى يأتون به . أو وضع الرجم موضع الظنّ ، فكأنه قيل : ظناً بالغيب ؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظنّ مكان قولهم ظنّ ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين . ألا ترى إلى قول زهير :

* وما هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ * (١)

أى المظنون . وقرئ : ثلاثّ رابعهم ، بإدغام الثاء فى تاء التأنيث . و ﴿ثلاثة﴾ خبر مبتدإ محذوف ، أى : هم ثلاثة . وكذلك ﴿خمسة﴾ و ﴿سبعة﴾ و ﴿رابعهم كلبهم﴾ جملة من مبتدإ وخبر واقعة صفة لثلاثة ، وكذلك ﴿سادسهم كلبهم﴾ ، ﴿وثامنهم كلبهم﴾ . فإن قلت : فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ، ولم دخلت عليها دون الأوّلين (٢) ؟ قلت : هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة فى نحو قولك : جاءنى رجل ومعه آخر . ومررت بزيد وفى يده سيف . ومنه قوله تعالى : (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت

---

(١) وما الحرب إلا ماعلمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

لزهير من معلقته ، ينهى عبساً وذبيان عن القتال . يقول : ليست الحرب إلا التى علمتموها وجربتموها ، وشبهها بمطعوم مكروه على طريق الكناية والذوق تخييل ، وما هو : أى الحديث عن الحرب ، ولما كان الضمير عائدا على المصدر فى المعنى صح تعلق المجرور به ، ويبعد تعلقه بما بعده . والترجيم : الرمى بالرجام وهى الحجارة الصغار ، استعير لالقاء الكلام بلا روية ولا فكر على طريق التصريحية .

(٢) قال محمود : إن قلت ولم دخلت الواو فى الجملة الأخيرة ...الخ ، ؟ قال أحمد : وهو الصواب ، لا كمن يقول : إنها واو الثمانية فان ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم ، ويعدون مع هذه الواو فى قوله فى الجنة (وفتحت أبوابها) بخلاف أبواب النار ، فانه قال فيها (فتحت أبوابها) قالوا : لأن أبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة . وهب أن فى اللغة واواً تصحب الثمانية فتختص بها ، فأين ذكر العدد فى أبواب الجنة حتى ينتهى إلى الثامن فتصحبه الواو ، وربما عدوا من ذلك (والناهون عن المنكر) وهو الثامن من قوله (التائبون) وهذا أيضا مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة ، لتربط بينها وبين الأولى التى هى الآمرون بالمعروف ، لما بينهما من التناسب والربط . ألا ترى اقترانهما فى جميع مصادرهما ومواردهما ، كقوله (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وكقوله (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) وربما عد بعضهم من ذلك الواو فى قوله (ثيبات وأبكاراً) لأنه وجدها مع الثامن ، وهذا غلط فاحش ، فان هذه واو التقسيم ، ولو ذهبت تحذفها فتقول : ثيبات أبكاراً ، لم يستد الكلام ، فقد وضح أن الواو فى جميع هذه المواضع المعدودة واردة لغير مازعمه هؤلاء ، والله الموفق .

مستقر ، وهـذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا : سبعة وثامنهم كلبهم ، قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم . والدليل عليه أنّ الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله (رجماً بالغيب) وأتبع القول الثالث قوله (مايعلمهم إلا قليل) وقال ابن عباس رضى الله عنه : حين وقعت الواو انقطعت العدّة ، أى : لم يبق بعـدها عدّة عاد يلتفت إليها . وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات . وقيل : إلا قليل من أهل الكتاب . والضمير فى (سيقولون) على هذا لأهل الكتاب خاصة ، أى : سيقول أهـل الكتاب فيهم كذا وكذا ، ولا علم بذلك إلا فى قليل منهم ، وأكثرهم على ظنّ وتخمين ﴿فلا تمـار فيهم﴾ فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف إلا جدالا ظاهرا غـير متعمق فيـه ، وهو أن تقص عليهم ماأوحى الله إليك فحسب ولا تزيد ، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم فى الردّ عليهم ، كما قال (وجادلهم بالتى هى أحسن) . ﴿ولا تستفت﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له ، حتى يقول شيئاً فترده عليه وتزيف ماعنده ؛ لأن ذلك خلاف ماوصيت به من المداراة والمجاملة ، ولا سؤال مسترشد ؛ لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

﴿ولا تقولنّ لشىء﴾ ولا تقولنّ لأجل شىء تعزم عليه ﴿إنى فاعل ذلك﴾ الشىء ﴿غدا﴾ أى فيما يستقبل من الزمان ، ولم يرد الغد خاصة ﴿إلا أن يشاء الله﴾ متعلق بالنهى لا بقوله : إنى فاعل ؛ لأنه لو قال : إنى فاعل كذا إلا أن يشاء الله ، كان معناه : إلا أن تعترض مشيئة الله دون [1] فعله ، وذلك مما لا مدخل فيه للنهى ، وتعلقه بالنهى على وجهين ، أحدهما : ولا تقولنّ ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله ، بأن يأذن لك فيه . والثانى : ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله ، أى : إلا بمشيئة الله ، وهو فى موضع الحال . يعنى : إلا ملتبساً بمشيئة الله قائلا :

(١) قال محمود : «كان معناه إلا أن تعترض مشيئة الله دون فعله ... الخ» قال أحمد : ولابد من حمل الكلام على أحد الوجهين المذكورين ، ولولا ذلك لكان المعنى على الظاهر ببادئ الرأى : ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول ، وليس الغرض ذلك ، وإنما الغرض النهى عن هذا القول إلا مقرونا بقول المشيئة ، وليت شعرى مامعنى قول الزمخشرى فى تفسير الآية . كأن المعنى : إلا أن تعترض المشيئة دونه ، معتقدا أن مشيئة الله تعالى لا تعترض على فعل أحد ، فكم شاء من الأفعال فتركت ، وكم شاء من التروك ففعلت على زعم القدرية . فلا معنى على أصلهم الفاسد لتعليق الفعل بالمشيئة قولا وهو غير متعلق بها وقوعا ، حتى أن قول القائل : لا أفعل كذا إلا أن يشاء الله أن أفعله : كذب وخلف بتقدير فعله إذا كان من قبيل المباح ، لأن الله تعالى لا يشاؤه على زعمهم الفاسد ، فما أبعد عقدهم من قواعد الشرع ! فسحقا سحقا .

إن شاء الله وفيه وجه ثالث ، وهو : أن يكون (إن شاء الله)[1] فى معنى كلمة تأبيد ، كأنه قيل ولا تقولنه أبدا . ونحوه قوله (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله) لأن عودهم فى ملتهم مما لن يشاءه الله . وهذا نهى تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وذى القرنين . فسألوه فقال : ائتونى غدا أخبركم ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش ﴿واذكر ربك﴾ أى مشيئة ربك وقل : إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك . والمعنى : إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر [2] . وعن ابن عباس رضى الله عنه : ولو بعد سنة مالم تحنث . وعن سعيد بن جبير : ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة . وعن طاوس : هو على ثنياه [3] مادام فى مجلسه . وعن الحسن نحوه . وعن عطاء : يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة . وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له فى الأحكام مالم يكن موصولا . ويحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس رضى الله عنه فى الاستثناء المنفصل ، فاستحضره لينكر عليه : فقال أبو حنيفة : هذا يرجع عليك ، إنك تأخذ البيعة بالأيمان ، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك ؟ فاستحسن كلامه ورضى عنه . ويجوز أن يكون المعنى : واذكر [4] ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء ، تشديدا فى البعث على الاهتمام بها . وقيل : واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به . وقيل : واذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى ، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها . و ﴿هذا﴾ إشارة إلى نبإ أصحاب الكهف . ومعناه : لعل الله يؤتينى من البينات والحجج على أنى نبى صادق ما هو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من نبإ أصحاب الكهف . وقد فعل ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدل . والظاهر أن يكون المعنى : إذا نسيت شيئا فاذكر ربك . وذكر ربك عند نسيانه أن تقول : عسى ربى أن يهدينى لشىء آخر بدل هذا المنسى أقرب منه ﴿رشدا﴾ وأدنى خيرا ومنفعة . ولعل النسيان كان خيرة ، كقوله (أو ننسها نأت بخير منها) .

---

(١) قوله «إن شاء الله» لعله أن يشاء الله . (ع)

(٢) عاد كلامه . قال : «وقوله (واذكر ربك إذا نسيت) أى كلمة الاستثناء ثم تنبهت لها ، فتداركها بالذكر . وعن ابن عباس : ولو بعد سنة ما لم تحنث إلى قوله : وعند عامة الفقهاء ... الخ» قال أحمد : أما ظاهر الآية فقتضاه الأمر بتدارك المشيئة متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حملها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها ، والله أعلم

(٣) قوله «هو على ثنياه» فى الصحاح «الثنيا» بالضم : الاسم من الاستثناء . (ع)

(٤) قال محمود : «ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح ... الخ» قال أحمد : ويؤيد هذا التأويل بقوله تعالى أول القصة (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) فافتتح ذكر القصة بتقليل شأنها وإنكار عده من عجائب آيات الله . ثم ختمها بأمره عليه الصلاة والسلام بطلب ما هو أرشد وأدخل فى الآية والله أعلم .

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

﴿ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين﴾ يريد لبثهم فيه أحياء مضروبا على آذانهم هذه المدّة، وهو بيان لما أجمل فى قوله (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) ومعنى قوله ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدّة لبثهم، والحق ما أخبرك الله به. وعن قتادة: أنه حكاية لكلام أهل الكتاب. و (قل الله أعلم) رد عليهم. وقال فى حرف عبد الله: وقالوا لبثوا. وسنين: عطف بيان لثلثمائة. وقرئ: ثلثمائة سنين، بالإضافة، على وضع الجمع موضع الواحد فى التميز، كقوله (بالأخسرين أعمالا) وفى قراءة أبىّ: ثلثمائة سنة. ﴿تسعاً﴾ تسع سنين؛ لأن ماقبله يدل عليه. وقرأ الحسن: تسعاً بالفتح، ثم ذكر اختصاصه بما غاب فى السموات والأرض وخفى فيها من أحوال أهلها ومن غيرها وأنه هو وحده العالم به. وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات، للدلالة على أن أمره فى الإدراك خارج عن حدّ ماعليه إدراك السامعين والمبصرين، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجما وأكثفها جرما، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر ﴿مالهم﴾ الضمير لأهل السموات والأرض ﴿من ولى﴾ من متول لأمورهم ﴿ولا يشرك فى حكمه﴾ فى قضائه ﴿أحدا﴾ منهم. وقرأ الحسن: ولا تشرك، بالتاء والجزم على النهى.

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

كانوا يقولون له: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقيل له ﴿واتل ما أوحى إليك﴾ من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل، فلا مبدل لكلمات ربك، أي: لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها، إنما يقدر على ذلك هو وحده (وإذا بدلنا آية مكان آية). ﴿ولن تجد من دونه ملتحدا﴾ ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

وقال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نحِّ هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن ، وهم : صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين ، حتى نجالسك كما قال قوم نوح : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) فنزلت : ﴿واصبر نفسك﴾ واحبسها معهم وثبتها . قال أبو ذؤيب :

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُـرَّةً ... تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّـعُ (١)

﴿بالغداة والعشى﴾ دائبين على الدعاء فى كل وقت . وقيل : المراد صلاة الفجر والعصر . وقرئ : بالغدوة ، وبالغداة أجود ؛ لأن غدوة علم فى أكثر الاستعمال . وإدخال اللام على تأويل التنكير كما قال :

* ... ... وَالزَّيْدُ زَيْدُ الْمَعَـارِكِ * (٢)

ونحوه قليل فى كلامهم . يقال : عداه إذا جاوزه ومنه قولهم . عدا طوره . وجاءنى القوم عدا زيداً . وإنما عدى بعن ، لتضمين عدا معنى نبا وعلا ، فى قولك : نبت عنه عينه وعلت عنه عينه : إذا اقتحمته ولم تعلق به . فإن قلت : أى غرض فى هذا التضمين ؟ وهلا قيل : ولا تعدهم عيناك ، أو لا تعل عيناك عنهم ؟ قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ . ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم ؟ ونحوه قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أى ولا تضموها إليها آكلين لها . وقرئ : ولا تعد عينيك ، ولا تعدّ عينيك ، من أعداه وعدّاه نقلا بالهمزة وتثقيل الحشو . ومنه قوله :

* فَعُدْ عَمَّا تَرَى إِذْ لَا ٱرْتِجَاعَ لَهُ * (٣)

---

(١) لأبى ذؤيب فى مرثية بنيه ، وصبرت : أى حبست نفسا عارفة لذلك البلاء ، وضمن عارفة معنى صابرة فعداه باللام ، حسرة : أى قوية صلبة . ويروى : حرة ، بضم الحاء ، أى جيدة . ترسو : تطمئن وتسكن ، إذا تطلع نفس الجبان وتجزع كأنها تريد الفرار وأصله تتطلع ، حذف منه إحدى التاءين تخفيفاً .

(٢) وقد كان منهم حاجب وابن أمه ... أبو جندل والزيد زيد المعارك

دخلت «أل» المعرفة على «زيد» وهو علم لتأويله بالمسمى بزيد ، ولذلك أضافه للمعارك ، أى أمكنة الحروب . يقول : وقد كان من هؤلاء القوم حاجب بن لقيط بن زرارة وابن أمه ، أى أخوه أبو جندل والمسمى بزيد ، المعد للحروب . وفيه إشارة إلى أنه يعرف بذلك فيما بين الناس .

(٣) فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له ... وانم القتود على عيرانة أجد

للنابغة الذبيانى . ونما ينمى نمياً : زاد وارتفع . ونماه ينميه نميا : رفعه وزاده . ونما ينمو نموا من باب دخل . ونماه ينموه نمواً أيضاً ، لكن الواوى قليل . والقتود : جمع أقتاد ، جمع قتد : وهى عيدان الرحل بلا أداة . والعيرانة : الشبيهة بالعير فى سرعة السير . والأجد : الصلبة الموثقة الخلق . يقول : انصرف عما ترى من آثار الديار ، أو عما تظن رجوعه ؛ لأنه لا تدارك له أو لا رجوع له ، وارفع عيدان الرحل على ناقة سريعة صلبة ، كناية عن أمره بالسفر ؛ لأن شد الرحال لا يكون إلا له .

لأن معناه: فعد همك عما ترى. نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزدرى بفقراء المؤمنين، وأن تنبو عينه عن رثاثة زيهم طموحا إلى زىّ الأغنياء وحسن شارتهم [١] ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ فى موضع الحال ﴿من أغفلنا قلبه﴾ من جعلنا قلبه غافلا [٢] عن الذكر بالخذلان [٣]. أو وجدناه غافلا عنه، كقولك: أجبنته وأفحمته [٤] وأبخلته، إذا وجدته كذلك. أو من أغفل إبله إذا تركها [٥] بغير سمة، أى: لم نسمه بالذكر ولم نجعلهم من الذين كتبنا فى قلوبهم الإيمان وقد أبطل الله توهم المجبرة [٦] بقوله ﴿واتبع هواه﴾ وقرئ: أغفلنا قلبه، بإسناد الفعل إلى القلب على معنى: حسبنا قلبه غافلين، من أغفلته إذا وجدته غافلا ﴿فرطا﴾ متقدما للحق والصواب [٧] نابذا له وراء ظهره من قولهم «فرس فرط» متقدم للخيل.

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)

(١) قوله «وحسن شارتهم» فى الصحاح: الشوار والشارة: اللباس والهيئة. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه جعلنا قلبه غافلا عن الذكر ... الخ» قال أحمد: هو يشمر للهرب من الحق، وهو أن المراد خلقنا له، وجدير به أن يشمر فى اتباع هواه، فان حمل «أغفل» على بابه صرفه إلى الخذلان، وإلا أخرجه بالكلية عن بابه إلى باب أفعل للمصادفة، ولا يتجرأ على تفسير فعل أسنده الله إلى ذاته بالمصادفة إلى تفهيم وجدان الشيء بغتة عن جهل سابق وعدم علم.

(٣) قوله «غافلا عن الذكر بالخذلان» يتحاشى بذلك عن خلق الغفلة فى قلبه؛ لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة، وأهل السنة على خلاف ذلك كما أشار إليه بقوله: توهم المجبرة. ثم إن اتباعه هواه لا ينافى خلق الله الغفلة فى قلبه، لجواز أن يكون ذلك ناشئا عن الغفلة. (ع)

(٤) قوله «كقولك أجبنته وأفحمته» فى الصحاح «أفحمته» وجدته مفحما لا يقول الشعر. (ع)

(٥) عاد كلامه. قال: «ويجوز أن يكون المعنى من أغفل إبله إذا ... الخ» قال أحمد: وهذا التأويل فيه رقة حاشية ولطافة معنى، وغرضه منه الخلاص مما قدمناه، لأنه وإن أبى خلق الله للغفلة فى القلب فلا يأبى عدم كتب الايمان، وإنما غرضنا التنبيه على أن مقصد الزمخشرى الحيد عن القاعدة المتقدمة، والتأويل إنما يصار إليه إذا اعتاص الظاهر وهو عندنا ممكن، فوجب الاعتصام به، والله الموفق.

(٦) عاد كلامه. قال: «وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله: واتبع هواه» قال أحمد. قد تقدم فى غير ما موضع أن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقا له، وإلى العبد من حيث كونه مقرونا بقدرته واختياره، ولا تنافى بين الاضافتين، فبراهين السنة تتبعه أينما سلك وأية توجه، فلا محيص له عنها بوجه.

(٧) قوله «متقدما للحق والصواب» أى سابق له ومجاوز له، وفى الصحاح: أمر فرط، أى مجاوز فيه الحد. ومنه قوله تعالى (وكان أمره فرطا).

﴿وقل الحق من ربكم﴾ الحق خبر مبتدأ محذوف . والمعنى : جاء الحق وزاحت العلل[1] فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ماشئتم من الأخذ فى طريق النجاة أو فى طريق الهلاك . وجىء بلفظ الأمر والتخيير ، لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء ، فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ماشاء من النجدين . شبه مايحيط بهم من النار بالسرادق ، وهو الحجرة التى تكون حول الفسطاط ، وبيت مسردق : ذو سرادق وقيل : هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار . وقيل : حائط من نار يطيف بهم[2] ﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ كقوله :

* ..... فَأُعْتِبُوا بِالصَّيْلَمِ *[3]

وفيه تهكم . والمهل : ماأذيب من جواهر الأرض . وقيل : دردىّ الزيت ﴿يشوى الوجوه﴾ إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته . عن النبى صلى الله عليه وسلم : هو كعكر الزيت[4] ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه ﴿بئس الشراب﴾ ذلك ﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقا﴾ متكأ من المرفق ، وهذا لمشاكلة قوله (وحسنت مرتفقا) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء ، إلا أن يكون من قوله :

إِنِّى أَرِقْتُ فَبِتُّ اللَّيْلَ مُرْتَفِقًا كَأَنَّ عَيْنِىَ فِيهَا الصَّابُ مَذْبُوحُ[5]

* * *

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ

(١) قوله «والمعنى جاء الحق وزاحت العلل» فى الصحاح «زاح الشىء» بعد وذهب . وأزحت علته فزاحت . (ع)

(٢) قوله «يطيف بهم» الذى يفيده الصحاح : طاف يطوف حول الشىء : دار حوله ، وطاف يطيف بالشىء : جاءه وألم به ، فتدبر . (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ١٠٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٤) أخرجه الترمذى من طريق رشدين بن سعد . عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد . واستغربه . وقال : لايعرف إلا من حديث رشدين بن سعد وتعقب قوله : بأن أحمد وأبا يعلى أخرجاه من طريق ابن لهيعة عن دراج ، وبأن ابن حبان والحاكم أخرجاه من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث .

(٥) لأبى ذؤيب الهذلى . ويروى بدل الشطر الأول : مقام الخلى وبت الليل مشتجراً . والارتفاق : الاتكاء على المرفق مع نصب الساعد . والاشتجار : وضع اليد تحت الشجر وهو مابين اللحيين والاتكاء عليها ، وهى هيئة المتحزن المتحسر . والأرق : السهر . والصاب : نبت مر كالحنظل . والمذبوح : المشقوق . وهو كناية عن البكاء وانصباب الدموع .

ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)

﴿أولئك﴾ خبر إن و (إنا لا نضيع) اعتراض. ولك أن تجعل (إنا لا نضيع) و (أولئك) خبرين معاً. أو تجعل (أولئك) كلاما مستأنفاً بيانا للأجر المبهم. فإن قلت: إذا جعلت (إنا لا نضيع) خبراً، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: (من أحسن عملا) و (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ينتظمهما معنى واحد. فقام (من أحسن) مقام الضمير. أو أردت: من أحسن عملا منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم. من الأولى للابتداء. والثانية للتبيين. وتنكير (أساور) لإبهام أمرها فى الحسن. وجمع بين السندس: وهو مارق من الديباج، وبين الإستبرق: وهو الغليظ منه، جمعاً بين النوعين. وخص الاتكاء، لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرتهم.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)

﴿واضرب لهم مثلا رجلين﴾ أى ومثل حال الكافرين والمؤمنين، بحال رجلين وكانا أخوين فى بنى إسرائيل: أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا. وقيل: هما المذكوران فى سورة والصافات فى قوله (قال قائل منهم إنى كان لى قرين) ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطراها. فاشترى الكافر أرضاً بألف. فقال المؤمن: اللهم إن أخى اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا أشترى منك أرضاً فى الجنة بألف، فتصدق به. ثم بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللهم إنى أشترى منك داراً فى الجنة بألف فتصدق به. ثم تزوج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم إنى جعلت ألفاً صداقا للحور. ثم اشترى أخوه خدما ومتاعا بألف، فقال: اللهم إنى اشتريت منك الولدان المخلدين بألف، فتصدق به ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه فمر به فى حشمه، فتعرض له، فطرده ووبخه على التصدق بماله. وقيل: هما مثل لأخوين من بنى مخزوم: مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد، وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكافر وهو الأسود بن عبد الأشد ﴿جنتين من

أعناب﴾ بستانين من كروم ﴿وحففناهما بنخل﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين، وهذا مما يؤثره الدهاقين [١] فى كرومهم: أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة. يقال: حفوه، إذا أطافوا به: وحففته بهم. أى جعلتهم حافين حوله، وهو متعدّ إلى مفعول واحد، فتزيده الباء مفعولا ثانياً، كقولك: غشيه، وغشيته به ﴿وجعلنا بينهما زرعا﴾ جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه. ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها مايقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما وهو أصل الخير ومادّته من أمر الشرب فجعله أفضل مايسقى به، وهو السيح بالنهر الجارى فيها. والأكل: الثمر. وقرئ بضم الكاف ﴿ولم تظلم﴾ ولم تنقص. وآتت: حمل على اللفظ، لأنّ (كلتا) لفظه لفظ مفرد، ولو قيل: آتتا على المعنى، لجاز. وقرئ: وفجرنا، على التخفيف. وقرأ عبد الله: كل الجنتين آتى أكله بردّ الضمير على كل ﴿وكان له ثمر﴾ أى أنواع من المال، من ثمر ماله [٢] إذا كثر. وعن مجاهد: الذهب والفضة، أى: كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الدثرة [٣] من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه، متمكناً من عمارة الأرض كيف شاء ﴿وأعز نفرا﴾ يعنى أنصاراً وحشما. وقيل: أولادا ذكورا، لأنهم ينفرون معه دون الإناث. يحاوره: يراجعه الكلام. من حار يحور إذا رجع. وسألته فما أحار كلمة.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)

يعنى قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به فى الجنتين ويريه مافيهما ويعجبه منهما ويفاخره بما ملك من المال دونه. فإن قلت: فلم أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلت: معناه ودخل ماهو جنته ماله جنة غيرها، يعنى أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون، فما ملكه فى الدنيا هو جنته لاغير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ وهو معجب بما أوتى مفتخر به كافر لنعمة ربه، معرّض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم. إخباره عن نفسه

---

(١) قوله «الدهاقين» واحده دهقان. (ع)

(٢) قوله «من ثمر ماله» الذى فى الصحاح: أن الثمر جمع ثمار. ككتب وكتاب. وأن الثمر أيضا: المال المثمر، ويخفف ويثقل. وأثمر الرجل: اذا كثر ماله. وثمر الله ماله، أى: كثره. وعبارة الخازن: وكان له ثمر. قرئ بالفتح جمع ثمرة، وقرئ بالضم وهو الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما. وفى النسفى: له ثمر، وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء، وبضم الثاء وسكون الميم، وبضمهما. (ع)

(٣) قوله «الأموال الدثرة» الكثيرة. أفاده الصحاح. (ع)

بالشك فى بيدودة جنته : لطول أمله واستيلاء الحرص عليه وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة وإطراحه النظر فى عواقب أمثاله. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه ﴿ولئن رددت إلى ربى﴾ إقسام منه على أنه إن ردّ إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وكما يزعم صاحبه؟ ليجدنّ فى الآخرة خيرا من جنته فى الدنيا، تطمعاً وتمنياً على الله، وادّعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله، وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه، كقوله (إن لى عنده للحسنى)، (لأوتينّ مالا وولدا). وقرئ: خيرا منهما، ردّا على الجنتين ﴿منقلبا﴾ مرجعاً وعاقبة. وانتصابه على التمييز، أى: منقلب تلك، خير من منقلب هذه، لأنها فانية وتلك باقية.

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾

﴿خلقك من تراب﴾ أى خلق أصلك، لأنّ خلق أصله سبب فى خلقه، فكان خلقه خلقاً له ﴿سوّاك﴾ عدلك وكملك إنسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال. جعله كافرا بالله جاحدا لأنعمه لشكه فى البعث، كما يكون المكذب بالرسول صلى الله عليه وسلم كافرا

لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴿٣٨﴾

﴿لكنّ هو الله ربى﴾ أصله لكن أنا، فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن، فتلاقت النونان فكان الإدغام. ونحوه قول القائل:

وَتَرْمِينَنِى بِالطَّرْفِ أَىْ أَنْتَ مُذْنِبٌ ... وَتَقْلِينَنِى لَكِنَّ إِيَّاكِ لاَأَقْلِى (١)

أى: لكن أنا لاأقليك وهو ضمير الشأن، والشأن الله ربى، والجملة خبر أنا. والراجع منها إليه ياء الضمير. وقرأ ابن عامر بإثبات ألف أنا فى الوصل والوقف جميعاً، وحسن ذلك وقوع الألف عوضاً من حذف الهمزة. وغيره لا يثبتها إلا فى الوقف. وعن أبى عمرو أنه وقف بالهاء:

---

(١) يقول: وترميننى يا محبوبة بطرفك، أى: تشيرين إلى به. فالرمى: استعارة مصرحة، لأنه شبه إطلاق البصر بإطلاق الحجر. ويجوز أن الباء للآلة، فالمرمى محذوف فسره بقوله: أى أنت مذنب، فأى تفسيرية، يعنى أن مارمته به هو ادعاؤها أنه مذنب. وقلاه يقليه، وقليه يقلاه. وقد يقال: قلاه يقلاه بمعنى بغضه أشد البغض، ولكن أصله: ولكن أنا، فنقلت حركة الهمزة إلى النون ثم حذفت، ثم أدغمت النون فى النون بعدها، وحذفت الألف الأخيرة فى الرسم كاللفظ. ولو أجرى الوصل مجرى الوقف لثبتت، وقدم المفعول وهو «إياك» للاهتمام ببراءتها من قلاه وتخصيصها بذلك دون غيرها من النساء.

لكنه . وقرئ : لكن هو الله ربى ، بسكون النون وطرح أنا . وقرأ أبىّ بن كعب : لكن أنا على الأصل . وفى قراءة عبد الله : لكن أنا لا إله إلا هو ربى . فإن قلت : هو استدراك لماذا ؟ قلت : لقوله (أكفرت) قال لأخيه : أنت كافر بالله ، لكنى مؤمن موحد ، كما تقول : زيد غائب ، لكن عمرا حاضر .

وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

﴿ماشاء الله﴾ يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدإ محذوف تقديره : الأمر ماشاء الله . أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف ، بمعنى : أى شيء شاء الله كان . ونظيرها فى حذف الجواب (لو) فى قوله ﴿ولو أنّ قرآنا سيرت به الجبال﴾ والمعنى : هلا قلت عند دخولها والنظر إلى مارزقك الله منها الأمر ماشاء الله ، اعترافا بأنها وكلّ خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله ، وأن أمرها بيده : إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها ، وقلت ﴿لاقوة إلا بالله﴾ إقراراً بأن ماقويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده ، إذ لايقوى أحد فى بدنه ولا فى ملك يده إلا بالله تعالى . وعن عروة بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب ، فيدخل من شاء . وكان إذا دخله ردّد هذه الآية حتى يخرج . من قرأ (أقلّ) بالنصب فقد جعل أنا فصلا ، ومن رفع جعله مبتدأ وأقلّ خبره ، والجملة مفعولا ثانياً لترنى . وفى قوله ﴿وولدا﴾ نصرة لمن فسر النفر بالأولاد فى قوله (وأعزّ نفرا) والمعنى إن ترنى أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب مابى ومابك من الفقر والغنى ، فيرزقنى لإيمانى جنة ﴿خيرا من جنتك﴾ ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك . والحسبان : مصدر كالغفران والبطلان ، بمعنى الحساب ، أى : مقدارا قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها وقال الزجاج : عذاب حسبان ، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك . وقيل حسبانا مرامى الواحدة حسبانة وهى الصواعق ﴿صعيدا زلقا﴾ أرضاً بيضاء يزلق عليها لملاستها زلقا . و ﴿غورا﴾ كلاهما وصف بالمصدر .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

﴿ وأحيط ﴾ به عبارة عن إهلاكه. وأصله من أحاط به العدو؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك. ومنه قوله تعالى (إلا أن يحاط بكم) ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، من أتى عليهم العدو: إذا جاءهم مستعلياً عليهم. وتقليب الكفين: كناية عن الندم والتحسر، لأن النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد، ولأنه في معنى الندم عدى تعديته بعلى، كأنه قيل: فأصبح يندم ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ أى أنفق في عمارتها ﴿ وهي خاوية على عروشها ﴾ يعنى أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم. قيل: أرسل الله عليها نارا فأكلتها ﴿ ياليتني ﴾ تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه. ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندما على ما كان منه، ودخولا في الإيمان. وقرئ: (ولم يكن) بالياء والتاء، وحمل (ينصرونه) على المعنى دون اللفظ، كقوله (فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم). فإن قلت: ما معنى قوله ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾؟ قلت: معناه يقدرون على نصرته من دون الله، أى: هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجابه أن يخذل ﴿ وما كان منتصرا ﴾ وما كان ممتنعا بقوته عن انتقام الله.

هُنَالِكَ الْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

﴿ الولاية ﴾ بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك، وقد قرئ بهما. والمعنى هنالك، أى: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه، تقريراً لقوله (ولم يكن له فئة ينصرونه من دون الله) أو: هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه. أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر. يعنى أن قوله (ياليتني لم أشرك بربي أحداً) كلمة ألجئ إليها فقالها جزعا مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها. ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم، ويشفى صدورهم من أعدائهم، يعنى: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدق قوله (عسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء) ويعضده قوله ﴿ خير ثوابا وخير عقبا ﴾ أى لأوليائه. وقيل (هنالك) إشارة إلى الآخرة أى في تلك الدار

الولاية لله ، كقوله (لمن الملك اليوم) . وقرئ (الحق) بالرفع والجر صفة للولاية والله [1] . وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد ، كقولك : هذا عبد الله الحق لا الباطل ، وهي قراءة حسنة فصيحة ، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم . وقرئ (عقبا) بضم القاف وسكونها ، وعقبى على فعلى ، وكلها بمعنى العاقبة .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

﴿فاختلط به نبات الأرض﴾ فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا . وقيل : نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روى ورف [2] رفيفا ، وكان حق اللفظ على هذا التفسير : فاختلط بنبات الأرض . ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه . والهشيم : ما تهشم وتحطم ، الواحدة هشيمة . وقرئ : تذروه الريح . وعن ابن عباس : تذريه الرياح ، من أذرى : شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء ، بحال النبات يكون أخضر وارفا [3] ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن ﴿وكان الله على كل شيء﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مقتدرا﴾ .

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

﴿الباقيات الصالحات﴾ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتفنى عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا . وقيل هي الصلوات الخمس . وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وعن قتادة : كل ما أريد به وجه الله ﴿خير ثوابا﴾ أي ما يتعلق بها من

---

(١) قال محمود : «قرئ بالرفع والجر صفة للولاية والله تعالى ... الخ» قال أحمد : وقد تقدم الانكار عليه في مثل هذا القول فانه يوهم أن القراءات موكولة إلى رأي الفصحاء واجتهاد البلغاء ، فتتفاوت في الفصاحة لتفاوتهم فيها ، وهذا منكر شنيع . والحق : أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه فوعاه متصلا بفلق إليه صلى الله عليه وسلم منزلا كذلك من السماء ، فلا وقع لفصاحة الفصيح ، وإنما هو ناقل كغيره ، ولكن الزمخشري لا يفوته الثناء على رأس البدعة ومعدن الفتنة ، فان عمرو بن عبيد أول مصمم على إنكار القدر وهلم جرا إلى سائر البدع الاعتزالية ، فمن ثم أثنى عليه .

(٢) قوله «ورف رفيفا» في الصحاح : رف لونه رفا ورفيفاً : برق وتلألأ . وشجر رفيف : إذا تندت أوراقه . (ع)

(٣) قوله «بحال النبات يكون أخضر وارفا» في الصحاح : ورف النبت ، أي : اهتز من نضارته ، فهو وارف ، أي : ناضر رفاف شديد الخضرة . (ع)

الثواب وما يتعلق بها من الأمل؛ لأنّ صاحبها يأمل فى الدنيا ثواب الله، ويصيبه فى الآخرة.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨)

قرئ: تسير، من سيرت. ونسير، من سيرنا. وتسير، من سارت، أى: تسير فى الجو. أو يذهب بها، بأن تجعل هباء منبثا. وقرئ: وترى الأرض على البناء للمفعول ﴿بارزة﴾ ليس عليها ما يسترها مما كان عليها ﴿وحشرناهم﴾ وجمعناهم إلى الموقف. وقرئ: فلم نغادر، بالنون والياء. يقال: غادره وأغدره إذا تركه. ومنه الغدر. ترك الوفاء. والغدير: ما غادره السيل. وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ﴿صفا﴾ مصطفين ظاهرين. يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً ﴿لقد جئتمونا﴾ أى قلنا لهم: لقد جئتمونا. وهذا المضمر هو عامل النصب فى يوم نسير. ويجوز أن ينصب بإضمار اذكر. والمعنى لقد بعثناكم كما أنشأناكم ﴿أول مرة﴾ وقيل جئتمونا عراة لا شىء معكم كما خلقناكم أولا، كقوله (ولقد جئتمونا فرادى). فإن قلت لم جىء بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز. ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك ﴿موعدا﴾ وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور.

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)

﴿الكتاب﴾ للجنس وهو صحف الأعمال ﴿ياويلتنا﴾ ينادون هلكتهم التى هلكوها خاصة من بين الهلكات ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾ هنة صغيرة ولا كبيرة، وهى عبارة عن الإحاطة، يعنى: لا يترك شيئاً من المعاصى إلا أحصاه، أى: أحصاها كلها كما تقول: ما أعطانى قليلا ولا كثيراً، لأن الأشياء إما صغار وإما كبار. ويجوز أن يريد: وإما كان عندهم صغائر وكبائر. وقيل: لم يجتنبوا الكبائر فكتبت عليهم الصغائر وهى المناقشة. وعن ابن عباس: الصغيرة التبسم، والكبيرة القهقهة. وعن سعيد بن جبير: الصغيرة المسيس، والكبيرة الزنا. وعن الفضيل: كان إذا قرأها قال: ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر ﴿إلا أحصاها﴾

إلا ضبطها وحصرها ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ فى الصحف عتيداً . أو جزاء ما عملوا ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ فيكتب عليه مالم يعمل . أو يزيد فى عقاب المستحق ، أو يعذبه بغير جرم ، كما يزعم من ظلم الله[1] فى تعذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)

﴿كان من الجن﴾ كلام مستأنف[2] جار مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين ، كأن قائلا قال : ما له لم يسجد ؟ فقيل : كان من الجن ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ والفاء للتسبيب أيضاً ، جعل كونه من الجن سبباً فى فسقه ؛ لأنه لو كان ملكا كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله ، لأنّ الملائكة معصومون البتة لايجوز عليهم مايجوز على الجن والإنس ، كما قال (لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وهذا الكلام المعترض تعمد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة فى عصمتهم . فما أبعد البون بين ماتعمده الله ، وبين قول من ضادّه وزعم أنه كان ملكا ورئيساً على الملائكة ، فعصى ، فلعن ومسخ شيطاناً ، ثم ورّكه[3] على ابن عباس . ومعنى (فسق عن أمر ربه) خرج عما أمره به ربه من السجود . قال :

* فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرَا *[4]

أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر ربه الذى هو قوله (اسجدوا لآدم) . ﴿أفتتخذونه﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب ، كأنه قيل : أعقيب ما وجد منه تتخذونه ﴿وذريته أولياء من دونى﴾ وتستبدلونهم بى ، بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله ، فأطاعه بدل طاعته ﴿ما أشهدتهم﴾ وقرئ : ما أشهدناهم ، يعنى : أنكم اتخذتموهم شركاء لى فى العبادة ، وإنما كانوا يكونون شركاء

---

(١) قوله «كما يزعم من ظلم الله» لعله بالتشديد ، أى : نسب إليه الظلم . (ع)

(٢) قال محمود : «قوله تعالى كان من الجن مستأنف تعليل لفسوقه ... الخ» قال أحمد : والحق معه فى هذا الفصل غير أن قوله «تعمده الله تعالى» لفظة لاتروق ولاتليق ، فان التعمد إنما يوصف به عرفامن يفعل فى بعض الأحيان خطأ وفى بعضها تعمداً ، فاجتنابها فى حق الله تعالى واجب ، والله الموفق .

(٣) قوله «ثم ورّكه» أى اتهمه به . (ع)

(٤) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١١٩ فراجعه إن شئت اه مصححه .

فيها لو كانوا شركاء فى الإلهية ، فنفى مشاركتهم فى الإلهية بقوله (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض) لأعتضد بهم فى خلقها [١] ﴿ولا خلق أنفسهم﴾ أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله (ولا تقتلوا أنفسكم) . ﴿وما كنت متخذ المضلين﴾ بمعنى وما كنت متخذهم ﴿عضدا﴾ أى أعوانا ، فوضع المضلين موضع الضمير ذما لهم بالإضلال ، فإذا لم يكونوا عضدا لى فى الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء لى فى العبادة ؟ وقرئ : وما كنت ، بالفتح : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : وما صح لك الاعتضاد بهم ، وما ينبغى لك أن تعتز بهم . وقرأ على رضى الله عنه : وما كنت متخذا المضلين ، بالتنوين على الأصل . وقرأ الحسن : عضدا ، بسكون الضاد ، ونقل ضمتها إلى العين . وقرئ : عضدا ، بالفتح وسكون الضاد . وعضدا ، بضمتين وعضدا بفتحتين : جمع عاضد ، كخادم وخدم ، وراصد ورصد ، من عضده : إذا قواه وأعانه ،

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

﴿يقول﴾ بالياء والنون . وإضافة الشركاء إليه على زعمهم : توبيخاً لهم وأراد الجن . والموبق : المهلك ، من وبق يبق وبوقا ، ووبق يوبق وبقا : إذا هلك . وأوبقه غيره . ويجوز أن يكون مصدراً كالمورد والموعد ، يعنى : وجعلنا بينهم واديا من أودية جهنم هو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعاً . وعن الحسن (موبقاً) عداوة . والمعنى : عداوة هى فى شدتها هلاك ، كقوله : لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً . وقال الفراء : البين الوصل أى : وجعلنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا يوم القيامة . ويجوز أن يريد الملائكة وعزيراً وعيسى ومريم ، وبالموبق : البرزخ البعيد ، أى : وجعلنا بينهم أمداً بعيدا تهلك فيه الأشواط لفرط بعده ؛ لأنهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان ﴿فظنوا﴾ فأيقنوا ﴿مواقعوها﴾ مخالطوها واقعون فيها ﴿مصرفا﴾ معدلا . قال . * أَزُهَيْرَ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفِ * [٢]

---

(١) قوله «لأعتضد بهم فى خلقها» أى لأستعين بهم . (ع)

(٢)
أزهير هل عن شيبة من مصرف أم لا خلود لباذل متكلف

لأبى كبير الهذلى . والهمزة للنداء . وزهير ترخيم زهيرة اسم امرأة . والاستفهام إنكارى ، أى : لاانصراف عن الشيب أولا مهرب ولامفر منه . وأم للاضراب الانتقالى والاستفهام الانكارى ، أى : بل لاينتفى خلود الكريم الباذل لما عنده المتكلف غير طاقته فى قرى الضيفان ؛ لأن البذل لايمنع الخلود كأنها كانت لامته على البذل مع الشيب والفقر ، فأجابها بذلك . وفيه دلالة على غاية الكرم .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنْسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

﴿ أكثر شيء جدلا ﴾ أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحدا بعد واحد، خصومة ومماراة بالباطل. وانتصاب (جدلا) على التمييز، يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء. ونحوه (فاذا هو خصيم مبين)

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾

﴿ أن ﴾ الأولى نصب. والثانية رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره ﴿ وما منع الناس ﴾ الإيمان والاستغفار ﴿ إلا ﴾ انتظار ﴿ أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ وهى الإهلاك ﴿ أو ﴾ انتظار أن ﴿ يأتيهم العذاب ﴾ يعنى عذاب الآخرة ﴿ قبلا ﴾ عيانا. وقرئ (قبلا) أنواعا: [1] جمع قبيل. و(قبلا) بفتحين: مستقبلا.

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوا ءَايَٰتِى وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾

﴿ ليدحضوا ﴾ ليزيلوا ويبطلوا، من إدحاض القدم وهو إزلاقها وإزالتها عن موطئها ﴿ وما أنذروا ﴾ يجوز أن تكون (ما) موصولة، ويكون الراجع من الصلة محذوفا، أى: وما أنذروه من العذاب. أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم. وقرئ: هزأ، بالسكون، أى: اتخذوها موضع استهزاء. وجدالهم: قولهم للرسل (ما أنتم إلا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة) وما أشبه ذلك.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

﴿ بآيات ربه ﴾ بالقرآن، ولذلك رجع إليها الضمير مذكراً فى قوله (أن يفقهوه)

(١) قوله «قبلا عيانا. وقرئ قبلا أنواعا» هذه القراءة بكسر ففتح. والثانية بضمتين، كما يفيده الصحاح. (ع)

﴿فأعرض عنها﴾ فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر ﴿ونسى﴾ عاقبة ﴿ماقدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصى، غير مفكر فيها ولا ناظر فى أنّ المسىء والمحسن لابد لهما من جزاء. ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، وجمع بعد الافراد حملا على لفظ من ومعناه ﴿فلن يهتدوا﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة، كأنه محال منهم لشدة تصميمهم ﴿أبدا﴾ مدة التكليف كلها. و﴿إذا﴾ جزاء وجواب، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول، بمعنى أنهم جعلوا مايجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً فى انتفائه، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: مالى لاأدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقيل: وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا.

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨)

﴿الغفور﴾ البليغ المغفرة ﴿ذو الرحمة﴾ الموصوف بالرحمة، ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلا من غير إمهال، مع إفراطهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿بل لهم موعد﴾ وهو يوم بدر ﴿لن يجدوا من دونه موئلا﴾ منجى ولا ملجأ. يقال: «وأل» إذا نجا، و«وأل إليه» إذا لجأ إليه.

وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)

﴿وتلك القرى﴾ يريد قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم: أشار لهم إليها ليعتبروا. (تلك) مبتدأ، و(القرى) صفة: لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس، و﴿أهلكناهم﴾ خبر. ويجوز أن يكون (تلك القرى) نصباً بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير. والمعنى: وتلك أصحاب القرى أهلكناهم ﴿لما ظلموا﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ وضربنا لإهلاكهم وقتا معلوما لايتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر. والمهلك: الإهلاك ووقته. وقرئ (لمهلكهم) بفتح الميم، واللام مفتوحة أو مكسورة، أى: لهلاكهم أو وقت هلاكهم. والموعد: وقت، أو مصدر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠)
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١)
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢)

قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَـٰنِيهُ إِلَّا الشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

﴿لفتاه﴾ لعبده . وفى الحديث : ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ، ولا يقل : عبدى [1] وأمتى . وقيل : هو يوشع ابن نون . وإنما قيل : فتاه : لأنه كان يخدمه ويتبعه . وقيل : كان يأخذ منه العلم . فإن قلت : ﴿لاأبرح﴾ إن كان بمعنى لاأزول ـ من برح المكان ـ فقد دل على الإقامة لاعلى السفر . وإن كان بمعنى : لاأزال ، فلابد من الخبر . قلت : هو بمعنى لاأزال ، وقد حذف الخبر ؛ لأنّ الحال والكلام معاً يدلان عليه . أمّا الحال فلأنها كانت حال سفر . وأمّا الكلام فلأن قوله ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ غاية مضروبة تستدعى ماهى غاية له ، فلا بد أن يكون المعنى : لاأبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . ووجه آخر : وهو أن يكون المعنى : لايبرح مسيرى حتى أبلغ ، على أن حتى أبلغ هو الخبر ، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم ، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم ، وهو وجه لطيف . ويجوز أن يكون المعنى : لاأبرح ماأنا عليه ، بمعنى : ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ ، كما تقول : لاأبرح المكان . ومجمع البحرين : المكان الذى وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام ، وهو ملتقى بحرى فارس والروم مما يلى المشرق . وقيل : طنجة . وقيل : أفريقية . ومن بدع التفاسير : أن البحرين موسى والخضر ، لأنهما كانا بحرين فى العلم . وقرئ (مجمع) بكسر الميم ، وهى فى الشذوذ من يفعل ، كالمشرق والمطلع من يفعل ﴿أو أمضى حقبا﴾ أو أسير زمانا طويلا . والحقب ثمانون سنة . وروى أنه لما ظهر موسى على مصر مع بنى إسرائيل واستقرّوا بها بعد هلاك القبط ، أمره الله أن يذكر قومه النعمة ، فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله وقال : إنه اصطفى نبيكم وكلمه . فقالوا له : قد علمنا هذا ، فأى الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله ، فأوحى إليه : بل أعلم منك عبدٌ لى عند مجمع البحرين وهو الخضر ، وكان الخضر فى أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام ، وكان على مقدمة ذى القرنين الأكبر ، وبقى إلى أيام موسى . وقيل : إنّ موسى سأل ربه : أىّ عبادك أحب إليك ؟ قال الذى يذكرنى ولا ينسانى . قال : فأىّ عبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال : فأىّ عبادك

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه به وأتم منه .

أعلم؟ قال: الذى يبتغى علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى، أو ترده عن ردى. فقال: إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فادللنى عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يارب، كيف لى به؟ قال: تأخذ حوتاً فى مكتل، فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرنى، فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع فى البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه فى البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنى بأرضنا السلام، فعرّفه نفسه، فقال: ياموسى، أنا على علم علّمنيه الله لاتعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لاأعلمه أنا. فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر فى الماء فقال الخضر: ماينقص علمى وعلمك من علم الله مقدار ماأخذ هذا العصفور من البحر ﴿نسيا حوتهما﴾ أى نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمارة على الظفر بالطلبة. وقيل: نسى يوشع أن يقدمه، ونسى موسى أن يأمره فيه بشىء. وقيل: كان الحوت سمكة مملوحة. وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز فى المكتل، فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروى: أنهما أكلا منها. وقيل: توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع فى الماء ﴿سربا﴾ أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه فى مثل السرب[1] معجزة لموسى أو للخضر ﴿فلما جاوزا﴾ الموعد وهو الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه. ونسيان يوشع أن يذكر لموسى مارأى من حياته ووقوعه فى البحر. وقيل: سارا بعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقى على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد، ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه. وقوله ﴿من سفرنا هذا﴾ إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة. فإن قلت: كيف نسى يوشع ذلك، ومثله لاينسى[2] لكونه أمارة لهما على الطلبة التى

(١) قوله «فى مثل السرب» فى الصحاح «السرب» بيت فى الأرض. تقول منه. انسرب الوحش فى سربه، وانسرب الثعلب فى جحره. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت كيف نسى يوشع ذلك ومثله لاينسى ... الخ» ؟ قال أحمد: وقد ورد فى الحديث: أن موسى عليه السلام لم ينصب ولم يقل لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، إلا منذ جاوز الموضع الذى حده الله تعالى له، فلعل الحكمة فى إنساء الله تعالى ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام لمنة الله تعالى على المسافر فى طاعة وطلب علم، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه، وتلك سنة الله الجارية فى حق من صحت له نية فى عبادة من العبادات: أن ييسرها ويحمل عنه مؤنتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة، وموقع الايقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته بونا بينا، والله أعلم. وإن كان موسى عليه السلام متيقظا لذلك، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام إذا قص عليهم القصة، فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس، ولكن ليشمر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها عاجلا وآجلا، والله أعلم.

تناهضا من أجلها ولكونه معجزتين ثنتين : وهما حياة السمكة المملوحة المأكول منها ـ وقيل : ما كانت إلا شق سمكة ـ وقيام الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها فى مثل السرب منه ؟ ثم كيف استمر به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد ، وحتى طلب موسى عليه السلام الحوت ؟ قلت : قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب ، حتى اعتراه النسيان وانضم إلى ذلك أنه ضرى بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب ، واستأنس بإخوانه فأعان الإلف [٢] على قلة الاهتمام ﴿أرأيت﴾ بمعنى أخبرنى . فإن قلت : ماوجه التئام هذا الكلام ؟ فإن كل واحد من (أرأيت) و ﴿إذ أوينا﴾ و ﴿فإنى نسيت الحوت﴾ لامتعلق له ؟ قلت : لما طلب موسى عليه السلام الحوت ، ذكر يوشع مارأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية ، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك ، كأنه قال : أرأيت مادهانى إذ أوينا إلى الصخرة ؟ فإنى نسيت الحوت ، فحذف ذلك . وقيل : هى الصخرة التى دون نهر الزيت . و ﴿أن أذكره﴾ بدل من الهاء فى (أنسانيه) أى : وما أنسانى ذكره إلا الشيطان . وفى قراءة عبدالله : أن أذكركه . و ﴿عجبا﴾ ثانى مفعولى اتخذ ، مثل (سربا) يعنى : واتخذ سبيله سبيلا عجبا ، وهو كونه شبيه السرب . أو قال : عجباً فى آخر كلامه ، تعجباً من حاله فى رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها أو مما رأى من المعجزتين ، وقوله (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه . وقيل : إن (عجبا) حكاية لتعجب موسى عليه السلام ، وليس بذاك ﴿ذلك﴾ إشارة إلى اتخاذه سبيلا ، أى : ذلك الذى كنا نطلب ، لأنه أمارة الظفر بالطلبة من لقاء الخضر عليه السلام . وقرئ ﴿نبغ﴾ بغير ياء فى الوصل ، وإثباتها أحسن ، وهى قراءة أبى عمرو ، وأما الوقف ، فالأكثر فيه طرح الياء اتباعا لخط المصحف ﴿فارتدا﴾ فرجعا فى أدراجهما [٣] ﴿قصصا﴾ يقصان قصصا ، أى : يتبعان آثارهما اتباعا . أو فارتدا مقتصين ﴿رحمة من عندنا﴾ هى الوحى والنبوة ﴿من لدنا﴾ مما يختص بنا من العلم ، وهو الإخبار عن الغيوب .

قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾

﴿رشدا﴾ قرئ بفتحتين ، وبضمة وسكون ، أى : علما ذا رشد ، أرشد به فى دينى . فإن قلت: أما دلت حاجته إلى التعلم من آخر فى عهده أنه ـ كما قيل ـ موسى بن ميشا ، لا موسى بن عمران

---

(٢) قوله «فأعان الالف على قلة الاهتمام» لعل المراد إلف يوشع ، لرؤيته العجائب عند موسى . (ع)

(٣) قوله «فرجعا فى أدراجهما» الدرج : الطريق ، والجمع الأدراج . ومنه قولهم : رجعت أدراجى ، أى : رجعت فى الطريق الذى جئت منه ، كذا فى الصحاح . (ع)

لأنّ النبيّ يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه فى أبواب الدين ؟ قلت : لاغضاضة بالنبي فى أخذ العلم من نبيّ مثله : وإنما بغض منه أن يأخذه ممن دونه . وعن سعيد ابن جبير أنه قال لابن عباس : إنّ نوفا ابن امرأة كعب يزعم أنّ الخضر ليس بصاحب موسى ، وأنّ موسى هو موسى بن ميشا ، فقال : كذب عدوّ الله .[1]

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)

نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد ،[2] كأنها مما لا يصح ولا يستقيم ، وعلل ذلك بأنه يتولى أمورا هى فى ظاهرها مناكير . والرجل الصالح ـ فكيف إذا كان نبياً ـ لا يتمالك أن يشمئز ويمتعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ فى الإنكار . و﴿خبرا﴾ تمييز ، أى : لم يحط به خبرُك بمعنى لم تخبره ، فنصبه نصب المصدر .

قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)

﴿ولا أعصى﴾ فى محل النصب ، عطف على (صابرا) أى : ستجدنى صابراً وغير عاص . أو لا فى محل ، عطفاً على ستجدنى . رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبرا بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر ، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله ، علماً منه بشدّة الأمر وصعوبته ، وأن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق ، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برىّ من أن يباشر ما فيه غميزة فى الدين ، وأنه لا بد لما يستسمج ظاهره من باطن حسن جميل ، فكيف إذا لم يعلم .

قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)

---

(١) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى عن الحسن بن عمارة عن الحاكم عن سعيد بن جبير بهذا . وساق القصة كلها فى الصحيحين بغير هذا اللفظ من رواية عمرو بن دينار عن سعيد .

(٢) قال محمود : « نفى الاستطاعة على وجه التأكيد ... الخ » قال أحمد : ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالانكار الإلتهاب والحمية للحق : أنه قال حين خرق السفينة : أخرقتها لتغرق أهلها ، ولم يقل لتغرقنا ، فنسى نفسه واشتغل بغيره ، فى الحالة التى كل أحد فيها يقول نفسى نفسى ، لايلوى على مال ولا ولد ، وتلك حالة الغرق ؛ فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قرئ ﴿فلا تسئلنى﴾ بالنون الثقيلة ، يعنى : فمن شرط اتباعك لى أنك إذا رأيت منى شيئاً ـ وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غبي عليك وجه صحته فحميت [1] وأنكرت فى نفسك ـ أن لا تفاتحنى بالسؤال ولا تراجعنى فيه ، حتى أكون أنا الفاتح عليك . وهذا من آداب المتعلم مع العالم ، والمتبوع مع التابع .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢)

﴿فانطلقا﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فلما ركبا قال أهلها : هما من اللصوص ، وأمروهما بالخروج ، فقال صاحب السفينة : أرى وجوه الأنبياء . وقيل : عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول ، فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلى الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ويقول ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ وقرئ : لتغرّق ، بالتشديد . وليغرق أهلها . من غرق وأهلها مرفوع ﴿جئت شيئاً إمرا﴾ أتيت شيئا عظيما ، من أمر الأمر : إذا عظم ، قال :

* دَاهِيَةً دَهْيَاءَ إِدًّا إِمْرًا * [2]

☆☆☆

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)

﴿بما نسيت﴾ بالذى نسيته . أو بشىء نسيته ، أو بنسيانى : أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى . أو أخرج الكلام فى معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان ، يوهمه أنه قد نسى ليبسط عذره فى الإنكار ، وهو من معاريض الكلام التى يتقى بها الكذب ، مع التوصل إلى الغرض ، كقول إبراهيم : هذه أختى ، وإنى سقيم . أو أراد بالنسيان : الترك ، أى : لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة . يقال : رهقه إذا غشيه ، وأرهقه إياه . أى : ولا تغشنى ﴿عسرا﴾ من أمرى ، وهو اتباعه إياه ، يعنى : ولا تعسر علىّ متابعتك ، ويسرها علىّ بالإغضاء وترك المناقشة . وقرئ : عسرا ، بضمتين .

---

(١) قوله «فحميت» فى الصحاح «حميت عليه» بالكسر . غضبت . (ع)

(٢) لقد لقى الأقوام منى نكرا داهيـة دهياء إدا إمرا

النكر : المنكر . والداهية : الحادثة المكروهة من شدائد الدهر . والدهياء : مبالغة فى شدتها . والاد : المنكر كل الانكار . والامر : الشىء العظيم . يقال : أمر الشىء ـ بالكسر ـ : عظم ، يصف نفسه بشدة النكاية للأعداء . ويجوز أن الكلام من قبيل التجريد .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾

﴿ فقتله ﴾ قيل: كان قتله فتل عنقه. وقيل: ضرب برأسه الحائط، وعن سعيد بن جبير: أضجعه ثم ذبحه بالسكين. فإن قلت: لم قيل (حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها) بغير فاء؟ و (حتى إذا لقيا غلاما فقتله) بالفاء؟ قلت: جعل خرقها جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه، والجزاء (قال أقتلت). فإن قلت: فلم خولف بينهما؟ قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. وقرئ: زاكية، وزكية. وهى الطاهرة من الذنوب، إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث ﴿ بغير نفس ﴾ يعنى لم تقتل نفساً فيقتص منها. وعن ابن عباس أن نجدة الحرورى كتب إليه: كيف جاز قتله، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ماعلمه عالم موسى فلك أن تقتل[1] ﴿ نكرا ﴾ وقرئ بضمتين وهو المنكر وقيل النكر أقل من الإمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. وقيل: معناه جئت شيئاً أنكر من الأول، لأن ذلك كان خرقا يمكن تداركه بالسد، وهذا لاسبيل إلى تداركه. فإن قلت: مامعنى زيادة ﴿ لك ﴾؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية.

قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

﴿ بعدها ﴾ بعد هذه الكرة أو المسئلة ﴿ فلا تصاحبنى ﴾ فلا تقارنى، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعنى على ذلك. وقرى (فلا تصحبنى) فلا تكن صاحبي. وقرئ (فلا تصحبنى) أى فلا تصحبنى إياك ولا تجعلنى صاحبك ﴿ من لدنى عذرا ﴾ قد أعذرت. وقرئ: لدنى، بتخفيف النون. ولدنى، بسكون الدال وكسر النون، كقولهم فى عضد: عضد. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: رحم الله أخى موسى استحيا فقال[2] ذلك، وقال: رحمة الله علينا وعلى أخى موسى، لو لبث

---

(١) أخرج ابو يعلى نحوه وقال فى آخره «وكان لك ذلك» وفى رواية له «فقلت ولكنك لاتعلم» فاجتنبهم وأصله فى مسلم بغير هذا السياق. وأوله: كتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن قتل الولدان ـ الحديث» وفيه وسألتنى عن قتل الولدان، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتلهم إلا أن يعلم منهم ماعلم صاحب موسى من الغلام الذى قتله.

(٢) أخرجه ابن مردويه من رواية داود بن أبى هند عن عبدالله بن عمير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكر القصة. وفيها «رحمة الله علينا وعلى موسى استحيا عند ذلك. فقال (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ـ الآية».

مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب [١] .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)

﴿أهل قرية﴾ هي أنطاكية . وقيل : الأبلة . وهي أبعد أرض الله من السماء ﴿أن يضيفوهما﴾ وقرئ : يضيفوهما . يقال : ضافه إذا كان له ضيفاً . وحقيقته : مال إليه ، من ضاف السهم عن الغرض . ونظيره : زاره ، من الازورار . وأضافه وضيفه : أنزله وجعله ضيفه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : كانوا أهل قرية لئاما [٢] . وقيل شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه ﴿يريد أن ينقضّ﴾ استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة ، كما استعير الهمّ والعزم لذلك . قال الراعي :

فِي مَهْمَهٍ قَلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا ... قَلَقَ الفُئُوسِ إِذَا أَرَدْنَ نُصُولَا [٣]

وقال :

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ ... وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ [٤]

وقال حسان :

إِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ ... لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالإِحْسَانِ [٥]

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان . من رواية حمزة الزيات . عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي . في أثناء حديث . وأصله في مسلم .

(٢) أخرجه النسائي من رواية إسرائيل عن ابن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في قوله (فأبوا أن يضيفوهما) . قال «كانوا أهل قرية لئاما» وهو في مسلم بلفظ (فانطلقا حتى أتيا أهل قرية لئاما) .

(٣) للراعي يصف الابل بأنها في مهمه : أي مفازة ، قلقت : أي تحركت فيه هاماتها : أي رءوسها . قلق الفئوس : أي كتحرك الفئوس جمع فأس وهي آلة الحفر ، إذا أردن : أي الفئوس ، نصولا : أي قرب منه ، فالارادة مجاز مرسل ، ونصولها : خروج الحديدة من المقبض . والنصول في كل شيء : الخروج ، والانصال : الاخراج ، ولقد شبه رءوس الابل مع أعناقها بالفئوس .

(٤) الارادة هنا مجاز عن التوجه . ويجوز أن الاسناد مجاز ، لأن المريد صاحب الرمح . والأوجه أنه شبه الرمح بانسان على طريق المكنية ، وإسناد الارادة والعدول إليه تخييل ، أي : يريد أن يشرب من صدر أبي براء ، لا من دماء هؤلاء .

(٥) لحسان بن ثابت ، ولففت الشيء : طويته وأدرجته ، من باب رد . والشمل . المتفرق ، ويطلق على المجتمع من الأمور . وجمل : اسم محبوبته . ويروى : بسعدى . يقول : إن الدهر الذي يجمع شملي بمحبوبتي ـــ

وسمعت من يقول: عزم السراج أن يطفأ، وطلب أن يطفأ. وإذا كان القول والنطق والشكاية والصدق والكذب والسكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعارة للجماد ولما لا يعقل، فما بال الإرادة؟ قال:

* إِذَا قَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ الْحَقِ * (١)

****

* تَقُولُ سِنِّي لِلنَّوَاةِ طِنِّي *

****

* لاَ يَنْطِقُ اللَّهْوُ حَتَّى يَنْطِقَ الْعُودُ * (٢)

****

* وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ * (٣)

****

* فَإِنْ يَكُ ظَنِّي صَادِقًا وَهْوَ صَادِقِي * (٤)

= لدهريهم بالاحسان ويريده، وهم من باب رد أيضا، أى: دهر يريد الاحسان لا الاساءة كعادة الدهر، فشبه الزمان بانسان يصح منه إرادة الاحسان على طريق المكنية، والهم تخييل. ويحتمل أن إسناد الهم له مجاز عقلى كاسناد اللف، وهما فى الحقيقة لله.

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة ١٨١ من الجزء الأول فراجعه إن شئت اهـ مصححه.

(٢) فاستنطق العود قد طال السكوت به لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

لأبى نواس، شبه صوت العود على وجه الاستقامة والحسن بالنطق بالغناء على طريق التصريحية. أو شبه العود بانسان على طريق المكنية والنطق تخييل، والسين والتاء للطلب، والسكوت ترشيح لذلك؛ لأنه ضد التكلف. والمراد بنطق اللهو زيادته وحسنه، فهو من باب المشاكلة، وهل هى حقيقة أو مجاز أو كناية أو قسم رابع؟ خلاف بين القوم بين فى البيان.

(٣) فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

لعنترة بن شداد من معلقته، يصف فرسه بأنه ازور أى مال من وقوع الرماح بلبانه، وهو موضع اللبب من صدره، وشبهه بالعاقل على طريق المكنية والشكاية تخييل، والعبرة: البكاء. والحمحمة: صوت الصهيل يشبه الحنين، لو كان يعلم ماهى المحاورة والمخاطبة لاشتكى إلىّ وخاطبنى حقيقة، وإنما يشكو إلى بالعبرة والتحمحم فقط. وفسره بقوله: ولكان مكلما لى لو علم الكلام، وذلك مبالغة فى شدة الحرب.

(٤) لهفى على القوم الذين تجمعوا بذى السيد لم يلقوا عليا ولا عمرا
فان يك ظنى صادقا وهو صادق بشملة يحبسهم بها محبسا وعرا

لكبشة أم شملة بن برد المنقرى، وذو السيد ـ بالكسر ـ: موضع المعركة، والسيد: الذئب. وقولها «وهو صادق» اعتراض. وبشملة: متعلق بظنى. تقول: يا تلهفى على القوم الذين اجتمعوا فى ذلك الموضع ولم يلاقهم أحد هذين الفارسين، فقتلوا بردا أبا شملة. فان يك ظنى به صادقا مع أن عادته يصدقنى، يحبسهم شملة فى تلك المعركة حبسا =

(ولما سكت عن موسى الغضب)

* تَمَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الأَبْلَقُ * (١)

ولبعضهم :

يَأْبَى عَلَى أَجْفَانِهِ إِغْفَاءَهُ هَمٌّ إِذَا انْقَادَ الهُمُومُ تَمَرَّدَا (٢)

*****

أَبَتِ الرَّوَادِفُ وَالثُّدِيُّ لِقُمْصِهَا مَسَّ البُطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورَا (٣)

(قالتا أتينا طائعين) ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم ، كان يجعل الضمير للخضر ؛ لأنّ ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم ، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة ، فتمحل ليردّه إلى ماهو عنده أصح وأفصح ، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز .
وانقض : إذا أسرع سقوطه ، من انقضاض الطائر وهو يفعلّ ، مطاوع قضضته . وقيل : افعلّ

صعبا فيأخذ ثأر أبيه . ويجوز أن محبسا ظرف بدل منهما . وشبهت الظن بمن يصح منه الصدق في الخبر على طريق الكناية ، والصدق تخييل لذلك . أو المعنى : فان يك ظنى مطابقا للواقع .

(١) وقد قالت الزبا لحصن سموأل تمرد مارد وعز الأبلق

مارد : هو حصن دومة الجندل . والأبلق : حصن سموأل ، قصدتهما الزبا ملكة الجزيرة فاستصعبا عليها ، فقالت ذلك ، وصار يضرب مثلا . وقوله : لحصن سموأل ، أى : ولحصن دومة الجندل . تمرد : صار أملس ناعما ، ومرد مردا ومرودة ، إذا كان أملس لا شعر فيه والمكان لا نبات فيه ، أو تمرد بمعنى تشيطن ، وفعل أهله فعل المردة من الجن ، فهو لا يستطيع أحد طلوعه . وعز إن كان مضارعه بضم العين كان متعديا بمعنى غالب ، وإن كان بكسرها كان لازما بمعنى امتنع . والمعنى : أنها لم تقدر على بلوغ مرادها منهما لشجاعة أهلهما .

(٢) للزمخشري . والهم : مايهتم به ، وهو فاعل . والاغفاء . النوم الخفيف ، وهو مفعول ، وذلك مجاز عن تسبب الهم في منع النوم . وانقياد الهموم : مجاز عن سكونها ، وتمرد الهم مجاز عن تزايده وكثرة خطوره بالبال . أوشبه الهموم بحيوانات يصح منها الانقياد والتمرد على طريق المكنية ، والتمرد ضد الانقياد ، وهما تخييل .

(٣) أبت الروادف والثدى لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا
وإذا الرياح مع العشى تناوحت نبهن حاسدة وهجن غيورا

الاباء : المنع الاختيارى فشبه الروادف والثدى لكبرها بمن يصح منه ذلك على طريق المكنية والاباء تخييل . والأقرب أنه مجاز مرسل ، والمراد به مطلق المنع ، والكلام بعد ذلك كناية عن نهود ثدييها وكبر ردفيها وضمور خصرها . وفيه لف ونشر غير مرتب ، لأن مس البطون يرجع للثدى ، ومس الظهور يرجع للروادف . وعبر بالجمع عن غيره مجازاً . أو اعتبر الأجزاء ، فالتجوز في مفرد الجمع . والثدى بالتشديد : جمع ثدى بالتخفيف . والقمص : جمع قميص . وتناوح الجبلان . تقابلا ، فالمراد بالتناوح : التقابل ، بحيث يجيء بعض الرياح من أمامها وبعضها من خلفها ، فتظهر روادفها ونهودها وتلتصق الثياب بخصرها فيظهر ضموره ، فتنبه الحاسدة لها ، ويهيج الغيور لكراهة ذلك من الرياح . وهاج الشيء : هام ، وهاجه : هيمه ، وهيجه : هيمه . وماهنا من الوسط . ويجوز أنه شبه على طريق المكنية . أوشبه أصواتها اللينة بالتناوح على طريق التصريحية ، ثم جعل ذلك كناية عن تقابلها لأنها إنما يكون لها أصوات إذا تقابلت فاضطربت ، ومع : بمعنى في .

من النقض ، كاحمرّ من الحمرة . وقرئ : أن ينقض من النقض ، وأن ينقاص ، من انقاصت السن إذا انشقت طولا . قال ذو الرمة :

* ... ... مِنْقَاصٌ وَمُنْكَثِبُ * [1]

بالصاد غير معجمة ﴿فأقامه﴾ قيل : أقامه بيده . وقيل : مسحه بيده فقام واستوى . وقيل : أقامه بعمود عمده به . وقيل : نقضه وبناه . وقيل كان طول الجدار في السماء مائة ذراع ، كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم ، وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسئلة ، فلم يجدا مواسيا ، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا﴾ وطلبت على عملك جعلا حتى ننتعش ونستدفع به الضرورة وقرئ : لتخذت ، والتاء في تخذ ، أصل كما في تبع ، واتخذ افتعل منه ، كاتبع من تبع ، وليس من الأخذ في شيء .

قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

فإن قلت : ﴿هذا﴾ إشارة إلى ماذا ؟ قلت : قد تصوّر فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه ، كما تقول : هذا أخوك ، فلا يكون «هذا» إشارة إلى غير الأخ ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث ، أي : هذا الاعتراض سبب الفراق ، والأصل : هذا فراق بيني وبينك . وقد قرأ به ابن أبي عبلة ، فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

﴿لمساكين﴾ قيل كانت لعشرة إخوة ، خمسة منهم زمنى ، وخمسة يعملون في البحر ﴿وراءهم﴾ أمامهم ، كقوله تعالى (ومن ورائهم برزخ) وقيل : خلفهم ، وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره ، فأعلم الله به الخضر وهو «جلندى» [2] . فإن قلت : قوله ﴿فأردت أن

---

(1) يغشى الكناس بروقيه ويهدمه من هائل الرمل منقاص ومنكثب

لذي الرمة يصف ثورا وحشيا . والكناس : بيت الوحش . وروقاه : قرناه . والمنقاص ـ كالمختار ـ : المتساقط من جانب طول الكناس . والمنكثب ـ بالمثلثة ـ : المجتمع . وروى : منقاض ، بالمعجمة . والمعنى واحد ، أي : يحفر الكناس بقرنيه ، ليستتر من المطر ، ويهدمه المتساقط المجتمع من الرمل الرخو الهايل .

(2) قوله «وهو جلندى» : في الخازن : وكان اسمه الجلندى الأزدي ، وكان كافراً . وقيل : كان اسمه حرد ابن برد . (ع)

أعيبها﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب[1]، فلم قدم عليه؟ قلت: النية به التأخير، وإنما قدم للعناية، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين، فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم. وقيل في قراءة أبيّ وعبد الله: كل سفينة صالحة.

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

وقرأ الجحدري: وكان أبواه مؤمنان، على أن «كان» فيه ضمير الشأن ﴿فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفراً﴾ فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما، وكفراً لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه، ويلحق بهما شراً وبلاء، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر. أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان وإنما خشي الخضر منه ذلك؛ لأن الله تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره. وأمره إياه بقتله كاخترامه لمفسدة عرفها في حياته. وفي قراءة أبيّ: فخاف ربك. والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره. ويجوز أن يكون قوله (فخشينا) حكاية لقول الله تعالى، بمعنى: فكرهنا، كقوله (لأهب لك). وقرئ: يبدّلها، بالتشديد. والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب. والرحم: الرحمة والعطف. وروى أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبيّ، فولدت نبيا هدى الله على يديه أمّة من الأمم. وقيل: ولدت سبعين نبيا. وقيل: أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما. قيل:

(١) قال محمود: «إن قلت قوله (أردت أن أعيبها) مسبب عن خوف الغصب عليها... الخ» قال أحمد: وكأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين، ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب بذكر عادة الملك في غصب السفن، وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ثم يوضح المناسبة فيما بعد، فلا يحتاج إلى جعله مقدما والنية تأخيره، والله أعلم. ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي والمخالفة بينها في الأسلوب عجبا. ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله (فأردت أن أعيبها) وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله (فأردنا أن يبدلهما ربهما) و(فخشينا أن يرهقهما) ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى، لأن المراد ثم عيب، فتأدب ثم نسب الاعابة إلى نفسه. وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك: أمرنا بكذا، أو دبرنا كذا، وإنما يعنون أمر الملك ودبر، ويدل على ذلك قوله في الثالثة (أراد ربك أن يبلغا أشدهما) فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ولم تأت على نمط واحد مكرر يمجها السمع وينبو عنها، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة، فسبحان اللطيف الخبير.

اسما الغلامين : أصرم ، وصريم . والغلام المقتول : اسمه الحسين . واختلف فى الكنز ، فقيل : مال مدفون من ذهب وفضة [١] . وقيل : لوح من ذهب مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل . وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها . لا إله إلا الله محمد رسول الله [٢] . وقيل : صحف فيها علم . والظاهر لإطلاقه : أنه مال . وعن قتادة : أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا ، وحرمت الغنيمة عليهم وأحلت لنا : أراد قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة) . ﴿وكان أبوهما صالحا﴾ اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما . وعن جعفر بن محمد الصادق : كان بين الغلامين وبين الأب الذى حفظا فيه سبعة آباء . وعن الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما أنه قال لبعض الخوارج فى كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين ؟ قال : بصلاح أبيهما . قال : فأبى وجدى خير منه : فقال : قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون ﴿رحمة﴾ مفعول له . أو مصدر منصوب بأراد ربك : لأنه فى معنى رحمهما ﴿وما فعلته﴾ وما فعلت ما رأيت ﴿عن أمرى﴾ عن اجتهادى ورأيى ، وإنما فعلته بأمر الله .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

---

(١) أخرجه الترمذى والحاكم والبزار والطبرانى وابن عدى من طريق مكحول . عن أم الدرداء عن أبى الدرداء وفيه يزيد بن الصنعانى وهو ضعيف

(٢) أخرجه البزار من رواية ابن حجيرة عن أبى ذر مرفوعا بهذا . وأتم منه . وقال لانعلمه عن أبى ذر إلا بهذا الاسناد . وروى الدارقطنى فى غرائب مالك من طريق محمد بن صالح بن فيروز عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال « سئل ابن عباس عن الكنز . فذكره ـ وقال : هذا باطل عن مالك . وروى ابن عدى . من رواية أبى ابن سفيان والطبرانى فى الدعاء . من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن أبى حازم عن ابن عباس نحوه وعن على مثل لفظ المصنف أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عنه . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن على مرفوعا . ورواه ابن شاهين فى الجنائز . والواحدى من رواية محمد بن مروان السدى الصغير : عن أبان عن أنس مرفوعا أيضا . وأبان والسدى الصغير متروكان .

ذوالقرنين : هو الإسكندرالذى ملك الدنيا . قيل : ملكها مؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان وكافران : نمروذ ، وبختنصر [١]، وكان بعد نمروذ . واختلف فيه فقيل : كان عبداً صالحا ملكه الله الأرض ، وأعطاه العلم والحكمة ، وألبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة ، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه . وقيل : نبيا . وقيل : ملكا من الملائكة . وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول : ياذا القرنين ، فقال : اللهم غفراً أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة . وعن علىّ رضى الله عنه . سخر له السحاب ، ومدّت له الأسباب ، وبسط له النور وسئل عنه فقال ، أحبه الله فأحبه . وسأله ابن الكوا : ماذو القرنين ؟ أملك أم نبىّ فقال : ليس بملك ولا نبىّ ، ولكن كان عبداً صالحا ، ضرب على قرنه الأيمن فى طاعة الله فمات ، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات ، فبعثه الله فسمى ذا القرنين وفيكم مثله . قيل : كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : سمى ذا القرنين لأنه طاف قرنى الدنيا [٢] يعنى جانبيها شرقها وغربها . وقيل : كان له قرنان ، أى ضفيرتان . وقيل : انقرض فى وقته قرنان من الناس . وعن وهب : لأنه ملك الروم وفارس . وروى : الروم والترك . وعنه كانت صفحتا رأسه من نحاس . وقيل كان لتاجه قرنان . وقيل : كان على رأسه مايشبه القرنين . ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه ، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره . والسائلون : هم اليهود سألوه على جهة الامتحان . وقيل : سأله أبو جهل وأشياعه ، والخطاب فى ﴿عليكم﴾ لأحد الفريقين ﴿من كل شىء﴾ أى من أسباب كل شىء ، أراده من أغراضه ومقاصده فى ملكه ﴿سببا﴾ طريقا موصلا إليه ، والسبب مايتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة ، فأراد بلوغ المغرب ﴿فأتبع سببا﴾ يوصله إليه حتى بلغ ، وكذلك أراد المشرق ، فأتبع سبباً ، وأراد بلوغ السدّين فأتبع سببا . وقرئ : فأتبع . قرئ : حمئة ، من حمئت البئر إذا صار فيها الحمأة . وحامية بمعنى حارّة . وعن أبى ذرّ : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل ، فرأى الشمس حين غابت فقال . «يا أباذر ، أتدرى أين تغرب هذه؟ فقلت : الله ورسوله أعلم [٣] . قال : فإنها تغرب فى عين حامية ، وهى قراءة ابن مسعود وطلحة

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة من طريق مجاهد . قال « لم يملك الأرض كلها إلا أربعة : مؤمنان ، وكافران فذكره» .

(٢) لم أجده مرفوعا وإنما رواه الدارقطنى فى المؤتلف . من رواية عبد العزيز بن عمران . عن سليمان بن أسيد عن الزهرى قال : إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها .

(٣) كذا فى نسخ الكشاف على جمل . والذى فى كتب الحديث «على حمار» ولم يصرح فيه بالارداف . عن أبى داود والحاكم من طريق الحكم بن عيينة عن إبراهيم التيمى عن أبيه . عن أبى ذر رضى الله عنه قال «كنت مع

وابن عمر وابن عمرو والحسن. وقرأ ابن عباس : حمئة . وكان ابن عباس عند معاوية ؛ فقرأ معاوية : حامية فقال ابن عباس : حمئة . فقال معاوية لعبد الله بن عمرو : كيف تقرأ ؟ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار . كيف تجد الشمس تغرب ؟ قال . فى ماء وطين ، كذلك نجده فى التوراة . وروى : فى ثأط ، فوافق قول ابن عباس ، وكان ثمة رجل فأنشد قول تبع .

فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ مَآبِهَا فِي عَيْنِ ذِي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ (١)

أى فى عين ماء ذى طين وحمإ أسود ، ولا تنافى بين الحمئة والحامية ، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً . كانوا كفرة فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإسلام ، فاختار الدعوة والاجتهاد فى استمالتهم فقال : أمّا من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذى هو الشرك : فذلك هو المعذب فى الدارين ﴿وأمّا من آمن وعمل﴾ ما يقتضيه الإيمان ﴿فله جزاء الحسنى﴾ وقيل : خيره بين القتل والأسر ، وسماه إحسانا فى مقابلة القتل (فله جزاء الحسنى) فله أن يجازى المثوبة الحسنى . أو فله جزاء الفعلة الحسنى التى هى كلمة الشهادة . وقرئ : فله جزاء الحسنى ، أى : فله الفعلة الحسنى جزاء . وعن قتادة : كان يطبخ من كفر فى القدور ،

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حمار . والشمس عند غروبها فقال : هل تدرى أين تغرب هذه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال فانها تغرب فى عين حامية» زاد الحاكم غير مهموزة . ورواه ابن أبى شيبة . وأحمد وأبو يعلى والبزار وزاد «وتنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش ، فاذا كان خروجها أذن الله لها وإذا أراد الله أن يطلعها من مغربها حبسها ، فيقول . اطلعى من حيث غربت . فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها» وقال تفرد به سفيان بن حسين عن الحاكم . ورواه الجماعة عن إبراهيم التيمى . وهو فى الصحيحين دون قوله «تغرب فى عين حامية» وأوله «كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم جالسا» الحديث .

(١)
قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغار الشمس عند مآبها فى عين ذى خلب وثأط حرمد

لتبع الأكبر اليمانى المذكور فى القرآن ، يفتخر بجده اسكندر ذى القرنين ابن فيلسوف اليونانى . ويروى : مر ، بدل جدى . وتدين أى تنقاد . وروى بدله : «علا فى الأرض غير مفند» أى غير مكذب ، فلا عيب فى القافية والخلب ـ بضمتين ـ : الحمأة وهى الطين . والثأط : الحمأة المختلطة بالماء ، فتزيد رطوبة وتفسد . والحرمد : الطين الأسود . مدح ذا القرنين ثم قال : إنه بلغ مواضع غروب الشمس ومواضع شروقها ، يبتغى من الله أسبابا توصله لمقصده ، فرأى محل غيار الشمس عند مآبها ، أى رجوعها إليه . ويروى مآب الشمس عند مغيبها : أى غيبوبتها . وفى عين : متعلق بمغار . أو بمحذوف ، أى : رآها تغرب فى عين . ويجوز أنه حال من المغار ؛ لأن العين أوسع منه ، أى فى عين ماء ذى طين أسود مختلط بماء ، وهذا موافق لظاهر الآية . وأولها أبو على الجبائى بأن ذلك على سبيل التخييل ، كما أن من لم ير الشاطئ الغربى من البحر المتسع يرى الشمس تغرب فيه ، وفى الحقيقة تغرب فى ظلمة وراء الأبيض ، لأن الأرض كروية .

وهو العذاب النكر . ومن آمن أعطاه وكساه ﴿من أمرنا يسرا﴾ أى لا نأمره بالصعب الشاق ، ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك ، وتقديره : ذا يسر ، كقوله (قولا ميسوراً) وقرئ : يسراً ، بضمتين .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

وقرئ : مطلع ، بفتح اللام وهو مصدر . والمعنى : بلغ مكان مطلع الشمس ، كقوله :

* كَأَنَّ مَجَرَّ الرَّامِسَاتِ ذُيُولَهَا * [1]

يريد : كأن آثار مجر الرامسات ﴿على قوم﴾ قيل : هم الزنج . والستر : الأبنية ، وعن كعب : أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب . فإذا طلعت الشمس دخلوها . فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم . وعن بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ، ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له : جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس ؟ قال : فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة [2] فغشى علىّ ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هى فوق الماء كهيئة الزيت ، فأدخلونا سرباً لهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم . وقيل : الستر اللباس . وعن مجاهد : من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض ﴿كذلك﴾ أى أمر ذى القرنين كذلك ، أى كما وصفناه تعظيما لأمره ﴿وقد أحطنا بما لديه﴾ من الجنود والآلات وأسباب الملك ﴿خبراً﴾ تكثيراً لذلك . وقيل : لم نجعل لهم من دونها ستراً مثل ذلك الستر الذى جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية والأكنان من كل جنس ، والثياب من

---

(١) كأن مجر الرامسات ذيولها عليه قضيم نمقته الصوانع

النابغة ، والمجر ليس مكان الجر ، وإنما هو مصدر بمعنى الجر ، لأنه لو كان اسم مكان لما عمل النصب ، ثم يجب تقدير مضاف ليصح الاخبار عنه بأنه قضيم أى موضع جر ، أى كان المحل الذى تجر الرياح الرامسات ذيولها عليه قضيم ، أى جلد أبيض نمقته وحسنته الصوانع للكتابة . وسميت الرياح رامسات من الرمس أى التغييب ؛ لأنها تحمل التراب وتلقيه على الآثار فيدفنها . واستعار الذيول لما يلى الأرض من الرياح على طريق التصريح . ويجوز أن تشبه الرياح بنساء لثيابهن ذيول طويلة يجررنها على الأرض ، والذيول تخييل .

(٢) قوله «إذ سمعنا كهيئة الصلصلة» فى الصحاح «الصلة» واحدة الصلال ، وهى القطع من الأمطار المتفرقة يقع منها الشيء بعد الشيء ، وصلصلة اللجام : صوته إذا ضوعف . (ع)

كل صنف . وقيل : بلغ مطلع الشمس مثل ذلك ، أى : كما بلغ مغربها . وقيل : تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم ، يعنى أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم فى تعذيبه لمن بقى منهم على الكفر ، وإحسانه إلى من آمن منهم .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)

﴿ بين السدين ﴾ بين الجبلين وهما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما . قرئ : بالضم والفتح . وقيل : ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم ، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح ؛ لأن السد بالضم فعل بمعنى مفعول ، أى : هو مما فعله الله تعالى وخلقه . والسد ـ بالفتح ـ : مصدر حدث يحدثه الناس . وانتصب (بين) على أنه مفعول به مبلوغ ، كما انجر على الإضافة فى قوله (هذا فراق بينى وبينك) وكما ارتفع فى قوله (لقد تقطع بينكم) لأنه من الظروف التى تستعمل أسماء وظروفا ، وهذا المكان فى منقطع أرض الترك مما يلى المشرق ﴿ من دونهما قوما ﴾ هم الترك ﴿ لايكادون يفقهون قولا ﴾ لايكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم . وقرئ : يفقهون ، أى : لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه ، لأن لغتهم غريبة مجهولة .

قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤)

﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ اسمان أعجميان بدليل منع الصرف . وقرئا : مهموزين . وقرأ رؤبة : آجوج وماجوج ، وهما من ولد يافث . وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الجيل والديلم [1] ﴿ مفسدون فى الأرض ﴾ قيل : كانوا يأكلون الناس ، وقيل : كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ، وكانوا يلقون منهم قتلا وأذى شديداً . وعن النبى صلى الله عليه وسلم فى صفتهم : لايموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه ، كلهم قد حمل السلاح . [2] وقيل : هم على صنفين ، طوال مفرطو الطول ،

(١) قوله «من الجبل والديلم» كذا عبارة النسفى أيضاً ، ولعله «من جيل الديلم» وفى الصحاح : جيل من الناس ، أى : صنف ، الترك جيل ، والروم جيل . وفيه : الديلم جيل من الناس . (ع)

(٢) أخرجه ابن عدى . والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه . والثعلبى وغيرهم من رواية يحيى بن سعيد عن محمد بن إسحاق عن الأعمش ، عن شقيق . عن حذيفة قال «سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج فقال ; يأجوج أمة . ومأجوج أمة . كل أمة أربعة آلاف لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه =

وقصار مفرطو القصر. قرئ: خرجا وخراجا، أى جعلا نخرجه من أموالنا: ونظيرهما: النول والنوال. وقرئ: سدا، وسدا بالفتح والضم.

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

﴿ما مكنى فيه ربى خير﴾ ماجعلنى فيه مكينا من كثرة المال واليسار، خير مما تبذلون لى من الخراج، فلا حاجة بى إليه، كما قال سليمان صلوات الله عليه (فما آتانى الله خير مما آتاكم) قرئ بالإدغام وبفكه ﴿فأعينونى بقوة﴾ بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل، وبالآلات ﴿ردما﴾ حاجزاً حصيناً موثقاً، والردم أكبر من السد، من قولهم: ثوب مردم، رقاع فوق رقاع. قيل: حفر الأساس[1] حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد، بينهما الحطب[2] والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار، صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلداً. وقيل: بعد ما بين السدين مائة فرسخ. وقرئ: سوّى، وسووى. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ رجلا أخبره به فقال: كيف رأيته؟ قال كالبرد[3] المحبر

ــــكلهم قد حمل السلاح، قال ابن عدى: هذا موضوع. ومحمد بن إسحاق هذا ليس هو صاحب المغازى. وإنما هو العكاشى وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات من هذا الوجه فلم يصب فان له طريقا أخرى ففى صحيح ابن حبان عن ابن مسعود مرفوعا «إن يأجوج ومأجوج أقل مايترك أحدهم لصلبه ألفا» وفى النسائى عن عمرو بن أوس عن أبيه رفعه «أن يأجوج ومأجوج يجامعون ماشاؤا. ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا. وفى المستدرك عن عبد الله ابن عمرو رفعه «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا»

(١) قوله «قيل حفر الأساس» لعله: للأساس. (ع)

(٢) قوله «بينهما الحطب» لعله: بينها. (ع)

(٣) أخرجه الطبرى من رواية سعيد بن أبى عروبة عن قتادة. قال «ذكر لنا أن رجلا قال: يارسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال انعته لى قال، كالبرد المحبر. طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته» ورواه ابن أبى عمر عن سفيان بن عيينة عن سعيد عن قتادة عن رجل من أهل المدينة، أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم، رأيت الردم فذكر نحوه، ورواه الطبرانى فى مسند الشاميين. وابن مردويه عنه من رواية سعيد بن بشير عن قتادة عن رجل عن أبى بكرة الثقفى «أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم، فذكر نحوه، لكن قال. طريقة حمراء من نحاس: وطريقة سوداء من حديد» وأخرج البزار من وجه آخر عن يوسف بن أبى مريم الحنفى. قال «بينما أنا ــــ

طريقة سوداء وطريقة حمراء. قال «قد رأيته» والصدفان ـ بفتحتين ـ: جانبا الجبلين، لأنهما يتصادفان أى يتقابلان، وقرئ: الصدفين، بضمتين. والصدفين، بضمة وسكون. والصدفين، بفتحة وضمة. والقطر: النحاس المذاب لأنه يقطر و﴿قطرا﴾ منصوب بأفرغ. وتقديره آتونى قطرا أفرغ عليه قطرا، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه. وقرئ: قال ائتونى، أى جيئونى ﴿فما اسطاعوا﴾ بحذف التاء للخفة؛ لأنّ التاء قريبة المخرج من الطاء. وقرئ: فما اصطاعوا بقلب السين صادا. وأما من قرأ بادغام التاء فى الطاء، فملاق بين ساكنين على غير الحدّ ﴿أن يظهروه﴾ أن يعلوه، أى: لا حيلة لهم فيه من صعود. لارتفاعه وانملاسه، ولا نقب لصلابته وثخانته.

قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

﴿هذا﴾ إشارة إلى السد، أى: هذا السد نعمة من الله و﴿رحمة﴾ على عباده. أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿فإذا جاء وعد ربى﴾ يعنى فإذا دنا مجىء يوم القيامة وشارف أن يأتى جعل السد ﴿دكا﴾ أى مدكوكا مبسوطاً مسوى بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك. ومنه: الجمل الأدك: المنبسط السنام. وقرئ: دكاء، بالمد: أى أرضاً مستوية ﴿وكان وعد ربى حقاً﴾ آخر حكاية قول ذى القرنين.

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

﴿وتركنا﴾ وجعلنا ﴿بعضهم﴾ بعض الخلق ﴿يموج فى بعض﴾ أى يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى. ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين فى البلاد. وروى: يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفا فى أقفائهم [1] فيدخل فى آذانهم فيموتون.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

= قاعد مع أبى بكرة إذ جاء رجل فسلم عليه. فقال له أبو بكرة من أنت وقال تعلم رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه رأى الردم. فقال له أبو بكرة: وأنت هو؟ قال: نعم. قال: اجلس حدثنا. قال: انطلقت حتى أتيت أرضا ليس لهم إلا الحديد يعملونه. فذكر القصة والحديث. وقال: لا نعلم له رواية عن النبى صلى الله عليه وسلم غير أبى بكرة.

(١) قوله «ثم يبعث الله نغفا فى أقفائهم» أى دودا، أفاده الصحاح. (ع)

﴿وعرضنا جهنم﴾ وبرّزناها لهم فرأوها وشاهدوها ﴿عن ذكرى﴾ عن آياتى التى ينظر إليها فأذكر بالتعظيم. أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها، ونحوه (صم بكم عمى). ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ يعنى وكانوا صما عنه، إلا أنه أبلغ؛ لأنّ الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم [١] فلا استطاعة بهم للسمع.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِنْ دُونِى أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴿١٠٢﴾

﴿عبادى من دونى أولياء﴾ هم الملائكة، يعنى: أنهم لا يكونون لهم أولياء، كما حكى عنهم (سبحانك أنت ولينا من دونهم). وقرأ ابن مسعود: أفظن الذين كفروا. وقراءة على رضى الله عنه أفحسب الذين كفروا، أى: أفكافيهم وحسبهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر. أو على الفعل والفاعل؛ لأنّ اسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل فى العمل، كقولك: أقائم الزيدان. والمعنى أنّ ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا. وهى قراءة محكمة جيدة. النزل: ما يقام للنزيل وهو الضيف، ونحوه (فبشرهم بعذاب أليم).

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِى وَرُسُلِى هُزُواً ﴿١٠٦﴾

﴿ضل سعيهم﴾ ضاع وبطل وهم الرهبان. عن على رضى الله عنه، كقوله (عاملة ناصبة) وعن مجاهد: أهل الكتاب. وعن على رضى الله عنه: أنّ ابن الكوا سأله عنهم؟ فقال: منهم أهل حروراء. وعن أبى سعيد الخدرى: يأتى ناس بأعمال يوم القيامة هى عندهم فى العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ فنزدرى بهم ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار. وقيل: لا يقام لهم ميزان؛ لأنّ الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين. وقرئ: فلا يقيم، بالياء. فإن قلت: الذين ضل سعيهم فى أى محل هو؟ قلت:

---

(١) قوله «كأنهم أصميت أسماعهم» فى الصحاح فى مادة صمم: أصمه الله فصم. وفى مادة صما بالألف: أصميت الصيد إذا رميته فقتلته، فقوله: أصميت، لعله بمعنى أهلكت بالمرة بحيث لا يمكن أن تسمع. (ع)

الأوجه أن يكون فى محل الرفع ، على : هم الذين ضل سعيهم ؛ لأنه جواب عن السؤال . ويجوز أن يكون نصباً على الذم ، أو جرا على البدل ﴿جهنم﴾ عطف بيان لقوله (جزاؤهم) .[1]

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

الحول : التحول . يقال : حال من مكانه حولا ، كقولك : عادنى حبها عودا ، يعنى : لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم . وهذه غاية الوصف ؛ لأن الإنسان فى الدنيا فى أى نعيم كان فهو طامح الطرف إلى أرفع منه . ويجوز أن يراد نفى التحول وتأكيد الخلود .

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

المداد : اسم ما تمد به الدواة من الحبر وما يمد به السراج من السليط . ويقال : السماد مداد الأرض . والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها ، والمراد بالبحر الجنس ﴿لنفد البحر قبل أن تنفد﴾ الكلمات ﴿ولو جئنا﴾ بمثل البحر مداداً لنفد أيضاً . والكلمات غير نافدة . و﴿مددا﴾ تمييز ، كقولك : لى مثله رجلا . والمدد مثل المداد ، وهو مايمد به . وعن ابن عباس رضى الله عنه : بمثله مدادا . وقرأ الأعرج : مددا : بكسر الميم جمع مدة ، وهى مايستمده الكاتب فيكتب به . وقرئ : ينفد بالياء . وقيل : قال حيى بن أخطب : فى كتابكم (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) ثم تقرءون (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فنزلت ، يعنى : أن ذلك خير كثير ، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه﴾ فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه ، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول . وقد فسرنا اللقاء . أو : أفمن كان يخاف سوء لقائه . والمراد بالنهى عن الإشراك بالعبادة :

(١) قوله «عطف بيان لقوله جزاؤهم الحول» كذا فى النسفى أيضا ، لكن المتجه أنه بيان لقوله (ذلك) الذى هو إشارة لما مر فى قوله (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) . (ع)

أن لا يرائى بعمله ، وأن لا يبتغى به إلا وجه ربه خالصاً لا يخلط به غيره . وقيل : نزلت فى جندب ابن زهير ، قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى أعمل العمل لله ، فإذا اطلع عليه سرنى ، فقال : «إن الله لا يقبل ما شورك[١] فيه» وروى أنه قال : «لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية»[٢] وذلك إذا قصد أن يقتدى به . وعنه صلى الله عليه وسلم : «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال «الرياء»[٣] وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»[٤] وعنه صلى الله عليه وسلم : «من قرأ عند مضجعه (قل إنما أنا بشر مثلكم) كان له من مضجعه نوراً يتلألأ إلى مكة ، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم ، وإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ»[٥] والله أعلم .

---

(١) أخرجه الواحدى فى الأسباب عن ابن عباس ولم يسق سنده .

(٢) أخرجه الترمذى وابن ماجه . وابن حبان . وأبو يعلى . والبزار عن أبى هريرة . قال قال رجل «يا رسول الله ، إنى أعمل العمل فيطلع عليه فيعجبنى . قال لك أجران . أجر السر . وأجر العلانية» أخرجوه كلهم من حديث ابن سنان سعيد بن سنان عن حرب بن أبى ثابت عن أبى صالح عنه . قال الترمذى رواه الأعمش عن حبيب عن أبى صالح مرسلا . وقال ابن أبى حاتم قال أبى الصحيح عندى مرسل ، رواه يوسف بن أسباط عن الثورى عن حبيب . عن أبى صالح عن أبى ذر وأخرجه أبو نعيم فى الحلية . وقال : لم يقل أحد عن أبى ذر إلا ابن أسباط . ورواه يحيى بن يمان عن الثورى فقال عن ابن مسعود . أخرجه الطبرانى ، قال أبو نعيم . ورواه قبيصة عن الثورى فقال عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه ,

(٣) أخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة بهذا ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبى . وأبو قاسم الطلحى فى الترغيب . وفى الباب عن محمود بن لبيد . ورفعه «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال الرياء» أخرجه أحمد والدارقطنى . فى غرائب مالك والبيهق . فى الشعب من رواية عمرو بن أبى عمرو بن قتادة عنه . وعن شداد بن أوس قال «كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشرك الأصغر» أخرجه الطبرانى وابن مردويه . وفى إسناده ابن لهيعة .

(٤) أخرجه أحمد والنسائى من حديث معاذ بن أنس . وفى إسناده ابن لهيعة . أخرجه الطبرانى من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن زياد بن فايد وهم من الضعفاء .

(٥) أخرجه إسحاق والبزار من رواية النضر بن شميل . حدثنا أبو فررة الأسدى رجل من أهل البادية . سمعت سعيد بن المسيب يحدث عن عمر رفعه «من قرأ فى ليلته (فمن كان يرجو لقاء ربه الآية) . كان له نور من عدن إلى مكة حشوه الملائكة» ورواه الثعلبى من هذا الوجه . «وزاد يصلون عليه ويستغفرون له» ورواه ابن مردويه من حديث أبى بن كعب باللفظ الأول وقد سبق سنده فى آل عمران .

فهرست

الجزء الثاني

من تفسير الكشاف للزمخشري

تم بعون الله تعالى الجزء الثاني؛ ويليه ـ إن شاء الله ـ الجزء الثالث

وأوله: سورة مريم

